روبرت موزيل

رجل بلا صفات

ترجمة: محمد جديد

رواية

روايـة

المؤلف: روبرت موزيل
عنوان الكتاب: رجل بلا صفات
ترجمة: محمد جديد
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٤

جميع الحقوق محفوظة

Author: Robert Musil
Title: Der Mann Ohne Eigenschaften
Translator: Muhammed Jdid
P.C.: Al-Mada
First Edition: 2014

Copyright ©Al-Mada.

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول -
تلفاكس: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٦ - ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٧
www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: info@almada-group.com
www.almada-group.com

لا يجوز نشر أيّ جزء من هذا الكتاب أو تخزين أيّ مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أيّ نحو، أو بأيّ طريقة سواء كانت الكترونيّة أو ميكانيكيّة، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلّا بموافقة كتابيّة من الناشر ومُقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reprocuced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means: electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

ISBN: 978-2843061882

twitter @baghdad_library

روبرت موزيل

رجل بلا صفات

ترجمة:
محمد جديد

الكتاب الأوّل ـــ القسم الأول

نوع من التمهيد

twitter @baghdad_library

[١]

ما يُلاحَظ أنّه لا يُفضي إلى شيء

كان الأطلسيُّ يسوده حد أدنى من الضغط الجويّ وكان هذا ينتقل شرقاً صوب حد أقصى يخيّم على روسيا ولمّا يَشِ بعدُ بالميل إلى الحيدان عن هذا شمالاً وكانت خطوط التماثل الحراريّ تؤدي ما عليها وكانت درجة حرارة الهواء منتظمة العلاقة مع معدلها الوسطيّ السنوي فهي متناسبة مع درجة حرارة الشهر الأكثر برداً كما أنّها متناسبة مع درجة حرارة الشهر الأكثر دفئاً ومع ذبذبات الحرارة الشهرية اللادورية. وكان شروق الشمس والقمر وغروبهما وتبدُّل الضوء في القمر وفي كوكب الزهرة وفي حلقة زحل وكثيرٌ من الظواهر الأخرى ذوات الدلالة تتطابق مع التنبؤ بهما في الحوليات الفلكيّة. وكان بخار الماء في الهواء يبلغ أقصى توتره وكانت رطوبة الجوّ ضئيلة. وبعبارة موجزة تعبّر عمّا هو واقعي تعبيراً جيّداً حقاً وان كانت قديمة من حيث الزيّ الشائع: كان هذا يوماً جميلاً من أيام آب العام ١٩١٣.

وكانت السيارات تنطلق من أعماق الشوارع الضيّقة إلى سطحية الساحات المشرقة وكانت ظلمة المشاة تشكّل خيوطاً غماميّة. فحيثما كانت الخطوط الأقوى للسرعة تنطلق عبر سرعتهم الأضعف كانوا يتكاثفون وينهمرون بعد ذلك بسرعة أكبر ثم يستعيدون بعد قليل من ذبذبات نبضهم المتوازن. وكانت المئات من الايقاعات تتشابك بعضها مع بعض في صخب شائك كالأسلاك إذ كانت تبرز منه رؤوس مدبّبة متفرقة وكانت تجري على طوله حوافٌ حادة ثم تعود إلى الاستواء من جديد وكانت تنفصل عنه إيقاعات واضحة وتتلاشى وقد

كان الإنسان خليقاً بعد غياب يمتدّ سنين أن يتبيَّن من هذا الصخب بدون أن يكون من الممكن وصف خصوصيّته وهو مغمض العينين أنّه يوجد في عاصمة الرايخ وحاضرة الملك فالمدن يمكن التعرف عليها شأن البشر على أنّه خليق إذا كان مفتوح العينين أن يستخلص الشيء ذاته من خلال الأسلوب الذي تجري به الحركة في الشوارع استخلاصاً أسبق إلى حدٍّ بعيد مِمّا يفعل ذلك من خلال أيٍّ من التفاصيل المعبّرة ولئن كان يتوهّم المقدرة على ذلك مجرّد توهم فإنَّ هذا لا يضير في شيء أيضاً. على أن المغالاة في تقدير مسألة أين يوجد المرء ترجع إلى عصر الهمجيّة حيث كان على المرء أن يلاحظ أماكن العلف. وقد يكون من المهمّ أن يعرف المرء لماذا يُكتفى في حالة الأنف الأحمر بأنه أحمر ولا يُسأل أبداً عن أيّة حمرة خصوصيّة يتسّم بها على الرغم من أن هذا يمكن التعبير عنه بوساطة طول الموجات بدقَّة تبلغ الميكرو ميليمتر على حين يودّ المرء في مقابل ذلك وهو حيال شيء أكثر تعقيداً إلى حدٍّ بعيد كما هو الحال في الكيفيَّة التي تكون عليها مدينة ما يقيم المرء فيها أن يعرف دائماً بدقَّة مطلقة أيّة مدينة تكون هذه على وجه الخصوص فهذا يصرف عمّا هو أهم.

واذاً فينبغي ألّا تعلّق أهمِّية خصوصيّة على إسم المدينة فقد كانت شأن كلّ المدن الكبرى تأتلف من خروج على القاعدة وتبدُّل واندفاع وعدم انسجام في الخطى وتصادم بين الأشياء فالأمور وفيما بين ذلك نقاط من السكون لا قرار لها ومن خطوط وممّا هو غير مخطَّط ومن خط إيقاعيّ كبير ومن الاختلال والتحويل الأبديَّيْن للإيقاعات بعضها إزاء بعض وكانت على الإجمال تحاكي فقاعة تغلي وهي مستقرة في إناء يتألّف من المادة الدائمة للبيوت والشرائع والتنظيمات والروايات التاريخية. أما الإنسانان اللذان كانا ذاهبين صعوداً في شارع عريض مفعم بالحياة فلم يكونا ينطويان بالطبع على هذا الإنطباع أبداً. كانا ينتميان انتماءً واضحاً إلى طبقة اجتماعية تتمتَّع بالإمتياز وكانا يتسّمان

twitter @baghdad_library

بالنبل في الملبس والمظهر وفي الأسلوب الذي كانا يتحادثان به فيما بينهما وكانا يحملان حروف البداية من اسمائهما على ملابسهما المطرّزة على نحو له أهميته وكانا على النحو ذاته أيّ ليس على نحو معكوس نحو الخارج أيّ في الملابس الداخلية الرقيقة من وعيهما يعرفان من يكونان وأنّهما كانا موجودين في مكانهما في عاصمة وحاضرة للمُلْك ولنفرض إنهما يدَّعيان آرنهايم وإميلندا توتسي ولكنَّ هذا غير صحيح لأنّ السيِّدة توتسي كانت موجودة في آب بصحبة زوجها في باد أوسْزيه وكان الدكتور آرنهايم مايزال في القسطنطينية وعلى هذا يواجه المرء لغز من يكونان. على أن البشر المفعمين بالحيّوية يحاطان بأمثال هذه الألغاز في كثير جداً من الأحيان في الشوارع على أن الملاحظ أنّها تنحلّ بأن ينساها المرء إذا كان لا يستطيع خلال الخطوات الخمسين التالية أن يتذكّر أين رأى كليهما من قبل. ثم أنَّ هذين كليهما أمسكا الآن عن الخطو فجأة إذ لاحظا أمامهما تجمّعاً وكان شيء ما قد وثب خارجاً عن نسقه قبل ذلك بلحظة وحدثت حركة في اتجاه عرضانيّ وانفتل شيء ما وانزلق جانباً وكان ذلك سيّارة شحن ثقيلة كما تبيّن الآن حيث كانت تقف وإحدى عجلاتها على حافة الطوار. وفي مثل لمح البصر كان قد تجمَّع أناس حول بقعة صغيرة تركوها خالية في الوسط كالنحل حول فوهة الخلية. وكان السائق يقف بينهم وقد نزل من سيّارته الرماديّة اللون كورق التغليف وأعلن عن الحادث بتعبيرات خشنة وتوجَّهت أنظار القادمين نحوه ثم هبطت بحذر إلى عمق الحفرة حيث كان قد سُجّي رجل يرقد كالميت على حافة الطوار وكان قد أصابه الأذى من جرّاء شروده كما سُلِّم بذلك على وجه العموم وكان الناس يجثون لديه متعاقبين ليبدأوا معه شيئاً ما وقد فتحوا ثوبه وعادوا فأغلقوه وحاولوا أن ينهضوه أو على النقيض من ذلك أن يرقدوه من جديد. وفي الحقيقة لم يكن أحد يريد شيئاً سوى أن يزجي الوقت بذلك إلى أن يأتي خبراء الإسعاف والمعونة المأذونة.

وكذلك كانت السيِّدة ومرافقها قد تقدما وتأمّلا الراقد من فوق الرؤوس والظهور المحنيّة ثم انسحبا وتردّدا وشعرت السيِّدة بشيء غير مستحسن في تجويف القلب والمعدة وكان من حقها أن تعدّه من قبيل التعاطف وكان ذلك شعوراً يفتقر إلى التصميم ويبعث الشلل. وقال السيِّد لها بعد شيء من الصمت: «ان سيّارات الشحن الثقيلة هذه مدى للكوابح المفرطة في الطول» وشعرت السيِّدة من جراء ذلك بشيء من الإرتياح وشكرت له بنظرة تنطوي على الانتباه. وكانت قد سمعت من قبل بهذه الكلمة في بعض الأحيان غير أنّها لم تكن تعلَّم ماذا يعني مدى الكوابح ولم تكن تريد أن تعلَّم ذلك أيضاً وكان يكفيها أن هذا الحادث الفظيع يمكن أن يُسوّى أمره عن طريق أيّ نظام كان وأنّه تحوّل إلى مشكلة تقنيّة ما عادت تعنيها بصورة مباشرة. وكان القوم قد سمعوا الآن أيضاً صفّارة عربة إسعاف تدوّي وقد أفعمت سرعة وصولها المنتظرين بالإرتياح. هذه المؤسَّسات الإجتماعية جديرة بالإعجاب. ورفع القوم المصاب على محفّة ودفعوه بها في السيارة. وكان رجال في بزّات رسميّة يعنون به. وكان داخلُ المركبة الذي يدركه البصر يبدو شديد النظافة والتنظيم كأنه قاعة مستشفى. وانصرف القوم وقد انطوَوْا تقريباً على انطباع له ما يبرره وهو أنّ حدثاً قانونياً ونظامياً قد حدث. ولاحظ السيِّد قائلاً: «تفيد الاحصاءات الأمريكية أنّ ١٩٠ ألف شخص يقتلون هناك سنوياً بالسيارات ويصاب ٤٥٠ ألف».

وسألت مرافقته: «أتراه ميتاً؟» وكانت ماتزال تشعر شعوراً ليس له ما يبرره بأنها شهدت شيئاً له خصوصيته.

ورد السيِّد قائلاً: «آمل أن يكون حياً إذ كان يبدو كذلك حين رفعه القوم إلى العربة».

twitter @baghdad_library

[٢]

منزل الرجل بلا صفات ومسكنه

كان الشارع الذي حدث فيه هذا الحادث يشكّل واحداً من قنوات المرور الطويلة الملتوية التي كانت تنبثق بصورة شعاعية لدى نواة المدينة وكانت تخترق القطاعات الخارجية وتصب في الضواحي. ولو أن الزوجين الأنيقين تابعاه بعد ذلك حيناً لرأيا شيئاً كان خليقاً أن يروق لهما بلا ريب وكان هذا حديقة متبقية جزئياً من القرن الثامن عشر أو حتى من القرن السابع عشر. وعندما كان المرء يمر بسورها المصوغ من الحديد كان يرى بين الأشجار على العشب المقصوص بعناية شيئاً كالقصر الصغير ذي الأجنحة القصيرة قصراً صغيراً للصيد أو للغرام من العصور الغابرة. وبتعبير دقيق كانت قنطرته الحاملة من القرن السابع عشر وكانت الحديقة والطابق العلوي يتسّمان بمظهر القرن الثامن عشر. أما الواجهة فقد جددت في القرن التاسع عشر وتعرَّضت لشيء من الفساد. وعلى هذا كان المجموع ينطوي على معنى مهزوز مثل صور صُوِّر بعضها فوق بعض. ولكنَّ المسألة كانت على نحو لا يعدم أن يظلّ المرء معه واقفاً ويقول: «آه آه» وعندما يكون القصر الأبيض الظريف الجميل قد فتح نوافذه كان المرء يطل على الهدوء النبيل لجدران من الكتب في مسكن من مساكن أهل العلم كان هذا المسكن وهذا البيت يعود إلى الرجل بلا صفات الذي كان يقف وراء إحدى النوافذ وهو ينظر من خلال المصفاة الرقيقة لهواء الحديقة إلى الشارع الضارب إلى السمرة ويعدّ بالساعة منذ عشر دقائق السيارات والعربات والحافلات ووجوه المشاة الباهتة عن بُعد والتي اتت تملأ

شبكة البصر بسرعة متقلّبة. وكان يقدِّر السرعات والزاوية والطاقة الحيَّة للجماهير العابرة بحركتها والتي كانت تشد العين اليها بسرعة البرق وتمسك بها وتطلق سراحها والتي تقسر الإِنتباه خلال مدة لا يوجد مقياس لها على أن يتصدى لها وينتزع نفسه منها ويثب إلى أقربها ويرمي بنفسه على هذا وجملة القول أنّه عمد بعد أن قام بحسابٍ في ذهنه حيناً إلى ادخال الساعة في جيبه وقرّر أنّه كان يمارس العبث وهل يمكن للمرء أن يقيس وثبات الإِنتباه وكفاءات عضلات العينين والحركات النوّاسية للنفس وكل الجهود التي يجب على الإنسان أن يبذلها ليحافظ على نفسه في تيار الشارع إذاً لنتج فيما يظن - وهذا ما كان يحسبه ويحاول أن يقدِّر حساب المستحيل على سبيل اللعب - ضخامة تعدّ القوّة التي يحتاج إليها أطلس لينهض بالعالم ضئيلة بالقياس إليها. وربّما كان في وسع المرء أن يقدِّر أيّ انجاز هائل يحقّقه اليوم الإنسان الذي لا يعمل شيئاً البتة.

ذلك لأنّ الرجل بلا صفات كان في اللحظة الراهنة مثل هذا الإنسان أو كان امرءاً يعمل. قال في نفسه: «في وسع المرء أن يستخلص من ذلك نتيجتين:

الطاقة العضلية لمواطن يقطع طريقه بهدوء طوال يوم أكبر إلى حدٍّ بعيد من طاقة رياضي يرفع مرّة في اليوم ثقلاً هائلاً وهذا أمر تمَّ إثباته من الوجهة الفيزيولوجية وعلى هذا فإنَّ مِمّا لا ريب فيه أيضاً أن الطاقات الصغيرة في الحياة اليوميّة تشكِّل في العالم بمجموعها الإِجتماعي وعن طريق ملاءمتها لهذا التجمع قدراً من الطاقة أكبر كثيراً من الأعمال البطولية بل ان العمل البطولي يبدو هو على وجه الخصوص ضئيلاً كلّ الضآلة كذرة من الرمل توضع مع شيء خادع هائل على جبل. وراقت له هذه الفكرة.

twitter @baghdad_library

ولكن يجب أن يضاف إلى ذلك أنّها لم تَرُقْ له مثلاً لأنّه يحبّ الحياة المدنيّة بل راق له مجرّد أن ينثر الصعوبات في وجه ميوله التي كانت مختلفة فيما سلف. فهل عسى أن يكون المواطن المحدود الأفق هو على وجه الخصوص من يستطلع متنبئاً بداية بطولة هائلة جديدة جماعية على غرار النمل وسوف تسمّى بطولة عقلانية وتجد الإستحسان الكبير. فمن يستطيع أن يوفي هذا منذ اليوم!؟. ولكنَّ أمثال هذه الأسئلة غير المجاب عنها وذات الأهميّة العظمى كانت موجودة في تلك الأيام بالمئات. لقد كانت ماثلة في الهواء وكانت تستعر تحت الأقدام وكان الزمن يتحرّك. على أن أولئك الذين لمّا يعيشوا بعدُ في تلك الأيام يأبون أن يعرفوا ذلك. ولكنَّ حتى في تلك الأيام كان الزمن يتحرَّك بسرعة جمل الركوب. وليس اليوم فحسب ـ إلّا أن المرء لم يكن يعرف إلى أين ولم يكن المرء يستطيع أيضاً أن يميّز حقاً ما كان في الأعلى وما كان في الأسفل وما كان يتقدَّم وما كان يتراجع. وقال الرجل بلا صفات لنفسه وهو يهز كتفيه: «في وسع المرء أن يفعل ما يشاء فالمسألة لا تتوقَّف أدنى توقّف على ذلك في هذه الطبقة الكثيفة من القوى!».

وأعرض شأن الإنسان الذي تعلَّم كيف يتخلّى بل كاد يكون كالإنسان المريض الذي يجفل من كلّ تماس شديد وحين مرّ وهو يعبر بخطواته حجرة الملابس المجاورة لكرة الملاكمة التي كانت معلقة هناك وجّه إلى هذه ضربة بلغت من السرعة والعنف ما لم يكن مألوفاً على وجه الخصوص في أحوال الإستسلام أو ظروف الضعف.

[٣]

وكذلك يمكن للرجل بلا صفات أن يكون له أب ذو صفات

والحق أنَّ الرجل بلا صفات كان حين عاد من الخارج قد استأجر وكان ذلك في الحقيقة بدافع الغرور فحسب ولأنّه كان يكره المساكن المألوفة هذا القصر الصغير الذي كان فيما مضى مقراً صيفيّاً يقع أمام أبواب المدينة والذي فقد مكانته حين تجاوزته المدينة الكبرى في نموها وبات آخر الأمر لا يمثّل إلّا عقاراً مهجوراً ينتظر ارتفاع أسعار الأراضي وما كان يسكنه أحد وكان عائد الإيجار بناء على ذلك ضئيلاً. ولكنَّ ما تلا ذلك كلَّف الكثير من المال على غير ما كان منتظراً وهو إقامة كلّ شيء من جديد وربطه بمقتضيات الحاضر. لقد تحوّل هذا إلى مغامرة أرغمته خاتمتها على التوجّه نحو معونة والده الأمر الذي لم يكن مستحسناً عنده في حال من الأحوال لأنّه كان يحبّ استقلاله وكان في الثانية والثلاثين من العمر وكان أبوه في التاسعة والستين. وتولىَّ السيِّد الشيخ الفزع ولم يكن ذلك في الحقيقة من جراء المباغتة وإنْ كان ذلك من جرائها أيضاً إذ كان يكره التسرّع

كلّا ولم يكن من جرّاء الاسهام الذي كان عليه أن يتحمّله إذ كان في الأساس يستغرب أن يكون ابنه قد أعرب عن الحاجة إلى الجو المنزلي والنظام الخاص به غير أنّ حيازة مبنى لم يكن للمرء مندوحة عن أن يشعر بأنه قصر وإنْ كان ذلك في الصيغة المصغرة كان يجرح شعوره ويبعث فيه الخوف من حيث كونه صلفاً ينذر بالسوء.

twitter @baghdad_library

أما هو نفسه فكان قد بدأ معلِّماً خصوصياً في منازل كبار الأمراء وطالباً وهو مايزال بعد مساعداً شاباً لمحامٍ وكان ذلك في الحقيقة بغير ضائقة إذ كان أبوه نفسه رجلاً موسراً - ولكنَّ حين غدا بعد ذلك مدِّرساً بالجامعة وأستاذاً شعر بأنه كوفىء على ذلك إذ كان مِمّا عادت عليه به الرعاية المترفة لتلك العلاقات. الآن بات شيئاً فشيئاً يتبوّأ مكان المستشار القانوني للنبلاء وطبقه الاقطاعيين كلّهم تقريباً على الرغم من أنّه ما عاد الآن على وجه الخصوص يحتاج إلى مهنة جانبية. بل أنَّ هذه العلاقات المكتسبة في الصبا والموطَّدة في سن الرجولة لم تنته إلى الجمود بعد زمن طويل كانت فيه الثروة التي اكتسبها بذلك لا تحتمل المقارنة حتى مع دوطة أسرة صناعية من الراين دخل بها في الزواج من أم ابنه المتوفاة في وقت مبكر.

وعلى الرغم من أن العلّامة الذي تبوّأ مكان الشرف قد اعتزل الآن العمل الحقيقي في القانون وما عاد يمارس إلّا عمل الخبير الباهظ الأجر من حين إلى آخر فقد تمَّ تدوين كلّ الأحداث التي كانت تمتّ بصلة إلى أولياء نعمته السابقين بعناية في مذكّرات خاصة منقولة بدقَّة كبيرة من الآباء إلى الأبناء والأحفاد ولم يكن يمر إنعامٌ ولا عرس ولا يوم ميلاد أو عيد إسمٍ بدون كتاب يهنىء المتلقِّي من خلال مزيج لطيف من التبجيل والذكريات المشتركة. وكانت تتوارد في مواعيد دقيقة على النحو ذاته عقب ذلك في كلّ مرّة أيضاً رسائل جوابية تشكر للصديق العزيز والعلّامة المبجَّل وهكذا عرف ابنه منذ صباه هذه الموهبة الأرستقراطية الماثلة في كبرياء لا شعورية ولكنّها متَّزنة بلا ريب وهي الكبرياء المحدَّدة على الوجه الصحيح تماماً بحدود صداقة من الصداقات وكانت استكانة إنسان ينتمي على كلّ حال إلى نبلاء الثقافة أمام أصحاب الخيل والأراضي والتقاليد تثيره دائماً. غير أنَّ ما كان يجعل والده غير حساس تجاه ذلك لم يكن الحساب. فبدافع طبيعي تماماً خلّف وراءه

بمثل هذه الطريقة مسيرة طويلة فلم يعدّ استاذاً وعضواً في المجامع العلميّة وفي كثير من اللجان العلميّة والحكوميّة فحسب بل غدا أيضاً فارساً وذا مرتبة عالية وحصل من الأوسمة العليا على الصليب الأكبر وفي النهاية رفعه صاحب الجلالة إلى طبقة النبالة الوراثية وكان قد عيَّنه من قبل عضواً في مجلس الأعيان وهناك كان ذلك المتميّز قد انضم إلى الجناح البورجوازي ذي التفكير الحر الذي كان في بعض الأحيان يقف على طرف النقيض من طبقة كبار النبلاء. ولكنَّ مِمّا له دلالته أنّه ما من أحد من أولياء نعمته من النبلاء حمل له ذلك على محمل السوء أو استغرب ذلك مجرّد استغراب ولم يكن القوم قدّ رأوا فيه أبداً شيئاً آخر سوى روح البورجوازية الطامحة. وكان السيِّد الشيخ يسهم في الأعمال الفنِّية الخاصّة بالتشريع. وحتى عندما كان التصويت على نزاع يراه على الجانب البورجوازي لم يكن القوم على الجانب الآخر يحسّون بالمودّة من جرّاء ذلك بل كانوا أقرب إلى الشعور بأنه لم يُدْعَ ولم يكن في السياسة يفعل شيئاً آخر سوى ما كان منذ أيامه يمثّل وظيفته وهي أن يجمع بين معرّفة متفوّقة ومحسّنة تحسيناً لطيفاً في بعض الأحيان وبين الإنطباع القائم على أن المرء يستطيع مع ذلك أن يعتمد على ولاء الشخصيّة وكان قد انتقل بذلك كما كان يزعم ابنه بدون تغيير جوهري من المعلّم الخصوصيّ إلى المعلّم الخصوصي للسادة.

وعندما اطلع على القصّة الخاصّة بالقصر بدت له تجاوزاً لحدود لم ترسم في القانون على أن ذلك أحرى أن يدعو إلى احترامها. وأخذ على ابنه مآخذ كانت أشد مرارة من المآخذ الكثيرة التي كان قد أخذها عليه على مرّ الأيام بل بدت على وجه الخصوص كالتنبؤ بعاقبة وخيمة بدأت الآن. فلقد أهين الشعور الأساسي في حياته. وكان هذا الشعور كما هو الحال عند كثير من الرجال الذين يبلغون شيئاً له شأنه يتألّف بعيداً عن المنفعة الخاصّة من حبٍّ

twitter @baghdad_library

عميق لما هو نافع على الصعيد العام وغير الشخصي كما يقولون وبعبارة أخرى من تمجيّد مخلص لما يبني المرء عليه منفعته لا لأنّه يبنيه بل في تواؤم متزامن مع هذا وبدافع أسباب عامة. وهذا أمر له أهمّية كبرى. فحتى الكلب يلتمس مكانه تحت المائدة فلا تضلّله صدمات الأقدام لا عن وضاعة كلبية مثلاً بل بدافع التعلّق والإخلاص. على أنَّ البشر الذين يحسبون الحساب المتأنيّ هؤلاء أنفسهم لا يصيبون من النجاح نصف ما تبلغه النفوس المختلطة على الوجه الصحيح والتي تقدر على الإحساس العميق حقاً بالبشر والعلاقات التي تعود عليها بالمزايا.

[٤]

إذا كان هناك روح خاصة بالواقع فلا بدَّ أن يكون هناك روح خاصة بالممكن أيضاً

عندما يريد المرء أن يدخل مدخلاً حسناً من خلال الأبواب المفتوحة فعليه أن يراعي حقيقةً أنَّ لها إطاراً ثابتاً وهذا المبدأ الذي كان الأستاذ الشيخ قد عاش عليه دائماً يعدّ ببساطة من مقتضيات روح الواقع. ولكنَّ إذا كان هناك روح للواقع ولن يرتاب أحد في أن لها ما يبرّر وجودها فلا بدّ أن يوجد أيضاً شيء يستطيع المرء أن يسمِّيه روح الممكن.

ومن يحوزها لا يقول مثلاً هناك حدث هذا أو ذاك أو سيحدث أو لا بدَّ أن يدحث بل يخترع قائلاً: «هنا كان من الممكن أو كان ينبغي أو كان من الواجب أن يحدث هذا أو ذاك. وعندما يقال له عن أيّ شيء أنّه على الصورة التي هو عليها يفكِّر قائلاً: «ولكن كان من الممكن على ما يبدو أن يكون على صورة أخرى أيضاً. وعلى هذا يمكن لمعنى الممكن أن يُعرَّف على وجه الخصوص بأنه إمكانية التفكير في كلّ ما كان يمكن أن يكون بالقدر ذاته وبأن ما هو كائن لا ينبغي أن يؤخذ على أنّه أكثر أهمِّية مِمّا ليس بكائن. ويرى المرء أنَّ نتائج مثل هذا الإستعداد الإبداعي يمكن أن تكون جديرة بالملاحظة. ومِمّا يؤسَف له أنّه ليس من النادر أن تجعل ما يعجب به الناس يبدو خاطئاً وما يحذرونه مباحاً أو تجعل كليهما أيضاً يبدو غير باعث للمبالاة بلا ريب. وأمثال هؤلاء من أهل الممكن يعيشون كما يقال في طيف أكثر رقّة في طيف من البخار والخيال والأحلام والصور الإفتراضية. أمّا الأطفال الذين ينطوون

twitter @baghdad_library

على تعلّق بهذا فيخرجه المرء من نفوسهم بإلحاح ويسمّي الناس أمثال هؤلاء البشر أمامهم خياليّين أو حالمين أو ضعفاء أو متحذلقين أو عيّابين.

وعندما يريد المرء أن يمتدحهم يسمَّي هؤلاء المجانين أيضاً مثاليّين غير أنّ الظاهر أنّ مايتمّ تناوله بكلّ ذلك إنما هو مجرّد نوعهم الضعيف الذي لا يستطيع أن يدرك الواقع أو يتحاشاه متشكّياً أيّ حيث يعني غياب روح الواقع نقصاً بالفعل. ومع ذلك فإنَّ الممكن لا يشمل الأحلام عند الشخصيّات ذوات الأعصاب الضعيفة فحسب بل يشمل أيضاً مقاصد الرب التي لم تنبعث بعد. فالتجربة الممكنة أو الحقيقة الممكنة ليستا شأن المعاناة الفعلية والحقيقة الفعلية أقلّ قيمة من التجربة الواقعية بل تنطويان تبعاً لوجهة نظر أتباعهما على الأقل على شيء إلهي جداً على نار على طيران وإرادة بناء وطوباوية واعية لا تتهيّب الواقع بل تعامله على أنّه رسالة وابتكار. وفي النهاية فإن الأرض ليست على الإطلاق بالعجوز ولاظاهر أنّها لم يتح لها قط ظروف مباركة على نحو مُؤاتٍ إلى هذا الحد. وعندما يريد الآن أن يميّز بطريقة مريحة أهل عقلية الواقع وأهل عقلية الممكن بعضهم من بعض فإنه يحتاج إلى مجرّد التفكير في مبلغ معيَّن من المال. فكل ما تتضمّنه على سبيل المثال ألف من الماركات من الإمكانات على نحو مطلق إنما تتضمّنه حقاً وبلا ريب سواء ملكها المرء أم لم يملكها. أما حقيقة أن الذي يملكها هو حضرتي أو حضرتك فلا تضيف إليها شيئاً إلا بمقدار ما تضيف إلى وردة أو امرأة. غير أن المجنون يدسُّها في الجراب كما يقول أهل الواقع والشاطر يعمل بها شيئاً. بل إنّ مِمّا لا يُنكَر أن جمال المرأة يضاف إليه أو يؤخذ منه شيء من قِبَل من يحوزها. إنّه الواقع الذي يبعث الإمكانات وما من شيء يعدّ معكوساً مثل إنكار هذا. ومع ذلك فستظل الإمكانات المتماثلة التي تتكرّر هي ذاتها دائماً على الإجمال أو في المتوسّط إلى أن يأتي إنسان لا تعود القضيَّة الواقعية تعني بالقياس إليه أكثر من

قضية مُتَصوَّرة. وهو الذي يكون أوّل من يضفي على الإمكانات الجديدة معناها وقاعدتها ويتّبعها.

غير أن مثل هذا الرجل ليس بحال من الأحوال مسألة شديدة الجلاء. وذلك أنّ أفكاره مادامت لا تعني أضغاث أحلام لا غناء فيها لا تمثّل شيئاً سوى ضروب من الواقع لمّا تولّد بعد أن كان هو أيضاً ينطوي بالطبع على روح الواقع غير أنّها روح تتصل بالواقع الممكن وهي تصل إلى الهدف وصولاً أبطأ إلى حدٍّ بعيد من الروح الخاصّة التي يتميّز بها معظم الناس حيال إمكاناتهم الواقعية. فكأنه يريد الغابة ويريد الآخر الأشجار. فأمّا الغابة فهي شيء يصعب التعبير عنه على حين أن الأشجار تعني القدر الفلاني من الأمتار المكعبة ذات المواصفات المعيَّنة. أو ربّما يعبّر المرء عن هذا بصورة مختلفة على نحو أفضل إذ يكون الرجل المتَّسم بروح الواقع العاديّة مشابهاً لسمكة تتلقّف الصّنارة ولا ترى الحبل بينما يجرّ الرجل المتَّسم بتلك الروح الواقعية التي يستطيع المرء أيضاً أن يسمّيها روح الممكن حبلاً في الماء ولا يدري هل يوجد عليه طُعم. فاللامبالاة الفائقة بالحياة التي تعضّ عنده على الطعم يواجهها خطر الإقدام على أشياء تتَّسم بغرابة الأطوار بصورة كاملة. والرجل غير العملي ـ وليس هذا ما يظهر به فحسب بل هذا ما هو عليه أيضاً ـ يظلّ امرءاً لا يعتمد عليه وممَّن لا يتروّى في علاقته مع البشر وهو خليق أن يرتكب أفعالاً تعني بالقياس إليه شيئاً يختلف عمّا تعنيه لدى الآخرين غير أنّه يطمئن إلى كلّ شيء بمجرّد أن يستجمع ذاته في فكرة لها شأنها. على أنّه مازال حتى اليوم فوق ذلك بعيداً عن المنطقيّة بعداً شاسعاً. وذلك أنَّ من الممكن بسهولة كبيرة أن تبدو له الجريمة التي تلحق الأذى بامرىء آخر مجرّد أداء اجتماعي خائب لا يتحمّل المجرم وزره بل المؤسَّسة الإجتماعية على أنَّ المشكوك فيه في مقابل ذلك هو أن تبدو له الصفعة التي يتلقّاها هو نفسه عار على المجتمع

twitter @baghdad_library

أو تبدو له على الأقل بعيدة عن السمة الشخصيّة كعضة، الكلب فالراجح أنّه سيردّ على الصفعة أوّلاً ثم سيدرك بعد ذلك أنّه ما كان ينبغي له أن يفعل هذا. ثم أنّه عندما ينتزع المرء منه حبيبة فسيظل حتى اليوم لا يستطيع أن يصرف النظر تماماً عن واقعية هذا الحدث وأن يعوّض نفسه بشعور مفاجىء جديد. وهذا التطوّر مايزال في الوقت الراهن آخذاً مجراه وهو يعني بالقياس إلى الإنسان الفرد ضعفاً مثلما يعني قوة.

ولما كان امتلاك الصفات يفترض سروراً معيَّناً بواقعها فإن هذا يتيح المجال للنظر في الكيفيَّة التي يمكن بها لامرىءٍ لا يخرج حيال نفسه ذاتها بروح واقعية أن يحدث له فجأة أن يبدو في نظر نفسه ذات يوم رجلاً بلا صفات.

[٥]

أولْريش

كان الرجل بلا صفات الذي يجري الحديث عنه هنا يدعى أولريش. وكان أولريش ـ وليس من المستحسن أن نسمّي دائماً باسم المعمودية من لا نعرفه بعدُ إلّا معرّفة عابرة تماماً! ولكنَّ اسم عائلته يجب أن يكتم مراعاة لأبيه ـ قد أدى الاختبار الأوّل الطراز لِعقليته منذ كان على الحدود بين سن الصبيّ وسن الفتى اليافع في موضوع انشاء مدرسي كانت الوظيفة فيه فكرة وطنية. وكانت الوطنيّة في النمسا موضوعاً خصوصياً تماماً. ذلك لأنّ الأطفال الألمان كانوا يتعلّمون ببساطة ازدراء حروب الأطفال النمساويّين وكان يُلقى في روعهم أن الأطفال الفرنسيِّين أحفاد فسّاق مكدودي الأعصاب يهربون بالآلاف حين يقبل عليهم ألماني من الحرس الوطني ذو لحية كاملة كبيرة. وبأدوار متبادلة وكذلك مع تغييرات مرغوب فيها كان يتعلّم الشيء ذاته تماماً الأطفال الفرنسيّون والروس والإِنجليز الذين كانوا أيضاً منتصرين في كثير من الأحيان. على أن الأطفال فشّارون وهم يحبّون لعبة اللصوص والدرك وهم مستعدون في كلّ وقت أن يعدّوا الأسرة من الحارة الكبرى إذا كانوا ينتمون إليها بطريق المصادفة أكبر أسرة في العالم. وعلى هذا فمن السهل كسبُهم إلى جانب الوطنية. ولكنَّ هذا كان أكثر تعقيداً في النمسا بعض الشيء. ذلك لأنّ النمساويِّين كانوا ينتصرون في الحقيقة أيضاً في كلّ الحروب في تاريخهم ولكنَّهم كانوا يضطرون بعد معظم هذه الحروب إلى التنازل عن أيّ شيء كان. وهذا يبعث على التفكير. وقد كتب أولريش في موضوعه الإنشائي حول حبّ

twitter @baghdad_library

الوطن أنَّ الصديق الجاد للوطن لا يجوز له أبداً أن يجد وطنه الوطن الأفضل بل أنّه عمد بومضة بدت له جميلة على وجه الخصوص على الرغم من أنّه كان أكثر انبهاراً ببريقها من أن يرى ما كان يحدث فيها إلى إضافة الجملة الثانية بعدُ إلى هذه الجملة المشبوهة وهي أنَّ من الجائز أن يكون الرب أيضاً يحبّ أكثر ما يحبّ أن يتحدَّث عن دنياه في صيغة الإحتمال الكامن Conjunetivus Potentialis (quispiam: وهنا كان من الممكن أن يحتجّ واحد..) لأنّ الرب يصنع العالم وهو يفكّر بأنه من الممكن أن يكون كذلك في صورة أخرى . وتولّاه الزهوّ الشديد بهذه الجملة ولكنَّ ربّما لم يعبّر عن ذات نفسه تعبيراً مفهوماً بما يكفي إذ نجم حول ذلك هيجان كبير وأوشك أن يطرد من المدرسة وان لم يصل القوم إلى قرار إذ لم يستطيعوا البتّ في مسألة هل يجب أن تفهم ملاحظته الجريئة على أنّها تجديف على الوطن أو على أنّها تجديف على الرب. وكان يُرَبّى في تلك الأيام في الثانوية النبيلة العائدة لأكاديمية الفرسان التيريزيانية التي كانت تقدّم أنبل أركان الدولة. على أن والد أولريش بعث به وقد تولاه السخط من العار الذي ألحقه به الإبن الذي شرد بعيداً عن سربه إلى الغربة إلى معهد تربوي بلجيكي صغير كان يقع في مدينة غير معروفة وكان بحكم سيطرة الاجتهاد التجاري الذكي عليه يحظى مع الأسعار الرخيصة بإقبال كبير من قبل التلاميذ الجانحين وهناك تعلّم أولريش كيف يوسّع إزدراءه للمُثُل نحو الآخرين على صعيد دوليّ.

وكانت قد انصرمت منذ ذلك الوقت ستة عشر أو سبعة عشر من السنين كما تجري السحب في السماء. أما أولريش فلم يأسف عليها ولم يكن فخوراً بها بل كان ينظر إليها في السنة الثانية والثلاثين من حياته متعجباً ببساطة وكان في هذه الأثناء قد تقلّب في الأمصار وقضى أحياناً فترة قصيرة في الوطن أيضاً ومارس في كلّ مكان ما هو حافل بالقيمة وما لا طائل تحته. ولقد سبقت

الإشارة إلى أنّه كان رياضياً ولا حاجة بعدُ إلى أن يقال في ذلك أكثر من هذا إذ تأتي في كلّ مهنة عندما لا يمارسها المرء من أجل المال بل من أجل الهوى لحظة تبدو فيها السنون المتصاعدة وكأنّها تفضي إلى اللاشيء. وبعد أن كانت هذه اللحظة قد استغرقت زمناً طويلاً تذكَّر أولريش أنَّ المرء يعزو إلى الوطن المقدرة الحافلة بالأسرار والمتمثّلة في أنّه يجعل التفكير مستقراً كالجذور ضارباً نحو الأرض واستقر فيه بشعور الرحالة الذي يقعد على مقعد إلى الأبد على الرغم من أنّه يحسّ أنّه سوف ينهض من جديد على الفور.

وعندما اتّخذ في هذا السياق مسكنه كما يسمّي ذلك الكتاب المقدَّس خاض تجربة كان في الحقيقة ينتظرها انتظاراً وكان قد وضع نفسه في وضع مستحسن وهو أن يضطر إلى تجهيز ملكه الصغير المهمّل على هواه ليكون جديراً ابتداءً من النواة. وكان تحت تصرفه في سبيل ذلك كلّ المبادىء من إعادة البناء المتَّسمة بالنقاء الأسلوبيّ حتى اللامراعاة الكاملة وأتيحت لذهنه كلّ الأساليب من الآشوريين إلى التكعيبيّة. فماذا كان عليه أن يختار؟ إنَّ الإنسان الحديث يولد في المستشفى ويموت في المستشفى وإذاً فقد كان عليه أن يسكن في مستشفى! ـ وكان فنّان معماريّ بارز قد طرح هذا المطلب وطالب مصلح آخر للتجهيز الداخليّ بجدران قابلة للتقديم والتأخير بذريعة ان الإنسان يجب أن يتعلّم كيف يثق بالإنسان وهما يعيشان معاً وأنّه لا يجوز له أن ينغلق على نفسه انغلاقاً انفصالياً. وكان قد بدأ في تلك الأيام على الفور عصراً جديداً (لأنه يفعل ذلك في كلّ لحظة) والعصر الجديد يحتاج إلى أسلوب جديد. وكان من حسن حظ أولريش أنَّ البيت الصغير المتمثّل في القصر كان ينطوي كما عثر عليه على ثلاثة أساليب بعضها فوق بعض بحيث لم يكن المرء يستطيع في الواقع أن يقوم بكلّ ما كان مطلوباً ومع ذلك فقد كان يشعر بزلزال شديد من جرّاء المسؤولية المتمثّلة في جواز انشائه بيتاً لنفسه

twitter @baghdad_library

وكان تهديد «قل لي أين تسكن أقلْ لك من أنت» الذي كان قد قرأه مراراً في المجلّات انتهى إلى قرار بأنّه يؤثر أن يتولّى استكمال بناء شخصيته بيده وشرع في تصميم أثاثه المستقبليّ بيده. ولكنَّ عندما كان قد فرغ لتوّه من ابتكار تصميم لشكل انطباعي متّسم بالعنفوان خطر له أنّه كان في وسع المرء أن يضع محله بالقدر ذاته من الإتقان شكلاً عرضيًا متّسِماً بالقوّة والضيّق من الناحية التقنيّة وعندما صمّم شكلاً من الباطون المسلح مفرّغاً من القوّة تذكّر الأشكال النحيلة الآذاريّة لفتاة في الثالثة عشرة وأخذ يحلم بدلاً من أن يحزم.

لقد كان هذا ـ في مسألة لم تكن في حالة الجدّ قريبة إلى ذهنه بوجه خاص ـ هو التفكّك وانعدام الروابط بين الخواطر وانتشارها بدون نقطة محورية ذلك التفكّك الذي يعدّ مميّزاً بالقياس إلى الحاضر ويشكّل حسابه الغريب الذي يصل من المئويّ إلى الألفيّ بدون أن ينطوي على وحدة. وفي النهاية ما عاد يبتدع على الإطلاق إلّا حجرات غير قابلة للتنفيذ من حجرات دوّارة وإنشاءات مِشْكالية[1] وتجهيزات تقلب الأوضاع من أجل النفس وكانت خواطره تزداد خلوّاً من المضمون على نحو مطّرد عند ذلك انتهى إلى النقطة التي كان ينجذب إليها. وربّما عبّر عن ذلك والده على النحو التالي على وجه التقريب: إذ أوعز المرء بعمل ما يريد فمن الممكن أن يحطّم رأسه عمّا قريب من التشوُّش أو على هذا النحو أيضاً: إنَّ من يستطيع أن يحقّق ما يحبّ سرعان ما يعود لا يعرف ما ينبغي له أن يرغب فيه. وكان أولريش يكرّر هذا على نفسه باستمتاع كبير. وبدت له حكمة الأسلاف هذه فكرة جديدة على نحو فائق. لا بدّ من التضييق على الإنسان في إمكاناته ومخطّطاته ومشاعره أوّل الأمر عن

---

(١) نسبة إلى المشكال بكسر الميم وهو اداة تحتوي عل قطع متحرّكة من الزجاج الملوّن إذا تغيّرت أوضاعها عكست مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية ـ قاموس المورد ـ مادة Kaleidoscope.

طريق الأحكام المسبقة والتقاليد والصعوبات والقيود من كلّ نوع مثل مجنون في قميص المجانين وعند ذلك فحسب ربّما تكون هناك قيمة ونضج وثبات لما يقدِّر على إخراجه ـ ولا يمكن في الواقع تقصّي ما تعنيه هذه الفكرة! ثم إن الرجل بلا صفات الذي كان قد عاد إلى موطنه قام أيضاً بالخطوة الثانية لكي يكوّن نفسه من الخارج عن طريق ظروف الحياة فترك عند هذه النقطة من أفكاره إنشاء منزله ببساطة لعبقرية مُوّرديه وهو على يقين راسخ أنّهم سيعنون بالتقاليد والأحكام المسبقة والمحدودة. أمّا هو ذاته فكان يقتصر على بعث النضارة في الخطوط القديمة التي كانت موجودة من قبل قرون الأيائل الغامقة تحت الأقواس البيض في القاعة الصخرية أو السقف الصلب في الصالون وكان فيما تبقّى يعمل فوق ذلك كلّ ما كان يبدو له مفيداً ومريحاً.

وحين كان كلّ شيء منتهياً أتيح له أن يهز رأسه ويقول: هذه إذاً الحياة التي يفترض أن تغدو حياتي؟ كان ما يملكه هنا قصراً ساحراً صغيراً وكان لا بدّ للمرء تقريباً أن يسمّيه كذلك إذ كان تماماً على الصورة التي يتصوّرها المرء في مثيله مقرّ مفعم بالذوق لمقيم كما تصوَّرته مؤسسات الأثاث والسجاد والتركيب التي كانت الرائدة في ميدانها. ولكنَّ كان ما ينقصه أن هذه الساعة الساحرة لم تكن مربوطة إذ كانت العربات حينئذ خليقة أن تجري صاعدة في المدخل بما فيها مِنْ حاملي الألقاب والسيِّدات النبيلات واذاً لوثب الخدم عن ألواح مواطىء المدخل ولسألوا أولريش وهم يسيؤون الظن به قائلين: «أيها الرجل الطيّب أين سيدك؟».

كان قد عاد من القمر وجهّز نفسه على الفور من جديد كأنه على القمر.

twitter @baghdad_library

[٦]
ليونا أو تحويلٌ منظوريّ

عندما يكون المرء قد رتّب أمور بيته ينبغي له أن يخطب امرأة أيضاً وكانت صديقة أولريش في تلك الأيام تدعى ليونتينه وكانت مغنّية للأغاني في مسرح صغير للمنوّعات وكانت طويلة نحيلة ممتلئة مثيرة جامدة وكان يسمّيها ليونا.

وكانت قد لفتت نظره بالظلمة النديّة في عينيها وبتعبير عاطفي جامح مؤلم في وجهها القياسيّ الجميل المتطاول وبالأغانيّ المفعمة بالمشاعر التي كانت تغنّيها بدلاً من الأغاني غير المهذّبة. وكان مضمون كلّ هذه الأغاني القصيرة ذات الطراز القديم الحبّ والألم والوفاء والهجران وصخب الغابة وبريق السمك النهريّ المرقّش وكانت ليونا تقف طويلة مستوحشة حتى العظام على خشبة المسرح الصغير وتغنّي للجمهور متأنّية بصوت ربّة منزل واذا تخلّلتها ضروب صغيرة من الجسارة المتّصلة بالأخلاق فإنما كانت تحدّث مفعولاً أقرب إلى الطيف إذ كانت هذه الفتاة تدعم مشاعر القلب المأساوية والعبثيّة بالتعبيرات ذاتها وهي التعبيرات ذات التهجئة المجهدة. وشعر أولريش على الفور أنّه يتذكّر الصور الضوئية القديمة أو النساء الجميلات في السنين الضائعة من الصحف العائلية الألمانية وبينما كان يمعن التفكير في وجه هذه المرأة لاحظ فيه قدراً كبيراً من الملامح الضئيلة التي ما كان من الممكن أبداً أن تكون حقيقية والتي كانت تشكّل هذا الوجه بلا ريب. وهناك بالطبع في كلّ العصور كلّ أنواع الوجوه الأخرى عندئذ تقترب إلى التماثل مع هذا وحتى الوجوه القبيحة تُوفَّق إلى هذا تقريباً بمعونة التسريحة والزيّ السائد غير أنّ تلك

الوجوه المفطورة على الحالات النادرة من النجاح لا تنجح في ذلك أبداً وهي تلك التي يتمثَّل فيها مثال الجمال الملكيّ ومثاله المطرود من عصر أسبق بدون تنازلات. وأمثال هذه الوجوه هي كجثث المتع السالفة في انعدام الماهية الكبير الخاص بممارسة الحب. أما الرجال الذين كانوا يحملقون في مللهم الطويل من غناء ليونتينه ولا يعرفون ما كان يحدث لهم فقد كانت تحرِّك مناخيرهم مشاعر مختلفة تماماً عمّا كانوا يشعرون به تجاه المغنيات الصغيرات الوقحات بتسريحات التانجو. هنالك قرّر أولريش أن يسمِّيها ليونا وبدا له امتلاكها مرغوباً مثل امتلاك فراء أسد كبير محشوّ من قبل الفرّاء.

ولكن بعد أن بدأت المعرِّفة بينهما خرجت ليونا بسمة أخرى غير موائمة للعصر فقد كانت أكولة إلى حدٍّ هائل وهذه رذيلة كان اكتمالها الكبير قد خرج منذ عهد طويل عن الزيّ السائد وكانت بحكم نشوئها تمثِّل الشوق المتحرِّر أخيراً إلى المآكل الباهظة الثمن والذي كانت قد عانت منه وهي طفلة فقيرة أمّا الآن فقد اكتسب الشوق قوّة مثال من المُثُل حطّم قفصه أخيراً وانتزع السيادة لنفسه. وكان يبدو أنَّ أباها كان مواطناً شريفاً مسكيناً كان يضربها كلما خرجت مع المعجبين. أمّا هي فلم تكن تفعل ذلك لسبب آخر إلّا لأنَّها كان يسرّها أن تجلس في الحديقة الأمامية لمحل من محال الحلويات الصغيرة من أجل حياتها وتلعق من بوظتها وهي ترسل نظرها إلى المارّة شأن النبلاء. أمّا أنّها لم تكن ذات شهوات فذلك ما لم يكن في وسع المرء أن يدَّعيه ولكنَّ من الممكن أن يقال على قدر ما هو مسموح به أنّها كانت في هذا الصدد أيضاً وعلى وجه الخصوص شأنها في كلّ شيء كسولة تتهيّب من العمل. وفي جسمها المتّسع كان كلٌّ من المفاتن يحتاج إلى وقت طويل إلى حدٍّ عجيب إلى أن يلغ الدماغ وكان يحدث أن تأخذ عيناها في ذرف الدموع في وسط النهار بدون سبب بينما كانت تظلّ في الليل مصوَّبة بلا حراك نحو نقطة من سقف

twitter @baghdad_library

الحجرة وكأنّما كانتا تراقبان ذبابة هناك. وكان في وسعها كذلك أن تأخذ أحياناً في الضحك في وسط الهدوء الكامل لنكتة أدركتها الآن فحسب بينما استمعت اليها بهدوء قبل بضعة أيام بدون أن تفهمها. وعندما كانت تفتقر إلى سبب خاص لنقيض ذلك كانت تتّسم من أجل ذلك بالتهذيب المطلق أيضاً. أمّا بأية طريقة على وجه الإطلاق وصلت إلى مهنتها فذلك ما لم يكن يُستخلَص منها أبداً وكان يبدو أنّها ما عادت هي ذاتها تعرف ذلك بدقة. إلّا أنّه كان يظهر أنّها كانت ترى في عمل مغنّية الأغاني جزءاً ضرورياً من الحياة وكانت تربط بذلك كلّ ما هو عظيم مِمّا كانت قد سمعته ذات يوم عن الفن والفنّانين بحيث كان يبدو لها على وجه الإطلاق أنّه أمر صائب وتربوي ونبيل أن تظهر في كلّ مساء على خشبة مسرح صغير تحدّق بها سحب دخان السيجار وأن تنشد أغاني كان مفعولها المؤثّر مسألة ثابتة. وكانت بطبيعة الحال لا تتورّع في هذا الصدد كما لم يكن من ذلك بدّ لكي تبثّ الحياة فيما هومهذّب عن بعض الخروج على التهذيب المتناثر من حين إلى آخر بحال من الأحوال ولكنّها كانت على يقين راسخ أنّ المغنّية الأولى في الأوبرا الإمبراطورية تفعل ما تفعل هي بالضبط.

أجل إنّ المرء إذا أراد أن يعدّ على وجه الإطلاق من قبيل البغاء ألّا يبذل الإنسان كما هو مألوف كلّ شخصه من أجل المال بل جسده فحسب فقد كانت ليونا تمارس البغاء من حين إلى آخر. ولكنَّ عندما يعرف المرء خلال سنوات تسع منذ كانت في عامها السادس عشر ضآلة الأجور اليوميّة التي تدفع في أدنى قاعات الغناء ويتمثّل في ذهنه أسعار أدوات الزينة والثياب وألوان الحسم وبخل المالكين وتعسّفهم والنسب المئوية الخاصّة بالطعام والشراب للروّاد الذين تولّاهم الطرب وحساب الغرفة في الفندق المجاور الذي يتّصل بذلك يومياً وما ينشأ حول ذلك من النزاع ويحسم من حسم تجاريّ عند ذلك

يتحوّل ما يبعث السرور لدى المرء غير المطّلع بحكم كونه فجوراً إلى مهنة حافلة بالمنطق والموضوعية والقوانين المهنية. بل أنَّ البغاء على وجه الخصوص يعدّ مسألة يوجد فيها فرق كبير بين أن يراها المرء من فوق وبين أن يلاحظها من تحت.

ولكن إذا كانت ليونا تنطوي على فهم موضوعيّ كامل للمسألة الجنسيّة فقد كانت لها مع ذلك ما نسيته أيضاً إلّا أن كلّ ما كان عندها دفّاقاً غامراً يتسّم بالصلف والتبذير من مشاعر الكبرياء والجسد والتهتّك والطموح والإنغماس والإستسلام وعلى الإجمال كلّ القوى المحرّكة في الشخصيّة وفي الإرتقاء الإجتماعي لم يكن يرتبط من جرّاء لون من ألوان عبث الطبيعة بما يسمّى بالقلب بل بالقناة البطنيّة بعمليات الأكل التي كانت في الأيام الخوالي ترتبط بها آخر الأمر بصورة نظامية وذلك مِمّا يظلّ المرء حتى اليوم يستطيع أن يلاحظه لدى البدائيين أو الفلاحين ذوي التبذير الواسع الذين يقدّرون على التعبير عن النبالة وعن الأشياء الأخرى المتباينة التي تميّز الإنسان عن طريق مأدبة يأكل فيها المرء أكلاً مفرطاً احتفالياً ومع كلّ الظواهر المرافقة الأخرى. وكانت ليونا تؤدي واجبها على موائد حانتها الموسيقيّة. أمّا ما كانت تحلم به فكان فارساً يرفعها عن طريق علاقة تدوم دوام التعهّد والإلتزام ويتيح لها أن تقعد في موقف نبيل أمام لائحة للطعام نبيلة في مطعم نبيل إذاً لكان أحبَّ الأمور إليها عندئذ أن تأكل من كلّ الأطعمة الموجودة دفعة واحدة وكان مِمّا يتيح لها انشراحاً ينطوي على التناقض إلى حدٍّ مؤلم أن يتاح لها في الوقت ذاته أن تعرف كيف يجب على المرء أن يختار ويركّب وجبة مصطفاة. ولم يكن في وسعها أن تطلق العنان لخيالها إلّا مع المآكل الصغيرة اللاحقة وفي العادة كان يتألّف من ذلك في تسلسل معكوس عشاءٌ ثان مستفيض وكانت ليونا تصلح من جديد مقدرتها على التقبُّل بالقهوة السوداء والكميات المنشّطة من

twitter @baghdad_library

المشروبات وتثير نفسها بالمفاجآت إلى أن تكون حماستها قد أُخمِدَت. عند ذلك يكون جسدها قد بلغ من امتلائه بالأشياء النبيلة حداً لا يكاد يتماسك معه فكانت ترسل بصرها مشرقاً في خمول حواليها وعلى الرغم من أنّها لم تكن قط كثيرة الثرثرة فقد كان يسرّها في هذه الحالة أن تُقَفّي على ذلك بملاحظات استرجاعية على النفائس التي كانت أكلتها.

وعندما كانت تقول: أو كانت ترسل ذلك مثلما يذكر امرؤٌ آخر بصورة عبارة وعلى نحو مُحكَم أنّه تحدَّث إلى الأمير أو اللورد الذي يحمل الإسم ذاته.

ولما كان الظهور العلني مع ليونا غير موافق كلّ الموافقة لذوق أولريش فقد كان في العادة يحاول إطعامها في بيته حيث كانت تحبّ أن تتخذ من قرون الأيائل والأثاث ذي الأسلوب إداماً غير أنّها كانت ترى نفسها بذلك وقد فاتها الإرتياح الإجتماعي. وعندما كان الرجل بلا صفات يغريها عن طريق أطرف الأطعمة التي يستطيع صاحب مطعم أن يقدّمها بالإفراط الوحدانيّ كانت تحسّ بأنها يُساء استغلالها شأنها في ذلك على وجه الدقة شأن امرأة تلاحظ أنّها ليست محبوبة من أجل نفسها. لقد كانت جميلة ومغنّية ولم تكن في حاجة إلى أن تختبىء وفي كلّ مساء كانت تتعلّق برغبات عشرات من الرجال كانوا خليقين أن يوفّوها حقها. غير أن هذا الإنسان على الرغم من أنّه كان يريد أن يَخْلُوَ إليها لم يبلغ منه حتى أن يقول لها: يا يسوع يا مريم ليونا أنَّ محيّاك.. ليسعدني! وأن يلعق شاربيه من الشهية حين ينظر إليها مجرّد نظر كما اعتادت ذلك من فرسانا. وكانت ليونا تزدريه قليلاً على الرغم من أنّها كانت بالطبع تتعلّق به مخلصة وكان أولريش يعرف هذا. وكان آخر الأمر يعلم حقّ العلم ما يليق بصحبة ليونا غير أن الزمان الذي كان فيه خليقاً أن يورد على شفتيه بعدُ مثل هذا وكانت شفته ما زالت تحمل شاربين كان مفرطاً في البعد وحين لا

يعود المرء ينجز ما كان يُحسنه فيما مضى مهما يكن من اتّسامه بالغباء فإنما يكون هذا على وجه الدقة كما لو أن السكتة قد سرت في اليد وفي الساق. كانت مقلتاه ترتعدان عندما كان ينظر إلى صديقته التي كان الطعام والشراب قد صعدا إلى رأسها وكان في وسع المرء أن يَنْضُوَ عنها جمالها بحذر. لقد كان جال الدقة التي حملها شيفلز إيكهارد فوق عتبة الدير وجمال الفارسة ذات الصقر على قفازيها وجمال الإمبراطورة اليزابيت التي حيكت حولها الأساطير بإكليل شعرها الثقيل فتنة للناس الذين كانوا قد ماتوا جميعاً. ومن أجل القول الدقيق كانت تذكّر أيضاً بجونو الربانيّ ولكنّ ليس بالخالد الذي لا يزولُ بل بهذا الذي كان عصر من العصور السالفة أو الزائلة يسمّيه جونَوّياً. وعلى هذا فقد كان حلم الوجود قد انكفأ على المادة انكفاءً واهياً فحسب. غير أن ليونا كانت تعرف أن المرء يكون مديناً بشيء ما لقاء دعوة نبيلة حتى عندما لا يكون المضيف راغباً في شيء وأنّه لايجوز للمرء أن يدع نفسه عرضة للتحديق فحسب فكانت تنهض بمجرّد أن تعود قادرة على ذلك وتأخذ في الغناء على سَجيّتها ولكنَّ بإنشاد مرتفع الصوت. وكات أمثال هذه الأمسيات تبدو لصديقها كصفحة منتزعة تبث فيها الحياة خواطر وأفكار شتّى ولكنّها محنّطة كما يتحوّل كلّ مُنتَزَع من سياقه وإطاره حافلة بذلك الطغيان الذي يتسّم به من يظلّ الآن واقفاً على هذا النحو أبداً وهوالطغيان الذي يشكّل السحر الرهيب للصور الحيّة وكأن الحياة تلقّت بغتة منوّماً فهي تقف الآن ههنا جامدة مفعمة بالترابط في ذاتها محدّدة بحدود عميقة ومع ذلك فهي خاوية من المعنى إلى حدٍّ هائل على الإجمال.

twitter @baghdad_library

[٧]

في حالة ضَعْفٍ يتّخذ أولريش عشيقة جديدة

وذات صباح جاء أولريش إلى البيت وقد لُطِّخَ تلطيخاً شديداً وكانت ثيابه تتدلى منه ممزَّقة وكان عليه أن يضع كمادات طرية على رأسه المثخن بالجراح وكان يفتقد ساعته وحافظة رسائله ولم يكن يعرف أسرقها الرجال الثلاثة الذين دخل في عراك معهم أم تعرَّضت للسرقة منه خلال الوقت القصير الذي كان فيه يرقد فاقد الوعي على بلاط الشارع من قبل صديق للإنسانية يتَّسم بالهدوء. فاضطجع على السرير وبينما كانت الأعضاء الواهنة تشعر أنّها تُحَمل من جديد وتُغَطّى برفق فكّر مرّة أخرى في هذه المغامرة.

كانت الرؤوس الثلاثة قد انتصبت أمامه بغتة وربّما كان قد احتك في الشارع الخاوي في وقت متأخّر بأحد الرجال إذ كانت أفكاره شاردة ومشغولة بشيء آخر ولكنَّ هذه الوجوه كانت قد اتخذت أهبتها للغضب ودخلت شائهة في دائرة المصابيح. هنالك أرتكب خطأً إذ كان عليه أن يصطدم وهو يرجع القهقرى وكأنّه قد أخذه الخوف ويرتطم عندئذ ارتطاماً شديداً بظهره مع الفتى الذي كان قد جاء وراءه أو يدفع بمرفقه في معدته وكان عليه بعدُ في اللحظة ذاتها أن ينزع إلى الهرب إذ لا صراع ضد ثلاثة من الرجال الأقوياء. وبدلاً من ذلك تردد لحظة وكان هذا من جرّاء العمر أيّ سنواته الاثنتين والثلاثين فالعداوة والحب ذاتهما يحتاجان عندئذ إلى مزيد من الوقت إلى حدٍّ ما ولم يشأ أن يصدِّق أن الوجوه الثلاثة التي رمقته دفعة واحدة في الليل بغضب وازدراء إنما كانت تستهدف ماله فحسب بل استسلم للشعور بأن الكراهية

تجاهه كانت تنصبّ هنا مجتمعة وقد تحوّلت إلى شخوص. وبينما كان الأوغاد يشتمونه بكلمات بذيئة سرته فكرة أنّهم ربّما لم يكونوا أوغاداً على الإطلاق بل مواطنين مثله قد ثملوا بعض الثمل فحسب وتحرروا من الروادع وظلوا متعلقين بظهوره العابر وأفرغوا عليه كراهية متأهبّة له ولكل إنسان غريب على الدوام شأن العاصفة في الجو. ذلك لأنّه كان يحسّ بشيء مماثل لهذا فيما كان يحسّ به أيضاً. وان قدراً كبيراً إلى حدٍّ فائق من البشر ليشعرون اليوم أنّهم يتناقضون تناقضاً يدعو إلى الأسى مع قدر من الناس الآخرين كبير إلى حدٍّ فائق. وإنه لمن السمات الأساسيّة للحضارة أن يسيء الإنسان الظن بالإنسان الذي يعيش خارج دائرته الخاصّة إساءة هي في منتهى العمق أيّ ألّا يقتصر ذلك على جرماني تجاه يهوديّ بل يعدّ لاعب كرة القدم عازف البيانو أيضاً كائناً غيرمفهوم وأقل قيمة. وأخيراً فإن الشيء لا يوجد في الحقّ إلّا من خلال حدوده وعن هذا الطريق من خلال فعلٍ معاد إلى حدٍّ ما لمحيطه. فبدون البابا ما كان ليوجد لوثر وما كان ليوجد بابا بدون الكفار. ومن أجل ذلك لا يمكن إنكار أن أعمق اعتمادٍ للإنسان على رفيقه الإنسان إنما يكمن في رفضه. على أنّه لم يفكّر في هذا بالطبع بهذا التفصيل غير أنّه كان يعرف هذه الحالة الخاصّة بعداوة في الجو غير مستيقنة قد حفل بها الجو في عصرنا البشري وعندما ينكمش هذا ذات مرّة بغتة في ثلاثة من الرجال المجهولين الذين يتوارون بعد ذلك من جديد لينقضّوا كالرعد والبرق يكاد يكون هذا بمثابة تخفيف.

وعلى كلّ حال فقد بدا مع ذلك أنّه أعمل فكره أكثر مِمّا يجب تجاه الأوغاد الثلاثة وذلك أنّه حين وثب عليه الأوّل طار عائداً القهقرى إذ كان أولريش قد استبقه بضربة على الذقن ولكنَّ الثاني الذي كان من الواجب الفراغ منه بعد ذلك بسرعة البرق لم تبلغ منه القبضة إلّا لمساً ففي هذه الأثناء كانت

twitter @baghdad_library

الضربة بشيء ثقيل قد أوشكت أن تحطّم رأس أولريش من الوراء فإنها وقعت وعلى ركبته وأمسك به ثم انتصب قاذفاً مرّة أخرى مع ذلك الصحو غير الطبيعي للجسد الذي يعقب الإنهيار الأوّل في العادة وجعل يضرب في فوضى الأجسام الغريبة وسُحِق من قبل قبضات كانت تزداد ضخامة على نحو مطرِّد.

ولما كان الخطأ الذي ارتكبه قد ثبت الآن ولم يكن موقعه إلّا في مضمار رياضيّ مثلما يحدث أن يقفز المرء ذات مرّة قفزة أصغر مِمّا ينبغي نام أولريش الذي كان مايزال يتمتَّع بأعصاب ممتازة نومة هادئة وذلك على وجه الدقة مع الإفتتان ذاته بالمسارات اللولبية الخاصّة بانهيار الوعي الذي كان قد أحسّ به أساساً في أعماقه حتى أثناء هزيمته.

وعندما استيقظ من جديد استيقن أنّ إصاباته لم تكن ذات بال وجعل يفكّر مرّة أخرى في تجربته فالمشاجرة تخلّف دائماً طعماً لاحقاً غير مستساغ من قبيل ما يعدّ بمعنى ما ثقة بالنفس تنطوي على التسرّع. وبصرف النظر عن أن أولريش كان هو المُهاجَم كان ينطوي على شعور بأنه تصرّف على نحو غير ملائم ولكنَّ غير ملائم لأيِّ شيء؟ فعلى مقربة شديدة من الشوارع التي يطلّع فيها شرطيّ في كلّ ثلاثمائة خطوة على أدنى مخالفة للنظام توجد شوارع أخرى تُنميّ ما تنميّه غابة بكر فالبشريّة تنتج كتباً مقدسة وبنادق وسِلاحاً ولقاحاً للسل وهي ديمقراطية فيها ملوك ونبلاء وهي تبني كنائس ثم تبني جامعات ضد الكنائس وتصنع من الأديرة ثكنات ولكنّها تجعل للثكنات قادة من رجال الكهنوت وهي تزوّد بالطبع الأدغال أيضاً بالخراطيم المحشوة بالرصاص لبعث المرض بالضرب في جسد رفيق الإنسان وتعدّ للجسد الوحيد الذي أسيئت معاملته سريراً من الزغب كما كان هذا الذي يحيط بأولريش في هذه اللحظة وكأنّما كان مفعماً بقدر من التقدير والمراعاة. إنها هذه القضيَّة المعروفة بما فيها من تناقضات الحياة ولا منطقيّتها وعدم اكتمالها. والمرء

يبتسم لذلك أو يتنهّد. غير أن هذا لم يكن حال أولريش على وجه الخصوص. لقد كان يكره هذا المزيج من الزهد والحب المضحك في سلوكه تجاه الحياة. وهو المزيج الذي يتقبّل تناقضاتها ونقائصها مثلما تتقبّل العمّة العانس ألوان سوء الأدب من إبن أخ صغير غير أنّه لم يقفز أيضاً على الفور من سريره عندما تبيّن أن البقاء فيه يكتسب المزية من فوضى شؤون البشريّة. ذلك أنّه مِمّا يعدّ من قبيل التوازن المستعجل مع الضمير على حساب القضيَّة وخللاً وجنوحاً إلى الخصوصي أن يجتنب المرء ما هو سيء من أجل شخصه ويفعل الحسن بدلاً من أن يسعى من أجل نظام المجموع بل لقد بدا لأولريش بعد تجربته غير الطوعية أن مِمّا لا قيمة له إلى حدٍّ يدعو إلى اليأس أن تلغى البنادق من هنا والملوك من هناك وأن يقلِّل أيّ تقدّم صغيراً كان أو كبيراً من الغباء ونزعة الشر. ذلك لأنّ مدى الاساءة البالغة ونزعات الشر يعاد استكماله في اللحظة ذاتها عن طريق نزعات جديدة وكأن الساق الواحدة من ساقَيْ العالم تنزلق القهقرى دائماً عندما تتقدَّم الأخرى ومن هنا ينبغي للمرء أن يتعرَّف على العلة والآلية الخفيّة! وسيكون هذا بالطبع أهمّ إلى حدٍّ لا يساوي كون الإنسان إنساناً طيِّباً حسب المبادىء التي عفى عليها الزمن.

وهكذا كان أولريش ينجذب في الأخلاق نحو الخدمة في الأركان العامة أكثر مِمّا ينجذب إلى بطولة عمل الخير في الحياة اليوميّة. لقد كان يتمثَّل الآن مرّة أخرى أيضاً استئناف مغامرته الليلية. ذلك لأنّه حين ثاب إلى رشده بعد العراك الذي سار سيراً غير موفَّق توقَّفت سيّارة أجرة بالقرب من الرصيف وحاول السائق أن يوقف الغريب المجروح من كتفيه وانحنت عليه سيِّدة وفي وجهه تعبير ملائكي وفي أمثال هذه اللحظات من الوعي المتصاعد من الأعماق يرى المرء كلّ شيء كما يراه في عالم كتب الأطفال ولكنَّ سرعان ما أفسح هذا العجز المجال للواقع إذ بثّ حضور امرأة تعنى بأولريش النشاط فيه

twitter @baghdad_library

على نحو خفيف ومنبّه كماء الكولونيا بحيث عرف أيضاً على الفور أنّه لا يمكن أن يكون قد لحق به أذىً كبير وحاول أن ينتصب على قدميه بطريقة حسنة ولم يوفَّق إلى هذا على التوّ كما كان يرغب وقدَّمت السيِّدة نفسها وقد تولّاها القلق لتنطلق به إلى أيّ مكان لكي يجد العون ورجا أولريش أن يُذْهَب به إلى البيت ولما كان ما يزال يبدو مشوّشاً حائراً فقد استجابت له السيِّدة ثم أنّه سرعان ماثاب إلى رشده في السيارة. وكان يشعر إلى جانبه بشيء حسيّ يتّصل بالأمومة بسحابة رقيقة من المثالية المنطوية على المروءة أخذت تتكون في حرارتها الآن بلّورات الجليد الصغيرة الناشئة عن الشك والخوف من سلوك يفتقر إلى الرؤيّة بينما عاد هو رجلاً من جديد وأخذت هذه تملأ الهواء بطراوة تساقط الثلج وروى ما جرى له وجعلت المرأة الجميلة التي كانت تبدو أصغر منه قليلاً فحسب أيّ ربّما في سن الثلاثين تشكو من خشونة البشر ووجدته باعثاً على الشفقة إلى حدٍّ مخيف.

وبالطبع فقد أخذ الآن يدافع عمّا حدث دفاعاً حاراً وأعلن إلى الجميلة المتَّسمة بسمة الأمومة والتي أخذتها المفاجأة إلى جانبه أنّه لا يجوز للمرء أن يحكم على هذه التجارب من الشجار من نجاحها فإنّ سحرها يكمن أيضاً وبالفعل في أن المرء يضطر في حيّز زمني بالغ الضيِّق وبسرعة لا ترد في العادة في أيّ مكان في الحياة المدنيّة موجهة بإشارة لا يكاد المرء يحسّ بالقيام بحركات كثيرة متباينة قويّة للغاية وهي تتوالى مع ذلك بعضُها إثر بعض بأدق الأشكال بحيث لا يعود من الممكن إطلاقاً أن يشرِّف المرء عليها بوعيه بل أنّ كلّ رياضيّ يعرف على النقيض من ذلك أنّه لا بدّ للمرء أن يكف عن التدريب قبل بضعة أيام من المباراة وهذا يحدث لا لسبب آخر سوى أن تستطيع العضلات والأعصاب أن تحقّق التوافق الأخير فيما بينها بدون أن يكون مع ذلك حضورٌ للإرادة والقصد والوعي أو يتاح لها الدخول في الحوار على وجه

الإطلاق. وقد وصف اولريش ذلك بقوله: ان المسألة تكون في لحظة الواقعة أيضاً على النحو التالي: العضلات والأعصاب تتواثب وتتصارع مع الأنا غير أنّ هذه التي هي الجسد بمجموعه والنفس والإرادة هذه الشخصيّة الرئيسيّة والإجمالية المحدودة تجاه محيطها من وجهة القانون المدنيّ لا تلقى القبول عن طيب خاطر بصورة تامة إلّا مثل أوروبا المستقرة على الفور. واذا لم يكن هذا على هذا النحو ذات مرّة أيّ عندما يسقط من سوء الحظ أصغر شعاع من نور التفكير في هذه الظلمة عند ذلك يخفق المشروع تبعاً للقاعدة ـ وكان أولريش قد اندفع متحمّساً في حديثه وزعم أنّ هذا في الأساس وهو يقصد هذه التجربة الخاصّة بالاستغراق أو الاختراق الكاملين للشخص الواعي إنما يتّصل في الأساس بالتجاريب الضائعة التي عرفت لدى المتصوفة في كلّ الأديان وأنّه يعدّ بناء على ذلك بمثابة تعويض معاصر عن حاجات خالدة. ولئن كان بديلاً سيئاً فإنه بديل على أيّة حال وعلى هذا تعدّ الملاكمة أو الأنواع المشابهة من الرياضة التي تدخل هذا في نظام عقلاني نوعاً من اللاهوت وان لم يكن في وسع المرء أن يطالب بأن يتمّ استجلاء هٰذا على الصعيد العام.

وكان أولريش قد أقبل على رفيقته بحيويّة شديدة وكان ذلك إلى حدٍّ ما من جرّاء الرغبة المغرورة بأن ينسيها الوضع البائس الذي كانت قد وجدته فيه وكان من العسير عليها في هذه الظروف أن تميّز أكان يتحدَّث جاداً أم ساخراً. وعلى كلّ حال فقد كان من الممكن أن يبدو لها في الأساس أنّ من الطبيعي بصورة مطلقة محاولته تفسير اللاهوت الرياضة الأمر الذي ربّما كان ممتعاً مادامت الرياضة شيئاً عصرياً واللاهوت في مقابل ذلك شيء لا يعرف المرء عنه شيئاً على الرغم من أنّه مازال يوجد بالفعل وعلى نحو لا سبيل إلى إنكاره عدد كبير من الكنائس. ومهما يكن من ذلك فقد وجدت أنّه مصادفة سعيدة قد

twitter @baghdad_library

أتاحت لها أن تنقذ رجلًا بالغ الظرف وكانت فيما بين ذلك تسائل نفسها بلا ريب أيضاً أتراه لم يتعرَّض لارتجاج في المخ.

أما أولريش الذي أراد الآن أن يقول شيئاً مفهوماً. فقد استغل الفرصة لكي يشير بصورة عابرة إلى أن الحبّ أيضاً ينتمي إلى التجارب الدينية والخطيرة لأنّه يرفع الإنسان من بين ذراعي العقل ويضعه في حالة عائمة بلا أساس حقاً.

وقالت السيِّدة: أجل ولكنَّ الرياضة خشنة

وسارع أولريش ليسلّم بذلك قائلاً: «الرياضة خشنة بلا ريب وقد يستطيع المرء أن يقول انها حلول كراهية عامة مقسّمة تقسيماً بالغ الدقة والارهاف يجري تحويلها في ألعاب المباريات. والناس يزعمون نقيض ذلك بالطبع وهو أن الرياضة تجمع وتصنع الرفاق ونحو ذلك. ولكنَّ هذا لا يبرهن في الأساس إلّا على أن المحبة والخشونة لا يبتعدان أحدهما عن الآخر ابتعاداً أكثر من ابتعاد جناح طائر كبير ملوَّن أخرس عن الجناح الآخر.

وكان قد ركّز إيقاع الكلام على الجناحين وعلى الطائر الملوّن الأخرس - وهي فكرة بغير معنى سليم ولكنّها مفعمة بتلك النزعة الحسيّة الهائلة التي ترضى بها الحياة في جسدها الذي لا مقاييس له كلّ التناقضات المتنافسة في وقت واحد ولاحظ أنَّ جارته لم تفهم هذا أدنى فهم. ومع ذلك فقد كان التساقط اللطيف للثلج الذي كانت قد نشرته في السيارة قد بات أكثر كثافة. عند ذلك أقبل عليها كلّ الإقبال وسألها أتراها تجد نفوراً من الحديث عن أمثال هذه المسائل الجسديّة. فالممارسة الجسديّة باتت زيّاً سائداً إلى حدٍّ مفرط بالفعل وهي تنطوي في الأساس على شعور مفزع لأنّ الجسد حين يكون مدرَّباً تدريباً كامل الإرهاف ترجح كفّته ويستجيب دونما سؤال لكلّ سحر بحركاته المصقولة آلياً استجابة يبلغ من توكيدها أن المالك لا يبقى لديه بعدُ

إلّا الشعور الرهيب بخيبة الأمل بينما تذوب شخصيته منحلة بأي جزء كان من الجسد.

وبدا بالفعل أن هذه المسألة قد مسَّت السيِّدة الشابة في أعماقها فأظهرت انفعالها من هذه الكلمات وصعَّدت أنفاساً حارة ونأت بنفسها في شيء من الحذر. وبدا أن آليّة مشابهة لتلك الموصوفة للتو من تصعيد ألانفاس واحمرار البشرة وربّما بعض الأشياء الأخرى قد تحرَّكت فيها ولكنَّ السيارة كانت قد توقَّفت عند ذلك على وجه الخصوص أمام مسكن أولريش فما عاد في وسعه بعدُ إلّا أن يلتمس من منقذته عنوانها وهو يبتسم لكي يقدِّم لها شكره ولكنَّ ما أدهشه هو أن هذه المعروف ضُنَّ عليه بهِ وانصفق السور الأسود ذو الصياغة الحديدية منغلقاً وراء غريب قد تولّاه العجب. ويُظن أن شجيرات متنزّه قديم كانت قد انتصبت بعد ذلك عالية مظلمة في ضوء المصابيح الكهربائية وقد اتقد ضوء النوافذ. وكانت الأجنحة السفلى من قصر صغير كالمخدع قد انتشرت فوق عشب زَبَرْجَدِيّ مقصوص قصّاً قصيراً وكان المرء قد رأى قليلاً من الجدران التي كانت مغطاة بالصور وسلاسل الكتب الملوّنة واستقبلت رفيق السيارة المودَّع حياة جميلة على نحو غير متوقَّع.

على هذا النحو حدث ذلك وبينما كان أولريش مايزال يفكِّر كم كان سيكون من غير المستساغ أن يضطر إلى بذل وقته من جديد لواحدة من هذه المغامرات الغرامية التي كان قد شبع منها منذ عهد طويل أبلغ بقدوم سيِّدة شابة لم تشأ أن تفصح عن اسمها ومسكنها ولكنّها استأنفت المغامرة شأن المستبدّ بهذه الطريقة الرومانسية ـ الخيريّة بحجة العناية بحاله.

وبعد أسبوعين كانت بوناديا قد باتت عشيقته منذ أربعة عشر يوماً.

twitter @baghdad_library

[٨]

كاكانيا

في السن التي يكون المرء فيها ما يزال ينظر إلى شؤون الخياطة والحلاقة نظرة الجدّ ويسرّه أن ينظر في المرآة يتصوّر المرء أيضاً في كثير من الأحيان مكاناً تتَّسم الإقامة فيه بأسلوب ما حتى وإن كان المرء يشعر أنّه لايسره أن يكون هناك من أجل شخصه على وجه الخصوص.

وقد بات الآن مثل هذا التصوّر الإجتماعي القسري منذ عهد طويل نوعاً من مدينة أمريكية ممتازة يسرع فيها كلّ امرىء أو يتوقَّف وساعة التوقيت في يده ويشكِّل الجو والأرض مبنى من مباني النحل تتخلّله خلايا طرق المرور. وثمة قطارات جوية وأرضية وتحت الأرض وإرساليات من البشر في البريد المضغوط بالأنابيب وسلاسل من السيارات تنطلق أفقياً ومصاعد سريعة تضخ كتل البشر عمودياً من مستوى من مستويات المرور إلى المستوى الآخر. والناس يقفزون عند عقد المواصلات من جهاز من أجهزة الحركة إلى الجهاز الآخر ويجري امتصاصهم وانتزاعهم عن طريق إيقاعه الذي يشكِّل فيما بين سرعتين تنطلقان انطلاق الرعد هنيهة من التأخر أو وقفة أو فارقاً من عشرين ثانية بدون تفكير ويتحدَّثون فيما بينهم على عجل في فترات الإنتظار الخاصّة بهذا الإيقاع العام بضع كلمات وتتداخل الأسئلة والأجوبة في جعجعتها شأن أجزاء الآلات. وكل إسنان له وظائف محدَّدة فحسب. وقد ربطت المهن بعضها إلى بعض في أماكن معيَّنة في مجموعات والناس يأكلون أثناء الحركة. أما ضروب اللهو فقد جمعت في أجزاء أخرى من المدينة. وفي مكان آخر من

جديد تنتصب الأبراج حيث يجد المرء المرأة والأسرة والحاكي والنفس. ويتمّ الفصل الزماني بدقّة بين التوتر وتخفيف حدة التوتر وبين العمل والحب وتضبط معاييرها تبعاً للخربة المخبرية العميقة. واذا اصطدم المرء في أيٍّ من ضروب النشاط هذه بصعوبة ترك الشيء واقفاً ببساطة. ذلك لأنّ المرء يجد شيئاً آخر أو طريقاً أفضل من حين إلى آخر أو يجد امرؤٌ آخر الطريق الذي أخطأه المرء. وهذا لا يضير في شيء البتة على حين أنّه ما من شيء يتعرَّض به هذا القدر الكبير من الطاقة المشتركة للهدر مثل الكبرياء المتمثّلة في كون المرء مندوباً لكي لا يجعل هدفاً شخصيّاً محدداً يفلت من يديه. وفي نظام عام تتخلّله الطاقات يؤدّي كلّ طريق إلى هدف ملائم إذا لم يفرط المرء في طول التردد والتفكير. والأهداف محدَّدة على مدى قصير ولكنَّ الحياة نفسها قصيرة وعلى هذا النحو يستخلص المرء منها جدّاً أقصى مِمّا يبلغه. أمّا ما هو أكثر من ذلك فلا يحتاج إليه المرء من أجل سعادته لأنّ ما يبلغه المرء يشكّل النفس على حين أن ما يريده المرء ولا يتحقّق لا يزيد على أن يثني من عزمها. فارتباط السعادة بما يريد المرء ارتباط جد ضئيل وإنما ترتبط ببلوغه إياه. وفضلاً عن ذلك فإن علم الحيوان يفيد إنَّ من الممكن جداً أن يأتلف مجموعٌ عبقري من مجموعة من الأفراد ذوي الشأن الضئيل.

وليس من المؤكّد على الإطلاق أنّ هذا آتٍ بالضرورة على هذا النحو. ولكنَّ أمثال هذه التصوّرات تنتمي إلى أحلام الرحلات التي ينعكس فيها الشعور بالحركة التي لاقرار لها والتي ننساق معها إنها لسطحية مضطربة قصيرة والله يعلم ما سيكون بالفعل. وإنما ينبغي للمرء أن يقول أنّه قد يكون علينا أن نمسك بالبداية في أيدينا بكلّ دقيقة وأن نضع خطة لنا جميعاً واذا لم ترق لنا المسألة الخاصّة بالسرعات فلنصطنع شيئاً آخر! وليكن مثلاً شيئاً بطيئاً تماماً يتسّم بسعادة تخفق كالستار وخفاءٍ مثل قواقع البحر ونظرة عميقة كنظرة البقرة

twitter @baghdad_library

التي سبق أن تحمّس لها الإغريق. ولكنَّ الشيء ليس على هذا النحو مطلقاً فالشيء يمسك بنا في يده والمرء يسعي فيه ليلاً ونهاراً وهو يفعل بعدُ كلّ شيء آخر فيه فالمرء يحلق ويأكل ويحبّ والمرء يقرأ الكتب ويمارس مهنته وكأن الجدران الأربعة وقفت ساكنة وإنما يتمثَّل الشيء الرهيب في مجرّد أن الجدران تسير بدون أن يلاحظ المرء ذلك وهي تطرح أمامها قضبانها التي تجري عليها كخيوط طويلة تتلّمس الأرض محدَوْدبةً بدون أن يعلم المرء إلى أين وينبغي للمرء فوق ذلك بعدُ وحيثما أمكنه ذلك أن ينتمي إلى الطاقات التي تحدد الزمن وهذا دور شديد الغموض وقد يحدث عندما يطل المرء ببصره بعد وقفة طويلة يكون المنظر الطبيعي قد تغيّر وما يمرّ هنا في طيرانه إنما يمرّ طائراً لأنّه لا يستطيع أن يكون على غير هذا النحو ولكنَّ مع كلّ الإستسلام يكتسب الشعور غير المستساغ مزيداً من القوّة على نحو مطّرد وكأن المرء قد تجاوز الهدف أو دخل مسافة خاطئة. وذات يوم تحل الحاجة العاصفة: نزولاً! وثوباً! إنّه حنين إلى التعرُّض للوقوف وعدم التطوّر والتوقُّف والعودة إلى نقطة تقع قبل الحيدان الخاطىء! وفي العصر القديم الطيّب حين كانت الإمبراطورية ماتزال موجودة كان في وسع المرء أن يغادر قطار الزمن وأن يقعد في قطار عادي في خط حديدي عاديّ ويعود إلى الوطن.

وهناك في كاكانيا هذه الدولة الآفل نجمها منذ ذلك الوقت وغير المفهومة والتي كانت أُنموذجيّة في أموركثيرة جداً بدون أن يُعتَرف بها كان يوجد إيقاع سريع ولكنَّ لم يكن يوجد قدر مفرط من سرعة الإيقاع. وكان المرء كلّما فكَّر في هذه البلاد وهو في الغربة كانت تطوف أمام العيون ذكرى الشوارع البيض العريضة ذات اليسار من أيام الجولات على الأقدام والخفراء الخصوصيين مِمّا كان يتخلّلها في كلّ الإتجاهات كأنّهار النظام وكالأشرطة المتّخذة من النسيج الصفيق الفاتح اللون الخاص بالجند وكان يطوّق البلدان بذراع الإدارة

الأبيض كالورق: وأية بلدان هذه! لقد كان يوجد هناك جُموَدِيّاتٌ وبحر وأقليم الكارست وحقول الذرة البوهيمية والليالي على الأدرياتيكيّ تصرُّ من صخب الجنادب وقرى سلوفاكية كان يتصاعد فيها الدخان من المدافىء كما يتصاعد من منخرين منفتحين يجثم على القرية بين الرابيتين الصغيرتين وكأنّ الأرض فتحت شفتيها قليلاً لتدفىء طفلها بينهما. وبالطبع فقد كانت تجري على هذه الطرق أيضاً سيارات ولكنَّ لم يكن ثمة قدر كبير من السيارات! وكان الناس يتَّخذون الأهبة لغزو الجو هنا أيضاً ولكنَّ ليس بالقدر المفرط في الحدة وكان القوم يبعثون هنا وهناك بسفينة إلى جنوبي أمريكا أو إلى شرقي آسيا ولكنَّ ليس كثيراً جداً فلم يكن القوم ينطوون على طموح يتّصل بالاقتصاد العالمي والقوّة العالمية. لقد كانوا يستقرّون في وسط أوروبا حيث كانت تتقاطع محاور العالم القديم وكان القوم ما يزالون يستمعون إلى كلمات المستعمرة وما وراء البحار استماعهم إلى شيء مايزال غير مجرّب تماماً وبعيداً كلّ البعد. لقد كانوا يعيشون في ترف على أنّه لم يكن أبداً ترفاً بالغ الإرهاف كالفرنسيّين وكانوا يمارسون الرياضة ولكنَّ ليس بهذه الدرجة الجنونيّة كالأنجلو ساكسون وكانوا ينفقون المبالغ الطائلة على الجيش وهي كثيرة على وجه الخصوص كانت بحيث ظلّ القوم على وجه اليقين القوّة الثانية في الضعف بين القوى العظمى. وحتى العاصمة كانت تصغر كلّ المدن الكبرى الأخرى في العالم ببعض الأمور ولكنَّ لا ريب أنّها كانت أكبر إلى حدٍّ لا يستهان به مِمّا تكون عليه المدن الكبرى وكانت هذه البلاد تدار بطريقة متنوّرة قلّما يتمّ الشعور بها تشذَّب كلّ الذوائب في حذر من قبل أفضل البيروقراطيات في أوروبا وهي التي لم يستطع امرؤٌ أن ينسب إليها إلّا خطأً واحداً: وهو أنّها كانت تحسّ بالعبقرية والإقدام العبقري في الأشخاص الخصوصيين الذين لم يكونوا يتمتَّعون بالإمتياز الخاص بها بحكم النسب الرفيع أو الوظيفة الرسميّة بمقدار ما يتمتَّعون بذلك بحكم السلوك المتطرِّف والخيلاء. ولكنَّ من تراه

twitter @baghdad_library

يدع غير المؤهلين يتدخلون في شؤونه عن طيّب خاطر! وفضلاً عن ذلك ففي كاكانيا كان العبقري وحده هو الذي يعدّ جاهلاً أبداً ولكنَّ لم يكن الجاهل يعدّ عبقرياً أبداً كما كان يحدث في أماكن أخرى.

وما أكثر ما يمكن أن يقال عن الأشياء الجديرة بالذكر حول كاكانيا هذه التي أفل نجمها! لقد كانت على سبيل المثال ملكيّة ـ امبراطورية وكانت امبراطورية وملكية. وكان كلّ شيء وكل شخص هناك يحمل إحدى الشارتين م.أ أو م وأ. غير ان الحاجة كانت إلى علم سريّ لكي يستطيع المرء أن يميّز تمييز الواثق دائماً أيّ المؤسّسات وأي الناس كان من الواجب أن يطلق عليهم اسم م.أ وأيهم يطلق عليه م وأ. لقد كانت تسمّى في النص المكتوب المملكة النمساوية ـ المجر وكانت تسمّى شفهياً النمسا أيّ باسم كانت قد طرحته بقسم الولاء الاحتفالي للدولة ولكنّها احتفظت به في كلّ المسائل الخاصّة بالشعور وكان ذلك آية على أن المشاعر تعدل في أهميتها القانون العام وعلى أن التعليمات لا تعنى جدَّ الحياة الفعلي لقد كانت متحررة من حيث دستورها غير أنّها كانت تحكم حكماً كهنوتياً. لقد كانت تحكم كهنوتياً ولكنَّ الناس كانوا يعيشون حياة تتَّسم بحريّة الفكر. وكان المواطنون جميعاً متساوين أمام القانون غير أنّهم لم يكونوا مواطنين كلّهم. وكان للناس برلمان كان يبلغ من استعماله الشديد لحريته أنّه كان يظلّ في العادة مغلقاً ولكنَّ كان للقوم أيضاً مواد تتصل بحالة الطوارىء كانوا يستغنون بها عن البرلمان وفي كلّ مرّة كان الناس فيها جميعاً يطيبون نفساً بالحكم المطلق كان التاج يأمر بالعودة الآن إلى الحكم البرلماني من جديد. وكان هناك الكثير من أمثال هذه الأحداث في هذه الدولة وإليها تنتمي أيضاً تلك الضروب من الصراع القومي التي اجتذبت اليها فضول أوروبا بحق وهي تصوَّر اليوم تصويراً خاطئاً كلّ الخطأ. لقد كان يبلغ من شدتها أن آلة الدولة كانت تتعثّر وتتوقف من جرائها أكثر من مرّة في السنة

ولكنَّ الناس كانوا ينسجمون فيما بينهم في الفترات الفاصلة وفي فترات استراحة الدولة على نحو ممتاز ويتصرّفون كأن لم يكن شيء على أنّه لم يكن ثمة شيء فعليٌّ أيضاً. وكل ما في الأمر أن نفور كلّ إنسان من مطامح كلّ إنسان آخر وهي التي نتفق عليها اليوم نحن جميعاً كان قد تكوّن في هذه الدولة منذ عهد مبكر ويستطيع المرء أن يقول أنّه انتهى إلى طقوس مصعَّدة وكان من الممكن بعدُ أن تكون له نتائج كبيرة لو أن تطوُّره لم يتعرّض للمقاطعة من جرّاء كارثة قبل الأوان. فلم يتعرّض النفور من الإخوة في المواطنة هناك للتصعيد إلى شعور اجتماعي فحسب بل اتّخذ سوء ظن المرء بشخصيته الخاصّة وبمصيرها طابع الثقة العميقة بالذات أيضاً. وكان الناس في هذه البلاد ـ وأحياناً حتى أقصى درجات العاطفة الجامحة ونتائجها ـ خلافاً لما يفكّرون دائماً أو يفكّرون خلافاً لما يتصرّفون. وقد عدَّ الملاحظون غيرُ أولي العلم هذا رقةً في الشمائل أو حتى ضعفاً في الشخصيّة النمساوية تبعاً لرأيهم ولكنَّ هذا كان خطأً وإنه لمن الخطأ دائماً تفسير الظواهر في بلد ببساطة بشخصية سكانه. ذلك لأنّ ساكن البلد ينطوي على شخصيّات تسع على الأقل: شخصيّة مهنية ووطنية وحكومية وطبقية وجغرافية وجنسيّة وشعورية ولا شعورية وربّما أيضاً شخصيّة خصوصيّة وهو يجمع بينها في ذاته غير أنّها تشتّته وهو في الحقيقة ليس شيئاً سوى حوض صغير تغسله هذه الجداول الكثيرة التي تغيض فيه والتي تعود إلى الخروج منه لكي تملأ مع جداول صغيرة أخرى حوضاً آخر. ومن أجل ذلك يتمتَّع كلّ ساكن للأرض بعدُ أيضاً بشخصية عاشرة وهذه ليست شيئاً سوى الخيال السلبي الخاص بمجالات غير ممتلئة فهي تتيح للإنسان كلّ شيء إلّا هذا الأمر الواحد: وهو أن يأخذ مأخذ الجدّ ما تفعله شخصيّاته الأخرى التي تبلغ تسعاً على الأقل وما يحدث لها أيّ بعبارة أخرى ألّا يفعل على وجه الخصوص ما يفترض أن يرضي لقد كان هذا قد حدث في كاكانيا على قدر ما يمكن أن يتجلّى لكلّ العيون وقد كانت

twitter @baghdad_library

كاكانيا في هذا الصدد وبدون أن يكون العالم قد عرف ذلك أكثر الدول تقدماً. لقد كانت الدولة التي كانت ماتزال تشارك في صنع نفسها بنفسها فحسب على أيّ نحو من الأنحاء وكان القوم أحراراً حرية سلبية في كونهم إذ يشعرون على الدوام بالأسباب غير الكافية لوجودهم وبالخيال الكبير تجاه مالم يحدث أو حدث حقاً على نحو لا سبيل إلى ردّه كأنّما يغتسلون بأنفاس المحيطات التي صدرت عنها البشريّة.

لقد كان القوم يقولون حدث هذا حين كان الآخرون في الأماكن الأخرى يعتقدون أنّ ما حدث إنما كان أعجوبة وكانت هذه كلمة فريدة في نوعها لا ترد في العادة في أيّ مكان آخر في الألمانية أو في لغة أخرى إذ تغدو الحقائق وضربات القدر في نفحتها خفيفة كالزغب والأفكار. أجل ربّما كانت كاكانيا على الرغم من الكثير الذي ينطق خلافاً لذلك بلداً للعبقريات حقاً والظاهر أنّها انهارت أيضاً من جرّاء ذلك.

[٩]

المحاولة الأولى من محاولاتٍ ثلاث للتحوُّلِ إلى رجلٍ له شأنه

ولم يستطع هذا الرجل الذي كان قد عاد أن يذكر وقتاً من حياته لم يكن مفعماً بروح الإرادة إرادة أن يغدو رجلاً له شأنه وكان يبدو أنَّ أولريش قد ولع مع هذه الرغبة. وانه لمن الحقّ أنّ مثل هذا المطلب يمكن أن يشيَ أيضاً بالغرور والغباء ومع ذلك فإنَّ مِمّا لا يقلّ عن ذلك صحة إنها رغبة جامحة بالغة الجمال والصحة يبدو أنّه ما كان ليوجد بدونها كثير من عظماء البشر.

على أن الأمر الخطير في ذلك كان يتمثَّل في مجرّد أنّه ما كان يعرف كيف يصبح المرء واحداً من هؤلاء ولا كان يعرف من هو الإنسان ذو الشأن لقد كان في أيام دراسته قد عدّ نابليون من هذا القبيل وقد حدث هذا من جراء الإعجاب الطبيعيّ عند الشباب بما هو إجراميّ من ناحية ولأن القائمين بالتعليم كانوا يشيرون صراحة إلى هذا الطاغية الذي حاول أن يقلب أوروبا رأساً على عقب على أنّه أكثر الجناة في التاريخ جبروتاً. وكانت النتيجة أن أولريش أصبح حامل راية في كتيبة للفرسان بمجرّد أن تخلّص من المدرسة. وأغلب الظن أنّه حين سئل في تلك الأيام عن أسباب اختيار هذه المهنة ما عاد يجيب قائلاً: لكي يصبح طاغية ولكنَّ أمثال هذه الرغائب توجد لدى السوعيِّين. وذلك أن عبقرية نابليون لم تأخذ التفتح إلّا بعد أن أصبح جنرالاً. وعلى أيٍّ نحو كان ينبغي لأولريش حامل الراية أن يقنع رئيسه العقيد بضرورة هذا الشرط؟! على أنّه لم يكن من النادر حتى منذ التدرّب في كتيبة الخيّالة أن

twitter @baghdad_library

يظهر أن العقيد كان يختلف عنه في الرأي ومع ذلك فما كان أولريش ليلعن ميدان التدريب الذي لا يمكن على رقعته الوادعة التمييز بين الخيلاء والكفاءة لولا أنّه كان بالغ الطموح. أما التعبيرات الجانحة إلى السلام «تربية الشعب من خلال السلاح» فلم يكن يجعل لها في تلك الأيام أدنى قيمة» بل كان يدع نفسه تمتلىء بذكرى عاطفية جامحة حول الأحوال البطولية الخاصّة بشعور الحاكم والجبروت والكبرياء. وقد سابق في الفروسية وبارز وكان يميّز بين ثلاثة أنواع من البشر فحسب: الضباط والنساء والمدنيين. أما الآخرون فطبقة غير متطوّرة جسدياً وهي تبعث على الإزدراء فكرياً كانت نساؤها وبناتها يتعرَّضن للخطف من قبل الضباط وكان يستسلم لتشاؤم عظيم: إذ كان يبدو له أنّه لما كانت مهنة الجند آلة حادة ولاهبة كان لا بدّ للمرء أن يحرق العالم ويحصده بهذه الآلة من أجل شفائه.

والحق أنّه كان من حسن حظه أنّه لم يحدث له شيء في هذا السبيل غير أنّه عرضت له تجربة ذات يوم. فقد نشأ بينه وبين رجل معروف من رجال المال في سهرة خلاف صغير أراد أن يحسمه بطريقته البارعة غير أنّه تبيّن أن هناك بين المدنيين أيضاً رجالاً يعرفون كيف يحامون عن ذوي قرباهم من النساء. وكان لرجل المال حديث مع وزير الحربية الذي كان يعرفه معرِّفة شخصيّة وكانت النتيجة أن أولريش لقي من صاحبه العقيد حديثاً أطول جرى له فيه إيضاح الفرق بين الدوق وبين الضابط البسيط. ومنذ ذلك الوقت ما عادت تسره مهنة المحارب. فقد كان ينتظر أن يجد نفسه على مسرح للمغامرات التي تهزّ العالم والتي سيكون هو بطلها ورأى مرّة واحدة شاباً سكيراً يعربد في ميدان فسيح خال فلا تجيبه إلّا الحجارة. وعندما أدرك هذا ودّع هذا المسار الناكر للجميل الذي كان قد مضى فيه إلى درجة الملازم وترك الخدمة.

[١٠]

المحاولة الثانية. بوادر أخلاقٍ للرجل بلا صفات

غير أن أولريش لم يزد على أن بدّل الحصان عندما تحوّل من الفروسية إلى التقنيّة وكان للحصان الجديد أعضاء من الفولاذ وكان يجري بسرعة تعدل عشرة أضعاف تلك السرعة.

وقد كانت جعجعة الأنوال في عالم غوته ماتزال تشويشاً أمّا في أيام أولريش فقد أخذ القوم يكتشفون أغنية صالات الآلات ومطارق البَرْشَمة وصفّارة المعمل وبالطبع فإنه لا يجوز للمرء أن يعتقد أن الناس سرعان مالاحظوا أن ناطحة السحاب أكبر من رجل على الحصان. بل أنّهم مازالوا حتى اليوم على النقيض من ذلك إذا أرادوا أن ينقضّوا على شيء خاص فإنهم لا يقعدون على ناطحة السحاب بل على الجواد العالي وهم في سرعة الريح لهم بصر حاد ليس كالتلسكوب الانكساري العملاق بل كالنسر. أما شعورهم فلم يتعلّم بعد كيف يستخدم عقلَهم وبين هذين كليهما يوجد الفرق الخاص بالتطوّر الذي يكاد يعدل في ضخامته الفرق بين الزائدة الدودية وقشرة الدماغ على أنّه لا يعدّ أيضاً من قبيل الحظ الضئيل أبداً أن ينتهي المرء كما حدث لأولريش بعد انقطاع سنوات مراهقته إلى أن الإنسان يسلك في كلّ ما يُعَدُّ الأسمى لديه سلوكاً أقرب كثيراً إلى الزيّ القديم من آلاته.

وقد كان أولريش حين دخل قاعات الميكانيك التعليمية متحيّراً تحيّراً محموماً منذ اللحظة الأولى. فلماذا يحتاج المرء بعدُ إلى أبوّلو صالة البلفدير عندما تتوفر أمام عينيه الأشكال الجديدة للمولّد العَنَفي (التوزيني) أو

twitter @baghdad_library

الحركات المختلطة للأعضاء الخاصّة بتوجيه آلة بخارية! ومن ذا الذي يفترض أن يقيّده الحديث الذي يرجع إلى ألف عام حول ماهية الخير والشر إذا ما تبيّن أن هذا لا يمثّل على الإطلاق «ثوابت» بل «قيماً خاصة بالدالّة الرياضيّة» بحيث ترتبط فضيلة الأعمال بالظروف التاريخية وفضيلة البشر بالكفاءة التقنيّة ـ النفسية التي يستغلّ بها المرء خصائصها! فالعالم مضحك ببساطة عندما ينظر المرء إليه من وجهة النظر التقنيّة وهو غير عملي في كلّ علاقات البشر بعضهم مع بعض وهو في طرائقه غير اقتصادي وغير دقيق إلى أقصى الحدود. ومن كان معتاداً أن ينجز أموره بالمسطرة الحاسبة لم يكن في وسعه ببساطة أن يتَّخذ النصف الكامل من كلّ الدعاوى البشريّة مأخذ الجد. أما المسطرة الحاسبة فهي نظامان متداخلان من الأعداد والخطوط تداخلاً يقوم على حدة الذهن إلى حدٍّ لم يُسمَع بمثله. فالمسطرة الحاسبة قضيبان صغيران مطليّان بالأبيض يتداخلان منزلقين فيما بينهما لهما مقطع عرضيّ على شكل المعيّن المنحرف بصورة منبسطة ويستطيع المرء بواسطتهما أن يحلّ أعقد المسائل بسرعة خاطفة بدون أن يفقد فكرة بغير فائدة. والمسطرة الحاسبة رمز صغير يحمله المرء في جيب الصدر ويحسّ به قضيباً أبيض قاسياً فوق القلب. وعندما يمتلك المرء مسطرة حاسبة ويأتي امرؤٌ ادعاءات كبيرة أو مشاعر كبيرة يقال له: لحظة من فضلك فنحن نريد قبل كلّ شيء أن نحسب حدود الخطأ والقيمة الأكثر احتمالاً لهذا كله!

لقد كان هذا بلا ريب تصوّراً مفعماً بالقوّة عن النظام الهندسي وقد كان يشكّل الإطار لصورة ذاتية مستقبليّة مفعمة بالجاذبية كانت تظهر رجلاً ذا ملامح تنمّ عن التصميم يمسك بغليون بين أسنانه ويعتمر قبعة رياضية وهو يلبس جزمة فروسية رائعة في طريقه بين مدينة الكاب وكندا لكي ينفذ مشاريع جبارة لمحله التجاري. وفي هذه الأثناء يظلّ المرء يتمتَّع دائماً بالوقت لكي

يتلقّى نصيحة من أجل إعداد العالم وتوجيهه أو يصوغ أقوالاً مأثورة كأقوال إمرسون الذي كان عليه أن يعلّق فوق كلّ ورشه قوله: «الناس يتعاقبون على الأرض في صورة نبوءات للمستقبل وكل أعماله محاولات وتجاريب لأنّ كلّ عمل يمكن أن يتمّ التفوّق عليه من قبل العمل التالي!» ـ وإذا أردنا الدقة فقد كانت حتى هذه الجملة لأولريش قد رُكِّبَت من جمل عديدة لإمرسون.

ومن الصعب أن يقال لماذا لا يكون المهندسون تماماً على النحو الذي يتلاءم مع هذا ولماذا يحملون مثلاً في كثير من الأحيان سلسلة ساعة تنتهي في قوس أحادي الجانب شديد الإنحدار من جيب الصُدَيْريّ إلى زرّ ذي موقع مرتفع أو يدعون رَفْعةً وخفضتين تتشكّل فوق البطن كأنّها في قصيدة؟ ولماذا يعجبهم أن يغرسوا دبابيس الصدر ذوات الأسنان كأسنان الأيائل أو حُذْوات صغيرة في ربطات عنقهم؟ ولماذا يتمّ تشكيل حُلَلِهم مثل مقدمات السيارات؟ وأخيراً لماذا يكون لهم عند ذلك أسلوب خاص ثقيل متفكك سطحي في الحديث لا يبلغ في الإتجاه الداخلي مبلغاً أعمق من لسان المزمار؟ وهذا لا ينطبق بالطبع على كثير منهم إلى حدٍّ بعيد على أن أولئك الذي تعرَّف عليهم أولريش عندما التحق بالخدمة أوّل مرّة في مكتب المصنع كانوا كذلك والذين تعرّف عليهم في المرّة الثانية كانوا كذلك أيضاً. لقد كانوا يتجلَّوْن رجالاً يرتبطون بلوحات رسمهم برباط وثيق ويحبّون مهنتهم ويتمتَّعون فيها ببراعة جديرة بالإعجاب. غير أنّهم كانوا سيحسّون باقتراح تطبيق جرأة أفكارهم على أنفسهم بدلاً من تطبيقها على آلاتهم احساساً مماثلاً للمطالبة باستعمال مطرقة استعمالاً معاكساً للاستعمال الطبيعي أيّ استعمال القاتل لها.

وهكذا انتهت بسرعة المحاولة الثانية والأكثر نضجاً والتي كان أولريش قد قام بها لكي يغدو رجلاً غير عاديّ عن طريق التقنيّة.

twitter @baghdad_library

[١١]

أهمُّ المحاولات

لقد كان في وسع أولريش أن يهزّ برأسه اليوم حيال الوقت المنصرم حتى الآن وكأن أحداً يسرد له رحلته النفسيّة أما حيال المحاولة الثالثة فلم يكن ذلك في وسعه. ومِمّا يمكن فهمه إنَّ المهندس ينغمس في خصوصيته بدلاً من أن يصبّ في الحرية ورحابة عالم الأفكار على الرغم من أنّ آلاته تُصدَّر إلى أقاصي الأرض: ذلك لأنّه لايحتاج إلى أن يكون قادراً على نقل الجريء والجديد في روح تقنيته على نفسه الخصوصيّة مثلما أنَّ الآلة ليست على استعداد لأنّ تطبِّق على نفسها المعادلات الخاصّة باللانهائيات في الصغر والكامنة في أساسها غير أن هذا لا يمكن أن يقال عن الرياضيّات فهناك نظرية التفكير الجديدة ذاتها والفكر ذاته إذ تكمن مصادر الزمن والأصل الخاص بإعادة التشكيل الهائلة.

وعندما تكون المسألة تحقيق الأحلام الأولى في التمكّن من الطيران والرحيل مع الأسماك والتنقيب تحت كتل الجبال العملاقة وإرسال رسائل بسرعة الهية ورؤية غير المرئي والبعيد وسماع حديثه وسماع حديث الموتى والإنغماس في نوم نقاهة يصنع الأعاجيب وتمكُّن المرء من أن يرى بعينَيْ الحيّ كيف سيبدو بعد عشرين عاماً من موته وأن يعرف المرء في الليالي المتألِّقة آلاف الأشياء فوق هذا العالم وتحته مِمّا لم يكن أحد يعرفه من قبل وإذا كان الضوء والحرارة والطاقة والمتعة والراحة هي الأحلام الأولى للبشرية ـ فإنَّ البحث المعاصر ليس علماً فحسب بل سحراً وطقساً يتَّسم بذروة

طاقة القلب والدماغ يفتح الرب له ثنية من ثنايا إهابه بعد الأخرى ودينا تتخلّل عقائده وتنهض بها نظرية التفكير الرياضيّ الصلبة الجريئة المرنة الباردة والحادّة كالسكين.

أجل إن مِمّا لا سبيل إلى إنكاره أنّ كلّ هذه الأحلام الأولى إنما تحقّقت فيما يرى الرياضيّون مرّة واحدة بطريقة مختلفة تماماً عمّا كان الناس يتصوّرون هذا في الأصل. لقد كان بوق البريد عند مُنشئها وأن أجمل من صوت مصمّم داخل العلبة في المصنع وكانت جزمة الأميال السبعة أجمل من السيارة وكانت دولة لورين أجمل من نفق الخط الحديدي وكان الجذر السحري أجمل من الصور المرسلة بالبرق وكان أكل المرء من قلب أمه وفهمه للطير أجمل من دراسة في علم نفس الحيوان حول الحركات التعبيريّة الخاصّة بصوت الطائر. لقد كسب الناس الواقع وخسروا الحلم. وما عاد المرء يرقد تحت شجرة وينظر من خلال إبهام قدم وسبابتها إلى السماء بل بات المرء يبدع ولا يجوز للمرء أيضاً أن يكون جائعاً شارداً في الأحلام إذا ما أراد أن يكون صالحاً بل يجب أن يأكل شرائح لحم البقر وأن يتحرَّك. إنَّ المسألة هي بالضبط كما لو أن البشريّة القديمة غير الصالحة كانت قد غفت فوق كومة من النمل وعندما استيقظت الجديدة كان النمل قد سرى في دمها وبات عليها منذ ذلك الوقت أن تقوم بأشد الحركات عنفواناً بدون أن تستطيع أن تنفض عن نفسها هذا الشعور الحاد بالنزعة الحيوانية إلى العمل. على أن المرء لا يحتاج بالفعل إلى أن يكثر من الحديث عن ذلك فمن الجليّ لمعظم الناس اليوم على أيّة حال أنَّ الرياضيّات قد سرت كشيطان في كلّ استعمالات حياتنا. وربّما لم يكن كلّ هؤلاء البشر يؤمنون بقصة الشيطان الذي يستطيع المرء أن يبيعه روحه غير أن كلّ الناس الذين لا بدّ أن يفهموا شيئاً عن الروح لأنهم يحصلون بحكم كونهم كهّاناً ومؤرِّخين وفنّانين على عوائد جيّدة من جرائها يشهدون أنّ الرياضيّات

twitter @baghdad_library

دمّرتهم وأن الرياضيّات تشكّل مصدر عقل خبيث يجعل من الإنسان سيّد الأرض حقاً ولكنّه يجعل منه عبداً للآلة. إنَّ الجفاف الداخلي والمزيج الفظيع من الحدة على وجه التفصيل ومن اللامبالاة على وجه الإجمال والوحشة الهائلة للإنسان في صحراء من التفاصيل واضطرابه ونزعة الشر عنده ولا مبالاة القلب التي لا نظير لها وحبّ المال والبرود والعنف على النحو الذي يتميّز به عصرنا يجب أن يكنَّ تبعاً لهذه الروايات على سبيل الحصر نتيجة الخسائر التي يلحقها التفكير الحاد من حيث المنطق! وكذلك وُجِد حتى منذ تلك الأيام حين أصبح أولريش رياضيّاً أناس تنبّأوا بانهيار الحضارة الأوروبية إذ ما عاد يستكنّ في الإنسان إيمان ولا حبّ ولا بساطة ولا خير ومن الأمور ذات الدلالة انهم كانوا جميعاً في أيام صباهم ودراستهم رياضيين رديئين وبذلك تحقّق لهم فيما بعدُ البرهنةُ على أنّ الرياضيّات أمّ العلوم الطبيعية الدقيقة وجدّة التقنيّة إنما هي أيضاً الأمّ الأولى لذلك الفكر الذي انبثقت منه في النهاية الغازات السامة والطائرات المقاتلة.

والحق أنّه لم يكن يعيش على جهل بهذه الأخطار إلّا الرياضيّون أنفسهم وتلاميذهم الباحثون في الطبيعة الذين لم يكونوا يحسّون بشيء من هذا كلّه إلّا بمقدار ما يحسّه المتسابقون بالسيارات الذين ينطلقون بنشاط ولا يلاحظون شيئاً في الدنيا سوى العجلة الحلفيّة للمتقدّم عليهم. أمّا أولريش فقد كان في وسع المرء في مقابل ذلك أن يقول عنه شيئاً واحداً على سبيل اليقين وهو أنّه كان يحبّ الرياضيّات من أجل البشر الذين لم يكن في وسعهم أن يطيقوها وقد كان ولعه بالعلم ولعاً بشرياً أكثر منه علمياً. فقد كان يرى أن العلم ينظر إلى كلّ المسائل التي يرى نفسه مختصّاً بها نظرة تختلف عن نظرة البشر العاديين. ولو أنَّ المرء وضع بدلاً من النظرات العلميّة نظرة مأخوذة من الحياة وبدلاً من الفرضيَّة تجربة وبدلاً من الحقيقة فعلاً لما وجد عمل من أعمال الحياة لباحث

مرموق من الباحثين في الطبيعة أو لرياضيّ لا يتفوَّق شجاعة وقدرة على التقويض تفوقاً بعيداً على أعظم الأعمال في التاريخ. ولم يكن قد ظهر بعدُ إلى حيّز الوجود الرجلُ الذي كان من الممكن أن يقول للمؤمنين به: اسرقوا واقتلوا واقترفوا المنكر ـ فتعاليمنا يبلغ من قوتها أنّها تصنع من بَوْل خطاياكم جبالاً من الماء رائقة مزبدة غير أنّه يحدث في العلم كلّ بضع سنوات أن يقلب شيءٌ كان يعدّ حتى الآن خطأً كلّ النظرات فجأة رأساً على عقب أو تتحوّل فكرة تافهة مزدراة إلى مسيطر على مملكة جديدة من الأفكار وأمثال هذه الأحداث لا تكون هناك مجرّد انقلابات بل تفضي مثل سُلَّم سماويٍّ إلى الأعالي. ففي العلم تسير الأمور على نحو يبلغ من القوّة واللامبالاة والروعة ما تبلغه الأسطورة. وكان أولريش يشعر أنَّ الناس لا يعرفون هذا فحسب وليس لديهم فكرة عن الكيفيَّة التي يمكن للمرء أن يفكِّر بها ولو أمكن تعليمهم كيف يفكِّرون على نحو جديد لعاشوا على نحو مختلف أيضاً.

والآن سوف يتساءل امرؤٌ هل تسير الأمور في العالم على نحو معكوس بحيث لا يكون هناك بدٌّ من قَلْبها أبداً؟ ولكنَّ العالم قدَّم بنفسه جوابين منذ عهد طويل. ذلك لأنّه منذ وجود العالم كان معظم الناس في شبابهم يميلون إلى القَلْب وهو قطعة من اللحم بدلاً من الدماغ. وقد لاحظ هؤلاء البشر الأحدث سناً على الدوام أنَّ الغباء الأخلاقي عند الكبار يعدّ نقصاً في المقدرة الجديدة على الربط مثلما يعدّ الغباء الذهني المألوف وكانت الأخلاق الطبيعية بالقياس اليهم أنفسهم أخلاق الإنجاز والبطولة والتغيير. ومع ذلك فإنهم ما عادوا يعرفون شيئاً من ذلك بمجرّد وصولهم في سنوات التحقيق وكانوا أقلّ من ذلك بعدُ رغبة في المعرِّفة. ومن أجل ذلك سوف يحسّ أيضاً كثير من الناس الذين تعني الرياضيّات أو العلوم الطبيعية مهنة بالقياس إليهم أنَّ من

twitter @baghdad_library

قبيل إساءة الإِستعمال أن يجنح المرء إلى عِلْمٍ ما بناء على أسباب لتلك التي كانت لدى أولريش.

ومع ذلك فقد كان قد أنجز الآن في هذه المهنة الثالثة منذ أن تولّاها قبل سنين قدراً ليس بالقليل أبداً تبعاً لحكم أهل الخبرة.

[١٢]

السيِّدة التي ظفر أولريش بحبها بعد حديث في الرياضة والتصوّف

وقد تبيَّن أنّ بوناديا أيضاً كانت تطمح إلى أفكار كبرى.

وكانت بوناديا هي السيِّدة التي أنقذت أولريش في ليلة ملاكمته التعسة وزارته في الصباح التالي محجبّة بحجاب صفيق. وكان قد عمّدها باسم بوناديا الربّة الطيِّبة لأنَّها دخلت حياته على هذا النحو وكان ذلك أيضاً مأخوذاً عن إلهة للعفّة كان لها في روما القديمة معبد تحوّل عن طريق انقلاب غريب إلى بؤرة لكلّ ألوان الفجور. ولم تكن تعرف هذا فقد أعجبها الإسم الرنان الذي أطلقه عليها أولريش وكانت تحمله في زياراتها كثوب منزليّ مطرز تطريزاً فخماً. وكانت تسائله قائلة: «إذاً فأنا ربّتُك الطيّبة؟ ربّتُك بونا ذ ـ ذ ديا؟ ـ وكان النطق الصحيح بهاتين الكلمتين يقتضي أن تضع ذراعيها أثناء ذلك حول عنقه وترمقه ورأسها مرتدّ قليلاً إلى الوراء على نحو مفعم بالرقة.

كانت زوجة رجل مرموق وأمّاً رقيقة لغلامين جميلين وكان المفهوم المفضَّل عندها «التهذيب الرفيع» فكانت تطبّقه على البشر والسُعاة والأعمال والمشاعر إذا ما أرادت أن تقول شيئاً حسناً عنهم. وكانت على استعداد للنطق «بالحق والخير والجمال» بصورة متواترة وطبيعية مثلما ينطق امرؤ آخر بكلمة «الأربعاء». وكان ما يرضي حاجتها الفكريّة أعمق الرضى تصوّر حياة هادئة مثالية في وسطٍ يشكِّله الزوج والأطفال بينما تضيف تحت هذا على مدى عميق المملكة المظلمة «لا تدفع بي إلى التجربة» وتخمد برعشاتها السعادة المشرقة

twitter @baghdad_library

فتحوّلها إلى ضوء مصباح خافت. وكانت تنطوي على نقيصة واحدة فحسب وهي أنّها كانت قابلة للإثارة إلى حدٍّ غير مألوف على الإطلاق وذلك من مجرّد النظر إلى الرجال. ولم تكن شهوانيّة أبداً بل كانت حسّاسة مثلما ينطوي الناس الآخرون على آلام أخرى كأن تتعرَّق أيديهم مثلاً أو تتغيّر ألوانهم وكانت فيما يبدو مجبولة على هذا ولم يكن في وسعها التصدي له أبداً وعندما تعرّفت على أولريش في ظروف رومانسية مثيرة للخيال إلى هذا الحد وعلى نحو فائق كتب عليها منذ اللحظة الأولى أن تكون فريسة لعاطفة جامحة بدأت في صورة شعور بالرثاء غير أنّها تحوّلت بعد صراع قصير ولكنَّه عنيف إلى علاقات سريّة محرّمة واستمرّت في صورة تعاقب بين قَضْمات من الخطيئة وبين الندم.

غير أنّ أولريش كان في حياتها الحالة ذات الرقم الذي لا يعرفه إلّا الله. على أنَّ من شأن الرجال في معظم الأحيان ألّا يعاملوا أمثال هؤلاء النسوة الظامئات إلى الحبّ بمجرّد أن يكونوا قد اطلعوا على الملابسات معاملة أفضل من معاملة المجانين الذين يستطيع المرء أن يضلّلهم بأكثر الوسائل غباءً لكي يتعثّروا المرّة بعد الأخرى بالشيء ذاته. ذلك لأنّ أكثر مشاعر الإستسلام الرجوليّ رقة يعدّ على وجه التقريب مماثلاً لهرير نمر أمريكي على قطعة لحم ويحمل التشويش في هذا الصدد على محمل بالغ السوء. وكان من نتائج هذا أنَّ بونادِيا كانت في الغالب تعيش حياة مزدوجة لا تماثل إلّا حياة أيّ مواطن يوميّ شريف يعدّ في الأركان الفاصلة المظلمة من وعيه لصّاً من لصوص الخطوط الحديدية. وكانت هذه السيّدة الهادئة المهيبة الطلعة يتولّاها الغمّ بمجرّد ألّا يطوّقها أحد بذراعيه وكانت هذه السيّدة الهادئة المهيبة الطلعة يتولّاها الغمّ بمجرّد ألّا يطوّقها أحد بذراعيه من جراد ازدراء الذات الذي تحدثه الأكاذيب وضروب إراقة ماء الوجه التي كانت تعرض نفسها لها لكي

تطوّق بالذراعين فإذا ما اسُتثيرت حواسها تولّتها الكآبة والطيّبة بل اكتسبت في مزيجها من الحماسة والدموع ومن الفطرية الفظّة ومن الندامة القادمة لا محالة وفي انبثاق جنونها من الإكتئاب الذي بات يتربّص بها مهدّداً فتنةً كانت تضاهي في إثارتها الدوران اللولبي الذي لا ينقطع لطبل ينطوي على كآبة غامضة. غير أنّها كانت في الفترة الفاصلة الخالية من النوبات في الندامة بين حالتي ضعف تلك الندامة التي كانت تجعلها تشعر بعجزها مفعمة بدعاوى الشرف التي كانت تشكّل التعامل معها على نحو غير بسيط. لقد كان يجب على المرء أن يكون صادقاً وطيّباً ومواسياً في كلّ مصاب وأن يحبّ الأسرة الإمبراطوّرية ويحترم كلّ ما هو محترم وأن يسلك من الوجهة الأخلاقية سلوكاً ينطوي على الشعور الرقيق كما يفعل في مهجع للمرضى.

فإذا لم يحدث هذا فإنَّه لم يكن يغيّر أيضاً شيئاً في مجريات الأمور. وكانت قد اخترعت من أجل التبرير حكاية مفادها أنّها قد سيقت إلى حالتها البائسة من قبل زوجها في السنوات البريئة الأولى من زواجها. فقد كان هذا الزوج الذي كان أكبر منها سناً وأضخم جسداً إلى حدٍّ كبير يبدو كالبهيمة الفظيعة التي لا ترجو لشيء وقاراً وكانت قد تحدَّثت في ذلك إلى أولريش حتى في الساعات الأولى من حبّها الجديد حديثاً حافلاً بالمعاني على نحو كئيب. ولم ينته إلّا بعد بعض الوقت إلى أنَّ هذا الرجل كان حقوقياً معروفاً ومرموقاً له ضروب من النشاط العمليّ في ممارسة مهنته وكان فوق ذلك هاوياً للصيد يقتل قتلاً لا ضير فيه وضيفاً يسرّ الناس لرؤيته في الأركان المختلفة للزبائن الدائمين من الصيّادين وخبراء القانون حيث كان يجري الحديث عن شؤون الرجال بدلاً من الفن والحب. وكانت الخطيئة الوحيدة عند هذا الرجل الذي لا لفّ عنده ولا دوران والذي ينطوي على نفس طيّبة ويبتسم للحياة تكمن في أنَّه كان متزوجاً من زوجته وكان يجد نفسه من جراء ذلك داخلاً معها على نحو

twitter @baghdad_library

أكثر تواتراً منه عند الآخرين من الرجال في تلك العلاقة التي يسمِّيها المرء في لغة الجرائم بعلاقة المناسبات.

وكان الأثر النفسي للنزول طوال سنين على إرادة إنسان كانت بوناديا قد أصبحت زوجته بدافع الذكاء أكثر منها بدافع رغبة القلب قد كوَّن لديها وهماً مفاده أنّها مفرطة في قابلية الإثارة من الناحية الجسديّة وجعلت هذا الوهم يكاد يكون مستقلاً عن وعيها. وكان ثمة قسرٌ داخلي لا سبيل إلى أن تدركه هي ذاتها يشدّها بالأغلال إلى هذا الرجل الذي تواتيه الظروف وكانت تزدريه بسبب ضعف إرادتها الخاصّة وتشعر بأنها أضعف من أن تتمكّن من ازدرائه؛ وكانت تخادعه لكي تهرب منه غير أنّها كانت تتحدَّث في هذا الصدد في أقلّ اللحظات ملاءمة عنه أو عن الأطفال الذين أنجبتهم منه ولم تكن قط على استعداد للتخلص منه تماماً. ومثل كثير من النساء التعسات كانت تستمد تماسكها آخر الأمر في مجال من الحياة يتّسم في العادة بالتأرجح الشديد من النفور من زوجها الواقف ههنا بثبات وتنقل صراعها معه إلى كلّ تجربة جديدة يفترض أن تخلّصها منه.

ولم يبق شيء آخر لإسكات شكاواها سوى أن تحوّلها من حالة الإكتئاب إلى حالة الجنون. هنالك كانت تنكر على من كان يفعل هذا ويسيء استغلال ضعفها كلّ خلق نبيل غير أنّ معاناتها كانت تسدل حجاباً من الرقة النديّة فوق عينيها عندما كانت «تنحرف» إلى هذا الرجل كما دأبت على التعبير عن هذا بمسافة فاصلة علمية.

[١٣]

حصان سباق عبقري ينضج معرِّفةً كونه رجلاً بلا صفات

وليس من الأمور غير الجوهرية أنَّ أولريش كان يجوز له أن يقول لنفسه أنّه أنجز في علمه ما ليس بالقليل وكانت أعماله قد عادت عليه بالإستحسان أيضاً أما الإعجاب فقد كان خليقاً أن يكون مطلباً مفرطاً ذلك لأنّ الناس يولون الإعجاب حتى في مملكة العلم للكبار من العلماء فحسب وهم أولئك الذين يتوقَّف عليهم أن يصل المرء إلى الإجازة للتدريس الجامعي والأستاذيّة أم لا وإذا أردنا الدقة فقد كان قد ظلَ ما يسمّيه المرء أملاً وإنّما يسمّي الآمال في جمهورية العقول الجمهوريّين وهؤلاء هم أولئك البشر الذين يتصوّرون أنّه يجوز للمرء أن يكرّس كلّ طاقته للقضية بدلاً من أن يستعمل جزءاً كبيراً منها من أجل التقدّم الظاهري؛ وهم ينسون أنّ انجاز الفرد ضئيل وأنَّ التقدّم في مقابل ذلك رغبة الجميع ويهملون الوظيفة الإجتماعية للطموح تلك الوظيفة التي يجب على المرء حيالها أن يبدأ طامحاً لكي يستطيع في سنوات النجاح أن يقدِّم دعامة وركيزة يرتقي الآخرون بفضلها.

وذات يوم توقّف أولريش أيضاً عن الرغبة في أن يكون أملاً وكان قد بدأ في تلك الأيام الزمان الذي بدأ الناس فيه يتحدَّثون عن عبقريات جنون كرة القدم أو الملاكمة ولكنَّ من بين عشرة على الأقل من عباقرة المكتشفين أو الكتّاب لم يكن قد غاب بعدُ في تقارير الصحف أكثر من عبقري ضربة البداية أو تكتيكيّ عظيم في رياضة التنس على أقصى الحدود. وكانت العقلية

twitter @baghdad_library

الجديدة لمّا تشعر بعدُ بالأمان الكامل ولكنَّ هنالك على وجه الخصوص قرأ أولريش في مكان ما مثل صيف ناضج ذهبت به الريح قبل الأوان فجأة كلمة «حصان السباق العبقريّ» وقد جاءت في تقرير عن نصر في خطّ للسباق وربّما لم يكن الكتاب أبداً على وعي بالعظمة الكاملة للخاطرة التي كانت قد بثّتها في كلمة روح الجماعة. غير أنَّ أولريش أدرك مرّة واحدة بأيّ رابطة لا مفرّ منها يرتبط كلّ مساره بهذه العبقرية الخاصّة بخيول السباق. ذلك لأنَّ الحصان كان منذ القدم حيوان الفروسية المقدَّس وكان أولريش في صباه في الثكنات قلما سمع الآخرين يتحدَّثون إلّا عن الخيل والنساء وقد هرب من ذلك لكي يغدو إنساناً له شأنه وعندما استطاع الآن بعد جهود متقلّبة ان يتلمّس مطامحه حيّاه من هناك الحصان الذي كان قد استبقه.

وما من شكّ في أنَّ لهذا ما يبرّره من حيث الزمان ذلك لأنّه لم ينصرم وقت طويل على الإطلاق منذ أن تصوَّر المرء بتأثير عقلية رجولية تستحق الإعجاب مخلوقاً كانت شجاعته شجاعة أخلاقية وكانت طاقته طاقة الإيمان وكانت صلابته صلابة القلب والفضيلة وكان يعدّ السرعة من شأن الغلمان والحِيَل شيئاً غير مباح والرشاقة والعنفوان شيئاً غير لائق بالكرامة. وأخيراً فإنَّ هذا الكائن ما عاد حيّاً بلا ريب بل ما عاد يرد إلّا لدى هيئات التعليم في المدارس الثانوية وفي البيانات الخطّية المختلفة. وكان قد تحوّل إلى شبح ايديولوجيّ وكان على الحياة أن تلتمس لنفسها صورة جديدة للرجولة ولما كانت تبحث لنفسها عن ذلك قامت باكتشاف مؤدّاه أنَّ الألاعيب والحيل التي يستعملها رأس مخترع في حساب منطقي لا تختلف بالفعل اختلافاً كبيراً عن الحيل القتالية لجسد مدرّب تدريباً شاقاً وهناك طاقة قتال نفسية عامة تجعلها الصعوبات وألوان بُعْدِ الإحتمال باردة وذكية إذا كانت الآن قد اعتادت أنْ تتكهن بالجانب المعرَّض للهجوم من رسالة أو من عدوّ جسدي. وإذا كانت

الآن قد اعتادت أنْ تتكهن بالجانب المعرَّض للهجوم من رسالة أو من عدوّ جسدي. وإذا ما حلّل المرء عقلية عظيمة وبطلاً من أبطال الملاكمة في البلد من الناحية التقنيّة النفسية فمن المحتمل أن يكون مكرُهُما وشجاعتهما ودقتهما وتوافُقِيَّتُهما وكذلك سرعة ردود أفعالهما في المضمار الذي يعدّ مهمًّا بالقياس إليهما هي ذاتها بالفعل بل الراجح أيضاً إنهما لن يتميّزا في الفضائل وألوان المقدرة التي تشكِّل نجاحهما الخصوصيّ عن حصان مشهور من خيل الحظائر ذلك لأنّه لايجوز للمرء أن يقلِّل من شأن القدر الكبير من الخصائص الهامّة التي يتمّ إدخالها في اللعبة عندما يقفز المرء فوق سور. على أنّ الحصان وبطل الملاكمة يتقدّمان على العقلية العظيمة فوق ذلك ويعدُّ انجازهما وأهمِّيتهما يمكن قياسهما قياساً لا شائبة فيه وفي أنَّ الأفضل بينهم يُعتَرَف به بالفعل أيضاً على أنّه الأفضل وبهذه الطريقة يأتي دور الرياضة والموضوعية بحقّ في إبطال المفاهيم التي عفى عليها الزمن حول العبقرية والعظمة الإنسانية.

أما ما يتّصل بأولريش فيجب على المرء أن يقول أيضاً أنّه كان سابقاً لعصره في هذه المسألة بضع سنين. ذلك لأنّه كان قد مارس العلم على وجه الخصوص في هذا الأسلوب الذي يزيد المرء به في رقمه القياسي انتصاراً أو سنتمتراً أو كيلوغراماً. وكان ينبغي لذهنه أن يثبت أنّه ثاقب وقوي وكان قد نهض بعمل الأقوياء. وقد كان هذا الولع بطاقة الذهن توقّعاً ولعباً قتالياً ونوعاً من المطالبة الرجوليّة غير المحدَّدة تجاه المستقبل وكان يبدو له من غير المؤكَّد ما سوف ينهيه بهذه الطاقة فقد كان في وسع المرء أن يصنع كلّ شيء بها وألّا يصنع شيئاً وأن يصبح مخلصاً للعالم أو مفسداً. ولا ريب أنَّ هذا هو أيضاً ما كانت عليه بصورة عامة على وجه التقريب طبيعة الوضع النفسي الذي يستمد من وجوده عالم الآلات والمكتشفات مدداً جديداً على الدوام. وكان أولريش قد نظر إلى العلم على أنّه تمهيد وتعويد على الخشونة ونوع من التدريب

twitter @baghdad_library

وعندما تبيّن أن هذا التفكير مفرط في الجفاف والحدّة والضيّق ولا أفق له اضطر القوم إلى أن يتقبّلوه على أنّه التعبير عن نكران الذات والإجهاد اللذين يستقران على الوجه عند الإنجازات الكبيرة الجسديّة والإرادية. وكان قد لبث طوال سنين يحبّ نكران الذات الفكري. وكان يكره البشر الذين لا يستطيعون حسب كلمة نيتشه «أن يعانوا من الجوع في نفوسهم من أجل الحقيقة» من المنقلبين على أعقابهم والمترددين والضعفاء الذين يعزّون أنفسهم بحيل صادرة عن النفس ويغذونها لأنّ العقل يعطيهم فيما يقال حجارة بدلاً من الخبز بالمشاعر الدينية والفلسفية المختلقة التي هي كالأرغفة الصغيرة التي طُرّيت في اللبن. وكان يرى أنّ المرء يجد نفسه في هذا القرن في بعثة مع كلّ ما هو إنساني وأنَّ الكبرياء تقتضي أن يقابل المرء كلّ تساؤل لا طائل تحته بعبارة «ليس بعد» وأن يحيا المرء حياة بمبادىء مؤقّتة ولكنَّ مع الوعي لهدف وهو بلوغ ما هو قادم فيما بعد. والحقيقة هي أنَّ العلم قد طوّر مفهوماً للطاقة الذهنية الصلبة القائمة على النظرة السليمة التي تجعل التصوّرات الميتافيزيقية والأخلاقية القديمة عن الجنس البشري تصوّرات لا تحتمل ببساطة على الرغم من أنّه لا يستطيع أن يُحِلّ محلّها إلّا الأمل في أن يأتي يوم لاحق ينزل فيه عرق من الغزاة الفكريين في وديان الخصب الروحيّ.

غير أنّ هذا لا يتسقيم على نحو جيّد إلّا مادام المرء لا يُرْغَم على أن يوجّه النظر من بُعْدٍ تنبؤي إلى قُرْبِ حاضر ولا يضطر إلى أن يقرأ جملة مفادها أنَّ حصاناً من خيل السباق قد أصبح في هذه الأثناء عبقرياً. وفي الصباح التالي نهض أولريش بالقدم اليسرى وجعل يبحث باليمنى متردّداً عن قبقاب الصباح. وكان هذا في مدينة وشارع غير ذينك اللذين كان يسكن فيهما الآن ولكنَّ قبل أسابيع قلائل فحسب. كانت السيارات تنطلق فوق بريق الإسفلت الأسمر وهي تمر تحت نافذته وقد أخذ نقاء هواء الصباح يمتلىء بحموضة النهار وبدا

له أن من السخف الذي لا يمكن التعبير عنه أن يبدأ الآن في الضوء ذي اللون اللبنيّ الذي كان يسقط من خلال الستائر في أنحاء جسده العاري كالعادة إلى الأمام والى الخلف ورفعه عن الأرض بعضلات البطن وإرقاده مرّة أخرى وأن يدع آخر الأمر قبضتيه تنهمران على كرة للملاكمة مثلما يفعل ذلك العدد الجمّ من الناس في الساعة ذاتها قبل أن يذهبوا إلى مكاتبهم فالساعة في اليوم تعدل جزءاً من اثني عشر جزءاً من الحياة الواعية وهي تكفي لكي تحافظ على جسد متمرّن في حالة الفهد المتأهّب لكلّ مغامرة غير أنّها تُبْذَل من أجل توقع لا معنى له وذلك أنّ المغامرات التي هي خليقة بمثل هذا التأهّب لا تأتي أبداً. والحال هي ذاتها تماماً مع الحبّ الذي يتأهّب له المرء بأكثر الطرق هَوْلاً وفي النهاية اكتشف أولريش أيضاً أنّه كان في العلم أيضاً يشبه رجلاً ارتقى سلسلة من الجبال بعد الأخرى بدون أن يرى هدفاً. وكان يملك أجزاء متقطّعة من أسلوب جديد في التفكير وكذلك في الشعور. غير أن النظرة التي كانت في البداية بالغة القوّة إلى الجديد. كانت قد تلاشت في تفاصيل تزداد عدداً على نحو مطّرد ولئن كان قد اعتقد أنّه يشرب من ينبوع الحياة فقد كاد الآن يستنفد كلّ توقعاته. هنالك توقّف في غمرة عمل كبير حافل بالآمال. وبدا له زملاؤه في الاختصاص بصورة جزئية في صورة مدّعين عامّين ورؤساء أمن من أهل المنطق مولعين بالمتابعة على نحو لا هوادة فيه وبدوا له بصورة جزئية كمن يتعاطون العقاقير الحاوية على الأفيون ويتناولون عقاراً باهتاً على نحو غريب يجعل العالم لديهم مأهولاً برؤيا للأعداد والعلاقات التجريدية. وقال في نفسه: «بحق كلّ القديسين! لا ريب أنني لم أنطو قط على الرغبة في أن أكون رياضياً طوال حياتي كلّها؟».

ولكن أيّة رغبة كان ينطوي عليها في الحقيقة؟ في هذه اللحظة ما كان في وسعه بعد إلّا أن يتجه صوب الفلسفة غير أن الفلسفة في الحالة التي كانت

twitter @baghdad_library

توجد فيها في تلك الأيام كانت تذكّره بقصّة ديدو بينما يبقى من المشكوك فيه جداً هل يلف المرء به مملكة بالفعل وأمّا ما كان يتخلّف من جديد فقد كان من نوع مشابه لهذا الذي كان قد مارسه بنفسه ولم يستطع أن يغريه. ولم يكن في وسعه إلّا أن يقول أنّه كان يشعر أنّه أكثر بعداً عن كلّ ما كان يريد في الحقيقة أن يكون مِمّا كان في صباه إن لم يكن ذلك قد ظلّ مجهولاً لديه على وجه الإطلاق. وكان يرى بإرهاف رادع باستثناء كسب المال الذي لم يكن ضرورياً عنده. في نفسه كلّ الكفاءات والخصائص التي تلقى التشجيع من عصره غير أن إمكانية استعمالها كانت قد ضاعت عليه؛ ولمّا كان لا يمكن مادام لاعبو كرة القدم والخيول ذاتها يتمتّعون بالعبقرية أن يكون هناك إلّا الإستعمال الذي يطبقه المرء عليه وذلك ما يتبقّى للمرء من أجل إنقاذ الصفة المميّزة فقد قرّر أن يأخذ إجازة من حياته لكي يبحث عن تطبيق ملائم لكفاءاته.

[١٤]

أصدقاء الصبا

وكان أولريش قد تردّد منذ عودته بضع مرات على صديقيه فالتر وكلاريّا لأنّ هذين كليهما لم يكونا قد رحلا على الرغم من الصيف ولم يكن قد رآهما منذ بضع سنين وفي كلّ مرّة كان يصل فيها كانا يعزفان على البيانو وكانا يجدان أن من البدهي ألّا يلاحظاه في مثل هذه اللحظة قبل أن تنتهي القطعة. وكانت في تلك الأيام أغنيه تهليل الفرح لبتهوفن وكانت الملايين تغرق كما يصف نيتشه في الغبار وهي ترتعد وكانت الحدود المعادية تنهار وكان انجيل انسجام العوالم يوائم بين المنفصلين ويوحّد بينهم وكانوا قد نسوا ما تعلّموا من المشي والحديث وكانوا في طريقهم إلى أن يَعْرُجوا طائرين في الأجواء وهم يرقصون. كانت الوجوه مبقّعة والأجساد محنيّة والرؤوس تطرق وترتفع على التناوب والمخالب المشرَّعة تضرب في كتلة اللحن المنتصبة. وكان ثمة شيء لا يُسبَر غورُه يحدث. وكانت فقاعة محدودة بحدود غامضة ومفعمة بإحساس حار تنتفخ حتى الإنفجار وكان يشعّ من رؤوس الأصابع المستثارة وتقطيبات الجبين العصبيّة شعور جديد دائماً في الغليان الخصوصي الهائل. وما أكثر ما كان هذا قد تكرّر حقاً؟

أما أولريش فلم يكن في وسعه قط أن يحتمل هذا البيانو المفتوح على الدوام بأسنانه المكشّرة هذا الوثن ذا الشدق العريض والسيقان القصيرة المتصالب من حيوانَيْ الدَشْهَنْد(٢) والبلدوج والذي كان قد بذل نفسه لحياة

---

(٢) كلب ألماني صغير طويل الجسم قصير القوائم.

twitter @baghdad_library

أصدقائه إلى الصور على الجدار ورسوم التصاميم الخفيفة الخاصّة بأثاث المصانع الفني؛ بل أنّ حقيقة أنّه لم يكن هناك خادم بل غسالة تطبخ وتغسل فحسب كانت لها صلة بذلك. وكانت ترتقي وراء نوافذ هذه الادارة المنزلية آكام لعنب وفيهامجموعات من الأشجار العتيقة والمنازل الصغيرة المائلة نحو الغابات المزدهرة غير أنَّ كلّ شيء بالقرب من ذلك كان مهملاً أجرد منعزلاً متآكلاً كما هو احلال حواليه حيث كانت أطراف المدن الكبرى تتقدَّم في الريف. وكانت الآلة تشد القوس بين مثل هذا القرب والبُعد الجميل. وكانت تنبعث أعمدة نارية ذات بريق أسود من الرقة والبطولة صوب الجدران وإن كانت أيضاً تتساقط بعد مجرّد مئات قلائل من الخطوات بعد ذلك إذ تتفتّت إلى رماد من اللحن بالغ النعومة بدون أن تبلغ حتى مجرّد الأكمة ذات الصنوبرات حيث كانت تقوم الحانة في منتصف الطريق الذي كان يفضي إلى الغابة. ومع ذلك فقد كان في وسع المنزل أن يجعل البيانو يهدر هديراً وكان واحداً من تلك المكبِّرات التي تصرخ من خلالها الروح في الكون كوعل مسعور لا يجيبه شيء سوى النداء المماثل المنافس لآلاف من الأرواح الأخرى التي تجوس وحيدة في الكون. وكان مركز أولريش القوي في هذا المنزل يقوم على أنّه كان يصرح بأنّ الموسيقى عجزُ الإرادة وضعضعة الفكر وكان يتحدَّث عنها حديثاً فيه من تقليل شأنها أكثر مِمّا كان يقصد إذا كانت في ذلك العصر ذروة الأمل والخوف بالنسبة إلى فالتر وكلاريّا وكانا يزدريانه من أجل ذلك حيناً ويبجّلانه حيناً مثل روح شريرة.

وعندما انتهى العزف هذه المرة ظلّ فالتر مسترخياً مكدوداً من السير شارداً على كرسيّه ذي المسند الموارَب نصفيّاً جالساً أمام البيانو ولكنَّ كلاريّا نهضت وحيّت الدخيل بحرارة وكانت ماتزال تضطرم في يديها وفي وجهها

الشحنة الكهربائية الخاصّة بالعزف وحشرت الابتسامة نفسها بين توتر من الحماسة والإشمئزاز.

وقالت ورأسها يشير وراءها إلى الموسيقى أو فالتر: «الملك الضفدع!». وشعر أولريش بالقوّة المجنّحة للرابطة بينه وبينها تعود إلى التوتر. وكانت قد حدَّثته في زيارته الأخيرة عن حلم رهيب؛ وذلك أنَّ مخلوقاً زَلِقاً أراد أن يتغلّب عليها في النوم وكان رخو البطن ناعماً ورهيباً وهذا الضفدع الكبير كان يعني موسيقى فالتر وكان كلا الصديقين لا يكتمان عن أولريش كثيراً من الأسرار. ولم تكد كلاريّا تحيِّيه الآن حتى كانت قد أعرضت عنه من جديد وعادت مسرعة إلى فالتر وأطلقت مراراً صيحتها الحربية «الملك الضفدع» التي لم يكن فالتر يفهمها كما كان يبدو ـ وشدّته من عشره بيديها اللتين كانتا ما تزالان ترتعدان من الموسيقى متألّمة ومُؤلمة بضراوة. وارتسمت على وجه زوجها دهشة حلوة وعاد أدراجه مقترباً خطوة من فراغ الموسيقى الزَلِق.

ثم خرجت كلاريّا وأولريش للنزهة من دونه تحت أسهم المطر المائلة في شمس الأصيل وتخلّف عند البيانو وقالت كلاريّا: «إنْ تمكّن المرء من حظر شيء ضار على نفسه اختبار لطاقة الحياة! أمّا المنهكون فيغريهم الضال! ـ ما قولك في هذا؟ فإن نيتشه يزعم ان من أمارات الضعف ان يفرط المرء في الاشتغال بالمغزى الأخلاقي لفنه؟». وكانت قد قعدت على تلّة ترابية صغيرة.

وهز أولريش بكتفيه. عندما تزوجت كلاريّا صديق صباه قبل ثلاثة أعوام كانت قد باتت في الثالثة والعشرين وأهداها هو في زفافها أعمال نيتشه. وأجاب مبتسماً: «لو كنت فالتر لتحدَّيْتُ نيتشه بدعوة إلى المبارزة».

وكان ظهر كلاريا النحيل الذي يلوح في خطو رقيقة تحت الثوب متوتراً كقوس وكان وجهها متوتراً توتراً شديداً أيضاً وتركته مُعْرضاً عن وجه الصديق في خوف.

twitter @baghdad_library

وأضاف أولريش قائلاً: «أنت مازلت فتاة أبداً ـ وبطلة في الوقت ذاته.. وكان ذلك سؤالاً أو لم يكنّه أيضاً وكان فيه شيء من الدعابة ولكنَّ كان فيه أيضاً شيء من العجب الرقيق على أن كلاريا لم تفهم كلّ الفهم ما قصد إليه غير ان كلتا الكلمتين اللتين سبق أن استعملهما ذات مرّة كانتا قد انغرستا في داخلها مثل سهم ناريّ في سقف من القش.

وكانت تتناهى إليهما من حين إلى آخر موجة من الألحان المتناثرة دونما مخطط. وكان أولريش يعرف أنّها كانت تمتنع على فالتر طوال أسابيع عندما يعزف فاغنر ومع ذلك فقد كان يعزف فاغنر بضمير غير مرتاح شأن رذيلة من رذائل الغلمان.

وقد كانت كلاريا خليقة أن يسرّها أن تسأل أولريش كم يعرف من ذلك فلم يكن في وسع فالتر أن يحتفظ بشيء لنفسه غير أنّه استحيا أن يسأل. وكان أولريش قد قعد الآن على تلة ترابية صغيرة أيضاً بالقرب منها وفي النهاية قالت شيئاً مختلفاً تماماً: «أنت لا تحبّ فالتر أن يحتفظ بشيء لنفسه غير أنّه استحيا أن يسأل. وكان أولريش قد قعد الآن على تلة ترابية صغيرة أيضاً بالقرب منها وفي النهاية قالت شيئاً مختلفاً تماماً: «أنت لا تحبّ فالتر وما أنت بصديقه في الحقيقة» وبدا ذلك منطوياً على التحدي غير أنّها ضحكت بعده.

وأحاب أولريش بجواب غير متوقَّع: «انما نحن صديقا صبا وكنت أنت ماتزالين طفلة يا كلاريا عندما وجدنا أنفسنا وقد دخلنا في العلاقة التي لا تخطئها الملاحظة والخاصة بصداقة صبا تُؤذن بالنهاية. وكان كلّ منا يبادل صاحبه الإعجاب قبل سنين كثيرة لا تحصى. أمّا الآن فيسيء أحدنا الظن بصاحبه بمعرّفة وثيقة وكلٌّ يود أن يتحرّر من الإنطباع المؤلم وهو أنّه كان يخلط بين نفسه وبين الآخرين في سالف الأيام وعلى هذا النحو يسدي كلٌّ منا إلى صاحبه خدمة مرآة التشويه الساخر النزيهة».

وقالت كلاريّا: «واذاً فأنت لا تعتقد أنّه سيصل إلى شيء ما.»

«ليس هناك ثانٍ لمثل هذا المثال من أمثلة الحتمية كهذا الذي يقدمه إنسان شاب موهوب عندما يحصر نفسه في إنسان عاديّ مسنّ؛ دونما ضربة قدر بل من جّراء الإنكماش الذي كان مقدَّراً عليه من قبل فحسب!».

وأطبقت كلاريا شفتيها إحداهما على الأخرى إطباقاً شديداً. وكان الإتفاق القديم بينهما وهو أن تكون للقناعة الأولوية على المراعاة يهصر فؤادها هصراً شديداً غير أنّه كان يؤلمها. الموسيقى! وكانت الأصداء ماتزال تتناهى متناثرة وكانت تصيخ السمع. وكان يُسمَع الآن في أثناء الصمت غليان البيانو جلياً أما حين لم يكن المرء ينتبه فكان يبدو كأنه يتصاعد من الآكام الترابية كاللهب المستعر.

وقد كان من العسير أن يقال ماذا كان فالتر بالفعل. كان إنساناً لطيفاً له عينان ناطقتان حافلتان بالمغزى حتى اليوم وكان قدر كبير يتسّم بالثبات على الرغم من أنّه كان قد تجاوز عامه الرابع والثلاثين وكان قد عين منذ بعض الوقت في دائرة ما من دوائر الفن وكان أبوه قد هيّأ له هذا المركز الوظيفي المريح وربط بذلك تهديداً بأنه سيقطع عليه دعمه الماليّ إذا لم يقبله. ذلك لأنّ فالتر كان في الحقيقة رساماً وكان قد اشتغل في الوقت ذاته بدراسة تاريخ الفن في الجامعة في فصل للتصوير في أكاديمية الدولة وسكن بعد ذلك في مرسم حيناً من الزمان. وحتى عندما انتقل مع كلاريسا إلى هذا المنزل في العراء وكان قد تزوَّجها قبيل ذلك كان قد غدا رساماً ولكنَّ كان قد عاد الآن موسيقيّاً كما بدأ وكان على مرّ فترة غرامه البالغة عشر سنين هذا حيناً وذاك حيناً آخر وكان فوق هذا بعدُ أديباً وقد حرّر مجلّة أدبية وقد أصبح لكي يتمكّن من الزواج موظَّفاً في مؤسسة للتسويق المسرحيّ وغدا بعد بعض الوقت قائد فرقة موسيقيّة في المسرح ثم أمعن النظر في هذه الاستحالة أيضاً بعد نصف

twitter @baghdad_library

عام وكان استاذاً للرسم وناقداً موسيقياً وزاهداً معتزلاً وما عدا ذلك حتى ما عاد أبوه وحموه المستقبلي يحتملان هذا على الرغم من كلّ رحابة الصدر فقد دأب أمثال هؤلاء الشيوخ على، إدعاء أنّه امرؤ يفتقر إلى الإرادة ببساطة غير أنَّ المرء كان في وسعه عندئذ أن يزعم كذلك أنّه كان طوال حياته مجرّدها ومتعدد الجوانب ولا ريب أنَّ ما يلفت النظر إنما كان يتمثَّل على وجه الخصوص في أنّه كان يوجد أيضاً على الدوام خبراء في الموسيقى أو التصوير أو الكتابة أصدروا أحكاماً متحمّسة حول مستقبل فالتر. أما في حياة أولريش من حيث كونها مثالاً مقابلاً فعلى الرغم من أنّه أنجز بعض الأشياء التي لا يمكن الجدال في قيمتها فلم يحدث أبداً أن أتاه إنسان وقال له: أنت الإنسان الذي كنت أبحث عنه دائماً والذي ينتظره أصدقائي! وأما في حياة فالتر فكان هذا يحدث في كلّ ربع عام ولئن لم يكن هؤلاء جميعاً على وجه الخصوص أكثر الحكام حُجةً فقد كانوا جميعاً أناساً يعتمدون على مُفتَتح ومراكز وصداقات وترقية يعرضونها على فالتر المكتشف من قبلهم والذي أمكن لحياته أن تتخذ من جراء ذلك على وجه الخصوص مساراً متعرِّجاً بالغ الغنى وكان يحوم فوقه شيء ما كان يبدو أنّه يعني أكثر من إنجاز محدَّد وربّما كان هذا موهبة خاصة أو يعدّ موهبة كبيرة. واذا كان هذا نزعة هواية كانت الحياة الفكريّة للأمة الألمانية تقوم في جزء كبير منها على نزعة الهواية لأنّ هذه الموهبة توجد في كلّ الدرجات صعوداً حتى الإنسان الموهوب جداً بالفعل فعند هذه فحسب يكون من الجائز أن تُفْتَقَد في العادة تبعاً لكلّ المظاهر.

وحتى موهبة إمعان النظر في هذا كان يتمتَّع بها فالتر. وعلى الرغم من أنّه كان بالطبع مثل كلّ امرىء على استعداد للإيمان بضروب نجاحه على أنّها كسب شخصي فقد كانت مزيته المتمثّلة في أنَّ كلّ مصادفة سعيدة كانت ترتقي به بمثل تلك السهولة تبعث الإضطراب لديه منذ البداية الأولى مثل نقص في

الوزن يبعث على الخوف. ومهما كان يبدِّل أوجه نشاطه وروابطه البشريّة فإن ذلك لم يكن يحدث من جراء مجرّد عدم الثبات بل من خلال أشكال كبيرة من الصراع الداخلي وكان يحفِّز هذا خوف من أن يضطر من أجل نقاء الكيان الداخلي إلى متابعة التجوال قبل أن يلقي عصا الترحال حيث يدلّ السرابيّ على ذاته. وكان طريق حياته سلسلة من التجارب التي تبعث الزلزلة والتي كان ينبعث منها الكفاح البطولي لنفس كانت تقاوم كلّ الأشياء الناقصة ولم تكن تدري أنّها كانت تخدم بذلك نواقصها الخاصة. ذلك لأنّه في الوقت الذي كان فيه يعاني ويكافح من أجل المغزى الأخلاقي لعمله الفكري كما يلائم عبقريّتة ويقوم بالتعبئة الكاملة لموهبته التي لم تكن كافية لأمر عظيم كان قدره قد ردّه بهدوء في الداخل في الدائرة إلى اللاشيء وكان أخيراً قد بلغ المكان الذي ما عاد يعوقه فيه شيء. وكانت الخدمة الهادئة المنعزلة المحمية تجاه كلّ ألوان التلوّث في سوق الفن في وظيفته نصف الثقافية قدراً وفيراً من الإستقلال والزمن لكي يصيخ السمع تماماً إلى ندائه الداخلي وكان امتلاك المحبوبة ينزع الشوك من فؤاده وكان المنزل «على حافة العزلة» الذي أسكنه معها بعد زواجه كأنه مخلوق من أجل الإبداع: ولكنَّ لمّا لم يكن هناك بعدُ شيء يجب التغلب عليه فقد حدث ما لم يكن متوقَّعاً فالأعمال التي كانت تبشِّر بها عظمة فكره طوال هذا الزمن تخلَّفت وبدا فالتر أنّه ما عاد يستطيع أن يعمل؛ فجعل يخفي ويعدّم وجعل يحبس نفسه كلّ صباح أو عصر حين كان يعود إلى البيت طوال ساعات ويقوم بنزهات تمتد ساعات مع كرّاسة الرسم المطويّة غير أن القليل الذي نشأ من خلال ذلك كان يحتفظ به أو يتلفه وكان لديه مئات من الأسباب المختلفة لذلك. غير أن نظراته أخذت على الإجمال تتغي في هذا الوقت على نحو يلفت النظر. فما عاد يتحدَّث عن «الفن المعاصر» و«فن المستقبل» وهي تصوَّرات كانت مرتبطة به عند كلاريسا منذ عامها الخامس عشر بل كان يرسم خطاً في أيّ مكان كان ـ في الموسيقى مثلاً عند باخ وفي الأدب عند شْتِفْتر

twitter @baghdad_library

وفي التصوير عند آنجر أخيراً ـ وكان يصرخ بأنّ كلّ ما جاء بعد ذلك مبهرَج منحطّ مفرط في الإرهاف موجَّه نحو الأسفل بل كان يحدث على نحو يزداد عنفاً باطراد أنّه كان يزعم أنّه لا بدّ لعصر مسمّم إلى هذا الحد في جذوره الفكريّة كما هو شأن العصر الحاضر أن ينطوي على موهبة نقية من مواهب الإبداع على وجه الإطلاق. غير أنَّ ما كان يشي بالخيانة هو أنّه على الرغم من أنَّ مثل هذا الرأي الصارم قد صدر من فمه كان لا يكاد يحبس نفسه حتى تأخذ إيقاعات فاغنر في التسرّب من حجرته على نحو يزداد تواتراً أيّ إيقاعات موسيقى كان قد علّم كلاريسا كيف تزدريها في السنوات الأولى على أنّها المثال النموذجي لعصر مبهرج على نحو محدود الأفق ومنحط غير أنّه كان يستسلم له الآن مثل شراب ساخن مخدّر مخمَّر تخميراً كثيفاً.

وكانت كلاريسا تقاوم ذلك كانت تكره فاغنر لمجرّد سترته المخمليّة وقبعته الدائرية. وكانت ابنة رسام كانت تصاميمه المسرحية مشهورة في العالم بأسره وكانت قد قضت طفولتها في عالم من هواء الكواليس ورائحة الألوان بين ثلاث لغات من لغات الفن المهنية المختلفة هي لغة المسرحية والأوبرا ومرسم المصوّر محاطة بالمخمل والسجاجيّد والعبقرية وفراء الفهد ومواد الزينة وريش الطاووس والصناديق وأجهزة العود. ومن أجل ذلك كانت تشمئز من أعماق روحها من كلّ متعة الفن وتشعر بانجذابها إلى كلّ ضامر ـ صارم سواء أكان الهندسة الممسوخة (Metageométrie) لشعر الإيقاع الجديد الذي ليس فيه نظام إيقاعي إن كانت الإدرادة المسلوخة الإهاب المتجليّة مثل مستحضر من العضلات للأشكال الكلاسيكية. وكان فالتر قد نقل إلى إسارها العذريّ الرسالة الأولى عن ذلك. وكانت قد سمّته «أمير النور» ومنذ أن كانت طفلة كان فالتر وهي قد أقسم أحدهما للآخر ألّا يتزوج قبل أن يكون قد غدا ملكاً. وكانت قصّة تغيّراته ومشاريعه في الوقت نفسه قصّة آلام لا يُسبَر غورها

وضروباً من الإفتتان شكلّت هي ثمن كفاحها. ولم تكن كلاريسا موهوبة مثل فالتر وهذا ما كانت تشعر به دائماً غير أنّها كانت ترى العبقرية مسألة الإرادة. وبطاقة جامحة كانت قد سعت إلى أن تحظى بدراسة الموسيقى ولم يكن من غير الممكن ألّا تكون موسيقيّة على الإطلاق غير أنّها كانت تتمتَّع بعشر أصابع معروقة للبيانو وبالتصميم. وكانت تتمرن أياماً بطولها وتستحث أصابعها مثل عشرة من الثيران الضامرة يفترض فيها أن تنتزع شيئاً له ثقل بالغ الجبروت من الأعماق. وبالطريقة ذاتها كانت تمارس التصوير. وكانت تعدّ فالتر منذ عامها الخامس عشر عبقرياً لأنَّها كانت تنطوي دائماً على الرغبة في الزواج مّن عبقريّ ولم تكن تسمح له ألّا يكون واحداً منهم. وعندما لاحظت عجزه قاومت هذا التغيّر الخانق البطيء في جو حياتها مقاومة ضارية. وقد كان فالتر الآن على وجه الخصوص في حاجة إلى الدفء الإنساني وكان يتعلّق بها حين كان عجزه يعذِّبه مثل طفل يلتمس اللبن والنوم غير أن جسد كلاريسّا الضئيل العصبي لم يكن أموّياً وكانت تبدو لنفسها كأنّما يُساء استغلالها من قبل طفيلي كان يريد أن يعشعش فيها وكانت تمتنع عليه. وكانت تسخر من الدفء الرحب لمطبخ الغسيل الذي كان يلتمس العزاء فيه. ومن الجائز أن هذا كان قاسياً غير أنّها كانت تريد أنَّ تكون رفيقة إنسان عظيم وكانت تصارع القدر.

وكان أولريش قد قدَّم إلى كلاريسا لفافة وماذا كان عليه أن يقول أيضاً بعد أن كان قد قال ما كان يفكّر فيه بغير وجل. وكان دخان لفافتيهما الذي كان يتابع أشعَّة شمس الأصيل يتَّحد على بعد مسافة منهما.

وفكَّرت كلاريسا قائلة وهي على تلّتها الترابية: «كم يعرف أولريش من ذلك؟ عجباً وما عساه أن يدرك على وجه الإطلاق من هذه الصراعات». وتذكَّرت كيف كان فالتر يطرق بوجهه متألّماً حتى العدم حين كانت تشتد عليه آلام الموسيقى والشهوة ولم تكن مقاومتها تدع مخرجاً. وكانت تفترض قائلة:

twitter @baghdad_library

«كلا أنَّ أولريش لم يكن يعرف شيئاً من هذا المهول الخاص بمسرحية غرامية كأنّها على «الهيمالايا» مشيَّدة من الحبّ والإزدراء والخوف وواجبات السموّ ولم تكن تنطوي على رأي شديد التحبيذ للرياضيات ولم تكن قد رأت فيه قط موهوباً بمثل موهبة فالتر. فقد كان بارعاً وكان منطقياً وكان يعرف الكثير ولكنَّ هل يكون هذا أكثر من بربرية ولا ريب أنّه كان من قبل يلعب التنس على نحو أفضل من فالتر إلى حدٍّ لا يقبل المقارنة وكان في وسعها أن تتذكَّر أنّها أحسَّت إحساساً شديداً مع ضرباته التي لا مراعاة فيها في بعض الأحيان أنّه سيصل إلى ما يريد على نحو لم تكن تحسّ به قط حيال رسم فالتر أو موسيقاه أو أفكاره وكانت تفكّر قائلة: «ربما كان يعرف حقاً كلّ شيء عنا ولا يقول شيئاً؟!». فقد كان آخر الأمر قد ألمح بوضوح تام إلى بطولتهما وكان هذا الصمت بينهما الآن باعثاً للتوتر إلى حدٍّ بالغ.

ولكن أولريش فكَّر قائلاً: «ما أكثر ما كانت كلاريسا ظريفة حقاً قبل عشر سنين هذه النصف طفلة بسعير نار إيمانها بمستقبلنا نحن الثلاثة». ولم تغدُ غير مستعذبة عنده في الحقيقة إلّا مرّة واحدة في تلك الأيام عند ما كان فالتر وهي قد تزوَّجا هنالك كانت قد أظهرت لاثنين تلك الأنانية غير المستحبة التي تجعل النساء الشابات المغرمات بأزواجهن غراماً ينطوي على الطموح لا يُحتَمَلْن في الغالب إلى حدٍّ بعيد عن الآخرين من الرجال. وفكّر قائلاً: «لقد تحسن هذا كثيراً في هذه الأثناء».

[١٥]

انقلاب فكري

كان هو وفالتر شابين في العصر المنصرم اليوم بُعَيْد مطلع القرن الأخير حين كان كثير من الناس يتصوّرون أن القرن شابّ أيضاً.

وكان المدفون في تلك الأيام لم يتميّز تميّزاً خاصاً في نصفه الثاني. كان ذكياً في المجال التقنيّ والتجاريّ وفي البحث غير أنّه كان ساكناً وكاذباً كالمستنقع خارج هذه النقاط المحورية لطاقته. كان قد صوَّر كالقدماء وكتب الأدب مثل غوته وشيلر وشاد بيوته مثل بيوت العصر القوطي وعصر النهضة وكان مطلب المثاليّ يهيمن بأسلوب مجلس رئاسة الشرطة على كلّ تظاهرات الحياة ولكنَّ بفعل ذلك القانون الخفي الذي لا يسمح للإنسان بمحاكاة من دون أن يربطها بمبالغة أن تحقّقه أبداً وذلك مِمّا لا يزال من الممكن رؤية آثاره حتى اليوم في الشوارع والمتاحف. وكان على النساء المحتشمات والمتهيّبات في ذلك الزمان سواء أكان لهذا علاقة بذلك أم لم يكن له ذلك أن يرتدين الثياب من آذانهن إلى الأرض ولكنَّ كان عليهن أن يظهرن صدراً عارماً وعجيزة رابية. أمّا ما عدا ذلك فلا يعرف المرء لأسباب شتى عن عصر مضى قدراً قليلاً قلّة هذا الذي يعرفه عن مثل هذه العقود الثلاثة حتى الخمسة التي تقع بين العام العشرين الخاص وبين سن العشرين للآباء. ولذلك فمن الممكن أن يكون من المفيد أن يحمل المرء نفسه أيضاً على تذكُّر أنّه يجري في العصور الرديئة عمل أكثر البيوت والقصائد فظاعة بموجب المبادىء الجميلة ذاتها التي يعمل بها في أفضل العصور على وجه الدقة وأنّ كلّ الناس الذين

twitter @baghdad_library

يسهمون في إفساد أوجه النجاح في حقبة جديدة ماضية يشعرون أنّهم يحسّنونها وإن الشباب الخالين من الدم في مثل هذا العصر يبنون من الأوهام حيال دمهم الفتيّ قدراً يعادل بالضبط في كثرته ما يبنى الناس الجدد في كلّ العصور الأخرى.

وإنّه لمِمّا يشبه الأعاجيب في كلّ مرّة أن يجيء فجأة ارتقاء للروح بعد مثل هذه الحقبة الآفلة بصورة ضحلة كما حدث في تلك الأيام. فقد ارتفعت من الروح السَلِسة كالزيت في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر على نحو مباغت في أوروبا بأسرها حمّى مُجَنّحة. وما كان أحد يعرف بالضبط ما كان في طور النشوء ولم يكن في وسع أحد أن يقول هل كان يفترض أن يكون ذلك فناً جديداً أم إنساناً جديداً أم أخلاقاً جديدة أو ربّما قلباً لنظام المجتمع. ولذلك كان كلّ امرىء يقول في ذلك ما يلائمه. ولكنَّ في كلّ مكان كان أناس ينهضون ليكافحوا القديم وفي كلّ مكان وجد على نحو مباغت الرجل المناسب في مكانه وما كان بالغ الأهميّة هو أن الرجال الذين يتّسمون بروح المبادرة العملية كانوا يلتقون بالمولعين بروح المبادرة الفكريّة وتطوَّرت مواهب كانت من قبل مخنوقة أو لم تكن قد أسهمت أبداً في الحياة العامة وكانوا مختلفين قدر ما يمكن أن يكون الاختلاف وكانت تناقضات أهدافهم تناقضات لا مزيد فوقها: فقد كان الإنسان الأعلى محبوباً وكان الإنسان الأدنى محبوباً وكان يُصلّى للصحة والشمس وكان يُصَلّى لرقة الفتيات المريضات بالصدر وكان الناس يتحمَّسون لمذهب الأبطال ولمذهب العامّة الإِجتماعي وكان الناس مؤمنين ومشكّكين وطبيعيين وأهل دقَّة متَّسمين بالصلابة وبالهشاشة وكان الناس يحلمون بشوارع القصور القديمة والحدائق الخريفيّة والبرك الزجاجيّة والحجارة الكريمة والحشيش والمرض والشياطين غير أنّهم كانوا يحلمون أيضاً بالمروج والآفاق الهائلة ومصانع الحديد

والتعدين وألوان الصراع العاري وثورات عبيد العمل والأزواج البشريّة الأولى وتقويض المجتمع وكانت هذه الطبائع تناقضات وصيحات حرب متباينة إلى أقصى الحدود ولكنّها كانت تتّسم بنَفَس مشترك. ولو حلَّل المرء ذلك العصر لخرج معنى عبثيّ مثل دائرة لها زوايا يُراد أن تنشأ من حديد خشبيّ ولكنَّ كلّ شيء كان قد انصهر في الحقيقة متحوّلاً إلى معنى برّاق. وكان هذا الوهم الذي وجد تجسيُّده في التاريخ السحري لمطلع هذا القرن يبلغ من القوّة أن فريقاً كان يقبل متحمّساً على القرن الجديد الذي لم يُستَعمل بعد بينما كان الآخرون يرتضون بعدُ دخول البيت القديم بسرعة مثلما يدخلون بيتاً يخرج المرء منه على أيَّة حال بدون أن يكونوا قد شعروا بأنّ هاتين الطريقتين من السلوك متباينتان جداً.

واذاً فإذا لم يرد المرء لم يكن في حاجة إلى أن يقدِّر هذه «الحركة» الماضية فوق قدرها فهي لم تحدّث على أيَّة حال إلّا في تلك الطبقة البشريّة الرقيقة غير الثابتة من المثقَّفين التي يجمع على ازدرائها البشر الذين عادوا اليوم بحمد الله إلى الصدارة بعقيدة لا سبيل إلى زعزعتها على الرغم من كلّ الفروقات في هذه العقيدة ولم تكن تحدّث آثارها في الجمهور. ولكنَّ مهما يكن من أمر فإذا لم يكن هذا قد أصبح حدثاً تاريخياً فقد كان حدثاً صغيراً بلا ريب وكان كلا الصديقين فالتر وأولريش حيث كانا شابين قد عاينا لتوّهما بريقاً من ذلك. وبفعل فوضى العقائد سرى في تلك الأيام شيء كما لو أنّ كثيراً من الأشجار انحنت تحت ريح واحدة كان فكراً مذهبياً واصلاحياً وكان الضمير الطيّب لانطلاقٍ وانبثاق أنّه انبعاث وأحلام لم تعرف مثلها إلّا أفضل العصور. وعندما دخل الناس العالم في تلك الأيام وهم بعد في أوّل ركن بنسمة الفكر حول وجناتهم.

twitter @baghdad_library

[١٦]

مرض خفيّ من أمراض العصر

وقال أولريش مفكّراً حين خلا إلى نفسه من جديد: واذاً فقد كان هناك بالفعل قبل عهد ليس بالبعيد أبداً شابان لم تخطر ببالهما أعظم المعارف أوّلاً على نحو غريب وقبل كلّ البشر فحسب بل كان ذلك يتمّ في وقت واحد فوق ذلك بعد لأنّ المرء كان لا يحتاج إلّا إلى أن يفتح فاه ليقول شيئاً جديداً واذا الآخر يقوم بالإِكتشاف الهائل ذاته إنّه شيء خاص بصداقات الصبا فهو كالبيضة التي تحسّ بمستقبلها الطَيْرِيّ الرائع وهي بعد في المُحّ ولكنَّ لا يرتدّ نحو العالم بعدُ شيء سوى خطّ بيضة خال من التعبير إلى حدٍّ ما لا يستطيع المرء أن يميّزه من خط آخر. وكان يرى أمامه بوضوح حجرة الفتى والطالب حيث كانا يلتقيان عندما يكون عائداً بضع أسابيع من جولاته الأولى في العالم. مكتب فالتر المغطّى بالرسوم والملاحظات وأوراق المذكّرات الذي كان يرسل بصورة مسبقة شعاع بريق مستقبل رجل شهير وفي مقابلة منصّة الكتب الضيّقة التي كان فالتر يقف عندها أحياناً في نشاط مثل سيباستيان على العمود وضوء المصباح على الشعر الجميل الذي كان أولريش يعجب به في سرِّه على الدوام. وكان على نيتشه وألتنبرغ ودوستويفسكي أو مهما كان من كان قد قرأه للتوّ أن يقنعوا بالبقاء راقدين على الأرض أو على السرير عندما كانوا لا يستعملونهم بعدُ ولم يكن تيار التحديث يسمح بالتعكير الضئيل المتمثّل في إعادتهم إلى أوضاعهم حسب الأصول. وبدا له خيلاء الشباب

الذي تكوَّن عنده أعظم العقول جيّدة بما يكفي فحسب لكي يستخدمها على هواه ظريفة في هذه اللحظة إلى حدٍّ عجيب.

وحاول أن يتذكَّر الأحاديث. كانت كالحلم عندما يمسك المرء في الإستيقاظ بأفكار النوم الأخيرة. وكان يفكِّر بدهشة خفيفة: عندما كنّا في تلك الأيام نطرح ادعاءات فقد كان لهذه بعدُ غرض آخر سوى الصحة ألّا وهو المحافظة على مكانتنا! ـ لقد كان الدافع إلى أن يضيء المرء بنفسه أقوى كثيراً في الصبا من الدافع إلى الرؤية في الضوء. وكان يشعر بذكرى شعور الشباب هذا الذي كأنّما يسبح فوق الأشعة شعوره بخسارة مؤلمة.

وبدا لأولريش أنّه عرض له وهن عام في بداية سنوات الرجولة كان ينزلق على الرغم من الزوبعة العارضة التي سرعان ما كانت تخلد إلى الهدوء إلى نبض يزداد تراخياً واضطراباً على نحو مطرِّد. ولم يكن من الممكن أن قال أين كان يكمن هذا التغيّر. أكان يوجد مرّة واحدة قدر أقلّ من الرجال ذوي الشأن؟ كلّا أبداً! وفضلاً عن ذلك فالمسألة لا تعود إليهم أبداً فسمّو عصر من العصور لا يتوقَّف عليهم ولم تقدر لا روحانيّة الناس في الستينيات والسبعينيات على منع نشوء هيغل ونيتشه ولا تمكّن أحد من هذين من كتب لا روحانية معاصرة. أو كانت الحياة العامة تتعثّر؟ كلّا بل كانت قد باتت أكثر عنفواناً! أو كان هناك من التناقضات الباعثة على الشلل أكثر مِمّا كان هناك من قبل؟ بل لم يكن من الممكن أن يوجد المزيد من ذلك. أو لم ترتكب من قبل أمور معكوسة؟ بل بمقادير جمّة! والحديث بيننا: لقد كان الناس يبذلون كلّ جهودهم من أجل الرجال الضعاف ولا يحفلون بالأقوياء. وبدا أنَّ الأغبياء يلعبون دور القائد وأنَّ أصحاب المواهب الكبرى يلعبون دوراً غريب الأطوار وكان الإنسان الألماني يتابع مطالعة مجلاته العائلية غير آبه بكلّ آلام المخاض التي كان يعبّر عنها بأنها مبالغات منحطَّة ومَرَضيّة ويتردّد بأعداد أكبر إلى حدٍّ

twitter @baghdad_library

لا يقبل المقارنة على القصور الزجاجية ومنازل الفنّانين على أنّها ضروب من الإنعزال. أما السياسة فلم تكن تنعكس أدنى انعكاس في نظرات الرجال الجدد ومجلاتهم وأما المؤسّسات العامة فظلّت تجاه الجديد كأنّها محاطة بحاجز من حواجز الطاعون ـ أو لم يكن في وسع المرء أن يكون أقرب إلى أن يقول أنَّ كلّ شيء قد غدا أفضل منذ ذلك اليوم؟ أما أولئك الذين كانوا يتصدّرون ذروة المذاهب الصغيرة فقد باتوا في هذه الأثناء من المشاهير القدماء وأما الناشرون وتجار الفن فباتوا أغنياء ومازال الجديد يُؤسَّس على نحو مطّرد الاتساع والناس جميعاً يختلفون إلى قصور الزجاج مثلما يختلفون إلى مواطن الإعتزال واعتزال الإعتزال وأما المجلّات العائلية فقد قصّت شعرها قصاً قصيراً وأما السياسيون فيسرّهم أن يُظهروا اطلاعهم على فنون الثقافة وأما المجلّات فتصنع تاريخ الأدب. فما الذي ضاع إذاً؟

إنه شيء لا يوزن علامة وهم كما لو أنَّ مغنطيساً اطلق برادة الحديد ثم أعاد خلط بعضها ببعض وكما لو أنَّ خيوطاً انحلّت ساقطة من كُبّة أو أنَّ قطاراً تخلخل وكما لو أنَّ فرقة موسيقيّة أخذت تعزف عزفاً خاطئاً. وببساطة ما كان ليكون من الممكن إثبات تفاصيل لم تكن ممكنة من قبل أيضاً غير أنَّ كلّ العلاقات زُحزِحَت عن مواضعها قليلاً فالتصوّرات التي كانت صحتها ضئيلة من قبلٍ باتت كبيرة وحازت الشهرة شخصيّات ما كان المرء لينظر إليها من قبل نظرة الجدّ واستلان الخشن وعاد المنفصل إلى الإلتحام وقدّم المستقلون التنازلات من أجل الإستحسان وعانى الذوق المتكوّن لتوّه من الإضطرابات من جديد. وكانت الحدود الدقيقة قد امّحت في كلّ مكان. وكانت أيّة مقدَّرة جديدة لا سبيل إلى وصفها على المزاوجة غير المتكافئة ترفع من شأن أناس جدد وتصوَّرات جديدة. ولم يكن هؤلاء بالرديئين كلّا أبداً كلّا وإنما كان قد اختلط بالجيّد قدر من الرديء مفرط بعض الإفراط؛ والخطأ بالحقيقة؛

والتكيف بالمعنى؛ وكان يبدو على وجه الخصوص أنَّ نسبة مئوية مفضَّلة من هذا المزيج ورَّدت في العالم على أوسع نطاق مزيجاً ضئيلاً على أنّه كاف يغني عن البديل وهو وحده الذي يجعل العبقريّ يبدو عبقرياً ويجعل الموهبة تبدو أملاً مثلما أنَّ إضافة معيّنة من قهوة التين أو الهندباء هي وحدها التي تضفي على القهوة فيما يرى بعض الناس سمة القهوة الحقّة ذات المضمون الكامل. وشغلت كلّ وظائف الفكر المفضَّلة والهامّة دفعة واحدة بأمثال هؤلاء البشر وكانت كلّ القرارات تأتي مطابقة لفكرهم. ولا يستطيع المرء أن يعزو المسؤولية إلى شيء ولا يستطيع المرء أيضاً أن يقول كيف أصبح كلّ شيء على ما هو عليه ولا يمكن القتال ضد شخصيّات ولا أفكار ولا ظواهر معيَّنة فلا تُفتقد الموهبة ولا الإرادة الحسنة بل حتى ولا الشخصيّات وإنما كان يُفتقد كلّ شيء مثلما لا يُفتقد شيء فكأن الدم أو الهواء قد تغيَّر. لقد أتى مرض خفيّ على الإستعداد الضئيل للجانب العبقري في العصر السابق غير أنَّ كلّ شيء يلتمع من الجدّة وفي الختام ما عاد المرء يعرف هل أصبح العالم أسوأ بالفعل أم بات الناس أنفسهم أكثر شيخوخة. ثم حلّ عصر جديد بصورة نهائية.

واذاً فعلى هذا النحو كان الزمان قد تغيَّر مثل يوم يبدأ أزرق مشرقاً ثمَّ يحتجّب رويداً ولم يكن ينطوي على مودة لكي ينتظر أولريش. وقابل ذلك في عصره بأن عدَّ علة التغيّرات الخفيّة التي كانت تشكّل مرضه إذ كانت تأتي على العبقرية غباء مألوفاً تماماً. وما كان ذلك على الإطلاق بمعنى ينطوي على الإهانة. وذلك أن الغباء لو لم يكن يبدو من الداخل مشابهاً للموهبة إلى حدّ الخلط بينهما ولو لم يستطع أن يظهر من الخارج في صورة تقدُّم وعبقرية وأمل وتحسين لما أراد امرؤ بلا ريب أن يكون غبيّاً ولما وجد غباء بل كانت مكافحته على الأقل سهلة جداً. غير أن من المؤسف أنّه ينطوي على شيء

twitter @baghdad_library

جذاب وطبيعي إلى حدٍّ غير عاديّ. فعندما يجد المرء مثلاً أن طبعة زيتّية هي إنجاز أكثر فنيّة من صورة زيتّية مرسومة باليد يكون ثمة حقيقة كامنة في ذلك أيضاً وهي أكثر يقيناً في البرهنة من حقيقة ان ڤان غوخ كان فنّاناً عظيماً. وكذلك فمن السهل ومن المجدي جداً أن يكون المرء كاتباً مسرحياً أقوى من شكسبير أو روائياً أكثر توازناً من غوته. وان العبارة المبتذلة الحقّة لتنطوي في ذاتها دائماً على قدر من الإنسانية أكثر مِمّا ينطوي عليه اكتشاف جديد. ولا يوجد ببساطة فكرة هامة لم يعرف الغباء كيف يستعملها فهو مرن من كلّ جانب ويستطيع ان يلبس كلّ ثياب الحقيقة. أما الحقيقة فليس لها في مقابل ذلك إلّا ثوب واحد في كلّ مرّة وطريق واحد وهي مغبونة دائماً.

ولكن بعد هنيهة خطر ببال أولريش في صدد ذلك خاطر عجيب. فقد تصوَّر أنَّ فيلسوف الكنيسة الكبير توما الإكويني المتوفى العام ١٢٧٤ بعد أن نظّم أفكار عصره أحسن تنظيم بجهد لا مثيل له قد مضى يتعمَّق في ذلك إلى مدى أبعد وقد فرغ من ذلك لتوّه فحسب وقد خرج الآن وظلّ شاباً من جراء نعمة خاصّة وهو يتأبط كثيراً من الأسفار من باب منزله ذي القوس الدائري ومرقت حافلة كالسهم بالقرب من أنفه وامتعته الدهشة المنطوية على عدم الفهم عند الدكتور كما كان الماضي يسمّي توماس الشهير. وأقبل راكب دراجة نارية على امتداد الشارع الخالي وأقبلت صورة المنظور نحوه مُرْعدة مقوَّسة الذراعين والساقين. وكان وجهه يتسّم بجديّة طفل يزعق بخطورة هائلة. وتذكَّر أولريش في هذا الصدد صورة لاعبة تنس مشهورة كان قد رآها قبل بضعة أيام في المجلة. كانت تقف على رؤوس أصابع القدمين وقد عرّت ساقها حتى ما فوق رباط الجورب وقذفت بالساق الأخرى نحو رأسها بينما كانت ترفع يدها عالياً بالمضرب لتأخذ كرة وكان وجهها فوق ذلك يتَّخذ مظهر مربّية إنجليزيّة. وقد طبعت في العدد ذاته صورة سبّاحة وهي تتلقى تدليكاً بعد

المباراة وكان يقف عند كلّ من قدميها ورأسها شخصيّة نسائية ذات نظرة جادّة بينما كانت هي ترقد على ظهرها عارية في السرير وإحدى ركبتيها مرفوعة في وضع التسليم. وكان المدلّك إلى جانبها قد وضع يده عليها وهو يرتدي مريلة الأطباء ناظراً إلى خارج اللقطة وكأنَّ هذا اللحم النسائي مسلوخ ومعلَّق على كُلّاب. وقد أخذ الناس في تلك الأيام يرون أمثال هذه الأشياء ولا بدّ للمرء أن يسلم بها مثلما يسلِّم بالمباني العالية والكهرباء. وكان أولريش يشعر «ان المرء لا يستطيع أن يكنّ الضغينة لعصره بدون أن يلحق بنفسه الأذى». وكان أيضاً على استعداد في كلّ وقت لأن يحبّ كلّ هذه التشكيلات للحيّ. أما مّما لم يحقِّقه أبداً فكان مجرّد أن يحبها الحبّ الكامل كما يقتضي ذلك الإحساس الممتع الإجتماعي وظلّت هناك منذ عهد طويل نفحة من النفور جاثمة على كلّ ما كان يمارس ويعاني ظلّ العجز والوحدة ونفور كليّ لم يكن في وسعه أن يجد الميل المكمّل له وكان يخيّل إليه في بعض الأحيان على وجه الخصوص كأنّما ولد بموهبة لم يكن لها هدف في الوقت الحاضر.

twitter @baghdad_library

[١٧]

تأثير رجل بلا صفات على رجل ذي صفات

وفي الوقت الذي كان فيه أولريش وكلاريسّا يتحادثان لم يلاحظ كلاهما ان الموسيقى توقّفت وراءهما في ذلك الوقت. عند ذلك تقدّم فالتر من النافذة ولم يستطع أنِ يرى كليهما غير أنّه شعر إنهما كانا يقفان على مقربة من حدود مجاله البصري. وعذبّته الغيرة. وكان الصخب العام الصادر عن موسيقى شهوانيّة إلى حدٍّ بالغ تغريه بالعودة. وكان البيانو في ظهره ينتصب مفتوحاً كسرير بعثره نائم لا يحبّ أنْ يُفيق لكي لا يضطر إلى مواجهة الواقع. وعذّبته غيرة مشلول يشعر بخطو الأصحاء ولم تطاوعه نفسه أن ينضم اليهما لأن ألمه لم يتح له إمكانية الدفاع عن نفسه تجاههما.

وكان فالتر حين ينهض في الصباح ويضطر إلى الإسراع إلى المكتب وحين يتحدَّث إلى الناس في النهار وحين ينطلق إلى بيته بينهم بعد الظهر يشعر أنَّه إنسان له شأن وأنّه مندوب لأمر خصوصيّ. وكان يعتقد عندئذ أنّه يرى كلّ شيء رؤية مختلفة وكان من الممكن أن ينتابه هذا حين كان الآخرون يمرون بغير انتباه. واذا كان الآخرون يبادرون إلى شيء ما غير عابئين به فهناك كان مجرَّد حركة ذراعه بالقياس إليه حافلاً بالمغامرة الفكريّة أو الشلل المغرم بنفسه. كان مرهف الحسّ وكان يحرِّك شعوره على الدوام والتأملات وألوان الإكتئاب والوديان والجبال المائجة. ولم يكن لا مبالياً قط بل كان يرى في كلّ شيء سعادة أو مصيبة وبذلك كانت تسنح له الفرصة من أجل الأفكار الحيّة. وأمثال هؤلاء البشر يمارسون جاذبية غير عادية على الآخرين لأن

الحركة الأخلاقية التي يجدون أنفسهم فيها بغير انقطاع تكشف لهؤلاء عن ذاتها. وفي أحاديثهم يتَّخذ كلّ شيء معنى شخصياً. ولما كان يجوز للمرء في التعامل معهم أن يشتغل بنفسه بغير انقطاع فإنهم يتيحون متعة لا يحظى بها المرء في العادة إلّا لقاء أجر لدى محلِّل نفساني أو واحد من علماء نفس الأفراد وفوق ذلك مع فرق وهو أنَّ المرء يشعر هناك أنّه مريض بينما كان فالتر يعين الناس على أن يبدوا في نظر أنفسهم أناساً على غاية من الأهميّة لأسباب كانت غائبة عنهم حتى الآن. وبهذه الخاصّة وهي نشر الإشتغال الفكري بالنفس كان قلّما غزا كلاريسّا أيضاً ومع الزمن أخرج كلّ المنافسين من الميدان. وكان يستطيع أن يجعل كلّ شيء يتحوّل عنده إلى حركة أخلاقية وأن يتحدَّث حديثاً مقنعاً عن لا أخلاقية الزخرف وعن ضحيّة الشكل السَلِس وآثار حمرة موسيقى فاغنر على النحو الذي كان يتماشى مع الذوق الفني الجديد بل أنّه أفزع بذلك حَماهُ المقبل الذي كان يتمتَّع في الرسم بدماغ مثل ذيل الطاووس وعلى هذا فقد كان من الأمور التي لا ريب فيها ان فالتر كان يحق له أن ينظر من خلفه إلى ألوان من النجاح.

ومع ذلك فلم يكد يصل إلى بيته مفعماً بالإنطباعات والخطط التي ربّما بلغت من النضج والجدة ما لم تكن عليه أبداً من قبل حتى حلّ معه الآن تغيُّر يثبّط الهمم فلم يكن يحتاج إلّا إلى أن يضع شاشة على حامل الرسم أو ورقة على الطاولة ليكون هذا علامة هروب رهيب من قلبه. أما رأسه فظلّ صافياً وكانت الخطَّة فيه كأنّها تسبح في هواء شديد الشفافيّة والوضوح بل إنَّ الخطَّة انقسمت وتحوَّلت إلى خُطتين أو أكثر كانت تتنازع حول المرتبة الأولى غير أنَّ الإرتباط من الرأس إلى الحركات الأولى التي كانت ضرورية لتنفيذ كان كالمقطوع. ولم يكن في وسع فالتر أن يصمِّم على أن يحرِّك مجرّد أنملة فلم يكن ببساطة ينهض من المكان الذي كان يقعد فيه مباشرة وكانت أفكاره

twitter @baghdad_library

تتساقط فلا تعلق بالرسالة التي كان قد أخذها على عاتقه مثل الثلج الذي يتلاشى في لحظة السقوط. ولم يكن يعرف بم كان يمتلىء الزمان غير أنّه لم يشعر إلّا وقد حلّ المساء ولمّا كان قد أقبل إلى البيت قبلهم من الخوف بعد بضعة من أمثال هذه التجارب فقد أخذت تَنْسَرِب سلاسل بأكملها من الأسابيع وتنقضي مثل نوم جزئي مضطرب. ولمّا كان قد تباطأ من جراء فقدان الأمل في كلّ قراراته وحركاته فقد عانى من كآبة مريرة وتحوَّل عجزه الى ألمٍ كان في الغالب يستقر كنزيف الأنف وراء جبينه إذا ما أراد أن يقرّر القيام بشيء ما. كان فالتر متهيّباً وكانت الظواهر التي يلمسها في نفسه تعوقه لا عن العمل فحسب بل كانت تبعث فيه الخوف الشديد أيضاً إذ كانت فيما يبدو مستقلّة عن إرادته إلى حدٍّ يجعلها تحدّث لديه في الغالب الإنطباع الخاص ببداية انهيار عقليّ.

ولكن بينما كانت حالته تزداد سوءاً على نحو مطّرد على مدى العام الأخير وجد عوناً رائعاً في فكرة لم يكن قدّرها من قبل تقديراً كافياً. ولم تكن هذه الفكرة سوى فكرة أن أوروبا التي أرغم على العيش فيها منحطة انحطاطاً لا سبيل معه إلى إنقاذها. وفي العصور التي تكون أحوالها حسنة من حيث الظاهر بينما تكابد داخلياً من ذلك التردي الذي يعاني منه في الظاهر كلّ شأن من الشؤون ولذلك يعاني منه التطوّر الفكري أيضاً حين لا يكرّس المرء له جهوداً خاصة وأفكاراً جديدة لا ريب أنّه يجب في الحقيقة أن يكون السؤال التالي مباشرة: ماذا يمكن للمرء أن يفعل إزاء هذا. غير أنَّ فوضى ذكيّ وغبيّ ومبتذل وجميل تكون في أمثال هذه العصور بالذات ثقيلة ومعقدّة إلى حدٍّ ان كثيراً من الناس يبدو لهم بجلاء أنَّ من الأبسط أن يؤمنوا بسرّ يعلنون بموجبه عن انحطاط لا سبيل إلى وقفه في أيّ شيء يمتنع على الحكم الدقيق ويتّسم بغموض احتفاليّ. وفي هذا الصدد لا يكون من المهمّ أساساً على الإطلاق

أن يكون هذا هو العرق أو الغذاء النباتي أو الروح. ذلك لأنّ المسألة تعود شأنها في كلّ تشاؤم صحيّ إلى مجرّد ان المرء لديه شيء لا مفر منه يستطيع أن يلتزم به. وسرعان ما وقع فالتر أيضاً حين أخذ يجرّب ذلك بنفسه معهم على مزاياهم العظيمة على الرغم من أنّه كان في وسعه أن يضحك من هذه النظريات في السنوات الأفضل. فإذا كان حتى الآن هو الذي كان غير قادر على العمل وكان يشعر بسوء حاله فقد كان الآن الزمان هو العاجز وكان هو سليماً. ووجدت حياته التي لم تكن قد أفضت إلى شيء تفسيراً يعطي مرّة واحدة تبريراً بأبعاد علمانية كان لائقاً به بل كانت تتخذ على وجه الخصوص نوعاً من التضحية الكبرى حين كان يتناول القلم أو الريشة بيده ثم يطرحهما من جديد.

ومع ذلك فقد كان على فالتر أن يصارع نفسه بعدُ وكانت كلاريسّا تعذبه. لم يكن من الممكن اجتذابها إلى أحاديث في نقد العصر. كانت تؤمن بالعبقرية دونما لفّ أو دوران. أمّا ما هذه فلم تكن تعرف غير أنَّ جسدها كلّه كان يأخذ في الارتعاد والتوتر عندما كان يجري الحديث في ذلك وكان البند الوحيد في برهانها أنَّ المرء إمّا أن يشعر بها وإمّا ألّا يشعر بها. وكانت تظل دائماً الفتاة الصغيرة القاسية ذات الخمسة عشر حَوْلاً. ولم تكن قد فهمت أبداً شعوره فهماً كاملاً أو كان قد استطاع السيطرة عليها. ولكنّها كانت تملك إلى جانب ما كانت تتّسم به من البرود والقسوة كما كان شأنها ثم تعود إلى الحماسة بإرادتها الملتهبة بغير مادة مقدَّرة خفيّة على التأثير عليه وكأن الصدمات الواردة من خلالها كانت تأتي من اتجاه لم يكن من الممكن ادخاله في الأبعاد الثلاثة للمكان وكانت الحدود تصل أحياناً إلى ما هو رهيب وكان يشعر بهذا على وجه الخصوص عندما كانا يمارسان الموسيقى معاً. كان عزف كلاريسّا قاسياً لا لون له خاضعاً لقانون في الإثارة غريب عنه فعندما

twitter @baghdad_library

كانت الأجساد تتوقّد إلى حدٍّ تلألؤ الروح من كلّ جنباتها كان ذلك يتناهى إليه باعثاً للفزع. وكان ثمة شيء لا يمكن تحديده يتحرّر عندئذ في داخلها وينذر بالهرب من هناك مع روحها. كان يدخل من فضاء مجوَّف خفيّ إلى كيانها الذي كان على المرء أن يحافظ عليه موصداً من الفزع: لم يكن يعرف في أيّ شيء كان يلمِس هذا وماذا كان الأمر غير أنّه كان يعذبه بخوف لا سبيل إلى التعبير عنه وبالحاجة إلى عمل شيء حاسم ضده وذلك ما لم يكن يقدِّر عليه إذ لم يكن أحد يلاحظ شيئاً من ذلك سواه.

وكان يعي بوضوح يشوبه الغموض بينما كان يرى من خلال النافذة كلاريسا وهي عائدة أنّه لن يستطيع مرّة أخرى أن يقاوم الحاجة إلى أن يذكر أولريش بالسوء. وكان أولريش قد عاد في غير وقته. وألحق الأذى بكلاريسا. وكان يزيد بخسّة من سوء ما لم يكن فالتر يجرؤ على التعرّض له وهو كهف الوبال أيّ ما هو بائس مريض عبقري على نحو تعيس في كلاريسّا وهو الفضاء الخاوي الخفيّ الذي كان يعمل قطعاً في السلاسل التي يمكن أن تسترخي ذات يوم كلّ الاسترخاء. وكانت الآن تقف أمامه حاسرة الرأس وقد دخلت منذ هنيهة وقبّعة الحديقة في يدها وكان هو ينظر اليها. كانت عيناها ساخرتين صافيتين رقيقتين وربّما كانتا مفرطتين في الصفاء قليلاً. وكان قد شعر في بعض الأحيان أنّها تملك ببساطة قوّة يفتقر هو إليها. وكان قد أحسّ بها وهي بعد طفلة إحساسه بشوكة تأبى أن تدعه يخلد إلى الراحة ويبدو أنّه لم يُرِدْها هو ذاته أبداً على نحو مغاير لهذا وربّما كان هذا سرّ حياته الذي لم يكن الآخران كلاهما يفهمانه.

وقال في نفسه: «ألا إن آلامنا لعميقة!». وإني لأعتقد أنّه ليس مِمّا يغلب ورُودُه أنَّ يتحابَّ اثنان بمثل هذا العمق الذي يجب علينا أن نتحابَّ به». وشرع في الحديث بدون تمهيد قائلاً: لسْت أريد أن أعرف ما روى لك أولو

غير أني أستطيع أن أقول لك ان طاقته التي تنظرين إليها مندهشة ليست الّا خواءً!» ونظرت كلاريسّا إلى البيانو وابتسمت وان قد عاد إلى القعود على غير إرادة منه إلى جانب الجناح المفتوح واستأنف قائلاً: «لا بدّ أن يكون من السهل الإحساس بالبطوليّ عندما يكون المرء غير حساس بالفطرة وأن يفكّر المرء بالكيلو مترات حين يكون المرء لا يعرف على الإطلاق أيّ غنىً يمكن أنّ ينطوي عليه كلّ ميليمترا!». وكانا يطلقان عليه اسم أولو في بعض الأحيان كما كانا يفعلان ذلك في عهد صباه وكان يحبهما من أجل ذلك مثلما يكنّ المرء مهابة لمربيته مقرونة بالإبتسام. وأضاف فالتر قائلاً: «لقد تعثّر! أنت لاَ تلاحظين هذا غير أنّك لست في حاجة إلى أن تصدّقي أنني لا أعرفه!».

وكانت كلاريسّا في ريب.

وقال فالتر في عنف: «اليوم كلّ شيء انحلال! هاوية من الذكاء لا قرار لها! وهو أيضاً يتّسم بالذكاء أنا أسلّم بهذا غير أنّه لا يعرف شيئاً عن قوّة النفس الكاملة. وما يسمّيه غوته بالشخصيّة وما يسمّيه غوته بالنظام المرن لا يعرف هو عنه مجرّد شيء ما هذا المفهوم الجميل عن السلطان والحدود والتعسف والقانون والحرية والإعتدال والنظام المرن..».

وكان بيت الشعر ينطلق من الشفتين سابحاً في أمواج وكانت كلاريسا ترمق الشفتين بمودّة وهي مندهشة وكأنهما أطلقا العنان للعبة ظريفة ثم تداركت وتداخلت في صورة ربّة منزل صغيرة ضئيلة قائلة: «هل تريد حبة؟» ـ «ماذا؟ ولم لا؟ فأنا أشرب دائماً واحدة بلا ريب».

«ولكن ليس لديّ جعة في البيت!». قال فالتر متنهداً.

«من المؤسف أنّك سألتني فقد كان من الممكن ألّا أفكّر فيها أبداً».

twitter @baghdad_library

وبذلك ثم الفراغ من المسألة بالقياس إلى كلاريسّا. غير أنَّ فالتر كان قد خرج عن التوازن الآن وما عاد يجد المتابعة الصحيحة وسأل غير واثق: «أتذكّرين بعد حديثنا عن الفنّان؟»

«أيّ حديث؟»

«الحديث قبل بضعة أيام وقد شرحت لك ماذا يعني مبدأ الصورة الحيّ في الإنسان. هل تذكّرين كيف انتهيت إلى نتيجة مؤداها أنّه كان فيما مضي يسود الدم والحكمة بدلاً من الموت والمكننة المنطقيّة؟».

«كلّا»

وأرتجَّ على فالتر وكان يحاول مضطرباً متردّداً وانفجر مرّة واحدة:

«إنه رجل بلا صفات!»

وقالت كلاريسّا وهي تقهقه: «وما هذا؟»

«لا شيء. هذا لا شيء بكلّ معنى الكلمة!»

غير أن الفضول استبد بكلاريسا من جراء الكلمة.

وزعم فالتر قائلاً: «هذا يوجد منه اليوم بالملايين هذا هو نوع البشر الذي أبدعه الحاضر!» وكانت الكلمة التي خطرت فجأة قد أعجبته ودفعت به الكلمة قُدُماً وكأنّه يستفتح قصيدة قبل أن يتوفّر له المضمون: «انظري إليه! ماذا كنت خليقة أن تعدّيه؟ أتراه يبدو مثل طبيب أم مثل بائع أو مثل رسّام أم مثل دبلوماسيّ؟».

وقالت كلاريسا صافية الذهن: «ما هو بشيء من هذا حقاً».

«اذاً فهل تراه يبدو مثل رياضي؟!»

«لا علم لي بهذا فأنا لا أعلم حقاً كيف يفترض أن يبدو الرياضيّ!».

«ها أنتِ ذي تقولين شيئاً صحيحاً جداً! فالرياضيّ لا يبدو مشابهاً لشيء أبداً أيّ أنّه سيبدو ذكياً ذكاء يبلغ من عمومه أنّه لا ينطوي على مضمون محدد واحد! فباستثناء الكهنة الروم الكاثوليك ما عاد أحد على الإطلاق مثلما ينبغي له أن يبدو عليه لأننا مازلنا نستعمل دماغنا استعمالاً أبعد عن الإستعمال الشخصي مِمّا نستعمل أيدينا. أمّا الرياضيّات فهي الذروة وهي لا تعرف عن نفسها إلّا القليل جداً شأن البشر حين يتغذون بحبوب الطاقة بدلاً من اللحم والخبز إذْ يتاح لهم بعدُ أن يعرفوا المروج والعجول الصغيرة والدجاج!» - وكانت كلاريسا في هذه الأثناء قد وضعت على دائرة العشاء البسيط وكان فالتر قد أقبل عليه إقبالاً وربّما كان هذا قد أوحى إليه بهذه المقارنة. وكانت كلاريسّا تنظر إلى شفتيه. كانتا تذكّرانها بأمّه المتوفاة كانتا شفتين انثويتين في قوّة تمارسان الأكل مثل واجب منزليّ وتحملان فوق ذلك لحية صغيرة مقصوصة. وكانت عيناه تلتمعان مثل الكستناء المقشورة الطازجة حتى عندما كان يبحث عن مجرّد قطعة من الجبن في الطبق وعلى الرغم من أنّه كان أقرب إلى الضآلة والوهن منه إلى الرقة من حيث البنية فقد كان له تأثيره وكان من الناس الذين يظهرون دائماً على جانب جيّد من الإستنارة واستأنف الآن حديثه قائلاً: وأنت لا تستطيعين أن تحزِري مهنةً من مظهره ومع ذلك فهو لا يبدو كرجل ليس له مهنة. والآن فكّري ذات مرّة في الكيفيَّة التي هو عليها: أنّه يعرف دائماً ماذا عليه أن يفعل فهو يستطيع أن ينظر في عيني امرأة ويستطيع في كلّ لحظة أن يفكّر في كلّ شيء تفكيراً بارعاً في كلّ شيء وهو يستطيع الملاكمة وهو موهوب قوي الإرادة بعيد عن الأحكام المسبقة جريء مثابر مقدام متروّ - ولست أريد على الإطلاق أن أختبر هذا بالتفصيل فقد يتَّسم بكلّ هذه السمات ذلك لأنّه لا يملكها! - فقد جعلت منه هذا الذي هو عليه ورسمت له طريقه ومع ذلك فهي لا تعود إليه. وهو حين يكون غاضباً يضحك شيء فيه وحين يكون حزيناً فهو يُعِدّ لشيء ما وعندما يتأثّر من شيء يرفضه.

twitter @baghdad_library

وحدث شيء سوف يبدو له حسناً في أيّ سياق كان. والعلاقة الممكنة وحدها هي التي ستحدد موقفه من مسألة من المسائل. وما من شيء ثابت عنده فكل شيء قادر على التبدّل وهو جزء في ألوان من الكُلّ لا تحصى ربّما كانت تنتمي إلى كلّ أعلى لا يعرفه أدنى معرٌفة وعلى هذا فإن كلّ جواب من أجوبته هو جواب جزئي وكل شعور من مشاعره ليس إلّا وجهة نظر ولا يكون المعوَّل عليه عنده في شيء على ماهيته بل على مجرّد أيَّة «كيفيّة» مماشية له أيَّة إضافة على الدوام. ولست أدري هل أستطيع أن أجعل نفسي مفهوماً بالقياس إليك؟».

قالت كلاريسّا: «أجل ولكنّي أجد هذا بالغ اللطف من جانبه».

وكان فالتر قد تحدَّث على غير قصد منه مع أمارة النفور المتنامي وكان شعور الفتوّة عند الصديق الأضعف يزيد في غيرته. ذلك لأنّه على الرغم من أنّه كان مقتنعاً بأن أولريش لم يقم قط بشيء سوى بضعة من اختبارات الفهم العارية فإنه لم يتخلَّص في سرّه من انطباع مؤدّاه أنّه كان دائماً دونه من حيث الجسد. على أن الصورة التي صمَّمها هي مثل نجاح عمل فني. ولم يكن هو الذي يطرحها من نفسه بل كانت الكلمة تُرصَف إلى جانب الكلمة في الخارج مرتبطة بالنجاح الخفيّ لبداية ما وفي داخله تحرّر في هذا السياق شيء يشعر به. وعندما انتهى تبيّن له أن أولريش لا يعبّر عن شيء سوى هذه الطبيعة التي تتَّسم بها كلّ الظواهر اليوم.

وسأل الآن وقد فوجىء مفاجأة مؤلمة قائلاً: «أو يعجبك هذا لا يجوز لك أن تقولي هذا بجدّ!».

وكانت كلاريسّا تلوك الخبز مع الجبن الطريّ ولم تستطع إلّا أنَّ تبتسم بعينيها.

وقال فالتر: «آه ربّما سبق أن فكّرنا في شيء كهذا من قبل أيضاً ولكنَّ لا يجوز للمرء أنَّ يرى في ذلك بلا ريب أكثر من مرحلة تمهيدية! فمثل هذا الإنسان لا يعدّ إنساناً حقاً!»

وكانت كلاريسّا قد فرغت الآن وقالت زاعمة: «هذا ما يقوله هو حقاً!».

«ما الذي يقوله هو؟!»

أَوَ أتراني أعلم! وذلك أنَّ كلّ شيء منحلٌّ اليوم. فهو يقول أنَّ كلّ شيء تعثر لا هو فحسب غير أنّه لا يحمل ذلك على محمل السوء إلى هذا الحد ولقد سرد عليّ ذات مرّة قصّة طويلة وعندما يحلّل المرء طبيعة ألف من البشر يقع على اثنتي عشر من الخصائص والأحاسيس وأنماط المسيرات وأشكال البناء التي تتألّف منها وهكذا دواليك. وعندما يحلّل المرء جسدنا لا يجد إلّا الماء وبضع إثنتي عشرة من كتل المواد الصغيرة التي تسبح فوقه. والماء يصعد فينا مثلما يفعل في الأشجار بالضبط وهو يشكّل أجساد الحيوانات مثلما يشكّل السحب وأنا أجد هذا جميلاً إلّا أن المرء لا يعرف عندئذ حقّ المعرّفة ما ينبغي أن يقول لنفسه وما ينبغي له أن يفعل». وقهقهت كلاريسّا.

«لقد حدَّثته بعد ذلك إنك تذهب إلى الصيد أياماً بطولها عندما يكون لديك وقت فراغ وتكون عند الماء».

وقال فالتر بثبات: «ثم ماذا؟ أنا أود أن أعلم هل أحتمل ذلك عشر دقائق فحسب! غير أن الناس يفعلون هذا منذ عشرة آلاف عام يحملقون في السماء ويحسّون بحرارة الأرض ولا يحلّلون هذا إلّا قدر ما يحلّل المرء أمّه!».

ولم يكن بدٌّ لكلاريسّا أن تقهقه من جديد: «إنّه يقول أنَّ هذا قد تعقّد كثيراً منذ ذلك الوقت. فمثلما نسبح فوق الماء نسبح أيضاً في بحر من النار وعاصفة من الكهرباء وسماء من المغناطيسيّة ومستنقع من الحرارة وهكذا دواليك غير

twitter @baghdad_library

أنَّ كلّ شيء لا يتمّ الشعور به. وفي الختام لا يتبقّى على الإطلاق إلّا الصيغ. أمّا ما تعنيه هذه من الوجهة الإنسانية فذلك ما لا يستطيع المرء أن يعبّر به حقّ التعبير وهذا كلّ ما في الأمر. لقد نسيت ما تعلّمت في المدرسة الثانوية ولكنَّ الأمر يصحّ على أيّ نحو من الأنحاء بلا ريب. وهو يقول أنّه عندما يرد امرؤٌ اليمّ مثلما كان يفعل القديس فرانسيسكوس أو أنت ينادي الطيور بنداء الأخوة فلا يجوز له عندئذ أن يجعل نفسه مستلطفاً عندها فحسب بل يجب عليه أن يتمكّن من حزم أمره على أن يدخل التنور وعلى أن يقفز من خلال ذراع توصيل حافلة في الأرض أو يدسّ نفسه في القناة من خلال وصلة خاصة بالغسيل».

وقاطع فالتر هذا الحديث قائلاً: «أجل! أجل! ففي البداية يكون من العناصر الأربعة بضع اثنتي عشر وفي الختام نعود نسبح فوق مجرّد علاقات وفوق أحداث وفوق غُسالة من الأحداث والصيغ فوق أيّ شيء لايعرف المرء عنه أنّه شيء ولا أنّه حدث أو شبح من الأفكار أو ما يعلم الله ما هو! عند ذلك لا يعود يوجد فرق بين شمس وعود ثقاب ولا يعود يوجد أيضاً فرق بين الفم من حيث كونه أحد نهايتي القناة الهضميّة وبين النهاية الأخرى! فالمسألة الواحدة لها مائة جانب وللجانب الواحد مائة علاقة وبكلّ واحدة تتعلّق مشاعر مختلفة. وعندئذ يكون الدماغ البشري قد قسّم الأشياء تقسيماً موفّقاً غير أن الأشياء قسمت القلب البشري!». وكان قد نهض واثباً غير أنّه ظلّ واقفاً وراء الطاولة وقال: «كلاريسّا إنّه خطر عليك! أنظري يا كلاريسّا أنّه كلّ إنسان لا يحتاج اليوم إلى شيء ضروري كالبساطة والقرب من الأرض والعافية ـ أجل عند ذلك تستطيعين بلا ريب على الإطلاق أن تقولي ما تريدين ـ والطفل لأنّ الطفل هو الذي يشدّ المرء إلى الأرض برباط وثيق. وعلى هذا فما يسرده عليك أُولو مجانب للإنسانية كلّه. وإني لأؤكّد لك أنني أملك الشجاعة حين

آتي إلى المنزل لكي أشرب القهوة ببساطة معك ولأصغيَ إلى الطير ولأخرج للنزهة قليلاً ولأتبادل بضع كلمات مع الجيران وأدع اليوم ينتهي ببساطة: هذه هي الحياة البشريّة!».

وكانت رقة هذه التصوّرات قد ساقته إلى الإقتراب منها على نحو بطيء. ولكنَّ ما إن رفعت المشاعرُ الأبوية عن بُعْدٍ صوتَها الأجشّ العميق الرقيق حتى غدت كلاريسّا شامسة وجنح وجهها إلى الصمت بينما كان يدنو منها واتخذت وضعاً دفاعياً.

وحين وصل إليها كان يبثّ رقة دافئة مثل تنور فلّاحيّ جيّد. وتلجلجت كلاريسّا لحظة في تياراتها ثم قالت: «لا شيء يا عزيزي! وخطفت قطعة من الجبن والخبز من المائدة وقبَّلته على جبينه: على عجل.

«سأذهب لأرى أليس هناك فراش الليل».

وقال فالتر راجياً: «ولكن ما عاد يوجد البتة فراشات في هذا الفصل»

«كلّا لا يمكن للمرء أن يعرف ذلك!».

ولم يتخلّف منها في الغرفة إلّا الضحك وجعلت تطوف بالمروج بقطعة جبنها وخبزها وكانت المنطقة آمنة ولم تكن في حاجة إلى صحبة وغاضت رقة فالتر مثل طعام كالنفيخة المخفوقة بالبيض إذ تقتلعه النار قبل أن يُدرَك في الوقت المناسب وتنهَّد تنهداً عميقاً ثم قعد من جديد متردِّداً إلى البيانو وضرب بعض الأصابع وسواء أراد ذلك أم لم يرد فقد نشأت عن ذلك أخيلة حول موضوعات من أوبريت فاغنر وفي صخب هذه المادة المنبثقة دونما تهذيب التي كان قد حرّمها على نفسه في أيام الكبرياء كانت أصابعه تنداح في طوفان اللحن في مثل حركة الحَصْد والجريان في تيّار متقطّع. ألّا فليسمعها

twitter @baghdad_library

السامعون من كلّ حدب وصوب أو انتاب نخاعه الشلل من خدر هذه الموسيقى وخفَّت وطأة قَدَرِه.

موز بْروجَر

[١٨]

في هذا الوقت كانت قضيَّة موز بروجر تشغل الجمهور.

وكان موز بروجر نجاراً إنساناً طويلاً عريض المنكبين بغير شحم زائد له شعر رأس كفَرْو الحَمَل البنيّ ومخالب قويّة تتَّسم بالطيّب. وكانت القوّة الطيّبة وارادة الحقّ تنطقان في وجهه أيضاً ولو أن المرء لم يرها لكان خليقاً أن يشمَّها بلا ريب من رائحة يوم العمل الفاسدة الطيّبة الجافة التي تعود إلى إبن الرابعة والثلاثين والتي جاءت من التعامل مع الخشب ومن عمل يقتضي من الحذر مثلما يقتضي من الإجهاد.

وكان المرء يظلّ واقفاً كالمنغرس عندما يواجه أوّل مرّة هذا الوجه الذي باركه الله بكلّ أمارات الطيّب إذ كان موز بروجر يصحبه في العادة اثنان من جند القضاء المسلَّحين وكانت يداه المربوطتان إحداهما إلى الأخرى برباط وثيق أمام جسده على سلسلة صغيرة فولاذية قويّة كان يمسك بسدادتها أحد مرافقيه.

وعندما ما لاحظ أنَّ القوم ينظرون اليه ارتسمت ابتسامة على وجهه العريض الطيّب ذي الشعر المهمّل والشاربين مع الذبابة التي تنتمي اليهما. وكان يرتدي صداراً أسود قصيراً وثياباً للساقين رمادية فاتحة. وكانت وقفته تتَّسم بانفراج الساقين والسمة العسكرية غير أنَّ هذه الابتسامة كانت هي التي شغلت المراسلين في قاعة المحكمة أكثر ما شغلتهم. وربمّا كانت ابتسامة المُخْرَج أو ابتسامة ماكرة ساخرة خبيثة مؤلمة مخبولة متعطشة إلى الدماء رهيبة: ـ وكانوا يتعمدون تلمُّس التعبيرات المتناقضة ويبدون كأنّما يبحثون في

twitter @baghdad_library

هذه الابتسامة بحثاً يائساً عن شيء كان يبدو أنّهم لم يجدوه فيما عدا ذلك في أيّ مكان من الظاهرة الصادقة كلّها.

ذلك لأنّ موز بروجر كان قد قتل شخصيّة نسائية مومساً من أحطّ المراتب بطريقة تبعث على الفزع. وكان المراسلون قد وصفوا بدقّة جرحاً في العنق يصل من الحنجرة إلى القفا وكذلك الجرحين الناشئين عن طعن واللذين اخترقا القلب والإثنين في الجنب الأيسر من الظهر وبتر الثديين اللذين كان في وسع المرء أن يرفعهما تقريباً وعبّروا عن تقزّزهم من ذلك غير أنّهم لم يتوقّفوا قبل أن يُحصوا خمساً وثلاثين طعنة في البطن ويشرحوا جرح القطع الذي يمتدّ من السرّة إلى فقرات الحوض تقريباً والذي كان يستأنف صعوده في طعنات صغيرة لا تحصى في الظهر بينما كانت الرقبة تحمل آثار الخنق ولم يجدوا طريق العودة من هذه الأهوال في وجه موز بروجر الطيّب على الرغم من أنّهم كانوا هم أنفسهم أناساً طيّبين وقاموا على الرغم من ذلك بوصف ما حدث وصفاً موضوعياً اختصاصياً واضحاً في تشويق يأخذ الأنفاس بل انهم قلما كانوا يستعملون التفسير الأقرب وهو أنّ المرء يواجه مصاباً بمرض عقلي - إذ سبق ان كان موز بروجر في مستشفيات المجانين بضع مرات بسبب جرائم مماثلة على الرغم من أنّ المراسل الجيّد يتميّز اليوم باطّلاع ممتاز على أمثال هذه المسائل وكان يبدو وكأنّهم مازالوا يقاومون بصورة عابرة التخلّي عن الشرير وإرسال الحدث من عالمهم الخاص إلى عالم المرضى حيث يتّفقون في النظر مع أطباء النفس الذين كانوا قد أعلنوا أنّه سليم بقدر ما أعلنوا أنّه غير قادر على التمييز. وقد حدث فيما بعد أيضاً الأمر الغريب وهو أنّ أعمال موز بروجر العنيفة المرضيّة حين كانت لا تكاد تُعرَف بعدُ قد أحسّ بها آلاف البشر الذين يأخذون على الصحف حبّها للإثارة «شيئاً ممتعاً آخر الأمر سواء في ذلك الموظّفون المستعجلون أم الأولاد في سن الرابعة عشرة والزوجات

اللواتي تخيّم عليهن هموم البيت. والحق أنَّ الناس كانوا يتنهّدون حيال مخلوق كهذا غير أنّهم كانوا يُشغلون به انشغالاً أعمق من مهنة حياتهم أجل بل ربّما حدث أن قال في هذه الأيام سيِّد صالح من رؤساء الأقسام أو وكيل مصرف لزوجته التي غلبها النعاس لدى الذهاب إلى السرير: «ماذا تراك صانعة الآن لو كنت أنا موز بروجر..».

وكان أولريش حين التقى بصره بهذا الوجه مع علامات بُنُوّة الرب فوق الأصفاد قد ارتدّ على عجل وقدَّم إلى جندي من الحرس في المحكمة العليا الاقليمية ذات الموقع القريب بعض السجائر وسأل عن المواكبة التي لا بدّ أنّها غادرت البوابة منذ هنيهة فحسب فعلم ذ ـ: أنّه لا بدّ أن يكون شيء من هذا القبيل قد حدث قبل ذلك إذ يغلب أن يجد المرء الرواية عن ذلك بهذه الطريقة وأوشك أولريش نفسه أن يصدِّق ذلك ولكنَّ الحقيقة المعاصرة كانت هي أنّه كان قد قرأ كلّ شيء في الصحيفة فحسب واستغرق الأمر وقتاً طويلاً بعدُ قبلَ أن يتعرَّف على موز بروجر شخصيّاً وقد وفق إلى رؤيته بلحمه ودمه مرّة واحدة قبل ذلك أثناء التحقيق فحسب على أنَّ احتمال الإطّلاع على شيء غير عادي عن طريق الصحيفة احتمال أكبر إلى حدٍّ بعيد من احتمال شهوده؛ وبعبارة أخرى ففي المجال المجرَّد يحدث اليوم ما هو أكثر جوهرية ويحدث ما هو أقلّ شأناً في المجال الفعليّ أما ما عرفه أولريش على هذا الطريق من قصَّة موز بروجر فكان التالي تقريباً:

كان موز بروجر في صغره بائساً فقيراً صبيّاً من الرعاة في مجتمع كان يبلغ من صغره أنّه لم يكن يتمتَّع حتى بشارع قرية وكان يبلغ من بؤسه أنّه لم يحادث فتاة قط. ولم يكن يستطيع إلّا أن يرى البنات فحسب وكان الأمر كذلك أثناء التعلّم ثم حتى في الأسفار. على أنَّ المرء لا يحتاج إلّا إلى أن يتصوّر ماذا يعني هذا. فالشيء الذي يرغب فيه المرء رغبة فطرية مثلما يرغب في الخبز أو

twitter @baghdad_library

الماء لا يجوز له دائماً إلّا أن يراه فحسب. والمرء يرغب فيه بعد بعض الوقت رغبة غير طبيعية. وهو يمرّ مروراً عابراً فالتنانير تخفق حول بطتي ساقيه وهو يرتقي سوراً ويغدو مرئياً حتى الركبة والمرء ينظر في عينيه فتغدوان غير شفافتين والمرء يسمعه يضحك ويلتفت إلى الوراء وينظر في وجه مستدير لا تصدر عنه نأمة مثل ثقب في الأرض انْسَرَبت فيه فأرة منذ هنيهة.

واذاً فربما أمكن للمرء أن يفهم أن موز بروجر قد برّر موقفه حتى بعد قتل الفتاة الأولى بأنه يتعرّض أبداً للملاحقة من قبل الأشباح التي تناديه في الليل والنهار وكانت تقذف به من السرير إذا أخلد إلى النوم وتشغله عن العمل ثم أنّه جعل يسمعها في الليل والنهار تتحادث وتتنازع فيما بينها. ولم يكن هذا بالمرض العقلي ولم يكن في وسع موز بروجر أن يحتمل هذا حين كان القوم يتحدَّثون عنه على هذا النحو. على أنّه كان بالطبع يجمّل ذلك بنفسه في بعض الأحيان بذكريات حول خطب كهنوتيّة أو يبني ذلك على نصائح بالتمارض كان المرء يتلقّاها في السجون غير أن المادة اللازمة لذلك كانت جاهزة على الدوام إلّا أنّها كانت على شيء من الشحوب حين لم يكن المرء ينتبه إلى ذلك جيّداً.

وكذلك كان الأمر في الأسفار أيضاً. ففي الشتاء يكون من العسير على النجار أن يجد عملاً وكان موز بروجر يرقد في الشارع طوال أسابيع في الغالب. فإذا ما سافر المرء مسيرة أيام ووصل إلى المكان لم يجد المأوى. وكان عليه أن يواصل المسير حتى ساعة متأخّرة من الليل. أما وجبة الطعام فليس لديه نقد من أجلها وهكذا يشرب المرء العَرَق إلى أن تضيء شمعدان وراء العينين ويمشي الجسد وحده. أما في «المحطة» فلا يريد المرء أن يلتمس مهجعاً ليلياً على الرغم من الحساء الدافيء وذلك بسبب الحشرات القذرة من ناحية وبسبب المتاعب المضنية من ناحية أخرى وهكذا يفضل المرء أن يتسوّل

بضعة قطع من النقد ويتسلَّل إلى تبن فلاح من الفلاحين بدون أن يربو منه بالطبع وفي ما يطيل المرء السؤال ويجر على نفسه المهانة. أما في الصباح فهذا يفضي بالطبع إلى شجار وتبليغات بسبب العنف والتشرّد والتسوّل وفي النهاية يفضي هذا إلى مجموعة وطردة النموّ من أمثال هذه السوابق التي يفتحها كلّ قاص جديد مُدِلّا بأهميته وكأن موز بروجر يفصح عن ذاته فيها.

ومَنْ تراه يفكِّر في معنى ألّا يستطيع المرء أن يغتسل أياماً وأسابيع بطولها فالبشرة تبلغ من تصلّبها أنّها لا تسمح إلا بحركات خشنة حتى إذا كان المرء يريد القيام بحركات رقيقة وتحت مثل هذه القشرة تتجمّد الروح الحيَّة وقد يكون تأثّر العقل بهذا أقلّ وسيقوم المرء بما هو ضروري على نحو معقول تماماً فمن الممكن أن يتَّقد كضوء ضئيل في منارة عملاقة متنقّلة وهي مفعمة بالديدان المدهوسة أو الجراد ولكنَّ كلّ شيء شخصي فيها معتصر ولا يتقلّب إلّا المادة العضوية المتخمرة. ثم أنّه كان يلقى موز بروجر المتنقّل حين كان يجول في القرى أو في الشارع المنعزل أيضاً مواكب كاملة من النساء. الآن واحدة ثم امرأة من جديد وذلك في الحقيقة بعد نصف ساعة فحسب ولكنَّ إذا كُنَّ يأتين حتى مع فواصل زمنية كبيرة إلى هذا الحد ولم تكن ثمة علاقة فيما بينهن فقد كن يشكِّلن على الإجمال مواكب بلا ريب كن يذهبن من قرية إلى أخرى أو يكنَّ قد رأينه قبالة البيت منذ هنيهة فحسب وكن يرتدين مناديل أو سُتْرات غليظة تنتصب في خط متعرّج متصلّب حول الوركين وكنَّ يدخلن حجرات دافئة أو يَسُقْن أطفالهن أمامهن أو يكنَّ في الشارع وحيدات بحيث يمكن للمرء أن يرميهن بحجر مثل غراب. وكان موز بروجر يزعم أنّه لا يمكن أن يكون قاتلاً عن شهوة للقتل لأنّه لم يكن يخامره على الدوام إلّا مشاعر النفور إزاء هذه الشخصيّات النسائية وهذا لا يبدو غير محتمل ذلك لأنّ المرء يريد أن يفهم أيضاً قطة تجلس أمام فلاح بينما يثب طائر كنار أشقر سمين إلى

twitter @baghdad_library

أعلى والى أسفل أو تضرب فأرة ثم ترسلها وتعود إلى ضربها لمجرّد أن تراها مرّة أخرى وهي تهرب. ثم ما هو الكلب الذي يجري وراء عجلة وهي تدرج وما عاد يعضّ إلّا على سبيل اللعب وهو صديق الإنسان؟ هنا يتمّ في السلوك تجاه الحيّ المتحرّك الذي يدرج أو يسرع إلى الأمام التطرق إلى نفور خفيّ من رفيق المخلوقيّة المغتبط بنفسه وماذا ينبغي لامرىء آخر الأمر أن يعمل إذا ما صرخت؟ لم يكن في وسع المرء إلّا أن يثوب إلى رشده أو إذا كان لا يستطيع ذلك أن يضغط بوجهها نحو الأرض وأن يدسّ التراب في فمها.

لم يكن موز بروجر سوى أجير نجار إنساناً وحيداً كلّ الوحدة وعلى الرغم من أنّه كان يُحتَمَل احتمالاً جيّداً من قبل كلّ الرفاق فلم يكن له صديق. وكانت أقوى الدوافع توجّه كيانه من حين إلى آخر إلى الخارج بقسوة. ولكنَّ ربّما لم يكن ينقصه بالفعل كما قال إلّا التربية ولافرصة ليصنع من ذلك شيئاً آخر خانقاً للجماهير أو مشعلاً للحرائق في المسرح فوضوياً كبيراً. ذلك لأنّه كان يسمّي الفوضويين الذين كانوا يتجمّعون في روابط سريّة بازدراء الفوضويّين الزائفين. كان مريضاً على نحو جليّ. ولكنَّ عندما كانت طبيعته المريضة تقدّم السبب في سلوكه أيضاً على ما يبدو وهي الطبيعة التي كانت تعزله عن الآخرين من البشر كان هذا يبدو له مثل شعور أقوى وأعلى بأناهُ. وكانت حياته كلّها صراعاً قليل الحيلة إلى حدٍّ مضحك ومفزع من أجل فرص الاحترام لأناه. وكان وهو بعدُ غلام قد حطّم لربّ عمل إصبعه حين أراد هذا أن يؤدّبه بالضرب وتوارى عن آخر بمال بموجب عدالة ضرورية كما قال. ولم يكن يحتمل البقاء طويلاً في مكان. فكان يقيم ما دام يحمل الناس على التهيّب منه بطريقته التي تعمل بالكلام القليل مع الهدوء الودّي والكتفين العريضين كما كان يحدث في البداية دائماً. وكانوا لا يكادون يأخذون في التعامل معه بألفة ودون احترام وكأنّهم قد تعرّفوا عليه الآن. حتى يحمل عصاه

ويرحل إذ كان ينتابه عندئذ شعور رهيب وكأنَّه غير آمنٍ في سربه. وقد فعل ذلك ذات مرّة في وقت متأخّر فتآمر أربعة من البنائين في مبنى على أن يدعوه يشعر بتفوّقهم ويسقطوا السِقالة من أعلى الطوابق وسمعهم وهم بعدُ يقهقهون وراء ظهره ويتقدّمون هنالك ألقى بنفسه بكلّ طاقته التي لا تقدَّر عليهم مطوّحاً بواحدٍ درجتين وقطّع لاثنين آخرين كلّ أوتار الذراع. أمّا أنّه عوقب على ذلك فقد هزّ ذلك قلبه كما قال. وهاجر إلى تركيا ثم عاد من جديد إذ كان العالم يتَّحد ضده في كلّ مكان ولم يكن ثمة كلمة سحرية تواجه هذه المؤامرة ولا فضيلة.

وكان قد تعلَّم أمثال هذه الكلمات بجدّ في مستشفيات المجانين والسجون قِطَعاً كان يحشرها في أقلّ المواضع ملاءمة لها من أحاديثه منذ أنَّ كان قد استخلص أنَّ امتلاك هذه اللغات هو الذي كان يعطي الحاكمين الحقّ في«البت» في مصيره. وللسبب ذاته كان يجتهد أيضاً في التحقيقات في أنْ يتكلّم بألمانية فصحى منتقاة فكان يقول مثلاً: «يجب أن يُتَّخذ هذا أساساً لوحشيتي» أو: «لقد كنت قد تصوَّرتها أكثر قسوة بعدُ إذ كنت أقدِّر أمثال هاتِه النسوة في العادة». ولكنَّ عندما كان يرى أن هذا أيضاً يفتقر إلى التأثير لم يكن من النادر أن يتحفّز إلى وضع تمثيليّ كبير ويعلن ساخراً أنّه «فوضوي نظري» يستطيع في كلّ وقت أن يحمل الديمقراطيّين الإجتماعيّين على إنقاذه واذا كان يريد أن يأخذ من هؤلاء من أسوأ المستغلين اليهود للشعب العامل غير المطَّلع شيئاً كالهدية فإنه يملك هو أيضاً «علماً» بل مضماراً لا يستطيع الخيلاء الثقافي لقضاته أن يجاروه.

وفي العادة كان هذا يعود عليه من رقابة قاعة المحكمة الخاصّة بـ «الذكاء الجدير بالتنويه» بالتقدير المشرِّف خلال التحقيق وبالعقوبات الأشد صرامة

twitter @baghdad_library

غير أن غروره المُتَملّق كان يحسّ بهذه التحقيقات على أنّها عصور المجد في حياته.

من أجل ذلك لم يكن يكره أحداً كراهية لدودة إلى هذا الحدث مثلما يكره الأطباء النفسيِّين الذين كانوا يعتقدون أنّهم يستطيعون إلغاء كلّ كيانه الصعب المراس ببضع كلمات أجنبيّة وكأنّه في نظرهم قضية من قضايا الحياة اليوميّة. ومثلما يكون الأمر دائماً في أمثال هذه الحالات كانت التقارير الطبية حول حالته العقلية تتأرجح تحت ضغط عالم التصوّرات الحقوقي المتقدم عليهم ولم يكن موز بروجر يدع واحدة من هذه الفرص تفلت لكي يثبت في التحقيق العلنيّ تفوّقه على أطباء النفس وليكشف عن أنّهم نصّابون متغطرسون جاهلون كلّ الجهل يضطرون إلى قبوله في مستشفى المجانين بدلاً من إرساله إلى السجن حيث ينبغي أن يكون. ذلك لأنّه لم يكن ينكر أفعاله بل كان يريد أنَّ يراها تُفهَم على أنّها حوادث عائدة إلى فهم كبير للحياة. أما النسوة اللواتي كن يقهقهن فكن متآمرات عليه قبل كلّ شيء وكان معهن جميعاً أطفالهن الرضّع. أما الكلمة المستقيمة من الرجل الجادّ فلم يكنّ يلقين إليها بالاً هذا إذا لم يعدُدْنها إهانة. لقد كان يتجنّب طريقهن ما وسعه ذلك لكي لا يدع نفسه تتعرّض للإثارة غير أن هذا لم يكن بالممكن في كلّ وقت إذ تأتي أيام يكون فيها المرء من حيث كونه رجلاً غبياً كلّ الغباء في دماغه ولا يعود في وسعه أن يمسك بشيء لأنّ يديه تتعرّقان من الإِضطراب واذا اضطر المرء إلى التراجع كان بوسعه أن يكون على يقين أنَّ مثل هذا السم المتنقّل سيعرض له لدى الخطوة الأولى بعيداً فوق الطريق مثل دورية متقدِّمة بعث بها الآخرون مُخادِعة تضحك من الرجل في سرها بينما تضعفه وتقيم الدنيا وتقعدها معه إذا لم تقترف تجاهه شيئاً أكثر سوءاً بعد إلى حدٍّ بعيد مع انعدام ضميرها!

وهكذا جاءت نهاية تلك الليلة ليلة قضاها في الشرب بغير مبالاة وبكثير من الصخب لتهدئة الإضطراب الداخلي. على أنَّ من الممكن أن يكون العالم في غير مأمن حتى وإنْ لم يكن المرء سكران. كانت جدران الشوارع تتماوج كالكواليس التي ينتظر وراءها شيءٌ ما كلَّمة التذكير لكي يظهر. أما في ضاحية المدينة فيكون الجو أهدأ حيث يدخل المرء المجال الحر الذي يضيئه القمر. هنالك كان موز بروجر يضطر إلى أن يعود أدراجه ليلتمس منزلاً في أحد المنعطفات وهنا عند الجسر الحديديّ كلمته الفتاة. وكانت من تلكم الفتياتِ اللواتي يؤجرن أنفسهن للرجال في الأسفل في المروج خادم لا عمل لها قد هربت من هناك شخصاً ضئيلاً لم يكن المرء يرى منه إلّا عيني فأرة مغريتين تحت غطاء الرأس. وصرفها موز بروجر وأسرع في مشيته غير أنّها توسَّلت إليه أن يأخذها معه إلى البيت وانعطف موز بروجر لا يلوي على شيء حول الناصية آخر الأمر حائراً جيئة وذهاباً وكان يباعد خطواته وكانت تجري إلى جانبه وظلّ واقفاً فوقفت مثل ظلّ كان يجرها وراءه هذا ما كان عليه الأمر. عند ذلك قام بمحاولة أخرى ليفزعها فالتفت جانباً وبصق مرّتين في وجهها غير أن هذا لم يجد فتيلاً فقد كانت تستعصي على الجَرْح.

حدث هذا في المتنزه الذي يبعد ساعات والذي كان عليهما أن يعبراه في أضيّق مواضعه. عند ذلك أيقن موز بروجر أوّلاً أنّه لا بدّ أن يكون هناك حام للفتاة بالقرب منهما وإلّا فمن أين كان في وسعها أن تستمد الشجاعة لكي تتبعه على الرغم منه؟ فتناول سكين الجيب في جيب سرواله إذ كان القوم يريدون أنَّ يضحكوا منه وربّما كانوا يريدون الإغارة عليه من جديد إذ يستكن دائماً وراء النساء الرجل الآخر الذي يسخر من المرء ألم تبدُ له على وجه الإطلاق مثل رجل متنكّر؟ فقد كان يرى ظلالاً تتحرّك وكان قد سمع الخشب يطقطق بينما كانت المتزلّفة لا تزال تكرّر رجاءها بعد هنيهة كساعة أتمّت نَوَسانَها على بُعد

twitter @baghdad_library

شديد ولكنَّ لم يكن من الممكن العثور على شيء يمكن لطاقته الهائلة أن تنهال عليه وأخذ يتولّاه الخوف من هذا الرهيب الذي لم يحدث.

وعندما دخلا الشارع الأوّل الذي كان مايزال مقفراً جداً كان العرق يتصبَّب على جبينه وكان يرتعد. ولم يكن ينظر عن جانبه واتجه إلى مقهى كان مايزال مفتوحاً فطوَّح بفنجان قهوة سوداء وثلاثة أقداح من الكونياك وأتيح له أن يقعد بهدوء ربّما طوال ربع ساعة ولكنَّ حين دفع الحساب خطرت من جديد فكرة ما سيبدأ بها إذا ما كانت الآن تنتظر في الخارج؟ فهناك أمثال هذه الأفكار التي هي مثل الخيوط التي تربط وتستقر حول الذراعين والساقين في عُقَد لا نهاية لها. ولم يكد يخطو بضع خطوات في الشارع المظلم حتى شعر بالفتاة إلى جانبه على أنّها ما عادت الآن ذليلة على الإطلاق بل وقحة مطمئنة وما عادت ترجو أيضاً بل كانت تعتصم بالصمت فحسب. هنالك عرف أنّه لن يتخلَّص منها أبداً لأنّه كان هو نفسه الذي جرَّها وراءه وكان اشمئزاز بُكائيّ يملأ عنقه. ومضى وهذا الذي كان وراءه جزئياً كان هو من جديد. كان الأمر بالضبط مثلما كان قد لقي مواكبَ دائماً أيضاً وكان قد انتزع بنفسه ذات مرّة شظية كبيرة من الخشب من ساقه إذ كان أقلّ صبراً من أن ينتظر الطبيب وعلى نحو مشابه تماماً كان يتحسَّس الآن سكينه وكانت ترقد طويلة صلبة في جيبه.

ولكن موز بروجر وقع بإجهاد سماويّ على وجه الخصوص لروحه المعنوية على مخرج آخر. وذلك أنّه كان يوجد ملعب وراء اللوح السميك الذي كان الطريق الآن يمتدّ على طوله وهنا كان المرء لا يُرى البتة وانعطف وجثا في الكوخ الصغير الضيّق ودسّ رأسه في الركن ورقدت الأنا الثانية الملعونة إلى جانبه. ولذلك جعل يتظاهر بأنه نائم ليستطيع بعد ذلك أن يتسلل خارجاً من هنا. ولكنَّ حين زحف بهدوء متقدماً بقدميه خارجاً عاد هذا من جديد ولف ذراعيه حول عنقه. هنالك تحسس شيئاً صلباً في جيبها أو جيبه

فاستلّه ولم يكن يعلم حقّ العلم أكان مقصاً أم سكيناً فطعن به. وكانت قد زعمت أنّه مقص فحسب ولكنَّه كان سكينه وخرّت برأسها في الكوخ الصغير وجرّها قليلاً على الأرض الرخوة وظل ينهال عليها طعنا إلى أن فصلها عن نفسه فصلاً كاملاً. ثم وقف ربّما ربع ساعة أخرى عندها وجعل يتأملها بينما كان الليل يعود إلى الهدوء والسلاسة الرائعة. الآن ما عاد في وسعها أن تهين رجلاً وتتعلّق به. وأخيراً حمل الجثة عبر الشارع وأرقدها أمام الحرش لكي يمكن العثور عليها ودفنها على نحو أسهل كما زعم إذ ما عادت الآن قادرة على شيء من ذلك.

وفي التحقيق ذكر موز بروجر لمحاميه أكثر الصعوبات بعداً عن التنبّؤ. كان يقعد قعدة عريضة مثل متفرِّج على مقعده الطويل ويهتف استحساناً للمحامي العام عندما كان هذا يتقدّم بشيء يتّصل بخطره العموميّ مِمّا كان يبدو له لائقاً به ويوزع تقديرات الثناء على الشهود الذين كانوا يصرِّحون أنّهم لم يلاحظوا عليه قط شيئاً يمكن أن يحمل على استنتاج عدم المقدرة على التمييز. وكان القاضي الذي يدير التحقيق يجامله من حين إلى آخر قائلاً: «أنت مضحك غريب الأطوار» ويشدّ بضمير حيّ الأناشيط(٣) التي كان المتهم قد وضعها على نفسه. ثم وقف موز بروجر لحظة مندهشاً مثل ثور استُفِزَّ في الحلبة وجعلُ يطوف ببصره ولاحظ في وجوه الجالسين من حوله ما لم يستطع أن يفهمه وهو أنّه عمَّق بعمله انغماسه في وضعيّة الذنب مراراً.

وكان يجتذب أولريش على وجه الخصوص أنّه كان يكمن في أساس دفاعه على ما يبدو مخطط يمكن تمييزه على نحو غامض. لم يكن قد خرج بنيَّة القتل ولا كان يجوز له من أجل كرامته أن يكون مريضاً. أمّا المتعة فلا سبيل إلى الحديث عنها مطلقاً بل الحديث عن الإشمئزاز والإزدراء وعلى هذا لم

(٣) جمع الأنشوطة.

twitter @baghdad_library

يكن بدٌّ للفعلة التي كان قد جرّه إليها سلوك المرأة المشبوه «هذه المرأة الكاريكاتور» حسب تعبيره أن تكون ضربة قاتلة. وعندما كان القوم يفهمونه حقّ الفهم كان يطالب حتى بأن يُنظر إلى جريمته على أنّها جريمة سياسيّة وكان في بعض الأحيان يحدث انطباعاً بأنه لا يكافح من أجل نفسه أبداً بل من أجل هذا التركيب القانوني. وكان النهج الذي يتبعه القاضي في مواجهة ذلك هو النهج المألوف وهو ألّا يرى في كلّ شيء إلّا مجهودات ماكرة على نحو فجّ من قاتل يريد أن يتملّص من مسؤوليته. «لماذا غسلت يديك الداميتين؟ - لماذا طرحت السكين جانباً؟ - لماذا ارتديت بعد الفعلة ثياباً وملابس نظيفة جديدة؟ - لأنّه كان يوم أحد؟ وليس لأنّها كانت ملطخة بالدماء؟ - ولماذا ذهبت إلى حفلة ترفيهية؟ اذاً فالفعلة لم تمنعك من فعل هذا؟ وهل شعرت على الإطلاق بالندم؟» وكان أولريش يفهم حقّ الفهم استسلام موز بروجر العميق في أمثال هذه اللحظات إذ يتَّهم تربيته غير الكافية التي كانت تمنعه من أن يحلّ عقدة هذه الشبكة المحبوكة من عدم الفهم وذلك ما كان يعني في لغة القاضي مع التوكيد العقابيّ: «أنت تعرف دائماً كيف تلقي باللائمة على الآخرين!». وكان هذا القاضي يلخِّص كلّ شيء في واحد انطلاقاً من تقارير الشرطة والتشرّد ويقدِّم ذلك على أنّه ذنب لموز بروجر غير أن المسألة كانت تتألف بالقياس إلى هذا من بعض الوقائع المتفرِّقة التي لم تكن ثمة علاقة فيما بينها وكان لكلّ منها علة أخرى كانت تكمن خارج موز بروجر وفي أيّ مكان آخر في كلّ أنحاء الدنيا. أما في عيني القاضي فكانت كلّ أفعاله تنطلق منه وأمّا في عينيه فكانت قد أقبلت عليه كالطير التي تُقْبِل طائرة. وبالقياس إلى القاضي كان موز بروجر حالة خاصة أما بالقياس إليه هو فقد كان عالماً وأنّه لمن الصعب جداً أن يقال شيء مقنِّع حول عالم. لقد كانا منهجين يتصارعان أحدهما مع الآخر وحدتان واستنتاجان منطقيان غير أنَّ موز بروجر كان في موقف أقلّ مواتاةً إذ ما كان لمن هو أذكى منه أيضاً أن يتمكّن من التعبير عن أسبابه الغامضة الغريبة. كانت

تصدر مباشرة عمّا هو غريب مشوّش في حياته. وعلى حين تستمر كلّ الحَيَوات الأخرى بمئات الوجوه إذ ينظر إليها بطريقة واحدة من قبل أولئك الذين يَحْيَوْنَها ومن قبل أولئك الذين يقرّونها - كانت حياته الحقيقية غير موجودة إلّا بالقياس إليه. كانت نفحه ما تفتأ أشكالها تتغيّر وتبدَّل صورتها. وقد كان في وسعه بالطبع أن يسائل قضاته أكانت حياتهم شيئاً مختلفاً في جوهرها؟ غير أنّه لم يفكِّر في شيء كهذا على الإطلاق. فأمام العدالة كان مطروحاً كلّ شيء يتّسم بالسمة الطبيعية بعضه وراء بعض وكان غير ذي معنى عنده وكان يجشِّم نفسه أعظم المشاقّ لكي يُدخِل فيه معنى يفترض ألّا يقلّ في شيء عن منزلة خصومه النبلاء. وكان القاضي يحدث أثراً طيّباً تقريباً في جهده لمساندته في ذلك ووضع مفاهيم تحت تصرفه حتى وان كانت من أمثال تلك المفاهيم التي تعرّض موز بروجر لأوخم العواقب.

كان مثل صراع ظلّ مع الحائط. وفي النهاية ما عاد ظلّ موز بروجر يخفق إلّا على نحو قبيح. وفي هذا التحقيق الآخر كان أولريش حاضراً. وعندما تلا الرئيس التقرير الذي صرّح بمسؤوليته نهض موز بروجر وأبلغ المحكمة قائلاً: «انني راضٍ بذلك وقد وصلت إلى هدفي». وأجابه تكذيب ساخر في العيون حواليه وأضاف يقول غاضباً: «أنني راض عن طريقة الإثبات إذ فرضت الإتهام فرضاً!». أما الرئيس الذي غدا الآن كلّه صرامة وعقاباً فوبخه على ذلك بملاحظة مفادها أنَّ المحكمة لا تعوّل على رضاه. ثم تلا عليه حكم الإعدام وكان ذلك على وجه الدقة كما لو أنَّ السخف الذي كان موز بروجر قد تحدَّث به أثناء التحقيق كلّه مرفَّهاً عن كلّ الحاضرين لا بدّ أن يُجابَ عنه الآن أيضاً إجابةً جديّة. عند ذلك لم يقلّ موز بروجر شيئاً لكي لا يبدو من قبيل الفزع. ثم اختتم التحقيق وانقضى كلّ شيء ولكنَّ فكره تقلّب عندئذ فانتحى بنفسه إلى الوراء وقد بات لا حول له في مواجهة كبرياء أولئك الخالين من

twitter @baghdad_library

الفهم. والتفت إلى الوراء إذ كان جند القضاء يسوقونه إلى الخارج وجعل يصارع من أجل الكلمات ومدّ يديه عالياً وصاح بصوت ذاد عنه لكمات حراسه قائلاً: «إنّني راض بذلك وان كان لا بدَّ لي أن أعترف لكم بأنكم حكمتم على مجنون!».

وكان هذا مجانبة للمنطق ولكنَّ أولريش كان يقعد مبهور الأنفاس وكان من الواضح أنَّ هذا جنون وكان من الواضح بالقدر ذاته أنّه مجرّد علاقة مشوَّهة لعناصر وجودنا الخاصة. كان هذا يتَّسم بالتمزّق ويتخلَّله الظلام ولكنَّ أولريش خطر بباله على نحوٍ ما أنّه لو استطاعت البشريّة من حيث هي كلٌّ أن تحلم لكان لا بدّ أن ينشأ موز بروجر. ولم يَصْحُ إلا حين تقدّم «مهرّج الدفاع السخيف» كما كان جحود موز بروجر قد سمّاه أثناء التحقيق بدعوى البطلان بسبب تفاصيل كائنة ما كانت بينما كان يساق العميلُ العملاق لكليهما.

[١٩]

تنبيه خطيّ وفرصة للظفر بصفات وتنافس بين اعتلائين للعرش

وبهذه الطريقة كان الوقت ينقضي. واذا أولريش يتلقّى رسالة والده:
«ولدي العزيز! لقد انصرمت الآن من جديد شهور بدون أن يستفاد من أخبارك الضئيلة أنّك قمت في مسيرتك بأدنى خطوة إلى الأمام أو أنّك تعدّ العدة لمثل هذه الخطوة.

وأريد أن أعترف بسرور أنني قد أتيح لي على مدى الأعوام الأخيرة من وجوه عديدة لها قدرها الاغتباط بسماع الثناء على إنجازاتك واستحسان مستقبلك الذي تعلّق عليه الآمال على أساسها. ولكنَّ جنوحك الموروث ليس عني في الحقيقة إذا أغرتك مهمة إلى قطع الخطوات الأولى بصورة عاصفة ثم إلى ما يشبه النسيان الكامل لما تدين به لنفسك ولأولئك الذين علّقوا آمالهم عليك من ناحية ومن ناحية أخرى الظرف المتمثّل في أنني غير قادر على أن استقي من أخبارك حتى أدنى أمارة تتيح استخلاص خطة من أجل سلوكك التالي.

وليس الأمر أنّك في سن يكون عندها الآخرون من الرجال قد هيّأوا لأنفسهم مركزاً وطيداً في الحياة فحسب بل من الممكن أن أموت في أيّ وقت والثروة التي سوف أخلفها لك ولأختك بنصيبين متساويين لن تكون قليلة في الحقيقة غير أنّها لن تبلغ في الظروف الحالية بلا ريب من الضخامة ما يجعل امتلاكها وحده يمكن أن يضمن لك مركزاً اجتماعياً ربّما يترتّب عليك بناءً

twitter @baghdad_library

على هذا أن تهيّئه لنفسك بنفسك آخر الأمر. أنَّ فكرة كونك تتحدَّث منذ شهادتك الدكتوراة على سبيل الحصر تقريباً عن الخطط التي يفترض ان تتحرّك في مجالات مختلفة والتي ربّما كنت تقدرها فوق قدرها إلى حدٍّ بعيد بطريقتك المألوفة غير أنّك لا تكتب أبداً عن إنجاز مُرْضٍ يمكن أن يضمن لك تكليفاً تدريسيّاً ولا عن اتصال من أجل مثل هذه الخطط بأيّة جامعة ولا عن اتصال فيما عدا ذلك بالدوائر المسؤولة هذه الفكرة هي التي تفعمني بهَمٍّ ثقيل في بعض الأحيان. ولا يمكن ولا ريب أن اشتبه في أنني أقلل من شأن الإِستقلالية العلميّة التي كنت أوّل من شق طريقها قبل سبع وأربعين عاماً في كتابي المعروف لديك والصادر الآن في طبعته الثانية عشرة وهو عن نظريّة التمييز عند صموئيل بوفندوف والتشريع الحديث» ملقياً الضوء على العلاقات الحقيقية إلى جانب الأحكام المسبقة الخاصّة بهذا في مدرسة الحقوق الجنائيّة القديمة غير أني لا استطيع بالقدر نفسه أنْ أقرّ بناءً على تجارب حياة حافلة بالعمل ان يعتمد المرء على نفسه فحسب ويهمل العلاقات العلميّة والإِجتماعية التي هي أوّل ما يضفي على عمل الفرد التأييد الذي تدخل عن طريقه في علاقة مثمرة وباعثة على النموّ.

ولذلك فأنا آمل واثقاً أن أسمع عنك في أقرب وقت وأن يكون أحد التكاليف التي بذلتها من أجل تقدمك قد جوزيَ بمواصلتك مثل هذه العلاقات الآن بعد عودتك إلى الوطن وألّا تعود إلى إهمالها وقد كتبت أيضاً بهذا المعنى إلى صديقي الحقّ منذ سنين طويلة الذي يحميني الرئيس السابق لديوان المحاسبة والرئيس الحاليّ لل خصوصيّة العائلية العليا في المحاكم في دائرة كبار موظّفي البلاط سعادة الكونت شتالبرج ورجوت منه ان يتفضّل بتلبية التماسك الذي سوف تتقدَّم به إليه على أثر ذلك وقد تفضل صديقي صاحب المقام الرفيع أيضاً بإجابة على نحو عاجل ومن حسن حظك أنّه لن يستقبلك

فحسب بل سيولي سيرة حياتك الموصوفة من قبلي اهتماماً شديداً وبذلك يكون مستقبلك مضموناً على قدر ما يقع ذلك ضمن طاقتي وتقديري وعلى افتراض أنّك تعرف كيف تكسب سعادته إلى جانبك وتقوم في الوقت ذاته بتعزيز نظرات الدائرة الأكاديمية ذات الشأن تجاهك.

أمّا ما يتّصل بالإلتماس الذي لا ريب أنّه سيسرّك التقدُّم به إلى سعادته بمجرّد أن تعرف ما يدور حوله فإنَّ موضوعه هو التالي:

من المفروض أن يتمّ في ألمانيا في العام ١٩١٨ وذلك في الحقيقة في الأيام القريبة من ٦/١٥ احتفال كبير يرسخ في ذاكرة العالم عظمة ألمانيا وسلطانها في الذكرى السنوية التي تبلغ الثلاثين آنئذ من حكم الإمبراطور فيلهلم الثاني. وعلى الرغم من أنّه لا يزال هناك بضع سنوات حتى ذلك الوقت فإن من المعلوم استناداً إلى مصدر يعتمد عليه أنَّ الإستعدادات تتخذ لذلك منذ اليوم وان كان ذلك بعيداً كلّ البعد عن الصفة الرسميّة بحكم البداهة في اللحظة الراهنة. على أنّك تعرف حقّ المعرّفة بلا ريب أنَّ امبراطورنا المبجّل يحتفل بالذكرى السنوية السبعين لارتقائه العرش وان هذا التاريخ يصادف الثاني من كانون الأول. وبالنظر إلى التواضع الشديد الذي نتّسم به نحن النمساويّين جميعاً إلى حدٍّ مفرط في كلّ المسائل التي تمسّ وطننا يُخشى كما يترتّب عليّ أن أقول أن نشهد كونغزغريتس(٤) جديدة أيّ أن يستَبِقَنا الألمان بمنهجيّتهم المدربّة على التأثير الفعّال مثلما أدخلوا في تلك الأيام بندقية الإبرة قبل أن نفكر في مفاجأةٍ ما.

ومن حسنِ الحظ أنَّ تخوُّفي الذي أعربت عنه للتوّ قد تمَّ استباقه من قبل شخصيّات وطنية أخرى ذات صلات حسنة واستطيع أن أبوح لك بأنّ عملية

(٤) Konigsgratz بلدة تشيكية انتصر فيها البروسيون العام ١٨٦٦ على النمساويّين والسكسونيين.

twitter @baghdad_library

تجري في ڤيّنا للحيلولة دون تحقّق هذا التخوّف وإظهار الوزن الكامل للذكرى السنوية البالغة ٧٠ عاماً والمفعمة بالبركة والهموم في مقابل ثلاثين حولاً فحسب. ولمّا لم يكن من الممكن بالطبع تقديم تاريخ ١٢/٢ على تاريخ ٦/١٥ بشيء ما فقد وقع القوم على فكرة موفّقة وهي إعداد العام ١٩١٨ بأكمله ليكون عاماً تذكارياً لأمبراطورنا المسالم. وأنا لست مطّلعاً على ذلك قطعاً إلّا بمقدار ما أتيح للهيئات التي أنتمي إليها الفرصة لاتخاذ موقف من هذه الإشارة. أما المزيد فسوف تطّلع عليه بنفسك عندما تخبر الكونت شتالبرج بقدومك وهو الذي فكّر من أجلك بوظيفة تشرّف شبابك في اللجنة التحضيرية.

كما يجب عليّ أن أوصيك بألّا تحجم وقتاً أطول بالطريقة ذاتها والمؤلمة على وجه الخصوص بالقياس إليّ عن عقد أواصر العلاقات مع عائلة رئيس القسم توتسي من وزارة الخارجية مع الأسرة الإمبراطورية التي طالما كنت قد أوصيتك بها بل أوصيك أن تزور على الفور زوجته التي هي كما تعلّم ابنة أحد أبناء عمومة زوجة أخي المتوفي وهي بناء على ذلك ابنة عمك زيارة تعارف. فهي فيما يقال لي تتبوّأ مركزاً بارزاً في المشروع الذي كتبت إليك عنه منذ حين وقد تفضّل صديقي المبجّل الكونت شتالبرج تفضلاً كبيراً إلى حدّ فائق إذ جعلها تتوقّع زيارتك ومن أجل ذلك لا يجوز لك أنَّ تتردّد لحظة واحدة في تحقيق هذا.

أما أنا فليس لديَّ مزيد أرويه. فالعمل في الطبعة الجديدة لكتابي المذكور يستغرق فضلاً عن المحاضرات كلّ وقتي والبقية الباقية من طاقة العمل التي يظلّ المرء يعتمد عليها في الشيخوخة. ولا بدّ للمرء أن يحسن استغلال وقته لأنّه قصير.

أمّا أختك فأنا أسمع فحسب أنّها تتمتَّع بالصحة ولها زوج حصيف وطيب وان كانت لن تعترف أبداً بأنها راضية بما قُسِم لها وهي تشعر في ذلك بالسعادة.

الداعي لك

والدك المحبّ»

twitter @baghdad_library

الفصل الثاني

ما يحدث من هذا القبيل دائماً

twitter @baghdad_library

[٢٠]

ملامسة الحقيقة
على الرغم من افتقاد الصفات يتصرَّف أولريش بحزم وعزم وحماسة متَّقدة

أمّا أن أولريش قرّر بالفعل أن يقوم بزيارة تعارف للكونت شتالبرج فلم يكن آخر الأسباب المختلفة لذلك أنّه كان قد استبدّ به الفضول.

كان الكونت شتالبرج يشغل منصباً في القصر الإمبراطوري والملكي وكان امبراطور كاكانيا سيِّداً شيخاً أسطورياً وقد كتبت حوله منذ ذلك الوقت كتب كثيرة والنساء تعرفن على وجه الدقة ما كان يأتي ويمنع ويَدَع ولكنَّ في تلك الأيام في العقد الأخير من حياته وحياة كاكانيا كان الشك يخامر الشباب الذين كان لهم اطِّلاع على أوضاع العلوم والفنون في بعض الأحيان في أنّه موجود على الإطلاق. لقد كان عدد الصور التي كان الناس يرونها له يكاد يعادل في كثرته عدد سكان مملكته. وكان يؤكل من الطعام في يوم ميلاده ويُشرَب قدر ما يكون في يوم المخلِّص وكانت النيران تشتعل فوق الجبال وكانت أصوات ملايين البشر تؤكِّد أنّهم يحبّونه مثل أب. وفي النهاية كانت أغنية تصدح بأمجاده هي الشكل الوحيد في الأدب والموسيقى الذي يعرف منه كلّ منهم سطراً ولكنَّ هذه الشعبيّة وهذا الانتشار كان يلغي من بلاغة تأثيرهما أن الإيمان به كان يمكن الوصول إليه بسهولة مماثلة لم يكن في حال النجوم التي يراها المرء على الرغم من أنّها ما عادت موجودة منذ آلاف السنين.

وكان أوّل ما حدث الآن حين انطلق أولريش إلى القصر الإمبراطوري ان العربة التي كان ينبغي أن تنقله إلى هناك توقّفت وهي بعد في ساحة القصر الخارجية ورغب الحوذي في أن يدفع له أجره إذ زعم أنّه سيعبر حقاً ولكنّ لا يجوز له ان يظلّ واقفاً في الساحة الداخلية واستاء أولريش من الحوذي الذي رأى فيه محتالاً أو جباناً وحاول أن يستحثّه غير أنّه ظلّ عاجزاً أمام رفضه المتهيّب وفجأة شعر بإشعاع قوّة كانت أكثر جبروتاً منه. وحين دخل الساحة الداخلية لفت نظره لفتاً شديداً على أثر ذلك السترات والسراويل العديدة الحمر والزرق والبيض والصفر التي كانت تنتصب هناك في الشمس بالغة الصلابة كالطير على دكّة رملية. وكان حتى ذلك الوقت يرى في «صاحب الجلالة» مجرّد تعبير لا معنى له ومع ذلك فمازال الناس يحتفظون به مثلما يمكن على وجه الخصوص أن يكون المرء ملحداً ويقول مع ذلك «سبحان الله». على أن بصره ارتفع الآن نحو جدران عالية ورأى جزيرة واقعة هناك رمادية معزولة مسلّحة كانت سرعة المدنيّة تنطلق عندها كالسهم غير دارية بها.

واقتيد بعد أن أعرب عن رغبته عبر سلالم وممرات خلال حجرات وقاعات وعلى الرغم من أنّه كان يرتدي ثياباً حسنة جداً فقد كان يشعر خلال ذلك أن يلقى التقدير الحقّ بصورة كاملة من كلّ نظرة يلقاها. وما من إنسان هنا كان يبدو أنّه يفكّر في الخلط بين النبل الفكري والنبل الفعلي ولم يبق لأولريس ارتياح آخر سوى ذلك الناشىء عن الإحتجاج الساخر والنقد الخاص بأهل المدينة. وقدّر حازماً أنّه إنما يسير في منزل كبير ذي مضمون ضئيل؛ كانت القاعات تكاد تكون غير مفروشة غير أن هذا الذوق القائم على الفراغ لم يكن يتّسم بمرارة أسلوب كبير؛ وكان يمرّ بنسق مخلخل من الحرس والخدم الذين كانوا يشكّلون حماية هي أقرب إلى العجز منها إلى الأبّهة وهي حماية كان نصف اثني عشر من رجال الشرطة السريّة ذوي الأجر والتدريب

twitter @baghdad_library

الجيّدين خليقاً أن يؤمنها على نحو أبلغ تأثيراً. وفي النهاية كان هذا الطراز من الخدم المرتدين ثياباً وقبعات رمادية كسعاة المصارف والذي يسعون بين الخدم والحرس يحمله على التفكير بمحام أو طبيب أسنان لا يفصل فصلاً كافياً بين المكتب والمسكن الخصوصي. وجعل يفكِّر في أنَّ «المرء يشعر بوضوح من خلال ذلك كيف أنَّ هذا ربّما أفزع البشر المستقيمين من حيث كونه أبّهة في تلك الأيام. أما اليوم فما عاد يحتمل المقارنة حتى مع جمال فندق ونعيمه ومن أجل ذلك فهو يتَّسم اتساماً بارعاً حقاً بسمة التحفظ والجمود النبيلين».

ولكن حين دخل على الكونت شتالبرج استقبله صاحب السعادة في بهوٍ كبير فارغ يتَّسم بأحسن الأبعاد كان يقف في وسطه الرجل الأصلع الوديع وقد انحنى أمامه انحناءة خفيفة وتقوَّس ساقاه شأن إنسان الغاب بطريقة ما كان من الممكن لذي مرتبة عالية في البلاط من عائلة نبيلة أن يظهر بها من تلقاء نفسه بل في محاكاة لشيء ما فحسب. وكان كتفاه بارزين إلى الأمام وشفتاه متدليتين. وكان يحاكي ساعياً مسناً في دائرة أو موظَّف محاسبة طيّب وفجأة ما عاد هناك شكّ بمن كان يذكّر. فقد أصبح الكونت شتالبرج مكشوفاً وأدرك أولريش أنَّ الرجل الذي هو منذ سبعين عاماً المحور الأعلى على الإطلاق في أعلى سلطة لا بدّ أن يجد ارتياحاً معيَّناً في أن يتوارى وراء نفسه ذاتها ويتأملّ من خلال ذلك كيف أنَّ أدنى رعايه هنا حيث يتحوّل السلوك ببساطة إلى سلوك حسن بالقرب من هذه الشخصيّة ذات الرِفْعة المطلقة والى صورة بديهيّة لتكتُّم لا يمكن أن يبدو متَّسِماً بالسمة الشخصيّة أكثر منه. ويبدو أن هذا كان هو مغزى أنّ الملوك كان يسرّهم أيضاً أن يعيّنوا أوائل الخدم في دولتهم وبنظرة عجلى استيقن أولريش أن صاحب السعادة كانت له بالفعل تلك اللحية الشهباء الجليديّة القصيرة على الوجنتين المحلوقة تماماً عند الذقن والتي كانت لكلّ

أصحاب السعادة الرسميّين والبوابين في الخطوط الحديدية في كاكانيا. وكان الناس قد اعتقدوا أنّهم يطمحون في مظهرهم إلى محاكاة لأمبراطورهم ولملوكهم غير أن الحاجة الأعمق ترتكز في أمثال هذه الحالات على التبادليّة.

وكان لدى أولريش وقت للتفكير في هذا إذ كان عليه أن ينتظر برهة قبل أن يخاطبه صاحب السعادة. وكان الدافع الأصيل إلى التنكّر والتبدُّل التمثيليّ الذي يعدّ من متع الحياة قد عرض له بدون أدنى مذاق جانبيّ بل بدون أيّ معرّفة بالتمثيل حقاً وعلى نحو بلغ من القوّة ان التقليد المدنيّ المتمثّل في بناء المسارح واتخاذ فنّ من المسرحية يستأجره المدير بالساعة بدا له إلى جانب فن التصوير الذاتي هذا اللاشعوري المستمر؛ شيئاً مجانباً للطبيعة على وجه الإطلاق ومتأخّراً وانفصامياً. وعندما رفع صاحب السعادة آخر الأمر إحدى شفتيه عن الأخرى وقال له: «إنَّ أباك العزيز..» ثم ظلّ متعثراً وكان يكمن في الصوت ما كانت اليدان الضاربتان إلى الاصفرار والجميلتان إلى حدٍّ ملحوظ تحملان على الإحساس به وشيءٌ كالأخلاقية المتوتّرة يحيط بالمظهر كلّه وجد أولريش هذا خلّاباً وارتكب خطأً يسهل أن يرتكبه أولو الفكر. ذلك لأنّ صاحب السعادة سأله بعد ذلك من هو وقال: «آه شائق جداً في أيّ مدرسة؟» حين كان أولريش أجابه بأنّه رياضيّ وعندما أكدّ أولريش أنْ ليس له علاقة بالمدرسة قال صاحب السعادة: «آه ـ شائق جداً فهمت العلم والجامعة» وبدا هذا لأولريش متَّسِماً بالألفة الشديدة والإِمتياز وذلك على وجه الدقة كما يتصوّر المرء فقرة دقيقة من محادثة بحيث يتصرّف المرء بغتة وكأنّه هنا في بيته وهو يتابع أفكاره بدلاً من أن يتابع المقتضى الإِجتماعي للوضع. وفجأة خطر بباله موز بروجر. فقد كانت سلطة العفو قريبة هنا ولم يكن شيء يبدو له أكثر

twitter @baghdad_library

بساطة من تجربة استعمالها. وسأل قائلاً: «يا صاحب السعادة هل يمكنني في هذه المناسبة المواتية أن أشفع لرجل حكم عليه بالموت بغير حقّ؟».

وعلى أثر هذا السؤال فتح صاحب السعادة شتالبرج عينيه فتحة شديدة.

واعترف أولريش قائلاً: «إنه قاتل بدافع حبّ القتل قطعاً» ولكنَّه رأى في هذه اللحظة بنفسه إن تصرَّف تصرّفاً غير جائز وحاول أن يحسّن طريقته على عجل فقال: «إنه مريض نفسيّ بالطبع» وأوشك أن يضيف قائلاً: «وأنتم تعرفون يا صاحب السعادة أن تشريعنا من منتصف القرن الماضي متخلّف في هذه النقطة» غير أنّه اضطر أن يبلع ريقه. وجلس جلسة مطمئنة. كان من قبيل الزلّة أن يكلّف هذا الرجل بمناقشة كتلك التي يضطلع بها أناس يرحبون بألوان النشاط الفكري غير المشروع وعلى نحو لا طائل تحته البتة في الغالب. وإنما يمكن لبضع كلمات إذا ما نثرت على وجه صحيح أن تكون مثمرة كتراب الحديقة المخلخل غير أنّها كانت تحدّث في هذا المكان أثر كومة من تراب حملها امرؤٌ على حذائه إلى الغرفة بطريق سهو البصر ولكنَّ حين لاحظ الكونت شتالبرج حرجه أبدى له جانب اللطف إلى حدٍّ بعيد حقاً وقال بعد أن أتى أولريش على ذكر الإسم مع شيء من المغالبة: «أجل أجل أنا أذكر ذلك وأنت تقول إذاً أنَّ هذا مريض عقلياً وتودّ أن تساعد هذا الإنسان؟».

«إنه لا حيلة له في ذلك».

«أجل هذه حالات محرجة بوجه خاص على الدوام» وبدا أن الكونت شتالبرج يعاني كثيراً من مصاعبها ونظر إلى أولريش يائساً وسأله كأنْ ليس في الإمكان توقُّع شيء آخر إذا ما كان موز بروجر قد حُكِم حكماً نهائياً وكان على أولريش أن ينفي واستأنف قائلاً وقد سُرِّيَ عنه: «ولكن رويداً فما زال هناك متسع من الوقت» وأخذ يتحدَّث عن «الولد» مخلفاً قضية موز بروجر في غموض حافل بالودّ.

وكان أولريش قد انتابه شرود الذهن من جرّاء زلّته لحظة من الزمان. غير أنَّ ما يلفت النظر أنَّ هذا الخطأ لم يحدث انطباعاً سيئاً لدى صاحب السعادة. وكان الكونت شتالبرج قد ظلّ في الحقيقة يغير كلام في البداية كما لو أنَّ امرءاً خلع ثوبه في حضرته. ولكنَّ هذه المباشرة في رجل مزوّد بتوصية حسنة بدت له فعّالة وناريّة وسرَّه أنّه عثر على هاتين الكلمتين لأنّه كان يريد أن يكوّن لنفسه انطباعاً حسناً. فكتبهما «(يحق لنا أن نأمل أن نكون قد عثرنا على مساعد فعّال وناريّ») على الفور في الرسالة التمهيدية التي كان ينشئها إلى الشخصيّة الرئيسيّة في العمل الوطني الكبير. وحين تلقّى أولريش هذه الرسالة بعد بضع لحظات بدا لنفسه مثل طفل يفارقه المرء بأن يدسّ في يده الصغيرة قطعة صغيرة من الشوكولاته. وكان الآن يمسك بشيء بين أصابعه ويتلقّى توجيهات من أجل زيارة أخرى كان من الممكن أن تكون تكليفاً مثلما يمكن أن تكون رجاءً بدون أن تسنح فرصة للإعتراض على ذلك. وقد كان في وسعه أن يقول: «هذا سوء تفاهم فأنا لم تكن لديّ أدنى نيّة» ولكنّه كان قد بات في طريق العودة عبر الممرات والقاعات الكبيرة. وظل فجأة واقفاً وفكر قائلاً: «لقد رفعني هذا فلّين وانزلني في أيّ مكان من الأماكن التي لم أكن أريد أن أذهب إليها على الإطلاق!». وكان يتأمل بفضول بساطة الأثاث الماكرة. وكان من حقّه أن يقول دونما حرج أنّه لا يحدث الآن أيضاً أثراً فيه. وإنما كان هذا مجرّد عالم لم يُستَبعد. ولكنَّ أيّةَ صفة قويّة عجيبة كانت قد حملته على الشعور بما سمع. يا للشيطان فإن المرء لم يكن في وسعه أن يعبّر عن ذلك بطريقة أخرى إذ كانت ببساطة فعليةً على نحو مفاجىء.

twitter @baghdad_library

[٢١]

الاختراع الحقيقي للعمل الموازي من قبل الكونت لا يْنْزْدورف

غير أن القوّة الدافعة حقاً للعمل الوطني الكبير ـ الذي ينبغي أن يسمّى منذ الآن فصاعداً ابتغاءً للاختصار ولأنه كان عليه أن يظهر «الوزن الكامل لذكرى سنوية تبلغ السبعين عاماً حافلة بالبركة والهموم في مقابل ذكرى سنوية تبلغ مجرّد ثلاثين عاماً» بالعمل الموازي أيضاً ـ لم يكن الكونت شتالبرج بل صديقه حضرة الشريف الكونت لاينز دورف ففي حجرة العمل الجميلة ذات النوافذ العالية لهذا السيِّد العظيم ـ في وسط طبقات متعددة من السكون والتفاني وأشرطة الذهب واحتفاليّة المجد ـ كان يقف في الوقت الذي قام فيه أولريش بزيارته للقصر أمين السر ومعه كتاب في يده وهو يقرأ على الشريف موضعاً منه كان قد كُلِّف بالعثور عليه وكان هذه المرة شيئاً ليوهان جوتليب فيشته عثر عليه في «أحاديث إلى الأمَّة الألمانية» ورآه مناسباً جداً وتلا قوله «من أجل التحرر من الخطيئة الموروثة: الخمول وتابِعَيْها: الجبن والزيف يحتاج البشر إلى النماذج التي تسبق إلى تركيب لغز الحرية مثلما نجمت لهم أمثال هذه النماذج في مؤسسي الأديان. على أن التفاهم الضروري على العقيدة الأخلاقية يحدث في الكنيسة التي ينبغي أن ينظر إلى رموزها لا على أنّها فقرات تعليمية بل على أنّها وسائل تعليمية لإعلان الحقائق الخالدة». وكان قد شدَّد النبرة على كلمات الخمول والسبق إلى التركيب والكنيسة وكان حضرة الشريف قد أصغى بارتياح واستعرض الكتاب. ولكنَّ الكونت المقرّب من الدولة هزّ برأسه بعد

ذلك وقال: «كلّا لقد كان الكتاب خليقاً أن يكون جيّداً ولكنَّ هذا الموضع البروتستانتيّ الخاص بالكنيسة لا يستقيم لقد كان الكتاب خليقاً أن يكون جيّداً ولكنَّ هذا الموضع البروتستانتيّ الخاص بالكنيسة لا يستقيم أمره!» ونظر أمين السر فيه بمرارة مثل موظَّف صغير يضطر إلى اعادة مسوّدة مستند قانوني للمرة الخامسة من هيئة الرئاسة. واعترض بحذر قائلاً: «غير أن تأثير فيشته في الدوائر الوطنية سيكون باهراً» ـ وردّ الشريف قائلاً: «اعتقد أننا مضطرون بصورة مؤقَّتة إلى التخلِّي عن ذلك» وانقبض وجهه أيضاً مع الكتاب المنطوي وأمام الوجه الآمر بدون كلام انطوى أمين السر أيضاً في انحناءة خاضعةً وتلقّف فيشته ليرفعه عن المنضدة ويعيد تصنيفه في المكتبة بين كلّ المذاهب الفلسفية الأخرى في العالم؛ فالمرء لا يطبخ بنفسه بل يدع هذا يدبّره الآخرون. وقال الكونت لاينزدورف: «وإذاً فالمسألة تظلّ عند النقاط الأربع: الإمبراطور المسالم والمَعْلَم الأوروبي والنمسا الأصيلة والملكية والثقافة ووفقاً لذلك يجب عليك أن تنشىء الخطاب الدوري».

وكان الشريف قد وصل في هذه اللحظة إلى فكرة سياسية وكانت صياغتها في كلمات تعني: «سوف يأتون من تلقاء أنفسهم!» وكان يقصد تلك الأوساط من وطنه التي كانت أقلّ شعوراً بالإنتماء إلى هذا من الأمة الألمانية. وكانوا يمثّلون حرجاً بالقياس إليه. ولو أن أمين سره عثر على شاهد أكثر ملاءمة ليتمّلق إحساسهم (إذ أن فيشته وقع عليه الاختيار من أجل ذلك) لكان الموضع قد دُوِّنَ أيضاً. ولكنَّ في اللحظة التي حال فيها دون ذلك تفصيلٌ شوّش تنفس الكونت - الصعداء وقد سُرِّيَ عنه.

وكان حضرة الشريف مخترع العمل الوطني الكبير. وكان أوّل ما خطر بباله حين ورد الخبر المثير من ألمانيا كلمة الإمبراطور المسالم. وكان قد ارتبط بذلك على الفور تصوّرُ حاكم يبلغ ثمانية وثمانين حولاً أبٍ حقيقي

twitter @baghdad_library

لشعبه وحُكْمٍ يمتدّ سبعين حولاً بغير انقطاع. وكان من الطبيعي بلا ريب أن يحمل هذان التصوّران ملامح سيّده الإمبراطوريّ المألوفة لديه غير أنَّ المجد الذي كان جائراً فوقهما لم يكن مجد الجلالة بل مجد الحقيقة المنطوية على الفخر وهي أنَّ وطنه كان يحوز أقدم حكام العالم وأطولهم حكماً على أن غير المتفهّمين قد يتعرّضون لإغراء الشعور بأنهم يرون في ذلك مجرّد الاستمتاع بأمر نادر (كما لو أن الكونت - وضع امتلاك لوحة «الصحراء» الأكثر ندرة إلى حدٍّ بعيد والمخططة بخطوط عرضيّة مع العلامات المائية وسنّ ناقصة في مرتبة أعلى من امتلاك لوحة لجريكو وذلك ما فعله أيضاً في الحقيقة وإن كان يملك كلتيهما ولم يكن يصرف النظر تماماً عن مجموعة الصور المشهورة لدى أسرته) غير أنّهم لا يفهمون أيّة طاقة مُثْرِية تتفوّق بها مقارنةٌ ما حتى على الغنى الأكبر. ففي هذه المقارنة الخاصّة بالحاكم الشيخ كان يتمثّل بالقياس إلى الكونت لاينزدورف في الوقت نفسه وطنه الذي كان يحبه والعالم الذي كان يفترض أن يكون له أنموذجاً. وكانت آمال كبيرة مؤلمة تحرّك الكونت -. وما كان في وسعه أن يقول أكان أقرب إلى أن يكون ألماً حيال وطنه الذي لم يكن يراه يتبوّأ على نحو كامل المكان المشرّف «في أسرة الشعوب» الذي كان يليق به أم كان ما كان يحرّكه الغيرة من بروسيا التي كانت قد أخرجت النمسا من هذا المكان (في العام ١٨٦٦ بتدبير خبيث!) أم كان يُفْعِمه ببساطة زُهُوّ نبلاء دولة قديمة والحاجة إلى إثبات نموذجيّتهم؛ ذلك لأنّ شعوب أوروبا كانت فيما يرى تنجرّ جميعها إلى دوّامة ديمقراطية مادية وكان يلوح في ذهنه رمز رفيع كان يفترض فيه أن يكون في الوقت نفسه تحذيراً وعلامة على العودة إلى الذات. وكان من الجليّ لديه أنّه لا بدّ أن يحدث شيء ما يضع النمسا في مقدّمة الأمم جميعاً لكي يكون هذا «الإعلان المتألّق عن حياة النمسا» بمثابة «مَعْلَم» للعالم كلّه ليخدمه في العثور من جديد على كيانه الحقيقي الخاص به وأنّ هذا كلّه كان مرتبطاً بحيازة إمبراطور مسالم يبلغ ثمانية وثمانين حولاً. أما

ما هو أكثر وأدقّ فكان الكونت - مايزال لا يعرفه في الواقع. ولكنَّ كان من الثابت أن فكرة كبيرة قد استحوذت عليه ولم تكن المسألة أن هذه ألهبت عاطفته الجامحة فحسب ـ وهي العاطفة التي كان المسيحي الذي رُبّي تربيةٍ صارمة ومسؤولة خليقاً على أيّة حال أن يظلّ حيالها سيء الظن ـ بل انصبَّت هذه الفكرة بوضوح ساطع على نحو مباشر في تصوَّرات بالغة التسامي والإشراق كتصوُّر الحاكم والوطن وسعادة العالم. أمّا ما كان لايزال يعلَق بهذه الفكرة من الغموض فلم يكن بقادر على أن يبعث الإضطراب لدى حضرة الشريف. كان الشريف يعرف معرٌفة حسنة جداً النظرية اللاهوتية الخاصّة بالنظر في الغموض الإلهيّ (Contemplatio in caligine divina) الذي يعدّ بالغ الوضوح في حد ذاته غير أنّه يمثّل بالقياس إلى الذهن البشري انبهاراً وانكسافاً وظلاماً. وفي النهاية فقد كانت عقيدة حياته أنَّ الرجل الذي يقوم بالأمر العظيم لا يعرف في العادة لماذا يقوم به ـ فقد قال كرومويل: «إنَّ الرجل لا يتقدّم أبداً إلّا حين لايعرف إلى أين يذهب!». ولذا فقد استسلم الكونت - راضياً لمتعة تشبيهه الذي كان عدم يقينه كما كان يشعر يثيره أكثر مِمّا تثيره اليقينيّات.

ولكن مع صرف النظر عن التشبيهات كانت نظراته السياسية تتَّسم برسوخ فائق وبتلك الحرية التي تتمتَّع بها شخصيّة عظيمة والتي لا تكون ممكنة إلّا بفعل الغياب الكامل للشكوك. وكان بحكم كونه من السادة المتمتعين بحق البكورة عضواً في مجلس القصر ولكنَّه لم يكن فاعلاً من الناحية السياسية ولا تقلّد وظيفة في البلاط أو في الدولة. لم يكن «شيئاً سوى وطنيّ». ولكنَّ بفعل هذا على وجه الخصوص وبفعل غناه المستقل كان قد أصبح محوراً لكلّ الوطنيين الآخرين الذي يتابعون تطوّر الدولة والبشريّة بقلق. وكانت حياته مفعمة بالإلتزام الأخلاقي بألّا يكون متفرّجاً لا مبالياً بل «يمدّ يد العون من

twitter @baghdad_library

عَلٍ» للتطوّر. وكان على يقين من كون «الشعب» إنَّ هذا من «الخير» إذ لم يكن يرتبط به موظَّفوه ومستخدموه وسُعاته الكثيرون فحسب بل كان يرتبط به في دوام وجودهم الإقتصادي أناس لا يُحصَوْن عدداً ولم يكن يعرفهم أبداً على غير هذا النحو باستثناء أيام الآحاد والعطلات إذ كانوا ينبثقون في جمع ملوَّن ودّي من وراء الكواليس مثل جوقة أوبرا. وكان من أجل ذلك يعزو مالا يوافق هذا التصوّر إلى «عناصر تحريضيّة» وكان ذلك بالقياس إليه عمل أفراد غير مسؤولين وغير ناضجين ومولعين بالإثارة. ولما كان قد ربّي تربية دينية وإقطاعية ولم يكن قطّ معرّضاً للتناقض من خلال الاتصال بأهل الطبقة الوسطى ولم يكن قليل الإطّلاع غير أنّه كان بفعل الأثر اللاحق للتربية الكهنوتية التي كانت ترعى صباه ممنوعاً طوال حياته أن يعرف شيئاً في كتاب آخر سوى التطابق مع مبادئه الخاصّة أو الانحراف الضالّ عنها وكان لا يعرف أفكار البشر المعاصرين عن الدنيا إلّا من خلال المعارك في البرلمان والصحف؛ ولمّا كان يتمتّع بما يكفي من المعرّفة ليتعرّف في هذه على الكثير من السطحيّات فقد كان يجد في كلّ يوم معاضدة في حكمه المسبق وهو أنَّ عالم الطبقة الوسطى الحقيقية المفهومة فهماً أعمق ليست شيئاً آخر سوى ما يراه هو على أن الإضافة «الحقيقية» على وجه الإطلاق إلى الأفكار السياسية إحدى وسائله المساعدة ليجد طريقه في عالم مخلوق من قبل الله ولكنَّه كثيراً ما ينكره. وكان على يقين راسخ أنَّ الاشتراكية الحقّه نفسها تتطابق مع فهمه بل لقد كانت فكّرته الأكثر إتساماً بالسمة الشخصيّة منذ البداية والتي كان مايزال يكتمها جزئياً حتى عن نفسه هي أنَّ يُضرَب جسر يزحف عليه الإشتراكيون إلى معسكره. فمن الواضح بلا ريب أنَّ مساعدة الفقراء مهمة من مهمّات الشهامة وأنّه لا يمكن في نظر كبار النبلاء الحقيقيّين أن يكون هناك في الحقيقة مثل هذا الفرق الكبير بين صاحب مصنع من الطبقة الوسطى وعامله؛ وكانت عبارة «نحن جميعاً في أعمق أعماق الاشتراكية» من كلماته المفضَّلة

وكانت تعني تقريباً ما يعادل أنّه لا يوجد في الآخرة فروق إجتماعية ولا يزيد عن ذلك. أمّا الدنيا فكان يرى فيها وقائع ضرورية ويتوقّع من الطبقة العاملة إذا ما استجيب لها في مسائل الرفاهية المادية فحسب أن تعرض عن الشعارات اللاعقلانية المحمولة عليها ويتبيّن لها النظام الطبيعي للعالم حيث يجد كلّ امرىء في الدائرة المحدّدة له واجبه ونجاحه. ومن أجل ذلك فإن النبيل الحقّ كان يبدو له في مثل أهمّية العامل الحق. وكان الحل للمسائل السياسية والإقتصادية بالقياس إليه يؤول في الحقيقة إلى رؤية منسجمة كان يسمّيها الوطن.

وما كان في وسع الشريف أن يبيّن ما فكّر فيه خلال الربع ساعة منذ انصراف أمين سره ربّما في كلّ شيء. كان الرجل المربوع القامة والبالغ نحو ستين حولاً يجلس بغير حراك أمام مكتبه ويداه معقودتان في حضنه ولم يكن يعرف أنّه كان يبتسم وكان له ياقة منخفضة إذ كان لديه استعداد للجَدَرة(٥) وشارب مفتول إمّا للسبب ذاته وإمّا لأنّه كان بذلك يذكر قليلاً بصور الإستقراطيين البوهيميّين من عصر فالنشتاين. وكانت تنتصب حوله حجرة عالية وكانت هذه بدورها محاطة بالحجرات الكبيرة الخالية وهي حجرة أمانة سرّ المكتبة وكان يقع حولها حجرات أخرى طبقةً فوق طبقة وسكون وخشوع وأبّهة وتاج من درجين حجريين انسيابيين وحيث كان هذان ينتهيان في المدخل كان يقف البوّاب الكبير في معطف ثقيل مطعّم بالأشرطة وقضيبه في يده. وكان ينظر من خلال ثقب قنطرة البوابة في سيولة النهار المشرقة وكان المشاة يمرّون سابحين كأنهم في حوض زجاجيّ للسمك الذهبيّ وعند حدود هذين العالمين كانت ترتفع الزخارف التمثيلية لواجهة من عصر الروكوكو كانت مشهورة بين علماء الفن لا لجمالها فحسب بل لأنّها كانت أكثر ارتفاعاً مِمّا

---

(٥) تضخم الغدة الدرقية.

twitter @baghdad_library

كان عرضها وهي تعدّ اليوم المحاولة الأولى لشدّ إهاب قصر ريفيّ صغير مريح فوق هيكل دار البلديّة المرفوعة فوق المسقط الأفقي المضيَّق على الطريقة المدنيّة ممثلاً بذلك أحد أهمّ طرق الانتقال من الملكية الزراعية الإقطاعية إلى أسلوب ديمقراطية الطبقة الوسطى. وهنا كان يتحوّل وجود آل - إلى الروح العالمية مصدَّقاً عليه في كتب الفن ولكنَّ كان من لا يعرف ذلك قلما يرى منه أكثر من قطرة الماء التي تمرق عابرة من جدار قناته فقد كان لا يلاحظ إلّا ثقب البوابة اللدن الضارب إلى الرماديّ في الشارع الثابت في العادة وهو تعمُّقٌ مفاجىء يكاد يكون مثيراً، كان يتألق في أخدوده ذهب الأشرطة وذهب الزر الكبير على قضيب حارس البوابة. وكان حارس البوابة هذا يأتي في الطقس الجميل قبل الدخول. عند ذلك كان يقف هناك مثل حجر كريم ملوَّن مرئي من بعيد قد تحطّم في هَرَب من المنازل ما خطر ببال أحد على الرغم من أن جدرانها هي أوّل من ارتقى بالخليط العابر الذي لا يُحصى والدي لا اسم له إلى نظام الشارع. ومن الممكن المراهنة على أن شطراً كبيراً من «الشعب» الذي كان الكونت - يهتم بنظامه ويسهر عليه بغير توانٍ لم يكن يرتبط باسم حين كان يخطر شيء سوى ذكرى هذا البواب.

غير أن الشريف ما كان ليرى في ذلك خذلاناً بل أن مجرّد امتلاك مثل هذا الطراز من البوابين كان يبدو أنّه «الإيثار الحق» الذي يليق برجل نبيل.

[٢٢]

العمل الموازي يتمثَّل في صورة سيِّدة ذات نفوذ وظرفٍ فكري لا يوصف على استعداد لابتلاع أولريش

كان على أولريش حسب رغبة الكونت شتالبرج أن يزور هذا الكونت– ولكنَّه كان قد قرّر ألّا يفعل ذلك وعزم في مقابل ذلك أن يقوم بالزيارة الموصى بها من قبل أبيه لـ «ابنة عمه الكبرى» إذ كان يحبّذ أن يراها بعينيه ذات مرّة ولم يكن يعرفها غير أنّه كان ينطوي على نفور خصوصي تماماً منها حتى منذ بعض الوقت إذ حدث مراراً أن نصح له أولئك الذين كانوا على علم بقرابته وكانوا ينطوون على نوايا حسنة تجاهه قائلين: «هذه السيِّدة كان عليك أنت علي وجه الخصوص أن تتعرَّف عليها!». وكان ذلك يحدث دائماً مع ذلك التشديد في النبرة على كلمة أنت والذي يراد منه إبراز المخاطب على أنّه المناسب بصورة استثنائية لفهم مثل هذه القطعة من الحلي ويمكن بالقدر ذاته أن يعني مجاملة مخلصة مثل تورية عن توكيد لكون المرء هو المغفّل الملائم لمثل هذا التعارف. وكان من أجل ذلك قد استعلم مراراً عن المزايا الخصوصيّة لهذه المرأة غير أنّه لم يتلقَّ أبداً جواباً شافياً. كان الجواب إمّا أن يكون: «لها ظُرْف فكري لا يوصف» أو: «إنها سيِّدتنا الأكثر جمالاً وفطنة». وآخرون يقولون ببساطة: «إنها امرأة مثالية!». وكان أولريش يسأل قائلاً: «كم يبلغ سن هذه الشخصيّة؟» ولكنَّ ما كان أحد يعرف ذلك وفي العادة العجب يتولَّى المسؤول من أنّه لم يخطر بباله أن يسائل نفسه عن ذلك. وكان أولريش يسأل آخر الأمر نافدَ الصبر: «ومَنْ يكون عشيقها الآن في الحقيقة؟» وكان

twitter @baghdad_library

الشاب الذي ليس بالغرّ هوالذي كان يتحدَّث إليه على هذا النحو يقول مندهشاً «أهي علاقة؟ أنت على صواب تماماً ما كان في وسع إنسان أن ينتهي إلى هذا التكهّن». وقال أولريش في نفسه: «وإذاً فهو جمال ذهنيّ ديوتيما ثانية ومنذ هذا اليوم سمّاها في أفكاره على هذا النحو على اسم تلك الملهمة المشهورة للحبّ».

غير أنّها كانت تسمَّى في الواقع إرميلندا توتسي بل كان اسمها في الحقيقة هيرمينا فقط. على أن إرميلندا ليست في الحقيقة ترجمة هيرمينا غير أنّها كانت قد اكتسبت الحقّ في هذا الإسم الجميل ذات يوم بالإلهام الحدسيّ إذ مَثَل فجأة في صورة حقيقة عليا أمام أذنها الذهنية وإنَّ كان زوجها ظلّ يسمّى بعد ذلك أيضاً هانز لاجيوفاني وعلى الرغم من اسم عائلته فقد تعلّم اللغة الإيطالية أوّل ما تعلّمها في المعهد القنصليّ. وكان أولريش ينطوي حيال هذا الرئيس للقسم توتسي على حكم مسبق لإيّ قول عمّا ينطوي عليه حيال زوجه. وكان في وزارة تعدُّ من حيث كونها زارة للخارجية وللأسرة الإمبراطورية أكثر إقطاعية إلى حدٍّ بعيد من مكاتب الحكومة الأخرى الموظَّف المدنيّ الوحيد في مركز له شأنه وكان يدير فيها أكثر الأقسام نفوذاً ويعدّ اليد اليمنى بل تعده الإشاعات رأس وزارته وكان من الرجال القلائل الذين كان لهم نفوذ في مصائر أوروبا. ولكنَّ عندما يرتقي في محيط مزهوّ بنفسه إلى هذا القدر أمرؤٌ من الطبقة الوسطى إلى مثل هذا المركز يجوز للمرء بصورة مناسبة أن يستنتج صفات لا بدّ أن تجمع بطريقة مفيدة بين الحاجة الشخصيّة الحتمية وبين الإمكانيةالمتواضعة للانسحاب. ولم يكن أولريش بعيداً كلّ البعد عن أن يقدّم نفسه لرئيس القسم ذي النفوذ على أنّه نوع من رقيب في سلاح الفرسان يجب أن يتولّى إمرة أهل السنة الأولى من كبار النبلاء. وكان يلائم ذلك من حيث

التكملة رفيقة حياة كان يتصوّرها على الرغم من تقريظات جمالها أنّها ما عادت جميلة وأنّها طموحة تتمتَّع بحزام مدنيّ من الثقافة.

غير أن أولريش بوغت مباغتة شديدة. فحين أبلغها بزيارته استقبلته ديوتيما بالإبتسامة المتسامحة للمرأة ذات الشأن التي تعرف أنّها جميلة أيضاً ويجب أن تغفر للرجال السطحيِّين أنّهم يفكِّرون في ذلك أو ما يفكِّرون.

وقالت: «لقد انتظرتك» ولم يعرف أولريش حقّ المعرِّفة أكان هذا على سبيل التودد أم اللوم وكانت اليد التي قدَّمتها إليه مكتنزة ولا وزن لها.

وأمسك بها إمساكاً محكماً لحظة مفرطة في الطول ولم تستطع أفكاره أن تنفصل عن هذه اليد في الحال. كانت ترقد في يده كصفحة زهرة سميكة وكانت الأظافر المدبّبة كأجنحة الحشرات تبدو على استعداد لتطير بها في كلّ لحظة من هنا إلى ما لا يُصدَّق. وكان فرط التوتّر في اليد النسائية قد تمكَّن منه وهو عضو بشري قليل الحياء جداً في الأساس يتحسّس كلّ شيء مثل خَطْم كلب غير أنّه على الصعيد العلني مستقرّ الإخلاص والنبل والرقة. وقرّر خلال هذه الثواني أنَّ عنق ديوتيما فيه لُغَد عديدة تشتمل عليها بشرة بالغة الرقة وكان شعرها معقوداً عقدة إغريقيه منتصباً في ثبات وهو يضاهي في كماله عشاً لليعاسيب. وكان أولريش يشعر بالضيِّق من شيء مُعادٍ وحبّ لبعث التذمّر لدى هذه السيِّدة المبتسمة غير أنّه لم يستطع أن يتخلّص كلّ التخلّص من جمال ديوتيما.

وكانت ديوتيما أيضاً تنظر إليه طويلاً وبطريقة فاحصة تقريباً وكانت قد سمعت بعض الأمور عن إبن العم هذا الذي كان ينطوي بالقياس إلى أذنها على لُوَيْن خفيف من الفضيّحة الخاصة وكان هذا الرجل فضلاً عن ذلك يمت إليها بصلة القربى. وأحسّ أولريش أنّها لم تستطع هي أيضاً أن تتخلص كلّ التخلّص من الأثر الجسدي الذي أحدثه فيها. كان معتاداً عليه كان ناعم

twitter @baghdad_library

الحلاقة طويلاً متمرناً في كلّ ناحية ذا بنية عضلية مرنة وكان وجهه مشرقاً وغير متّسم بالشفافية وبعبارة مختصرة فقد كان يبدو أحياناً في نظر نفسه مثل حكم مسبق يكوّنه لأنفسهن معظم النساء عن رجل مثير للعواطف مازال شاباً غير أنّه لم يكن يتمتّع دائماً بالقدرة على صرفهن عن ذلك في الوقت المناسب. غير أن ديوتيما كانت تقاوم ذلك إذ كانت ترثى لحاله من الناحية الفكريّة. وكان في وسع أولريش أن يلاحظ أنّها كانت تتأمل مظهره على نحو دائم وأنّها كانت تخامرها في هذا الصدد على ما يبدو مشاعر ليست بالقليلة للمجاملة وربّما كانت تقول في نفسها أثناء ذلك ان الصفات النبيلة التي بدا أنّه يتمتّع بها على نحو جليّ للغاية لا بدّ أن تكون مكبوتة من جراء حياة سيئة وإنّ بالإمكان إنقاذها. وكان يصدر عن مظهرها على الرغم من أنها لم تكن تصغر أولريش كثيراً وكانت من الناحية الجسديّة في ازدهارها الكامل المتفتّح شيء عذريّ غير متفتّح فكرياً كان يشكّل تناقضاً غريباً مع وعيها لذاتها. وهكذا كانا يتأمل أحدهما الآخر بعدُ بينما كانا آخذَيْن في الحديث.

وبدأت ديوتيما بالقول انها تعدّ العمل الموازي فرصة لا تعود أبداً على وجه الخصوص لتحقيق ما يُعدّ الأهمَّ والأعظم. «يجب علينا ونريد أن نحقّق فكرة عظيمة كلّ العظمة ولدينا الفرصة ولا يجوز لنا أن نتهرّب منها!».

وسأل أولريش بسذاجة: «هل تفكّرين في شيء محدّد؟».

كلّا لم تكن ديوتيما تفكّر في شيء محدَّد وأنّى لها أن تستطيع عمل هذا أيضاً! فما من أحد يتحدَّث عن الأعظم والأهمّ في العالم ويقصد أنَّ هذا موجود بالفعل ولكنَّ أيّة صفة غريبة من صفات العالم يماثلها هذا؟ إنَّ كلّ شيء يؤول إلى أنَّ هذا صفة أكبر أو أهمّ أو أجمل أيضاً أو أكثر كآبة من الآخر أيّ إلى نظام للمراتب والى صيغة تفضيل أو لا يوجد الآن فوق ذلك ذروة ولا صيغة تفضيل عليا؟ ومع ذلك فإن المرء إذا نبّه من يريد على وجه الخصوص

أن يتحدَّث عن الأهمّ والأعظم إلى ذلك انتابه سوءُ ظنٍّ بأنه مضطر إلى التعامل مع إنسان خالٍ من الشعور وغير مثاليّ. وهكذا كان حال ديوتيما وهكذا كان قد تكلّم أولريش.

وقد وجدت ديوتيما بحكم كونها سيِّدة حاز فكرها الإعجاب حجة أولريش خالية من الإحترام. وابتسمت بعد حين وأجابت: «هناك قدر كبير جداً مِمّا هو عظيم وخيّر وممّا لم يتحقَّق بعد بحيث لن يكون وقوع الإختيار سهلاً. ولكننا سنعيِّن لجاناً من كلّ أوساط السكان يفترض أن تكون عوناً لنا. أم تراك لا تعتقد يا سيِّد.. إنَّ مِمّا يمثِّل مزيّة هائلة ان يتاح للمرء أن يناشد أمّةً بل العالم بأسره في الحقيقة في مثل هذه المناسبة أنّ يتجه بذهنه صوب الروحانيّ وهو في غمرة حياة ماديّة؟ ينبغي لك ألّا تفترض أننا نطمح إلى شيء وطنيّ بمعنى مستهلك منذ عهد طويل».

وتهرّب أولريش بنكتة.

ولم تضحك ديوتيما بل ابتسمت فحسب. وكانت قد أَلفت الرجال الظرفاء ولكنَّ هؤلاء كانوا يمثّلون شيئاً آخر بعدُ أيضاً. وكانت التناقضات تبدو لها بهذا الإعتبار من قبيل عدم النضج وتثير الحاجة إلى أن تشير لذوي قرباها إلى جدّ الواقع الذي كان يضفي على المشروع الوطنيّ الكبير المهابة مثلما يضفي عليه المسؤولية. فجعلت تتحدَّث الآن بلهجة أخرى اختتاماً واستهلالاً. وكان أولريش يبحث على غير إرادة منه بين كلماتها عن خيوط الربط تلك السود ـ الصفر التي كانت أوراق الأضابير تنطلق بها في الوزارات ويُحبَك بعضها مشدوداً إلى بعض. ولكنَّ لم يكن يصدر بحال من الأحوال من فم ديوتيما كلمات مؤهّلة حكومياً فحسب بل كانت تصدر أيضاً كلمات خبراء الفكر مثل: «العصر الخالي من الروح الذي يهيمن عليه المنطق وعلم النفس فحسب» أو «الحاضر والأبد» وفجأة بات الحديث يدور فيما بين ذلك أيضاً

twitter @baghdad_library

عن برلين و«كنز الشعور» الذي ماتزال القوميّة النمساوية تحتفظ به على النقيض من بروسيا.

وقام أولريش في بعض المرّات بمحاولة للتشويش على خطاب العرش هذا الروحانيّ ولكنَّ في هذه اللحظة كانت تخيّم على المقاطعة سحابة من رائحة غرفة المقدَّسات الكنسيّة في البيروقراطية العليا لتخفي اضطراب إيقاعها. وانتابت أولريش الدهشة فنهض وكانت زيارته الأولى قد انتهت على ما يبدو.

وفي لحظة الإنسحاب هذه عاملته ديوتيما بذلك التأدّب الرقيق والمبالغ فيه قليلاً في الظاهر بدافع الحذر والذي كانت قد أخذته عن زوجها وكان هذا يستعمله في التعامل مع النبلاء الشباب الذي كانوا من مرؤوسيه ولكنَّ كان يمكن أن يكونوا ذات يوم وزراءه. وكان يكمن شيء من اضطراب الفكر المتَّسم بالتعالي في مقابل طاقة الحياة الأكثر خشونة في الأسلوب الذي طالبته به بالعودة. وحين تلقَّى من جديد يدها الرقيقة التي لا وزن لها في يده نظر كلٌ منهما في عيني الآخر. وخرج أولريش بانطباع محدَّد مؤدّاه إنهما قد اختيرا ليسبّب كلّ منهما للآخر منغّصات كبيرة من جراء الحب.

وقال في نفسه: «حقاً إنها لأفعوان الجمال الخرافيّ!». وكان ينوي أن يدع العمل الوطني الكبير ينتظره عبثاً غير أنّه بدا أنّه اتّخذ صورة له في ديوتيما وكان على استعداد لالتهامه. كان انطباعاً مضحكاً إلى حدٍّ ما. وبدا لنفسه على الرغم من سنواته وتجربته مثل دودة صغيرة ضارة تتأملها دجاجة كبيرة بانتباه وقال أولريش في نفسه: «بُعداً لي كلُّ شيء إلّا أن أدع عملاقة الروح هذه تستفزني إلى أعمال شائنة صغيرة!» وكان له من علاقته ببوناديا ما يكفيه وكان يأخذ نفسه بذروة التحفظ تجاه واجبه.

ولدى مغادرة المسكن عزّاه انطباع كان قد أحسّ به مستعذَباً منذ قدومه فقد أوصلته خادم صغيرة لها عينان حالمتان. وكانت عيناها في ظلمة حجرة الإِنتظار مثل فراشة سوداء حين رَفْرَفَتا أوّل مرّة نحوه. ثم انهما حطّتا الآن عند الإِنصراف عبر الظلمة كنُدْفتين سوداوين من الثلج. وكان ثمة شيء يهودي - عربيّ أو يهودي - جزائريّ وهو تصوُّر لم يكن قد تشبّع به على نحو واضح بالغ الفتنة لا يُلَتَفت إليه في هذه الصغيرة حتى أن أولريش نسي الآن أيضاً أن ينظر إلى الفتاة نظرة المدقّق. ولم يشعر إلّا بعد أن وجد نفسه في الشارع أنَّ النظر إلى هذا الشخص الضئيل كان بعد حضور ديوتيما شيئاً حيوياً ومنعشاً على نحو غير عاديّ.

twitter @baghdad_library

[٢٣]

التدخل الأوّل لرجل كبير

ولبثت ديوتيما وخادمتها الصغيرة بعد انصراف أولريش في استثارة هادئة ولكنَّ بينما كانت السحلية الصغيرة السوداء تشعر كأنّما يجوز لها كلّما أوصلت زائراً نبيلاً إلى الخارج أن تهرع إلى ارتقاء جدار لامع كبير كانت ديوتيما تعالج ذكرى أولريش بوجدانيّة سيِّدة لا ترى أو مِمّا يسوؤها أن تُمَسَّ بسوء لأنَّها تشعر في نفسها بسلطان الزجر الرقيق. ولم يكن أولريش يعرف أنَّ رجلاً آخر كان قد دخل حياتها في اليوم ذاته ورفع نفسه تحتها مثل جبل عملاق له إطلال.

وكان الدكتور باول آرنهايم قد زارها زيارة تعارف بعيد وصوله.

كان غنياً إلى درجة لا تقدّر وكان والده أقوى المتحكمين في «ألمانيا الحديدية» بل كان رئيس القسم توتسي قد تنزّل إلى هذا اللعب بالألفاظ وكان مبدأ توتسي أنّه يجب على المرء أن يكون مقتصراً في التعبير وأن ألوان اللعب بالألفاظ لا يمكن أن تكون مفرطة في الحسن قط لأنّ هذا من شأن الطبقة الوسطى وإن كان المرء لا يستطيع الإستغناء عنها في الحديث المُسْتَمْلَح. وكان هو ذاته قد أوصى زوجه أن تعامل الزائر معاملة ممتازة. ذلك لأنّ هذا الطراز من النساء في الدولة الألمانية إذا كانوا لم يصلوا بعد إلى الأعالي ولا يمكن مقارنتهم مع آل كروب في نفوذهم في القصر فمن الممكن أن يكون هذا هو الحال فيما يرى غداً على أيّة حال وكان يضيف مضمون إشاعة حميمة مفادها أنَّ هذا الإبن ـ الذي كان آخر الأمر قد تجاوز الأربعين تجاوزاً بعيداً ـ

لا يطمح مطلقاً إلى مجرّد مركز أبيه بل كان يُعِدّ نفسه معتمداً على كرّ الأيام وعلى علاقاته الدولية لوزارة في الدولة وبالطبع فقد كان هذا مستبعداً على نحو مطلق في رأي رئيس القسم إلّا أن يسبقه خراب العالم.

على أنّه لم يكن يدري أيّة عاصفة كان يثيرها في خيال زوجه وكان مِمّا يدخل في قناعات محيطها على نحو بديهي ألّا يبالغ المرء في تقدير «التجار» غير أنّها كانت شأن كلّ البشر المتّسمين بعقلية الطبقة الوسطى تعجب بالثروة في عُمْق من أعماق قلبها مستقل عن القناعات كلّ الإستقلال. وكان اللقاء الشخصي برجل غنيّ فوق الحدود يحدث فيها أثراً كأجنحة الملائكة الذهبية التي كانت قد حطّت عليها. وكانت إرميلندا توتشي منذ ارتقاء زوجها ليست بالغريبة عن الإحتكاك مع الشهرة والغنى بلا ريب. غير أنَّ الشهرة إذا اكتسبت بألوان المقدرة الفكريّة ذابت وانْسَرَبت على عجل بمجرّد أن يحتكّ المرء بحامليها والثروة الإقطاعية إمّا أن تكون لها صورة الديون السخيفة للملتحقين الشباب وإما أن تكون مرتبطة بأسلوب حياة موروث بدون أن تحظى بما يُزْبد عالياً من جبال الذهب المتراكمة بحريّة التي تدبّر بها المصارف الكبرى أو الصناعات العالميّة صفقاتها. وكان الشيء الوحيد الذي تعرفه ديوتيما عن الصَيْرَفة هو أنّه حتى المتوسّطون من الموظّفين يسافرون في رحلات رسميّة على الدرجات الأولى بينما كان عليها دائماً ان تسافر بالدرجة الثانية إذا لم تكن في صحبة زوجها وكانت قد كوّنت لنفسها وِفْقاً لذلك تصوّراً عن الترف الذي لا بدّ أن يكون محيطاً بأعلى الجبابرة في مؤسسة شرقية كهذه.

وكانت وصيفتها الصغيرة راحيل ـ ومن المفهوم بالبداهة أنَّ ديوتيما عندما كانت تناديها تنطق هذا الإسم بالطريقة الفرنسيّة ـ قد سمعت أشياء من قبيل الأحلام. وكان أقلّ ما تعرف كيف ترويه أنَّ الغنيّ قد وصل بقطاره الخاص وأنّه استأجر فندقاً بأكمله وهو يصطحب عبداً زنجيّاً صغيراً معه على أنَّ

twitter @baghdad_library

الحقيقة كانت أكثر تواضعاً بصورة جوهرية وذلك لمجرّد أن باول آرنهايم لم يتصرَّف أبداً تصرّفاً يلفت الأنظار. وكان الغلام الزنجي وحده هو الواقع. وكان آرنهايم قد التقطه قبل سنين في رحلة في أقصى الجنوب من إيطاليا من فرقة للراقصين واتخذه لنفسه في خليط من الرغبة في تزيين نفسه مع عارض عرض له وهو أن يرتقي بمخلوق من الحضيض بأن يفتح له باب حياة الفكر ويُحْسِن إليه ولكنَّه سرعان ما فقد بعد ذلك الرغبة فيه وبات يتَّخذ الصغير الذي كان الآن في السادسة عشرة خادماً فحسب بينما كان يعطيه قبل العام الرابع عشر ستندال ودوماس ليقرأهما. ولكنَّ على الرغم من أن الشائعات التي كانت وصيفتها قد نقلتها إلى البيت كانت بالغة الطفولية في مبالغاتها بحيث لم يكن بدٌّ لديوتيما أن تبتسم فإنَّها كانت توعز إليها أن تعيد عليها كلّ شيء كلمة كلمة إذ كانت تجد هذا بعيداً عن الفساد الى الحد الذي يمكن أن يَرِد هذا به فحسب في هذه المدينة الكبرى الوحيدة التي كانت «مفعمة بالحضارة إلى حدٍّ البراءة» وكان الصبيّ الزنجي يستحوذ بطريقة غريبة حتى على خيالها الخاصّ.

وكانت الأكبر سناً بين بنات ثلاث لمعلِّم مدرسة إعدادية لم يكن يملك ثروة بحيث كان زوجها يعدّ بالقياس إليها زيجة رابحة حين كان مايزال لا يمثّل شيئاً سوى نائب من أصلٍ غير معروف من الطبقة الوسطى. ولم تكن تملك في أيام عزوبتها شيئاً سوى كبريائها. ولمّا كان هذا بدوره لا يملك شيئاً يستطيع أنَّ يفخر به فقد كان في الحقيقة مجرّد دِقَّةٍ منطوية على نفسها مع لوامس ذات أشواك من الحساسية. ولكنَّ مثل هذه أيضاً تنطوي في بعض الأحيان على الطموح والإسترسال في الأحلام ويمكن أن تكون قوّة لا يمكن تقديرها. ولئن كانت ديوتيما قد أغريت في البداية بالأمل بالعلاقات المعقَّدة البعيدة في البلدان النائية فإن الخيبة جاءت في أجل قريب. ذلك لأنّ هذا بات يشكِّل بعد سنوات قلائل. حيال مجرّد الصديقات اللواتي كنّ يحسدنها على نفحة

طرافتها مزية تستعمل استعمالاً متحفِّظاً ولم يكن في وسعها أن تكبت معرِّفة أنَّ الحياة في البعثات تظلّ في أشيائها الرئيسيّة هي الحياة المجلوبة من البيت مع المتاع المختلف. وكان طموح ديوتيما زمناً طويلاً قريباً إلى أن ينتهي إلى الإنعدام النبيل للأمل في الدرجة الخامسة قبل أن يبدأ ارتقاء زوجها فجأة عن طريق مصادفة إذ استقدم وزير حسن المقاصد «تقدميّ» النزعة أهل الطبقة الوسطى إلى الديوان الرئاسيّ في الجهة المركزية. وفي هذا المركز كان يأتي الآن كثير من الناس إلى توتسي يريدون منه شيئاً ما ومنذ هذه اللحظة دبَّت الحياة أيضاً لدى ديوتيما على نحو يكاد يبعث على دهشتها الخاصّة في كنز من الذكريات حول «الجمال والعظمة الفكريَّين» وهو الكنز الذي تزعم أنّها اكتسبته في بيت الوالدين الحافل بالثقافة وفي حواضر العالم غير أن ذلك كان في الحقيقة وبلا ريب في مدرسة البنات الأعلى بحكم كونها تلميذة ممتازة وأخذت تستغله في حذر. وكان العقل الرزين الذي يعتمد عليه إلى حدٍّ غير عاديّ عند زوجها قد لفت الإنتباه بغير قصد اليها أيضاً وكانت تتصرَّف الآن ببراءة كاملة مثل اسفنجة صغيرة نديّة تعود فتعطي من نفسها ما اختزنته في نفسها بدون استعمال خاص إذ كانت تعمد بمجرّد أن تشعر أن أمرءاً يلاحظ مزاياها الفكريّة إلى إدراج أفكار «من الفكر الرفيع» في المواضيع الملائمة في حديثها بسرور عظيم. وشيئاً فشيئاً كان زوجها يتابع ارتقاءه وكان يأتي أناس يزدادون على نحو مطَّرد ملتمسين القرب منه وتحوّل منزلها إلى «صالون» اشتهر بأنَّ «المجتمع والفكر يلتقيان هناك والآن في الإحتكاك مع البشر الذين كان لهم شأن ما في مجالات شتى أخذت ديوتيما أيضاً تكتشف نفسها على نحو جدِّي. وذلك أن دقتها التي كانت ماتزال دائمة الإنتباه كالعهد بها في المدرسة تحتفظ بما تعلّمت احتفاظاً جيّداً وتربط ما بينه في وحدة لطيفة هذه الدقة تحوّلت هي على وجه الخصوص من تلقاء نفسها إلى فكَّر وذلك ببساطة من جراء التوسّع واكتسب بيت توتسي مركزاً معترفاً به.

twitter @baghdad_library

[٢٤]

المُلكية والثقافة صداقة ديوتيما مع الكونت ووظيفة الجمع بين مشاهير الضيوف في وحدة الروح

غير أن المسألة لم تتحوّل إلى مفهوم ثابت إلّا من خلال صداقة ديوتيما مع حضرة الشريف الكونت - ومن بين أجزاء الجسم التي تسمّي الصداقات باسمها كان الجزء المتعلّق بالكونت اللاينزدورفيّ يقع في ذلك المكان بين الرأس والقلب بحيث لم يكن يجوز للمرء أن يسمّي ديوتيما باسم آخر سوى صديقة صدره لو أنَّ هذه الكلمة كانت ماتزال دارجة وكان الشريف يبجّل فكّر ديوتيما وجمالها بدون أن يبيح لنفسه مقاصد غير مسموح بها. وبفضل عطفه لم يكتسب صالون ديوتيما مركزاً مقاوماً للهزّات فحسب بل كان يتولّى وظيفة كما درج هو على التعبير.

وبالقياس إلى شخصه لم يكن حضرة الشريف الكونت المقرَّب من الدولة «شيئاً سوى وطنيّ». ولكنَّ الدولة لا تأتلف من التاج والشعب والإدارة بينهما فحسب بل يوجد فيها فضلاً عن ذلك بعدُ شيء واحد: الفكرة الأخلاق المبدأ! ولمّا كان الشريف شديد التديّن فإنه قلّما كان يتجاهل بحكم كونه إنساناً مفعماً بالمسؤولية وكان فوق ذلك يدير مصانع فوق أملاكه معرّفة أنَّ الفكر قد تخلَّص اليوم في قدر كبير منه من وصاية الكنيسة. ذلك لأنّه لم يكن يستطيع أن يتصوّر كيف يمكن مثلاً أن يدار مصنع أو حركة من حركات سوق الأوراق المالية في القمح أو في شركة سكر وفقاً للمبادىء الدينية على حين أنّه لا يمكن من ناحية أخرى أن يتصوّر المرء ملكيّة حديثة كبرى للأراضي

بدون سوق أوراق مالية وصناعة بصورة معقولة وعندما كان الشريف يتلقّى حديث مديره الإقتصادي الذي كان يبيّن له أنَّ الصفقة يمكن عملها على نحو أفضل إذا كانت مرتبطة بمجموعة أجنبية من المضاربين مِمّا لو كانت إلى جانب نبلاء الأراضي المحليِّين كان حضرة الشريف يضطر في معظم الأحوال إلى البتّ في المسألة لصالح الحالة الأولى. ذلك لأنّ العلاقات الموضوعية لها عقلها الخاص الذي لا يستطيع المرء أنْ يعارضه ببساطة وفقاً لشعوره عندما يتحمّل المرء المسؤولية بحكم كونه مديراً لاقتصاد كبير لا عن نفسه وحدها بل عن نفوس أخرى لا تحصى أيضاً. وهناك شيء كالضمير الإختصاصيّ يتعارض في ظروف معيَّنة مع الضمير الديني وقد كان الكونت لاينزدورف على يقين أنَّ الأسقف الكاردينال ذاته ما كان في وسعه أن يتصرّف خلافاً له. وبالطبع فقد كان الكونت - على استعداد في كلّ وقت أيضاً لأن يأسف لذلك في الإجتماع العلني لمجلس البلاط وللإعراب عن الأمل في عودة الحياة إلى البساطة والفطرية والسموّ على الطبيعة والصحة وضرورة المبادىء المسيحية. وكان هذا بمجرّد أن يفتح فمه بمثل هذه الأقوال كما لو أنَّ امرءاً استخرج سدادة اتصال التيار وكان ينساب في دارة أخرى للتيار وفي آخر الأمر فإنّ هذاهو ما يجري لمعظم الناس عندما يعربون عن رأيهم علانية. ولو أنَّ امرءاً أخذ على حضرة الشريف أنّه يفعل من أجل شخصه ما يكافحه علانية كوصم الكونت - ذلك في ايمان مقدَّس بأنّه الحديث الشيطاني للعناصر التحريضيّة التي لا تعرف شيئاً عن المسؤولية المتّسعة للحياة. ومع ذلك فقد كان يدرك هو نفسه أنَّ الإرتباط بين الحقائق الخالدة والأعمال التي هي أكثر تعقيداً إلى حدٍّ بعيد من البساطة الجميلة في التقاليد يمثِّل مسألة ذات أهمّية قصوى وكان قد تبيّن له أيضاً أنَّ هذا الإرتباط لا يمكن التماسه الّا في الثقافة المتعمّقة لأهل الطبقة الوسطى إذ كانت تمتدّ بأفكارها ومثلها الكبرى في مجالات الحقّ والواجب الأخلاقيّ الجميل وحتى إلى الصراعات اليوميّة

twitter @baghdad_library

والتناقضات اليوميّة وتبدو له مثل جسر من خليط من النباتات الحيّة ولا يستطيع المرء في الحقيقة أن يستند إليها استناداً واثقاً ويقينياً مثلما يستند إلى عقائد الكنيسة غير أنّها لم تكن أقلّ ضرورة وانطواءً على المسؤولين. ولهذا السبب لم يكن الكونت - مثالاً دينيّاً فحسب بل مثالاً مدنياً متحمّساً أيضاً.

كانت قناعات الشريف هذه هي التي يمثّلها صالون ديوتيما في تركيبه وكانت مجتمعات ديوتيما مشهورة بأنَّ المرء يلتقي هناك في الأيام الكبرى بأناس لم يكن في وسعه أن يتبادل معهم كلمة لأنهم كانوا أكثر شهرة من أن يتحدَّث المرء إليهم في آخر المستجدات بينما كان المرء لم يسمع بعدُ أبداً باسم مجال المعرِّفة الذي كانت تكمن فيه شهرتهم العالمية في كثير من الحالات فقد كان يوجد هناك الكينزينيّون والكانيزيّون. وكان من الممكن أن يحدث أن يلتقي نحويّ في لغة البو بباحث في نشوء الجزئيات وباحث في علم التوليد بباحث في ميكانيك الكمّ النظري بصرف النظر عن ممثلي الإتجاهات الجديدة في الفن والأدب الذين يتبادلون التفاصيل والمواصفات في كلّ عام وكان يتاح لهم الاتصال هناك وهم بجانب زملائهم في الاختصاص الواصلين الى هناك في نطاق محدود. وبوجه عام كان هذا التواصل مرتّباً بحيث يختلط كلّ شيء بعضه بعض ويمتزج على نحو متناغم. وفي العادة كانت ديوتيما تعزل الشباب فحسب عن طريق دعوات منفصلة وكانت تعرف كيف تُؤثر الضيوف النادرين أو الخصوصيِّين وتضعهم في إطارهم دونما لفت للنظر. وكان ما يميّز منزل ديوتيما عن كلّ المنازل الأخرى آخر الأمر على وجه الخصوص العنصر غير الاختصاصي إذا جاز للمرء أنَّ يعبّر على هذا النحو ذلك العنصر الخاص بالأفكار المطبّقة عملياً ـ الذي كان موزّعاً ـ إذا عبّرنا عن ذلك بأسلوب ديوتيما ـ في سالف الأيام حول لبّ العلم الإلهيّ من حيث كونه شعباً من المبدعين المؤمنين وفي الحقيقة بحكم كونه مجتمعاً من طائفة من

الإخوة والأخوات غير المختصّين وباختصار: عنصر الفعل - واليوم إذ تزاح علوم اللاهوت من قبل علم الاقتصاد والفيزياء وكانت لائحة ديوتيما الخاصّة بأوصياء الفكر على الأرض الواجب دعوتهم تتنامى مع مرور الزمن في كتالوج الأوراق العلميّة للجمعية الملكية البريطانية كان الإخوة والأخوات غير المختصّين يتألّفون بموجب ذلك من مدراء المصارف والتقنيين والسياسيين والمستشارين الوزاريين والسيّدات والسادة في المجتمع الراقي ولواحقه. وكانت ديوتيما توجّه عنايتها على وجه الخصوص إلى النساء غير أنّها كانت تفضّل في هذا الصدد «السيّدات» على«المثقّفين» وقد دأبت على القول «أن الحياة اليوم تنوء بعبء المعرّفة إلى حدّ أبعد من أن يتيح لنا أن نتحلّى عن «المرأة غير مهيضة الجناح». وكانت على يقين إنّه ما عاد هناك من يملك ذلك السلطان المصيري الذي يقدّر على أن يطوّق الفكر بطاقات الوجود إلّا «المرأة غير مَهيضة الجناح» وذلك ما كان يحتاجه هذا من وجهة نظرها من أجل خلاصة حاجة ماسّة جداً على ما يبدو. وكان هذا الفهم الخاص بالمرأة المطوّقة وطاقة الوجود يُقدَّر لها آخر الأمر تقديراً عالياً أيضاً من قبل النبلاء الشباب من الرجال الذين كانوا يترددون عليها إذ كان هذا من العادات ولم يكن رئيس القسم توتسي غير محبوب. ذلك لأنّ الوجود غير الممزَّق يعدّ شيئاً ما بالقياس إلى النبلاء. وبوجه خاص كان بيت توتسي حيث كان يتاح للناس أن يتعمَّقوا في الأحاديث أزواجاً بدون أن يلفتوا النظر وبدون أن تبدو كذلك أكثر جاذبية إلى حدّ بعيد من الكنيسة من أجل اللقاءات الغرامية والأحاديث المستفيضة.

وكان الشّريف الكونت - يحيط بهذين العنصرين المعقَّدين في ذاتيهما إلى حدّ بعيد واللذين كانا يمتزجان عند ديوتيما عندما كان لا يسمِّيها على وجه الخصوص «النبل الحق» مع الإشارة إلى «المُلكية والثقافة» بل كان يُؤْثِر أن

twitter @baghdad_library

يستعمل من أجلها ذلك التصوّر الخاص «بالوظيفة» الذي كان يحتلّ في تفكيره مكاناً مفضّلاً. وكان يمثّل فهماً مؤدّاه أنَّ كلّ عمل ـ لا عمل الموظّف فحسب بل عمل عامل المصنع أو المغنّي في الحفلة الموسيقيّة ـ يمثّل وظيفة. وقد دأب على القول «إنّ كلّ إنسان يملك وظيفة في الدولة فالعامل والأمير والعامل اليدوي موظّفون!» وكان هذا نتيجة لتفكيره الموضوعي أبداً في كلّ الظروف والذي لم يكن يعرف محاباة وفي نظره كان السادة والسيّدات في أرقى المجتمعات يشغلون أيضاً وظيفة هامة حين كانوا يثرثرون مع الباحثين في نصوص بوغازكوي أو في مسألة الألواح ويتأملون الزوجات الحاضرات من الطبقة العليا وان لم يكن من الممكن أيضاً وصفها على وجه الدقة بطريقة أخرى وكان مفهوم الوظيفة هذا يعوّض عنده ما كانت ديوتيما تشير إليه بأنه الوحدة الدينية للعمل البشري التي افتقدت منذ العصور الوسطى.

وفي الأساس فإنَّ كلّ مثل هذا الأنس المفتعل كالذي عندها ينبثق بالفعل أيضاً حين لا يكون ساذجاً وخشناً بصورة كاملة عن الحاجة إلى تلفيق وحدة بشرية يفترض فيها أن تحيط بأوجه النشاط البشري المتباين تبايناً شديداً ولا تتوفّر أبداً. وكانت ديوتيما تسمّي هذا التلفيق ثقافة وفي العادة بإضافة خصوصيّة هي الثقافة النمساوية القديمة. ومنذ أن تحوّل طموحها عن طريق التوسّع إلى فكّر تعلّمت استعمال هذه الكلمة على نحو مطر الزيادة وكانت تفهم من ذلك فيما تفهم: الصور الجميلة لفيلا سكيزوروبنز التي كانت معلّقة في متاحف البلاط وحقيقة أنَّ بتهوفن كان نمساوياً على نحو ما موتزارت وهايدن وكاتدرائية ستيفان ومسرح البورج وطقوس البلاط المثقلة بالتقاليد والحيّ الأوّل الذي كانت قد احتشدت فيه أكثر محلات الملابس والثياب الداخلية أناقة في دولة تضمّ خمسين مليوناً والأسلوب المتحفّظ عند كبار الموظّفين والمطبخ الفينّاوي والنبلاء الذين يعدون أنفسهم الأكثر نبلاً إلى

جانب النبلاء الإنجليز وقصورهم القديمة وايقاع المجتمع الذي يتخلّله التأدُّب الأصيل أحياناً والتأدب الزائف في معظم الأحيان. وكان فيما تفهمه من ذلك حقيقة أنَّ سيِّداً عظيماً مثل الكونت لاينزدورف يوليها اهتمامه في هذه البلاد وقد نقل مطامحه الثقافية الخاصة إلى بيتها. ولم تكن تعرف أنَّ حضرة الشريف كان يفعل هذا أيضاً لأنّه كان يبدو له أنَّ من غير الملائم أن يفتح قصره الخاص لتجديد من السهل أن يفقد المرء إشرافه عليه وكان الكونت - في كثير من الأحيان ينتابه الفزع على نحو خفي من الحرية والتساهل الّلذين كانت صديقته الجميلة تتحدَّث بهما عن العواطف البشريّة وما تحدثه من ألوآن الإِضطراب أو عن الأفكار الثورية ولكنَّ ديوتيما لم تكن تلاحظ ذلك فكانت تحافظ على خطّ فاصل بين ما يسمّى بالتبذّل الرسمي والتعفّف الخصوصي مثل طبيبة أو مشرفة إجتماعية؛ وكانت حساسة كما هو الحال في موضع مصالب إذا مسَّتها كلمة مسّاً شخصيّاً مباشراً أكثر مِمّا يجب غير أنّها كانت تتحدَّث بالأسلوب غير الشخصي حول كلّ شيء ولم يكن في وسعها أن تشعر في هذا الصدد إلّا بأنّ الكونت - يظهر انجذابه إلى هذا المزيج.

ولكن الحياة لا تبني شيئاً ما لم تقتطع من أجله الحجارة من مكان آخر فقد كان من المفاجآت المؤلمة لديوتيما أن نواة لوزة بالغة الضآلة في مثل حلاوة الحلم من الخيال الذي كانت حياتها تنطوي عليه في سالف الأيام حين كانت لا تتضمَّن بعدُ فيما عدا ذلك شيئاً على الإطلاق وكانت النواة حضارة بعد حين قرّرت أن تتزوّج نائب القنصل توتسي الذي كان يبدو مثل حقيبة سفر جلدية بعينيه السوداوين. وبالطبع فقد كان الكثير مِمّا كانت تفهمه من الثقافة النمساوية القديمة مثل هايدن أو آل هابسبورج مجرّد وظيفة تعليميّة ثقيلة في غابر الأيام بينما كان تعلّم الحياة في أثناء ذلك يبدو لها الآن فتنة ساحرة تتَّسم بمثل البطولة التي يتَّسم بها طنين النحل في أوج الصيف غير أنَّ هذا لم يغدُ مع

twitter @baghdad_library

الزمن رتيباً فحسب بل بات أيضاً مجهداً بل يائساً ولم تكن أحوال ديوتيما مع ضيوفها المشاهير تختلف عن أحوال الكونت لاينزدورف مع روابطه المصرفية ومهما كان المرء يتمنّى بعدُ إلى حدٍّ بعيد أنَّ يجمع بينهم في وحدة مع الروح فإن هذا لم يكن يصيب نجاحاً. وذلك أنَّ المرء يستطيع أن يتحدَّث عن السيارات وأشعة رونتجن فهذا يظلّ يحدث المشاعر ولكنَّ ما عسى أنَّ يصنع المرء بكلّ المخترعات والمكتشفات الأخرى التي لا تحصى التي يخرجها كلّ يوم في هذه الأيام سوى أنَّ يعجب بصورة عامة كلّ العموم بموهبة الاختراع البشريّة وذلك ما يحدث على المدى الطويل شعوراً بالتثاقل الشديد! وكان الشريف يأتي من حين إلى آخر ويتحدَّث إلى سياسيّ أو يدع ضيفاً جديداً يُقدَّم إليه وكان من اليسير عليه ان يتحمَّس حماسة شديدة للثقافة المتعمّقة. ولكنَّ عندما كان المرء يخوض فيها على نحو مفصل مثل ديوتيما كان يتبيَّن أنَّ الجانب الغالب لم يكن عمقها بل اتساعها. بل كانت المسائل القريبة من الإنسان قرباً مباشراً مثل بساطة اليونان النبيلة أو معنى الأنبياء تنحلّ في تنوّع لا يحيط به البصر من الشكوك والإمكانات. وقد عرفت ديوتيما أنَّ مشاهير الضيوف في أمسياتها كانوا يتحادثون أيضاً أزواجاً أزواجاً على الدوام لأنَّ الإنسان كان لا يستطيع حتى منذ تلك الأيام أنَّ يتحدَّث حديثاً موضوعياً ومعقولاً إلّا إلى إنسانٍ ثانٍ على أقصى الحدود ولم تكن هي تستطيع ذلك مع أحد في الحقيقة. ولكنَّ ديوتيما كانت قد اكتشفت من خلال ذاتها المعاناة المعروفة للإنسان المعاصر التي تسمّى بالحضارة. إنها حالة معوّقة مفعمة بالصابون والأمواج اللاسلكية ولغة الاشارات المتطاولة الخاصّة بالمعادلات الرياضيّة والكيميائية وعلم الاقتصاد والبحث التجريبي والمقدرة على اجتماع للبشر بسيط ولكنَّه راقٍ. وكذلك فإنَّ علاقة نبلاء الفكر الملازمين لها ذاتها هم النبلاء الإجتماعيون هذه العلاقة التي كانت تفرض على ديوتيما حذراً شديداً وكانت تسجل بعض خيبة الأمل على الرغم من كلّ ضروب النجاح كانت تبدو

لها مع الزمن وعلى نحو مطّرد الزيادة إنها تنتمي إلى طبيعة لايمكن أن يتميّز بها عصر ثقافي بل عصر حضاري فحسب.

وقد كانت الحضارة بناء على ذلك كلّ ما كان فكرها لا يستطيع السيطرة عليه ومن أجل ذلك كان زوجها كذلك أيضاً منذ عهد طويل وقبل كلّ امرىء آخر.

twitter @baghdad_library

[٢٥]

آلام نفس متزوِّجة

وقرأت في آلامها الكثير واكتشفت أنّها كانت قد ضاع منها شيء لم تكن من قبلُ تعرف الكثير عن امتلاكه: أنّه النفس.

وما هذه؟ ـ إنَّ من السهل تحديدها تحديداً سلبيّاً: فهي هذا الذي يتوارى عند ما يسمع المرء بالسلاسل الجبريّة.

ولكن ما عساه يكون ايجابيّاً؟ يبدو أنّها تستعصي على كلّ الجهود التي ترمي إلى الإحاطة بها عصياناً ناجحاً. ومن الممكن أنَّ يكون وُجِدَ شيء أصيل في ديوتيما في سالف الأيام هي حساسية تنطوي على إحساس داخلي وكانت في تلك الأيام مطويّة في إهاب دقّتها الذي رقّقته الفرشاة وذلك ما كانت تسمّيه الآن بالنفس وكانت تعثر عليه من جديد في ميتافيزيقا ميترلنك ذات الألوان المتداخلة تعبّر وعند نوفاليس ولكنَّ قبل كلّ شيء في موجة الرومانسية الرقيقة العديمة الإِسم وفي حنين غوته اللذين ظلّا حيناً من الزمان ينضحان عصر الآلة بمضخة الإطفاء إعراباً عن الاحتجاج الفكري والفني على نفسيهما ومن الجائز أيضاً أنَّ هذا الأصيل في ديوتيما كان يمكن تحديده على نحو أدق بأنه شيء من السكون والرقّة والتبتُّل والفضيلة لم يسبق له قط أنَّ وجد طريقاً صحيحاً وأنّه لدى سكب الرصاص الذي يقوم به القدر تجاهنا دخل في القالب الهزليّ لمثاليته. وربّما كان ذلك خيالاً وربّما كان شعوراً داخلياً بالعمل الغريزي الخامل الذي يتمّ يومياً تحت غطاء الجسد الذي يرمقنا من فوقه التعبير المفعم بالروح لامرأة جميلة وربّما كانت تأتي مجرّد ساعات لا يمكن تحديدها كانت

تشعر عندها بالرحابة والدفء وكانت الأحاسيس تبدو أكثر إنعاماً بالروح مِمّا هي في العادة حيث كان الطموح والإرادة يخلدان إلى الصمت وكان يستحوذ عليها افتتان هادىء بالحياة وفيض من الحياة وكانت الأفكار تتَّجه بعيداً عن السطح نحو الأعماق حتى عندما كانت لا تمسّ إلّا أدنى شيء وكانت تقع بعيدة عن أحداث العالم كالصخب أمام حديقة. وكانت ديوتيما تحسب عندئذ أنّها ترى الحقيقي في نفسها على نحو مباشر بدون أن تجشّم نفسها المشقة في سبيل ذلك وكانت التجارب الرقيقة التي لم تكن تحمل بعدُ اسماً تكشف حجابا وكانت تشعر ـ إذا أردنا أن نورد بعضاً فحسب من كثير من الأوصاف التي كانت تعثر عليها في الأدب ـ أنَّها منسجمة إنسانية متديّنة قريبة من عمق من أعماق الأصالة يضفي القداسة على كلّ ما يصدر عنه ويصم بالخطيئة ما لا يصدر عن ينبوعه. ولكنَّ إذا كان هذا كلّه أيضاً مِمّا يحلو التفكير به حقاً فإنّ ديوتيما لم تكن هي وحدها التي لم تكن تتجاوز أبداً أمثال هذه الأحاسيس الداخلية والإشارات الخاصّة بظرف خصوصي بل كانت تعبّر عن ذلك بالقدر ذاته كتب النبوءات التي كانت تستشيرها والتي كانت تنتقل بالحديث من الكلمات إلى الكلمات ذاتها الكلمات الحافلة بالأسرار والمفتقرة إلى الدقة ولم يبق أمام ديوتيما إلاه أن تعزو الذنب في ذلك إلى عصر حضاري رُدِم فيه الطريق إلى الروح.

والظاهر أنَّ ما كانت تسمِّيه بالروح لم يكن شيئاً سوى رأسمال صغير من المقدرة على الحبّ التي كانت تملكها إبّان زواجها. ولم يكن رئيس القسم توتسي يقدِّم إمكانية الإستعداد الحقّ لذلك. وكان تفوُّقه على ديوتيما في البداية وخلال وقت طويل تفوُّقَ الرجل الأكبر سناً وأضيف إلى ذلك فيما بعد تفوّق الرجل الناجح في المركز الحافل بالأسرار الذي لا يتيح لزوجته إلّا القليل للإطلال على نفسه وينظر بارتياح إلى ألوان التفاهة التي تمارسها.

twitter @baghdad_library

وبصرف النظر عن فترة ملاطفات العريس كان رئيس القسم توتسي على الدوام إنسان المنفعة والعقل الذي لا يفارقه توازنه أبداً. ومع ذلك فقد كان الهدوء ذو الملاءمة الحسنة في تصرّفاته وفي حلّته ورائحة جسده ولحيته التي يمكن للمرء أن يقول أنّها وقورة مهذّبة والصوت الجهير الثابت الذي كان يتحدّث به في حذر يَلْفُفْنَه بنفحة كانت تثير نفس الفتاة ديوتيما مثل اقتراب السيّد من كلب صيده الذي يضع خطمه على ركبته. ومثلما يهرول هذا وراءه مفعماً بالأحاسيس وقد أحيط به. دخلت ديوتيما أيضاً أرض الحبّ التي لا نهاية لها تحت قيادة رصينة موضوعية.

وكان رئيس القسم توتسي يفضّل في هذا الصدد الطرق المستقيمة. وكانت عادات حياته عادات عامل طموح. كان يستيقظ باكراً في الصباح إمّا ليخرج إلى النزهة راكباً وإمّا ليتنزّه ساعة وكان ذلك أحبّ إليه ولم يكن ذلك يفيد في المحافظة على المرونة فحسب بل كان يمثّل عادة بسيطة إلى حدّ التحذلق. وهي عادة إذا نُفِذّت على نحو ثابت كانت ملائمة على نحو ممتاز من أجل صورة الأعمال المنطوية على المسؤولية. أمّا أنّه كان سرعان ما يخلد إلى حجرة عمله في المساء إذا لم يكونا مدعوَّيْن. أو لم يكن عندهما ضيوف فذلك أمر يمكن فهمه تلقائياً إذ كان مضطراً إلى أن يحافظ على معرفته الموضوعية الواسعة عند ذلك المستوى الذي يصمد عنده تفوّقه على النبلاء من زملائه ورؤسائه. ومثل هذه الحياة تفرض حدوداً ثابتة وتسلك الحبّ ضمن نظام سائر أوجه النشاط. ومثل كلّ الرجال الذين لا يكون خيالهم مصاباً بالشهوانيّ كان توتسي في فترة عزوبته - وان كان قد ظهر هنا وهناك بسبب السمعة الدبلوماسية في صحبة أصدقائه مع الصغيرات من جوقات المسرح - من المتردّدين الهادئين على الماخور وقد نقل النَفَس النظامي لهذه العادة إلى الزواج أيضاً. من أجل ذلك تعلّمت ديوتيما الحبّ شيئاً عنيفاً يتمّ بطريقة

النوبات متحفِّزاً للمبادرة بعد قليل من الكلام وكان ينطلق عنانه من قِبَل قوّة أشد منه بعدُ مرةً واحدة فحسب كلّ أسبوع. على أنّ هذا التغيّر في كيان اثنين من البشر الذي كان يبدأ في دقيقته لينتقل بعد قليل من الدقائق إلى حدِّيث مختصر حول أحداث اليوم الواجب تذكُّرها ثم إلى نوم صريح وهو شيء لم يكن المرء في هذه الأثناء يتحدَّث عنه أبداً أو كان يتحدَّث عنه على أقصى الحدود في إيماءات وتلميحات (كأن يصوغ مثلاً نكتة دبلوماسية حول «الأعضاء التناسلية» في الجسم) كان له نتائج غير متوقَّعة ومتناقضة بالقياس إليها.

فقد كان من ناحية أولى السبب في مثاليّتها المتضخمّة فوق الحدود وفي تلك الشخصيّة شبه الرسميّة المتَّجهة صوب الخارج والتي كانت طاقة الحبّ عندها وحاجتها الروحية تمتدان فوق كلّ عظيم ونبيل كان يُرى في محيطهما وكانت تنقسم تبعاً لذلك وترتبط به على نحو يبلغ من العمق أنَّ ديوتيما كانت تحدّث ذلك الإنطباع الذي يشوّش مفاهيم الرجال وهو الإنطباع الخاص بشمس الحبّ الساطعة في عنفوان ولكنّها أفلاطونية والذي استبد الفضول بأولريش للتعرّف عليها من جرّاء وصفه. ولكنَّ الإيقاع الواسع للتماسّ الزوجي كان قد تطوّر من ناحية أخرى بصورة فيزيولوجية بحتة إلى عادة كانت تملك تمهيد طريقها لنفسها وكانت تنبىء عن نفسها بدون ارتباط مع الأجزاء العليا لكيانها مثل جوع عبدٍ وجباتُه قليلة ولكنّها مغذيّة ومع مرور الزمن عندما انبثقت شعيرات صغيرة من الشفة العليا لديوتيما وامتزج بكيان البنت لديها الإستقلال الرجوليّ الخاص بالشخصيّة الأنثوية الناضجة حلّ ذلك في وعيها في صورة مفزِّعة. وكانت تحبّ زوجها ولكنَّ كان يمتزج بذلك قدر من الإشمئزاز آخذ في الازدياد بل إهانة رهيبة للنفس لا يمكن لأمريٍ آخر الأمر أن يقارنها إلّا بالأحاسيس التي كان أرخميدس المنهمك في مشاريعه الكبرى

twitter @baghdad_library

خليقاً أن يحسّ بها لو أنَّ الجندي الغريب لم يقتله بل طرح عليه مطلباً جنسياً. ولما كان زوجها لم يلاحظ هذا ولا كان خليقاً أن يفكِّر في ذلك بالقدر ذاته ولكنَّ جسدها كان يكشفها تجاهه خلافاً لإرادتها مع ذلك آخر الأمر في كلّ مرّة فقد كانت تشعر بخضوعها لسيطرة قسريّة وقد كانت سيطرة لم تكن تُعدّ مجانبة للفضيلة غير أنَّ مسارها كان معذِّباً مثلما كانت تتصوَّر ظهور اختلاجة عضلية أو حتمية الخطيئة. وربّما كانت ديوتيما الآن خليقة أن تزداد كآبتُها قدراً قليلاً فحسب وأن تزداد مثاليتها غير أنَّ هذا وقع من سوء الحظ على وجه الخصوص في الوقت الذي بدأ فيه صالونها أيضاً يسبِّب لها متاعب نفسية. وكان من الطبيعي جداً أن يشجِّع رئيس القسم توتسي المطامح الفكريّة لزوجته إذ سرعان ما تبيَّن له أيَّة مزية ترتبط بها من أجل مركزه غير أنّه لم يكن قد أسهم فيها أبداً وأنَّ في وسع المرء أن يقول أيضاً أنّه لم يكن يأخذها مأخذ الجد. ذلك لأنّ هذا الرجل الخبير لم يكن يأخذ مأخذ الجدّ إلّا السلطة والواجب والنسب الرفيع وعلى بعض المسافة من ذلك: العقل بل أنّه حذّر ديوتيما مراراً من وضع قدر أكبر مِمّا يجب من الطموح في أعمالها الحكوميّة ذات النزعة الأدبيّة. ذلك لأنّه إذا كانت الثقافة تعدّ أيضاً على نحو ما بمثابة الملح في طعام الحياة فإن المجتمع الراقي لا يحبّ المطبخ المملَّح أكثر مِمّا ينبغي؛ وكان يقول هذا خالياً كلّ الخلوّ من السخرية إذ كان يمثِّل قناعته غير أن ديوتيما كانت تشعر بإساءة التقدير. وكانت تشعر أبداً بابتسامة ماثلة يُرْفِق بها زوجها مطامحها المثالية. وسواء أكان موجوداً في البيت أم لم يكن وسواء أكانت هذه الابتسامة ـ إذا كان يبتسم فعلاً وهو ما لم يكن عليه الحال دائماً على وجه اليقين ـ هي المقصودة بها على وجه الخصوص أم كانت مجرّد شيء من مقتضيات تعبير الوجه عند رجل لم يكن له بدّ بسبب المهنة أنَّ يبدو متفوّقاً في كلّ وقت. وكان هذا يغدو مع الزمن أمراً لا يطاق على نحو مطّرد الزيادة بدون أن تقدر على التحرر من البريق الخبيث للتبرير الذي كان يتطاول به. وكانت

ديوتيما تلقي وزر ذلك في بعض الأحيان على حقبة تاريخية مادية صنعت من العالم لعبة خبيثة لا معنى لها لا يجد الإنسان الفاقد للروح بين إلحادها واشتراكيتها ووضعيّتها حرية الإرتقاء إلى ماهيته الحقَّة؛ غير أنَّ هذا لم يكن يجدي أيضاً في كثير من الأحيان.

وكذلك كانت طبيعة الأحوال في بيت توتسي حين جعل العمل الوطني الكبير يزيد من سرعة الأحداث. ومنذ عهد الكونت - ولكي لا يعرّض للنقد النبلاء الذين كان محورهم قد انتقل إلى بيت صديقته كانت تسود هناك مسؤوليّة كامنة لأنّ ديوتيما كانت قد عقدت العزم على أن تثبت لزوجها الآن أو لا تفعل أبداً أنّ صالونها ليس لعبة. وكان حضرة الشريف قد أسرَّ لها أن العمل الوطني الكبير يحتاج إلى فكرة متوّجة وكان طموحها المستعر يتمثّل في العثور عليها. وكان تصوُّر أنَّ من الواجب أن يتحقَّق بوسائل دولة كاملة وأمام عيون العالم المنتبهة شيء يفترض أن يكون أحد المضامين الكبرى في الثقافة أو ربّما كان في حال تحديده على نحو أكثر تواضعاً شيئاً يفترض أن يجلو الثقافة النمساوية في أخصّ جوهر لها ـ هذا التصوّر كان يحدث لدى ديوتيما من الأثر كما لو أن صالونها انفتحت أبوابه وكان البحر اللانهائي يتلاطم على عتبته كأنه امتداد لأرضيّته ـ ولم يكن من الممكن إنكار أنَّ أوّل ما أحسَّت به في هذا الصدد إنما كان فراغاً لا يُسْبَر غوره منفتحاً في هذه اللحظة.

ولطالما انطوت الإنطباعات الأولى على شيء صحيح فيها! وقد كانت ديوتيما على يقين من أنَّ شيئاً لا مثيل له سوف يحدث وكانت تستصرخ مُثُلها الكثيرة وكانت تعبّىء خطابيّة دروسها في التاريخ وهي فتاة صغيرة حيث تعلّمت الحساب بالممالك والقرون وكانت تفعل على وجه الإطلاق كلّ ما يجب على المرء عمله في مثل هذا الوضع. ولكنَّ لم يكن لها بدٌّ بعد أنَّ كانت قد انقضت بضعة أسابيع على هذا النحو أن تلاحظ أنّه لم يخطر ببالها شيء

twitter @baghdad_library

بحالٍ من الأحوال وكان ما أحسَّت به ديوتيما في هذه اللحظة تجاه زوجها خليقاً أن يكون كراهية لو أنّها كانت قادرة على الكراهية على الإِطلاق ـ وهو انفعال دنيء! ـ من أجل ذلك أصبح هذا كآبة وتصاعد فيها «حقدٌ على كلّ شيءٍ» غيرُ معروف حتى ذلك الوقت.

كان هذا هو الوقت الذي وصل فيه الدكتور آرنهايم في صحبة زنجيّه الصغير. واستقبلت ديوتيما بُعَيْد ذلك زائرها الحافل بالأهميّة.

[٢٦]

الجمع بين الروح والاقتصاد. الرجل الذي يستطيع هذا يريد أن يستمتع بسحر عصر الباروك في الثقافة النمساوية القديمة
وبذلك تولّد فكرة للعمل الموازي

لم تكن ديوتيما تعرف أفكاراً مجانبة للصواب. ولكن يبدو أنَّ أموراً كثيرة كانت تستخفي في هذا اليوم وراء الغلام الزنجي الصغير البرىء الذي كانت مشغولة به بعد أن صرفت وصيفتها «راشيل» من الحجرة وكانت قد استمعت إلى قصتها مرّة أخرى استماع الصديق منذ أن غادر أولريش بيت ابنة عمه العظيمة. وكانت المرأة الجميلة الناضجة تشعر أنّها شابة وأنّها كمن شغل بلعبة رنّانة. ففي غابر الأيام كان النبلاء وكان الأعيان يقتنون الزنوج وخطرت في بالها صور خلابة عن رحلات بالزلّاقات مع الخيول ذوات البيارق والخدم المزَّينين بالريش والأشجار التي انتثر عليها الندى المتجمّد. غير أنَّ هذا الجانب الحافل بالخيال من النبالة كان قد غاب منذ عهد طويل وقالت في نفسها: «لقد أصبحت حياة المجتمع اليوم بلا روح». وكان ثمَّة شيء في قلبها يجنح إلى المعتزل الجريء الذي تجاسر على اقتناء زنجيّ إلى أبن الطبقة الوسطى النبيل على غير الوجه الدقيق الدخيل الذي كان يخجل أهل السلطة المتربّعين بالوِراثة مثلما أخجل العبد الإغريقي المثقَّف سادته الرومان في سالف الأيام. وكان وعيها لذاتها المنكفىء على نفسه من جراء كثير من الاعتبارات يفرّ منه بحكم كونه روحاً أخويّة. وكان هذا الشعور الطبيعي جداً

twitter @baghdad_library

بالقياس إلى كلّ مشاعرها الأخرى يحملها حتى على أن تتجاهل أنَّ الدكتور آرنهايم يرجع فيما يقال إلى أصل يهودي وإنْ كانت الاشاعات تتناقص وكانت الأخبار الموثوق بها ماتزال غير متوفّرة. وذلك أنّ هذا كان يُروى من قبل والده على وجه اليقين إلّا أنَّ أمه كانت متوفّاة منذ عهد يبلغ من بُعْدِه أنّه لم يكن بدٌّ أنْ ينقضي حين من الزمان قبل أن يعرف المرء شيئاً دقيقاً. وقد كان من الممكن آخر الأمر ألّا يكون ضيّق بالدنيا معيَّن شديد في قلب ديوتيما في حاجة إلى تكذيب.

وسمحت ديوتيما على حذر لخاطرها أن يفارق الزنجي ويقترب من سيِّده. لم يكن الدكتور آرنهايم رجلاً غنياً فحسب بل كان إنساناً له خطره أيضاً وكانت شهرته تتجاوز كونه وريث محالٌ تحيط بالعالم وكان قد كتب في ساعات فراغه كتباً كانت تعدّ في الأوساط الراقية ممتازة. على أنّ البشر الذين يشكّلون أمثال هذه الأوساط الفكريّة البحتة يتسامَوْن عن المال والإمتياز المدنيّ غير أنّه لا يجوز للمرء أنَّ ينسى ان هذا يعدّ من أجل ذلك على وجه الخصوص شيئاً ساحراً بوجه خاص عندهم حينما يجعل رجل غني من نفسه مثيلاً لهم. وكان ما يبشّر به آرنهايم في برامجه وكتبه فوق ذلك بعدُ شيئاً لا يقلّ عن الجمع بين الروح والاقتصاد أو بين الفكرة والسلطان. وكان أولو الحسّ المرهف الذين أوتوا حدساً بالغ الإرهاف تجاه ما هو قادم ينشرون نبأ مفاده أنّه يجمع في نفسه بين كلا هذين القطبين المنفصلين في العالم بحكم العادة ويروّجون للإشاعة القائلة أنَّ طاقة حديثة هي في الطريق وهي مندوبة لتوجيه مقدرات الدولة ومن يدري فربما كان ذلك لمقدّرات العالم نحو الأفضل. ذلك لأنّ كون مبادىء السياسة والدبلوماسية القديمتين وطريقتهما في أوروبا سائرة نحو القبر كان شعوراً منتشراً على نطاق عام منذ عهد بعيد وكان قد بدأ بصورة مطلقة في تلك الأيام في كلّ شيء عهد الإعراض عن الخبراء.

وكذلك كان من الممكن تفسير حالة ديوتيما بأنها ثورة على أسلوب التفكير في مدرسة الدبلوماسيِّين القدامى؛ ومن أجل ذلك أدركت على الفور الشبه العجيب الذي كان يوجد بين وصفها وبين وضع هذا الغريب العبقري. وكان الرجل الشهير قد زارها فوق هذا زيارة تعارف بمجرّد أن أصبح ذلك ممكناً وكان بيتها الأوّل إلى مدى بعيد الذي طرأ عليه هذا الإمتياز. وقد تحدّث الكتاب التمهيدي لصديقة مشتركة عن الثقافة القديمة للمدينة الهابسبورجيّة وأهلها تلك الثقافة التي يأمل المرء الجادّ في التمتع بها بين المحالّ التي لا يمكن تجنُّبها. وكانت ديوتيما تشعر بامتيازها مثل كاتب تجري ترجمته أوّل مرّة إلى لغة بلاد غريبة حين استخلصت من ذلك أنَّ هذا الأجنبي الشهير كان يعرف سمعة فكرها. ولاحظت أنّه لم يكن يبدو يهودياً بأدنى مقدار بل كان رجلاً رزيناً رزانة النبلاء من الطراز القديم الفينيقيّ. ولكنَّ آرنهايم افتُتن حين لقي في ديوتيما امرأة لم تكن قد قرأت كتبه فحسب بل كانت تتماشى من حيث كونها أثراً قديماً يتّشح بالبدانة الخفيفة مع مثاله للجمال الذي كان هيلنياً يتّسم بقليل من الزيادة في اللحم لئلّا يكون الكلاسيكيّ مفرطاً في الجمود او سرعان ما تبيّن لديوتيما أن الإنطباع الذي كانت على استعداد أن تخلّفه لدى رجل ذي علاقات عالمية فعلية قد ازال بصورة جذرية كلّ الشكوك التي كان زوجها الذي لا ريب أنّه كان أسير الأساليب الدبلوماسية العتيقة إلى حدٍّ ما يهين بها أهمّيتها.

وكانت تردِّد لنفسها هذا الحديث بارتياح عذب. وكان لم يكد يبدأ بعدُ حين قال آرنهايم أنّه لم يأت هذه المدينة القديمة إلّا ليستجمّ في سحر عصر الباروك العائذ إلى الثقافة النمساوية القديمة بعض الاستجمام من الحساب ومن الماديّة ومن العقل المجدب لإنسان حضاريّ يقوم بالإبداع اليوم.

twitter @baghdad_library

وردت ديوتيما بقولها ـ إنَّ في هذه المدينة روحانية بالغة المرح ـ وكانت مسرورة بذلك.

وقال: «أجل فنحن ما عادت لدينا أصوات داخلية ونحن نعرف اليوم أكثر مِمّا يجب والعقل يستبدّ بحياتنا».

عند ذلك أجابت قائلة: «إنني أُسَرُّ بالاحتكاك مع النساء لأنهن لا يعرفن شيئاً وهنَّ سليمات». وقال آرنهايم: «ومع ذلك فإنَّ المرأة الجميلة تفهم أكثر من رجل لا يعرف أبداً شيئاً عن الحياة على الرغم من المنطق وعلم النفس». عند ذلك روت له أنَّ مشكلة مماثلة لتحرير الروح من الحضارة إلّا أنّها منعكسة انعكاساً كبيراً وحكومياً تشغل الأوساط ذات الشأن هنا وقالت: «لقد كان الناس أحرياء أن ـ» وقاطعها آرنهايم قائلاً: هذا رائع تماماً «أن ينقل المرء الأفكار الجديدة أو إذا جاز القول (وهنا تنهدّ تنهداً خفيفاً) أفكاراً على إطلاقها إلى مجالات السلطة!» واستأنفت ديوتيما قولها: إنهم يريدون تكوين لجان من كلّ أوساط السكان للكشف عن هذه الأفكار ـ ولكنَّ في هذا الوقت بالذات كان لدى آرنهايم شيء هام على نحو غير عاديّ وقد أفصح عنه بلهجة بلغ ما فيها من حرارة المودّة والاحترام أنَّ التحذير أحدث أثراً عميقاً لدى ديوتيما وكان قد صاح قائلاً: لن ينشأ بهذه الطريقة شيء عظيم بسهولة لن تنشأ ديمقراطية من اللجان بل سيتمكّن البشر الأقوياء الفرادى فحسب من توجيه العمل بالخبرة سواء في الواقع أم في مضمار الأفكار! ـ

وكانت ديوتيما قد ردّدت الحديث حتى الآن حرفياً غير أنّه انحل عند هذه النقطة في البريق. فما عاد في وسعها أن تتذكّر بِمَ ردّت هي ذاتها. وكان شعور مبهم باعث على التوتّر حافل بالسعادة والترقّب يلتقي بها طوال الوقت كله. وبات فكرها الآن يضاهي بالون أطفال ملوّناً متوازناً صغيراً يسبح في

الهواء نحو الشمس رائع الإشراق محلقاً في الأعالي. وفي اللحظة التالية انفجر.

عند ذلك ولدت للعمل الموازي العظيم فكرة كانت تنقصه حتى ذلك الوقت.

twitter @baghdad_library

[٢٧]

ماهية فكرة عظيمة ومضمونها

لقد كان من اليسير أن يقال أين كانت تكمن هذه الفكرة ولكنَّ ما كان من الممكن لأيّ إنسان أن يصفها من حيث أهميتها! ذلك لأنّ هذا هو ما يميّز فكرة عظيمة مؤثّرة عن فكرة عادية بل ربّما من فكرة عادية إلى حدٍّ تستعصي معه على الفهم ومعكوسة وذلك أنّها توجد في نوع من حالة الانصهار تدخل خلاله الأنا في أمداء لا نهاية لها وتدخُّل أمداء العوالم على نحو معكوس في الأنا حيث لا يعود في وسع المرء أن يعرف ما ينتمي إليه خاصة وما ينتمي إلى اللانهائي. من أجل ذلك تتألف الأفكار العظيمة المؤثّرة من جسد يعدّ مثل جسد الإنسان متماسكاً غير أنّه واهٍ ومن روح خالدة تشكّل دلالتها غير أنّها ليست متماسكة بل تنحل إلى لا شيء لدى كلّ محاولة للإمساك بها بالكلمات الباردة.

واذا تقدّم هذا وجب أنَّ يُقال ان فكرة ديوتيما العظيمة لم تكن تتألف من شيء آخر سوى أنَّ البروسيّ آرنهايم يجب أن يتولّى الادارة الفكريّة للعمل النمساوي الكبير على الرغم من أن هذا العمل كان ينطوي على ذروة الغيرة تجاه بروسيا ـ ألمانيا. غير أن هذا ليس إلّا الجسد اللفظي الميت للفكرة ومن كان يجده غير مفهوم أو باعثاً على الضحك فإنما يسيء معاملة جثّة. أما ما يتّصل بروح هذه الفكرة في مقابل ذلك فيجب أن يقال أنّها كانت تتّسم بالطهارة والمشروعية. ومن أجل كلّ الأحوال كانت ديوتيما تُتْبع قرارها ما يُعدّ من قَبيل ملحق من أجل أولريش. ولم تكن تعرف أنَّ إبن عمها أيضاً قد

أحدث لديها انطباعاً ـ وان كان ذلك على مستوى أعمق إلى حدٍّ بعيد من أثر آرنهايم وكان يغطّي عليه تأثيره وقد كانت فيما يبدو خليقة أن تزدري نفسها لو كان هذا واضحاً لديها غير أنّها كانت قد اتخذت بحكم الغريزة وعلى الرغم من ذلك إجراءً مضاداً إذ أعلنت أمام وعيها أنّه «غير ناضج» على الرغم من أنْ أولريش كان أكبر سنّاً منها هي ذاتُها وكانت قد اعتزمت أنْ ترثي له وقد سهّل هذا الاقتناع بأنَّ من الواجب اختيار آرنهايم بدلاً منه لقيادة العمل الحافل بالمسؤولية ولكنَّ من ناحية أخرى وبعد أن تمخّضت عن هذا القرار تجلّى أيضاً التصوّر الأنثوي ومفاده أنّ المُنَحّى في حاجة إلى معونتها الآن وهو جدير بها. واذا كان يفتقر إلى أيّ شيء فليس في وسعه أنْ يكتسبه بطريقة أفضل من اكتسابه عن طريقه الإسهام في العمل الكبير الذي كان يتيح له الفرصة للبقاء كثيراً بالقرب منها وبالقرب من آرنهايم. وعلى هذا فقد قرّرت ديوتيما هذا أيضاً وكانت هذه بلا ريب مجرّد خواطر تكحيليّة.

twitter @baghdad_library

[٢٨]

فصل يستطيع ان يتجاوزه كلّ من ليس له مزاج خاص بالاشتغال بالأفكار

وكان أولريش في هذه الأثناء يجلس في بيته إلى مكتبه وهو يعمل. وكان قد أخرج البحث الذي كان قد قطعه في منتصفه قبل أسابيع حين اتّخذ القرار بالعودة ولم يكن يريد الوصول به إلى النهاية وإنّما كان يُمْتِعُه مجرّد أنّه مازال ينجز هذا كلّه وكان الطقس جميلاً غير أنّه لم يكن قد غادر البيت في الأيام الأخيرة إلّا في جولات قصيرة بل إنّه لم يخرج حتى إلى الحديقة وكان قد أسدل الستائر وهو يعمل في ضوء مخفَّف مثل بهلوان يعرض في سيرك نصف مظلم قبل أن يسمح للمتفرِّجين بالدخول على نُظّارة من العارفين في المقاعد الأماميّة قفزات جديدة خطرة. وكان ما في هذا التفكير من الدقة والطاقة واليقين التي لا مثيل لها في أيّ مكان من الحياة توشك أن تملأ نفسه بالكآبة.

وأزاح الآن الورق المغطّى بالمعادلات والاشارات وكان قد كتب عليه آخر الأمر المعادلة الخاصّة بحالة الماء لتكون مثالاً فيزيائياً ليطبّق عملية رياضية جديدة كان يصفها غير أن أفكاره كانت قد شردت منذ هنيهة.

وساءل نفسه قائلاً: أَوَلم أحدّث كلاريسّا بشيء عن الماء» ومع ذلك فلم يكن قادراً على أن يتذكّر بوضوح ولكنّ ذلك لم يكن ذا شأن أيضاً وكانت أفكاره تنداح متوسّعة في استرخاء.

وإنّه لمن المؤسف أنّه ما من شيء في الأدب يصعب التعبير عنه مثل إنسان يفكّر. وقد أجاب مكتشف كبير حين سئل كيف حدث أن خطر له هذا القدر

الكبير من الأمور الجديدة بقوله: كنت أفكّر في ذلك بغير انقطاع. ومِمّا لا ريب فيه في الحقيقة أنّه يجوز للمرء إنْ يقول أنَّ الخواطر غير المتوقَّعة لا يمكن تشغيلها بشيء آخر سوى أن يتوقَّعها المرء. فهي في جزء غير قليل منها نجاح للشخصية وللميول الدؤوبة وللطموح المثابر والاشتغال الذي لا تواني فيه. وما أثقل الملل الذي لا بدّ أن تتَّسم به مثل هذه المثابرة! ومن وجهة أخرى يتمّ مرّة أخرى حلّ مسألة فكريّة بطريقة لا تختلف كثيراً عمّا لو أراد كلب يحمل عصا في شدقه أن يدخل من خلال باب ضيّق فهو يظلّ عندئذ يدير رأسه يميناً ويساراً إلى أن تمرق العصا من خلاله ونحن نفعل ذلك على نحومماثل تماماً مع مجرّد فرق يتمثَّل في أننا لا نحاول ذلك مقبلين عليه بدون اختيار على الإطلاق بل نعرف عن طريق الخبرة فحسب وعلى وجه التقريب كيف يجب على المرء أن يفعل هذا. وعندما يتمتَّع رأس ذكي طبعاً بقدر من البراعة والخبرة أكبر إلى حدٍّ بعيد أيضاً في ضروب الدوران من الرأس الغبيّ فإن المرور يأتي بالقياس إليه أيضاً مفاجئاً فهو حاصلٌ مرّة واحدة وفي وسع المرء أن يحسّ في نفسه حيال ذلك مع شعور من الدهشة الخفيفة وبوضوح تام بأنَّ الأفكار صنعت نفسها بنفسها بدلاً من أن تنتظر مُحْدِثَها. وهذا الشعور بالدهشة يسمِّيه كثير من الناس في هذه الأيام بالحدس بعد أن كان يسمّى من قبل إلهاماً أيضاً ويعتقدون أنَّ عليهم أن يروا في ذلك شيئاً متعالياً على الشخصيّ غير أنّه ليس إلّا شيئاً غير شخصيّ ويقصد بذلك قابلية الامتزاج بين الأشياء ذاتها التي تلتقي في رأس واحد وترابطها فيما بينها.

وكلّما كان الدماغ أفضل كان ما يمكن الإحساس به من قبله أقلَّ في هذا الصدد. ومن أجل ذلك كان التفكير مادام غير مفروغ منه حالة بائسة كلّ البؤس في الحقيقة مشابهة لمغص في مجمل تلافيف المخ وعندما يكون منتهياً لا يعود بعدُ متَّسِماً بقالب الفكرة الذي يشهده المرء فيه بل يكون قد اتَّسم

twitter @baghdad_library

بقالب ما تمَّ التفكير فيه وهذا مع الأسف قالب غير شخصيّ لأنّ الفكرة تكون عندئذ متّجهة صوب الخارج ومصوَّبة إلى العالم من أجل البلاغ. ولا يستطيع المرء إنْ صحّ التعبير أن يمسك حين يفكِّر الإنسان باللحظة الواقعة بالشخصيّ واللا شخصيّ ومن أجل ذلك يمثِّل التفكير على ما يبدو حرجاً للكُتّاب يبلغ من شدّته أنّه يسرُّهم أن يجتنبوه.

غير أنَّ الرجل بلا صفات كان ممعناً في التفكير كشأنه. وليستخلص المرء من ذلك نتيجة مفادها أنَّ هذا لم يكن في جزء منه على الأقل شأناً شخصياً. فما عساه يكون؟ إنّه عالم أفل راحل. إنها جوانب العالم التي تتجمّع في رأس واحد. ولم يكن قد خطر بباله شيء مهمّ على الإطلاق بعد أن اشتغل بالماء مثالاً سوى أنَّ الماء كائن أكبر ثلاث مرات من الأرض حتى عندما يدخل المرء في حسبانه مجرّد ما يعرفه كلّ امرىء أنّه ماء من النهر والبحر والبحيرة والينبوع. ولقد ظلّ الناس يعتقدون زمناً طويلاً أنَّ له صلة بالهواء وقد فعل هذا نيوتن العظيم. ومع ذلك فما زال في معظم أفكاره الأخرى كأنه في هذه الأيام. وتبعاً لرأي الإغريق كان العالم والحياة قد صدرا عن الماء وكان هناك إله هو الأوقيانوس وفيما بعد اخترعت عرائس البحر والجنّيات وحوريّات البحر وأسَّسَت على شواطئهن المعابد وهياكل الوحي على أنّهم شيّدوا أيضاً كاتدرائيات هيلد يسهايم وبادربورن وبريمن فوق الينابيع وها هي تلك الكاتدرائيات مازالت قائمة بلا ريب ومازال الناس يعمّدون أيضاً بالماء. ثم ألّا يوجد أصدقاء للماء ورسل للشفاء الطبيعيّ تنطوي نفوسهم على شيء كهذا سليم سلامة القبور فريد في نوعه. واذاً فقد كان في العالم موضع مثل نقطة ممسوحة أو عشب موطؤ. وقد كان الرجل بلا صفات ينطوي بالطبع أيضاً على معرِّفة العصر الحديث في مكان ما من وعيه سواء أكان يفكِّر في ذلك لتوّه أم لم يكن يفكِّر فيه. على أن الماء سائل لا لون له ولا يكون أزرق إلّا مع

الطبقات الكثيفة ولا رائحة له ولا طعم وذلك ما صرّح به في المدرسة تصريحاً يبلغ من كثرته أنَّ المرء لا يمكن أن ينساه مرّة أخرى على الرغم من أنّه يضمّ من الوجهة الفيزيولوجية بكتريات ومواد نباتية وهواء وحديد وكبريتات الكلسيوم وثاني فحمات الكلسيوم وأنَّ الصورة الأولى لكلّ السوائل لا تعدّ من الوجهة الفيزيائية في الأساس سائلاً على الإطلاق بل تعدّ جسماً صلباً أوسائلاً أو غازاً كلًّا حسب ماهيته. وفي النهاية ينحل المجموع في أنساق من المعادلات يتّصل بعضها ببعض على نحو ما ولا يوجد في العالم الواسع إلّا بضع عشرات من البشر الذين يتصوّرون حتى مثل هذا الشيء البسيط كما هو حال الماء على النحو ذاته. وكلّ الآخرين يتحدَّثون عنه بلغات تتخذ منزلها في مكان ما بين اليوم وبين بضعة الاف من السنين الخوالي. وعلى هذا فيجب على المرء أنَّ يقول ان الإنسان إذا ما أمعن في التفكير قليلاً فحسب فكأنّما يدخل في مجتمع مضطرب اضطراباً حقيقياً!

وتذكَّر أولريش الآن أيضاً أنّه كان قد روى هذا كلّه لكلاريسّا بالفعل وكانت غير مثَّقفة مثل حيوان صغير غير أنَّ المرء كان يشعر بوحدة معها على نحو جليّ بصرف النظر عن كلّ الخرافة التي كانت تصرّ عليها ووخزه هذا وخزة إبرة ساخنة.

وانتباه الغيظ

ويبدو أنَّ المقدرة المعروفة المكتشفة من قبل الأطباء وهي مقدَّرة الأفكار على حلّ الصراعات المستفحلة في الأعماق والمتراكمة على نحو مرضيّ والتي تنشأ من مناطق غامضة من الأنا وإزالتها لا ترتكز على شيء آخر سوى طراز ماهيّتها الإجتماعية وماهيّتها الخاصّة بالعالم الخارجيّ وهي تلك الماهيّة التي تربط المخلوق الفرد بالآخرين من البشر والأشياء. ولكنَّ يبدو مع الأسف أنَّ ما يضفي عليها طاقتها الشافية إنما هو الشيء ذاته الذي يقلّل من

twitter @baghdad_library

مقدرتها الشخصيّة على المعاناة. فالذِكْر العارض لشعرة على أنف له من الوزن أكثر مِمّا لأهمّ فكرة. وإنَّ الأفعال والمشاعر والأحاسيس لتحدث من جرّاء تكرارها الإنطباع الموحي بأنّ المرء قد شهد عملية حدثاً شخصيّاً كبيراً بقدر يقلّ أو يكثر مهما تكن هذه مألوفة وغير شخصيّة.

وقال أولريش في نفسه «غبيّ ولكنَّه الحقّ». وتذكَّر ذلك الإنطباع العميق والمثير والذي يمسّ الأنا مسّاً مباشراً ذلك الإنطباع الذي يحدث لدى المرء عندما يتشمم بشرته ونهض وأزاح ستائر نافذته جانباً.

كان لِحاء الأشجار مايزال نديّاً من أثر الصباح. وفي الخارج كان يجثم على الشارع بخار البنزين الأزرق كالبنفسج. وكانت الشمس ترسل أشعتها إلى الداخل وكان الناس يتحرّكون حركة مفعمة بالحياة. كان ربيعاً من الأسفلت. كان يوماً ربيعياً خارج الفصول في الخريف كما كانت المدن تبدعه بسحرها.

[٢٩]

تفسير حالة من حالات الوعي العادي وأشكالٍ مِن مقاطعتها

وكان أولريش قد اتفق مع بوناديا على إرشارة مؤداها أنّه في البيت وحدهٍ وكان دائماً وحده غير أنّه لم يكن يعطي إشارة وكان لا بدّ أن يكون قد انقضى وقت طويل قبل أن تدخل بوناديا على غير انتظار بقبعتها ونقابها. ذلك لأنّ بوناديا كانت غيرى فوق حدود الغيرة. وعندما كانت تزور رجلاً ـ وإن كان ذلك لمجرّد أن تقول له أنّها تحتقره ـ كانت تصل دائماً وهي مفعمة بالضعف الداخليّ لأنّ انطباعات الطريق ونظرات الرجال التي كانت تلقّاها كانت تتأرجح منها كدوار البحر الخفيف. ولكنّ عندما كان الرجل يحزر ذلك ويوليّ وجهه شطرها لا يلوي على شيء على الرغم من أنّه لم يكن يحفل بها كلّ هذا الوقت الطويل وهو خليُّ القلب كانت تشعر بالجُرْح وكانت تتشاجر معه وتخرج في تعليقات توبيخية بما لم تكن هي نفسها تستطيع أنْ تتوقعه وكانت تنطوي على شيء يشبه ما ينتاب بطة أصيبت في جناحيها فهي ساقطة في بحر الحبّ وهي تريد أن تنقذ نفسها بالسباحة.

واذاً فقد جلست بوناديا هنا مرّة واحدة وجعلت تبكي وهي تشعر أنّها مستغلّة.

وفي أمثال هذه اللحظات حيث كان ينتابها الغيظ من عشيقها كانت تعتذر إلى زوجها اعتذاراً حاراً عن زلّاتها. وتبعاً لقاعدة جيّدة قديمة عند النساء غير المخلصات يطبقنها لكيلا يكشفن عمّا في أنفسهن من جرّاء كلمة غير متروّية

twitter @baghdad_library

كانت قد حدَّثته عن العلامة المثيرة للإهتمام الذي كانت تلقاه في بعض الأحيان عند أسرة صديقة لها غير أنّها لا تدعوه لأنّه من الناحية الإجتماعية فاسد الطبع بالتدليل بحيث لايمكن أن يأتي بيتها من تلقاء نفسه كما أنّها لا تقيم له من الوزن ما يكفي لكي تدعوه على الرغم من ذلك. وكان نصف الحقيقة الكامن في ذلك يسهّل عليها الكذب. أمّا النصف الآخر فكانت تؤاخذ به عشّاقها ـ وكانت تتساءل ما عسى أن يتصوّر زوجها لو أنّها عادت الآن إلى تقييد الاتصال بالصديق الموضوعة في المقدّمة!؟ وكيف ينبغي لها أن تجعل أمثال هذه الأشكال من تذبذب العاطفة مفهومة لديه!؟ إنها لتقدّر الحقيقة تقديراً كبيراً لأنَّها تقدّر كلّ المثل تقديراً كبيراً وأولريش يسيء إلى شرفها إذ يرغمها على أن تنحرف وأعدَّت له مشهداً عاطفياً حاراً فلما انتهى انهالت ضروب التوبيخ والتوكيد بالقَسَم والقبلات على الفراغ الناجم عن ذلك ولما انتهت هذه أيضاً لم ينجم شيء وكان الحديث اليومي العائد إلى الإنبعاث في مثل الجُشاءة يملأ الفراغ. وكان الزمن يصدر فقاعات صغيرة مثل قدح من الماء البائت.

وفكّر أولريش قائلاً: «لكم تغدو أكثر جمالاً حين ينتابها الجموح وما أشدّ الآلية التي تمّ بها كلّ شيء بعد ذلك من جديد». وكانت نظرتها قد أصابته وأغرته بالملاطفات. والآن بعد أن حدث ما حدث عاوده الشعور بضآلة صلة ذلك به. فقد أصبح ما هوسريع سرعة لا تصدّق في أمثال هذه التغيّرات التي تحوّل إنساناً سليماً إلى مجنون يرغي ويزبد فائق الوضوح من خلال ذلك. ولكنَّ بدا له أنَّ هذا التبدّل الغرامي للوعي ليس إلّا حالة خاصة لشيء أكثر عموماً إلى حدٍّ بعيد ذلك لأنّ الأمسية المسرحيّة والحفلة الموسيقيّة والطقس التعبّدي وكل تظاهرات الباطن تعدُّ اليوم من أمثال هذه الجزر العائدة إلى

الذوبان بسرعة من حالة ثانية من أحوال الوعي يُدفَع بها إلى الحالة العادية من حين إلى آخر.

وقال في نفسه: «قبل قليل كنت ما أزال أعمل وكنت قبل ذلك في الشارع وقد اشتريت ورقاً وحيَّيْت سيِّداً أعرفه من الجمعية الفيزيائية وكان لي معه حوار جادّ قبل وقت قليل. والآن إذ أرادت بوناديا أنَّ تستعجل بعض الاستعجال فقد يكون في وسعي أنَّ أراجع شيئاً هناك في الكتب التي أراها من خلال شقّ الباب. غير أنّنا طرنا في أثناء ذلك عبر سحابة من الجنون. وليسَ الأمر بأقلّ رهبة إذ تنضم الآن التجارب المُحْكَمة حول هذه الثغرة الآخذة بالتلاشي من جديد وتتجلّى في تماسكها».

غير أن بوناديا لم تستعجل ولم يكن بدٌّ لأولريش أنْ يفكِّر في شيء آخر وكان صديق صباه فالتر هذا زوج كلاريسّا الصغيرة الذي بات على جانب من غرابة الأطوار قد قال عنه ذات مرّة «أنّ أولريش لا يفعل بأقصى طاقته دائماً إلّا ما يراه غير ضروري!». وخطر بباله في هذه اللحظة بالذات «لقد كان في وسع المرء أن يقول اليوم هذا عنّا جميعاً». وكان يتذكَّر على نحو جيّد حقاً: كانت شرفة خشبية تحيط بالبيت الصيفيّ. وكان أولريش ضيفاً على والدَيْ كلاريسّا وكان ذلك قبل الزفاف بأيام قلائل وكان فالتر يغار منه وكان في وسع فالتر أن يكون غيوراً على نحو مثير للإعجاب وكان أولريش واقفاً في أشعَّة الشمس حين دخلت كلاريسّا وفالتر الحجرة الواقعة خلف الشرفة. وأصغى إليهما بدون أن يختبىء وما عاد يذكر اليوم بعدُ إلّا تلك الجملة الواحدة ثم الصورة: كان عمق ظلّ الحجرة معلّقاً مثل غِرارة ذات ثنيات مفتوحة قليلاً على الجانب المعرَّض للشمس الساطعة من الجدار الخارجي. وكان يظهر في ثنايا هذه الغرارة فالتر وكلاريسّا وكان وجه فالتر ممطوطاً في اتجاه طولانيّ على نحو مؤلم وكان يبدو كأنه ينطوي على أسنان طويلة صُفْر. وكان في وسع

twitter @baghdad_library

المرء أيضاً ان يقول كان زوج من الأسنان الصفر يقع في علبة صغيرة مفروشة بالمخمل الأسود وكان هذان الآدميان ينتحيان جانباً منها كالأشباح. وكانت الغيرة عبثاً بالطبع ولم يكن لأولريش رغبة في نساء أصدقائه ولكنَّ فالتر كان يتمتَّع دائماً بمقدرة خصوصيّة تماماً على أن يعاني معاناة شديدة. ولم يكن يصل أبداً إلى ما يريد لأنّه كان يحسّ بالكثير جداً. وكان يبدو كأنه ينطوي في نفسه على مقوٍّ للصوت شديد الإيقاع لما صَغُر من سعادة وتعاسة. وكان ينفق على الدوام عملة شعورية صغيرة بالذهب والفضة على حين كان أولريش أقرب إلى أن يمارس عملياته بالجملة بشيكات الأفكار التي رُقمت عليها أرقام هائلة إنْ صح التعبير. غير أنَّ هذا لم يكن في نهاية الأمر إلّا ورقاً. وكان أولريش إذا أراد أن يتصوّر فالتر على نحو مميَّز حقّاً كان يتصوّره عند حافة غابة مرتدياً سراويل قصيرة وكان مِمّا يلفت النظر أنّه كان يرتدي جوربين أسودين. ولم يكن يتمتَّع بساقي رجل فلا كانت ساقاه بالساقين ذواتَيْ العضلات المتَّسمتين بالقوّة ولا المعروقتين في جفاف بل كانتا ساقَيْ فتاة فتاة ليست بالجميلة جداً لها ساقان بضّتان دونما جمال. وكان يرسل بصره ويداه موضوعتان تحت رأسه نحو المنظر الطبيعي وكانت السماء تعلَّم أنّه يتعرَّض للتشويش عندئذ. ولم يكن أولريش يتذكَّر أنّه رأى فالتر على هذه الصورة في مناسبة معيَّنة تنطبع في النفس بل كان الأحرى أنَّ هذه الصورة كانت تنطبع في الذهن صادرة عنه مثل خاتم جامع بعد عقد ونصف من السنين. وكان يصدر عن تذكُّر أنَّ فالتر كان في تلك الأيام غيوراً تجاه انفعال مستعذب جداً. وكان هذا كلّه قد حدث في وقت كان المرء فيه مازال يجد متعة في كونه هو ذاته. وقال أولريش في نفسه: «لقد زرتهما حتى الآن بضع مرات بدون أن يردّ لي فالتر زيارتي. ولكنَّ كان في وسعي على الرغم من ذلك أن أنطلق إلى هناك مساء اليوم من جديد وماذا يهمني من ذلك!».

واعتزم أن يبعث اليهما بالخبر بعد أن تنتهي بوناديا أخيراً من ارتداء ثيابها إذ لم يكن هذا الأمر مستحسناً في حضور بوناديا من جرّاء الإستجواب الشديد المملّ الذي كان يعقب ذلك بصورة لا مفرّ منها.

ولمّا كانت الأفكار سريعة وكانت بوناديا ماتزال بعيدة عن الانتهاء فقد خطر له شيء آخر. وكانت هذه المرّة نظرية صغيرة وكانت بسيطة ومقنعة تزجي وقته. وقال أولريش في نفسه وكان مايزال يقصد بذلك صديق صباه فالتر على ما يبدو: «إنّ الإنسان الشاب يظلّ يبثّ الأفكار بغير انقطاع في كلّ الإتجاهات غير أنّ ما يوافق إيقاع المحيط هو وحده الذي ينعكس شعاعه من جديد ويتكاثف على حين أنّ كلّ الرسائل الأخرى كانت تتبدّد وتضيع في الفراغ!». وكان أولريش يفترض ببساطة أنّ الإنسان الذي ينطوي على فكرٍ ما يملك كلّ نوع منه بحيث يكون الفكر أكثر أصالة من الصفات. وكان هو نفسه إنساناً فيه الكثير من التناقضات وكان يتصوّر أنّ كلّ الصفات التي عبَّرت عنها البشريّة في يوم من الأيام إنما تستقرّ في ذهن الإنسان قريبة بعضُها من بعض إلى حدٍّ بعيد إذا كان يتمتَّع بفكر على وجه الإطلاق. وقد لا يكون هذا صحيحاً كلّ الصحة ولكنَّ ما نعرفه عن نشوء الشرّ مايزال هو الأقرب إلى التوافق مع مسألة أنَّ كلّ امرىءٍ يتميّز بالرقم الباطنيّ لمقاسه ولكنَّ يمكن في هذا المقاس أن يملأ أكثر الأثواب تبايناً إذا ما هيّأها له القدر. وكذلك بدا لأولريش أيضاً هذا الذي كان قد فكّر فيه لتوّه أمراً ليس بالعديم الأهميّة تماماً. ذلك لأنّ الخواطر العادية وغير الشخصيّة عندما تشتدّ قوتها على مرّ الزمن من تلقاء ذاتها تماماً وتتلاشى الخواطر غير العادية بحيث يكاد يغدو كلّ امرىء متوسّطاً على الدوام باليقين الذي تتّسم به علاقة ميكانيكيّة فإنَّ هذا يفسّر لماذا كان الإنسان العاديّ على الرغم من الإمكانات ذات آلاف الوجوه التي كانت تواجهنا هو الإنسان العاديّ على الصورة التي هو عليها! وإنّه ليفسّر أيضاً مسألة أنّه يوجد حتى بين

twitter @baghdad_library

البشر ذوي الإمتياز الذي يفرضون إرادتهم ويصلون إلى الإعتراف بهم مزيج معيَّن يتَّسم على وجه التقريب بعمق مقداره ٥١٪ وضحالة مقدارها ٤٩٪ ويحظى بمعظم النجاح. وكان هذا يبدو لأولريش حتى منذ وقت بعيد عبثياً إلى حدٍّ معقّد وكئيباً إلى حدٍّ لا يطاق بحيث كان يسرّه أن يعود إلى إمعان النظر فيه.

وأفسد عليه ذلك أنَّ بوناديا كانت ماتزال لاتظهر علامة على فراغها ورأى وهو يستطلع ببصره محاذراً أنّها كانت قد توقَّفت عن ارتداء ثيابها وكان يُعرض لها الشرود عندما كان الأمر يتعلّق بالقطرات الأخيرة من متعة كأس الوصال وكانت تنتظر ما سوف يفعل في غير لياقة وقد أزعجها صمته. فقد تناولت كتاباً وكان من حسن الحظ أنّه كان يتضمَّن صوراً جميلة من تاريخ الفن.

وشعر أولريش حين عاد إلى تأمّلاته بتوفّز أعصابه من جرّاء هذا الإنتظار واعتراه ضرب غير معيّن من نفاد الصبر.

[٣٠]

أولْريش يسمع أصواتاً

وفجأة تجمّعت أفكاره ورأى وكأنّه ينظر من خلال شقٍّ طارىء إلى كريستيان موز بروجر النجار وقضاته.

وقال القاضي وكان ذلك مضحكاً إلى حدٍّ مزعج بالقياس إلى إنسان لا يفكِّر على هذا النحو: «لماذا مسحت يديك الملطختين بالدم؟ ـ ولماذا طرحت السكين جانباً؟ ـ ولماذا ارتديت بعد الفِعلة ملابس وثياباً داخلية نظيفة؟ ـ لأنّه كان يوم أحد؟ وليس لأنَّها كانت ملطخة بالدماء؟ ـ ولماذا ذهبت في المساء التالي إلى الحفلة الراقصة؟ إذاً فالفعلة لم تمنعك من فعل هذا؟ أو لم تشعر بندم على الإطلاق؟

وينبعث وميض في نفس موز بروجر: خبرة قديمة من السجن فلا بدّ للمرء أنَّ يتظاهر بالندم ويشوّه الوميض فم موز بروجر ويقول: «بلا ريب!».

وقال القاضي على الفور متشبِّثاً: «ولكنَّك قلت لدى الشرطة: أنا لا أشعر بندم بل أشعر بالكراهية والغضب إلى حدِّ البُرَحاء!».

ويقول موز بروجر وقد عاد إلى الحزم والنبل: «من الجائز أنني كنت في تلك الأيام لا أشعر بأحاسيس أخرى».

ويتدخّل المدعي العام قائلاً: «أنت رجل طويل قويّ فكيف أمكن أن تخاف من هيدفيج!».

twitter @baghdad_library

ويجيب موز بروجر مبتسماً: «لقد كانت قد تحوّلت إلى التزلُّف. وقد كنت أتصوَّرها أكثر قسوة إذ كنت في العادة أقدّر أمثال هاته النسوة ولا ريب أنني أبدو قوياً وإني لكذلك أيضاً».

ويغمغم الرئيس وهو يقلّب في الإضبارة قائلاً: «اذاً فما قولك الآن».

ويقول موز بروجر بصوت عالٍ: «ولكن في مواقف معيَّنة أكون خائفاً بل جباناً».

وتقفز عينا الرئيس من الإضبارة ومثلما يغادر طائران غصناً تغادران الجملة التي كانتا قد حطّتا عليها ويقول الرئيس: «ولكن في تلك الأيام عندما تشاجرت مع زملائك على السِقالة لم تكن جباناً على الإطلاق! فقد طوّحت بأحدهما إلى عمق طابقين وبادرت الآخرين بالسكين ذاته».

ويصيح موز بروجر بصوت خطير: «سيِّدي الرئيس مازلت حتى اليوم اتّخذ الموقف ذاته».

ويشير الرئيس إشارة الرفض

ويقول موز بروجر: «هذا باطل يجب أن يُتَّخذ هذا أساساً لهمجيّتي لقد واجهتُ المحكمة إنساناً بسيطاً وكنت أحسب أنَّ السادة القضاة سيحيطون علماً بكلّ شيء على أيَّة حال ولكنَّهم خيّبوا أملي!»

ويعود وجه القاضي إلى الإنغماس طويلاً في الاضبارة

ويبتسم المدعي العام ويقول بمودّة: «ولكن هيدُيج كانت بلا ريب فتاة لا تؤذي أحداً أبداً!».

ويردّ موز بروجر قائلاً وهو مايزال منفعلاً: «أمّا أنا فلم تكن تبدو لي هكذا!».

ويختم الرئيس قائلاً بنبرة التوكيد: «وأمّا أنا فيبدو لي أنّك تعرف دائماً كيف تلقي بالوزر على الآخرين!».

ويبدأ المدَّعي العام بمودّة من البداية قائلاً: «إذاً فلماذا انطلقت تطعنها؟».

twitter @baghdad_library

[٣١]

لمن تعطي الحق؟

وكان هذا من التحقيق الذي كان أولريش قد شهده أو من مجرّد التقارير التي كان قد قرأها؟ وكان يتذكَّر الآن تذكُّراً حياً وكأنّه يسمع هذه الأصوات. ولم يكن قد «سمع» قطُّ في حياته «أصواتاً» يا إلهي إنَّ هذا ما كان من شأنه. ولكنَّ عندما يسمعها المرء فإنَّ هذا ينزل عليه في هدوء كهدوء تساقط الثلج. وهنا تنتصب الجدران دفعة واحدة من الأرض حتى السماء وحيث كان هواءٌ فيما مضى يتقدَّم المرء عبر جدران غليظة وكلّ الأصوات التي وثبت في قفص الهواء من موضع إلى آخر تدخل الآن طليقة في الجدران البيض التي تنامت تنامياً مشتركاً يبلغ أعمق بواطنها.

وكان قد انتابه التوفّز المفرط حقاً من العمل والملل ثم يعرض أحياناً شيء من هذا القبيل غير أنّه لم يجد سماع الأصوات أمراً سيّئاً على الإطلاق. وفجأة قال لنفسه بصوت قليل الإِرتفاع: «إنَّ للمرء موطناً ثانياً لايكون فيه حرجٌ عليه من كلّ ما يفعله».

وكانت بوناديا تحبُك حبلاً في عُقَد وكانت في هذه الأثناء قد دخلت حجرته ولم يرق لها الحديث إذ وجدته مفتقراً إلى الرقة وأما اسم قاتل الفتاة الذي كان الناس قد قرأوا عنه كثيراً جداً في الصحف فكانت قد نسيته من جديد منذ عهد طويل وكان لا يقترب من ذاكرتها إلّا كارهاً حين شرع أولريش في الحديث عنه.

وقال بعد برهة: «ولكن إذا كان في وسع موز بروجر ان يحدث انطباع البراءة هذا الذي يبعث على الإضطراب فهذا أحرى أن تقدر عليه هذه المخلوقة المسكينة المشرّدة المرتعدة ذات العيون الصغيرة تحت نقاب الرأس هيدفيج هذه التي كانت تستجديه الإقامة في حجرته ومن أجل ذلك قُتِلَت».

وقالت بوناديا مقترحة وهي ترفع كتفيها البيضاوين: «دع عنك هذا!». ذلك لأنّ أولريش حين اتجه بالحديث هذه الوجهة كان ذلك قد حدث على وجه الخصوص في اللحظة المختارة اختياراً خبيثاً حيث كانت الثياب المرفوعة جزئياً لصديقته المتكدِّرة المتعطِّشة إلى المصالحة تشكِّل بعد أن دخلت الحجرة فوهة بركان الزبد الصغير الأسطوري الفاتن الذي تصعد منه أفروديت. ومن أجل ذلك كانت بوناديا على استعداد أن تشمئز من موز بروجر وتتعزّى عن ضحيته بتقزُّز عابر. ولكنَّ أولريش لم يسمح بهذا وصوَّر لها تصويراً قوياً المصير الذي كان يواجه موز بروجر قائلاً: «سوف يقوم رجلان بوضع الأنشوطة حول عنقه بدون أن يكنّا له مشاعر سيئة بأدنى مقدار بل لمجرّد أنّهم قبضوا الثمن لقاء ذلك. وربّما كان مائه من البشر سينظرون لأنّ هذا ما يقتضيه عملهم من ناحية ومن ناحية أخرى لأنّ كلّ امرىء يريد مسروراً أن يكون قد رأى مرّة في حياته إعداماً فثمة سيِّد له سمة احتفالية له قبعة اسطوانية في حلّة الفراك وبالقفازين الأسودين يشدّ الأنشوطة وفي اللحظة ذاتها يتعلَّق مساعداه بساقَيْ موز بروجر لكي ينكسر العنق ثم يضع السيِّد ذو القفازين الأسودين يده على قلب موز بروجر ويتحرّى بملامح الطبيب القلقة إمكان بقائه على قيد الحياة ذلك لأنّه إذا كان مايزال حيّاً فسيتكرّر هذا كلّه بقدر أقلّ من الصبر والاحتفاليّة مرّة أخرى». وسأل أولريش قائلاً: «هل أنت في الحقيقة مع موز بروجر أم ضده؟».

twitter @baghdad_library

وكانت بوناديا قد فقدت «مزاجها» ببطء وعلى نحو مؤلم كمن أوقظ في غير ميعاده وهكذا دأبت على تسمية نوبات خياناتها الزوجيّة. وكان عليه الآن أن يجلس بعد أن كانت يداها تمسكان به طوال برهة وهي متردّدة بالثياب الهابطة والمشدّ. ومثل كلّ امرأة في وضع مماثل كانت لها الثقة الوطيدة في نظام عام يبلغ من عدالته أنَّ المرء يستطيع أن يباشر شؤونه الخاصّة بدون أن يترتّب عليه التفكير فيه. أمّا إذا ذُكِّرت بالنقيض فكان يثبت لديها على وجه السرعة الانحياز المتعاطف مع موز بروجر الضحية مع استبعاد كلّ فكرة تتّصل بموز بروجر المذنب.

وقال أولريش: «فأنت اذاً في كلّ مرّة مع الضحية وضد الفِعْلة».

وأعربت بوناديا عن الشعور الطبيعي بأنّ مثل هذا الحديث غير لائق في مثل هذا الوضع.

وأجاب أولريش بدلاً من أن يعتذر على الفور قائلاً: «ولكن إذا كان حكمك يتجه ضد الفِعْلة بهذه المنطقيّة فكيف تريدين اذاً أن تبرّري خياناتك الزوجيّة يا بوناديا!».

وكانت صيغة الجمع على وجه الخصوص بعيدة عن اللطف! وأخلدت بوناديا إلى الصمت وقعدت وعليها سيماء الإزدراء في أحد المقاعد الطرية ذات المساند وجعلت تنظر عالياً وهي متكدّرة إلى الخط الفاصل بين الجدار وسقف الغرفة.

[٣٢]

قصَّة زوجة العمدة المنسيّة الفائقة الأهمّية

ليس من المستحسن أن يشعر المرء بصلة القربى بمجنون بيِّن الجنون ولم يكن أولريش يفعل هذا أيضاً. ولكنَّ لماذا ادعى أحد الخبراء أنَّ موز بروجر مجنون وادعى الآخر أنّه ليس كذلك؟ ومن أين أخذ المقرّرون الموضوعية المتألِّقة التي وصفوا بها عمل سكّينه؟ وبأيَّة خصائص أثار موز بروجر ذلك الإهتمام والشعور بالهَوْل الذي كان بالقياس إلى نصف المليونين من البشر الذين يقطنون هذه المدينة معادلاً على وجه التقريب لنزاع في الأسرة أو لخطبة مفسوخة فكان من الوجهة الشخصيّة مثيراً إلى حدٍّ غير عاديّ مستحوذاً على مجالات من النفس ساكنة في العادة بينما كانت حالته في مدن الأقاليم تعني مجرّد شيء جديد أقلّ شأناً وكانت في برلين أو بريسلا لا تعني بعدُ شيئاً على الإطلاق حيث كان يعرُض للناس من حين إلى آخر أمثال موز بروجر في أسرتهم الخاصة. وكانت هذه اللعبة الرهيبة للمجتمع بضحاياه تشغل أولريش. وكان يشعر بها مكررة في نفسه ولم تكن تختلج إرادة فيه لا من أجل تحرير موز بروجر ولا من أجل نجدة العدالة. وكان الشعور ينتفش مثل شعر قطة. وكان موز بروجر يمسُّه من خلال شيء مجهول مسّاً أكثر مباشرة مِمّا يفعل من خلال حياته الخاصّة التي كان يحياها. كان يستحوذ عليه مثل قصيدة مبهمة يكون كلّ شيء فيها مشوَّهاً بعض التشويه ومزحزحاً عن موضعه يكشف عن معنى يضطرم ممزّقاً في أعماق النفس.

twitter @baghdad_library

وقال معترضاً: «إنها رومانسية الرعب وكان يبدو له أنَّ الإعجاب بالمفزع أو غير المسموح به في صورة الأحلام أو أشكال العُصاب المباحة مناسب كلّ المناسبة لأهل عصر الطبقة الوسطى. وقال في نفسه «إمّا وإمّا! إمّا أن تروق لي وإمّا ألّا تروق! إمّا أن أدافع عنك بكلّ شناعتك المفزعة وإمّا أنَّ أصفع وجهي لأنَّني ألعب معك!». وأنَّ التحسُّر البارد أيضاً ولكنَّ بصورة مؤثرة كان واقعاً في مكانه حقاً وأنَّ قدراً كبيراً من الأمور كان يمكن عمله اليوم لاجتناب أمثال هذه الأحداث والأشكال لو أن المجتمع أراد أن يبذل مجرّد نصف المجهود الأخلاقي الذي يتطلّبه من أمثال هذه الضحايا ولكنَّ جانباً مختلفاً تماماً نجم عند ذلك أيضاً وكان من الممكن ملاحظة المسألة عنه وتصاعدت ذكريات غريبة لدى أولريش.

إنْ حكمنا على فعل لا يكون أبداً حكماً على ذلك الجانب من الفعل الذي يكافىء عليه الرب أو يعاقب عليه: وهذا ما قاله لوثر بدرجة كافية إلى حدٍّ غريب وكان ذلك فيما يبدو بتأثير صوفيّ كان على صداقة معه حيناً من الزمان. ولا ريب أنَّ مؤمنين آخرين كان في وسعهم أن يقولوا ذلك. وكانوا جميعاً لا أخلاقيِّين بالمعنى المدنيّ. وكانوا يفرّقون بين الخطايا وبين الروح التي يمكن أنَّ تظلّ غير ملوَّثة على الرغم من الخطايا وذلك على نحو مماثل تقريباً لتفريق مكيافيللي بين الغاية والوسيلة. وكان «القلب البشريّ قد استلب» منهم. وكان في المسيح أيضاً إنسان ظاهري وانسان باطنيّ وكان كلّ ما يفعله حيال الأشياء الخارجية إنمّا يفعله صادراً فيه عن الإنسان الظاهريّ. وكان الإنسان الباطني في أثناء ذلك في عزلة ثابتة» فيما يقول إيكهارت. وأنَّ أمثال هؤلاء القديسين والمؤمنين كانوا في النهاية على استعداد أن يبرّئوا حتى موز بروجر! ولا ريب أنَّ البشريّة قد تقدَّمت منذ ذلك الوقت ولكنَّ حتى إذا كانت سوف تقتل موز

بروجر فما يزال فيها ضعف يتمثّل في تبجيل أولئك الرجال الذين ربّما كانوا خليقين أن يبرئوه.

والآن عبرت في ذاكرة أولريش حملة تقدّمتها موجة من عدم الإرتياح. وكان نصّ هذه الجملة: «لقد كان في وسع روح السدوميّين أنَّ تتقدَّم في وسط الجمهور بدون أن يدروا بشيء وقد استقرت في عيونهم ابتسامة طفل شفافة. ذلك لأنّ كلّ شيء يتوقَّف على مبدأ غير مرئيّ» ولم يكن هذا يختلف كثيراً عن الجمل الأولى ولكنَّ كان ينضح في مبالغته الضئيلة برائحة الفساد الواهنة مع حلاوتها. ومثلما تبيّن فقد كان يرتبط بهذه الجملة حجرة غرفة فيها منشورات فرنسية صُفَّتْ على المناضد ولها ستائر من قضبان زجاجية معقودة بدلاً من الأبواب ـ وقد نشأ شعور في الصدر كما لو أنَّ يداً ولجت جثة دجاجة مفتوحة لتستخرج قلبها. ذلك لأنّ هذه الجملة أدلت بها ديوتيما لدى زيارته. وكانت ترجع فوق ذلك بعدُ إلى كاتب معاصر أحبّه أولريش في سنوات الصبا ولكنَّه تعلّم منذ ذلك الوقت أن يعدّه فيلسوف صالون والجمل من طراز هذه لها مذاق كمذاق الخبز الذي صبَّ عليه العطر بحيث لا يريد المرء أن تكون له علاقة بكلّ ذلك عقوداً من السنين.

ولكن مهما يكن من أمر النفور الذي استثير من جراء ذلك في نفس أولريش فقد كان يبدو له في هذه اللحظة أنَّ من الشائن حقاً أن يتجنّب طوال حياته العودة إلى الجمل الأخرى الجمل الحقيقية في تلك اللغة الحافلة بالأسرار. ذلك لأنّه كان ينطوي على فهم خصوصي مباشر لها بل الأحرى أن تُسمَّى أُلفة تتعدّى الفهم وكان ذلك بدون أن يقرّر اعتناقها تماماً. وكانت أمثال هذه الجمل التي كانت تخاطبه بصوت ينضح بالأخوة مع باطنيّة غامضة رقيقة تتعارض مع اللهجة الآمرة في اللغة الرياضيّة والعلميّة ولكنَّ بدون أن يستطيع المرء أن يقول أين تكمن ـ تقع كالجزر بين أشغاله بدون سياق وقلما يجري

twitter @baghdad_library

التماسها ولكنَّ إذا ما نظر إليها نظرة شاملة على قدر ما كان يعرفها بدا له أنَّ المرء كان يحسّ بسياقها كما لو أن هذه الجزر المنفصلة بعضها عن بعض قليلاً فحسب تمتدّ قبالة ساحل يستكنّ وراءها أو أنّها تمثّل بقايا قارة امّحت منذ عصور سحيقة. وكان يشعر بما هو رخيّ في البحر والضباب وسلاسل الجبال التي كانت غافية في الضوء الرماديّ المصفرّ. وتذكّر رحلة بحريّة صغيرة هرباً على طراز «أرحل وتعرّف على أفكار أخرى» وكان يعلم على وجه الدقة أيّة تجربة غريبة مسحورة على نحو مضحك قد أزاحت كلّ التجارب المماثلة الأخرى مرّة والى الأبد بفعل طاقته الرادعة. وظلّ قلب أبن العشرين حولاً يدقّ لحظة في صدره الذي كانت بشرته المكسوّة بالشعر قد ازدادت كثافة وخشونة مع السنين. وكان خفقان قلب إبن العشرين في صدره البالغ اثنين وثلاثين حولاً يبدو مثل القبلة اللا أخلاقية يمنحها فتى لرجل. ومع ذلك. فلم يتجنّب الذكرى هذه المرة. وكانت الذكرى الخاصّة بعاطفة خامدة كانت قد خامرته وهو في العشرين نحو امرأة كانت أكبر منه إلى حدّ بعيد من حيث السنوات ومن حيث درجة تمرُّسها بالأعمال المنزليّة.

وكان من الأمور ذات الدلالة أنّه لم يكن يتذكّر مظهرها إلّا على نحو غير دقيق. فكانت صورة ضوئية مقوّاة وذكرى الساعات التي كان فيها وحده وهو يفكّر فيها تحتلّان مكان الذكريات المباشرة الخاصّة بوجه هذه المرأة وثيابها وحركاتها وصوتها. وكان عالمها قد بات في هذه الأثناء يبلغ من الغرابة بالقياس إليه أنَّ التصريح بأنها كانت زوجة رائد كان يمتعه إلى حدّ لا يصدّق. وقال في نفسه «لا بدّ أنّها ستكون الآن قد سلخت وقتاً طويلاً وهي زوجة عقيد خارج الخدمة». وكان قد رُوِيَ في الكتيبة أنّها فنّانة متمرّسة فائقة البراعة في البيانو وأنّها لا تستعمل هذا أبداً على الملأ بناء على رغبة أسرتها وأصبح هذا فيما بعد مستحيلاً على أيّة حال من جرّاء زواجها. وكانت بالفعل تعزف على

البيانو في احتفالات الكتيبة عزفاً بالغ الجمال تحت بهاء أشعَّة شمس مُذهَّبة تذهيباً حسناً تطيف في شعاب النفس. وكان هيام أولريش بالحضور الحسيّ لهذه المرأة أقلَّ منذ البداية منه بمضمونها. وكان الملازم الذي كان يحمل اسمه في تلك الأيام غير خجول وكانت نظرته قد تمرَّست حتى بسقط المتاعِ النسائيّ لديها بل كانت قد استطلعت من لَدُنْ بعض النسوة الموقّرات الطريقَ المختلَس الذي يسهل طَرْقُه والذي يفضي إليها. غير أنَّ «الحبّ الكبير» كان بالقياس إلى هؤلاء الضباط أبناء العشرين شيئاً آخر إذا كانوا يحسّون بالحاجة إليه على وجه الإطلاق إذْ كان هذا مفهوماً من المفاهيم وكان يقع خارج مدى مشاريعهم وكان يبلغ من الفقر في مضمون الخبرة ويبلغ من أجل ذلك أيضاً من الفراغ ما لا يمكن أن تتّسم به إلّا المفاهيم الكبيرة كلّ الكبر. وحين آنس أولريش من نفسه أوّل مرّة في حياته إمكانية تطبيق هذا المفهوم لم يكن بدٌّ أن يحدث ذلك لهذا السبب أيضاً. ولم يكن من نصيب زوجة الرائد في هذا الصدد دور آخر سوى دور الباعث الأخير الذي يساعد العلّةَ على الانبثاق وأصيب أولريش بداء الحب. ولمّا كان داء الحبّ الحقيقي ليس نزوعاً إلى الامتلاك بل كان انجلاءً لطيفاً للعالم يتخلّى المرء من أجله طوعاً عن امتلاك المحبوب فقد فسَّر الملازم لزوجة الرائدِ العالم بطريقة بلغ من بُعدها عن المألوف ومثابرتها حداً لم تسمع به من قبل فكانت النجوم والبكتريات وبلزاك ونيتشه يدورون ويمورون مَوْراً في قُمْعٍ من الأفكار كانت تشعر أن قمته موجهة بوضوح متصاعد نحو فروق معيَّنة مجرّدة من اللياقة تبعاً لزيّ العصر في تلك الأيام كانت تفصل جسدها عن جسد الملازم وكان ينتابها الارتباك من جرّاء علاقة الحبّ هذه الملحّة بمسائل لم يسبق لها أن كانت لها قطُّ علاقة بالحبّ في نظرها حتى الآن. وفي نزهة على ظهور الخيل تركت يدها هنيهة لأولريش حين كانا يسيران بحذاء فرسيهما ولاحظت بفزع أنَّ يدها ظلَّت راقدة كالخائرة في يده. وفي الثانية التالية استعرت نار من معصميها إلى ركبتيها وعصف بَرْق

twitter @baghdad_library

بكلّا الآدميَّيْن حتى لقد أوشكا أن يسقطا على حافة الطريق التي أقبلا الآن ليقعدا على طُحْلُبِهِ ثم جعلا يتبادلان القبل في حرارة وشعرا آخر الأمر بالحرج لأنّ الحبّ بلغ من الكبر والبعد عن المألوف أنّه ما عاد يخطر ببالهما شيء آخر يتحدَّثان به أو يفعلانه سوى ما حجرت العادة عليه في أمثال هذه الضروب من العناق. على أنَّ الفرسين اللذين نفد صبرهما حرّرا العاشقين من هذا الوضع آخر الأمر.

وظلّ حبّ زوجة الرائد والملازم البالغ الحداثة قصيراً وغير واقعيّ في مساره الإجماليّ أيضاً. فكانت تتولّاهما الدهشة كليهما وكانا يضم أحدهما الآخر بضع مرات وكانا يشعران كلاهما أنَّ ثمة شيئاً ما ليس على ما يرام وأنّه ما كان لَيَدعَهما حينئذ يصل أحدهما إلى الآخر وصولاً جسديّاً في معانقاتهما حين يتخلصان من كلّ عوائق الثياب والأخلاق. وكانت زوجة الرائد تأبى أن ترفض عاطفة لم تكن تحسّ أنَّ لديها حكماً عليها ولكنَّ ضروباً من الملامة كانت تعنّفها في الخفاء بسبب زوجها ومن جرّاء فارق السن. وحين أبلغها أولريش ذات يوم بمبررات ملفَّقة تلفيقاً واهياً أنّه مضطر إلى أخذ إجازة طويلة تنفَّست زوجة الضابط الصعداء وسط دموعها ولكنّها لم تكن منذ تلك الأيام تنطوي على رغبة أخرى سوى أن تنأى بنفسها من جرّاء بعض الحبّ عن القرب من مصدر هذا الحبّ على نحو مستعجل وبعيداً قدر الإمكان وانطلق بعدها يضرب في الأرض خبط عشواء إلى أن وضع شاطىءٌ نهايةً للخط الحديديّ وترك من بعدُ قارباً ينقله إلى الجزيرة التالية التي رآها وهنا في مكان عارض غير معروف أقام في مسكن مؤقَّت وفي رعاية مؤقَّتة وكتب على الفور في الليلة الأولى إلى الحبيبة الرسالة الأولى من سلسلة من الرسائل الطويلة التي لم يرسلها أبداً.

وكان قد ضيّع فيما بعد هذه الرسائل المتّسمة بسكون الليل والتي كانت تملأ تفكيره في النهار أيضاً وكان هذا مصيرها أيضاً بلا ريب. وكان يكتب فيها في البداية بعدُ كثيراً عن حبّه وعن أفكار شتى مستلهمة منه ولكنّ سرعان ما كان هذا يزيحه المنظر الطبيعي على نحو مطرّد. وكانت الشمس تنهض به في الصباح من النوم وعندما يكون الصيادون على الماء والنساء والأطفال في منازلهم كان هو وحمارٌ يرتع في الأحراش والسفوح الصخرية بين كلا المربَعَيْن الصغيرين في الجزيرة يبدوان الكائنين الحيَّيْن الراقيين الوحيدين الموجودين على هذه الرقعة من الأرض المتقدّمة شأن المغامرة. وكان يصنَعُ صنيع رفيقه ويرتقي أحد النتوءات الصخرية المطلّة أو يرقد عند شاطىء الجزيرة بين مجتمع البحر والصخر والسماء وليس هذا القول من قبيل الإدعاء لأنّ فرق الحجم كان يتلاشى مثلما كان يتلاشى في النهاية أيضاً الفرق بين الفكر والطبيعة البهيميّة والطبيعة الميتة في مثل هذا الإجتماع وكان يتضاءل كلّ نوع من الفرق بين الأشياء. وإذا أردنا التعبير عن هذا برصانة كاملة فإنَّ هذه الفروق لن تتلاشى حقاً ولن تكون قد تضاءلت ولكنَّ الدلالة سقطت عنها و«ماعاد المرء خاضعاً بعدُ لضروب من الفصل متّصلة بالإنسانية» مثلما وصف ذلك على وجه الدقة المؤمنون بالله المتأثّرون بصوفيّة الحبّ الذين لم يكن الملازم الفارس الشاب يعرف عنهم أدنى المعرّفة في تلك الأيام. ولم يكن يتابع بذهنه أيضاً هذه الظواهر كما يجري الناس في العادة شأن الصيّاد الذي يقصّ أثر الوحش وراء أثر ملاحظة ويتعقّبونها بالفكر ـ بل إنّه لم يدركها الإدراك المجرّد بل كان يتمثّلها. وكان المنظر الطبيعي يستغرقه على الرغم من أنَّ هذا كان بالقدر ذاته كمن يُحْمَل من قِبَله حملاً لا سبيل إلى التعبير عنه. وعندما كان العالم يتجاوز عينيه كان معناه يطرقه من الداخل في أمواج لا صوت لها وكان قد تغلغل في قلب العالم وكان بعد ما بيّنه وبيِّن الحبيبة النائية في مثل بعده عن أقرب شجرة وكان الشعور الباطنيّ يربط الكائنات بدون مكان

twitter @baghdad_library

مثلما يستطيع كائنان في الحلم أن يعبّر أحدهما خلال الآخر بدون أن يختلطا ويغيّر كلّ علاقاتها غير أنَّ الحالة لم يكن يجمعها مع الحلم شيء مشترك فيما عدا ذلك. كان رائق الذهن ومفعماً بالأفكار الواضحة إلّا أنّه لم يكن يتحرَّك فيه شيء بموجب علّة وغاية ورغبة جسديّة بل كان كلّ شيء ينتشر في دوائر متجدِّدة أبداً كما لو أنَّ شعاعاً بغير نهاية سقط في حوض ماء. وكان هذا هو ما كان يصفه في رسائله ولا شيء سواه. كانت صورة متغيّرة كلّ التغيّر من صور الحياة ولم تكن موضوعة في بؤرة الإنتباه المألوف متحررة من الحِدّة ومرئيّة على هذا النحو بل كانت أقرب إلى التشتُّت وكان كلّ ما ينتمي إليها عائماً ولكنَّ يبدو أنّها كانت تعود إلى الأمتلاء من قبل مراكز أخرى باليقين والوضوح اللطيفين. ذلك لأنّ كلّ مسائل الحياة وأحداثها كانت تتّخذ رقّة وليونة وسكينة لا مثيل لها وفي الوقت نفسه دلالة متغيّرة تماماً. فإذا جرى مثلاً هنا جُعَلٌ ماراً على يد المفكّر لم يكن هذا اقتراب ومرور وابتعاد ولم يكن هذا جُعَلاً وانساناً بل كان على نحو لا يوصف قلبَ حدث مؤثّر بل ليس حتى حدثاً بل حالة على الرغم من أنّه كان يحدث. وبمعونة أمثال هذه التجارب الهادئة اكتسب كلّ ما يشكِّل الحياة العادية فيما عدا ذلك دلالة محيّرة حيثما كان لأولريش علاقة بذلك. وكذلك اتّخذ حبّه لزوجة الرائد في هذه الحالة على نحو سريع الصورة المحدَّدة له من قبل. وكان يحاول في بعض الأحيان ان يتصوّر.

[٣٣]

هجر بوناديا

وكانت بوناديا في هذه الأثناء قد تمدّدت على الأريكة على ظهرها إذْ لم تستطع أن تثابر على النظر تجاه سقف الغرفة وكان بطنها الأموميّ الرقيق يتنفّس في القماش الكتانيّ الرقيق الأبيض غير مضيَّق عليه بمشدّ ولا أحزمة وكانت تسمّي هذا الوضع: التأمّل. وخطر ببالها أنَّ زوجها ليس قاضياً فحسب بل صياداً أيضاً وأنّه يتحدَّث في بعض الأحيان وعيناه تبرقان عن كلّ فريسة يَتّبعها الوحش وبدا لها أنّه لا بدّ أن ينجم عن ذلك شيء ما سواء لصالح موز بروجر أم لصالح قضاته أيضاً. غير أنّها لم تكن ترغب من ناحية أخرى أن تعرّض زوجها للظلم من قِبَل عشيقها سوى ما كان في النقطة الواحدة الخاصّة بالحبّ وكان شعورها العائليّ يقتضي أن ترى إدارة البيت لائقة ومحترمة. وعلى هذا لم تنته إلى قرار. وبينما كان هذا التناقض يشيع الظلمة الباعثة على النعاس في أفقها مثل خطين من السحب متداخلين في غير تناسق كان أولريش يستمتع بحريّة التعلّق بأفكاره. على أنَّ هذا كان قد استغرق الآن وقتاً طويلاً إلى حدٍّ ما بالطبع. ولأنّ بوناديا لم يخطر ببالها شيء يمكن أن يحدث تحويلاً في المسألة فقد عاودها الحزن من جديد إذ أهانها أولريش بغير مبالاة وأخذ الوقت الذي تركه ينقضي بدون أن يصلح ذلك يجثم على صدرها مثيراً. «فأنت ترى إذاً أنني أقترف ظلماً حين أزورك؟» ووجهت هذا السؤال آخر الأمر على مهل وبنبرة توكيد حزينةً ولكنَّ مستجمعةً إرادة القتال.

twitter @baghdad_library

وأخلد أولريش إلى الصمت وهزّ كتفيه وكان ما عاد يعرف منذ وقت طويل عمَّ كانت تتحدَّث ولكنَّه وجد ان من غير الممكن أنَّ يحتملها في هذه اللحظة.

«أأنت مستعد حقاً لتوجيه اللوم إليّ من جرّاء هوانا؟»

وأجاب أولريش: «بكلّ سؤال من أمثال هذه الأسئلة يتعلّق من الأجوبة مثل ما يوجد من النحل في خليّة وإنَّ كلّ الفوضى النفسية للبشرية مع أسئلتها التي لم يُفرَغ منها أبداً لتتعلّق بكلّ واحد على حدة بطريقة باعثة على الإشمئزاز». ولم يكن بذلك يقول الآن بالطبع شيئاً آخر سوى ما كان فكَّر فيه بضع مرات في هذا اليوم ولكنَّ بوناديا ردّت الفوضى النفسيّة إلى نفسها ووجدت أنَّ هذا أكثر من أن يُحتَمل. وودّت لو تسدل الستائر من جديد لتقضي على هذا النزاع بمثل هذه الطريقة ولكنّها ودَّت بالقدر ذاته لو تُغْوِل من الألم. واعتقد أنّها فهمت من مرّة واحدة أنَّ أولريش قد سئم منها. وبفضل طبيعتها لم تكن حتى الآن قد فقدت معشوقيها أبداً بطريقة أخرى سوى ما يكون إذْ يضع المرء شيئاً في غير مكانه فتضلّ عنه عيناه حين ينجذب المرء نفسه إلى شيء جديد أو بتلك الطريقة الأخرى وهي أنّها كانت ترى نفسها تنفصل عنهم بمثل السرعة التي ترى بها شملها يلتئم بهم وذلك ما كان ينطوي مع كلّ الغيظ الشخصي على شيء من هيمنة قوّة عليا. ومن أجل ذلك كان شعورها الأوّل مع المقاومة الهادئة من قبل أولريش أنّها باتت مسلّة وأخجلها ووضعها المتَّسم بالعجز والعُهْر إذ كانت نصف متجرّدة وهي على أريكة عرضةً لكلّ الإهانات ونهضت دونما تفكير وتناولت ملابسها. ولكنَّ الحفيف والتسيّس في الأكمام الحريرية التي اندست فيها من جديد لم يحمل أولريش على الندم. وكان ألم العجز الواخز جاثماً فوق عيني بوناديا وكانت تعيد على نفسها القول: «إنه لفظّ ولقد أهانني عن قصد!» وقرّرت قائلة: «انه لا يبدي حراكاً!» ومع كلّ شريط كانت تعقده وكل خطّاف كانت تقفله كانت تزداد غوصاً في البئر ذات

القاع الأسود بثر ألم الهجران هذا الطفوليّ المنسيّ عهداً طويلاً. وكانت الظلمة تنتشر حواليها. وكان وجه أولريش يرى كما في الضوء الأخير وكان يفرض نفسه في مواجهة ظلمة الهمّ قاسياً فجاً. وسألت بوناديا نفسها: «يا إلهي كيف استطعت أن أحب هذا الوجه؟!». ولكنَّ جملة: «فقدته إلى الأبد!» بعثت في الوقت نفسه التشنّج في صدرها كلّه.

أمّا أولريش الذي أدرك قرارها عدم العودة إذْ حدثه به قلبه فلم يمنعه. وأما بوناديا فأصلحت شعرها ماسحة إياه بحركة قويّة أمام المرآة ثم وضعت القبعة وعقدت النقاب. والآن إذ استقر النقاب أمام الوجه انقضى كلّ شيء وكان هذا بالطبع مثل حكم بالإعدام أو مثلما ينطبق قفل حقيبة سفر على نحو خاطف وما عاد من حقه أن يقبّلها وما كان ينبغي له أن يشعر أنّه يفوّت الفرصة الأخيرة التي يجوز له ذلك فيها!

وكانت من أجل ذلك توشك أن ترتمي على عنقه من الرثاء له واذاً لنفَّست هنالك عن صدرها بالبكاء.

twitter @baghdad_library

[٣٤]

شعاع ساخن وجدران باردة

وحين صحب أولريش بوناديا وهي نازلة وعاد وحده من جديد ما عادت لديه رغبة في متابعة العمل فخرج إلى الشارع وهو يعتزم أن يبعث بساع معه بضعة سطور إلى فالتر وكلاريسا ويبلغهما بزيارته في المساء. وحين عبر الردهة الصغيرة لاحظ على الجدار قروناً متشعّبة لأيِّل كانت لها حركة مشابهة في ذاتها كتلك التي كانت لبوناديا وهي تعقد نقابها أمام المرآة إلّا أنّها لم تكن تبتسم لنفسها مستسلمة. ونظر حواليه متأمّلاً محيطه. كلّ هذه الخطوط البيضاوية والمتصالبة والمستقيمة وذات العنفوان المتوثّب والمضفورة التي تأتلف منها منشأة سكنيّة والتي كانت تتراكم حوله لم تكن طبيعة ولا ضرورة داخلية بل كانت مُثقَلة حتى في تفاصيلها بترف الباروك المفرط. وكان التيار والنبض الذي ينساب أبداً خلال كلّ الأشياء الخاصّة بمحيطنا قد توقّف لحظة من الزمان. وضحكت ضحكة صفراء وهي تقول: لست إلّا على سبيل المصادفة وأنا لا أبدو مختلفة اختلافاً جوهرياً عن وجه مصاب بداء الذئبة ولو أنّ امرءاً تأمّلني بدون حكم مسبق لأقرّ لي بالجمال. ولم يكن ثمة شيء كثير من ذلك على الإطلاق في الأساس إذ سقط طلاء سطحيّ وانحلّ إيحاء وانقطعت لمسة من لمسات العادة والتوقّع والتوتّر وتعرّض توازن جار خفيّ بين الشعور والعالم للإضطراب طوال ثانية وكلّ ما يشعر به المرء ويفعله يحدث على أيّ نحو من النواحي «في اتجاه الحياة» وتعدّ أدنى حركة خارج هذا الإتجاه صعبة أو مفزعة. ويعدّ هذا على وجه الدقة على هذاالنحو بمجرّد

أنَّ يسير المرء ببساطة مجرّد مسير: فالمرء يرفع نقطة الثقل ويدفع بها إلى الأمام ويدعها تسقط ولكنَّ شيئاً تافهاً في ذلك يتغيّر قليل من التهيّب من هذا الإستسلام للسقوط في المستقبل أو مجرّد الإندهاش من ذلك - واذا المرء ما عاد يستطيع الوقوف على قدميه! لا يجوز للمرء أن يمعن النظر في ذلك. وقد خطر ببال أولريش أنَّ كلّ اللحظات التي كانت تعني شيئاً حاسماً في حياته خلّفت شعوراً مماثلاً لهذا.

ولوَّح لحمّال وسلّمه كتابه وكانت الساعة الرابعة بعد الظهر تقريباً وقرّر أنَّ يقطع الطريق على قدميه ببطءٍ شديد. وكان اليوم الخريفيّ من أيام أواخر الربيع يبعث فيه السعادة. وكان الهواء متخمّراً وكان في وجوه البشر شيء من الزبد العائم. وكان يشعر بعد التوتر الرتيب لأفكاره في الأيام الأخيرة كأنه انتقل من سجن إلى حمّام لطيف. واجتهد في أن يسير سيراً يتَّسم بالأنس والمرونة. ففي الجسد المتمرّن رياضياً يكمن قدر من الإستعداد للحركة والقتال يجعله اليوم يبدو غير مستساغ مثل وجه ممثل كوميديّ عجوز مفعم بعواطف مُثّلت كثيراً وهي زائفة. وبالطريقة ذاتها أنَّ التطلّع إلى الحقيقة قد ملأ سريرته بأشكال من حركة الفكر وحلّلها إلى مجموعات من الأفكار حسنة التدريب بعضها إزاء بعض وأضفي عليها إذا أخذت بصرامة تعبيراً غير حقيقي وكوميديّاً يتقبّل كلّ شيء حتى الإخلاص ذاته في اللحظة التي يتحوّل فيها إلى عادة. وهكذا كان يفكّر أولريش. كان ينساب مثل موجة عبر أخواتها من الموجات إذا جاز للمرء أنَّ يعبّر على هذا النحو. ولماذا لا يجوز للمرء ذلك عندما يعود إنسان أجهد نفسه بالعمل وحده إلى المجتمع ويحسّ بسعادة الجريان في الإتجاه ذاتِه مثلَه!

وفي مثل هذه اللحظة قد لا يكون هناك شيء بعيد بُعْدَ التصوّر القائل أنَّ الحياة التي يحيَوْنها والتي تسير بهم لا تعني البشر كثيراً من الداخل. ومع ذلك

twitter @baghdad_library

فكل إنسان يعرف هذا مادام شاباً وكان أولريش يتذكّر كيف كان مثل هذا اليوم قد بدا له في هذه الشوارع قبل عقد أو عقد ونصف من السنين. عند ذلك كان كلّ شيء بالغ الروعة مرّة أخرى ومع ذلك فقد كان يتّضح تماماً في هذا التطلّع المتّسم بالغليان شعور داخليّ معذّب بالوجود في سجن شعور يبعث على الإضطراب فكلّ ما أقصد إلى الوصول اليه يصل اليّ. إنّه افتراض ملحّ بأن الأقوال الزائفة اللامبالية وغير ذات الأهمية من الوجهة الشخصيّة يتردّد صداها على نحو أقوى من الأقوال الأكثر أصالة والحقيقية. وكان يقال أنَّ هذا الجمال حسن تماماً ولكنَّ أهو جمالي؟ وهل تكون الحقيقة التي أتعرّف عليها حقيقتي؟ والأهداف والأصوات والواقع كلّ هذا المغري الذي يغري ويقود والذي يتبعه المرء والذي يهوي فيه: ـ أتراه هو الواقع الواقعيّ أم أنّه لا يتبيّن من هذا بعدُ أكثر من نسم تستقر غير قابلة للإمساك بها فوق الواقع المعروض؟! إنها التقسيمات وأشكال الحياة الجاهزة وما يتجلّى أثره باعثاً على عدم الثقة وما شابه ذلك هذا المثال المطروح قدوة من قبل الأجيال هذه اللغة الجاهزة لإلفة اللسان فحسب بل لغة الأحاسيس والمشاعر أيضاً وكان أولريش قد توقّف أمام كنيسة. أيّتها السماء العزيزة لو أنَّ عقليةٌ عملاقة كانت جالسة ههنا في الظلّ ولها بطن ضخم يتهدّل في غضون كالدرجات وهي تستند بظهرها إلى جدران المنازل وفي الأعالي في آلاف من الغضون وعلى التآليل والبثور مغيب الشمس على وجهها. أما كان في وسعه أن يجد هذا جميلاً بالقدر ذاته؟ أيّتها السماء لكم كان هذا جميلاً حقاً! أنَّ المرء لا يريد بحال من الأحوال أنَّ يتهرّب من مسألة أنّه دخل الحياة وعليه واجب الإعجاب بهذا ولكنَّ مثلما قلنا ما كان من غير الممكن أيضاً استحسان الأشكال العريضة المتدليّة بهدوء وتخريم الغضون في عقيلة جديرة بالإكبار بل يعدّ من الأبسط فحسب أن يقال انها عجوز وهذا الإنتقال من رؤية الشيخوخة إلى رؤية الجمال في العالم يكاد يكون مماثلاً لذلك الخاص بفكرة الشباب عن الأخلاق

الأعلى عند الكبار التي تظل نصّاً تعليمياً مضحكاً إلى أن يحوز المرء عليها بنفسه مرّة واحدة. ولم تكن إلّا ثواني وقفها أولريش أمام هذه الكنيسة ولكنّها تنامت في العمق واعتصرت قلبه بكلّ المقاومة الأصيلة التي ينطوي عليها المرء في الأصل وحيال هذاالعالم المتحوّل في صلابته إلى ملايين القناطير من الحجر وحيال هذا المنظر القمريّ المتجمّد من مناظر الشعور الذي وضع المرء فيه على غير إرادة منه.

ومن الممكن أنْ يكون مِمّا يعني نعمة ومساندة بالقياس إلى معظم البشر أنْ يعثروا على العالم جاهزاً حتى في بضعةٍ من الأشياء الصغيرة الشخصيّة ولا ينبغي أنْ يتطرَّق الشك بحال من الأحوال إلى أنَّ ما هو ثابت مستمرّ على وجه الإجمال لا يكون محافظاً فحسب بل يكون أيضاً الأساس لكلّ أوجه التقدّم والثورات على الرغم من أنّه لا بدّ من الحديث عن عدم ارتياح عميق تحدِّق به الظلال يحسن به في هذا الصدد البشر الذين يعيشون على مسؤوليتهم الخاصّة وتغلغل في أعماق أولريش بينما كان يتأمّل البناء المقدَّس بفهم كامل للدقة الهندسيّة بصورة حيّة على نحو مفاجىء. إنَّ المرء يستطيع أن يفترس البشر على نحو مماثل مماثلة دقيقة في سهولته لأنشاء أمثال هذه المعالم وإقامتها. فالمنازل إلى جانبها والقبة السماوية فوقها والتوافق الذي لا يُعبَّر عنه مطلقاً في كلّ الخطوط والفراغات التي كانت تستقبل النظر وتوجِّهه ومظهر الناس الذين كانوا يمرّون في الأسفل وتعبيرهم وكتبهم وأخلاقهم والأشجار في الشارع. . : هذا كلّه يكون أحياناً في مثل جمود الجدران الاسبانية وفي مثل صلابة الخاتم المنحوت في مطبعة ـ وهكذا فإنَّ المرء لا يستطيع أن يقول شيئاً آخر سوى أنّه كامل بل يبلغ من كماله وانتهائه أنَّ المرء يكون إلى جانبه ضباباً فائضاً عن الحاجة بل زفرة صغيرة مُرْسَلة لا يعبأ بها الله من بعد. وفي هذه اللحظة ودّ أن يكون رجلاً بلا صفات. غير أنَّ هذا لا يكون عند أيّ

twitter @baghdad_library

امرىء على الإطلاق عديم المشابهة بصورة كاملة. ولكنَّ في الأساس ما عاد يعرف إلّا قليل من الناس في سنوات منتصف العمر كيف رجعوا في الحقيقة إلى أنفسهم إلى ملاهيهم إلى نظراتهم إلى العالم إلى زوجاتهم وشخصيتهم ومهنتهم وألوان نجاحهم ولكنَّهم يشعرون أنّه ما كان من الممكن الآن تغيير الكثير بل يمكن إدعاء أنّهم خُدِعوا ذلك لأنّ المرء لا يستطيع في أيّ مكان أن يكتشف سبباً كافياً لمجيء كلّ شيء على طريق مستقيم على النحو الذي جاء به إذ كان من الممكن أيضاً أن يجيء على صورة أخرى. فلقد انطلقت الأحداث منهم أنفسهم على الأقلّ وكانت على الأغلب تتوقَّف على ظروف شتى على مزاج أناس مختلفين كلّ الاختلاف وعلى حياتهم وموتهم وكل ما في الأمر أنّها ابتدرتهم في ميعاد معيّن. ففي الصبا كانت الحياة تنبسط أمامهم وهي بعد صباح لا ينفد حافلةً من كلّ جهة بالإمكانات وباللاشيء واذا شيء يلوح في الظهيرة دفعة واحدة يحق له أن يدّعي الحقّ في أن يكون حياتهم ولا ريب أنَّ هذا على الإجمال مفاجىء كما لو أن إنساناً جلس هنا ذات يوم فجأة وكان امرؤٌ يراسله طوال عشرين عاماً وهو لا يعرفه وكان يتصوّره على صورة مختلفة كلّ الاختلاف. على أنَّ ماهو أكثر غرابة إلى حدٍّ بعيد أنَّ معظم البشر لا يلاحظون هذا البتّة إذ يتبنّون الرجل الذي جاءهم والذي انصبَّت حياته في حياتهم. وتبدو لهم تجاربه الآن على أنّها التعبير عن صفاتهم ومصيره فضلٌ لهم أو شقاؤهم. لقد حدث لهم شيء مثلما يحدث للورق قاتل الذباب مع الذبابة إذ يكون قد أمسك بها هنا من شعيرة وهناك في حركتها وأحاط بها شيئاً فشيئاً إلى أن رقدت مدفونة في غلاف صفيق لا يمثِّل صورتها الأصلية إلّا تمثيلاً بعيداً كلّ البعد. وهم لا يعودون يفكِّرون عندئذ بالصبا إلاه تفكيراً بعيداً عن الوضوح إذ يكونون قد انطوَوْا على شيء كالقوّة المضادّة وهذه القوّة الأخرى تضطرم وتتزّ فهي لا تريد أن تظل في أيّ مكان وتحدث عاصفة من حركات الهرب التي لا هدف لها فتهكّم الشباب ورفضه لما هو قائم واستعداد

الشباب لكلّ ما هو بطوليّ للتضحية بالنفس وللجريمة وجدُّه الناريّ وعدم مثابرته ـ كلّ هذا لا يعني شيئاً سوى تحرّكاته الهروبيّة. وفي الأساس فقد ظلّ الآن واقفاً من جديد وكان هذه المرة في ميدان تبيّن فيه بعض المنازل وتذكّر أشكال الصراع العلميّ والثورات الفكريّة التي كانت قد رافقت نشوءها وفكّر في أصدقاء صباه وكانوا جميعاً أصدقاء صباه سواء أكان يعرفهم شخصيّاً أم كان يعرفهم بالإِسم فحسب وسواء أكانوا في مثل سنة أم أكبر منه أولئك الذين أرادوا أنَّ يحقّقوا الثورات وأن يأتوا بالأشياء الجديدة والبشر الجدد وسواءٍ أكان ذلك هنا أم متناثراً في كلّ الأماكن التي كان قد عرفها. والآن كانت هذه المنازل قائمة كالعمّات الطيّبات ذوات القبّعات القديمة الزيّ في ضوء الساعة المتأخرة من بعد الظهيرة الذي أخذ يبهت في رقةٍ وعلى غير طائل البتة وهو في ذلك أقرب إلى كلّ شيء آخر منه إلى أن يكون مستثاراً. وكان الوضع يغري بالابتسام. ولكنَّ أولئك الذين خلّفوا هذه البقايا التي باتت متواضعة كانوا قد غدوا في هذه الأثناء أساتذة ومشاهير وأسماءً وشطراً معروفة من التطوّر التقدميّ المعروف وكانوا قد وصلوا على طريق يقصر بدرجة أكبر أو أصغر من الضباب إلى التجمّد ومن أجل ذلك سيتحدَّث التاريخ عنهم من حين إلى آخر بوصفِ قرنهم لهم ذات يوم: وهو أنّهم كانوا حاضرين. .

twitter @baghdad_library

[٣٥]

المدير ليو فيشِل ومبدأ السبب غير الكافي

وفي هذه اللحظة قاطع أولريش أحد معارفه إذ خاطبه فجأة وكان هذا قد اكتشف في اليوم ذاته في حقيبة أضابيره حين فتحها في الصباح قبل مغادرة المسكن في طيّة جانبية وقد بوغت على نحو مزعج منشوراً للكونت لاينزدورف كان قد لبث وقتاً طويلاً ناسياً أنَّ يجيب عنه لأنّ عقليته التجارية السليمة كانت عازفة عنه إلى الأعمال الوطنية التي كان منطلقها من الأوساط العليا. ولا ريب أنّه كان من جانبه قد قال في نفسه «إنها قضية مريبة». وما من شكّ في أنَّ ماكان أراد قوله على الملأ في هذا الصدد ما كان ينبغي أن يكون هذا ولكنَّ ذاكرته كانت قد مكرت به مكراً سيئاً على نحو ما تكون الذاكرة على كلّ حال إذ كانت تتوجّه نحو أوّل مهمة عاطفية غير رسميّة وتدع القضيّة تسقط مهملة بدلاً من ترقّب القرار المتأنيّ. ومن أجل ذلك ورد في الرسالة حين فتحها من جديد شيء كان بالقياس إليه مزعجاً إلى أقصى الحدود على الرغم من أنّه لم يلقِ إليه بالاً من قبل أبداً وكان في الحقيقة مجرّد تعبير وكانت كلمة صغيرة وردت في أكثر المواضع تبايناً من الرسالة ولكنَّ هذه الكلمة كلّفت الرجل المهيب الذي كانت حقيبته في يده بضع دقائق من التردد قبل استئناف المسير وكانت: الحق(٦).

---

(٦) كلمة (الحق) واردة هنا في موضع الصفة لا الإسم في مثلِ نحوِ قولنا: الدينُ الحقُّ والعدالةُ الحقّةُ. (المترجم)

وكان من حقّ أولريش أن يسمّي صديقه الأصغر سناً من الأيام السالفة المدير فيشِل - إذ كان هذا هو اسمه الدكتور ليوفيشل من مصرف لويد وكان في الحقيقة مجرّد وكيل بلقب مدير؛ وكان على صداقة حقّة مع ابنته جيردا لدى إقامته الأخيرة ولكنَّه لم يزرها منذ عودته الآن إلّا مرّة واحدة. وكان الدكتور فيشل يعرف حضرة الشريف رجلاً يدع ماله يعمل ويقفو بأساليبه خطى العصر بل إنّه «تعرَّف عليه» كما يقول تعبير رجال الأعمال في اللحظة التي كان فيها يدقق التدوينات في ذاكرته «على أنه» رجل ذو أهمّية كبيرة لأنّ مصرف لويد كان أحد تلك المؤسَّسات التي كان الكونت لاينزدورف يعهد إليها بمهماته الخاصّة بالأسواق المالية ومن أجل ذلك كان ليوفيشل لا يستطيع أن يتفهّم الإهمال الذي قابل به دعوة مؤثّرة كهذه كما كان شأن هذه التي دعا فيها حضرة الشريف حلقة مختارة من البشر لكي يكونوا مستعدِّين لعمل كبير ومشترك وكان هو نفسه قد أدخل في الحقيقة في هذه الحلقة بسبب ظروف خصوصيّة تماماً ستذكَّر فيما بعد وكان هذا كلّه هو السبب في أنّه وهو الذي كان قلّما يرى أولريش قد رمى بنفسه عليه وكان قد علم أنَّ لأولريش علاقة بالقضيّة وفوق ذلك «بطريقة بارزة» - وذلك ما كان يمثّل أحد الأشكال الخاصّة بتكوّن الشائعات غير المفهومة وغير النادرة مع ذلك والتي تمسّ ما هو صحيح قبل أن يكون صحيحاً بعدُ - وطرح عليه الآن مثل مسدس جيب المسائل الثلاث تلقاء صدره وهي ما كان يتصوّره في الحقيقة ضمن عبارات «حبّ الوطن الحقّ» و«التقدّم الحقّ» و«النمسا الحقّة».

أمّا هذا الذي أفزعه ذلك عن مزاجه واستأنف هذا المزاج مع ذلك فقد أجاب بالطريقة التي كان يتعامل بها دائماً مع فيشل: «الـ م. س. غ. ك».

«الـ؟» وكان المدير فيشل يتهجّى ذلك متابعاً ببراءة ولم يكن يفكّر هذه المرة في نكتة لأنّ أمثال هذه الاختصارات كانت تعرف عن اتحادات

twitter @baghdad_library

المنتجين والروابط الطليعيّة على الرغم من أنّها لم تكن بعدُ كثيرة في تلك الأيام شأنها اليوم وكانت توحي بالثقة ولكنَّه قال عندئذ مع ذلك: «لا تتندَّر من فضلك فأنا على عجل وعليّ أن أذهب لاجتماع».

وكرَّر أولريش قائلاً: «مبدأ السبب غير الكافي»! فأنت فيلسوف بلا ريب وستعلَّم ما يُفهَم من مبدأ السبب الكافي. والإنسان بنفسه وحده يصنع استثناء من ذلك ففي حياتنا الفعلية وأقصد بذلك حياتنا الشخصيّة وفي حياتنا التاريخية ـ العامة يحدث دائماً ما ليس له سبب وجيه».

وتردّد ليو فيشل هل ينبغي له أن يعارض أم لا وكان ليو فيشل مدير بنك لويد يسرّه أن يفلسف وما زال يوجد أمثال هؤلاء البشر في المهن العملية غير أنّه كان في عجلة من أمره بالفعل ولذلك ردّ قائلاً: «أنت لا تريد أنَّ تفهمني فأنا أعرف ما هو التقدّم وأعرف ما هي النمسا وأعرف على أغلب الظن أيضاً ما هو حبّ الوطن. ولكنَّ ربّما كنت لا أقدر على التصوّر الصحيح تماماً للماهيّة الحقّة لحب الوطن والماهية الحقة للنمسا والماهيّة الحقّة للتقدّم. وعن هذا أسألك!».

«خيراً فهل تعرف ما هو الأنزيم؛ أو ما هو العامل المساعد؟»

ورد ليوفيشل برفع يده نافياً فحسب.

«أنَّ هذا لا يسهم بشيء من الوجهة المادية ولكنَّه يضع الأحداث في مسارها ويجب عليك أنَّ تعرف من التاريخ أنّه لم يكن ثمة وجود للإيمان الحقّ والأخلاق الحقّة والفلسفة الحقّة أبداً ومع ذلك فقد قامت الحروب وألوان الهمجية والخبث التي نشبت من جرّائها بقلب صورة العالم على نحو رهيب».

وقال فيشل مغالياً في التوكيد وهو يحاول أن يمثّل دور المخلص: «مرة أخرى! اسمع ببساطة يجب عليّ الاشتغال بذلك في البورصة واني لأود حقاً

وبسرور أنَ أعرف المقاصد الحقيقية للكونت لاينزدورف إلى أيّ شيء قصد بهذه الإضافة «الحقّ»؟

وردّ أولريش جادّاً: «أقسم لك أنّه لا أنا ولا أيّ امرىء آخر يعرف ما هو الحقّ ولكنني أستطيع أنَ أؤكد لك أنّه يوشك أنَّ يتحقَّق!».

وقال المدير فيشل معلناً وهو ينطلق مسرعاً: «أنت امرؤٌ ساخر!» غير أنّه عاد أدراجه بعد الخطوة الأولى وكان قد تحسّن وقال: «لقد قلت لجيرالدا منذ وقت غير بعيد فحسّ أنّه من الممكن انك تصلح لأن تكون دبلوماسياً عظيماً وآمل أن تزورنا مرّة أخرى عمّا قريب».

twitter @baghdad_library

[٣٦]

بفضل المبدأ المذكور يصبح العمل الموازي ملموساً قبل أن يُعْرَف ما هو

وكان ليوفيشل مدير مصرف لويد يعتقد كما كان يفعل كلّ مدراء المصارف قبل الحرب بالتقدّم. وكان يعرف بالطبع بحكم كونه رجلاً بارعاً في اختصاصه أنَّ المرء لا يستطيع ان يخرج بقناعة يمكن له أنَّ يعوّل عليها هو نفسه إلّا حيث يكون راسخ العلم حقاً وعلى نحو بالغ الدقة ولا يسمح الانتشار الهائل لضروب النشاط بتكوُّنها في أيّ مكان آخر. ومن أجل ذلك لا يتوفَّر للبشر البارعين والمجدِّين خارج مجال اختصاصهم الأضيّق قناعة لا يضحون بها على الفور عندما يحسّون بضغط خارجيّ ضدَّها. وقد يستطيع المرء على وجه الخصوص أن يقول أنّهم يرون أنفسهم مرغمين بدافع الضمير على أن يسلكوا سلوكاً مغايراً لما يعتقدون. فقد كان المدير فيشل مثلاً لا يتصوّر شيئاً على الإطلاق من وراء عبارة حبّ الوطن الحقّ والنمسا الحقّة أمّا التقدّم الحقّ فقد كان يتوفّر لديه بالمقابل رأي شخصيّ فيه وكان هذا بلا ريب مختلفاً عن رأي الكونت لاينزدورف. ولما كان قد استهلكته قروض الرهن والأوراق المالية أو أيّة أعباء كانت عليه وكان يتمتَّع مرّة في كلّ أسبوع بجلسة في الأوبرا استجماماً وحيداً فقد كان يعتقد بتقدم المجموع الذي لم يكن له بدٌّ أن يكون مشابهاً على أيّ نحو من الأنحاء لصورة الرَيْعيّة المتقدِّمة لمصرفه. ولكنَّ عندما ادعى الكونت لاينزدورف أنّه يعرف هذا معرِّفة أفضل وأخذ يحدث أثره على ضمير ليوفيشل شعر هذا أنَّ المرء «لا يمكن أن يعرف أبداً» (سوى

بقروض الرهن والأوراق المالية) ولما كان المرء لا يعرف حقاً ولكنّه لا يريد أن يفوّت ذلك من ناحية أخرى فقد اعتزم ان يستفسر لدى مديره العام بصورة عابرة تماماً عمّا يراه في هذه المسألة.

ولكنّه حين فعل هذا كان المدير العام قد تحدّث في ذلك لأسباب مماثلة تماماً مع حاكم مصرف الدولة وبات في الصورة تماماً. ذلك لأنّ المدير العام لمصرف لويد لم يكن وحده الذي تلقّى دعوة من الكونت لاينزدورف بل تلقّاها أيضاً على نحو بديهيّ حاكم المصرف الأهلي وأنّ ليوفيشل الذي كان مجرّد رئيس قسم يدين بدعوته مطلقاً لمجرّد العلاقات العائلية لزوجته التي كانت تنتمي إلى الأرستقراطية العليا ولم تكن تنسى هذه الرابطة أبداً لا في علاقاتها الإجتماعية ولا في منازعاتها المنزليّة مع ليو. ولذلك كان يكتفي حين كان يتحدّث مع رؤسائه عن العمل الموازي بأن يهز برأسه على نحو له دلالته الواسعة ممّا كان يعني «قضية كبيرة» على أنّه كان من الممكن أن يعني أيضاً «قضية مشبوهة» ولم يكن من الممكن لهذا أن يلحق الأذى في أيَّة ظروف ولكنَّ كان من الممكن لكون القضيَّة مشبوهة أن يكون أكثر بعثاً للشرور عند فيشل بسبب زوجته.

ومع ذلك فقد كان فون ماير ـ باللو الحاكم الذي استُدعيَ من قبل المدير العام للتشاور ينطوي هو نفسه بصورة مؤقتة على أفضل انطباع فحينما تلقّى اشارة الكونت لاينزدورف تقدَّم من المرآة ـ وان لم يكن هذا من أجل ذلك بالطبع ـ وطالعه منها فوق حلّة الفراك وسلسلة الوسام الصغيرة الوجه الحسن التناسق لوزير مدنيّ كان مازال ماثلاً في أقصى الخلف من عينيه وكانت أصابعه تتدلى من يديه كالرايات في هدوء الريح كأَنْ لم تكن قطُّ مضطرة في الحياة إلى القيام بحركات الحساب السريعة التي يقوم بها موظَّف المصرف الصغير. وكان هذا الرأسماليّ الكبير ذو التربة اليروقراطية المفرطة الذي قلّما

twitter @baghdad_library

جمعته أمور مشتركة مع كلاب لعبة البورصة المتوحِّشة الهائمة على وجهها بحريّة يرى أمامه إمكانات غير محدَّدة ولكنّها متوازنة على نحو مستعذب وكان قد أتيح له بعدُ في المساء نفسه فرصة توطيد موقفه في هذا الفهم إذ كان يتحدَّث في نادي الصناعة مع الوزيرين السابقين فون هولتسكويف والبارون فيسنتسكي.

وكان هذان السيِّدان رجلين من أهل الإِطِّلاع نبيلين متحفِّظين في مركز ما من المراكز الرفيعة كانا قد نُحّيا فيه جانباً حين باتت الحكومة الانتقالية القصيرة الأمد التي كانا ينتميان إليها فائضة عن الحاجة وكانا رجلين قد أنفقا حياتهما في خدمة الدولة والتاج بدون أن ينزعا إلى الظهور إلّا حين كان سيّدهما الأعلى يأمرهما بذلك وكانا قد اطَّلعا على الإشاعة القائلة أنَّ العمل الكبير سيكتسب صفة خنجر حاد ضد ألمانيا. وكان ما يشكِّل قناعتهما قبل إخفاق مهمّتهما وبعده أنَّ الظواهر الباعثة على الأسى التي قد جعلت من الحياة السياسية المملكة المزدوجة بؤرة عدوى لأوروبا في تلك الأيام كانت معقدة إلى حدٍّ غير عاديّ. ولكنَّ مثلما كانا يشعران أنّهما ملتزمان أنَّ يعدّا هذه الصعوبات قابلة للحل حين صدر إليهما الأمر بذلك كانا يريدان الآن أيضاً أنَّ يعلنا أنّه ليس من المستبعد الوصول إلى شيء بالوسائل التي كان الكونت لاينزدورف يقترحها أيّ إنهما كانا يشعران أن «مَعْلَماً» من معالم الطريق و«تجلّياً متألقاً للحياة» و«ظهوراً قوياً نحو الخارج يحدث أثراً بنّاءً على الأحوال في الداخل أيضاً» يعدّ بمثابة رغباتٍ صيغت من قبل الكونت لاينزدورف صياغة يبلغ من إحكامِها أنَّ المرء لم يكن يستطيع أنَّ يتملّص منها كما لو كان المطلوب من كلّ من يريد الخير أن يقول أنّه حاضر.

وقد كان من الممكن على أيَّة حال أنْ يكون هولتسكويف وفيسنتسكي قد أحسّا بحكم كونهما من الرجال الذين يتمتَّعون بالمعرِّفة والخبرة في الشؤون

العامة ببعض الحرج إذ كان من حقهما أنَّ يفترضا إنهما مندوبان هما لأيٍّ دور كان في التطوّر اللاحق لهذا العمل. ولكنَّ من السهل على البشر في هذه الأرض أنَّ يكونوا نقّاداً وأن يرفضوا شيئاً لايلائمهم. ومع ذلك فعندما يجد المرء نفسه في زورق حياته على ارتفاع ثلاثة آلاف متر فإنه لايخرج منه حتى وأن لم يكن يقرّ كلّ شيء. ولما كان المرء في هذه الأوساط موالياً حقَّ الموالاة وكان على النقيض من زحمة الحياة المدنيّة المذكورة من مثل لا يسرّه أنَّ يسلك سلوكاً مغايراً لتفكيره فقد كان عليه في كثير من الحالات أنَّ يقع بألّا يطيل التفكير في قضية من جرّاء تصريحات كلا السيّدَيْن. ولئن كان يميل بشخصه ومن جرَّاء مهنته إلى درجة من الحذر فقد وصل ما سُمِع من ذلك إلى قرار بأنَّ المسألة تتَّصل بشأنٍ سيشهد المرء تطوّره اللاحق ـ سواء أكان ذلك في كلّ حال أم كان بالتربُّص والانتظار.

وفي هذه الأثناء كان العمل الموازي مايزال في تلك الأيام غير قائم على الإطلاق. وكان لا يعرف بعدُ حتى الكونت لاينزدورف فيمَ سيوجد. وكما يمكن أن يقال على وجه اليقين كان الأمر الوحيد المؤكَّد الذي كان قد خطر بباله حتى ذلك التاريخ سلسلة من الأسماء.

ولكن هذا أيضاً كثير إلى حدٍّ غير عاديّ إذ كان يوجد هكذا في التاريخ وبدون أن يحتاج أيّ امرىءٍ إلى أن يتوفّر لديه تصوُّر موضوعي شبكة من الإِستعداد تحيط بمجموعة كبيرة من العلاقات ولا يجوز للمرء أن يزعم أنَّ هذا هوالتسلسل الصحيح إذ كان يجب اختراع السكين والشوكة أوّلاً ثم تعلّمت البشريّة الأكل على نحو لائق كما كان الكونت لاينزدورف يشرح ذلك.

twitter @baghdad_library

[٣٧]

كاتب سياسيّ يسبّب للكونت لاينزدورف باختراع «العام النمساوي» متاعب كبيرة

الشريف يطلب أولريش طلباً ملحّاً

وكان الكونت لاينزدورف قد أرسل إلى كثير من الجهات دعوات كان يقصد من ورائها أن «تبعث الفكرة» غير أنّه ما كان ليحرز تقدّماً بمثل هذه السرعة لولا أنَّ ناشراً ذا نفوذ كان قد بلغه أنَّ ثمة شيئاً يحوم في الأفق نشر على وجه السرعة في صحيفته مقالتين كبيرتين نسب فيهما كلَّ ما كان في طور الإعداد إلى مبادرة منه ولم يكن يعرف الكثير - وأنّى له أن يعرف ذلك؟ - ولكنَّ الناس لم يكونوا يلقون بالاً إلى ذلك بل إنَّ هذا على وجه الخصوص كان هو الذي أعطى لمقالتيه إمكانية التأثير الجارف وكان في الحقيقة مخترع التصوّر الخاص بـ «السنة النمساوية» التي ملأ بها أعمدته بدون أنَّ يستطيع هو نفسه أنَّ يقول ما الذي كان يقصد بها ولكنَّ بجمَلٍ جديدة على الدوام بحيث ارتبطت هذه الكلمة بكلمات أخرى كما يجري في حلم وتبدّلت وأحدثت حماسة هائلة. وأصيب الكونت لاينزدورف أوّل الأمر بالفزع ولكنَّ بغير حق. وفي وسع المرء أن يقرّر من خلال كلمة السنة النمساوية ما تعنيه العبقرية البشريّة لأنّ هذه الكلمة اخترعتها الغريزة السليمة فكانت تُدَوّي بها انفعالات كانت خليقة أنَّ تظل ساكنة في حالة تصوُّر قرن نمساويّ على حين كانت الدعوة إلى إقامة مثل هذا خليقة أنْ تعدّ لدى العقلاء من البشر خاطرة لا يأخذها أحد مأخذ الجدّ. أمّا لماذا كان هذا على هذا النحو فمن العسير أن يقال ذلك.

وربّما كان انعدامٌ معيّن للدِّقة ومقدرةٌ على التشبيه إذ يكون المرء أقلَّ تفكيراً في الواقع منه بما عداه لايجنّحان شعور الكونت لاينزدورف وحده ذلك لأنّ انعدام الدقة له طاقة رافعة ومضخّمة.

ويبدو أنَّ إنسان الواقع الطيّب العمليّ لا يحبّ الواقع في أيّ مكان حبّاً كاملاً ويأخذ الجدّ. فإذا كان طفلاً زحف تحت الطاولة متّخذاً من حجرة الوالدين حين لا يكونان في البيت حجرة للمغامرات بهذه الحيلة العبقرية البسيطة واذا كان غلاماً تاقت نفسه إلى الساعة واذا كان فتىً تاقت نفسه بالساعة الذهبية إلى المرأة التي تلائمها واذا كان رجلاً تاقت نفسه بالساعة والمرأة إلى المركز الرفيع. وحين يكون قد حقّق بسعادة هذه الدائرة من الرغبات وبات يتأرجح فيها بهدوء كالنوّاس يبدو مخزونه من الرغبات غير المحقّقة كأنه لم يتناقص في شيء مع ذلك. ذلك لأنّه إذا أراد أن ينهض استعمل تشبيهاً فإذا كان الثلج غير مستعذَب عنه في بعض الأحيان على ما يبدو شبّه بنهود النساء المتألّقة ولا يكاد نهدا زوجته يأخذان في إمْلالِه حتى يشبههما بالثلج المتألّق. وإنّه لخليق أنْ يتولّاه الفزع إذا ما أسفرت شفتاها ذات يوم عن منقار حمامة قرنيّ أو قطع من المرجان مطعَّمة غير أنَّ هذا يثيره من الوجهة الشاعريّة وهو مستعدّ أن يضع كلّ شيء قبالة كلّ شيء: الثلة أمام البشرة والبشرة أمام الأزهار والأزهار أمام السُكّر والسكر أمام المسحوق والمسحوق مرّة أخرى أمام نُدَف الثلج ـ ذلك لأنّ مايهمّه على ما يبدو إنما هو مجرّد وضع شيء مقابل شيء لا يكونُه مِمّا يعدّ بلا ريب برهاناً على أنّه لا يطيق المُكْث طويلاً في أيّ مكان يوجد فيه. ولكنَّ لم يكن هناك في النهاية كاكانيٌّ حقيقي يطيق ذلك في سريرته. فلَوْ طولِبَ الآن بقرنٍ نمساويّ لبدا له هذا مثل عقوبة جهنميّة يفترض فيه أن يفرضها على نفسه وعلى العالم بجهد طوعيّ مضحك. على أنَّ العام النمساوي كان شيئاً مناقضاً لذلك تماماً. إذ كان هذا يعني اننا

twitter @baghdad_library

نريد أن نبيّن ذات مرّة ما يمكننا أنَّ نكونه في الحقيقة ولكنَّ إلى إشعار معاكس إنْ صحّ التعبير وعلى مدى عام واحد على أقصى الحدود. وقد كان في وسع المرء أن يتصوّر ما يشاء ضمن هذا الإطار على أنَّ ذلك لم يكن إلى الأبد ثم أنّه كان يمسّ شغاف القلب على نحو لم يكن المرء يعرفه. وكان هذا يجعل حبّ الوطن المتناهي في عمقه حيّاً.

وهكذا حدث أن أحرز الكونت لاينزدورف نجاحاً لم يكن مقدَّراً. أجل لقد كان هو أيضاً قد تلقّى فكَّرته في الأصل في صورة مثل هذا التشبيه ولكنَّ كانت قد خطرت بباله فضلاً عن ذلك سلسلة من الأسماء وكانت طبيعته الأخلاقية تتجاوز بطموحها حالة التردّد وكان يملك تصوّراً راسخاً حيال مسألة أنّه يجب توجيه خيال الشعب أو كما قال الآن لصحفيّ موالٍ له خيال الجمهور إلى هدف يكون واضحاً سليماًمعقولاً متوافقاً مع الأهداف الحقّة للبشرية والوطن. ودوَّن هذا الصحفيّ هذا على الفور إذ حَفَزَه نجاح رفيقه في المهنة ولما كان يتفوَّق على سلفه في أنّه يعرف ذلك من «مصدر موثوق» فقد كان من قبيل فنّ مهنته ان يعتمد بحروف كبيرة على هذه «المعلومات المستقاة من الدوائر ذات النفوذ». وكان هذا على وجه الخصوص هو ما توقّعه منه الكونت لاينزدورف ذلك لأنّ حضرة الشريف كان يعلّق قيمة كبرى على أنّه ليس ايديولوجياً بل سياسياً واقعيّاً خبيراً. وكان يريد أن يُعرَف أنَّ هناك خط دقيق فاصل بين العام النمساويّ الخاص بدماغ عبقريّ من أرباب القلم وبين حذر الدوائر المسؤولة. ذلك لأنّ ما هو حقّ يَلزمنا لم يكن يراه رجل مثله فحسب بل كان أناس آخرون لا يُحصَوْن عدداً يزعمون امتلاكه. ويستطيع المرء أن يشير إلى هذا خاصّةً على أنّه صورة مشدَّدة من الحالة الآنفة الذكر التي يقوم فيها المرء بالتشبيهات ففي أيّ وقت كان من الأوقات تتلاشى الرغبة عندهم أيضاً وكثير من الناس الذين يتخّلف لديهم عندئذ مخزون من الأحلام غير

المشبَعة يهيّؤون لأنفسهم عندئذ نقطة يحملقون فيها في الخفاء كأنْ لا بدّ أن يبدأ هناك عالم ظلّ الناس مدينين به تجاههم وخلال أقصر الأوقات وبعد أن أرسل الشريف خبره الصحفيّ اعتقد أنّه لاحظ أنَّ كلّ البشر الذي لا يملكون مالاً يحملون من أجل ذلك مذهباً مزعجاً من غلاة المذهبيِّين في نفوسهم. وهذا الإنسان العنيد في داخل الإنسان يصحبه في الصباح إلى المكتب ولا يقرّر مطلقاً بأية طريقة فعّالة على أن يحتجّ على مسيرة العالم غير أنّه لا يحوّل عينيه بعدُ بدلاً من ذلك طوال حياته عن نقطة خفيّة لا يريد امرؤٌ آخر أن يلاحظها على الرغم من أنَّ كلّ شقاء العالم الذي لايعرف منقذه يبدأ هناك كما يبدو بلا ريب. وهذه النقاط الثابتة التي يتطابق فيها مركز توازن شخصيّة ما مع مركز توازن العالم تعدّ على سبيل المثال مَبْصَقَةً يمكن إغلاقها بقبضة بسيطة أو إلغاء عنابر الملح في المطاعم حيث يغرس القوم السكين فيها إذ يمكن بذلك وقف انتشار السل الذي ابتليت به البشريّة بضربة واحدة أو إدخال نظام أوّل في الاختزال الذي يحلّ عن طريق توفيره الذي لا مثيل له في الوقت المسألة الإجتماعية أيضاً في الوقت نفسه أو الرجوع إلى طريقة في الحياة موافقة للطبيعة تضع حداً للدمار السائد ولكنّها في الوقت نفسه نظريّة في علم النفس التأمّلي تتَّصل بحركات الأجرام السماوية وتبسيط جهاز الإدارة واصلاح للحياة الجنسية. فإذا طابت ظروف الإنسان أسعف نفسه بأن يؤلِّف ذات يوم حول نقطته كتاباً أو كتيّباً أو يكتب على الأقل مقالة صحفية كأنّما يقدّم بذلك بين يدي اجتجاجه محضراً ضمن أضابير البشريّة وذلك ما يبعث الإضطراب إلى حدٍّ هائل حتى وإن لم يقرأه أحد غير أنّه يغري في العادة بعض الناس الذين يؤكّدون للكاتب أنّه كوبرنيك جديد إذ يصوِّرون أنفسهم تبعاً لذلك على أنّهم نظراء لنيوتن غير مفهومين. وهذه العادة عادة التماس الناس النقاط بعضهم لبعض بصورة متبادلة تفضي إلى الإرتياح البالغ وهي واسعة الانتشار غير ان مفعولها غير دائم لأنّ الفرقاء يتشاجرون بعد حين ويظلّون وحدهم

twitter @baghdad_library

تماماً من جديد. ومع ذلك فقد كان الكونت لاينزدورف قد تصوَّر أنَّ عمله ينبغي أنَّ يكون تجلّياً مفعماً بالقوّة نابعاً من صفوف الشعب ذاته. وكان يفكّر في هذا الصدد في الجامعة وفي رجال الدين وفي بعض الأسماء التي لا تفتقد أبداً في الأخبار حول المنظمات الخيريّة بل في الصحف ذاتها وكان يحسب حساباً للأحزاب الوطنية و«لروح الطبقة الوسطى السليمة» التي تنشر الرايات في عيد ميلاد الإمبراطور ولمعونة كبار رجال المال بل كان يدخل في حسبانه السياسة أيضاً إذ كان يأمل في الخفاء أن يجعل منهم على وجه الخصوص فائضين عن الحاجة بعمله الكبير بأن يجمع بينهم على كلمة الوطن التي كان ينوي فيما بعد أن يقسّمها إلى الإقليم ليحتفظ بالحكام الأبوّيين بقيّةً وحيدة غير أنَّ شيئاً واحداً لم يفكّر فيه الشريف على أيَّة حال وقد بوغت من قبل الحاجة الواسعة الانتشار إلى اصلاح العالم تلك الحاجة التي تنضجها حرارة فرصة كبرى كبيوض الحشرات عند الحريق ولم يكن الشريف قد أدخل ذلك في حسبانه وكان قد توقَّع قدراً كبيراً جداً من الوطنيّة غير أنّه لم يكن على استعداد للاختراعات والنظريات وأنظمة العالم والبشر الذين كانوا يلتمسون منه الانقاذ من السجون الفكريّة. وكانوا يحاصرون قصره ويمتدّحون العمل الموازي على أنّه إمكانية لإعانة الحقيقة على الانبثاق آخر الأمر ولم يكن الكونت لاينزدورف يعرف ما ينبغي له أن يصنع معهم. وبالنظر إلى وعيه لمركزه الإجتماعي لم يكن في وسعه مع ذلك أنَّ يجالس كلّ هؤلاء البشر على طاولة واحدة غير أنّه لم يكن يريد بحكم كونه رجلاً مفعماً بالأخلاقية الحماسية أنَّ يتهرّب منهم ولما كانت ثقافته سياسية وفلسفية ولم تكن تتَّسم مطلقاً بسمة العلوم الطبيعية والتقنيّة فإنه لم يكن يعرف بطريقة من الطرق أن يوجد في هذه المقترحات شيء من الفائدة أم لا.

وفي هذا الوضع كان شوقه إلى أولريش يزداد حدة على نحو مطّرد إذ كان على وجه الخصوص الرجلَ الذي وصف له والذي كان خليقاً أن يحتاج إليه لأنّ أمين سره أو أيّ أمين سرّ عاديّ على الإطلاق لم يكن بالطبع أهلاً لأمثال هذه المتطلّبات بل أنّه صلّى ذات مرّة حين تولّاه الغيظ الشديد من موظّفيه للّه - على الرغم من أنّه استحيا من ذلك في اليوم التالي - لكي يأتي أولريش إليه أخيراً. وحين لم يحدث هذا بادر الشريف نفسه إلى البحث عنه بحثاً منهجيّاً فطلب البحث في سجلّ العناوين ولكنَّ أولريش لم يكن وارداً فيه بعد فتوجَّه بعدها إلى صديقته ديوتيما التي كانت في العادة من أهل النصيحة وكانت تلك الجديرة بالإعجاب قد تحدَّثت بالفعل إلى أولريش أيضاً ولكنّها نسيت أن تطلب بيان مسكنه أو تذرّعت بهذا إذ أرادت أن تنتهزّ الفرصة لتعرض على الشريف اقتراحاً جديداً وأفضل كثيراً من أجل وظيفة أمين السر في العمل الكبير ولكنَّ الكونت لاينزدورف اغتاظ غيظاً شديداً وأعلن بأشد النبرات توكيداً أنّه بات يألف أولريش وأنّه لا يمكن أن يحتاج إلى بروسيّ ولا إلى بروسيّ إصلاحيّ وانّه لا يريد مطلقاً أن يسمع بعدُ شيئاً عن مزيد من المضاعفات وتولّاه الارتباك حين أظهرت صديقته بعد ذلك استياءها وانتابته من جرّاء ذلك خاطرة مستقلّة فأعلن لها أنّه سينطلق الآن إلى صديقه رئيس الشرطة الذي يترتّب عليه في النهاية أن يستخرج بلا ريب عنوان كلّ مواطن في الدولة.

twitter @baghdad_library

[٣٨]

كلاريسّا وشياطينها

وحين وصلت رسالة أولريش كان فالتر وكلاريسا يعزفان من جديد على البيانو عزفاً بلغ من شدّته أنَّ موبيليا الصناعة الفنِّية ذات السيقان الدقيقة كانت ترقص وكانت الصور المنقوشة على اللوحات المعدنية لدانتي جابرييل روسيتي ترتجف على الجدران. أما الخادم الذي وجد البيت والمسكن مفتوحاً بدون أن يُوقَف فقد ضربه البرق والرعد في وجهه حين بلغ الحجرة وحمله الصخب المقدَّس الذي دخل فيه على الالتصاق بالجدار خاشعاً. وكانت كلاريسّا هي التي أفرغت شحنة الانفعال الموسيقي التي كانت تواصل زحفها آخر الأمر في ضربتين شديدتين وحرّرتها. وبينما كانت تقرأ الرسالة كان الدَفْق المنقطع مايزال يتلوّى وهو ينفلت من يدي فالتر وسرى لحنٌ يرتعش كاللقلق ثم نشر جناحيه. ولاحظت كلاريسا هذا سيئةَ الظن بينما كانت تحلّ عُقَد أولريش.

وحين أعلنت إليه قدوم الصديق قال فالتر: «واأسفاه!».

وقعدت إلى جانبه من جديد على مقعد البيانو الصغير الدوّار وانفرجت شفتاها اللتان كانتا تبدوان شهوانيتين عن ابتسامة أحسّ فالتر أنّها قاسية لسبب ما. وكانت هذه هي اللحظة التي يحجز فيها العازفون دمهم ليستطيعوا أن يطلقوا عقاله بإيقاع واحد وكانت محاور عيونهم تنتصب بارزة من رأسيهما كأعواد أربعة طويلة موجهة في الإتجاه ذاته بينما كانا يتشبّثان وهما متوتران بالمقعد الصغير من قرص القعود الذي كان ما يفتأ يتأرجح فوق العنق الطويل

لبزاله الخشبيّ. وفي اللحظة التالية كان كلاريسا وفالتر قد انطلقا مثل قاطرتين تمرقان كالسهم إحداهما إلى جانب الأخرى. وكانت القطعة التي عزفانها تطير نحو عيونهما كالخطوط الحديدية الملتمعة كالبرق وتتلاشى في الآلة الهادرة وتتخلّف وراءهما منظراً طبيعياً صادحاً مسموعاً يظلّ حاضراً بطريقة رائعة وخلال هذه الرحلة الخاطفة اندمج شعور كلا هذين الإنسانين منضغطاً في شعور واحد وبات السمع والدم والعضلات بغير ارادة وقد جرفتهما التجربة ذاتها وكانت جدران من الألحان برّاقة حانية متثنّية تدفع جسديهما إلى المسار ذاته وتدفعهما إلى الانحناء معاً وتوسّع صدريهما وتضيّقهما في زَفْرة واحدة. وفي بضعة من الثانية كان المرح والكآبة والغضب والخوف والحبّ والكراهية والرغبة والسأم تخترق فالتر وكلاريسا في طيرانهما. كان تَوَحُّداً مماثلاً للتوحُّد في فزع كبير حيث يقوم مئات من البشر الذين كانوا منذ هنيهة مختلفين بعدُ في كلّ شيء بحركات الهرب المتماثلة كحركات التجديف ويطلقون الصرخات غير ذات المعنى ذاتها ويفتحون أفواههم وعيونهم بقوة بالطريقة ذاتها وتخترقهم معاً قوّة لاهدف لها جيئة وذهاباً يميناً وشمالاً ويزمجرون ويختلجون ويضطربون ويرتعشون ولكنَّ لم يكن في هذا القوّة الطاغية المتبلّدة ذاتها كما تنطوي عليها الحياة حيث لا يكون من اليسير أن يحدث هذا ولكنَّ في مقابل ذلك ينطفىء أوار كلّ شيء شخصيّ بغير مقاومة. ولم يكن الغضب والحب والسعادة والمرح والكآبة التي عاشها كلاريسا وفالتر في تحليقهما مشاعر كاملة بل لم تكن أكثر كثيراً من أغلفة جسدية منا مستثارة من أجل الجنون. كانا يجلسان منتصّبين في حالة غيبوبة على مقعديهما الصغيرين وكانا غاضبين هائمين حزينين على لا شيء وفي لا شيء ومن لا شيء أو كان كلّ منهما غاضباً على شيء آخر وهائماً في شيء آخر ومحزوناً من شيء آخر وكانا يفكّران في أمور مختلفة ويذهب كلّ منهما مذهبه. وكان

twitter @baghdad_library

سلطان الموسيقى يوحدهما على الذروة من العاطفة المحتدمة تاركاً لهما في الوقت نفسه شيئاً غائباً كما في النوم القسريّ نوم التنويم المغناطيسي.

وكان كلٌّ من هذين الإنسانين يحسّ بذلك على طريقته. كان فالتر سعيداً منفعلاً مثلما كان شأن معظم أهل الموسيقى إذ يقومون بهذه الأشكال من الغليان المضطرم والحركات الوجدانية المتَّصلة بالباطن أيّ أنّهم يصنعون أرضية النفس الجسديّة المستثارة استثارة غائمة من أجل لغة الخلود البسيطة التي تربط بين البشر جميعاً. وكان يخلبه أن يشدّ كلاريسا إليه بالذراع القويَّة للشعور الأول. وكان في هذا اليوم قد جاء إلى البيت من مكتبه في وقت أكثر بكوراً مِمّا اعتاد. وكان عليه أن يعمل في تصنيف الأعمال الفنِّية وقد جاء إلى البيت من مكتبه في وقت أكثر بكوراً مِمّا اعتاد. وكان عليه ان يعمل في تصنيف الأعمال الفنِّية التي كانت ماتزال تحمل صورة العصور الكبرى الكاملة وكانت تفيض بقوة ارادة حافلة بالأسرار. وكانت كلاريسا قد لقيته لقاء المودّة وكانت الآن قد ارتبطت به برباط وثيق في عالم الموسيقى الهائل. وكان كلّ شيء في هذا اليوم ينطوي في ذاته على نجاح خفيّ على زحف صامت كما لو كانت الآلهة على الطريق. وقال فالتر في نفسه: «ترى هل يكون هذا اليوم هواليوم؟» إذ أنّه لم يكن يريد أن يعيد كلاريسا اليه بالقسر بل كان ينبغي للمعرِّفة أن تنبثق من أعمق أعماقها هي نفسها وتميل بها نحوه وديعة رفيقة.

وكان البيانو يُطرِّق رؤوساً من النوطات برّاقة في جدار من الهواء وعلى الرغم من أنَّ هذه العملية كانت في أصلها حقيقية تماماً فقد تلاشت جدران الحجرة وانتصب بدلاً منها إطار باب الموسيقى الذهبيّ هذا الحيّز الحافل بالأسرار الذي كانت فيه الزنا والعالم والإحساس والشعور والداخل والخارج يهويان أحدهما في الآخر بأكثر الطرق بعداً عن التحديد بينما كان هو ذاته يتألّف كلّه من إحساس وتجديد ودقّة بل من تراتُب هرميّ لتألّق التفاصيل

المنسّقة. وعلى هذه التفاصيل الحسيّة كانت تتثبّتُ خيوط الشعور التي كانت تنغزل من سديم النفوس الجيّاش وكان هذا السديم ينعكس في دقّة الجدران ويتجلّى بنفسه بوضوح. وكانت نفسا كلا الإنسانين معلقتين كشرانق اليرقات في الخيوط والأشعّة. وكانا كلّما أحيط بهما على نحو أشد كثافة واتسع الشعاع المرسل عليهما ازداد شعور فالتر بالإرتياح واتخذت أحلامه على نحو شديد صورة طفل صغير حتى لقد أخد يشدّد إيقاع الألحان هنا وهناك على نحو خاطىء ومفرط في العاطفة.

ولكن قبل أن يأتي هذا ويفضي إلى أن تعود شرارة من الشعور العاديّ منطلقة عبر الضباب الذهبي بكلّيهما إلى العلاقة الأرضية لكلّ منهما بالآخر من جديد كانت أفكار كلاريسا قد غدت مختلفة عن أفكاره من حيث النوع على قدر ما يمكن لاثنين من البشر أن يحقّقا ذلك وهما يندفعان كالعاصفة أحدُهما إلى جانب الآخر باللَفَتات التوْأميّة الدالة على اليأس والغبطة. وكانت الصور تتواثب في كتل الضباب المتماوجة وتذوب وتتراكب بعضُها فوق بعض وتتلاشى وكان هذا تفكير كلاريسا وكان لها في ذلك أسلوب خاص فكثيراً ما كانت تتوارد أفكار عدّة في الوقت ذاته متداخلة بعضها في بعض وفي كثير من الأحيان لم تكن ثمة فكرة على الإطلاق ولكنَّ كان في وسع المرء بعدئذ أن يشعر بالأفكار مثل شياطين واقفة وراء المسرح. أمّا التعاقب الزمني للتجاريب الذي يعطي الآخرين من البشر سنداً حقيقياً فقد تحوّل عند كلاريسا إلى حجاب كان يلقي بطيّاته صفيقةً بعضها فوق بعض حيناً وينحلّ حيناً آخر في نفحة لا تكاد تفرى بعدُ.

وكان حول كلاريسا هذه المرة ثلاث شخصيّات: فالتر وأولريش وقاتل النساء موز بروجر.

أما موز بروجر فقد حدثها عنه أولريش.

twitter @baghdad_library

وكانت الجاذبية والإشمئزاز يمتزجان حياله في قوّة سحرية غريبة.

وكانت كلاريسا تقرض في جذر الحبّ وإنّه لجذر مزدوج بالقبلة واللدغة وبتعلّق النظرات إحداها بالأخرى واللَّفْتِ المعذَّب للعين في اللحظة الأخيرة. وكانت تسائل نفسها: «أو يدفع الانسجام الحسن بين امرىء وآخر إلى الكراهية وهل تقتضي الحياة المتمدّنة الفظاظة؟ وهل يحتاج ما هو سلميّ إلى القسوة؟ وهل يتطلَّب النظامُ التمزّق؟». لقد كان هذا ما أثاره موز بروجر ولم يَكُنْهُ. وتحت رعد الموسيقى كان يحوم حولها حريق كونيّ حريق كوني لمّا ينشب بعد مفترساً الأطر الخشبيّة في الداخل. ولكنَّ مثلما يكون الأمر في التشبيه حيث تكون الأشياء متشابهة ولكنّها على النقيض من ذلك مختلفة أيضاً كلّ الاختلاف وكما يتصاعد من تباين المشابه وكذلك من مشابهة غير المُشابِه عمودان من الدخان كانت الحال كذلك مع الرائحة الأسطورية للتفاحات المشويّة وأغصان الصنوبر المتناثر في النار.

وقالت كلاريسا لنفسها «لا يجوز للمرء أبداً أن يكفّ عن العزف» وبدأت القطعة من أوّلها عندما انتهت وهي ترمي أوراق النوتة حواليها على عجل. وابتسم فالتر مرتبطاً وتابعها. وسألته: «ماذا يصنع أولريش بالرياضيّات في الحقيقة؟». وهزّ فالتر بكتفيه وهو يعزف وكأنّه يقود سيّارة سباق.

وقالت كلاريسا في نفسها «أنَّ المرء لخليق أن يواصل العزف أبداً إلى النهاية. ترى ماذا كان موز بروجر خليقاً أن يكون لو كان في وسع المرء أن يعزف بغير انقطاع إلى نهاية الحياة؟ أراه يبعث الرعدة في الأوصال؟ أم يكون مجنوناً؟ أم طائراً أسودَ من طيور السماء؟» لم تكن تدري.

بل لم تكن تدري شيئاً على الإطلاق. فذات يوم ـ وكان في وسعها أنَّ تقدِّر اليوم الذي حدث فيه هذا ـ كانت قد استيقظت من نوم الطفولة وعند ذلك كانت قد نضجت أيضاً القناعة بأنها مندوبة للقيام بأمرٍ ما ولعب دور خاص بل

ربّما كانت مندوبة لشيء عظيم. ولم تكن في تلك الأيام تعرف شيئاً أبداً عن العالم. ولم تكن تصدّق أيضاً شيئاً مِمّا كان يُروى لها حوله من قبل الأبوين والإخوة الكبار: وكان هذا كلاماً طنّاناً حسناً تماماً وجميلاً كلّ الجمال غير أنَّ المرء لم يكن يستطيع أنَّ يتمثَّل ما كانوا يقولونه لم يكن المرء يستطيع ببساطة مثلما لا يتقبَّل جسم كيميائي آخر لا «يلائمه». ثم جاء فالتر وكان هذا هو اليوم. ومنذ هذا اليوم بات كلّ شيء «مقبولاً». وكان لفالتر شارب صغير فرشاة صغيرة وقال: يا آنسة واذا العالم ما عاد مرّة واحدة مساحة مقفرة محطّمة لا نظام فيها بل عاد دائرة برّاقة وكان فالتر محوراً وهي محور. كانا محورين متطابقين في واحد. الأرض والمنازل والأوراق الساقطة وغير المكنوسة وخطوط الهواء المؤلمة (وتذكَّرت اللحظة التي كانت أكثر اللحظات تعذيباً في الطفولة حيث كانت تقضي مع أبيها أمام «منظر طبيعي واسع» وكان هو الرسام يفتتن بذلك دهراً طويلاً بينما كانت هي يؤلمها مجرّد النظر في العالم على طول خطوط الهواء هذه الطويلة وكأنّما كان عليها أنَّ تجري بإصبعها على حافة مسطرة): من أمثال هذه الأشياء كان الوجود قد نشأ من قبل وقد غدا الآن ملكاً لها مرّة واحدة مثل بضعةٍ من جسدها.

وكانت تعرف الآن أنّها ستقوم بشيء عملاقيّ أمّا ما كان يمكن أن يكون فذلك ما لم يكن في وسعها أن تقوله بعدُ غير أنّها كانت في أثناء ذلك تحسّ به أشدّ ما يكون الإحساس في الموسيقى وكانت تأمل عندئذ أن يصبح فالتر عبقرية أعظم بعدُ من نيتشه فضلاً عن أولريش الذي ظهر فيما بعد وكان قد أهدى إليها أعمال نيتشه فحسب.

ومنذ ذلك الوقت كانت الأمور قد سارت إلى الأمام. أمّا بأية سرعة فذلك ما لم يكن من الممكن بعدُ قوله الآن على الإطلاق. لكم كانت سيئة العزف على البيانو فيما مضى ولكم كان فهمها للموسيقى قليلاً. أما الآن

twitter @baghdad_library

فكانت تعزف عزفاً أفضل من فالتر. وما أكثر ما قرأت من كتب! ومن أين جاءت هذه جميعاً؟ لقد كانت ترى هذا تلقاءها كالطيور السود التي ترفرف أسراباً حول فتاة صغيرة تقف في الثلج. غير أنّها رأت بعد قليل جداراً أسود وبقعاً بيضاً فيه. وكان الأسود كلّ ما لا يعرفه وعلى الرغم من أنَّ الأبيض كان يتجمّع في جزر صغيرة وكبيرة فقد ظلّ الأسود لا نهائياً بدون تغيير. ومن هذا السواد كان ينبعث الخوف والإضطراب. وقال في نفسها: «إنه الشيطان هل أصبح الشيطان موز بروجر؟» ولاحظت الآن بين البقع البيض دروباً رمادّية خفيفة. وهكذا كانت قد جاءت في حياتها من درب إلى آخر. كانت هذه أحداثاً مرات من المغادرة والوصول ومناقشات حامية وصراع مع الوالدين والزواج والبيت وصراع لا نظري له مع فالتر. وكانت الدروب الرمادية الباهتة تتلوّى كالأفاعي. وقالت كلاريسا في نفسها: «أفاعي! أحابيل!». كانت هذه الأحداث تلفُّها كالأفاعي وتمسك بها فلا تدعها تذهب إلى حيث كانت تريد وكانت زَلِقَة تحملها فجأة على أنَّ تندفع عند نقطة لم تكن ترغب فيها.

أفاعي وأحابيل وأشياء زلِقة: هكذا كانت تسير الحياة. وأخذت أفكارها تجري مثل الحياة. وغاصت رؤوس أصابعها في سيل الموسيقى الجارف. وفي سرير جدول الموسيقى نزلت أفاعٍ وأحابيل. عند ذلك انفتح للإنقاذ مثلَ خليج هادىء السجنُ الذي كان يتمّ فيه إخفاء موز بروجر. ودخلت أفكار كلاريسّا وهي ترتعد إلى زنزانته وكرّرت على نفسها القول وهي تشجّع نفسها: «يجب على المرء أن يمارس الموسيقى حتى النهاية!» ولكنَّ قلبها كان يرتجف ارتجافاً شديداً. وحين ثاب إليه الهدوء كانت الزنزانة كلّها قد امتلأت بأناها. وكان هذا شعوراً يعدل في رقته مرهم الجرح ولكنَّ حين أرادت أنَّ تمسك به على الدوام أخذ ينفتح ويتباعد مصراعاه مثل أسطورة أو حلم. كان موز بروجر يجلس شامخ الرأس وفكّت أغلاله. وبينما كانت أصابعها تتحرّك

دخلت القوّة والجرأة والفضيلة والخير والجمال والغنى في الزنزانة على نداء أصابعها كالريح القادمة من مروج شتى. وكانت كلاريسا تشعر قائلة لنفسها: «ليس من المهمّ أبداً لماذا أصنع ذلك بل كلّ ما يهمّ أنني أفعله الآن!». ووضعت يديها جزءاً من جسدها الخاص على عينيه وحين سحبت أصابعها كان موز بروجر قد بات فتى جميلاً وكانت هي نفسها واقفة إلى جانبه امرأة رائعة الجمال كان جسدها يضاهي في حلاوته ورقته خمر الجنوب ولم يكن شامساً كما كان في العادة جسد كلاريسا الصغيرة. وقرّرت في طبقة مفكِّرة شديدة العمق من وعيها قائلة: «انها صورة براءتنا!».

ولكن لماذا لم يكن فالتر على هذه الصورة؟! وتذكَّرت وهي تصعد من أعماق الحلم الموسيقيّ كم كانت ماتزال طفولية حين كانت قد أحبَّت فالتر بسنواتها الخمسة عشرة في تلك الأيام وأرادت أنَّ تنقذه بالجرأة والقوّة وطيب القلب من كلّ الأخطار التي كانت تهدِّد عبقريته وكم كان جميلاً أنّ فالتر كان يبصرّ في كلّ مكان هذه الأخطار النفسية العميقة! وساءلت نفسها أكان كلّ هذا مجرّد شيء طفوليّ؟ أمّا الزواج فكانت قد نشرت عليه ضوءاً يفسده. وكان قد نجم بغتة حرج كبير على الحبّ من هذا الزواج. وعلى الرغم من أن هذه الحقبة الأخيرة كانت بالطبع رائعة أيضاً وربّما كانت أخصب مضموناً وأقرب إلى الواقع المحسوس من الحقبة السالفة فقد كان الحريق الهائل الناشبُ وميضُه عبر السماء قد تحوّل إلى صعوبات نار موقد تأبى أن تتَّقد على الوجه الصحيح. ولم تكن كلاريسّا على يقين كامل أن ضروب صراعها مع فالتر كانت ماتزال كبيرة حقاً. وكانت الحياة تجري مثل هذه الموسيقى التي تتلاشى بين أيديها. ولسوف تنقضي بعد هنيهة! وألمّ الخوف بكلاريسا شيئاً فشيئاً. وفي هذه اللحظة لاحظت كم بات عزف فالتر مفتقراً إلى الثقة. كان شعوره يرتطم بأصابع الآلة ارتطاماً مثل قطرات المطر الكبيرة. وحدست على الفور

twitter @baghdad_library

بم كان يفكِّر: بالطفل. وكانت تعرف أنّه كان يريد أن يشدّها إليه بطفل وكان هذا نزاعهما في كلّ يوم. ولم تكن الموسيقى تهدأ لحظة ولم تكن الموسيقى تعرف اللّا. وكان هذا يتقلّص بسرعة خاطفة مثل شبكة لم تكن قد لاحظت خيوطها المُحيقة.

هنالك وثبت كلاريسا في غمرة العزف وصفقت البيانو حتى لقد أوشك فالتر ألّا يستطيع إنقاذ إصبعه.

آه يا له من ألم! وأدرك كلّ شيء وهو مازال في فزع كامل. كان هذا قدوم أولريش الذي نقل كلاريسا من جرّاء مجرّد الإعلان عنه إلى حالة نفسية جامحة! وقد ألحق بها الأذى إذ أثار بصورة فظّة ما كان فالتر نفسه لا يكاد يجرؤ على التعرّض له وهو العبقريّ المشؤوم في كلاريسّا الكهف الخفيّ حيث كان شيء ينذر بالسوء يشدّ على السلاسل التي كان يمكن أن تسترخي يوماً ما.

ولم يكن يتحرَّك وكان ينظر إلى كلاريسا غيرمتماسك فحسب.

ولم تقدّم كلاريسا تفسيرات وكانت تقف هناك وهي تتنفس بعنف.

وأكدت انها لا تحبّ أولريش أبداً بعد أن تكلّم فالتر وأنّها لو كانت تحبّه لقالت ذلك على الفور غير أنّها تشعر بالعدوى منه مثل ضوء. فهي تشعر من جديد أنّها تغدو أكثر إضاءة وأعظم شأناً عندما يكون بالقرب منها على حين لا يودّ فالتر في كلّ وقت إلّا أن يغلّق مصاريع النوافذ وأنّ ما تشعر به لا يعني أحداً لا أولريش ولا فالتر!

ولكن فالتر اعتقد حقاً أنّه شعر بين الغضب والاستياء اللذان كانايرشحان من كلماتها بذرّة صغيرة مخدِّرة تفوح رائحتها من شيء لم يكن هوالغضب.

وكان قد حلّ المساء. كانت الحجرة سوداء وكان البيانو أسود وكانت ظلال إنسانين متحابّين سوداً وكانت عين كلاريسا تضيء في الظلام مُغْمَدَةً مثل

الضوء. وفي فم فالتر المضطرب من الألم كان يلتمع الميناء على سنّ كالعاج وكانت هذه تبدو وإنّ كانت تجري في الخارج في العالم أكبر الأعمال السياسية وعلى الرغم من كلّ منغّصاتها أنّها إحدى اللحظات التي خلق الله الأرض من أجلها.

twitter @baghdad_library

[٣٩]

الرجل بلا صفات يتألّف من صفات بلا رجل

غير ان أولريش لم يأت في هذا المساء. فبعد أن غادره المدير فيشل على عجل شغلته من جديد مسألة صباه. لماذا يشجّع العالم كلّ المظاهر غير الحقيقية وبالمعنى الأعلى كلّ المظاهر الكاذبة بهذا القدر الرهيب. وقال في نفسه: «إنَّ المرء يخطو خطوة إلى الأمام دائماً وعلى وجه الخصوص كلّما كذب؛ لقد كان ينبغي لي أن أقول له هذا أيضاً».

وكان أولريش إنساناً عاطفياً ولكنَّ لا يجوز للمرء في هذا السياق أن يفهم من العاطفة ما يسمّيه المرء على وجه التفصيل بالعواطف. ولا بدّ أنّه وُجِد حقاً شيء كان يدفع به إلى هذه المرة تلو المرة وربّما كان هذا عاطفة غير أن سلوكه في حالة الانفعال وفي حالة التصرّفات المتّسمة بالانفعال كان عاطفياً وغير مبال في الوقت نفسه.

وكان قد شارك إلى حدٍّ بعيد في كلّ ما يوجد وكان يشعر أنّه كان من الممكن حتى الآن أن يخوض في أمر لم يكن يعني بالضرورة شيئاً على الإطلاق بالقياس إليه إذا كان يستثير دافع العمل عنده فحسب. من إجل ذلك كان يحق له مع قليل من المبالغة أن يقول عن حياته أنَّ كلّ شيء تمَّ فيها كما لو أنّه ينسجم بعضه مع بعض أكثر مِمّا ينسجم معه. وسواءً أكان ذلك في القتال أم كان في الحبّ فقد كانت المقدّمة أ تتبعها النتيجة ب. وهكذا كان عليه أيضاً أن يعتقد حقاً أنَّ الصفات الشخصيّة التي اكتسبها في هذا الصدد كانت يأتلف بعضها مع بعض أكثر مِمّا تأتلف معه بل كانت كلّ صفة منها على حدة

إذا ا اختبر نفسه الاختبار الدقيق لا تمتّ إليه بصلة أوثق من صلتها بالآخرين من البشر الذين ربّما كانوا يمتلكونها أيضاً. ولكنَّ ما من شكّ في أن المرء يتحدّد على الرغم من ذلك من خلالها ويتألّف منها حتى حين لا يأبه لها. وهكذا يبدو المرء لنفسه أحياناً غريباً في سلوكه الساكن مثلما هو غريب في سلوكه المتحرِّك. ولو كان على أولريش أنَّ يقول ما هو في الحقيقة لوقع في حرج. ذلك لأنّه لم يكن قد اختبر نفسه بعدُ أبداً على نحو آخر غير اختبار المهمة وفي سياق العلاقة معها. أما وعيه لذاته فلم يلحق به أذى ولا كان مدلَّلاً ولا مغروراً ولم يعرف الحاجة إلى اعادة الإصلاح والتأنيب التي يسمِّيها الناس استقصاء الضمير. أكان إنساناً قوياً؟ هذا ما لم يكن يعرفه وربّما كان حيال ذلك في خطأ وخيم العاقبة. ولكنَّ ما من شكّ في أنّه كان دائماً إنساناً يثق بقوته ولم يكن يرتاب الآن أيضاً في ان هذا الفرق بين امتلاك التجارب ولاصفات الخاصة والبعد عنها ليس إلّا فرقاً في الموقف وبمعنى معيّن قراراً إرادياً ودرجةً مختارة بين العموميّة والسمة الشخصيّة يعيش المرء عليها. واذا تحدثنا بالبساطة الكاملة فإنّ في وسع المرء أن يسلك تجاه الأشياء التي تجري له او التي يعملها سلوكاً أكثر عمومية أو أكثر شخصية. فإن المرء يستطيع ان يحسّ بالضربة فضلاً عن كونها ألماً على أنّها إساءة أيضاً إذ تتعاظم بذلك إلى حدٍّ لا يحتمل ولكنَّ المرء يستطيع أيضاً أن يتقبّلها بروح رياضية على أنّها عقبة لا يجوز للمرء أن يدع الخوف يتولّاه منها ولا أن يدع الغضب الأعمى يتمّلكه وعند ذلك لايكون من النادر ألّا يلاحظها المرء على الإطلاق. ولكنَّ في هذه الحالة الثانية لم يحدث شيء آخر سوى أنَّ المرء سلكها في سياق عام وهو سياق الحدث الكفاحيّ حيث اثبت جوهرها أنّها مرتبطة بالمهمّة التي يترتّب عليه أداؤها. وهذه الظاهرة بالذات وهي أن المعاناة لا تكتسب معناها بل مضمونها إلّا من خلال موقعها في سلسلة من الأحداث المنطقيّة يعرضها كلّ إنسان لا ينظر اليها على أنّها مجرّد حدث شخصيّ بل على أنّها تحدّ لطاقته

twitter @baghdad_library

الفكريّة. على أنّه سوف يحسّ هو أيضاً بما يفعله عندئذ إحساساً أضعف. ولكنَّ العجيب أنَّ المرء يعدّ ما يحسّ به في الملاكمة أنّه طاقة فكريّة متفوّقة بارداً وخالياً من الشعور بمجرّد أن ينشأ لدى أناس لا يستطيعون الملاكمة عن ميل إلى موقف فكري في الحياة. ومازال هناك على أيَّة حال ضروب شتى من التمييز الشائع من أجل اتخاذ سلوك عموميّ أو شخصي تبعاً للوضع وللمطالبة به. فالقاتل حين يتصرّف بموضوعية يُفسَّر ذلك منه على أنّه فظاظة خصوصيّة والأستاذ الجامعي الذي يتابع حساب مسألة بين ذراعي زوجته يفسَّر ذلك منه على أنّه جفاف عظميّ والسياسيّ الذي يرتقي إلى الأعالي فوق البشر الذين أبيدوا يفسّر ذلك له تبعاً للنجاح وضاعة أو عظمة. أمّا الجنود والجلّادون والجراحون فيُطالَبون على وجه الخصوص برباطة الجأش هذه التي تدان في الآخرين. وبدون أن يحتاج المرء إلى وكان انعدام اليقين هذا يضفي على مسألة أولريش الشخصيّة خلفيّة بعيدة. لقد كان المرء يغدو قبل ذلك شخصيّة ذات ضمير أفضل منه اليوم. وكان الناس يشبهون العيدان في الحبوب. ويبدو أنّهم كانوا أشدّ تأثُّراً بالربّ والبَرَد وسعير النار والطاعون والحرب مِمّا هم الآن. ولكنَّ هذا كان على وجه الإجمال شيئاً يمكن تبريره لكلّ مدينة على حدة ولكل بقعة من الأرض على حدة ولكل حقل ولكل ما تبقّى للعود المفرد فضلاً عن ذلك من الحركة الشخصيّة وكان قضية محدَّدة بوضوح. أمّا اليوم فما عاد محور ثقل المسؤولية يتمثَّل في الإنسان بل في العلائق الموضوعية. أوَلم يلاحظ الناس أنَّ التجارب استقلت بنفسها عن الإنسان؟ فقد ذهبت إلى المسرح ودخلت الكتب وتقارير مراكز الأبحاث والطوائف الفكريّة والدينية التي تشكّل أساليب معيَّنة في المعاناة على حساب الأساليب الأخرى مثلما يكون الأمر في محاولة للتجريب الإجتماعي ومادامت التجارب لا توجد ضمن لاعمل على وجه الخصوص فإنها تظل ببساطة معلقة في الهواء. ومن تراه مازال يستطيع حتى اليوم أن يقول أنَّ غضبه هو غضبه بالفعل إذ يتدخل فيه

كلّ هذا القدر من البشر ويفهمونه فهماً أفضل من فهمه؟! لقد نشأ عالم من الصفات بدون رجل والتجاريب بدون من يعيشها وان الأمر ليكاد يبدو وكأن الإنسان في الحالة المثالية لن يعود على الإطلاق إلى معاناة شيء معاناة خصوصيّة وأنّه يفترض في الثقل الودّي للمسؤولية الشخصيّة أن ينحل في نظام شكلي من المعاني الممكنة ويبدو أن انحلال السلوك القائم على مركزية الإنسان الذي ظلّ ردحاً طويلاً من الزمن يعدّ الإنسان محور الكون ولكنّه أخذ في التقلّص منذ قرون قد وصل آخر الأمر إلى الأنا ذاتها لأنّ الإيمان بأن أهمّ ما في المعاناة هو أن المرء يعانيها وأن أهمّ ما في الفعل هو أن المرء يفعلهً أخذ يتبيّن لمعظم الناس أنّه سذاجة ومازال يوجد في الحقّ أناس يحيون حياة شخصيّة تماماً فهم يقولون «كنا أمس عند فلان وفلان» أو «سنعمل اليوم كذا وكذا» وهم يقرّون عيناً بذلك بدون أن يكون ثمة حاجة إلى أن يكون لذلك مضمون ومعنى سوى هذا. وهم يحبّون كلّ ما تلامسه أصابعهم ويتّسمون بسمة الشخصيّة الخصوصيّة على قدر ما يمكن أن يكون ذلك فحسب. فالعالم يغدو عالماً خصوصياً بمجرّد أن تصبح له صلة بهم ويضيء مثل قوس قزح. وربّما كانوا جدّ سعداء غير أنَّ هذا النوع من الناس بات يبدو للآخرين في العادة غير معقول على الرغم من أنّه ليس من المؤكّد بحال من الأحوال لماذا يبدو كذلك ـ واضطر أولريش دفعة واحدة إلى أن يعترف إزاء هذه الهواجس وهو يبتسم بأنه يعدّ مع هذا كلّه شخصيّة حتى بدون أن تكون له شخصية.

twitter @baghdad_library

[٤٠]

رجل له كلّ الصفات غير أنّه لا يحفل بها
القبض على أمير من أمراء الفكر
والعمل الموازي يحظى بأمين سرّ فخريّ له

ليس من العسير أنَّ نصف أولريش هذا الرجل البالغ اثنين وثلاثين حولاً في ملامحه الأساسيّة حتى وإن كان لا يعرف عن نفسه إلّا أنَّ كلّ الصفات كانت قريبة إليه وبعيدة عنه على حد سواء وأنّه كان لا يحفل بها جميعاً سواء أكانت قد أصبحت له أم لم تكن كذلك بطريقة غريبة. وكان يرتبط عنده بحضور البديهة التي تفترض ببساطة استعداداً متعدد الجوانب جداً نزعة عدوانية معيَّنة أيضاً. فهو امرؤٌ ذو تفكير رجوليّ وهو لا يتَّسم بالحساسيّة تجاه الآخرين من البشر وقلّما خالطه مخالطة عميقة إلّا لكي يتعرّف عليهم من أجل أغراض. ولم يكن يحترم الحقوق إذا لم يكن يحترم من يملكها وقلّما يحدث هذا وذلك أنّه تطوّر لديه مع الزمن استعداد معيَّن للنفي جدليّة مرنة للشعور من السهل أنَّ تغريه بأن يكتشف مضرة في شيء يلقى قبولاً حسناً على نطاق عام وأن يدافع في مقابل ذلك عن شيء محظور وأن يرفض الواجبات بالسخط الذي ينبعث من إرادة إنشاء واجبات خاصة. وعلى الرغم من هذه الإرادة فإنه يسلم زمام توجيهه الأخلاقي مع استثناءات معيَّنة يبيحها لنفسه ببساطة لتلك اللياقة الفروسية التي توجِّه في المجتمع المدني إلى حدٍّ بعيد كلّ الرجال ماداموا يعيشون في أحوال منتظمة ويعيش بهذه الطريقة بالكبرياء واللامبالاة والتهاون عند إنسان مندوب لعلمه حياة إنسان آخر يتسعمل ميوله وطاقاته

استعمالاً مألوفاً واجتماعياً بقدر يقلّ أو يكثر. وكان قد اعتاد ان يعدّ نفسه بدافع طبيعيّ ودونما غرور وسيلة إلى غرض ليس بالقليل الشأن كان ينوي التعرف عليه بعدُ في الوقت المناسب. وحتى الآن في هذه السنة المبدوءة سنة البحث المضطرب وبعد أن تبيّنت له الممارسة العشوائية لحياته سرعان ما عاوده الشعور بأنّه على الطريق الصحيح. ولم يجشّم نفسه أبداً جهداً خاصاً في خطَّته. على أنّه ليس من اليسير كلّ اليسر أن يتعرّف المرء في مثل هذه الطبيعة على العاطفة المحرِّكة لها فقد صاغها الإستعداد والظروف صياغة ملتبسة وكأنَّ مصيرها لم يتعرَّض بعدُ للتعرية من جرّاء ضغط مضاد قاس حقاً غير أن القضيَّة الرئيسيّة هي أنّه مازال ينقصها من أجل الحسم شيء لا تعرفه. ثم أن أولريش إنسان يرغمه أيّ شيء كان على أن يعيش ضد نفسه على الرغم من أنّه يمكن أن يساير بدون إرغام على ما يبدو.

وكان تشبيه العالم بمختبر قد بعث الآن في نفسه من جديد تصوّراً قديماً. كان كثيراً ما تصوَّر الحياة من قبل إذا كان لها أن تروق له مثل محطة كبرى للتجاريب تختبر فيها أفضل الأساليب لكي يكون المرء إنساناً وتكتشف أساليب جديدة. أمّا أنَّ مجمل المختبر كان يعمل بدون مخطَّط وأنّه كان يفتقر إلى رئيس ومنظّرين للمجموع فتلك مسألة أخرى. لقد كان في وسع المرء أن يقول حقاً أنّه كان هو نفسه خليقاً أن ينزع إلى أن يغدو شيئاً من قِبَلِ أمير أو سيِّد من سادة الفكر: ومن تراه لا ينزع إلى ذلك؟! أنّه لم من الطبيعي جداً أن يعدّ الفكر هو الأعلى والحاكم فوق كلّ شيء. وانه ليُعلِّم. وما يقدِّر عليه يتحلّى بالفكر ويزدان والفكر في ارتباطه بأي شيء كان هو الأكثر انتشاراً بين الموجودات: «روح الإخلاص وروح الحبّ والروح الرجولي والروح الثقافية» و«أعظم روح في العصر الحاضر» و«نحن نريد أن نعلي من شأن روح هذه المسألة أو تلك» و«نحن نريد أن نتصرف تبعاً لروح حركتنا». لكم يبدو

twitter @baghdad_library

هذا راسخاً لا شائبة فيه حتى في أدنى الدَرَكات. وكلّ ما تبقّى من الجريمة اليوميّة أو حبّ الكسب المتّسم بالنشاط الجمّ يبدو إلى جانبه في صورة ما لا يُعتَرف به في صورة الأدران التي ينأى الرب عنها.

ولكن عندما يكون الروح واقفاً هناك وحده اسماً عارياً أجرد مثل شبح يود المرء لو يعيره إزاراً كيف سيكون الأمر آنذاك؟ ففي وسع المرء أن يقرأ للشعراء وأن يدرس الفلاسفة وأن يشتري الصور ويخوض في الأحاديث في الليل ولكنّ هل يكون روحاً ما يحصّله المرء في هذا السبيل؟ ولنفرض أنَّ المرء ظفر به فهل تراه يمتلكه عندئذ؟ إن هذا الروح مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالصورة العارضة مصادفة لظهوره! فهو يتخلّل الإنسان الذي يودّ أنَّ يتقبّله ولا يخلّف إلّا قليلاً من الصدمة. وما عسانا نصنع بالروح كلّه؟ أنّه يجري انتاجه فوق كتل من الورق والحجر وكتل الرسم بمقادير فلكية على وجه الخصوص من جديد على الدوام ويجري على النحو ذاته تقبُّله والاستمتاع به بغير انقطاع مع الاستهلاك الهائل للطاقة العصبيّة. ولكنَّ ماذا يجري له عندئذ؟ أتراه يتلاشى كالطيف؟ أم ينحلّ في جزئيات؟ وهل يخرج على القانون الأرضي قانون مَصونيّة الطاقة؟ إن جزئيات الهباء التي تغوص فينا وتخلد إلى السكون على مَهْل لا تتناسب مع الإنفاق الحاصل فإلى أين مضى وأين وماذا يكون؟ وربّما أحاط جو ثقيل موحش بهذا الإِسم أيّ الروح لو عرف المرء مزيداً عنه!

وكان قد أقبل المساء وكانت المنازل وهي كأنّما اقتطِعَت من المكان والإِسفلت وقضبان الخطوط الفولاذية تشكّل محارة المدينة التي أخذها البَرْد. المحارةُ الأمّ حافلةً بحركات البشر الطفوليّة المَرحه الغاضبة حيث يبدأ كلّ مأفون في صورة قطرة صغيرة(٧) تنثر الرذاذ وتنفثه وتبدأ بانفجار صغير فتتلقّفها

(٧) في الأصل جناس لفظي يتعذّر نقله إلى العربية بين كلمتي Tropf: مأفون و Tropfchen: قطرة صغيرة. (المترجم)

الجدران وتذهب ببرودتها فتغدو ألطف وأقلّ حركة وتظل معلّقة تعلّقاً رقيقاً على قشرة المحارة الأمّ وفي النهاية تتصلّب متحوّلة الى نواة على جدارها.

وقال أولريش لنفسه فجأة: «لماذا لم أصبح حاجّاً. وكان ثمة نمط حياة نقيّ طليق بالغ الجدة والعذوبة كالهواء الصافي كلّ الصفاء ماثلاً حواسّه كان على من يأبى أن يؤيد الحياة أن يعارضها على الأقل معارضة القديس ومع ذلك فقد كان من غير الممكن ببساطة أن يفكّر المرء في ذلك تفكيراً جاداً وكان لا يستطيع كذلك ان يكون مغامراً على الرغم من أن الحياة هنا يمكن لها أن تنطوي دائماً على شيء من فترة الخطوبة المستمرّة أبداً وكانت أعضاؤه تحسّ بهذه المتعة مثلما كانت تحسّ بها جرأته. وما كان من الممكن أن يغدو أديباً ولا أن يغدو واحداً من الخائبين الذين لا يؤمنون إلّا بالمال والعنف على الرغم من أنّه كان يتمتّع بالإستعداد لكلّ شيء. وقد نسي عمره فكان يتصوّر أنّه في العشرين. ومع ذلك فقد كان من المقطوع به باطنياً كذلك أنّه ماكان يستطيع أن يغدو شيئاً من هذا القبيل. وكان ثمة شيء يشدّه إلى كلّ ما كان موجوداً وكان ثمة شيء أقوى شيئاً ما يحول دون وصوله اليه. فلماذا كان يعيش اذاً حياة شديدة الافتقار إلى الوضوح والحَسْم؟ كان يقول لنفسه ما من شكّ في أن ما كان يحبسه في شكل من أشكال الحياة معزول لا اسم له لم يكن شيئاً سوى الاضطرار إلى ذَيْنِك التفكيك والربط للعالم اللذين يُسمَّيان بكلمة لا يسرّ المرء أن يلقاها وحدها وهي الروح. وكان أولريش نفسه لا يعرف لماذا غير أنّه اكتأب دفعة واحدة وفكر قائلاً: «انني لا أحب نفسي ذاتها ببساطة». وفي جسد المدينة المتحجّر المقرور من البرد كان يحسّ بواجب قلبه في أعمق الأعماق منها. وكان هناك شيء فيه يأبى أن يظلّ مقيماً في أيّ مكان وكان قد تحسس جدران العالم على طولها ورأى أنّه مازال هناك ملايين من الجدران الأخرى؛ هذه القطرة من الأنا الآخذة في التبرّد رويداً رويداً المضحكة التي كانت تأبى أن تتخلى عن نارها عن نواة اللهيب البالغة الضآلة.

twitter @baghdad_library

وكان الفكر قد أدرك أن الجمال يضفي الخير أو الشرّ أو الغباء أو السحر. وهو يحلّل حروفاً وتائباً ويجد في كليهما الخضوع والصبر ويفحص مادة فيعرف أنّها تنطوي على مقادير كبيرة من السمّ ومقادير ضئيلة من مادة الاستمتاع ويعرف ان البشرة المخاطية للشفتين قريبة الصلة بالبشرة المخاطية للإمعاء ولكنّه يعرف أيضاً أنَّ ليونة هذه الشفاه وثيقة الصلة بلين الجانب في كلّ مقدَّس. وهو يخلط ويحلّل ويُعيد إلى الترابط من جديد. فالخير والشر والعلوُّ والانخفاض لا تمثّل بالنسبة إليه تصوَّرات نسبيّة - ريبيّة بل أعضاء في مهمة وقيماً ترتبط بالسياق الذي توجد فيه. وكان قد تعلّم من القرون أنَّ الرذائل يمكن أن تتحوّل إلى فضائل وأنّ الفضائل يمكن أن تتحوّل إلى رذائل وهو لا يعترف بشيء غير مباح وشيء مباح لأنَّ كلّ شيء يمكن أن تكون له صفة يسهم عن طريقها يوماً ما في علاقة كبرى جديدة. وهو يكره على نحو خفيّ كراهيةَ الموت كلّ ما يتظاهر بأنه ثابت في كلّ الأحوال الأفكار الكبرى والشرائع الكبرى ونسختها الصغرى الشخصيّة الراضية. وهو لا يرى شيئاً ثابتاً ولا أناً ولا نظاماً ولمّا كانت معارفنا يمكن أن تتغيّر مع كلّ يوم فهو لا يؤمن بأية علاقة وكلّ شيء لا يتمتَّع بالقيمة التي يملكها إلّا حتى الفصل التالي من الخلق كالوجه الذي يتحدَّث اليه المرء بينما يتغيّر هو مع الكلمات.

وعلى هذا فالفكر هو المتقلّب الكبير مع الأحوال غير أنّه لا يمكن الإمساك به هو ذاته في أيّ مكان. وأنَّ المرء ليوشك أن يعتقد أنّه لا يبقى من أثره إلّا الانحلال. فكل تقدّم يعدّ كسباً من حيث التفاصيل وتشتُّتاً على الإجمال. إنّه النموّ في القوّة الذي يُفضي إلى النموّ المطرّد في العجز. على أنّه ليس في وسع المرء أن يكفّ عن ذلك. وشعر أولريش أنّه يتذكّر هذا الجسد من الحقائق والإكتشافات المتنامي في كلّ ساعة تقريباً الجسد الذي يترتّب على الفكر أن يطلّ منه اليوم حين يريد أن ينظر في أيّة مسألة على وجه

الدقة ومن جرّاء ذلك ينمو للباطن هذا الجسد وتجوب أنحاءه أعداد لا تحصى من ضروب الإدراك والآراء والأفكار التنظيمية من كلّ الأنحاء والعصور ومن كلّ أشكال المخ الصحية والمريضة واليقظة والحالمة مثل آلاف من المراكز العصبيّة الحساسة الصغيرة ولكنَّ نقطة الإشعاع التي تتحد عندها مُفْتَقدة ويشعر الإنسان باقتراب الخطر حيث يُكرِّر مصير تلك الأجناس العملاقة من الحيوان في العصور الغابرة والتي بادت من ضخامتها غير أنّه لا يستطيع أن يتوقَّف. وبذلك تذكَّر أولريش من جديد ذلك التصوّر المنطوي على الإشكال الذي آمن به وقتاً طويلاً ومازال حتى اليوم لا يستطيع أن يستأصل شأفته من نفسه كلَّ الاستئصال وهو أن العالم خليق أن تدار أموره على أفضل وجه من قبل مجلس شيوخ من أهل العلم والمتقدِّمين. وذلك أنّه من الطبيعي جداً أن يتصوّر المرء أنَّ الإنسان الذي يدع الأطباء المؤهلين تأهيلاً اختصاصياً يعالجونه حين يكون مريضاً ولا يدع ذلك لرعاة الغنم لا يكون لديه سبب حين يكون مُعافى أن يدع الثرثارين المشابهين لرعاة الغنم يتولّون أموره مثلما يفعل هو في شؤونه العامة. ومن أجل ذلك فإن الشباب الذين يهتمون بالمضامين الجوهرية للحياة يرون في البداية كلَّ ما في العالم مِمّا ليس حقيقياً ولا حسناً ولا جميلاً كالسلطة المالية مثلاً أو المناقشة البرلمانية أمراً ثانوياً وكانوا كذلك في تلك الأيام على الأقل إذ ينبغي لهم اليوم أن يكونوا خلاف ذلك بفعل التربية السياسية والإِقتصادية. ولكنَّ في تلك الأيام أيضاً تعلّم النساء متى يطنعون في السن وتعلّموا التكيّف مع الواقع من خلال التعرّف الطويل الأمد على حجرة تدخين الفكر التي يدخِّن فيها العالم شحم شؤونه. وكانت الحال النهائية للإنسان المعبّأ فكرياً أنّه اقتصر على «مادة اختصاصه» وحمل معه بقية حياته الاقتناعَ بأنّ المجموع ربّما كان ينبغي أن يكون على غير هذه الصورة. ولكنَّ ليس من المجدي على الإِطلاق أن يفكِّر المرء في ذلك. وعلى هذه الصورة تقريباً يبدو التوازن الداخليّ للبشر الذين يقومون بشيء ما من الوجهة

twitter @baghdad_library

الفكريّة. وبمرّة واحدة صاغ أولريش المسألة برمتها بطريقة هزلية في سؤال: أليس كلّ ما يفتقد آخر الأمر طالما أن من المؤكّد وجود ما يكفي من الفكر هو أن الفكر نفسه ليس له فكر؟

وأراد أن يضحك من ذلك فقد كان هو نفسه واحداً من المتخاذلين. ولكنَّ طموحاً مخيَّباً وأكثر حيويّة بعدُ كان يسري فيه كالسيف وكان ثمة أولريشان[٨] يسيران في هذه اللحظة كان أولهما ينظر حواليه مبتسماً ويكفر قائلاً: «اذاً فقد أردت هنا ذات مرّة أن ألعب دوراً بين الكواليس كأمثال هذه. وقد أفقتُ ذات يوم لا ليّنَ العود شأن المرء في سلّة الأم الصغيرة بل كان معي الإيمان بأن عليَّ أن أقوم بشيء ما وأُعطيت النقاط الرئيسيّة وشعرت أنّها لا تعنيني في شيء وكان كلّ شيء في تلك الأيام مفعماً بنواياي وتوقّعاتي الخاصّة مثل اضطراب الممثّل قبيل الظهور على المسرح. ولكنَّ الأرض دارت بدون أن أشعر في هذه الأثناء وكنت قد قطعت شوطاً من طريقي إلى الأمام وربّما كنت أقف الآن عند المخرج. وعمّا قليل سيكون قد قذف بي إلى الخارج وسأكون قد قلت للتوّ أن دوري كبير: «لقد أُسْرِجَت الخيل فليذهب بكم الشيطان جميعاً!»». ولكنَّ بينما كان الأوّل يسير مبتسماً مع هذه الأفكار عبر المساء المُخيِّم كان الآخر يكوِّر قبضتيه متألّماً مغضباً. وكان الأقلَّ تعرُّضاً للرؤية. أمّا ماكان يفكِّر فيه فكان العثور على تعويذة استحضار على مقبض ربّما كان في وسع الإنسان أن يمسك به وهو الفكر الحقيقي للفكر القطعة الناقصة التي ربّما كانت قطعة ضئيلة فحسب القطعة التي تختتم الدائرة المحطّمة ولم يجد هذا الأولريش الثاني كلمات تواتيه فالكلمات تقفز كالقرود من شجرة إلى شجرة ولكنَّ في المجال المظلم حيث يضرب المرء بجذوره يفتقد المرء وساطتها الودّية. كانت الأرض تجري كالنهر تحت قدميه وكان لا يكاد يستطيع أن يفتح

(٨) صيغة التثنية لاسم أولريش. (المترجم)

عينيه. أو يمكن لشعورٍ أن يهبّ كالعاصفة وألّا يكون مع ذلك البتّة شعوراً عاصفاً؟ أنَّ المرء عندما يتحدَّث عن عاصفة للشعور فإنما يقصد العاصفة التي تجعل أديم الإنسان يصرّ صريراً وتتطاير أعضاء الإنسان وكأنّما يراد لها أن تنقطع. غير أن هذه كانت عاصفة يبقى معها السطح هادئاً كلّ الهدوء إلّا أن ذلك كان على وجه التقريب حالة من حالات الإهتداء والرجوع فلم يتزحزح شيء من ملامح الوجه عن موضعه ولكنَّ في الداخل كان يبدو أنّه ما من ذرة ظلَّت في موضعها. كانت حواس أولريش صافية ومع ذلك فقد كانت العين تستقبل كلّ إنسان يلقاه استقبالاً مختلفاً عمّا ألِفت وكذلك كان شأن كلّ إيقاع في الأذن. لم يكن في وسع المرء أن يقول: بحدة أكبر ولم يكن ذلك بأكثر عمقاً في الحقيقة أيضاً ولا أقرب إلى الطبيعيّ أو أبعد عنه. لم يكن أولريش يستطيع أن يقول شيئاً البتّة غير أنّه كان يفكّر في هذه اللحظة في المعاناة الغريبة في «الفكر» مثلما يفكّر المرء في حبيبة كانت تخادعه طوال الحياة فلا يقلّ حبه لها وكانت تربطه بكلّ ما يلقاه. ذلك لأنّ المرء حين يحبّ أن يكون كلّ شيء حبّاً حتّى عندما يكون ألماً واشمئزازاً. كان الغصن الصغير على الشجرة ولوح زجاج النافذة الباهت في ضوء المساء يتحوّلان إلى معاناة تنغمس انغماساً عميقاً في كيانه الخاص فلا يكاد يمكنه التعبير عنها بالكلمات وكانت الأشياء تبدو أنّها لا تتألّف من خشب حجر بل من لا أخلاقية باهرة رقيقة رقة لا نهاية لها كانت تتحوّل في اللحظة التي تحتكّ فيها به إلى زلزال أخلاقي عميق.

واستغرق هذا قدر ابتسامة وفكّر أولريش على التوّ قائلاً: «الآن أريد أن أظل ذات مرّة حيث حُمِلْت حين شاء سوء الحظ أن يتحطّم هذا التوتر على عقبة.

twitter @baghdad_library

على أنَّ ماحدث الآن يرجع في الواقع إلى عالم مختلف كلّ الإختلاف عمّا كان عليه العالم الذي كان فيه أولريش مايزال منذ هنيهة يعاني الشجر والحجر في صورة امتداد حسّاس لجسده الخاص.

ذلك لأنّ صحيفة عماليّة كانت قد صبهَت كما كان الكونت لاينزدورف خليقاً أن يسمِّيّ ذلك بصاقاً تخريبيّاً على الفكرة العظيمة إذ زعمت ان هذه الفكرة تنتظم في سلك ابتداع مثير جديد للحكام فحسب من أجل القتل الأخير لإرواء الشهوة. وشعر بالاستثارة من جرّاء ذلك عامل طيّب كان قد أفرط قليلاً في الشراب. وكان قد مرّ بمواطنيْن كانا يشعران بالإرتياح تجاه شؤون اليوم ولمّا كانا يَعيان أن المقصد الحسن يحقّ له أن يعرب عن نفسه في كلّ وقت فقد كانا يتبادلان بصوت مفرط في الإرتفاع إقرارهما للعمل الوطني الذي قرآ عنه في صحيفتهما وكان تبادلٌ للكلام ولمّا كان اقتراب شرطي يشجّع ذوَيْ المقاصد الحسنة على قدر ما كان يستثير المهاجم فقد كان هذا المشهد يتَّخذ أشكالاً مطَّردة الزيادة في العنف. كان الشرطي يرقبه من فوق كتفه أوّل الأمر ثمّ من الأمام وبعد ذلك عن كثب وشَهده مراقباً مثل مظهر أخير متقدِّم لدولة الرافعة الحديدية التي تنتهي بأزرار وأجزاء معدنية أخرى. على أن الإقامة الدائمة في دولة حسنة التنظيم تتَّسم بسمة شبحيّة على نحو مطلق إذ لا يستطيع المرء أن يطأ الشارع ولا أن يشرب كأساسً من الماء أو يركب الحافلة بدون أن يتعرّض للأذرع الموزونة من جهاز عملاق من القوانين والعلاقات فيحرّكها أويكسب معيشته منها في طمأنينة حياته ولا يعرف المرء إلّا أقلّ القليل منها وهي التي تتغلغل في الأعماق بينما تتناهى من الناحية الأخرى في شبكة ما قام بفكّ تركيبها كلّه بعدُ إنسان على الإطلاق ومن أجل ذلك فالناس ينكرونها مثلما ينكر المواطن الهواء ويقول عنه أنّه الفراغ ولكنَّ يبدو أنَّ كَوْن كلّ مايُنْكَر أيّ كلّ ما ليس له لون ولا رائحة ولا مذاق ولا وزن ولا أخلاق كالماء

والهواء والمكان والمال وانقضاء الوقت هو الأهمّ في الحقيقة أمر يكمن فيه شبحية معيّنة في الحياة. ومن الممكن أن يتولىّ الفزع أحياناً الإنسان كما يكون في الحلم الذي لا إرادة فيه عاصفة حركيّة من الضرب حواليه كالحيوان الذي أحدقت به آلية شبكة غير مفهومة. ومثل هذا الأثر كانت تحدثه أزرار الشرطيّ على العامل. وفي هذه اللحظة تقدّم عضو الدولة الذي شعر أنّه لا يلقى الاحترام بالطريقة اللائقة للاعتقال.

ولم يجر ذلك بدون مقاومة والتصريحات المتكرّرة عن المقاصد الثورية. وكان لفت الأنظار الذي استثير يتملّق شعور السكران وبدا أنَّ نفوراً كاملاً كان مستكناً حتى الآن من المخلوق المماثل إذا انطق من عقاله. وأدّى إلى صراع حام من أجل المكانة. وكان شعور أسمى بأناه يتصارع مع شعور رهيب وكأنّه يشعر بعدم الطمأنينة ولم يكن العالم مطمئناً أيضاً. كان نفحة مضطربة ما تفتأ تغيّر صورتها وتبدّل شكلها. وكانت المنازل تنتصب مائلة خارجة عن المكان. وكان البشر فيما بين ذلك قطرات مضحكة مكتظّة كالنمل متّسمة مع ذلك بسمة الأخوة. وأنا مندوب لإقامة النظام بينهم كذلك كان يشعر السكران على نحو غير عادي وكان ميدان الرؤية مفعماً بشيء متألّق وأقبلت نحوه قطعة ما من طريق الحدث على نحو جليّ ولكنَّ الجدران دارت بعد ذلك من جديد وأطلّت محاور العينين كالعيدان خارجة من الرأس بينما كان أخمصَ القدمين يتشبثان بالأرض. وكان تدفّق عجيب من الفم قد بدأ. كانت تخرج من الداخل كلمات لا يفهم منها كيف سبق لها أن دخلت هناك ومن الجائز أنّها كانت كلمات سباب على أنَّ هذا لم يكن يمكن تمييزه بدقة. وكان الخارج والداخل ينهال بعضه على بعض. لم يكن الغضب غضباً داخلياً بل كان مجرّد الغلاف الجسديّ للغضب المستثار إلى حدِّ الجنون. وكان وجه شرطيّ يقترب ببطء شديد من قبضة مكوّرة إلى أن بات ينزف.

twitter @baghdad_library

ولكن الشرطيّ كان قد تضاعف أيضاً في هذه الأثناء ثلاث مرات. ومع موظّفي الأمن المسرعين إلى هناك كان أناس قد جرَوْا زرافات وكان السكران قد ألقى بنفسه على الأرض وأبى أن يسلّم نفسه. هنالك ارتكب أولريش عملاً متهوّراً. وكان قد تناهى إلى سمعه من الحشد كلمة «إهانة صاحب الجلالة» ولاحظ الآن أنّ هذا الإنسان في حالته ليس على استعداد لارتكاب إهانة وأنّه ينبغي أن يرسل لينام. ولم يكثر من التفكير في هذا الصدد غير أنّه وقع في الموقع غير المناسب. وصاح الرجل الآن قائلاً إنّه لا أولريش ولا صاحب الجلالة! على أن الشرطي الذي نسب الوزر في هذه النكسة على ما يبدو إلى التدخّل طلب إلى أولريش بفظاظة أن ينصرف غير أن هذا لم يكن معتاداً أن ينظر إلى الدولة نظرة أخرى سوى أنّها فندق يتمتّع فيه المرء بالحق في الخدمة المهذّبة واحتج على اللهجة التي خوطب بها مِمّا انتهى برجال الشرطة على غير توقّع إلى إدراك أن سكيراً واحداً لا يكفي لوجود ثلاثة من رجال الشرطة فاصطحبوا أولريش أيضاً على الفور.

والتفّت حول ذراعه يد أحد لابسي البزّة الرسميّة. وكانت ذراعه أقوى إلى حدٍّ بعيد من هذه الإحاطة المُطْبِقة المهينة ولكنَّ لم يكن يجوز له أن ينسفها إذا كان لا يريد أن يزجّ بنفسه في ملاكمة لا أمل فيها مع قوّة الدولة المسلّحة بحيث لم يتبَّق له في النهاية سوى أن يلتمس بطريقة مهذّبة أن يُترَك ليذهب معهم طوْعاً. وكانت حجرة المخفر موجودة في مبنى مفوضيّة للشرطة وحين دخلها أولريش شعر ان الأرض والجدران تذكرانَه بثكنة. كان الصراع المرير ذاته بين القذارة التي يتمّ إدخالها فيها بعناد وبين وسائل التنظيف الخشنة التي تملؤها. وكان الأمر التالي الذي لاحظه فيها الرمز المرّصع الخاص بالسلطة المدنيّة طاولتان للكتابة مع إفريز كانت تنقصه بعض الأعمدة الصغيرة وهما في الحقيقة صندوقان للكتابة مُغَطّيان بخوان ممزّق ومحروق يستقران على قوائم

كروية شديدة الانخفاض وهما ملمَّعان بطلاء بنيّ ضارب إلى الصفرة من أيام الإمبراطور فرديناند لم يكن عالقاً منه على الخشب بعدُ إلّا الصفائح الأخيرة. وكان الأمر الثالث هو أنّه كان يملأ المكان الشعور الثقيل بأنَّ على المرء هنا أن ينتظر بدون أن يحقّ له السؤال. وكان شرطيّ أولريش يقف إلى جانبه كالعمود بعد أن أفصح عن سبب الاعتقال. وحاول أولريش أن يدلي بأيّ بيان على الفور. ورفع الرقيب والآمر لهذا الحصن إحدى عينيه عن ورقة إضبارة كان يكتب عليها حين دخل الخفراء وقاس أولريش الشعور باللانهاية. ثم أزاح الرقيب الورقة جانباً وتناول كتاباً من الرف ودوَّن فيه شيئاً ونثر عليه الرمل وأعاد الكتاب وتناول آخر ودوّن ونثر وسحب رزمة من الأضابير من مجموعة مشابهة واستأنف عمله في هذه. وخامر أولريش الشعور بأنَّ هناك لا نهاية ثانية تنبسط أمامه بينما كانت الكواكب في أثناء ذلك تدور بانتظام بدون أنَّ يكون له وجود في الدنيا.

ومن المكتب كان باب مفتوح يفضي إلى ممرّ كانت تقع عنده الزنزانات وإليها كانوا قد استاقوا من يحامي عنه أولريش على الفور ولمّا لم يُسمَع شيءٌ عنه بعد ذلك فقد كان من الممكن أن يكون سِكْرُه قد عاد عليه ببركة النوم. ولكنَّ كان من الممكن الشعور بوجود ممرات أخرى موحشة ولا بدّ أن الردهة ذات الزنزانات كان لها مدخل ثان أيضاً. وكان أولريش يسمع على نحو متكرِّر صوتاً ثقيلاً لمجيء وذهاب وصَفْقِ أبواب وأصواتاً مكبوتة. وارتفع دفعة واحدة حين أدخل إنسان من جديد مثل هذا الصوت وسمعه أولريش يتضرّع يائساً وهو يقول: «اذا كان لديك حتى مجرّد ذرّة من الشعور الإنسانيّ فلا تعتقلني!». وكانت الكلمات تنقلب انقلاباً وكانت تبدو مناسبة إلى حدٍّ يلفت النظر بل يكاد يبعث على الضحك هذه المناشدةُ لموظَّفٍ أن يكون لديه الشعور. إذ ان الوظائف لا تمارس إلّا ممارسة موضوعية. ورفع الرقيب رأسه

twitter @baghdad_library

لحظة بدون أن يترك أضابيره تماماً وكان أولريش يسمع الوقع العنيف لكثير من الأقدام التي كانت أجسامها على ما يبدو تدفع وهي صامتة جسداً مقاوماً ثم ترنحّ صوت قدمين وحيداً كأنّما بعد صدمة. ثم انصفق باب بعنف داخلاً في قفله وصرَّ مزلاج وكان الرجل ذو البزّة الرسميّة وراء طاولة الكتابة قد أحنى رأسه من جديد وفي الهواء كان يقع صمت نقطة وضعت في مكانها الصحيح وراء جملة.

ولكن بدا أنَّ أولريش أخطأ في افتراضه أنّه لم يخلق هو أيضاً لعالم الشرطة. ذلك لأنّ الرقيب نظر اليه حين رفع رأسه في المرة التالية و ظلّت السطور المكتوبة أخيراً نديّة تتألّق بدون تجفيف وبدت حالة أولريش وكأنّها داخلة منذ عهد بعيد في الحياة الرسميّة هنا. الاسم؟ العمر؟ المهنة؟ المسكن؟. . : كان أولريش يُستجوب.

واعتقد أنّه دخل آلة تقوم بتفكيكه إلى أجزاء عامة غير شخصيّة قبل أن يجري مجرّد الحديث عن ذنبه أو براءته. أمّا اسمه هاتان الكلمتان الأكثر فقراً من حيث التصوّر في اللغة والأكثر غنىً في الشعور مع ذلك فلم يكن هنا ينبىء عن شيء أبداً وأمّا أعماله التي عادت عليه بالشرف في عالم العلم الذي يعدّ في العادة ثابت الأركان بلا ريب فلم يكن لها وجود في هذا العالم هنا ولم يُسأل عنها مرّة واحدة كان وجهه يعدّ مجرّد وصف تمييزي من أجل بطاقة هويّة وكان يشعر أنّه لم يفكّر من قبل أبداً أنَّ عينيه كانتا رماديتين وهما زوج من أزواج العيون الأربعة المسموح بها رسمياً والتي كانت موجودة بملايين القطع. كان شعره أشقر وكانت قامته طويلة وكان وجهه بيضاوياً. أما العلامات الفارقة الخصوصيّة فلم يكن له منها شيء على الرغم من أنّه كان له هو ذاته رأي آخر في ذلك فقد كان حسب شعوره طويلاً وكان عريض المنكبين وكان قفصه الصدريّ يستقر كشراع مقبَّب على الصارية وكانت مفاصل جسده

تجعل للعضلات نهاية مثل الأعضاء الفولاذية المستدقّة بمجرّد أن يتولّاه الغيظ أو يتشاجر أو تلتصق به بونادیا. وكان في مقابل ذلك ناحلاً رقيقاً غامضاً ليّناً كقنديل البحر العائم في الماء بمجرّد أن يقرأ كتاباً يستحوذ عليه أو تمسّه نفحة من الحبّ الكبير الذي لا وطن له والذي لم يستطع قط أن يفهم وجوده - في - العالم ومن أجل ذلك كان مايزال يتمتَّع حتى في هذه اللحظة باستعداد للتحرير الإحصائي لشخصه من السحر. وكانت الطريقة المطبقة عليه في القياس والوصف من قبل ادارة الشرطة تبعث فيه الحماسة مثل قصيدة حبّ مخترعة من قبل الشيطان. وكان ما هو أكثر إثارة للعجب في هذا الصدد أنَّ الشرطة لا تستطيع أن تفكّك إنساناً على هذا النحو بحيث لا يبقى منه شيء فحسب بل تركبّه أيضاً من جديد من هذه الأجزاء التافهة على نحو لا يقبل الالتباس وتتعرَّف عليه بوساطتها ولا يقتضي هذا العمل إلّا أن يطرأ عليه شيء لا سبيل إلى تقديره تسمّيه الشبهة.

وأدرك أولريش دفعة واحدة أنّه لا يستطيع أن يخلّص نفسه من الوضع الذي تورّط فيه بحماقته إلّا بأكثر ضروب الذكاء بروداً واستؤنف استجوابه وجعل يتصوّر الأثر الذي يمكن أن يحدثه لو شاء أن يجيب إذا ما سئل عن مسكنه بقوله مسكني مسكن شخص غريب عني أو ردّ على سؤال لماذا فعل ما فعل بقوله أنّه يفعل دائماً شيئاً مختلفاً عمّا يقصد إليه بالفعل ولكنَّه صرّح ظاهرياً عن الشارع والمسكن بأسلوب مهذَّب وحاول أن يخترع تصويراً تبريرياً لسلوكه وكان السلطان الداخلي للفكر في هذا الصدد عاجزاً بطريقة مؤلمة إلى أقصى الحدود حيال السلطان الخارجي للرقيب وأخيراً لاحت له على الرغم من ذلك لفتة من لفتات النجاة فلم يكد يورد على شفتيه حين سئل عن مهنته كلمة «خصوصي» - وما كان ليورد أبداً على شفتيه كلمة «عالم خصوصي» - حتى شعر بنظرة تستقر عليه كانت تراه على وجه الدقة أنّه قال «بلا مأوى»

twitter @baghdad_library

ولكنَّ حين جاء الآن دور أبيه لدى السؤال عن الجنسيّة وتبيّن أنّه عضو في ملجس الأعيان عند ذلك أصبحت هذه نظرة أخرى وكان أولريش ما يزال سيء الظن ولكنَّ شيئاً ما أضفى عليه على الفور شعوراً كما لو أن رجلاً تتقاذفه أمواج البحر جيئة وذهاباً لامَس بالاصبع الكبرى في قدمه أرضاً صلبة واستغل ذلك بحضور بديهي منبعث على وجه السرعة فخفّف على الفور كلّ ما كان قد سلَّم به وواجه سلطة الأذنين التي كانت في حالة القَسَم الخاص بالخدمة بالمطالبة الملّحة بأن يُستَجوَب من قبل المفوَّض نفسه وحين لم يُحدِث هذا إلّا الابتسام كذب ـ بأسلوب طبيعي وُفِّق إلى العثور عليه وبصورة عَرَضية جداً وكان على استعداد أن يموّه الإدعاء وينقضه بالموارِبة من جديد على الفور إذا ما أريد أن يُضْفَر له منه أنشوطة لاشارة استفهام تتطلّب بيانات دقيقة ـ قائلاً أنّه صديق الكونت لاينزدورف وأمين سرّ العمل الوطني الكبير الذي سيكون المرء قد قرأ عنه في الصحف. واستطاع أنَّ يلاحظ على الفور أنّه أثار بذلك حول كيانه ذلك الإمعان في التفكير الذي ظلَّت اثارته تمتنع عليه حتى الآن وتشبّث بمزيَّته وكانت النتيجة أنَّ الرقيب جعل يقيسه بعينيه طولاً وعرضاً لأنّه لم يرد لا أن يتحمّل المسؤولية عن الاحتفاظ بهذه اللقطة مدة أطول ولا أن يخلي سبيله. ولمّا لم يكن في هذه الساعة موظَّف أعلى في المبنى فقد وقع على مخرج كان يسجّل للرقيب البسيط شهادة حسنة على أنّه تعلَّم شيئاً من الأسلوب الذي يتناول به رؤساؤه أولو الفهم والادراك من الموظَّفين القضايا المزعجة فاتّخذ سيماء الأهميّة وأعرب عن تكهنات جدية بأنّ أولريش لم يحمّل نفسه مسؤوليّة إهانة الحرس وإعاقة إجراء رسميّ فحسب بل يعدّ أيضاً متَّهماً بأعمال غير شرعية طائشة وربّما سياسية وذلك على وجه الخصوص عندما يأخذ المرء بعين الاعتبار المركز الذي يزعم أنّه يتبوأه مِمّا يحمله على الاستئناس بإحالته إلى القسم السياسي في رئاسة الشرطة.

وهكذا انطلق أولريش بعد بضع دقائق في عربة أعدَّت له في قلب الليل والى جانبه شرطي مدنيّ قليل الميل إلى الحديث. وحين اقتربا من رئاسة الشرطة رأى المعتقل نوافذ الطابق الأوّل مضاءة إضاءة احتفالية إذ كانت تنعقد جلسة هامة عند الرئيس الأعلى حتى ساعة متأخِّرة ولم يكن المبنى حظيرة مظلمة بل كان يحاكي وزارة وبات يستنشق هواء أدعى إلى الأنس. وسرعان ما لاحظ أيضاً أنَّ موظَّف الخدمة الليلية الذي قدِّم إليه أدرك على وجه السرعة العبث الذي قامت به الهيئة المستثارة القائمة في الضواحي بتقريرها. ومع ذلك فقد بدا له أن من غير المستحسن إلى حدٍّ غير عادي إطلاق سراح إنسان من قبضة العدالة وقد كانت لديه اللامبالاة التي حملته على أن يرمي نفسه بنفسه فيها. وكذلك كان موظَّف الرئاسة يحمل هو أيضاً في وجهه آلة حديدية وقد أكد للأسير أنّ تهوّره يجعل تحمُّل مسؤوليّة اطلاق سراحه أمراً يبدو عسيراً إلى أقصى الحدود. وكان هذا قد عرض مرّتين كلّ ما كان قد أحدث أثراً ملائماً لصالحه على الرقيب إلى حدٍّ بعيد ولكنَّ هذا ظلّ عديم الجدوى أمام الموظَّف ذي المرتبة الأعلى وأوشك أولريش أنَّ يسلّم بخسارة قضيته حين طرأ على وجه قاضيه دفعة واحدة تغيير يلفت النظر يكاد يكون سعيداً فتأمّل التقرير مرّة أخرى بدقَّة واستعاد تلاوة اسم أولريش مرّة أخرى وتأكّد من عنوانه والتمس منه بأسلوب مهذَّب أن ينتظر لحظة بينما كان يغادر الحجرة واستغرق الأمر عشر دقائق إلى أن عاد أدراجه مثل إنسان تذكَّر شيئاً ممتعاً ودعا المقبوض عليه الآن بأدب يلفت النظر إلى أن يتبعه. وعند باب إحدى الحجرات المضاءة في الطابق العلوي لم يقلّ شيئاً أكثر من قوله: «السيِّد رئيس الشرطة يرغب في أن يتحدَّث اليك أنت». وفي اللحظة التالية كان أولريش يقف أمام سيِّد قادم من قاعة الإجتماع المجاورة له لحية مشطورة وقد عرفه الآن. وكان قد اعتزم أن يصرِّح بأن وجوده خطأ من قسم الشرطة مع عتاب لطيف. ولكنَّ الرئيس استبقه وحيّاه بهذه الكلمات: «انه سوء فهم يا عزيزي

twitter @baghdad_library

الدكتور وقد روى لي السيِّد المفوّض كلّ شيء ومع ذلك فلا بدّ لك أن تنال عقوبة صغيرة لأنّ ـ» ونظر إليه عند هذه الكلمات نظرة ماكرة (على قدر ما يجوز للمرء أن ينسب المكر مطلقاً إلى موظَّف أعلى في الشرطة) وكأنّه يريد أنَّ يدعه يحزر اللغز بنفسه.

ومع ذلك فلم يحزر أولريش شيئاً على الإطلاق.

وساعده الرئيس بقوله: «حضرة الشريف!» وأضاف قائلاً: «لقد استعلم حضرة الشريف عنك لديَّ منذ ساعات قلائل فحسب بإلحاح بالغ وأنت غير وارد في سجل العناوين يا سيِّدي الدكتور!» وكان الرئيس يشرح ذلك في عتاب هزلي وكأن هذا وحده جريمة أولريش.

«وأنا أفترض أنَّ عليك أن تقوم بزيارته غداً في شأن له أهمِّية عامة كبرى ولا تحمِّلني مسؤوليّة إعاقتك عن ذلك بحّبك». وهكذا اختتم سيِّد الآلة الحديدية نكتته الصغيرة.

على أنّه يحق للمرء أن يفترض أنَّ الرئيس كان خليقاً أنَّ يرى في الاعتقال في كلّ حالة أخرى ظلماً أيضاً. وأنّ المفوَّض الذي تذكَّر السياق الذي ظهر فيه إسم أولريش أوّل مرّة في هذا المبنى قد صوّر للرئيس الحادث على نحو مماثل بدقَّة للصورة التي كان على الرئيس أن يراه بها من أجل هذا الغرض بحيث لا يكون أحد قد تدخل تدخّلاً تعسفياً في مجريات الأمور على أن الشريف لم يطلع آخر الأمر على هذه العلاقة أبداً وشعر أولريش أنّه ملتزم أن يبلغه بقدومه في اليوم الذي تلا أمسية هذه الإهانة لصاحب الجلالة وأصبح في هذه المناسبة على الفور أمين سرّ رسمياً فخرياً للعمل الوطني الكبير. أمّا الكونت لاينزدورف فلو عرف السياق لما استطاع أن يقول شيئاً آخر سوى أن الأمر حدث بمعجزة.

[٤١]

راحيل وديوتيما

وبعد ذلك حدث الإِجتماع الكبير الأوّل للعمل الوطني الكبير عند ديوتيما.

وكانت حجرة الطعام بجانب الصالون قد حُوّلت إلى حجرة للمشاورات. وكانت منضدة الطعام قائمة وهي مبسوطة ومغطّاة بمفرش أخضر في وسط الغرفة. وكانت صحف من ورق منستر الأبيض العاجي وأقلام الرصاص ذات القساوة المختلفة موجودة أمام كلّ مكان وقد أبعدت خزانة البوفيه. وكانت زوايا الغرفة خالية متجهِّمة وكانت الجدران عارية على نحو يوحي بالخشوع باستثناء صورة لصاحب الجلالة كانت ديوتيما قد علّقتها وكانت تلك الصورة لسيدة هيفاء القامة كان السيِّد توتسي قد جاء بها إلى الوطن فيما سلف من مكان ما وهو قنصل على الرغم من أنّه كان من الجائز أن تعدّ صورة لإحدى الجدات. وكان أحب الأشياء إلى ديوتيما أن تضع أيضاً صورة للمصلوب عند رأس الطاولة. ولكنَّ رئيس القسم توتسي ضحك منها قبل أن يغادر منزله هذا اليوم لاعتبارات اللياقة.

ذلك لأنّ العمل الموازي كان يفترض أن يبدأ بداية خصوصيّة تماماً فلم يظهر وزراء أو كبار من الرسميِّين وكذلك تخلَّف كلّ سياسي وكان هذا عن قصد. إذ كان يفترض في البداية حشد خدّام الفكرة المتَّسمين بنكران الذات فحسب في أضيّق دائرة. كان ينتظر وجود حاكم المصرف الوطني والسادة فون هولتسكوبف والبارون فيسنتسكي وسيّدات متفرِّقات من كبار النبلاء

twitter @baghdad_library

وشخصيات معروفة في مجال الرعاية الإِجتماعية المدنيّة وإخلاصاً لمبدأ الكونت لاينزدورف «المال والثقافة» ممثلو المعاهد العليا والاتحادات الفنِّية والصناعة والملكيّة العقارية الأصيلة والكنيسة. وكانت الدوائر الحكوميّة قد كلَّفت بتمثيلها موظَّفين صغاراً لا يلفتون النظر ويتلاءمون اجتماعياً مع هذا المحيط ويتمتَّعون بثقة رؤسائهم. وكان هذا التركيب يتماشى مع رغبات الكونت لاينزدورف الذي كان يفكِّر في إعلان نابع من وسط الشعب بدون قسر ولكنَّه أحسّ مع ذلك بارتياح كبير أيضاً بعد تجربة «النقاط» إذ علم مع من تكون العلاقة في هذا الصدد.

وكانت الخادمة الصغيرة راحيل (وقد ترجم اسمها من قبل سيّدتها بشيء من الحرية إلى الفرنسيِّة براشيل) قد نهضت على قدميها منذ الساعة السادسة. وكانت قد فتحت منضدة الطعام الكبيرة وقربت اليها منضدتين لورق اللعب وشدّت عليها مفرشاً أخضر ثم نفضت الغبار نفضاً جيّداً على نحو خاص ونفذَّت كلاً من هذه الأعمال الثقيلة في حماسة متوقِّدة وكانت ديوتيما قد قالت لها في المساء السابق «غداً ربّما يتمّ عندنا صنع تاريخ العالم!». وانتفضت راحيل بكلّ جسدها من السعادة المتمثِّلة في كونها رفيقة منزل لمثل هذا الحدث الأمر الذي كان يؤيد هذا الحدث تأييداً بالغاً لأنّ جسد راحيل تحت الثوب الصغير الأسود كان فاتناً مثل بورسلين مايْسِن.

كانت راحيل في التاسعة عشرة وكانت تؤمن بالمعجزات وقد ولدت في كوخ قبيح في غاليسيا حيث كان يُعلَّق على قائمة اطار الباب صفحة التوراة وكانت في الأرضيّة أخاديد ينبعث منها التراب وقد لُعِنَت وقذف بها إلى الباب وكانت أمها قد اتخذت سيماء الحيرة ازاء ذلك وابتسمت الأخوات بوجوههن المذعورة ابتسامة الشماتة وكانت تجثو على ركبتيها متوسِّلة وقد اعتصر العار قلبها. ولكنَّ لم يجدها شيء. كان فتى لا ضمير له قد أغواها وما عادت

تعرف كيف كان ذلك. وكان عليها أن تلد عند الغرباء ثم تغادر البلد. ورحلت راحيل وتحت الصندوق الخشبي الذي رحلت فيه كان اليأس يرتحل معها وقد بكت حتى نضبت دموعها ولم تر الحاضرة التي هربت إليها مدفوعة بغريزة ما إلّا كجدار ناري كبير أمامها كانت تريد أن تهوي فيه لكي تموت ولكنَّ يا لها من معجزة حقيقية فقد انشطر الجدار واستقبلها ومنذ ذلك الوقت لم يكن يدور في خلد راحيل شيء آخر سوى أنّها تعيش في داخل شعلة ذهبيّة وساقتها المصادفة إلى بيت ديوتيما ووجدت هذه أنَّ من الطبيعي جداً أنَّ يفرّ المرء من بيت الوالدين الغاليسي إذا كان سينتهي به المطاف اليها من جراء ذلك وكانت تروي للصغيرة بعد أن تآلفتا في بعض الأحيان عن المشاهير ذوي المراكز العالية من البشر الذي كانوا يتردَّدون على المنزل حيث كانت «راشيل» تتمتَّع بشرف السماح لها بالخدمة. وكانت قد أسرَّت إليها حتى ببعض الأمور حول العمل الموازي إذ كان من قبيل المتعة عندها أن تملأ عينيها من نجمتي عيني راحيل اللتين كانتا تلتهبان مع كلّ نبأ وتضاهيان المرايا الذهبية التي كانت تعكس صورة السيِّدة على نحو مشرق.

ذلك لأنّ الصغيرة راحيل كانت في الحقيقة قد تعرَّضت للّعنة من أبيها بسبب فتى لا ضمير له ولكنّها كانت مع ذلك فتاة مستقيمة وكانت تحبّ ببساطة كلّ شيء في ديوتيما: الشعر اللدن الداكن الذي كان يتاح لها أن تنظفه بالفرشاة صباحاً ومساءً والثياب التي كانت تعينها على ارتدائها وأشعال النقش الصينية والطاولات الهندية الصغيرة المحفورة والكتب ذوات اللغات الأجنبية المتناثرة حواليها والتي لم تكن تفهم منها كلمة وكانت تحبّ أيضاً السيِّد توتسي وأحبّت مؤخراً الغنيّ الذي زار سيّدتها الفاضلة حتى في اليوم الثاني بعد وصوله ـ من ذلّ وكانت هي تجعل ذلك في اليوم الأول. وقد حدقّت فيه راحيل وهو في غرفة الإنتظار بحماسة جلية وكأنّها تحدّق في مخلّص

twitter @baghdad_library

المسيحيين الذي صعد من خزانته الذهبية. وكان الشيء الوحيد الذي كرّرها هو أنّه لم يصطحب معه فتاة سليمان ليقوم على خدمة سيّدتها.

أمّا اليوم وفي جوار مثل هذا الحدث العالميّ فقد كانت على يقين أنّه لا بدّ أن يحدث شيء من أجلها أيضاً وكانت تفترض أنَّ سليمان سيأتي هذه المرة على ما يبدو بصحبة سيِّدة كما كانت جلالة الحدث تقتضي ذلك. ومع ذلك فلم يكن هذا التوقّع هو المسألة الرئيسيّة بحال من الأحوال بل مجرّد التعقُّد اللازم أو العقدة أو الحبكة اللواتي لم تكنّ تفتقد في أيَّة رواية من الروايات التي كانت راحيل تهذِّب نفسها بها. ذلك لأنّه كان من حقّ راحيل أن تقرأ الروايات التي كانت دوتيما تطرحها جانباً مثلما كان يحق لها أيضاً أن تعدّل خياطة الثياب التي ما عادت تلبسها ديوتيما من أجل نفسها. وكانت راحيل تعرف الخياطة والقراءة. كان هذا تراثها اليهودي ولكنَّ حين يكون في يديها رواية أشارت ديوتيما إلى أنّها عمل فنِّي عظيم ـ وكان الأحبَّ إليها أن تقرأ أمثال هذه ـ عند ذلك كانت بالطبع لا تفهم الأحداث إلّا مثلما ينظر امرؤٌ إلى حدْث حيّ من مسافة بعيدة أو في بلد غريب وكانت الحركة غير المفهومة بالقياس اليها تشغلها بل تستحوذ عليها بدون أن تتمكَّن من التدخّل فيها بكلام ما وكانت تحبّ هذا حباً فائقاً وعندما كانوا يرسلونها إلى الطرف الآخر من الشارع أو كان يأتي زائر نبيل إلى البيت كانت تستمتع بالطريقة ذاتها بالحركة الكبيرة والمثيرة في مدينة امبراطورية بفيضٍ من التفاصيل المتألّقة يتجاوز كلّ مفهومٍ تجاوزاً بعيداً كانت تسهم فيها ببساطة وذلك بأن تكون موجودة في مكان مفضّل من وسطها. ولم تكن تريد أن تفهم هذا على الإطلاق فهماً أفضل. أمّا تعليمها الأوليّ السابق اليهوديّ والأمثال الذكيّة في بيت والديها فقد نسيتها بدافع الحنق وكانت لا تحتاج إليها إلّا بمقدار ما تحتاج زهرة إلى ملعقة وشوكة لكي تغتذي بعصارات الأرض وبالهواء.

وهكذا عمدت الآن مرّة أخرى إلى كلّ أقلام الرصاص فجمعتها وأولجت رؤوسها المدبّبة اللامعة بحذر في الآلة الصغيرة التي كانت قائمة عند زاوية الطاولة وكانت تُسْحج الخشب بصورة كاملة عندما يدير المرء ذراعها بحيث لا يعود يسقط شعيرة لدى تكرار العملية. ثم أعادت أقلام الرصاص من جديد إلى صفائح الورق اللدن كالمخمل ثلاثة من أنواع متباينة إلى جانب كلّ واحدة وحدثت نفسها حيال ذلك بأن هذه الآلة الكاملة التي يتاح لها أن تستعلّمها تعود إلى وزارة الخارجية والبيت الإمبراطوري ذلك لأنّ ساعياً كان قد جاء بها من هناك مساء الأمس وكذلك أقلام الرصاص والورق. وكانت الساعة في هذه الأثناء قد بلغت السابعة. وألقت راحيل بسرعة نظرة عامة على كلّ تفاصيل النظام وأسرعت خارجة من الحجرة لكي توقظ ديوتيما إذ كان قد حدّد موعد الإجتماع بالساعة العاشرة والربع وكانت ديوتيما قد ظلَّت في سريرها قليلاً بعد انصراف السيِّد.

وكانت هذه الصباحات مع ديوتيما من المتع الخصوصيّة عند راحيل. على أن كلمة الحبّ لا تعبّر عنها التعبير المميّز بل الأحرى بذلك كلمة التبجيل عندما يتمثّلها المرء بمعناها الكامل حيث يتغلغل الشرق المجازيّ في الإنسان حتى يغدو مترعاً به في أعمق أعماقه ويُرفَع دفعاً إلى الخروج عن ذاته ومفارقه مكانه. وكان لراحيل منذ مغامرتها في الوطن بنت صغيرة كانت الآن تبلغ من العمر عاماً ونصف العام وكانت تدفع إلى حاضنة جزءاً كبيراً من أجرها في يوم الأحد الأوّل من كلّ شهر على الضبط حيث كانت ترى ابنتها عند ذلك أيضاً. ولكنّها كانت تراها في هذا الصدد على الرغم من أنها كانت لا تقصِّر في واجبها من حيث كونها أمّاً مجرّد عقوبة مستحقة في الماضي وكانت أحاسيسها قد عادت من جديد أحاسيس فتاة لم يغزُ الحبّ جسدها العفيف بعد. وتقدَّمت من سرير ديوتيما وجرى بصرها على كتفها وهي والهة مثلما يبصر متسلقٌ

twitter @baghdad_library

الجبل القمّة الثلجية التي تنبعث من غسق الصباح في الزُرْقة الأولى قبل أن تمسّ بأصابعها حرارة البشرة الملساء كالصدف. ثم تذوَّقت الرائحة ذات المزيج المعقّد على نحو مرهف رائحة اليد التي برزت ناعسة من تحت الدثار لكي تُقَبَّل وكانت تفوح منها رائحة سوائل التجميل في اليوم السابق ولكنَّ كان فيها أيضاً رائحة أبخرة الراحة في الليل؛ ووضعت حذاء المنزل الصباحي تلقاء القدم العارية الباحثة عنه واستقبلت النظرة المستيقظة. غير أن الملامسة الحسِّية للجسد النسائي الرائع كانت خليقة أنَّ تكون أقلّ من ذلك جمالاً إلى حدٍّ بعيد بالقياس إليها لو لم يتخلّل شعاع الأهميّة المعنوية لديوتيما تخللاً كاملاً.

وقالت ديوتيما هذه المرة: «هل قدَّمت للشريف المقعد ذا المسندين؟ ووضعت في مكاني الجرس الفضيّ الصغير؟ وفي مكان أمين سرّ المؤتمر اثنتي عشرة صحيفة من الورق؟ وستة من أقلام الرصاص ستة يا راشيل لا ثلاثة فحسب في مكان أمين السر». وكانت راشيل تحصي مع كلّ من هذه الأسئلة في نفسها مرّة أخري على أصابعها كلّ ما فعلته ويتولّاها الفزع الشديد من جرّاء الطموح وكأن حياة تتعرّض للخطر. وكانت سيّدتها قد طرحت على نفسها رداءً صباحياً وتوجّهت إلى حجرة المداولة. وكان أسلوبها في تربية «راشيل» هو أنّها كانت تذكَّر هذه في كلّ ما كانت تأتي أو تدع أنّه لايجوز للمرء أبداً أن ينظر إلى ذلك على أنّه مجرّد شأن شخصي خاص به بل يجب عليه أن يفكِّر في الأهميّة العامة. فإذا كسرت راحيل كأساً عرفت «راشيل» أنَّ الضرر لا أهمِّية له البتّة في حد ذاته ولكنَّ الزجاج الشفاف يعني رمزاً للواجبات اليوميّة الصغيرة التي لا تكاد العين تحسّ بها إذ يسرّها أنَّ تتوجَّه إلى ما هو أسمى والتي يترتّب على المرء خلالها ومن أجلها على وجه الخصوص أن يكرِّس لها اهتماماً خاصاً. وكانت الدموع تكاد تطفر من عيني راحيل مع

مثل هذه المعاملة المهذَّبة تهذيباً كهنوتياً من الندم والسعادة وهي تلمّ الشظايا بالمكنسة. وكانت الطباخات اللواتي كانت ديوتيما تطالبهن بالتفكير الصحيح ومعرِّفة الأخطاء المرتكبة قد تبدَّلن مراراً منذ وجود راحيل في الخدمة. غير أن راحيل كانت تحبّ هذه العبارات الرائعة من كلّ قلبها مثلما كانت تحبّ الإمبراطور والجنازات والشموع التي ترسل شعاعها في ظلمة الكنائس الكاثوليكية. وكانت تكذب من حين إلى آخر لتخلِّص نفسها من ورطة ولكنّها كانت تبدو في نظر نفسها بالغة السوء بعد ذلك بل ربّما أحبَّت الكذبات الصغيرة على وجه الخصوص لأنَّها كانت تشعر في هذا الصدد بكلّ سوئها بالقياس إلى ديوتيما غير أنّها لم تكن تسمح لنفسها في العادة بذلك إلّا حين كانت تأمل بعدُ أنَّ تتمكَّن من تحويل شيء كاذب إلى حقيقة على نحو سرّي وبسرعة.

وعندما يتطلّع إنسان ببصره إلى إنسان آخر على هذا النحو في كلّ شيء وفي كلّ مسألة يحدث أنَّ ينسحب منه جسده انسجاماً ويسقط مثل حجر نيزكي صغير في شمس الجسد الآخر. ولم تجد ديوتيما شيئاً ينتقد ورتبت على كتف خادمتها الصغيرة بمودّة ثم توجّهتا إلى الحمّام وأخذتا في التجمّل لليوم العظيم. وعندما مزجت راحيل الماء الدافيء وجعلت الصابون يرغي وأتيح لها أنَّ تجفِّف بالمنشفة جسد ديوتيما بجرأة كما لو كان ذلك جسدها أتاح لها هذا من المتعة قدراً أكبر كثيراً مِمّا لو كان هذا بالفعل مجرّد جسدها الخاص إذ كان هذا يبدو لها تافهاً غير أهل للثقة وكان بعيداً عن ذهنها أن تفكِّر فيه حتى على سبيل المقارنة فحسب وكان يخيّل إليها حين كانت تلامس غِنى ديوتيما التمثاليّ أنّها مجنّد من أجلاف الفلاحين ينتمي إلى كتيبة مشرقة الجمال.

وهكذا تسلّحت ديوتيما لليوم العظيم.

twitter @baghdad_library

[٤٢]

الاجتماع الكبير

وحين أدبرت الدقيقة الأخيرة قبل الساعة المحدَّدة ظهر الكونت لاينزدورف في صحبة أولريش. أما راحيل التي كانت تتأجّج حماسة لأنّ ضيوفاً كانوا يأتون بغير انقطاع حتى الآن. وكان عليها أنْ تفتح لهم وتساعدهم على خلع ملابسهم فقد تعرّفت على هذا في الحال وأحاطت علماً وهي قريرة العين بأنّه هو أيضاً لم يكن زائراً عرضياً بل كان رجلاً ساقته علاقات لها شأنها إلى منزل سيّدتها كما تبيَّن الآن إذ عاد في صحبة الشريف وكانت أطرافا ترفرف كالفراشة حول باب الحجرة التي فتحتها بطريقة احتفالية ثم قعدت القرفصاء بعد ذلك أمام ثقب القفل لكي تعلَّم ما سيحدث الآن. وكان ثقب القفل عريضاً ورأت الذقن الحليق للحاكم وربطة العنق البنفسجية للحَبْر نيدومالسكي وكذلك هدّاب السيف الذهبي للجنرال شتوم فون بوردفير الذي كان قد بعثت به وزارة الحربيّة على الرغم من أنّه لم يُدْعَ في الحقيقة وقد بيّنت على الرغم من ذلك في رسالة إلى الكونت لاينزدورف أنّها لا تريد أن تغيب حيال «شأن وطني رفيع المستوى» كهذا وإن لم تكن لها أيضاً علاقة بأصله وبالمسار الذي يتوقَّع له بصورة مباشرة. ولكنَّ ديوتيما نسيت أنَّ تخبر راحيل بهذا. وهكذا كانت هذه مستاءة استياءً شديداً لوجود ضابط وسط المناقشة غير أنّها ما عادت تستطيع مؤقتاً أن تستخلص شيئاً من الأشياء التي كانت تحدّث في الغرفة.

وكانت ديوتيما في هذه الأثناء قد استقبلت الشريف ولم تّظهر كبير اهتمام بأولريش إذ قدَّمت الحاضرين وقدَّمت للشريف أوّل من قدَّمت الدكتور باول آرنهايم حيث أعلنت أنَّ مصادفة سعيدة ساقت هذا الصديق الشهير إلى بيتها هنا واذا كان لا يحقّ له بحكم كونه أجنبياً أن يدَّعي الحقّ بالمشاركة في الجلسات بكلّ أشكالها فإنها ترجو مع ذلك أن يسمح له بالدخول مستشاراً شخصيّاً لها لأنّ تجاربه وعلاقاته الكبرى ـ وهنا أضافت على الفور تهديداً رقيقاً ـ في المجال الثقافي الدولي وفي ارتباطات هذه المسائل بالعلائق الإقتصادية التي تعدّ بالنسبة اليها مرتكزاً لا يُقدَّر. وكان عليها حتى الآن أن تبلّغ عن ذلك وحدها ولن يكون من الممكن في المستقبل أيضاً التعويض عن ذلك بسرعة كبيرة وأنّها على الرغم من ذلك واعية لطاقتها غير الكافية وعياً شديداً.

ورأى الكونت لاينزدورف نفسه يتعرّض للمباغتة. وكان عليه أن يتعجب لأول مرّة منذ بداية علاقاتهما من عدم لياقة صديقته البورجوازيّة وكذلك شعر آرنهايم بالصدمة مثل ملك لم يُنظّم دخوله على النحو اللائق إذ كان على قناعة راسخة بأن الكونت لاينزدورف كان على علم بدعوته وأنّه أقرّها ولكنَّ ديوتيما التي بدا وجهها في هذه اللحظة محمرّاً ومتَّسِماً بالعناد لم تتراجع ومثل كلّ النساء اللواتي يتمتَّعن في مسائل الأخلاق الزوجيّة بضمير مفرط في النقاء كانت تتمكَّن من تطوير إلحاح انثوي شديد لا يقاوم حين يكون الأمر متعلقاً بمسألة من مسائل الشرف.

وكانت في تلك الأيام قد أُغرِمَت بآرنهايم الذي كان قد تردّد عليها بعض المرات في هذه الأثناء ولكنَّ لم يكن لديها لقلة خبرتها حدس يتّصل بطبيعة شعورها. وقد ناقشا معاً ما يحرِّك النفس التي تضفي النبل على اللحم الكائن بين أخمص القدم ومنابت الشعر ويحوّل الإنطباعات المشوَّشة الخاصّة

twitter @baghdad_library

بالحضارة إلى ذبذبات فكريّة متناغمة. ولكنَّ هذا أيضاً كان أكثر مِمّا ينبغي. ولما كانت ديوتيما قد ألفت الحذر وكانت طوال حياتها حريصة على ألّا تعري نفسها أبداً فقد بدت لها هذه الإلفة مباغتة أكثر مِمّا يجب. وكان عليها أن تعبِّىء مشاعر كبيرة جداً كبيرة على وجه الإِطلاق وبصورة خاصة وأين يجد المرء هذه أكثر ما يجدها؟ هنالك حيث ينقلها العالم كله: في الحدث التاريخيّ. لقد كان العمل الموازي بالقياس إلى ديوتيما وآرنهايم بمثابة جزيرة لتقاطع خطوط المواصلات في تواصلهما النفسيّ المتنامي وكانا يعدّان من قبيل الحذر الخصوصي ما جمعهما في مثل هذه اللحظة الهامّة. ولم يكن يوجد بينهما أدنى اختلاف في الرأي حول كون المشروع الوطني الكبير فرصة ومسؤولية هائلتين لرجال الفكر. وكان آرنهايم يقول هذا أيضاً على الرغم من أنّه لم يكن ينسى أيضاً أنْ يضيف أنَّ المسألة تعود في المقام الأوّل إلى أناس أقوياء ذوي خبرة سواء في المجال الإِقتصادي أم في مجال الأفكار وتعود بعد ذلك فحسب إلى حجم المنظّمة. وهكذا ارتبط عند ديوتيما العمل الموازي مع آرنهايم ارتباطاً لا ينفصم. أما الفراغ التصوّريّ الذي كان في البداية مرتبطاً بهذا المشروع فقد أفسح المجال لفيض غزير. وكان توقّع إمكانية تدعيم تراث الشعور الكامن في القومية النمساوية عن طريق التربية البروسية للأفكار يبرّر نفسه بزكثر الطرق نجاحاً. وبلغ من قوّة هذه الإِنطباعات ان المرأة المستقيمة لم يكن لديها حسّ تجاه الصدمة العنيفة التي أحدَّثتها حين دعت آرنهايم إلى حضور الجلسة التأسيسيّة. أما الآن فقد فات أوان التفكير في آخر. ولكنَّ آرنهايم الذي أدرك هذه العلاقة بطريق الحدس وجد فيها شيئاً تصالُحيّاً في جوهره مهما يكن من شأن الاستياء الذي بعثه لديه الوضع الذي سيق إليه. وكان الشريف في الأساس أكثر ترفُّقاً بصديقته من أن يعطي لاندهاشه تعبيراً أكثر حدة من التعبير اللاإراديّ. فسكت حيال بيان ديوتيما وبعد توقُّف قصير مزعج بسط إلى الدكتور آرنهايم يده متلطّفاً حيث رحَّب به بأكثر الطرق تهذيباً

ومجاملة كما كان ذلك حاله بالفعل وكان معظم من عداه من الحاضرين قد لاحظوا المشهد الصغير بلا ريب وقد تولّاهم العجب أيضاً من حضور آرنهايم ماداموا يعرفون من هو ولكنَّ المفترض بين ذوي التهذيب الحسن من البشر أن يكون لكلّ شيء سبب وجيه كما يعدّ من سوء الأدب أن يبحث المرء عن السبب بفضول.

وفي هذه الأثناء كانت ديوتيما قد استعادت هدوءها الظاهري وافتتحت الجلسة بعد بضع لحظات ورجت من الشريف أنَّ يشرّف منزلها بأن يتولّى الرئاسة فيه.

وألقى الشريف كلمة وكان قد حضَّرها بطولها وكانت طبيعة تفكير وأكثر رسوخاً من أنَّ يتمكَّن من تغيير شيء فيها في اللحظة الأخيرة ولم يستطع إلّا أنَّ يخفِّف بوجه خاص ن وقع الإيماءات الأكثر انكشافاً إلى النظام البروسي الخاص بإبرة الإشعال (الذي كان قد استبق الملقّمين الأماميين النمساويِّين استباقاً خبيثاً في عام ستة وستين). وقال الكونت لاينزدورف «ان ما جمعنا هو الإتفاق على ان الاعلان القوي النابع من قلب الشعب لا يجوز أنَّ يترك للمصادفة بل يتطلب تأثيراً فيه يتَّسم بنظرة بعيدة إلى الأمام ومن موقع يتمتَّع بأفق واسع للنظر أيّ أنّه آت من الأعلى. وان صاحب الجلالة امبراطورنا وسيدنا المحبوب سوف يحتفل العام ١٩١٨ بالعيد النادر السامي لارتقائه المبارك للعرش البالغ عمره سبعين عاماً متّعه الله بتلك العافية والنضارة اللتين تعودنا أنَّ نعجب بهما فيه واننا لواثقون أنَّ هذا العيد سيحتفل به من قبل شعوب النمسا العارفة للجميل بطريقة ينبغي أنَّ تظهر للعالم لا حبنا العميق فحسب بل تظهر له أيضاً أنَّ المملكة النمساوية ـ المجرية تلتف حول حاكمها بصلابة الصخر». وهنا تردد الكونت لاينزدورف في مسألة هل ينبغي له أنَّ يأتي على ذكر شيء من مظاهر التداعي التي كانت تتعرّض لها هذه الصخرة

twitter @baghdad_library

نفسها لدى الاحتفال المشترك بالإمبراطور والملك. ذلك لأنّه كان من الواجب في هذا الصدد أن يحسب حساب لمقاومة المجر التي لم تكن تعترف إلّا بملك ومن أجل ذلك كان الشريف يريد في الأصل أن يتحدَّث عن صخرتين تنتصبان في تلاحم وثيق. ولكنَّ حتى هذا لم يكن يعبّر عن الشعور النمساوي ـ المجريّ بالدولة عنده على الوجه الصحيح.

وقد كان هذا الشعور النمساوي ـ المجري بالدولة جوهراً يبلغ من غرابة بنيانه أنّه لا بدّ أن يبدو من العبث تقريباً شرحه لمن لم يُعانِه بنفسه. فلم يكن يتألّف مثلاً من شطر نمساوي وشطر مجري يتكاملان كما لو كان من الممكن للمرء أن يعتقد ذلك بل كان يتألّف من كلّ وجزء أيّ من شعور بالدولةِ مجريّ وشعور بالدولة نمساوي ـ مجريّ وكان هذا الثاني يعدّ في النمسا قائماً في موطنه إذ كان الشعور النمساوي بالدولة مجرّداً من الوطن من جرّاء ذلك في الحقيقة. وذلك أنَّ النمساوي لم يكن يبدو كذلك إلّا في المجر وكان يتجلى هناك نفوراً. أمّا في موطنه فكان يعدُّ نفسه تابعاً لدولة من الممالك والبلدان الممثَّلة في مجلس الرايْش في مملكة النمسا والمجر الأمر الذي يساوي في دلالته قدراً أكثر من النمساوية وقدراً أقلّ من المجرية بالنسبة للمجريين ولم يكن يفعل هذا بحماسة مثلاً بل من جرّاء فكرة كانت بغيضة إليه. ذلك لأنه كان لا يستطيع أن يحتمل المجريين مثلما لا يستطيع المجريون أن يحتملوه الأمر الذي كانت العلاقة تزداد به تعقيداً ومن أجل ذلك كان كثير من الناس يسمّون أنفسهم ببساطة تشيكيين أو بولونيين أوسلوفينيين أو ألمان وبذلك بدا ذلك التداعي المستمر وتلك «الظواهر غير المستحبة ذات الطبيعة المتَّصلة بالسياسة الداخلية» كما سماها الكونت لاينزدورف والتي كانت فيما يرى «من صنع عناصر غير مسؤولة تفتقر إلى النضج مهووسة بكلّ جديد» لا تجد الرفض اللازم عند جمهور السكان ذوي التثقيف السياسي الضئيل. وبعد هذه

التلميحات التي كتب حول موضوعها منذ ذلك الوقت كثير من الكتب الحافلة بالمعلومات والمتَّسمة بالذكاء سيسرّ المرء أن يتلقّى توكيداً بأنه لن يجري لا في هذا الموضع ولا فيما يليه المحاولة الجديرة بالتصديق لرسم صورة تاريخية والدخول في سباق مع الواقع. ويكفي تماماً أن يلاحظ المرء أنَّ أسرار التثنية (وهذا هو المصطلح الفني) كانت تعاد في صعوبة استجلائها صعوبة التثليث على الأقل. ذلك لأنّ القضيَّة التاريخية تماثل في كلّ مكان بدرجة أقلّ أو أكثر قضية تشريعية لها مائة من البنود الخاصّة والملاحق والمقارنات والتحفّظاتِ والى ذلك فحسب يجب لفت الانتباه. على أنَّ الإنسان العاديّ يعيش ويموت في ثناياها ولا يدري، وذلك خير له بلا ريب لأنّه إذا أراد أن يعمل حساباً حول نوعية القضيَّة التي تورّط فيها ومع أيّ المحامين وبأية مصاريف وأفكار رئيسيّة فمن الممكن أن يستحوذ عليه في كلّ دولة هوس الاضطهاد. على أن فهم الواقع يعدّ على سبيل الحصر قضية للمفكِّر التاريخي ـ السياسي. فبالقياس إليه يُعْقِب الحاضرُ موقعةَ موهاكس أو ليتسِن مثل ما يُعقِب الشواءُ الحساء. وهو يعرف كلّ الملاحق وينطوي في كلّ لحظة على الشعور بضرورة مبرّرة من وجهة القضيّة واذا كان حتى مثل الكونت لاينزدورف مفكراً ارستقراطياً مثقفاً ثقافة سياسية ـ تاريخية شارك أجداده الكبار وقرابتُه من جهة العصب ومن جهة الرَحم أنفسُهم في إحداث أثرهم في المحادثات التمهيدية كانت النتيجة بالقياس إليه نتيجة يمكن أن يحيط بها النظر على نحو يسير كالخط الصاعد.

من أجل ذلك كان الشريف قد قال للكونت لاينزدورف قبل الإِجتماع: «لا يجوز لنا أن ننسى أنَّ القرار الشهم لصاحب الجلالة بمنح الشعب حقّاً معيَّناً في المشاركة في تقرير شؤونه لمّا يمضِ عليه زمن طويل بحيث يمكن أن يكون قد حلَّ في كلّ مكان ذلك النضج السياسيّ الذي يبدو جديراً بالثقة التي

twitter @baghdad_library

أُولِيَتْ له بشهامة من قبل أعلى مقام. وعلى هذا فلن يترتّب على المرء أن يرى مثلما هو الحال في البلاد الخارجية الحسودة في أمثال هذه الظواهر الجديرة باللعنة كمانشهدها مع الأسف اشارة إلى الانحلال المتّصل بالشيخوخة بل هي أحرى إلى حدٍّ بعيد ان تكون علامة على طاقة الشباب لدى الشعب النمساوي التي لم تنضج بعد والتي تعدّ من أجل ذلك غير قابلة للتخريب». وكان يريد أن يلفت النظر إلى ذلك في الإجتماع أيضاً. ولكنَّ لمّا كان آرنهايم حاضراً فإنه لم يقلّ كلّ ما خرج به فكره بل اكتفى بإشارة موجَّهة إلى جهل العالم الخارجي بالأحوال النمساوية الحقيقية والى المغالاة في تقدير ظواهر معيَّنة غيرمستحبّة. واختتم الشريف بقوله: «ذلك لأننا حين نرغب في إشارة لا يمكن اغفالها إلى طاقتنا ووحدتنا فإنّما نفعل هذا على وجه الإطلاق للمصلحة الدولية أيضاً إذ أنَّ العلاقة الناجحة ضمن أسرة الدول الأوروبية ترتكز على الاحترام والتقدير المتبادل قبل ارتكازها على قوّة الدولة الأخرى». ثم كرّر مرّة أخري فحسب أنَّ مثل هذا العمل الأصيل المنطوي على مجهود كبير يجب أن يصدر بالفعل عن قلب الشعب وأن يوجّه لذلك من الأعلى حيث يناط بهذا الإجتماع ذاته ان يجد الطرق إلى ذلك. وعندما يتذكّر المرء أنَّ الكونت لاينزدورف لم يكن يخطر بباله قبل وقت قصير بعدُ سوى سلسلة من الأسماء بينما تلقّى من الخارج مجرّد فكرة عامٍ نمساوي فسوف يسجل المرء تقدماً كبيراً على الرغم من أن الشريف لم يفصح حتى عن كلّ ما كان قد خطر بباله.

وبعد هذه الكلمة تولّت ديوتيما الكلام لشرح مقاصدالرؤساء. واعلنت ان العمل الوطني الكبير يجب أن يجد هدفاً كبيراً ينبع من قلب الشعب كما قال الشريف. «ونحن الذين اجتمعنا اليوم للمرة الأولى نشعر أننا لسنا أهلاً لتحديد هذا الهدف منذ الآن وانما اجتمعنا قبل كلّ شيء من أجل مجرّد انشاء

تنظيم يفترض أن يمهِّد الطريق إلى وضع مقترحات تفضي إلى هذا الهدف». وبهذه الكلمات افتتحت المناقشة.

وفي البداية خيّم الصمت. أحسب طيوراً من أصول شتى ولغات شتى لا تعرف ماذا ينتظرها في قفص وستخلد إلى الصمت في اللحظة الأولى على هذا النحو تماماً.

وأخيراً طلب أحد الأساتذة الكلام ولم يكن أولريش يعرفه. وكان الشريف قد دعا هذا السيِّد في اللحظة الأولى حقاً عن طريق أمين سره الخاص. وتحدَّث عن طريق التاريخ وقال: عندما ننظر أمامنا فأمامنا جدار غير شفّاف! وعندما ننظر يساراً ويميناً فثمة فيض من الأحداث الهامّة بدون اتجاه يمكن التعرُّف عليه! وقال أنّه يورد بعضاً منها فحسب: الصاع الحاليّ مع الجبل الأسود والمعارك الضارية التي يترتّب على الاسبان في المغرب أن يخوضوها ومناوأة الأوكرانيين في مجلس الرايْش النمساوي. ولكنَّ عندما يرجع المرء ببصره إلى الوراء يغذو لكلّ شيء ناظم وهدف من خلال تلاحم رائع.. ولذلك فنحن إذا جاز لنا أن نتحدث على هذا النحو نشهد في كلّ لحظة سرّ قيادة رائعة. وقال أنّه يحيى الفكرة العظيمة المتمثّلة في فتح عيون الشعب إن صحّ التعبير لحمله على القاء نظرة واعية على حسّ الإدارة والحيطة ومناشدته في حالة معيَّنة لها جلالها الخصوصيّ.. وهذا كلّ ما أراد أن يقوله. وذلك أنّ المسألة تشبه ما يكون في التربية الحديثة حين يريد المرء أن يدع التلميذ يعمل مع المعلّم بصورة مشتركة بدلاً من أن يقدِّم له نتائج جاهزة.

وكان المؤتمر مطرقاً ببصره ساهماً في نظرة في مفرش الطاولة الأخضر وحتى الحَبْر الذي كان يمثّل الأسقف حافظ خلال هذا العمل العلمانيّ الذي يؤديه كهنوتيٌّ على الموقف المهذّب المتربّص ذاته شأن أهل الوزارات بدون أن يدع أدنى إعراب عن انسجام قلبيّ يتسرّب من وجهه. وبدا أنّ القوم

twitter @baghdad_library

يشعرون كما لو أنّ امرءاً أخذ يتحدَّث على غير انتظار في الشارع بصوت عالٍ إلى الناس جميعاً. وفجأة يشعر القوم جميعاً حتى أولئك الذين لم يكونوا يفكّرون في شيء على الإطلاق أنّهم في الطريق إلى أهداف جدية موضوعية أو أنّ سوء استغلال يمارس في الشارع. وكان على الأستاذ وهو يتكلّم أن يغالب الارتباك الذي كان ينتزع كلمات من خلاله انتزاعاً ويخرجها بالضغط على صدره في وَجَل وكأنّ الريح تكتم عليه أنفاسه. ولكنَّه تريّث الآن لعلّ جواباً يأتيه ونقل موقف الإنتظار هذا إلى وجهه على نحو لا يخلو من الكرامة.

وشعر الحاضرون جميعاً بما يشبه الإنقاذ حين أبلغ ممثّل الديوان الإمبراطوري بعد هذا الحدث العارض عن رغبته في الكلام على وجه السرعة وقدّم للمؤتمر لمحة عامة عن الأوقاف والمخصّصات المتوقَّعة في عام اليوبيل من لَدُن الخزانة الخاصّة لصاحب المقام الأعلى. وبدأ ذلك بالإعانة المالية لبناء كنيسة للحج ووقف لمساعدة الأعضاء المعدمين في المنظمات التعاونية ثم جاء في الاستعراض روابط المحاربين القدماء باسم «الأرشيدوق كارل» و«راديتسكي وأرامل المحاربين وأيتامهم في معارك ٦٦ و٧٨ ثم ورد صندوق لمساعدة ضباط الصف المتقاعدين وأكاديمية العلوم ومضى الأمر على هذا المنوال. ولم يكن في هذه اللوائح شيء يلفت النظر في حد ذاته بل كانت تتمتَّع بتعاقبها الثابت ومكانها المعتاد في كلّ التصريحات العامة عن المقاصد الخيريّة لصاحب المقام الأعلى وحين فرغ منها نهضت على الفور أيضاً عقيلة الصناعي فيجهوبر التي كانت سيِّدة لها فضل كبير في مضمار البر والإحسان. وكانت مغلقة الذهن تماماً عن تصوُّر أنّه يمكن أن يوجد شيء أهمّ من موضوعات اهتمامها. وتقدَّمت إلى المؤتمر الذي كان يصغي إصغاء المحبِّذ باقتراح من أجل «مؤسسة نمساوية كبرى للحساء» باسم فرانتس جوزيف. إلّا أن ممثل وزارة الثقافة والتعليم لاحظ أن دائرته أيضاً وردت فيها اشارة مماثلة

إلى حدٍّ ما إلى سَفْر ضخم بعنوان «الإِمبراطور فرانتس جوزيف الأوّل وعصره». ولكنَّ بعد هذه الانطلاقة الناجحة خيّم الصمت من جديد وشعر معظم الحاضرين أنّهم باتوا في وضع مزعج.

ولو أنّهم سئلوا في طريقهم إلى هنا هل يعلمون ما هي الأحداث التاريخية الكبيرة أو ما شاكلها لأجابوا بالايجاب حقاً ومع ذلك فقد شعروا شيئاً فشيئاً بالخَوَر حيال المطلب التعجيزيّ الملحّ وهو اختراع حدث كهذا. وانبعث فيهم شيء من قبيل تبرُّم فطرةٍ طبيعيّة جداً فيهم.

وفي هذه اللحظة الخطيرة قطعت الجلسة ديوتيما ذات اللياقة الثابتة التي كانت قد أعدّت المرطبات.

twitter @baghdad_library

[٤٣]

اللقاء الأوّل لأولريش بالرجل العظيم
في تاريخ العالم لا يحدث شيء غير معقول ولكنَّ ديوتيما
طرحت ادعاءً مفاده أنَّ النمسا الحقيقية هي العالم كله

وفي فترة التوقّف علق آرنهايم بقوله: كلّما كانت المنظّمة أكثر شمولاً كانت المقترحات أكثر تباعداً فيما بينها وأنَّ هذا هو العلامة المميَّزة للتطوّر الراهن المبني على العقل غير أنّ هذا يمثّل من أجل ذلك على وجه الخصوص مقصداً هائلاً يتمثَّل في إرغام شعب بأسره على أن يتَّجه بفكره إلى الإرادة إلى الإلهام والى الجوهري الذي يتَّخذ موقعه في مستوى أعمق من العقل.

وأجاب أولريش بالسؤال: هل تراه يعتقد هو أنّ من الممكن أن يخرج شيء من هذا العمل؟

وردّ آرنهايم قائلاً: «بلا ريب! فالأحداث الكبرى تمثّل دائماً التعبير عن وضع عام!» وهذا موجود اليوم. على أنّ حقيقة أنّ اجتماعاً كالذي يحدث اليوم كان ممكناً في أيّ مكان يبرهن على ضرورته العميقة.

وقال أولريش إنّه يوجد في هذا الصدد شيء يصعب تمييزه. فلنفترض مثلاً أن مؤلّف الأوبريت الأخيرة ذات النجاح العالمي كان متآمراً وطرح نفسه رئيساً للعالم الأمر الذي يقع بلا ريب في مجال الممكن بالنظر إلى شعبيته الهائلة: فهل سيكون هذا عندئذ قفزة في التاريخ أم تعبيراً عن الوضع الفكري؟

وقال الدكتور آرنهايم بجدّ: «هذا غير ممكن على الإطلاق! فمثل هذا المؤلّف الموسيقي لا يمكنه أن يكون متآمراً ولا أن يكون سياسياً وإلّا لما أمكن فهم عبقريته الموسيقيّة العالمية وفي تاريخ العالم لا يحدث شيء غير معقول».

«ولكن في العالم كثير جداً من ذلك!»

«لا يوجد أبداً في تاريخ العالم!»

وكان من الجليّ أنّ آرنهايم غدا عصبياً وبالقرب منه كانت ديوتيما والكونت لاينزدورف منهمكين في حديث خافت متّسم بالحرارة. وكان الشريف قد أعرب لصديقته الآن مع ذلك عن دهشته من لقاء بروسي في مثل هذه المناسبة النمساوية الاستثنائية. وكان يرى أنّ من المستبعد تماماً لأسباب تتصل باللياقة على الأقلّ أن يكون من الممكن أن يلعب أجنبي عن الدولة دوراً قيادياً في العمل الموازي على الرغم من أن ديوتيما أشارت إلى الأثر الممتاز والمهدّئ الذي لابدّ أن يحدثه هذا التجرّد من المنفعة السياسية الخاصّة على العالم الخارجي. ولكنّها غيّرت عندئذ طريقتها في المغالبة ووسّعت خطّتها على نحو مباغت. وتحدّثت عن لباقة المرأة التي تعدّ من قبيل الثقة في الشعور والتي لا تكترث في أعمق أعماقها بالأحكام المسبقة في المجتمع. وقالت إنّه ما على الشريف إلا أن يصغي إلى هذا الصوت ذات مرّة وإن آرنهايم أوروبي بل رجل معروف في كلّ أوروبا ولأنه ليس نمساويا لهذا السبب بالذات يبرهن المرء من جراء إسهامه على أن الفكر من حيث كونه فكراً إنما يجد موطنه في النمسا. وفجأة طرحت الإدعاء القائل إنّ النمسا الحقيقية هي العالم كله. وشرحت قائلة إنّ العالم لن يجد الاطمئنان قبل أن تعيش الأمم هكذا في وحدة عليا مثلما تعيش القبائل النمساوية في وطنها. فالنمسا الكبرى النمسا العالمية التي وصلت بحضرة الشريف إليها في هذه اللحظة السعيدة هي الفكرة

twitter @baghdad_library

التي كانت حتى الآن تنقص العمل الموازي. ووقفت ديوتيما الجميلة ـ راجفة مسالمة آمرة أمام صديقها الشريف. وكان الكونت لاينزدورف مازال لا يستطيع أن يقرّر التخلّي عن اعتراضاته ولكنّه أعجب مرّة أخرى بالمثالية اللاهبة وبُعد النظر عند هذه السيِّدة وجعل يفكِّر أوَليس من الأكثر فائدة حقاً أن يجرّ آرنهايم إلى الحديث بدلاً من أن يجيب على إيماءات لها مثل هذه النتائج الثقيلة.

وكان آرنهايم مضطرباً إذ كان يحسّ برائحة هذا الحوار بدون أن يتمكّن من التأثير فيه. وكان هو وأولريش محاطين بالفضوليين الذين كان قد اجتذبهم شخص قارون وقال أولريش على نحو مباشر: «هناك آلاف من المهن التي ينهمك فيها البشر وهناك يكمن ذكاؤهم. ولكنَّ حين يُطالَبون بالإنسان في العام والمشترك بين الناس جميعاً هنالك لا يمكن أن يتبقّى في الحقيقة إلا خصالٌ ثلاث: الغباء أو المال أو على أقصى الحدود قليل من الذكرى الدينية!». وأضاف آرنهايم قائلاً بنبرة التوكيد: «صحيح تماماً الدين!» وسأل أولريش أتراه يعتقد أنّه اضمحلّ تماماً حتى جذوره؟ ـ وكان قد شدَّد نبرة كلمة الدين بصوت بلغ من ارتفاعه أن الكونت لاينزدورف لم يكن له بدٌّ أن يسمعها.

وبدا أنّ الشريف عقد مع ديوتيما مقاصّة إذ أنّه اقترب الآن تقوده صديقته من المجموعة التي تفرّقت بأسلوب مهذَّب وتحدَّث إلى الدكتور آرنهايم.

ورأى أولريش نفسه وحده دفعة واحدة وبات يعضّ على شفتيه من الغيظ.

وبدأ ـ والله يعلم لماذا ليزجي الوقت أو لكي لا يقف هكذا مهجوراً ـ يفكّر في الرحلة بالعربة إلى هذا الإجتماع. كان الكونت لاينزدورف الذي اصطحبه يملك بحكم كونه رجلاً عصرياً سيّارة ولكنَّ لما كان يتشبّث بالتقليد الموروث فقد كان يستعمل في بعض الأحيان أيضاً عربة ذات جوادين يتّسمان

بالفخامة يحتفظ بها مع الحوذي والحنطور الخفيف وعندما تلقّى رئيس الخدم أوامره كان الشريف قد وجد أنّ من المناسب أن ينطلق إلى الجلسة التأسيسيّة للعمل الموازي بمثل هذين المخلوقين الجميلين اللذين باتا تاريخيين تقريباً.
وشرح الكونت لاينزدورف في الطريق قائلاً: هذا پيپي وهذا هانز وكان المرء يرى كثيبَيْ الكِفْلَيْن الأسمرين الراقِصْين ويرى في بعض الأحيان أحد الرأسين المُطرقَين الذي كان ينظر جانباً في إطار الإيقاع حتى أنّ الزبد كان يتطاير من شدقه. وكان من العسير أن يدرك المرء ماذا يجول في خاطر الحيوانَيْن. كان ضحى يوم جميل وكانا يعدوان عدواً. وربّما كان العلف والعَدْو الخصلتين الوحيدتين اللتين هما محلّ هوى الجوادين عندما يأخذ المرء بعين الاعتبار أنّ پيپي وهانز كان محبوبَيْن ولم يكونا يعرفان الحبّ حاجةً ملموسة بل مجرّد نفحة وبريق يغشّي صورة الدنيا لديهما في بعض الأحيان بسحائب ينبعث من خلالها ضوء رقيق. وكان هوى العلف محفوظاً في مِذْود مرمري فيه حبٌّ من الشوفان اللذيذ وفي رفٍ علوي فيه كلأٌ أخضر ومتجمِّعاً في صليل رسن الحظيرة عند الحلقة. وفي رائحة الخبز في الاصطبل الدافئ الذي كان الشعور القوي بالأنا الشعور المحتوي على الأمونياك يسري في عبيره السلس الحافل بالتوابل سريان الإبر ينبئ أنّ ههنا خيل! أما العَدوُ فربما كان له شأن آخر. هنالك ماتزال النفس البائسة ترتبط بالقطيع حيث تنبعث حركة من الأمام في الحصان الرئيسي أو فيهم جميعاً دفعة واحدة من أيّة جهة كانت وتعدو الجماعة منطلقة نحو الشمس والريح. ذلك لأنّ الحيوان حين يكون وحيداً وتكون كلّ أمداء المكان الأربعة مفتوحة أمامه فكثيراً ما تسري في جمجمته رعدة جنونية وينطلق كالعاصفة إلى غير هدف ويقذف بنفسه إلى حرية مرعبة خاوية في هذا الإتجاه مثل خوائها في الإتجاه الآخر إلى أن يقف ساكناً من حيرته ويغدو من الممكن إغراؤه بالعودة بحفنة من الشوفان. وقد كان پيپي وهانز جوادَيْن مدرَّبين على المسير فكانا يخطوان الخطوة الواسعة ويضربان

twitter @baghdad_library

الشارع المغمور بالشمس والمحاط بالمنازل بحوافرهما. وكان البشر بالقياس إليهما حشداً باهتاً لم يكن يبعث السرور ولا الخوف. أما واجهات المحلات الملوّنة والنساء الزاهيات بالألوان المشرقة ـ وقطع المروج التي لا يمكن التمتع بها والقبعات وربطات العنق والكتب وقطع الماس على طول الشارع فكانت أرضاً مقفرة فلم يكن يتميّز منها إلا جزيرتا الأحلام الحظيرة وعَدو الخَبَب. وفي بعض الأحيان كان هانز وپيپي يخافان كما في الحلم أو اللعب من ظلٍّ فيندفعان نحو عريش العربة ويعودان إلى الانتعاش من جديد بضربة سوط جانبية ويركنان إلى الأعنّة بامتنان.

وفجأة كان الكونت لاينزدورف قد نهض بين الأرائك وسأل أولريش: «لقد روى شتالبرج يا سيِّدي الدكتور أنّك تشفع لإنسان ما» ولم يجد أولريش وسط المفاجأة السياق الصحيح على الإطلاق ومضى لاينزدورف قائلاً: «إنه لجميل جداً منك وإني لأعرف كلّ شيء وأرى أنّه لن يكون من الممكن عمل الكثير فهذا امرؤ مرعب ولكنَّ امرؤ مرعب ولكنَّ الجانب الشخصي الذي لا يُدرَك والمحتاج إلى الرحمة الذي تنطوي عليه نفس كلّ إنسان مسيحي كثيراً ما يتجلّى من خلال موضوع كهذا على وجه الخصوص. وإذا كان المرء يريد أن ينجز بنفسه أمراً عظيماً فعليه أن يتذكَّر أكثر العاجزين تواضعاً. وربّما كان في وسع المرء أن يعرضه للمعاينة الطبِّية مرّة أخرى». وبعد أن ألقى الكونت لاينزدورف والعربة ترتجّ هذه الخطبة الطويلة هبط من جديد مرتدًّا إلى الأريكة وأضاف قائلاً: «ولكن لا يجوز لنا أن ننسى أننا الآن مطالبون في هذه اللحظة ببذل كلّ طاقتنا لحدث تاريخي!».

وكان أولريش يشعر في الحقيقة بشيء من الميل إلى هذا الأرستقراطي الشيخ الساذج الذي كان مايزال في حديث مع ديوتيما وآرنهايم معانياً من شيء من الغيرة تقريباً. ذلك لأنّ الحديث كان يبدو أنّه يتَّخذ مساراً شديد الانفعال

وكانت ديوتيما تتّسم والكونت لاينزدورف يفتح عينيه مذهولاً ليتمكّن من المتابعة. وكان آرنهايم يدير دفّة الحديث بهدوء نبيل.

والتقط أولريش تعبير:

إدخال الأفكار إلى أجواء السلطة. ولم يكن في وسعه أن يحتمل آرنهايم ولاسيما من حيث كونه شكلاً من أشكال الوجود أيّ النموذج آرنهايم من الناحية المبدئية. كان هذا الترابط بين الفكر والعمل ورغد العيش وسعة الإطّلاع أمراً لا يحتمل إلى أقصى الدرجات. وكان على يقين أن آرنهايم كان قد رتّب كلّ شيء منذ المساء السابق لكي يكون في الصباح لا أوّل الواصلين إلى هذا الإجتماع ولا آخرهم. ولكنّه لم ينظر في الساعة يقيناً على الرغم من ذلك قبل أن ينطلق بل ربّما نظر فيها النظرة الأخيرة قبل أن يجلس للإفطار ويتلقّى تقرير أمين سره الذي أوصل إليه البريد عند ذلك كان قد حوّل الوقت الذي كان متاحاً له إلى النشاط الداخلي الذي كان في وسعه أن يقوم به حتى الانطلاق. وعندما كان ينغمس في هذا النشاط بطلاقة وعفوية كان يثق أنّه سيملأ الوقت بالضبط لأنّ الصحيح وزمنه يرتبطان أحدهما بالآخر بطاقة خفيّة كالتمثال والمكان الذي يلائمه أو رامي الرمح والهدف الذي يصيبه بدون أن ينظر إليه. وكان أولريش قد سمع الكثير عن آرنهايم وقرأ له شيئاً ما. وقد جاء في أحد كتبه أنَّ الرجل الذي يراقب حلّته في المرآة لا يكون قادراً على طريقة سليمة في السلوك وكان يفصّل ذلك قائلاً: ذلك لأنّ المرآة التي وجدت في الأصل من أجل السرور قد تحوّلت إلى آلة للخوف شأن الساعة التي هي تعويض عن كون أعمالنا ما عاد بعضُها ينفكّ عن بعض وينفصل بصورة طبيعية.

وكان على أولريش أن يغيِّر وجهته لكي لا يحملق في المجموعة المجاورة على نحو غير مهذَّب. و ظلّت عيناه مستقرتين على الخادمة الصغيرة التي

twitter @baghdad_library

كانت تجول بين الجموعات التي تثرثر وتقدّم المرطبات وعيناها مفتوحتان على نحو مهيّب. ولكنَّ راحيل الصغيرة لم تلاحظه وكانت قد نسيته بل فاتها أن تقبل عليه بصحفتها وكانت قد اقتربت من آرنهايم وقدَّمت إليه مرطبّاتها كأنّها تقدِّمها إلى ربٍّ. وكان أحب الأشياء إليها أن تقبّل اليد القصيرة الساكنة حين تناولت هذه شراب الليمون وأمسكت بالكأس في شرود بدون أن يشرب الغني. وبعد أن تمَّ تجاوز هذه الذروة قامت بواجبها مثل جهاز آلي صغير مشوّش وانطلقت بأقصى سرعة من حجرة تاريخ العالم حيث كان كلّ شيء غاصّاً بالسيقان والحديث عائدة إلى حجرة الانتظار.

[٤٤]

استئناف الإِجتماع الكبير واختتامه
أولريش يلقى إعجاباً لدى راحيل
وراحيل تلقاه لدِى سليمان
العمل الموازي يحظى بمنظَّمة وطيدة الأركان

وكان أولريش يحبّ هذا الطراز من البنات اللواتي يتَّسمن بالطموح ويتصرّفن التصرّف الحسن ويحاكين في تهيّبهن المنطوي على حسن التهذيب شجيرات مثمرة يسقط نضجها الحلو ذات يوم في فم فارس شاب من تنابلة السلطان حين يتفضّل فيفتح شفتيها. «يجب أن تكون شجاعة صلبة العود مثل نساء العصر الحجري اللواتي كن يقاسمن المضاجع في الليل وكن في النهار يحملن في المسيرات السلاح وعتاد البيت لمحاربيهن». كذلك كان يفكِّر على الرغم من أنّه لم يطرق قطّ طريقاً مثل طريق الحرب هذا إلا في مقتبل العمر الأوّل البعيد أيام الرجولة المنبعثة واتّخذ مجلسه وهو يتنهَّد لأنّ التشاور كان قد بدأ من جديد.

ولفت نظره خلال الذكرى أنّ الحلة الرسميّة السوداء البيضاء التي حُشرت فيه هذه الفتاة كانت لها مثل ألوان زينة الراهبات. ولاحظ ذلك أوّل مرّة وتعجّب منه ولكنَّ ديوتيما الربانية كانت تتحدَّث عندئذ وكانت تصرخ قائلة: يجب على العمل الموازي أن يخلص إلى رمز كبير وهذا يعني أنّه لا يمكن أن يتَّخذ أيّ هدف مرئي عارض من أيَّة جهة مهما يكن وطنياً بل يجب أن يستحوذ هذا الهدف على قلب العالم ولا يجوز أن يكون عملياً فحسب بل يجب أن

twitter @baghdad_library

يكون شعراً. يجب أن يكون مَعلماً. يجب أن يكون مرآة ينظر فيها العالم ويحمرّ وجهه لا يحمرّ فحسب بل يستطلع محيّاه الحقيقي كما في الحكاية ولا يعود فينساه ولا يمكن أن يعود إلى النسيان. وقد طرح حضرة الشريف من أجل ذلك رمز «إمبراطور السلام».

وإذا افترضنا هذا لم يكن من الممكن تجاهل أنَّ المقترحات التي نوقشت حتى الآن لا تتماشى مع هذا فعندما قالت في القسم الأوّل من الجلسة رموزاً لم تكن تعني بالطبع مؤسساتٍ للحساء بل كان الأمر يتعلّق بما لا يقلّ عن العثور من جديد على تلك الوحدة الإنسانية التي ضاعت من جراء المصالح البشريّة التي باتت متباينة تبايناً شديداً. وهنا يلحّ بالطبع سؤال أما زال العصر الحاضر وشعوب هذه الأيام أكفّاءً على الإطلاق لمثل هذه الأفكار المشتركة العظيمة كلّ العظمة. وذلك أنَّ كلّ ما اقتُرح ممتاز ولكنَّه متباين تبايناً بعيداً وذلك ما يتبيّن منه أنّه ما من واحد من هذه المقترحات يملك الطاقة التوحيدية التي عليها مدار الحديث!

وكان أولريش يرقب آرنهايم بينما كانت ديوتيما تتكلَّم ولكنَّ ما ظلّ استياؤه معلّقاً عليه لم يكن تفاصيل سيماء الوجه بل المجموع بصورة مطلقة - جمجمة التجار الرجالية الفينيقيَّة القاسية الوجه الحادّة الملامح كأنه مكوّن من مادة قليلة بعض الشيء والمسطّح من جراء ذلك وطمأنينة الخيّاط الرجالي الإنجليزيّة في القامة وفي المقام الثاني حيث يبدو الإنسان مُطلاً من حلّته كانت اليدان ذات الأصابع القصيرة تلفتان النظر بما يكفي. وكانت العلاقة الحسنة التي كان كلّ شيء ينسجم فيها بعضه مع بعض هي ما يفتن أولريش وكانت تنطوي على مثل هذا اليقين كتب آرنهايم فقد كان العالم يغدو على مايرام بمجرّد أن يتأمله آرنهايم. وانبعث في أولريش ولع أولاد الشوارع برمي هذا الإنسان الذي نشأ في الكمال والغنى بالحجارة أو أقذار الشارع بينما كان

يتأمّل مدى النباهة التي كان ذاك يتصرّف بها لكي يتابع العمليّات السخيفة التي كان عليهم أن يشهدوها وتجرّعها متكلّفاً شأن العارف الخبير الذي كان تعبير وجهه كأنه يقول: لا أريد أن أكثر من القول ولكنَّ هذا نبات نبيل تماماً!

وكانت ديوتيما قد وصلت إلى النهاية في هذه الأثناء. وبعد الاستراحة مباشرة حين عادوا إلى الجلوس من جديد كان من الممكن أن يُرى على الحاضرين جميعاً أنّهم كانوا على يقين من العثور على نتيجة الآن ولم يكن أحد قد فكّر في ذلك في هذه الأثناء غير أنّهم اتخذوا موقفاً يتوقّع فيه المرء شيئاً هاماً. وختمت ديوتيما الآن بقولها: وعلى هذا فإذا ألحّ سؤال هل مازال العصر الحاضر وشعوب هذه الأيام أهلاً لأفكار مشتركة كبيرة تماماً كان من الواجب على المرء ومن الجائز له أن يضيف قائلاً: إنها أهلٌ للطاقة التحريرية! ذلك لأنّ المسألة تتعلّق بتحرير بنهضة تحريرية. وبإيجاز إذا كان المرء لا يستطيع بعدُ أن يتصوّرها على وجه الدقة أيضاً. يجب أن تصدر عن المجموع أو لا تصدر أبداً. ومن أجل ذلك فهي تسمح لنفسها بعد الرجوع إلى حضرة الشريف بالاقتراح التالي الذي يختتم الجلسة اليوم: لقد لاحظ حضرة الشريف بحقّ أنَّ الوزارات العليا لا تمثّل في الحقيقة تقسيم العالم تبعاً لوجهات النظر الرئيسيّة فيه كالدين والتعليم والتجارة والصناعة والقانون وهكذا دواليك. ولذلك فعندما يقرّر المرء تعيين لجان يكون على رأس كلّ منها مفوّض من قبل هذه الدوائر الحكوميّة ويختار إلى جانبها ممثّلين للهيئات التابعة لمجال الاختصاص وقطاعات الشعب ينشأ بذلك بناء يتضمّن طاقات العالم الأخلاقية الرئيسيّة على نحو منسّق ويمكن لها أن تتدفّق من خلاله وأن تتمّ غربلتها عن طريقه. أما التلخيص الأخير فسيتمّ بعد ذلك في اللجنة الرئيسيّة. وهذا البناء يظلّ من الواجب تكميله فحسب عن طريق بعض اللجان الخاصّة واللجان الفرعية كلجنة الدعاية ولجنة تأمين الوسائل المالية وما شابه

twitter @baghdad_library

ذلك حين تودّ هي شخصياً أن تحتفظ لنفسها بتأسيس لجنة فكريّة من أجل مزيد من المعالجة للأفكار التأسيسيّة وذلك بالطبع بالتفاهم مع كلّ اللجان الأخرى.

وأخلد القوم جميعاً إلى الصمت مرّة أخرى ولكنّهم كانوا يتنفّسون الصعداء مرّة أخرى وأومأ الكونت لاينزدورف برأسه مراراً وسأل أحدهم استكمالاً للفهم كيف سيدخل ما هو نمساوي نبيل في العمل المتصوَّر؟

وللجواب نهض الجنرال شتوم فون دفير على حين كان كلّ الخطباء قبله يتحدَّثون جالسين وقال إنّه يعلم علم اليقين أن الجندي قد عيّن له في حجرة التشاور دور متواضع وإذا كان يتحدَّث مع ذلك فإنّ ذلك لا يحدث من أجل التدخّل في النقد الذي لا يُجارى للمقترحات التي ظهرت حتى الآن والتي كانت ممتازة كلّها. ومع ذلك فهو يريد في الختام أن يحيل إلى الاختبار ذي المقصد الحسن الأفكار التالية. إنّ الإعلان الذي يخطّط له ينبغي أن يحدث أثره باتجاه الخارج ولكنَّ ما يحدث أثره باتجاه الخارج إنّما هو قوّة شعب. وكذلك فإنّ الوضع في أسرة الدول الأوروبية يعدّ كما قال حضرة الشريف من نوع لا يكون معه مثل هذا الإعلان عديم الجدوى بلا ريب. إنّ فكرة الدولة هي على أيّة حال فكرة السلطة كما يقول ترايتشكه. فالدولة هي القدرة على المحافظة على الذات ضمن إطار صراع الشعوب وهو إنما يمسّ جرحاً معروفاً عندما يذكر بالحالة غير المقبولة التي توجد فيها عملية استكمال تشكيل مدفعيته وذلك الاستكمال الخاص بالبحرية من جراء لامبالاة البرلمان وهو يلفت النظر من أجل ذلك إلى أنّه لم يُعثَر على هدف آخر وهو الأمر الذي لم يُحسم بعد إلى أنَّ مشاركة شعبّية عريضة في مسائل الجيش وتسليحه ستكون هدفاً نبيلاً جداً.

إنّ القوّة التي يظهرها المرء في السلام تبعد الحرب أو تقصّر أجلها إلى أدنى الحدود. ولذلك فهو يستطيع أن يؤكّد تماماً أنَّ مثل هذا الإجراء يمكن أن يُحْدِث أثراً يتّصل بالمصالحة بين الشعوب وأنّه خليق أن يكون إعلاناً معبراً عن تفكير سلمي.

وفي هذه اللحظة كان ثمة شيء غريب في الغرفة وكان لدى معظم الحاضرين في البداية انطباع مؤدّاه أنَّ هذه الكلمة لا تتماشى مع المهمة الحقيقية لاجتماعهم ولكنَّ حين طغى صوت الجنرال على نحو مطّرد الزيادة، كان لهذا وقع في الأذن كخطو المسير العسكري لكتيبة منظّمة. وتصاعد الشعار الأصيل للعمل الموازي «أفضل من بروسيا» على وجل وكأنّ فرقة موسيقى الكتيبة تنفخ عن بُعد في بوق موسيقى زحف الأمير أوجين الذي زحف على الأتراك. أو نشيد «حفظ الله. . .» ولا ريب أنّه لو نهض آنذاك الشريف وذلك ما لم يكن ينتويه البتة ليقترح أن يجعل الأخ البروسي آرنهايم في مقدّمة فرقة موسيقى الكتيبة لاعتقد القوم وهم في حالة انعدام الوزن الداخلية المتّسمة بعدم اليقين التي كانوا عليها أنّهم يسمعون نشيد «تباركتَ في إكليل النصر» وما كانوا ليستطيعوا أن يعترضوا على ذلك بشيء.

وعند ثقب المفتاح لوّحت «راشيل» بإشارة قائلة: «الآن يتحدَّثون عن الحرب!».

وكان ذلك قد حدث أيضاً لأنَّها عادت أدراجها في نهاية الاستراحة إلى حجرة الإنتظار لأنّ آرنهايم كان قد جلب معه بالفعل فتاه سليمان هذه المرة. ولما كان الطقس قد ساء فقد لحق الزنجي الصغير سيِّده بمعطف وكان قد اصطنع بوزاً صغيراً وقحاً حين فتحت له راحيل الباب إذ كان غلاماً برلينياً فاسداً أفسدته النساء بالتدليل على نحو لم يكن يعرف معه بعد كيف يبدأ بما هو صحيح. ولكنَّ راحيل كانت تحسب أنَّ على المرء أن يتحدَّث إليه بلغة

twitter @baghdad_library

الزنوج ولم يحطر ببالها ببساطة أن تحاول ذلك بالألمانية. ولما كان عليها أن تتفاهم مع الغلام البالغ ستة عشر عاماً بصورة مطلقة فقد ألقت ذراعها حول كتفه ودلّته على المطبخ وقدَّمت إليه كرسيّاً ودفعت إليه بما كان قريباً منها من الجاتو والمشروبات. ولم تكن أقدَّمت على شيء من ذلك قط في حياتها. وحين نهضت عن المائدة كان قلبها يدقّ كما لو كان السكر يطحن في هاون.

وسألها سليمان: «ما اسمك؟» وإذا هو يتحدَّث بالألمانية!

وقالت راحيل: «راشيل» ثم انطلقت تعدو.

وجعل سليمان في هذه الأثناء يتذوّق في المطبخ الجاتو والخمر وقطع الخبز وأشعل لفافة وأخذ في حديث مع الطبّاخة وحين رجعت راحيل من التقدّم أحسَّت من جراء هذا بطعنة في قلبها فقالت: «سيجري التشاور هنا في الداخل مرّة أخرى على الفور في شيء بالغ الأهميّة!» ولكنَّ هذا لم يحدث أثراً لدى سليمان وضحكت الطباخة التي كانت عجوزاً وأضافت راحيل وهي منفعلة قائلة: «من الممكن أن يؤدّي ذلك إلى حرب!» وجاء الآن في صورة التصعيد الأقصى إخبارُها عن طريق ثقب المفتاح بأنّ الأمر قد وصل إلى هذا الحد تقريباً.

وأصغى سليمان وسأل: «أوَيوجد ههنا ضباط نمساويون؟».

وقالت راحيل: «أنظر بنفسك! لقد حضر واحد». وذهبا معاً إلى ثقب المفتاح.

وكان البصر يقع على ورق أبيض حيناً وعلى أنفٍ حيناً آخر وكان يمرّ ظلّ كبير تارة ويلتمع خاتم تارة أخرى وتحلَّلت الحياة إلى تفاصيل بحتة. وكان يُرى مفرش أخضر يمتدّ كالمرج ويد بيضاء تستقر بغير منطقة في أيّ مكان شمعية كما في دار العجائب وحين كان المرء ينظر نظرة منحرفة كلّ الانحراف

كان يستطيع أن يرى في أحد الأركان هدف سيف الجنرال يلمع وبدا سليمان المدلل نفسه متأثِّراً. وكانت الحياة تنتفخ متورِّمة على نحو أسطوري ورهيب مرئية من خلال فرجة في الباب ومن خلال تصوُّر ما. وجعل موقف الانحناء الدم يطنّ في الآذان. وكانت الأصوات وراء الباب تجلجل كقطع الصخر حيناً وتنزلق كأنّما تجري على لوح مطلي بالصابون حيناً آخر. ونهضت راحيل متمَّهلة وبدا كأنّ الأرض ترتفع تحت قدميها وأحاط بها روح الحدث وكأنّها دست رأسها تحت واحد من تلك المناديل السود التي كان السحرة والمصوِّرون يستعملونها. ثم نهض سليمان أيضاً وهبط الدم مرتجفاً من رأسيهما وابتسم الزنجي الصغير والتمعت وراء الشفتين الزرقاوَيْن لثة حمراء قرمزية.

وبينما كانت هذه الثانية في حجرة الإنتظار بين المعاطف المعلَّقة على الجدران للشخصيات ذوات النفوذ تمضي بطيئة كأنّما يُنفَخ بها بالبوق كان كلّ شيء في الحجرة في الداخل يتمّ إقراره بعد أن صرّح الكونت لاينزدورف هناك بأنَّ المرء يدين بالشكر الجزيل للإشارات ذات الأهميّة البالغة من قبل السيِّد الجنرال غير أنّه لا يريد أن يمضي قبل كلّ شيء في تفصيل ما يستحق التقدير بل يريد أن يقرّر الجانب التنظيمي ـ التأسيسي فحسب. ولكنَّ لم تكن هناك ـ باستثناء تلاؤم الخطَّة مع العالم تبعاً لوجهات النظر الرئيسيّة للوزارات ـ إلا حاجة إلى قرار ختامي يتضمّن أنَّ الحاضرين يوافقون بالإجماع بمجرّد أن تتبيّن عن طريق عملهم رغبة الشعب على عرض هذه الرغبة على صاحب الجلالة مع الرجال المنطوي على غاية الخضوع أن يُعتمَد بحريّة على الوسائل التي يتوجَّب تهيئتها حتى ذلك الوقت من أجل تنفيذها المادي بإنعام فائق السمو ـ وكان من حسنات هذا أنَّ الشعب أصبح في وضع يمكنه من تحديد هدفه بنفسه على أنّه هدف معترف به مع أقصى جهود التقدير ولكنَّ بوساطة

twitter @baghdad_library

الإرادة الفائقة السمو وقد قرّر هذا بناء على رغبة خاصة لحضرة الشريف. فعلى الرغم من أنَّ الأمر كان يتعلّق في هذا الصدد بمجرّد مسألة شكلية وجد هو أن من المهمّ ألّا يصنع الشعب شيئاً من نفسه فحسب وبدون العامل الدستوري الثاني وألا يضفي الشرف حتى على هذا.

على أنَّ سائر المشاركين ما كانوا ليتناولوا المسألة بهذه الدقة ولكنَّهم لم يعترضوا على ذلك بشيء من أجل ذلك أيضاً. أما أنَّ الإجتماع اختتم بقرار فقد كان ذلك أمراً صحيحاً. وذلك أنَّ المرء سواء أوَضع حداً للمشاجرة بالسكين أم ضرب في نهاية القطعة الموسيقيّة بكلّ أصابعه العشرة على أصابع البيانو في وقت واحد بضع مرات أم انحنى الراقص أمام سيِّدة أم اتّخذ قراراً فسيكون ذلك عالماً موحشاً إذا كانت الأحداث ستتسلّل من هذا ببساطة ولن تؤكّد في النهاية مرّة أخرى على النحو الملائم أنّها حدثت ومن أجل ذلك يفعل المرء هذا.

[٤٥]

لقاء صامت بين قِمَّتَيْ جبلين

وحين بلغ الإِجتماع نهايته كان الدكتور آرنهايم قد ناور على نحو لا يلفت النظر مناورة كان معها المتخلّف الأخير. وكان الحافز على ذلك قد صدر عن ديوتيما. وكان مدير القسم توتسي قد التزم بأجَل توقيري ليكون على يقين أنّه لن يعود إلى بيته قبل نهاية الإِجتماع.

وفي هذه الدقائق بين انصراف الضيوف وتوطيد الوضع المتخلّف في أثناء الطريق من حجرة إلى أخرى ذلك الطريق الذي تتخلّله التنظيمات والخواطر الصغيرة التي تجري على نحو مستعرض والإِضطراب الذي يخلفه وراء حدث كبير انسحب من هنا كان آرنهايم قد تابع ديوتيما بنظراته وهو يبتسم. وكانت ديوتيما تشعر أنَّ مسكنها كان يعاني من حركة ارتعادية وكانت كلّ الأشياء التي لم يكن لها بدّ أن تفارق مكانها بسبب الحدث تعود أدراجها الآن الواحدة تلو الأخرى وكان الأمر كما لو أنَّ موجة كبرى من الحفر والأخاديد التي لا تحصى تنحسر عن الرمل جارية من جديد. وبينما كان آرنهايم ينتظر في صمت نبيل إلى أن تكون هي وهذه الحركة من حولها قد عاد إلى السكون تذكَّرت ديوتيما أنّه على الرغم مَنْ كثرة من ترددوا عليها من البشر لم يسبق لرجل قطّ أن كان وحيداً معها بهذه الألفة المنزلية بحيث كان المرء يشعر بالحياة الصامتة في المنزل الخالي باستثناء رئيس القسم توتسي. وفجأة أفسد عليها عفّتها تصوَّر غير مألوف على الإِطلاق. فقد بدا لها مسكنها الذي بات خالياً والذي كان زوجها غائباً عنه أيضاً مثل سروال دخل فيه آرنهايم. وهناك لحظات كهذه

twitter @baghdad_library

ومن الممكن أن تمرّ بأكثر البشر عفّة. وكان الحلم الرائع بحب يكون فيه الروح والجسد شيئاً واحداً تماماً ينفث أشّعته في ديوتيما.

على أنَّ آرنهايم لم يكن يحسّ بشيء من ذلك. وكان سرواله يشكِّل خطاً عمودياً لا غبار عليه فوق الأرضّية العاكسة وكانت سترته المذيَّلة ورباط عنقه ورأسه النبيل الباسم في هدوء لا ينبىء عن شيء وكان في كمال بالغ. وكان في الحقيقة قد خطّط لتوجيه اللوم إلى ديوتيما بسبب الحدث العارض لدى قدومه واتخاذ جانب الحيطة من أجل المستقبل. ولكنَّ كان يوجد في هذه اللحظة شيء جعل هذا الرجل الذي يتردّد على كبراء رجال المال الأمريكيِّين على أنّهم نظراؤه ويستقبل من قبل الأباطرة والملوك هذا الغني الذي كان في وسعه أن يرجَح بالبلاتين وزنَ كلّ امرأة يحملق بدلاً من ذلك كالمشدوه في ديوتيما التي كان اسمها في الحقيقة إميلندا أو حتى هيرمينه فحسب وكانت مجرّد زوجة لموظَّف كبير. ومن أجل هذا الشيء يجب العودة هنا إلى استعمال كلمة الروح.

فهذه كلمة كثيراً ما تظهر ولكنَّ ليس في العلاقات الأشد وضوحاً فهي تظهر مثلاً في صورة ما افتقد في العصر الحاضر أو لا يمكن الجمع بينه وبين الحضارة في صورة ما يتعارض مع الغرائز الجسديّة وعادات الزواج. وفي صورة ما لم يُبتَعَث فحسب من قبل قاتل على غير رغبة منه وفي صورة ما يفترض تحريره عن طريق العمل الموازي وفي صورة التأمّل الديني والتأمّل في الغامض المقدَّس عند الكونت لاينزدورف وفي صورة حبّ للتشبيهات عند الكثير من البشر وهكذا دواليك. غير أنَّ الخاصّة الأكثر غرابة من بين كلّ خصائص كلمة «الروح» هذه هي أن الشباب من البشر لا يستطيعون النطق بها بدون أن يضحكوا بل إن ديوتيما وآرنهايم كانا يتهيّبان أن يستعملاها بدون صلة. ذلك لأنّ الإنطواء على روح عظيمة أو نبيلة أو جبانة أو جريئة أو دنيئة

أمر يمكن ادعاؤه بعدُ أما أن يقال على وجه الإطلاق: روحي فذلك ما لا تطاوع المرءَ نفسُه فيه إنّها كلمة متميزة موقوفة على كبار السن وهذا لا يمكن فهمه إلا على أن يفترض المرء أنّه لابد أن يكون ثمة شيء ما يتجلّى على مدى الحياة على نحو ملموس بصورة مطَّردة الزيادة ويحتاج المرء حاجة ملحّة إلى اسم له بدون أن يعثر عليه إلى أن يدخل في الإستعمال آخر الأمر الإسم الذي كان يشمئز منه في الأصل.

وإذاً فكيف ينبغي للمرء أنَّ يصفه؟ إن المرء يستطيع أن يقف أو يمشي كما يريد فالأمر الجوهري ليس ما يواجهه المرء أو يراه أو يسمعه أو يريده أو يهاجمه أو يستحوذ عليه. إنّه يكون ماثلاً في صورة أفق في صورة نصف دائرة ولكنَّ وتراً يصل بين نهايتي نصف الدائرة هذه ثم إنَّ مستوى هذا الوتر يمر مخترقاً العالم من وسطه. فمن الأمام يطلّ منه الوجه واليدان وتجري الأحاسيس والمطامح قادمة منه ولا يشك أحد فيما يفعله المرء هنا يتَّسم دائماً بالمعقولية أو بحرارة العاطفة على الأقل أيّ أنَّ الظروف في الخارج تقتضي تصرّفاتنا بطريقة مفهومة بالقياس إلى كلّ فرد أو عندما نفعل شيئاً غير مفهوم إذ نكون أسرى عاطفة جامحة فإنّما يكون لهذا آخر الأمر طريقته وطرازه. ولكنَّ مهما يبدُ كلّ شيء في هذا الصدد مفهوماً كلّ الفهم ومتكاملاً في ذاته فهو يقترن مع ذلك بشعور غامض بأنّه مجرّد شيء نصفي إذ أن هناك شيءٌ ما ينتقص من التوازن والإنسان يندفع نحو الأمام لكي لا يتأرجح مثلما يفعل من يمشي على حبل. ولما كان يشق طريقه في الحياة ويخلف ما عاشه وراءه فإن ما يجب أن يُعاش بعدُ وما عيشَ يشكّلان جداراً وطريقه يشبه في النهاية طريق دودة في الخشب يمكن أن تتلوّى كما تشاء بل يمكن أن تتلوّى عائدة أدراجها أيضاً. ولكنّها تظلّ أبداً تخلف وراءها المكان الخالي. وعن طريق هذا الشعور المفزع بمكان أعمى مبتور وراء كلّ ما تمّ مَلؤه بهذا النصف الذي

twitter @baghdad_library

مازال مُفتَقَداً حين يكون كلّ شيء كلاً متكاملاً أيضاً يلاحظ المرء آخر الأمر ما يسمّى بالروح.

وبالطبع فإنّ المرء يواصل التفكير فيه واستشعاره والإحساس به في كلّ الأوقات بأشدّ أساليب التعويض تبايناً كلٌ حسب مزاجه. أما في الصبا ففي صورة شعور واضح بعدم اليقين حيال كلّ ما يفعله المرء أتراه هو الصواب حقاً. وأما في الشيخوخة ففي صورة اندهاش من مقدار قلّة ما صنع المرء مِمّا كان ينتويه في الحقيقة وفيما بين ذلك في صورة عزاء مؤدّاه أنّه امرؤ ملعون أو بارع أو طيِّب وإن لم يكن من الممكن أيضاً تبرير كلّ ما يفعله المرء على نحو مفصَّل أو يكون مؤدّاه أنَّ العالم ليس على الصورة التي ينبغي أن يكون عليها بحيث يشير كلّ ما فات المرء إلى تعويض عادل في النهاية. بل إنَّ فريقاً من الناس يتجاوز بفكرهم كلّ شيء متصوَّرين إلهاً يحمل لهم الجزء الناقص لديهم في الجيب. على أنَّ ما يتبوّأ مكانة خاصة في هذا الصدد هو الحبّ وحده. وذلك أنَّ النصف الثاني يزداد في هذه الحالة. ويبدو الإنسان المحبوب كأنه يقف هناك حيث يفتقد في العادة شيء ما على الدوام. وتتَّحد الأرواح ظهراً لظهر إنَّ صحب التعبير وتغدو بذلك فائضة عن الحاجة في هذا الصدد. من أجل ذلك لا يعود معظم الناس يحسّون بعد مرور حبّ كبير في الصبا بافتقاد الروح ويؤدي هذا الذي يسمّى حماقةً وظيفةً إجتماعية قائمة على عرفان الجميل.

فلا ديوتيما ولا آرنهايم سبق لهما أن أحبّا. أما ديوتيما فالناس يعلمون ذلك منها. ولكنَّ رجل المال الكبير كان ينطوي أيضاً على نفس تقية بالمعنى الموسّع. وكان يتولّاه الخوف أبداً من أن المشاعر التي كان يثيرها لدى النساء لا يمكن أن يكون هو المقصود بها بل ماله وكان من أجل ذلك لا يعيش إلا مع النساء اللواتي لم يكن يعطيهن هو أيضاً مشاعر بل مالاً. ولم يسبق له أن

حظي بصديق إذ كان يخشى أن يُستغل بل كان له أصدقاء عمل فحسب حتى عندما يكون التبادل المتّصل بالعمل تبادلاً فكرياً. وكذلك أكسبته تجارب الحياة المكر والدهاء وكان مع ذلك بِكراً يواجه خطر البقاء وحده حين لقيته ديوتيما التي كتبها له القدر. وكانت القوى الخفيّة فيهما يتصادم بعضها مع بعض. وهذا أمرلا يمكن مقارنته إلا بلفح الرياح المدارية الدورية وتيار الخليج وأمواج الرعدة البركانية في القشرة الأرضّية. وتحرّكت قوى تفوق قوى الإنسان بقدر هائل قوى تمت بصلة القربى إلى النجوم من أحدهما إلى الآخر متخطّية حدود الساعة واليوم تيارات لا يُسبَر غورها. وفي أمثال هذه اللحظات لا يكون من المهمّ أبداً ما يجري على اللسان من الحديث. وكان جسد آرنهايم يبدو كأنّه يقف هنا مشرئباً من ثنية الكيّ العمودية في وحدة الآلهة المنسوبة إلى عمالقة الجبال. وكانت تقف في الجانب الآخر متَّحدةً معه بموجة الوادي يُغشّيها لألاءُ الوحدة ديوتيما في ثوبها المتَّسم بزي تلك الأيام والذي كان يشكّل عند العضدين انتفاخات صغيرة وكان يبسُط الصدر فوق المعدة على مدى فسيح يتميّز بطيّات فنية ثم ينبسط من جديد تحت بطن الركبة على بطة الساق. وكانت حبال الزجاج في ستائر الباب تعكس الضوء كالبركة. وكانت الرماح والسهام على الجدران تهتز معرّفة عن عاطفتها المجنّحة والقاتلة وكانت أشرطة كالمان ـ ليفي على الموائد صامتة كغابة الليمون. أما ما قيل في البداية فنحن نمرّ به خاشعين مرور الكرام.

twitter @baghdad_library

[٤٦]

المُثُل والأخلاق أفضل الوسائل لسدّ الثغرة الكبيرة التي يسمّونها الروح

وكان آرنهايم أوّل من نفض عن نفسه سطوة السحر. ذلك لأنّ البقاء مدة أطول في مثل هذه الحالة لم يكن فيما يرى ممكناً بدون أن ينحدر المرء إلى استغراقٍ في التأمّل ثقيلٍ أجوف مسترخٍ أو يسوق للتأمل هيكلاً من الأفكار والقناعات متماسكاً ولكنّه لا يعود مماثلاً لجوهره تماماً.

ومثل هذه الوسيلة التي تقتل الروح حقاً ولكنّها تحفّظه بعد ذلك في علب صغيرة للاستعمال العام كانت منذ القدم تمثّل صلته بالعقل وبأشكال الإيمان والسلوك العملي كما حققتها كلّ الأخلاقيات والفلسفات والأديان بنجاح. والله يعلم كما قلنا ما هو الروح على الإطلاق! ولا يمكن على الإطلاق أن يكون ثمة شكّ في أنَّ الرغبة اللاهبة في الإصغاء إليها وحدها تُبقي على مجال لِلّعب لا سبيل إلى تقديره وعلى فوضى حقيقية والمرء يملك أمثلة على أن النفوس النقية نقاءً كيميائياً إنَّ صحّ التعبير هي التي تقترف الجرائم بوجه خالص. وفي مقابل ذلك فإنَّ الروح بمجرّد أن يحوز على أخلاق أو دين أو فلسفة أو ثقافة مدنيّة متعمّقة ومُثُل في مجالات الواجب والجميل يوهب له نسق من اللوائح والشروط وقواعد التنفيذ التي يترتّب عليه أن يلبيها قبل أن يباح له أن يفكّر في أن يكون روحاً جديراً بالاحترام ويُوجّه لهيبه مثلما يُوجَّه لهيب الفرن العالي نحو مستطيل رملي جميل ولا يتبقّى بعد في الأساس إلا المسائل المنطقيّة الخاصّة بالتأويل من قبيل هل يقع سلوكٌ ما ضمن مجال هذا

الأمر أو ذاك ويتميّز الروح بالوضوح الهادئ لميدان بعد معركة تمَّ خوضها حيث يرقد الأموات ويستطيع المرء أن يلاحظ على الفور أين ترتفع نأمةٌ من حياة بعدُ أو تتنهّد. ومن أجل ذلك يحقِّق الإنسان هذا الانتقال بأسرع ما يستطيع. فإذا عذَّبته هموم الإيمان كما يحدث أحياناً في الصبا سرعان ما يتحوّل إلى متابعة غير المؤمنين وإذا كدّره الحبّ صنع منه الزواج وإذا استحوذت عليه أيّة حماسة أخرى تخلّص من الاستحالة المتمثِّلة في العيش في نارها على الدوام بأنْ يبدأ في العيش من أجل هذه النار. وهذا يعني أنّه يملأ لحظات يومه الكثيرة التي تحتاج كلّ واحدة منها إلى مضمون ودافع بالعمل من أجل حالته المثالية بدلاً من أن يملأها بحالته المثالية نفسها وهذا يعني أن يملأها بالوسائل الكثيرة إلى الهدف وبالعقبات والأحداث الطارئة التي تضمن له على نحو مؤكَّد أنّه لن يحتاج أبداً إلى بلوغ ذلك الهدف. ذلك لأنّه لا يقدِّر إلا المجانين وأولو العقل المشوَّش والبشر ذوو الأفكار المتسلطة على الصمود الدائم في نار الإفعام الروحي. أما الإنسان السليم فلابدّ له أن يكتفي بالتصريح بأن الحياة تبدو له غير جديرة أنَّ تعاش بدون هذا اللسان الصغير من لهيب هذه النار الحافلة بالأسرار.

وقد كانت حياة آرنهايم مفعمة بالعمل. فقد كان رجلاً من رجال الواقع. وكان قد انتبه بابتسامته ذات المقصد الحسن وعلى نحو لا يخلو من الوجدان إلى الموقف الإجتماعي الطيّب للنمساويين الشيوخ بينما كان القوم يتحدَّثون في الإجتماع الذي كان هو شاهداً عليه عن مؤسَّسة الإمبراطور فرانتس جوزيف للحساء والعلاقة بين الشعور بالواجب وأشكال الزحف العسكري. وكان بعيداً جداً عن أن يسخر من ذلك كما فعل أولريش إذ كان على يقين أنَّ مِمّا يكشف عن قدر أقلّ إلى حدٍّ بعيد من الجرأة والتفوّق أن يتابع المرء الأفكار الكبيرة بدلاً من أن يعلي من شأن النواة المؤثِّرة للمثالية في أمثال هذه

twitter @baghdad_library

النفوس الموسومة بسمة الحياة اليوميّة والمضحكة إلى حدٍّ ما وذات المظهر الحسن.

ولكن حين نطقت ديوتيما هذا الأثر القديم في غمرة ذلك بنبرةٍ فينّياويةٍ بكلمة «النمسا العالمية» وهي كلمة كانت بالغة السخونة وكانت تماثل اللهيب في امتناعها على الفهم من وجهة إنسانية هنالك أصابه شيء ما في الصميم.

وكانوا يروون قصّة عنه. فقد كان يملك في مسكنه البَرلينيّ قاعة غاصة بأعمال النحت من عصر الباروك والعصر القوطي. ولكنَّ الكنيسة الكاثوليكية (وكان آرنهايم ينطوي على محبّة كبيرة لها) تصوِّر قديسيها وحاملي رايات الفضيّلة على الأغلب في أوضاع سعيدة جداً بل في حالات من النشوة والهيمان. فهناك كان يموت القديسون في كلّ الأوضاع. وكانت الروح تعتصر الأجساد مثل قطعة من الغسيل يُعتَصَرُ منها الماء. وكانت حركات الذراعين المتصالبين كالسيوف والأعناق الجريحة تُحدِث وهي مفصولةٌ عن محيطها الأصلي ومجموعةٌ في حجرة غريبة أثراً مثل أثر اجتماع المصابين بالإغماء التخشّبي في مستشفى للمجانين. وكانت هذه المجموعة تلقى التقدير البالغ وتسوق إلى آرنهايم كثيراً من علماء الفن الذين كان يحادثهم حديث المثقَّف. ولكنَّه كان يجلس أيضاً في كثير من الأحيان وحيداً منعزلاً في قاعته. وعندئذ كان يشعر شعوراً مختلفاً كلّ الاختلاف كان ينطوي على اندهاش يتَّسم بسمة الفزع كأنه يواجه عالماً نصف مجنون. وكان يشعر كيف كانت الأخلاق في الأصل تتوقَّد فيها نار لا مثيل لها ولم يكن في وسع حتى إنسان مثله سوى أن يحملق لدى رؤيتها في قطع الفحم الخامدة. وكان هذا التجلِّي العارض لما تعبّر عنه الأديان والأساطير جميعاً من خلال رواية أن الشرائع قد أهديت إلى الإنسان في الأصل من قبل الآلهة أيّ استشعار حالة مبكرة للروح لا بدَّ أنّها لم تكن مهولة تماماً ومع ذلك فقد كانت أثيرة لدى

الآلهة ثم شكلَّت حافة غريبة من الإضطراب حول تفكيره الذي هو في العادة بالغ الاتساع إلى درجة الغرور. وكان عند آرنهايم معاون للحقيقة إنسان عميق البساطة كما كان هو يسمّي هذا وكان كثيراً ما يحادثه في حياة الأزهار إذ يستطيع المرء أن يتعلّم من رجل بالغ البساطة أكثر مِمّا يتعلّم من العلماء إلى أن اكتشف آرنهايم ذات يوم أنَّ هذا المعاون كان يسرقه. ويستطيع المرء أن يقول إنّه حمل معه على نحو يبعث على اليأس بوجه خاص كلّ ما استطاع الوصول إليه وادخر العائد لكي يستقلّ بنفسه وكانت هذه هي الفكرة الوحيدة التي استحوذت عليه في الليل والنهار ولكنَّ تمثالاً يختفي أيضاً ذات مرة. وقدْ كشفت الشرطة التي استعين بها عن الملابسات. وفي المساء الذي تمَّ فيه إبلاغ آرنهايم بهذا الإكتشاف طلب استدعاء الرجل وجعل يوبّخه طوال الليل بسبب طُرُق الانحراف التي يفضي إليها دافع الكسب القائم على الهوى عنده. ويقال إنّه كان هو ذاته منفعلاً أثناء ذلك انفعالاً شديداً وكان يوشك من حين إلى آخر أن يبكي في غرفة مجاورة مظلمة ذلك لأنّه كان يحسد هذا الرجل لأسباب لم يكن يستطيع أن يفسّرها لنفسه. وفي الصباح التالي ترك الشرطة تقتاده إلى السجن.

وأكّد هذه القصّة أصدقاء آرنهايم المقرّبون وكان يشعر في هذه المرة أيضاً شعوراً مماثلاً حين بات يقف مع ديوتيما في حجرة أحدهما وكان يشعر بشيء كاستعارٍ للعالم بغير صوت حول الجدران الأربعة.

twitter @baghdad_library

[٤٧]

ما يكونه الجميع منفصلين يكونه آرنهايم في شخص واحد

وفي الأسابيع التالية شهد صالون ديوتيما ازدهاراً عظيماً فكان الناس يتوافدون عليه ليطلّعوا على أحدث أنباء العمل الموازي وليروا الرجل الجديد الذي قيل إنَّ ديوتيما عيّنته لنفسها وهو ثري ألماني يهودي غني وهو رجل غريب الأطوار يكتب القصائد ويقرّر سعر الفحم وهو الصديق الشخصي للإمبراطور الألماني. ولم يكن يظهر أيضاً سيّدات وسادة من أوساط الكونت لاينزدورف ومن الأوساط الدبلوماسية فحسب بل كانت الحياة المدنيّة الإقتصادية والفكريّة تظهر انجذاباً إلى ذلك بقدر متصاعد. وهكذا كان المختصّون بلغة الزنوج والمؤلّفون الموسيقيون يلتقي بعضهم ببعض ولم يسبق لأحد منهم أن سمع عن الآخر كلمة بعد من أصحاب أنوال وأصحاب كراسي اعتراف وأناس توحي إليهم كلمة «الإتجاه» مثلاً باتجاه خط السباق أو اتجاه البورصة أو منهاج الحلقة الدراسية(٩).

على أنَّ شيئاً لم يسبق له أبداً وجود من قبلُ حدث الآن: فقد كان هناك رجل يستطيع أن يحادث كلّ امرئ بلغته وكان هذا آرنهايم.

وكان قد نأى بنفسه فيما بعد عن الإجتماعات الرسميّة بعد الإنطباع المزعج الذي تلقّاه في بداية الإجتماع الأوّل غير أنّه لم يكن يشارك في

(٩) في الأصل الألماني كلمة kurs ويقابله بالإنجليزيّة course وبالفرنسية cours. (المترجم)

الحفلات على الدوام أيضاً إذ كان كثير الغياب عن المدينة. أما وظيفة أمين السرّ فما عاد يجري حديث عنها بصورة بديهيّة وكان هو نفسه قد أوضح لديوتيما أن هذه الخاطرة لن تكون ملائمة حتى بالقياس إليه ولم يكن في وسع ديوتيما أن تنظر إلى أولريش في الحقيقة بدون أن تحسّ أنّه غاصب. غير أنّها أذعنت لحكم آرنهايم. وكان يأتي ويذهب. وبينما كانت الأيام الثلاثة أو الخمسة تنقضي وكأنّها لا شيء كان يعود من باريس وروما وبرلين. ولم يكن ما يحدث لدى ديوتيما سوى قطاع صغير من حياته غير أنّه كان يفضّله وكان حاضراً فيه بكلّ شخصيته.

أما أنّه كان قادراً على أن يحادث كبار رجال الصناعة في الصناعة وأهل المصارف في الاقتصاد فقد كان ذلك أمراً مفهوماً. غير أنّه كان مستعداً بالقدر ذاته أن يتحدَّث على نحو غير محدود في الفيزياء الجزئيّة أو التصوف أو صيد الحمّام وكان متحدِّثاً ممتازاً وكان إذا بدأ ذات مرّة لا يقف إلا بمقدار ما يستطيع امرؤٌ أن يطوي كتاباً قبل أن يقال فيه كلّ ما تمسّ الحاجة إلى الإعراب عنه. غير أنّه كان يتمتّع بأسلوب يكاد يكون كئيباً بالقياس إليه ذاته مثل جدولٍ تحفّ به الأحراش المعتمة وكان هذا كأنّه يضفي على كثرة الحديث شيئاً من الضرورة. وكان لاطّلاعه وذاكرته نطاق غير عادي بالفعل فقد كان قادراً على أن يأتي الخبراء بأدق النقاط الأساسيّة في مجال معرفتهم غير أنّه كان يعرف بالقدر ذاته كلّ شخصيّة هامة من النبلاء الإنجليز أو الفرنسيِّين أو اليابانيين. وكانت له دراية بميادين السباق وملاعب الغولف لا في أوروبا فحسب بل في أستراليا وأمريكا أيضاً. وكذلك كان شأن صيّادي الغزلان ومروّضي الخيل والمالكين الدائمين لمقاصير مسرح البلاط الذين يقبلون لكي يروا يهودياً غنياً مجنوناً «وكانوا يقولون في لهجتهم الخاصة: إنّه لشيء جديد حقاً» ثم يغادرون منزل ديوتيما وهم يهزّون برؤوسهم هزَّة الاحترام.

twitter @baghdad_library

وقد انتحى بأولريش ذات مرّة جانباً وقال له: هل تعلَّم أنَّ كبار النبلاء كان لهم في السنين المائة الأخيرة حظّ سيّئ مع معلّميهم الخصوصيّين! لقد كان هؤلاء فيما سلف أناساً كان قسم كبير منهم يردّ بعد ذلك في دوائر المعارف الكبرى. وقد جاء هؤلاء المعلّمون الخصوصيّون معهم من جديد بأساتذة للموسيقى والرسم صنعوا تعبيراً عن شكرهم لذلك أشياء تُسمّى اليوم ثقافتنا القديمة. ولكنَّ منذ أن وجدت المدرسة الحديثة العامة ومنذ بات الناس من أوساطي وأستميحك العذر يحصلون على لقب الدكتور أصبح المعلّمون الخصوصيّون رديئين على نحو ما. فشبابنا على الحقّ كلّ الحقّ حين يصطاد الديوك البرِّية والخنازير البرِّية ويركب الخيل ويجري وراء الخادمات الحسناوات فليس هناك كبير اعتراض على ذلك حين يكون المرء شاباً ولكنَّ فيما مضى كان المعلّمون الخصوصيّون يوجِّهون شطراً من طاقة الشباب هذه إلى مسألة وجوب اهتمامهم بالفكر والفن مثل اهتمامهم بالديوك البرية. وهذا أمر يُفتقر اليوم». وكان هذا قد خطر ببال حضرة الشريف على هذا النحو وكانت أمثال هذه الأشياء تخطر بباله أحياناً وفجأة أقبل على أولريش كلّ الإقبال وختم بقوله: «ألا ترى هذه هي السنة الحرجة ثمانية وأربعون التي فصلت الطبقة الوسطى عن النبلاء مُلحقةً الضرر بكلتيهما!». ونظر إلى الحفلة مهموماً وكان ينتابه الغيظ كلّما تباهى المتحدِّثون في كلمات المعارضة في البرلمان بثقافة الطبقة المتوسِّطة. وودّ لو يرى متى كان من الممكن العثور على الثقافة الحقيقيّة للطبقة الوسطى عند النبلاء ولكنَّ النبلاء المساكين لم يكن في وسعهم أن يجدوا فيها شيئاً. لقد كانت بالنسبة إليهم سلاحاً غير مرئي وكانوا يُضرَبون به. ولما كانوا على مدى هذا التطوّر يزدادون خسارة في قوَّتهم على نحو مطّرد فقد انتهى الأمر بالمرء إلى أن يأتي إلى ديوتيما ويتفقد المسألة. وهكذا كان الكونت لاينزدورف يحسّ بالهمّ ينتاب قلبه حين يراقب الإجتماع الصاخب. وقد كان خليقاً أن يتمنّى لو نظر إلى المنصب الذي أتيحت له

الفرصة لنيله في هذا المنزل نظرة أكثر جديّة. وحاول أولريش أن يعزّيه قائلاً: «يا صاحب المقام إنَّ حالة الطبقة الوسطى مع المثقَّفين تماثل اليوم على وجه الدِّقة الحالة التي كانت لكبار النبلاء مع معلّميهم الخصوصيّين! فهؤلاء أناس غرباء عنهم أرجوك هلا نظرت إلى نفسك فرأيت كيف تتولّاهم الدهشة جميعاً من هذا الدكتور آرنهايم».

ولكن الكونت لاينزدورف لم يكن ينظر على مدى الوقت كلّه إلا إلى آرنهايم على أيّة حال. وجعل أولريش يجاري هذا الإندهاش قائلاً: «على أنَّ هذا ما عاد آخر الأمر إنساناً وإنما هو ظاهرة مثل قوس قزح يستطيع المرء أن يلمسه بقدمه ويتحسّسه على نحو صحيح تماماً فهو يتحدَّث عن الحبّ والاقتصاد وعن الكيمياء والرحلات بزوارق الكاياك[١٠] فهو عالم وصاحب أملاك ورجل من رجال البورصة وبكلمة واحدة: فإن ما نكونه نحن جميعاً متفرّقين يكونه هو في شخص واحد. وها نحن نتعجّب من ذلك. أيهزّ حضرة الشريف برأسه؟ ولكنّي على يقين أنَّ سحابة تقدّم العصر المزعوم التي لا ينظر فيها أحد أنّها هي التي وضعته على صعيدنا».

وصحح الشريف قائلاً: «لم أهزز برأسي من جرّائك بل كنت أفكّر في الدكتور آرنهايم. فعلى الإجمال لا بدّ للمرء أن يسلّم بأنّه شخصيّة ممتعة».

---

(١٠) زورق تجديف للرياضة ذو مقعد واحد. (المترجم)

twitter @baghdad_library

[٤٨]

الأسباب الثلاثة لشهرة آرنهايم وسرّ المسألة برمّتها

ولكن هذا لم يكن إلا الأثر المألوف لشخص الدكتور آرنهايم.

فقد كان رجلاً كبير الشأن.

وكان نشاطه منتشراً عبر قارات الأرض وعبر قارات المعرّفة: من الفلاسفة والاقتصاد والموسيقى والعالم والرياضة. وكان يتكلّم بطلاقة بلغات خمسة وكان أشهر فنّاني العالم أصدقاءه وكان يشتري فنّ الغد قبل إبّانه بأسعار لم ترتفع بعد. وكان يتردّد على البلاط الإمبراطوري ويحادث العمّال وكان يملك بيتاً ريفياً على أحدث الأساليب كان يُصوَّر في كلّ المجلّات الخاصّة بفن العمارة المعاصر وقصراً قديماً مزعزع الأركان في مكان ما في أشهر مناطق الحدود ذات النبالة فقراً كان يبدو كالمهد المتداعي للفكرة البروسية.

ومثل هذا الاتساع والمقدرة على الاستيعاب قلّما يكونان مقترنين بإنجازات خاصة ولكنّ آرنهايم كان يشكّل في هذا المجال استثناءً أيضاً. وكان يخلد إلى العزلة مرّة أو مرّتين في العام في أملاكه الريفيّة ويدوّن هناك تجارب حياته الفكريّة. وكانت هذه الكتب والأبحاث التي كان قد ألّف منها الآن سلسلة ضخمة مطلوبة جداً وقد حقّقت عدداً كبيراً من الطبعات وترجمت إلى الكثير من اللغات. وذلك لأنّ المرء لا يضع ثقته في طبيب مريض. أما ما يكون في حالة امرئ عرف كيف يُعنى بنفسه من قولٍ يقوله فلا بدّ أن يكون في ذلك بعض ما هو حقّ بلا ريب. وقد كان هذا هو المصدر الأوّل لشهرته.

أما المصدر الثاني فقد نجم عن طبيعة العلم. فالعلم يتمتَّع عندنا بسمعة عالية وذلك عن حق. ولكنَّ حين يملأ على وجه اليقين حياة إنسانية بأكملها وعندما يكرِّس المرء نفسه للبحث في عمل الكُلِّي فلا ريب أن سيوجد في هذا السياق لحظات معيَّنة ويقصد بهذا لحظات إنسانية يرى المرء نفسه فيها مدفوعاً إلى التذكير بعلاقة الكُلى بمجموع الشعب. ومن أجل ذلك يستشهد بغوته في ألمانيا استشهاداً كثيراً إلى هذا الحد. ولكنَّ إذا أراد أكاديمي أن يوحي على نحو خاص تماماً أنّه لا يتمتَّع بالعلم فحسب بل يتمتَّع بالفكر الحيّ المستبشر بالمستقبل كان أفضل ما يثبت به مقدرته أن يشير إلى الكتب التي لا تضفي معرفتها الشرف فحسب بل تَعد بالمزيد من الشرف كالأوراق المالية التي تتصاعد أسعارها. وفي أمثال هذه الحالات كانت الشواهد المنقولة عن باول آرنهايم تتمتَّع بشعبية متنامية. أما الرحلات التي كان يقوم بها إلى مناطق العلوم ليدعم آراءه العامة فلم تكن بالطبع تلبِّي دائماً أشدّ المتطلِّبات صرامة. وكانت تكشف بلا ريب عن اعتماد سهل على إطِّلاع واسع. غير أنَّ الخبير المختصّ كان لا بدّ أن يجد فيها تلك الأغلاط الصغيرة وتلك الأشكال من سوء الفهم التي يستطيع المرء من خلالها أن يتعرَّف على عمل هاوٍ من الهواة على نحو مماثل بالضبط لإمكان تمييز ثوب مصنوع من قبل خيّاطة منزلية عن طريق خياطته من ثوب يرجع إلى ورشة. إلا أنّه لا يجوز للمرء أبداً أن يعتقد أنَّ هذا كان يحول دون أن يُعجَب الخبراء بآرنهايم. لقد كانوا يبتسمون ابتسامة المغرور وكان يبهرهم بحكم كونه شيئاً عصرياً تماماً وبحكم كونه رجلاً كانت كلّ الصحف تتحدَّث عنه كونه ملكاً من ملوك الاقتصاد وكانت أعماله فائقة على كلّ حال إذا ما قورنت بالأعمال الفكريّة لقدماء الملوك. وعندما كان يتاح لهم أن يلاحظوا أنّهم كانوا يمثّلون في ميدانهم الخاص شيئاً يعدّ بلا ريب مختلفاً اختلافاً كبيراً عمّا يمثله كانوا يثبتون امتنانهم لذلك إذ كانوا يعدّونه رجلاً ظريفاً أو عبقرياً أو ببساطة تامة رجلاً عالمياً وذلك ما يفيد بين الخبراء

twitter @baghdad_library

شيئاً مماثلاً لتصريح المرء بين الرجال عن امرأة بقوله إنّها جميلة تبعاً للذوق النسائي.

وكان المصدر الثالث لشهرة آرنهايم يكمن في الاقتصاد إذ لم تكن الأحوال تسير معه على نحو سيِّئ مع قباطنتها القدماء من جوّابي البحار وحين كان عليه أن يتَّفق معهم على صفقة كبيرة كان يمكر حتى بأكثرهم مكراً والحقّ أنهم لم يكونوا يقدِّرونه تقديراً كبيراً من حيث كونه تاجراً وكانوا يسمّونه ولي العهد تمييزاً له عن أبيه الذي كان لسانه القصير الغليظ لا يقدِّر على الكلام المرن ولكنَّه كان في مقابل ذلك يشتمّ في أوسع الأوساط المجاورة ومن خلال أدقّ البوادر الرائحة التي تنبئ عن صفقة ما. وكانوا يهابون هذا ويجلّونه ولكنَّ عندما كانوا يسمعون بالمطالب الفلسفية التي كان ولي العهد يطرحها على طبقتهم متضمِّنةً على نحو معقَّد حتى في أشدّ الأحاديث موضوعية كانوا يبتسمون. وكان من المعروف عنه أنّه يستشهد بالأدباء في اجتماعات مجلس الإدارة ويصرّ على أنَّ الاقتصاد شيء لا يستطيع المرء أن يعزله عن الأوجه الأخرى للنشاط البشري وأنّه لا يجوز أن يعالج إلا ضمن السياق الكبير لكلّ المسائل المتعلّقة بالحياة القوميّة والفكريّة وحتى الداخلية المتناهية في عمقها. غير أنّهم لم يكونوا يستطيعون وإن كانوا يبتسمون لذلك أيضاً أن يتجاهلوا أنَّ آرنهايم الإبن كان بهذه الشواهد المتعلّقة بالعمل على وجه الخصوص يشغل الرأي العام بقدر متصاعد. وكان مايفتأ يظهر في القسم الإقتصادي حيناً أو في القسم السياسي أو الثقافي حيناً آخر من الصحف الكبرى عند كلّ الأمم خبر عنه أو تقريظ لدراسة بقلمه أو تقرير عن كلمة جديرة بالتنويه ألقاها في مكان ما أو نبأ عن استقباله من قبل أيّ حاكم كان أو أيّ رابطة فنّية ولم يبق خلال وقت قصير في وسط كبار رجال الأعمال الذين اعتادوا العمل في إطار الهدوء وخلف الأبواب الموصدة على نحو مضاعف رجل يكثر الحديث عنه في

الخارج مثلما يكثر عنه. ولا يجوز للمرء أن يعتقد أن السادة الرؤساء وأعضاء مجالس الإدارة والمدراء العامين ومدراء المصارف ومصانع التعدين واتحادات المؤسَّسات والمناجم وشركات الملاحة يعدّون في خبيئة أنفسهم من البشر أولي النوايا الخبيثة مثلما يُصوَّرون في كثير من الأحيان إذ أنَّ العقل الداخلي لحياتهم بصرف النظر عن روح العائلة المتطوّر عندهم تطوّراً شديداً هو عقل المال وهذا عقل له أسنان سليمة جداً ومعدة بسيطة. وكانوا جميعاً على يقين أنَّ العالم خليق أن يكون أفضل كثيراً لو ترك ببساطة للُعبة الحرّة لعبة العرض والطلب بدلاً من أن يترك للبوارج والأحزاب وأصحاب الجلالة والدبلوماسيِّين الذين لا يعرفون الاقتصاد. ولكنَّ لما كان العالم على ما هو عليه وكانت الحياة التي تخدم المصلحة الخاصّة أوّلاً ثم تخدم المصلحة العامة عن هذا الطريق فحسب من أجل حكم مسبق قديم يجري تقييمها تقييماً أعمق من تقييم الفروسيّة وفكرة الدولة ولما كانت مهام الدولة تتسامى عن المهام الخاصّة من الوجهة الأخلاقية فقد كانوا آخر من لا يدخل ذلك في حسبانه. وقد استغلوا بقوّة كما هو معروف المزايا التي تتيحها للمصلحة العامة المفاوضات الجمركية المسلّحة أو القوّة العسكرية المعبّأة ضد المصريين. ولكنَّ المسألة أدت على هذا الطريق إلى الفلسفة. ذلك لأنّه بدون الفلسفة ما عاد يجرؤ اليوم إلّا المجرمون على إلحاق الأذى بالآخرين من البشر. وهكذا اعتادوا أن يروا في آرنهايم الإبن نوعاً من الممثِّل للڤاتيكان لشؤونهم. ومع كلّ السخرية التي كانت لديهم تجاه ميوله كان يحلو لهم أن يملكوا من خلاله رجلاً يقدِّر على تمثيل حاجاتهم في اجتماع للقساوسة مثلما يقدِّر على ذلك بالدرجة ذاتها في مؤتمر لعلماء الإجتماع بل إنّه اكتسب آخر الأمر نفوذاً مماثلاً لديهم على النحو الذي تمَّ وهكذا كان يمكن أن تُروى بعض الأمور الأخرى على نجاح آرنهايم على الدبلوماسيِّين الذين كانوا يخوضون في مجال الاقتصاد الغريب عنهم في جوهره مع أهمِّيته بحذر الرجال

twitter @baghdad_library

الذين يترتّب عليهم أن يقوموا برعاية فيلٍ لا يمكن الاعتماد عليه تماماً بينما كان هو يتعامل معه بلامبالاة الحارس المنتمي إلى أهل البلد وعن الفنّانين الذين قلّما كان يعود عليهم بطائل وكانوا على الرغم من ذلك يخامرهم الشعور بأنّهم يتعاملون مع ثريّ مشجّع للفن. وأخيراً عن الصحفيّين الذين كانوا خليقين أن يدّعوا الحقّ الجدي في أن يقال عنهم إنهم كانوا أوّل من صنع من آرنهايم رجلاً عظيماً عن طريق إعجابهم به إذ كانوا كذلك وبدون أن يلاحظوا السياق المقلوب إذ كانوا قد علّقوا الآمال وكانوا يعتقدون أنّهم لا تخفى عليهم خافية. وكانت الصورة الأساسيّة لنجاحه هي ذاتها في كلّ مكان. فقد كان عليه وهو محاط بهالة غناه السحرية والإشاعة الخاصّة بأهمّيته أن يكون دائماً على احتكاك بأناس يفوقونه في ميدانهم. غير أنّه كان يحظي بإعجابهم من حيث كونه غريباً عن الاختصاص بمعلومات مفاجئة في اختصاصهم ويبعث فيهم الرهبة إذ كان يمثّل في شخصه علاقات عالمهم بعوالم أخرى لم تكن لديهم معرّفة بها. وهكذا كان قد تحوّل إلى طبيعة عنده أن يبدو في مواجهة مجتمع من المختصّين كلاً متكاملاً. وفي بعض الأحيان كان يلوح لذهنه نوع من عصر التجارة والصناعة الفايمارية أو الفلورنسية بقيادة شخصيّات قويّة تزيد في الرخاء وهي شخصيّات لا بدّ أن تكون مؤهّلة لأنّ تجمع في ذاتها المنتجات المتفرّقة للتقنية والعلوم والفنون وتوجّهها من موقع عال. وكان يحسّ في نفسه بالمقدرة على ذلك. وكان يتمتّع بالموهبة المتمثّلة في ألّا يكون أبداً متفوّقاً في شيء يمكن إثباته وفي شيء منفرد على حدة ولكنّها موهبة الخروج عن طريق توازن انسيابي يجدّد نفسه بنفسه في كلّ لحظة إلى الذروة من كلّ وضع الأمر الذي ربّما يعدّ بالفعل المقدرة الأساسيّة للسياسي. ولكنّ آرنهايم كان فضلاً عن ذلك على يقين أنّ هذا سرّ عميق. وكان يسمّيه «سر المجموع». ذلك لأنّ جمال إنسان ما لا يكاد يوجد في شيء منفرد ويمكن إثباته بل في ذلك الشيء السحري الذي يستغلّ حتى البشاعات

الصغيرة؛ وكذلك بالضبط تكون الفضيّلة والحبّ العميقان وكرامة مخلوق وعظمته مستقلّة تقريباً عمّا يعمله بل إنّها تعدّ مؤهّلة لإضفاء النبالة على كلّ ما يعمله. وبطريقة حافلة بالأسرار يتقدّم المجموع في الحياة على التفاصيل. وعلى هذا فإذا كان الصغار من البشر يتألّفون من فضائلهم ونقائصهم على أيّة حال فإنَّ الإنسان العظيم هو الذي يضفي على سجاياه منزلتها أوّلاً وإذا كان سرّ نجاحه يتمثّل في أن هذا لا يمكن فهمه في أيّ من منجزاته وفي أيٍ من سجاياه حقّ الفهم فإنَّ هذا التوفّر لطاقة تعدّ أكثر من كلّ مظهر من مظاهرها يكون هو السرّ الذي يرتكز عليه كلّ شيء عظيم في الحياة. وهكذا كان آرنهايم قد كتب في أحد كتبه وعندما دوّن هذا كان قريباً من الاعتقاد بأنّه لامس ثنية معطفٍ من المتعالي عن الأرض وترك هذا يشفّ في النص.

twitter @baghdad_library

[٤٩]

بدايات التناقض بين الدبلوماسية القديمة والجديدة

على أنَّ التعامل مع شخصيّات كان جانبها الخصوصي نبالة المولد لم يكن يشكِّل استثناءً في هذا الصدد. فقد كان آرنهايم يخفِّف من وزن نبالته الخاصّة ويقتصر على هذا النحو متواضعاً على نبالة الفكر التي تعرف مزاياها وحدودها بحيث كان حاملو الأسماء ذات النبالة العليا يبدون إلى جانبه كأن ظهورهم محنّية كظهور العمّال من حمل هذا العبء. أما من كان يلاحظ هذا على نحو أكثر إرهافاً فقد كانت ديوتيما إذ أدركت سرّ الأمر كلّه بعقل فنّان يرى حلم حياته محقّقاً بطريقة تستبعد كلّ تحسين.

وكانت الآن قد رضيت من جديد عن صالونها كلّ الرضى. وكان آرنهايم يحذر من المبالغة في تقدير التنظيم الشكلي إذ أن المصالح المادية الخالية من التهذيب خليقة أن تستحوذ على المقصد السليم وكان يعلّق مزيداً من الأهميّة على الصالون.

أما رئيس القسم توتسي فكان في مقابل ذلك يعرب عن تخوّفه من أنَّ المرء لن يخرج على هذا الطريق من هاوية من الأحاديث.

وكان قد وضع ساقاً على الأخرى وجعل يديه المعروقتين على نحو شديد الناحلتين الداكنتين متصالبتين أمامهما. وكان يبدو بلحيته الصغيرة وعينيه الجنوبيتين إلى جانب آرنهايم الجالس في قامة منتصبة في حلّة لا شائبة فيها من القماش الرقيق مثل لصٍّ من شرقي البحر المتوسّط إلى جانب أحد السادة التجار من بريمن. وكان يتصادم هنا إثنان من النبلاء أحدهما بالآخر. على أنَّ

النبيل النمساوي الذي كان يمثِّل ذوقاً رفيعاً ومركّباً بوجوه عديدة والذي كان يسرّه أن يسترسل في شيء من الإهمال ما كان يعدّ نفسه الأقلّ شأناً بحال من الأحوال. وكان لرئيس القسم توتسي طريقة لطيفة في الاستفسار عن أوجه تقدّم العمل الموازي وكأنّه لا يجوز له أن يعرف بنفسه وعلى نحو مباشر ما كان يجري في منزله فكان يقول: «لقد كنّا خليقين أن نكون مسرورين لو أمكننا أن نطّلع في أقرب وقت ممكن على ما يجري التخطيط له» وكان ينظر عندها إلى زوجته والى آرنهايم مع ابتسامة ودّية يفترض فيها أن تقول إنني في هذه الحالة غريب هنا. وكان يروي بعد ذلك أن العمل المشترك لزوجته وللشريف بات يسبّب للجهات الرسميّة هموماً ثقيلة. وكان الوزير قد أحسّ بصورة مسبقة خلال التقرير الأخير إلى حضرة صاحب الجلالة بماهية البيانات العلنيّة بمناسبة اليوبيل التي يجوز لها أن تدخل في حسبانها موافقة صاحب المقام الأعلى في ظروف معيَّنة أي إلى أيّ مدى يمكن للحظة أن تكون مقبولة من جانب صاحب المقام الأعلى لكي توضع في مقدِّمة عمل سلمي عالمي مستبقة تيار العصر ـ إذ كان توتسي يشرح قائلاً: إنَّ هذه قد تكون الإمكانية الوحيدة إذا ما أراد المرء أن يصوغ فكرة النمسا العالمية التي ظهرت عند حضرة الشريف صياغة سياسيّة ومضى يقول: «ولكن جلالته ردّ على الفور بوجدانية مقامه الأعلى المشهورة عالمياً وبتحفّظه بالتعليق الحازم قائلاً: «لا أريد أن أندفع متخطيّاً دوري». والآن لا يعرف هل يدور الأمر حول الإعراب عن إرادة سامية معارضة أم لا.

وكان توتسي يتصرّف على هذا النحو بطريقة رقيقة بأسرار مهنته تصرّفاً غير لبق مثلما يفعل رجل يعرف كيف يحافظ على أسرارٍ أكبر محافظةً جيّدة واختتم بقوله إنَّ البعثات يترتّب عليها الآن أن تستقصي بالدراسة مزاج القصور الأجنبية إذ أنّهم ليسوا متأكّدين من مزاج بلاطهم ولا بدّ لهم أن يحصلوا في

twitter @baghdad_library

مكان ما على نقطة ثابتة. ذلك لأنّه يوجد في النهاية من الوجهة الصناعية البحتة إمكانيات كثيرة من الدعوة إلى مؤتمر عام للسلام ومروراً باجتماع بعشرين حاكماً ونزولاً إلى تجهيز قصر لاهاي برسوم جدارية لفنّانين نمساويين أو إلى وقف لأطفال موظّفي القصر في لاهاي ويتاماهم. ورُبطت بذلك مسألة كيف يفكّرون في البلاط البروسي بعام اليوبيل - وصرّح آرنهايم أنّه ليس له إطّلاع على ذلك. وكان التهكم النمساوي يصدمه. وكان وهو الذي يعرف كيف يتحدَّث حديثاً بالغ الأناقة يشعر في جوار توتسي أنّه مقيّد مثل رجل يرغب أن يؤكّد أنّه يترتّب عليه أن يغدو بارداً وجدياً بمجرّد أن يكون الحديث عن شؤون الدولة والى هذا الحدث يتمثّل نبيلان متعارضان أسلوبين من أساليب الدولة والحياة على نحو لا يخلو تماماً من غاية تنافسية أمام ديوتيما. ولكنَّ ضع كلباً سلوقياً إلى جانب كلب أفطس وشجرة صفصاف إلى جانب شجرة حور وكأساً من الخمر على أرشد شديدة الإنحدار وصورة في قارب شراعي بدلاً من معرض للفن وبإيجاز: ضع شكلين من أشكال الحياة متّسمين بالتهذيب الرفيع والسمة المميَّزة أحدهما إلى جانب الآخر فسينشأ بين كليهما فراغ إلغاء شيء مضحك خبيث تماماً بدون قرار وهذا ما كانت تشعر به ديوتيماص في عينيها وأذنيها بدون أن تفهمه وقد حوّلت دفّة الحديث وهي مذعورة إذ أعلنت لزوجها بتصميم بالغ أنّها تنتوي أن تبلغ بالعمل الموازي في المقام الأوّل شيئاً عظيماً من الوجهة الفكريّة ولن تدع إلا حاجات البشر العصريين حقاً تنصبّ في قيادته.

وشعر آرنهايم بالامتنان إذ أعيد للفكرة كرامتها من جديد ذلك لأنّه لما كان مضطراً أن يقاوم لحظات معيَّنة من لحظات الإنحدار فقد كان يود من أجل ذلك على وجه الخوص ألّا يمارس الهزل مع الأحداث التي كانت تبرر اجتماعه بديوتيما بطريقة عظيمة مثلما لا يفعل ذلك امرؤٌ مشرف على الغرق

بحزام نجاته. غير أن ما فاجأه هو نفسه أنّه سأل ديوتيما بصوت لا يخلو من الشك: «مَنْ تريد أن تختار لمجموعة الطليعة الفكريّة للعمل الموازي».

وبالطبع فقد كان هذا مايزال غير واضح تماماً بالنسبة إلى ديوتيما وكانت أيام الإجتماع بآرنهايم قد وهبت لها فيضاً من المقترحات والأفكار بلغ منه أنّها لم تكن قد انتهت إلى اختيار نتائج معيّنة. أجل لقد كان آرنهايم قد ركّز بضع مرات في مواجهتها أن الأهميّة ليست في ديمقراطية اللجان بل في الشخصيّات القويَّة الشمولية. غير أنّها شعرت في هذا السياق ببساطة بشعور هو: «أنت وأنا وإن لم تكن تنطوي أيضاً بحال من الأحوال على التصميم بل حتى على الإدراك؛ على أن هذا كان كما يبدو هو على وجه الخصوص ما ذكّرها من خلال التشاؤم الذي كان كامناً في صوت آرنهايم إذ أجابت قائلة: «وهل يوجد اليوم على الإطلاق شيء يستطيع المرء أن يعدّه مهماً وعظيماً تماماً لكي يحقّقه بكلّ طاقته؟!».

وعلّق آرنهايم بقوله: «إن من السمات المميِّزة للعصر الذي فقد الطمأنينة الداخلية الخاصّة بالعصور السليمة أنّه لا يتكوّن فيها إلا بصعوبة شيء يكون هو الأهم والأعظم».

وكان رئيس القسم توتسي قد أطرق بعينيه نحو هباءة على سرواله بحيث كان من الممكن أن يؤوّل المرء ابتسامته على أنّها موافقة.

واستأنف آرنهايم قائلاً: «وفي الحقيقة ما الذي ينبغي لهذا أن يكون؟ أتراه الدين؟».

ووجه رئيس القسم ابتسامته الآن نحو الأعلى. والحقّ أنَّ آرنهايم لم يكن قد نطق بالكلمة مؤكَّدة خالية من الشك كالعهد به في جوار الشريف غير أن ذاك كان على أيَّة حال متَّسِماً بجدّ حسن الوقع واحتجّت ديوتيما على ابتسامة زوجها واعترضت قائلة: «ولِم لا الدين أيضاً!».

twitter @baghdad_library

«بلا ريب ولكنَّ لما كان علينا أن نتخذ قراراً عملياً هل فكَّرت في اختيار قسيس للجنة يجد للعمل هدفاً موافقاً للعصر؟ ماذا يوجد سوى الدين؟ الأمة؟ الدولة؟».

وهنا سرّت ديوتيما إذ كان توتسي يتناول الدولة في العادة على أنّها شأن من شؤون الرجال لا يتحدَّث المرء عنه مع النساء. غير أنّه سكت الآن وجعل يومئ بعينه فحسب كما لو كان مايزال هناك مزيد من بعض ما يقال حول هذا.

واستأنف آرنهايم سؤاله: «العلم؟ الحضارة؟ ويبقى الفن والحقّ أنّه خليق أن يكون أوّل ما يجب أن يعكس وحدة الحياة ونظامها الداخلي. غير أننا نعرف بلا ريب الصورة التي يعرضها اليوم: التمزّق العام والحدود القصوى بدون رابطة. أما الحياة الإجتماعية والوجدانية الجديدة الممكنة فقد أنشأ لها في البداية ستندال وبلزاك وفلوبير الملحمة. وأما هاجس الطبقات السفلى فقد كشف عنه دوستويفسكي وسترندبرج وفرويد. فنحن الذين نعيش اليوم يخامرنا الشعور العميق بأنّه لم يتبق لنا في كلّ هذا شيء نصنعه».

والتقط آرنهايم الإشارة قائلاً: «لقد كان عليك أن تضيف الكتاب المقدس. فمع الكتاب المقدَّس وهومير وروزيجر أو رويتر يمكن الانسجام! وعندها نكون أيضاً في منطقة صميم المشكلة! فلنفرض أن لدينا هوميراً جديداً؛ ولنتساءل بإخلاص يبلغ أبعد الحدود وهل عسانا نكون عندئذ قادرين على وجه الإطلاق على أن نصغي إليه؟ أما أنا فأعتقد أن علينا أن ننفي هذا إذ لا يوجد عندنا لأننا لا نحتاج إليه!».

وتربّع آرنهايم الآن على السرج وركب قائلاً: «لو كنّا في حاجة إليه لنِلْناه! ذلك لأنّه لا يحدث في تاريخ العالم شيء سلبي في نهاية الأمر. ولذلك فماذا يمكن أن يعني كوننا نحوّل كلّ ما هو عظيم وجوهري حقاً إلى الماضي؟ فهومير والمسيح لم يُبلَغ شأوهما مرّة أخرى فضلاً عن أن يُتفوَّق عليهما وليس

هناك شيء أجمل من نشيد الإنشاد. والعصر القوطي وعصر النهضة يقفان أمام العصر الحديث مثل أرض جبلية أمام مدخل سهل من السهول. وأين توجد اليوم الشخصيّات العظيمة من الحكام؟! ولكم يبدو قصير النفَس حتى عمل نابليون إلى جانب عمل الفراعنة وعمل كانط إلى جانب عمل بوذا وعمل غوته إلى جانب عمل هوميرا! غير أننا نعيش ويجب أن نعيش من أجل شيء: فأية نتيجة يترتّب علينا أن نستخلصها من ذلك؟ إنّها ليست سوى أن ـ» وهنا قطع آرنهايم حديثه مع ذلك وأكد أنّه يتردّد في النطق بها: ذلك أنّه لم يبق إلا الخاتمة وهي أن كلّ ما ينظر إليه المرء نظرة الإهتمام ويعدّه عظيماً لا علاقة له بما يُمثِّل طاقة حياتنا المتناهية عمقاً في باطنيتها.

وسأل رئيس القسم توتسي قائلاً إذ كان لديه القليل مِمّا يعترض به: «وهذه يا تُرى تتمثل في مقابل ذلك في أن المرء يظن أن معظم الأمور نظرة تضفي عليها الأهميّة المفرطة؟».

وردّ آرنهايم قائلاً: «ما من إنسان يستطيع أن يقول هذا اليوم. فمسألة الحضارة لا تُحلّ إلا عن طريق القلب عن طريق ظهور شخصيّة جديدة بالنظرة الباطنية والإرادة النقية. فالعقل لم يحقِّق شيئاً آخر سوى إضعاف الماضي العظيم وصولاً إلى الليبرالية. ولكنَّ ربّما كنّا لا نرى رؤية بعيدة بما يكفي ونحسُب بمقاييس مفرطة في الصِغَر. فكل لحظة يمكن أن تكون لحظة تحوّل عالمي!».

وأرادت ديوتيما أن تحتجّ بأنّه لن يبقى عندئذ شيء على الإطلاق للعمل الموازي. ولكنَّ ملامح آرنهايم المتجهِّمة جرفتها على نحو غريب. وربّما كانت بقية من «الواجبات الدراسية الثقيلة» قد تخلّفت فيها وكانت تُثقل عليها حين كانت تضطر المرة بعد الأخرى إلى قراءة أحدث الكتب والحديث عن أحدث الصور. وكان التشاؤم حيال الفن يحرِّرها من كثير من ضروب الجمال

twitter @baghdad_library

التي لم تكن تعجبها في الأساس على الإطلاق. وكان ذلك التشاؤم حيال العلم يخفِّف من خوفها من الحضارة ومن فيض ما هو جدير بالمعرِّفة وفيض أولي النفوذ. وكذلك كان حكم آرنهايم اليائس على العصر يمثِّل بالقياس إليها جميلاً أحسَّت به دفعة واحدة. وسرت في قلبها على نحو مستغرب فكرة أن كآبة آرنهايم لها صلة بها على أيّ نحو من الأنحاء.

[٥٠]

التطوّر اللاحق. رئيس القسم يقرِّر استجلاء أمر شخصيّة آرنهايم

وكانت ديوتيما قد أصابت في تكهّنها فمنذ اللحظة التي لاحظ فيها آرنهايم أن صدر هذه المرأة الرائعة التي قرأت كتبه عن الروح كانت تعلو به وتحرِّكه قوّة لا يستطيع المرء أن يسيء فهمها أصابه ضعف في ثقته بنفسه كان غريباً عنه في العادة وإذا عبَّرنا عن هذا بإيجاز وتبعاً لمعرفته الخاصّة فقد كان يأسَ الأخلاقي الذي تنطبق عنده السماء على الأرض دفعة واحدة وعلى غير توقُّع. وإذا أراد المرء أن يجاريه في هذا الإحساس لم يكن في حاجة إلا أن يتصوّر كيف كان الحال سيكون إذا لم يوجد حوالَينا شيء سوى نُقرةِ الماء هذه الساكنة الزرقاء مع كتل الريش العائمة اللدنة البيض.

وإذا نُظر إليه في حد ذاته كان الإنسان الأخلاقي مضحكاً وغير مقبول مثلما تُعلِّم رائحة أولئك البشر الخانعين المساكين الذين لا يرون أنّهم يملكون شيئاً سوى أخلاقهم. فالأخلاق تحتاج إلى مهمات كبرى تكتسب منها أهمِّيتها ومن أجل ذلك كان آرنهايم يلتمس استكمال طبيعته الميّالة إلى الأخلاق في الحدث العالمي دائماً في تاريخ العالم في النفاذ الإيديولوجي لنشاطه. وكان هذا تصوّره المفضَّل وهو حمل الأفكار إلى أجواء السلطان وألا تُعالَج الأعمال إلا في إطار علاقتها بالمسائل الفكريّة. وكان يسرّه أن يتَّخذ الأقيسة لنفسه من التاريخ ليملأها بحياة جديدة. وكان دور الموارد المالية في العصر الحاضر يبدو له مماثلاً لدور الكنيسة الكاثوليكية بحكم كونه قوّة مطاوعة وغير

twitter @baghdad_library

مطاوعة تحدّث أثرها من الناحية الحلفيّة في الاحتكاك مع القوى الحاكمة. وكان في بعض الأحيان ينظر إلى نفسه في عمله نظرته إلى كاردينال. غير أن سفره هذه المرة كان في الحقيقة راجعاً إلى المزاج بدرجة أكبر. وحتى عندما كان يقوم برحلة بدافع المزاج بغير غرض على الإطلاق فإنه لم يكن يستطيع أن يذكر كيف كانت الخطّة من أجل ذلك وهي آخر الأمر خطة هامة قد نشأت لديه. وكان يهيمن على رحلته شيء من إلهام لم يسبق التنبؤ به وتصميم مفاجئ. ويبدو أن هذه الحالة الصغيرة من الحرية كانت هي التي أدت إلى أن يكون من الصعب أن تحدّث رحلة إجازة إلى بومباي انطباعاً أكثر غرابة لديه مِمّا فعلت المدينة الألمانية الكبرى ذات الموقع المتطرّف التي دخلها. على أن الفكرة المستحيلة كلّ الاستحالة في بروسيا وهي أنّه دُعي ليلعب دوراً في العمل الموازي قامت بالقسط الباقي فوق ذلك وجعلته في مزاج غير منطقي حافل بالخيال مثل حلم لم يكن تناقضه يضيع على ذكائه العملي بدون أن يكون هذا الذكاء مع ذلك على استعداد لاختراق سحر الأسطوري وقد كان خليقاً أن يبلغ هدف مجيئه على ما يبدو بطريقة أبسط كثيراً وعلى طرق مستقيمة أيضاً غير أنّه كان ينظر إلى عودته إلى هنا المرة بعد الأخرى نظرته إلى إجازة استجمام من العقل وقد عوقب من قبل فكره التجاري على مثل هذا التبدّل الأسطوري بأن محا النقطة السوداء الخاصّة بالأخلاق التي كان عليه أن يعطيها لنفسه بنفسه بحكم كونها رمادية اللون فجعلها ذات لون عام. على أن المسألة لم تنته مرّة ثانية أبداً إلى تأمل مستفيض في الظلام كتلك المرة في حضور توتسي وذلك لمجرّد أن رئيس القسم توتسي كان في العادة لا يظهر إلا ظهوراً عابراً وكان آرنهايم يضطر إلى توزيع كلماته بين من هم الأكثر تبايناً من الشخصيّات التي وجدها قادرة على التقبّل بدرجة مدهشة في هذه البلاد الجميلة وكان في حضور الشريف يعدّ النقد عقيماً والعصر الحالي عصر زندقة حيث أوحى مرّة أخرى بأن الإنسان لا يمكن تخليصه من هذه الحياة السلبية

إلا عن طريق القلب. وألحقَ بالنسبة إلى ديوتيما الإدعاء القائل إنَّ جنوب ألمانيا الحافل بالحضارة هو وحده الذي ربّما كان أهلاً بعدُ لتحرير الطبيعة الألمانية وربّما العالم أيضاً على هذا النحو من تجاوزات النزعة العقلانية وغريزة الحساب. وتحدَّث وهو محاط بالسيِّدات عن التنظيم الضروريّ للرقة الباطنية لإنقاذ البشريّة من سباق التسلح وفقدان الروح. وشرح لحلقة من الرجال المبدعين كلمة هولدرلن القائلة إنّه ما عاد في ألمانيا بشر بل مهن فحسب. واختتم هذا العرض بقوله: «وما من أحد يستطيع أن ينجز شيئاً في مهنته بدون الشعور بوحدة عليا على أن أقلّ هؤلاء استطاعةً رجلُ المال!».

وكان يسر المرء أن يستمع إليه إذ كان جميلاً أن يكون الرجل الذي يحوز هذا القدر الكبير من الأفكار مالكاً للمال أيضاً. على أن الظرف المتمثّل في أن كلّ من كان يحادثه كان يخرج من ذلك بانطباع مؤدّاه أن مشروعاً كالعمل الموازي يُعَدُّ أمراً مشبوهاً إلى أبعد الحدود موصوماً بأخطر التناقضات الفكريّة كان يساند القوم جميعاً في الإنطباع الموحي بأنّه ليس هناك امرؤٌ آخر خليق أن يكون ملائماً مثله ليتولّى القيادة في هذه المغامرة.

غير أن رئيس القسم توتسي ما كان له أن يكون في الخفاء واحداً من كبار الدبلوماسيِّين في بلاده لو أنّه لم يلاحظ شيئاً من الحضور الأساسي لآرنهايم في منزله إلا أنّه لم يستطع أن يفهم ذلك بطريقة من الطريق. غير أنّه لم يظهر ذلك لأنّ الدبلوماسي لا يظهر أفكاره أبداً. وقد كان هذا الغريب غير مقبول عنده إلى أقصى الحدود من الوجهة الشخصيّة ولكنَّ من الوجهة المبدئية أيضاً إنَّ صحَّ التعبير. أما أنّه اختار صالون زوجته ميدان عمليات لأية مقاصد خفيّة فقد كان توتسي يحسّ بذلك على أنّه تحدّ. فهو لا يصدِّق لحظة واحدة توكيدات ديوتيما القائلة إنَّ الثري لا يكثر من زيارة حاضرة الإمبراطور على نهر الدانوب إلى هذا الحد إلا لأنّ روحه تشعر بأكبر الإرتياح في وسط

twitter @baghdad_library

حضارتها القديمة ومع ذلك فقد كان يواجه أوّل الأمر مسألة كان يفتقر من أجل حلِّها إلى كلّ مستند. ذلك لأنّ مثل هذا الإنسان لم يكن قد ورد عليه بعدُ في علاقاته الرسميّة.

ومنذ أن بسطت له ديوتيما خطّتها لإفساح مجال لمركز قيادي لآرنهايم في العمل الموازي وشكت من مقاومة الشريف، انتاب توتسي ارتباك جدي. ولم يكن يقيم وزناً لا للعمل الموازي ولا للكونت لاينزدورف غير أنّه وجد خاطرة زوجته مفاجئة من الناحية السياسية ومفتقرة إلى اللياقية إلى حدٍّ جعله يشعر في هذه اللحظة أنّه يقوّض العمل التربوي الرجولي الذي استغرق سنين طوالاً والذي أتيح له أن يجامل نفسه بأنّه أنجزه مثل بيت من الورق بل أن رئيس القسم توتسي كان قد استعمل هذا التشبيه في سره على الرغم من أنّه لم يكن في العادة يبيح لنفسه التشبيهات أبداً لأنَّها أدبية أكثر مِمّا ينبغي وتفوح منها رائحة الموقف الإجتماعي السيئ. غير أنّه كان يشعر هذه المرة في هذا الصدد بأنّه تعرض لهزة بالغة ولا ريب أن ديوتيما فيما بعد ذلك مركزها من جديد عن طريق عنادها. وكانت قد غدت سليطة اللسان على رقتها وقد تحدثت عن نوع جديد من البشر ما عاد يستطيع أن يدع المسؤولية الفكريّة عن سباق التسلح للموجهين المحترفين وهو مكتوف الأيدي. ثم تحدثت عن حسّ المرأة المرهف الذي يمكن أن يكون أحياناً موهبة تنبؤية ومن الممكن أن يوجِّه النظر إلى مدى أبعد من العمل المهني اليومي. وأخيراً قالت إنَّ آرنهايم أوروبي رجل معروف في أوروبا كلّها وإن تسيير شؤون الدولة في أوروبا قلّما يحدث على صعيد أوروبي كما أنّه بعيد عن الفكر إلى حدٍّ شديد التفيط وأن العالم لن يجد السلام قبل أن تهبّ في أرجائه روح النمسا العالمية مثلما تلتف الحضارة النمساوية القديمة حول القبائل ذات اللغات المختلفة على أرض الملكية ـ ولم يكن قد سبق لها أبداً بعدُ أن تجرّأت على التصديق بتفوّق زوجها على هذا

النحو الحاسم ولكنَّ الاطمئنان عاد بذلك عودة عابرة إلى رئيس القسم توتسي. ذلك لأنّه لم يكن قد نظر إلى مطامح زوجته أبداً على أنّها أكثر أهمّية من مسائل الخياطة وكان يسعده أن يعجب الآخرون بها وجعل ينظر الآن إلى هذه المسألة أيضاً نظرة أكثر رقة. وكانت هذه النظرة على وجه التقريب كما لو أن امرأة مولعة بالألوان اختارت ذات مرّة شريطاً ملوناً أكثر مِمّا ينبغي. فكان يقتصر على أن يكرّر عليها بأدب جدي الأسباب التي تجعل من المستبعد في عالم الرجال الإفضاء إلى بروسي أمام كلّ الأعين بالقرار الخاص بالشؤون النمساوية غير أنّه سلم فيما تبقّى بأنَّ مِمّا يمكن أن يتيح بعض المزايا عقد الصداقة مع رجل في مثل هذا المركز الفريد. وكان يؤكّد لديوتيما أنّها خليقة أن تسيء تأويل هواجسه إذا أرادت أن تستنتج منها أنّه ليس من المستحسن عنده أن يرى آرنهايم في صحبتها مرات كثيرة قدر الإمكان. وكان يأمل في قرارة نفسه أن تتاح على هذا الطريق الفرصة لنصب فخ للغريب.

وحين اضطر توتسي أن يشاهد مع المشاهدين كيف كان آرنهايم يلقى النجاح في كلّ مكان عند ذلك فحسب عاد من جديد إلى مسألة أن ديوتيما تظهر أنّها مرتبطة بهذا الرجل أكثر مِمّا ينبغي غير أنّه عرف الآن مراراً أنّها لم تكن تحترم إرادته كالعهد بها وكانت تعارضه وتعلن أن هواجسه إنما هي أشباح من بنات أفكاره. وقرّر ألّا يعارض بحكم كونه رجلاً جدلية امرأة بل ينتظر الساعة التي ينتصر فيها حدسه من تلقاء نفسه. هنالك حدث مع ذلك أنّه تلقى حافزاً هائلاً. فقد أثار اضطرابه ذات ليلة شيء بدا له مثل بكاء بعيد بعداً لا نهاية له وكان لا يكاد يزعجه في البداية إذ لم يكن يفهمه ببساطة. ولكنَّ المسافة النفسيّة كانت تضيّق من وقت إلى آخر مقدار قفزة وأصبح الإضطراب المطوي على التهديد مرّة واحدة لِصْقَ أذنيه فخرج من نومه خروجاً بلغ من مفاجأته أنّه جلس منتصباً في السرير وكانت ديوتيما ترقد إلى جانبه في مرونة

twitter @baghdad_library

طبيعية ولم يكن يصدر عنها إشارة. غير أنّه كان يشعر من خلال شيء ما أنّها يقظى فناداها باسمها بصوت خفيض وكرَّر هذا السؤال وحاول أن يدير بأصابعه الرقيقة كتفها الأبيض إليه ولكنَّ حين أداره وطالعه وجهها في الظلام من وراء الكتف كان الوجه ينظر إليه نظرة الشر وكان يعبّر عن العناد وكان قد بكى. وكان من المؤسف أن نوم توتسي العميق قد عاد إلى التمكّن منه في هذه الأثناء بعض الشيء وشدّه بعناد من الخلف عائداً به إلى الوسادة وكان وجه ديوتيما يحوم أمامه بعدُ مثل تشويه صارخ مؤلم ما عاد يفهمه بأية طريقة. وهمهم قائلاً بصوت خفيض عميق هو صوت الإغفاء قائلاً: «ماذا هناك؟» وتلقى جواباً واضحاً مستثاراً غير مستحب مطبوعاً في أذنيه وقد سقط في فكره بالنوم وظل راقداً هناك كقطعة نقد براقة في الماء. وقالت ديوتيما بقسوة: «أنت تنام نوماً شديد الإضطراب فلا يستطيع أحد أن ينام إلى جانبك!». وكانت أذنه قد التقطت ذلك ولكنَّ توتسي كان قد انقطع بذلك عن اليقظة بدون أن يتمكَّن من متابعة التوبيخ.

إلا أنّه كان يشعر أن ظلماً فادحاً قد أصابه وكان النوم الهادئ فيما يرى من الفضائل الرئيسيّة للدبلوماسي إذ كان شرطاً لكلّ نجاح ولم يكن يجوز لأحد عندئذ أن يلمسه. وشعر من جراء ملاحظة ديوتيما أنّه أصبح موضع شكّ بصورة جديّة. وأدرك أن ثمة تغيرات قد طرأت عليها. والحقّ أنّه لم يخطر بباله حتى في النوم أن يشتبه بخيانة زوجته الملموسة. ومع ذلك فقد كان لا يعتريه الشك لحظة واحدة بالقياس إليه في أن الانزعاج الشخصي الذي أصابه لا بدّ أن يكون له علاقة بآرنهايم ونام غاضباً إنَّ صح التعبير حتى الصباح واستيقظ وقد صمم تصميماً حازماً أن يستجلي أمر هذه الشخصيّة المزعجة.

[٥١]

بيت فيشل

كان فيشل مدير مصرف لويد ذلك المدير المصرفي أو بعبارة أصحّ ذلك الوكيل المصرفي الذي يحمل لقب مدير الذي نسي أن يجيب عن دعوة الكونت لاينزدورف لأسباب غير مفهومة في البداية ثم لم يُدْعَ بعد ذلك وكان مديناً حتى بتلك الدعوة الأولى لعلاقات زوجته كليمنتينا فحسب. وكانت كليمنتينا فيشل تنتمي إلى أسرة قديمة من الموظَّفين وكان أبوها رئيساً لديوان المحاسبات الأعلى وكان جدها مستشاراً إدارياً وتولىَّ ثلاثة من إخوتها مراكز رفيعة في الوزارات المختلفة. وكانت قد تزوَّجت ليو قبل أربعة وعشرين عاماً لسببين أولهما لأنّ عائلات الموظَّفين الراقية يكون لها من الأطفال فوق ما تملك من الثروة ولكنَّ الثاني كان بدافع الرومانسية أيضاً لأنّ الصيرفة بدت لها بحكم كونها مهنة أكثر تحرراً فكرياً وأكثر موافقة للعصر في مقابل المحدودية الإقتصادية المزعجة في بيت والديها كما أن الإنسان المثقف في القرن التاسع عشر لا يحكم على قيمة إنسان آخر تبعاً لكونه يهودياً أو كاثوليكياً. أجل لقد كانت تحسّ كما كان الأمر في تلك الأيام بشيء له سمته الثقافية على وجه الخصوص في استهانتها بالحكم المسبق الساذج المعادي للسامية لدى الشعب العادي. على أن المسكينة لم يكن لها بعد ذلك بدٌ من أن تشهد روحاً من القوميّة تنبثق في أوروبا بأسرها ويتصاعد معها أيضاً موجة من الهجمات على اليهود بدّلت زوجها بين ذراعيها إنَّ صح التعبير من صاحب فكّر محترم إلى مادة تستفزّ إلى التحرّش لسليل غريب عن الأرض. وقد ثارت أوّل الأمر على

twitter @baghdad_library

ذلك بكلّ الغيظ الذي يوجد في «قلب يفكّر تفكيراً عظيماً» ولكنّ العداء القاسي على سذاجته والمستفحل على نحو مطّرد استنزفها مع السنين وأثار فزعها الحكم المسبق العام بل كان عليها أن تشهد أنّها فسّرت بينها وبين نفسها بعض ما جرحها من التناقضات التي كانت تنكشف بينها وبين زوجها على نحو كان يزداد عنفاً شيئاً فشيئاً وبصورة مطّردة ـ حين لم يتجاوز لأسباب لم يوضحها أبداً على الوجه الصحيح مرحلة الوكيل وفقد كلّ أمل في أن يغدو ذات يوم مديراً فعلياً لمصرف ـ بأن قالت وهي تهزّ كتفيها إنَّ شخصيّة ليو غريبة عن شخصيتها وإن لم تضحٍ أبداً بمبادئ أيام شبابها حيال من كانوا يقفون في الخارج.

ولم تكن هذه التناقضات تتألف أساساً من شيء آخر سوى النقص في التوافق مثلما تطفو على السطح في كثير من حالات الزواج مصيبة طبيعية إنَّ صحَّ التعبير بمجرّد أن يكفّوا عن أن يكونوا سعداء إلى حدٍّ الانبهار ومنذ أن ظلّت مسيرة ليو تتعثّر متلكّئة عند وظيفة مفوَّض البورصة ما عادت كليمنتينا تقدر على تبرير خصائص معيَّنة من خصائصه كونه ما عاد يجلس على أيَّة حال في مكتب وزاري قديم بالغ السكون بل على «نَوْلِ العصر العاصف» ومن يدري فلعلها تزوَّجته على وجه الخصوص بسبب هذه العبارة المأثورة عن غوته! أما لحية الوجنتين المحلوق حواليها والتي تذكِّرها في أيامها بصورة مشتركة مع النظارة الأنفية المتربعة على ظهر الأنف بلورد إنجليزي له أتباع مقرَّبون فكانت تذكِّرها الآن بسمسار في البورصة كما أخذت عادات متفرقة في الحركة وطريقة الحديث تغدو بالقياس إليها شيئاً لا يطاق على الإطلاق. وحاولت كليمنتينا في البداية أن تصلح زوجها غير أنّها اصطدمت في هذا السبيل بصعوبات غير عادية إذ تبيَّن أنّه لا وجود في أيّ مكان من العالم لمقياس يبيّن هل تذكّر لحية الوجنتين على وجه صحيح بلورد أم بسمسار وهي

ترى أنّ النظارة الأنفية بمكانها على الأنف مع حركة اليد تعبّر عن الحماسة أو السخرية. وفضلاً عن ذلك فإنَّ ليو فيشل لم يكن على الإطلاق بالرجل الذي يمكن إصلاحه. وكان يصرّح بأن الانتقادات التي كان مثال الجمال المسيحي - الجرماني يريد أن يجعل منه بها مستشاراً وزارياً إنما هي أشكال من العبث الإجتماعي الصبياني ويرفض مناقشتها على أنّها غير لائقة برجل عاقل ذلك لأنّه كان كلّما ازدادت زوجته شعوراً بالصدمة من جراء التفاصيل كان يزداد توكيداً للتوجّهات الكبرى للعقل وبذلك تحوّل بيت فيشل شيئاً فشيئاً إلى ميدان صراع بين نظرتين إلى الحياة.

وكان فيشل مدير مصرف لويد يسرّه أن يتفلسف ولكنَّ عشر دقائق في اليوم فحسب. وكان يحبّ أن يتعرّف على الوجود البشري مبرراً تبريراً عقلانياً ويؤمن بجدواه الفكريّة التي كان يتصوّرها وفقاً لنظام المصرف الكبير الحسن التقسيم ويحيط علماً في كلّ يوم وهو قرير العين بما قرأه في الصحف عن أوجه التقدّم الجديدة. وكان هذا الإيمان بتوجهات العقل التي لا تتزعزع وبالتقدّم قد ظلّ وقتاً طويلاً يمكّنه من تجاوز انتقادات زوجته بهزة كتف أو جواب حاسم. ولكنَّ لما كان سوء الحظ قد شاء أن تتحوّل روح العصر على مدى هذا الزواج عن المبادئ القديمة التي تتماشى مع ليو فيشل أيّ مبادئ الليبرالية وعن الصور الكبرى للتوجّه الخاص بحريّة الفكر وكرامة الإنسان وحرية التجارة وأزيح العقل والتقدّم في العالم الغربي بفعل النظريات العرقية وشعارات الشارع فقد بات هو أيضاً غير بعيد عن التأثر بذلك. وكان قد أنكر هذا التطوّر بادئ الأمر ببساطة وذلك على نحو مماثل بالضبط للكونت لاينزدورف الّذي دأب على إنكار «ظواهر معيَّنة غير مستحبة ذات طبيعة عامة» وكان ينتظر أن تختفي من تلقاء ذاتها وهذا الإنتظار يمثّل الدرجة الأولى من عذاب الغيظ الذي تفرضه الحياة على البشر ذوي الفكر القويم وهي الدرجة

twitter @baghdad_library

التي قلّما يتمّ الشعور بها بعدُ. أما الدرجة الثانية فتعني في العادة «السمّ» وكانت تعنيه من أجل ذلك عند فيشل أيضاً فالسمّ هو الظهور المتدرّج كالنقاط لنظرات جديدة في الأخلاق والفن والسياسة والأسرة والصحف والكتب والتعامل مع الناس. وهو ظهور يقترن بشعور متّسم بالعجز بعدم قابلية الرجوع عنه وبإنكار متذمّر لا يستطيع أن يتجنّب اعترافاً معيّناً بوجود ذلك. غير أن المدير فيشل لم يبق بمنجاة من الدرجة الثالثة والأخيرة أيضاً حيث باتت قطرات الرذاذ المتفرّقة والخصلات من الجديد تجري مطراً دائماً ومع الزمن يتحوّل هذا إلى أفضل ألوان العذاب التي يستطيع أن يشهدها إنسان يتوفّر له في كلّ يوم عشر دقائق من الوقت فحسب للفلسفة.

وقد أدرك ليو القدر الكبير من الأشياء التي يمكن أن يكون للإنسان فيها آراء متباينة وأخذ دافع امتلاك الحقّ وهو حاجة تكاد تكون مرادفة لكرامة الإنسان يحتفل بأعمال العنف في بيت فيشل. وكان هذا الدافع قد أبدع خلال آلاف السنين آلافاً من الفلسفات والأعمال الفنّية والكتب والأفعال وجماعات أنصار الأحزاب التي تستحق الإعجاب وعندما يضطر هذا الدافع الجدير بالأعجاب والمتّسم مع ذلك بالعصبيّة والفظاعة والمولود مع الطبيعة البشريّة إلى الاكتفاء بعشر دقائق من فلسفة الحياة أو الحديث في المسائل المبدئية الخاصّة بإدارة المنزل فسيكون مِمّا لا بدّ منه أن ينطلق مثل قطرة من الرصاص المتوهّج وعدد لا يحصى من الرؤوس المدبّبة والأسنان التي تستطيع أن تحدّث أشدّ الجروح إيلاماً. وكان ينطلق من مسألة هل يجب تسريح خادمه أم لا وهل يجب وضع سواكٍ على المائدة أم لا ولكنَّ حيثما كان ينطلق كان يملك المقدرة على أن يستكمل ذاته على الفور بنظرتين إلى الحياة غنيتين بالتفاصيل غنىً لا ينضب معينه.

وكان هذا يبدأ في النهار إذ يكون المدير فيشل في مكتبه أما في الليل فكان إنساناً وكان هذا يبعث على تدخل العلاقة بينه وبين كليمنتينا إلى حدٍّ غير عادي. على أن الإنسان لا يستطيع في الأساس مع التعقيد الحاليّ لكلّ الأشياء أن يكون راسخ القدم تماماً إلا في ميدان واحد وكان هذا عنده هو قروض الرهن والأوراق المالية مِمّا كان يجعله في الليل يجنح إلى التساهل وكانت كليمنتينا تظلّ في مقابل ذلك عندئذ حادة وغير متساهلة إذ كانت قد نشأت في الجو الدائم لمنزل الموظَّفين المتسِّم بوعي الواجب وكان وعيها الطبقي فوق ذلك لا يحتمل غرفَتَيْ نوم منفصلتين لكيلا تزيد في صغر المسكن غير الكافي على أيَّة حال غير أن غرف النوم المشتركة تنقل الرجل إذا كانت معتمة إلى وضع ممثل يضطر إلى تصوير الدور المنطوي على الامتنان والكثير الحدوث مع ذلك أمام أرضية غير مرئية وهو دور بطل يسحر أسداً يهرّ هريراً بصورة مسبقة. على أن غرفة ليو المظلمة للمتفرجين لم تدع منذ سنين في هذا الصدد لا أدنى استحسان ولا أقلّ إشارة على الرفض تفلت منها وقد يجوز للمرء أن يقول إنَّ هذا كان يمكن أن يزلزل أشدّ الأعصاب قوة. وفي الصباح عند الإفطار الذي كان يتمّ تناوله بموجب تقليد محترم بصورة مشتركة تكون كليمنتينا متصلّبة كجثة متجمِّدة وليو يرتعد من الحساسية وحتى ابنتهما جيردا كانت تلاحظ في كلّ مرّة شيئاً من ذلك وتصوَّر لنفسها مفعمة بالفزع والامتعاض المرّ الحياة الزوجيّة صراعاً بين القطط في ظلام الليل.

وكانت جيردا في الثالثة والعشرين وكانت تشكِّل موضوع الصراع المفضَّل بين كِلَيْ مُنجبَيها. ووجد ليو فيشل أنّه قد حان الوقت بالقياس إليها لكي تدعه يفكِّر بزواج ملائم لها «أنت قديم الزي يا أبتِ» وكانت قد اختارت أصدقاءها في رهط من لِداتها المسيحيين الجرمان الذين لم يكونوا يتيحون أقلّ الأمل في تزويج فتاة غير أنّهم كانوا مقابل ذلك يزدرون رأس المال ويرون أنّه لم يثبت

twitter @baghdad_library

يهوديٌّ بعدُ أبداً المقدرة على طرح رمز عظيم يتّصل بالإنسانية. وكان ليو فيشل يعدّهم أجلافاً معادين للسامية. وقد أراد أن يحظر عليهم البيت ولكنَّ جيردا قالت: «هذا أمر لا تفهمه أنت يا أبي فهذا مجرّد شيء رمزي بلا ريب». وكانت جيردا عصبية مصابة بفقر الدم وكان ينتابها الانفعال الشديد على الفور إذا لم يتعامل المرء معها بحذر. وهكذا كان فيشل يحتمل هذا الاحتكاك مثلما اضطر أوديسيوس في غابر الأيام إلى تحمّل خطاب بينلوبي في منزله إذ كانت جيردا شعاع النور في حياته غير أنّه لم يكن يصبر في صمت إذ لم يكن هذا طبيعته وكان يعتقد أنّه يعرف بنفسه ما يمكن أن تكوّنه الأخلاق والأفكار العظيمة وكان يقول ذلك في كلّ مناسبة لكي يحدث تأثيراً ملائماً على جيردا. وكانت جيردا تجيب في كلّ مرّة قائلة: «أجل أنت على حقّ بصورة مطلقة يا أبي إذا لم يكن للمرء بدّ أن ينظر إلى هذه المسألة نظرة مختلفة من الأساس عن نظرتك التي ماتزال تنظرها!». وماذا كانت تفعل كليمنتينا عندما كانت جيردا تتحدَّث على هذا النحو؟ لا شيء! كانت تسكت على ذلك بوجه مستسلم ولكنَّ كان في وسع ليو أن يستيقن أنّها كانت خليقة أن تؤيّد إرادة جيردا من وراء ظهره وكأنّها تعرف ما هي الرموز! وكان لدى ليو فيشل كلّ سبب يدعوه إلى افتراض أن دماغه اليهودي الجيّد يتفوّق على دماغ زوجته ولم يكن ثمة شيء يحمله على التذمّر الشديد مثل ملاحظته أنّها كانت تستفيد من جنون جيردا. فلماذا يفترض فيه هو بالذات أنّه بات فجأة غير أهل لأنّ يفكّر تفكيراً عصرياً؟ لقد كان هذا يمثّل مقصداً ما! وعند ذلك تذكَّر الليلة ولم يكن هذا بعدُ طعناً في الشرف بل كان اجتثاثاً للشرف من جذوره. ففي الليل لا يكون على الإنسان إلا قميص النوم وتحته تأتي الشخصيّة مباشرة. وليس هناك معارف اختصاصية أو ذكاء اختصاصي يحميانه وإنما يراهن المرء بكلّ شخصيته ولا شيء سوى ذلك. وعلى هذا فماذا يمكن أن يعني أن ديوتيما عندما يدور الحديث عن النظرة المسيحية الجرمانية تتخذ وجهاً كما لو كان امرءاً متوحشاً؟

على أن الإنسان مخلوق لا يحتمل الشبهات إلا بمقدار ما يحتمل ورق الحرير المطر. ومنذ أن باتت كليمنتينا لا تجد ليو جميلاً بعدُ وجدته لا يطاق. ومنذ أن بات ليو يجد نفسه مشكوكاً فيه عند كليمنتينا بات يترصد عند كلّ سانحة لمؤامرة في بيته وكان ليو وكليمنتينا في هذا السياق شأن كلّ أولئك الذين يتمّ إدخال هذا في روعهم عن طريق الأخلاق والأدب قد وقعا أسيرين للحكم المسبق القائل إنهما يرتبطان أحدهما بالآخر عن طريق عواطفهما وشخصيتيهما ومصيريهما وتصرّفاتهما. ولكنَّ الحياة لا تتألف في الحقيقة في أكثر من نصفها من أحداث بل من ضروب من المعالجة والتناول يستوعب المرء معناها في ذاته من اعتبارات واعتبارات معاكسة مقابلة لها ومن موضوعية متراكمة فيما سمعه المرء ويعرفه. وكان مصير هذين الزوجين يرتبط في الشطر الأكبر منه بترتيب طبقي للأفكار التي لم تكن تنتمي إليهما أبداً بل إلى الرأي العام وكانت قد تغيّرت مع هذا بدون أن يتمكّنا من وقاية نفسيهما من ذلك. والى جانب هذا الإرتباط لم يكن الإرتباط الشخصي لأحدهما بالآخر إلا جزءاً ضئيلاً للغاية بقية مبالغاً فيها إلى حدِّ الجنون. وفي الوقت الذي كانا فيه يوهمان نفسيهما بأنَّ لهما حياة خاصة. وكانا يتبادلان وضع شخصيتيهما وإرادتيهما موضع الشك. كانت الصعوبة الباعثة على اليأس تكمن في مجانبة هذا النزع للواقع وهو ما كانا يغطّيانه بكلّ الألوان الممكنة من المنغّصات.

وكان من سوء حظّ ليو فيشل أنّه لم يكن يلعب بالورق ولا كان يجد متعة في الخروج مع الفتيات الجميلات بل كان يعاني وهو مكدود من عمله من روح عائلية راسخة على حين ما عادت زوجته التي لم يكن لها من عمل سوى أن تشكِّل في النهار والليل حضنَ هذه العائلة يضلّلها بعدُ أيٌ من التصوّرات الرومانسية من ذلك القبيل. وكان ينتاب ليو فيشل في بعض الأحيان شعور

twitter @baghdad_library

بالاختناق كان يلحّ عليه من كلّ جانب ولم يكن ثمة سبيل إلى الإمساك به من أيّ مكان. وكان يمثِّل خلية صغيرة بارعة في الجسد الإجتماعي تؤدي واجبها على نحو طيِّب غير أنّها كانت تتلقى العصارات المسمومة من كلّ صوب. وعلى الرغم من أن هذا كان يتجاوز حاجته من الفلسفة تجاوزاً بعيداً فقد بدأ إذ تخلت عنه رفيقة حياته في محنته وبحكم كونه إنساناً طاعناً في السن لم يكن يرى سبباً للإعراض عن الزي المعقول العائد إلى أيام شبابه يحسّ بالتفاهة العميقة للحياة النفسية بانعدام شكلها الذي يُبدّل شكله أبداً والانقلاب البطيء الذي لا يتوقَّف والذي يدير معه كلّ شيء دائماً.

ففي صباح كهذا حيث كان تفكير فيشل تستغرقه شؤون الأسرة كان قد نسي أن يجيب على رسالة الشريف. ففي كثير من الصباحات التالية كان يتلقّى ضروباً من الوصف للأحداث في وسط زوجة رئيس القسم توتسي تلك الأحداث التي أظهرت أنَّ مِمّا يؤسف له أسفاً شديداً أن مثل هذه الفرصة لدخول جيردا أفضل المجتمعات لم يجرِ انتهازُها. على أن فيشل نفسه لم يكن ينطوي على ضمير نقي كلّ النقاء إذ ذهب مديره العام وحاكم المصرف الأهلي إلى هناك. غير أن من المعروف أن المرء يدفع عن نفسه المآخذ دفعاً يزداد شدة كلّما ازداد توتُّره هو نفسه بين الذنب والبراءة قوة. ولكنَّ فيشل كان كلّما حاول أن يتهكَّم على هذه المسألة الوطنية مع تفوق الرجل المبدع قيل له إنَّ رجلاً من رجال المال يقف على قمة العصر مثل باول آرنهايم إنما يفكِّر على نحو مختلف. وكان مِمّا يثير الدهشة مقدار ما حصلته كليمنتينا وجيردا أيضاً ـ التي كانت تعارض رغبات أمها في العادة بالطبع ـ من هذا الرجل من التجارب. ولما كان الناس يتحدَّثون عنه في سوق الأوراق المالية أيضاً ببعض ما يثير الاستغراب فقد شعر فيشل بأنّه مضطر إلى اتخاذ موقف الدفاع إذ لم

يستطع المجاراة ببساطة كما أنّه لم يكن قادراً على أن يقول عن رجل له مثل هذه العلاقات التجارية أنّه لا يجوز للمرء أن ينظر إليه نظرة الجدّ.

ولكن إذا كان فيشل قد شعر بأنّه قد أُلجِئَ إلى موقف الدفاع فقد اتّخذ هذا صورة تحويل المسار على النحو الملائم وهذا يعني أنّه التزم الصمت على نحو خال من الشفافية قدر الإمكان تجاه كلّ التلميحات التي كانت تعود على بيت توتسي وآرنهايم والعمل الموازي وعجزه الخاص وجمع التحريات حول إقامة آرنهايم. وجعل ينتظر في سره حدثاً يكشف بضربة واحدة عن الخواء الداخلي لهذا كلّه ويحطّم التوجّه العائلي الرفيع لهذه المسألة.

twitter @baghdad_library

[٥٢]

رئيس القسم توتسي يكشف عن ثغرة في إدارة وزارته

وكان مِمّا يبعث على ارتياح رئيس القسم توتسي خلال أجل قريب أنّه كشف بموجب قراره استجلاء أمر شخصيّة الدكتور آرنهايم عن ثغرة جوهرية في بنية وزارة الخارجية والقصر الإمبراطوري التي كانت تشكّل همّه. ولم تكن تلك المسألة موجَّهة نحو شخصيّات مثل آرنهايم. وكان هو نفسه يقرأ عن الكتب ذات الصلة بالأدب ولم يكن يقرأ باستثناء كتب المذكّرات إلا الكتاب المقدَّس وهوميروس وروزيجر وكان يحقّق من وراء ذلك شيئاً من الفائدة إذ حفظه ذلك من التمزق ولكنَّ عدم إمكان العثور في كلّ وزارة الخارجية على رجل قرأ كتاباً لآرنهايم كان أمراً أدرك فيه نقيصة ما.

وكان رئيس القسم توتسي يملك الحقّ الذي يمكّنه من استدعاء سائر الموظَّفين الرئيسيين إليه. ولكنَّ في الصباح الذي أعقب تلك الليلة المؤرّقة بالدموع كان قد توجَّه إلى رئيس مكتب الصحافة يحدوه شعور بأن المرء لايستطيع أن يولي الحافز الذي جعله يبحث عن حديثٍ ما المكانةَ الرسميّة الكاملة. وقد أعجب رئيس دائرة الصحافة برئيس القسم توتسي من جراء فيض التفاصيل الشخصيّة التي عرفها هذا عن آرنهايم واعترف بأنّه سمع عن شخصه الإسم أيضاً مراراً ولكنّه احتج على الفور إزاء التكهن القائل إنَّ الرجل يتردّد على دائرته من أجل قضايا معيّنة. إذ لم يكوّن قطُّ فيما يذكر الموضوعَ الخاص بعلاقة رسميّة كما أن معالجة مواد الصحف لم تكن تمتد كما هو مفهوم إلى مظاهر حياة الشخصيّات غير الرسميّة. وقد سلّم توتسي بأنّه ليس من المتوقَّع

بحال من الأحوال أن يكون ثمة شيء آخر غير أنّه علّق بقوله إنَّ الحدود بين الأهميّة الرسميّة والخصوصيّة للأشخاص والظواهر لا يمكن تعيينها بوضوح دائماً وذلك ما وجده رئيس دائرة الصحافة متَّسِماً بنصر بالغ الحدة. وعلى أثر ذلك اتفق رئيسا القسمين على نظرة مؤداها إنهما يواجهان نقصاً بالغ الأهميّة في التنظيم.

وكان ذلك على ما يبدو ضحى يوم كانت أوروبا تتمتَّع فيه بشيء من الهدوء إذ استدعى كلّ من رئيسي القسمين مديري الديوان ليعرضا عليهما جُذاذةً كانت يفترض عنوانها الدكتور باول آرنهايم وإن ظلّ المكان خالياً بصورة مؤقَّتة. وبعد مُديرَيْ الديوان جاء دور مديرَيْ محفوظات الملفّات ومحفوظات الخلاصات الصحفية اللذين عرفا كيف يقولان على الفور وعن ظهر قلب وقد أشرق وجهاهما من البراعة أنّه لم يردّ في سجلاتهما أحد باسم آرنهايم. وأخيراً استدعى بعد ذلك الصحفيّين الرسميّين الذين كان عليهم أن يعالجوا الصحف في كلّ يوم ويعرضوا على رؤسائهم خلاصاتها. وكانت وجوههم جميعاً تعبّر عن أمر له دلالته حين سئلوا عن آرنهايم وأكدوا أن اسمه ورد كثيراً جداً في صحفهم مع إبرازٍ ينطوي على الحفاوة البالغة. ومع ذلك فلم يستطيعوا أن يُدلوا بشيء حول مضمون كتبه لأنّ نشاطه كما استطاعوا أن يقولوا على الفور لم يكن وارداً في دائرة المهمات الإخبارية الرسميّة. على أن الأداء الذي لا غبار عليه في آلية أجهزة وزارة الخارجية كان يثبت بمجرّد أن يضغط المرء على الزر. وغادر كلّ الموظَّفين الحجرة وهم يشعرون أنّهم عرضوا مصداقيتهم في ضوء حسن. «فالمسألة هي كما قلت لكم بدقة». والتفت رئيس دائرة الصحافة راضياً وقال: «ما من إنسان يعرف شيئاً».

وكان كلا رئيسَي القسمين قد أصغيا إلى التقارير بابتسامة وقورة وكانا يجلسان ـ وكأنهما مهيّآن من حيث المحيط إلى الأبد ـ مثل الذبابة في

twitter @baghdad_library

الكهرمان في مقاعد جلدية فخمة على السجاد الأحمر الليّن وراء ستائر النوافذ العالية الحُمر الداكنة في الحجرة البيضاء ـ الذهبية التي كانت ماتزال تعود إلى أيام ماريا تيريزا وقد عرفا أن ثغرة النظام التي اكتشفاها الآن على الأقل سيكون من الصعب سدّها وقال رئيسه مفاخراً: «سوف تتمّ معالجة كلّ ملاحظة عامة في الدائرة ولكنَّ لا بدّ أن يترك لمفهوم العمومية أيّ هامش كان. وإني لأستطيع أن أضمن أن كلّ صيحة معترضة صاحها نائب في أيّ من المجالس الإقليمية في العام الجاري يمكن العثور عليها في محفوظاتنا خلال عشر دقائق وكل صيحة معترضة في السنوات العشر الأخيرة مادامت تَمتُّ بصلة إلى السياسة الخارجية خلال نصف ساعة على أبعد تقدير. وهذا ينطبق أيضاً على كلّ مقالة صحفية سياسية. فالسادة عندي يعملون بوحي الضمير. ولكنَّ هذه مظاهر ملموسة تنطوي على المسؤولية بمعنى ما ولها صلة بأحوال وقوى ومفاهيم راسخة. وعندما أسأل نفسي سؤالاً فنياً صرفاً: تحت أيّ مادة معجمية ينبغي للموظَّف الذي يعدّ الخلاصات أو الفهرس أن يدوّن مقالة عن امرئ ما تعدّ بالنسبة لشخصه فحسب يا تُرى من ينبغي لي أن أسمي عندئذ؟».

وذكر توتسي على سبيل المساعدة اسم أصغر الكتّاب الذين كانوا يختلفون إلى ديوتيما.

ورفع رئيس دائرة الصحافة بصره إليه ثقيلَ السمع مطرباً وقال: «فلنقل إنّه هذا ولكنَّ أين يجب أن ترسم الحدود بين ما يراعيه المرء وبين ما يتجاوزه؟ لقد سبق أن وجدت حتى قصائد سياسية. فهل ينبغي للمرء عندئذ أن يتناول كلّ ناظمٍ للشعر ـ؟ أم هل ينبغي للمرء أن يتناول كتاب مسرح البورج فحسب ـ؟».

وضحك السيِّدان كلاهما.

«وكيف يريد المرء أن يستنتج على الإطلاق وعلى وجه الدقة ما يقصد إليه أمثال هؤلاء الناس ولو كانوا شيللر أو غوته؟! فالكلام ينطوي بالطبع على

معنى أعلى دائماً؟! غير أنّهم يناقضون أنفسهم عند كلّ كلمة تالية فيما يتّصل بالأغراض العملية».

وكان قد تبيَّن لكلا السيِّدين في أثناء ذلك إنهما كانا يتعرَّضان لخطر السعي إلى شيء «مستحيل» إذا نظرنا إلى هذه الكلمة بذلك الذوق المتّصل بذلك الجانب الإجتماعي المضحك الذي يتمتَّع به الدبلوماسيون حياله بحسّ بالغ الإرهاف. وقال توتسي وهو يبتسم مقرّراً: «إن المرء لا يستطيع أن يلحق بالوزارة هيئة كاملة من نقاد الكتاب والمسرح ولكنَّ من الناحية الأخرى عندما ينتبه المرء إلى ذلك ذات مرّة فلا يمكن إنكار أن أمثال هؤلاء الناس لا يكونون غير مؤثرين على تكوين النظرات السائدة في العالم وهم يحدثون على هذا الطريق أثرهم في السياسة أيضاً».

وأسعفه رئيس الصحافة بقوله: «لا يصنع أحد هذا في أيّ وزارة للخارجية في العالم».

«بلا ريب ولكنَّ النقطة الدائمة تحفر الحجر». وكان توتسي يجد أن هذا الشاهد يعبِّر تعبيراً حسناً جداً عن خطر معيَّن. «وربما كان ينبغي للمرء أن يجرّب أيّ شيء تنظيمي!».

وقال رئيس القسم الآخر: «لست أدري فلديّ ضروب من المقاومة».

وأضاف توتسي قائلاً: «ولا أنا أيضاً بالطبع!». وكان يحسّ في نهاية هذا الحديث بإحساس مؤلم كما يكون في حالة اللسان ذي الطبقة البيضاء ولم يكن يقدِّر على أن يميِّز تمييزاً صحيحاً أكان ما تحدّث عنه عبثاً أم أن المسألة لن تسفر بعد عن أنّها نتيجة للحسّ المرهف الذي كان مشهوراً به. وكذلك لم يقدِّر رئيس دائرة الصحافة على أن يفصل هذا. ومن أجل ذلك أكد كلا السيِّدين أحدهما للآخر إنهما يريدان أن يتحدَّثا في هذه المسألة بعد ذلك مرّة أخرى.

twitter @baghdad_library

وأصدر رئيس دائرة الصحافة تكليفاً بطلب أعمال آرنهايم كلّها لمكتبة الدائرة لكي تصل المسألة أيضاً إلى خاتمة معيّنة. وتوجّه رئيس القسم توتسي إلى قسم سياسي حيث التمس تكليف السفارة ببرلين بتقرير مفصَّل عن شخص آرنهايم وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي بقي عليه أن يعمله في اللحظة الراهنة وقبل أن يصل إلى هذا التقرير لم يكن لديه إلا زوجته ليحصل على معلومات حول آرنهايم الأمر الذي كان قد غدا غير مستحبّ عنده على الإطلاق. وتذكَّر كلمة فولتير المأثورة وهي أن الناس لا يستعملون الكلمات إلا ليخفوا أفكارهم ولا يستخدمون الأفكار إلا ليبرروا ألوان ظلمهم وكان هذا دبلوماسية على الدوام. أما أنَّ إنساناً كان يتحدَّث ويكتب كثيراً مثلما كان يفعل آرنهايم ليخفي نواياه الحقيقيّة وراء الكلمات فقد بعث هذا فيه الإضطراب من حيث كونه شيئاً جديداً كان عليه أن يتعقبه.

[٥٣]

موز بروجر يساق إلى سجن جديد

كان كريستيان موز بروجر قاتل المومسات قد طواه النسيان لأيام قلائل خلت بعد أن توقّفت عن الصدور في الصحف أخبار المحاكمة التي كانت تجري ضده وتوجّه انفعال الجمهور نحو موضوعات أخرى وما عاد يتابع الاشتغال به إلا طائفة من الخبراء وكان المرافع عنه قد قدّم شكوى بالبطلان وطالب بإعادة التدقيق من جديد في حالته العقلية وقام فيما عدا ذلك ببعض الأمور الأخرى: وكان الإعدام قد أجل إلى أجل غير مسمى واقتيد موز بروجر إلى سجن آخر.

على أن الحذر الذي اتّخذ في هذا الصدد أثار غروره. بنادق ملقّمة وأشخاص كُثُر وأغلال حديدية في الذراعين والساقين: لقد أولاه القوم اهتماماً وكانوا يوجسون خيفة منه وكان موز بروجر يحبّ هذا. وحين ارتقى عربة الزنزانات تطلّع بعينيه إلى الإعجاب وألقى نظرة على النظرة المندهشة للمارة وكانت الريح الباردة التي تهبّ على أسفل الشارع تعبث بخصلات شعره والهواء يعصف به عصفاً. وما هي إلا ثانيتان وإذ بجندي من جند القضاء يدفع به في مؤخرته فيدخله في العربة.

وكان موز بروجر مغروراً ولم يكن يحبّ أن يُدفع به هكذا وكان يخشى أن يرفسه الحرس أو يصرخ في وجهه أو يضحك منه ولم يكن العملاق المغلول يجرؤ على أن ينظر إلى أيٍ من خفرائه وانحدر كالمنزلق طوعاً إلى الجدار الأمامي للعربة.

twitter @baghdad_library

غير أنّه لم يكن يهاب الموت فالمرء يضطر إلى أن يحتمل الكثير في الحياة مِمّا يعدّ بلا ريب أكثر إيلاماً من الشنق. أما أن يعيش المرء بضع سنوات أكثر أو أقلّ فذلك أمر لا أهمّية له على الإطلاق. لقد كانت الكبرياء السلبية عند الرجل الذي طالما اعتقل تمنعه أن يهاب العقوبة على أنّه لم يكن في العادة يتعلّق بالحياة وما الذي كان ينبغي له أن يحبه فيها. لا ريب أنّه ليس رياح الربيع أو طرقات الريف البعيدة أو الشمس فهذا لا يعود إلا بالتعب والحر والغبار. ما من أحد مِن هذا الذي يعرفه هو حقّ المعرِّفة. وقال موز بروجر في نفسه: «أما أن يستطيع المرء أن يتحدَّث قائلاً: بالأمس أكلت هناك في المطعم على الناصية شواءً ممتازاً من لحم الخنزير فقط هذا ينطوي على ما هو أكثر ولكنَّ حتى هذا يستطيع المرء أن يتخلى عنه. أما ما كان خليقاً أن يسرّه فكان إشباع الذي لم يكن يلقى دائماً إلا الإهانات السخيفة. وسرى تعثّر مضطرب من العجلات عبر المقعد الطويل إلى جسده؛ وكانت حجارة بلاط الشارع تجري متراجعة إلى الوراء أمام قضبان السياج في الباب وكانت عربات الشحن تتخلف في الوراء وفي بعض الأحيان كان يترنّح رجال أو نساء أو أطفال عبر القضبان وكانت تتقدّم عربة حنطور من مسافة بعيدة إلى الوراء ثم تكبر وتزداد قرباً وأخذت ترسل وابلاً من نُثار الحياة مثلما يطلق الشرر سندان الحداد. وبدت رؤوس الخيل كأنّها تريد أن تخترق الباب. ثم جرى وقع الحوافر والصوت الرخيّ للإطارات المطاطية وراء الإطار فتتجاوزه وأدار موز بروجر رأسه على مهل مرتداً به إلى الوراء ونظر من جديد إلى الغطاء حيث كان يصطدم به عند الجدار الجانبي. وكان الضجيج في الخارج يصطخب ويدوّي وكان مشدوداً مثل ستار كان يرفّ مارقاً من ورائه ظلٌ حدث مارّ هنا وهناك. ولمس موز بروجر في هذه الرحلة تغييراً مسلّياً بدون أن يحفل بمضمونها كثيراً. وكان ينطلق بين فترتي السجن المظلمتين الساكنتين ربع ساعة من الزمن المزبد زبداً أبيض غير مرئي. وكذلك كان يحسّ بحريته على

الدوام فهي ليست بالجميلة على نحو خاص. وقال في نفسه: «على أن قصَّة الوجبة الأخيرة وكاهن السجن والجلادين وربع الساعة إلى أن ينتهي كلّ شيء لن تختلف كثيراً وسوف تواصل العربة أيضاً رقصتها إلى الأمام على عجلاتها وسوف يكون لدى المرء ما يعمله على نحو مستمرّ كما هو الآن لكي لا ينزلق عن المقعد الطويل عند الصدمات ولن يرى ويسمع الكثير لأنّ قدراً كبيراً من الناس يتواثبون محدِّقين إليه. على أن الأمر الأكثر عقلاً سيكون عندما يستريح المرء أخيراً من هذا كله!».

على أن تفوّق الرجل الذي تحرر من الرغبة في الحياة عظيم جداً. وكان موز بروجر يتذكَّر المفوَّض الذي كان أوّل من استجوبه لدى الشرطة. وكان هذا رجلاً لطيفاً يتكلّم بصوت خفيض وقد قال: «أنظر يا سيِّد موز بروجر إنني أرجوك ببساطة رجاء المتوسِّل فهلّا وهبت لي النجاح!» وردّ موز بروجر قائلاً: «لا بأس إذا كنت تريد النجاح فلنحرِّر الآن محضراً». على أن القاضي أبى أن يصدّق ذلك فيما بعد ولكنَّ المفوّض أيّد ذلك أمام المحكمة. «إذا كنت لا تريد أن تخفِّف عن ضميرك من تلقاء نفسك فهلا وهبت لي الإرتياح الشخصي الناشئ عن كونك تفعل ذلك إكراماً لي». هذا ما ردّده المفوَّض أمام المحكمة كلّها وحتى الرئيس كان قد ابتسم راضياً ابتسامة الصداقة. ونهض موز بروجر وأعلن قائلاً بصوت عال: «احترامي الكامل لهذه الإفادة من قبل السيِّد مفوَّض الشرطة!». وأضاف قائلاً مع انحناء أنيق: «وعلى الرغم من أن السيِّد المفوّض أطلق سراحي وهو يقول: «لن نتقابل أبداً مرّة أخرى» فإنه يشرِّفني مع ذلك ويسعدني أن أرى اليوم السيِّد المفوّض مرّة أخرى».

وكان وجه موز بروجر يشرق بابتسامة التفاهم مع نفسه وقد نسي الجنود الذين كانوا يجلسون أمامه وكانوا مثله على هذا النحو تماماً تتقاذفهم صدمات السيارة جيئة وذهاباً.

twitter @baghdad_library

[٥٤]

أولريش يكشف عن رجعيَّته في حوار مع فالتر وكلاريسا

وقالت كلاريسا لأولريش: «يجب على المرء أن يعمل شيئاً من أجل موز بروجر فهذا القاتل له سمةموسيقيّة!».

وكان أولريش قد استدرك آخر الأمر في عصر يوم خالٍ الزيارة التي كان قد حال دونها اعتقاله على نحو وخيم العواقب وقالت كلاريسا متمسّكة بحافة سترته على مستوى الصدر وكان فالتر يقف إلى جانبها ووجهه غير رائق تماماً.

وسأل أولريش مبتسماً: «ماذا تقصدين بهذا: ذو سمة موسيقيّة».

واتّخذ وجه كلاريسا سيماء الخجل الهزلي بصورة لاإرادية وكأن الخجل يطلّ من كلّ ملامحها وكان عليها أن تجعل وجهها متوتراً بصورة هزلية لتصدّ الخجل ثم أرسلته وقالت: «أعني ما أعنيه على أيّة حال. لقد غدوت الآن رجلاً ذا نفوذ!». ولم يكن من الممكن فهمُها دائماً.

وكان الشتاء قد بدأ ثم توقَّف من جديد وهنا خارج المدينة كان الثلج مايزال موجوداً. حقولٌ بيض وبينها الأرض السوداء كالماء الداكن. وكانت الشمس تنصبّ على كلّ شيء بقدر متساوٍ. وكانت كلاريسا ترتدي سترة برتقالية اللون وقبعة صوفية زرقاء. وذهبوا يتنزهون ثلاثتهم وكان على أولريش أن يشرح لها في وسط الطبيعة المتجهِّمة على نحو موحش كتب آرنهايم. وجرى الحديث في هذا السياق عن حلقات البنزول والنظرة المادية إلى التاريخ والنظرة الكونية وعن حاملات الجسور وعن تطوّر الموسيقى وعن

روح السيادة وعن هاتا ٦٠٦ والغطاء النباتي للهملايا وعن التحليل النفسي وعلم النفس الفردي وعلم النفس التجريبي وعلم النفس الفيزيولوجي وعلم النفس الإجتماعي وكلّ المكتسبات الأخرى التي تمنع العصر الذي بات غنياً بها من إخراج أناس صالحين متكاملين متجانسين. غير أن هذا كلّه ورد في أعمال آرنهايم بطريقة تبعث الاطمئنان حيث يؤكّد أنَّ كلّ ما لا يفهمه المرء لا يعني إلا تجاوزاً من قبل طاقات عقلية غير مثمرة على حين يمثّل الحقيقي دائماً ما هو بسيط أيّ الكرامة الإنسانية والغريزة الخاصّة بالحقائق المتعالية على الإنساني والتي يمكن لكلّ امرئ أن يكتسبها إذا كان يعيش ببساطة وأن يكون على صلة بالنجوم. وقال أولريش مفسّراً: «ويدَّعي كثيرون اليوم شيئاً مماثلاً ولكنَّ المرء يصدِّق آرنهايم في هذا إذ يحق له أن يتصوّره رجلاً عظيماً غنياً بلا ريب لأنّه يعرف معرِّفة دقيقة كلّ ما يتحدَّث عنه وأنّه كان بنفسه على الهملايا وأنّه يملك سيارات الشحن ويلبس خواتيم البنزول على قدر ما يريد منها!».

وأرادت كلاريسا أن تعرف كيف تبدو خواتيم البنزول وكانت توجّهها ذكرى غامضة خاصة بخواتيم العقيق الأحمر.

وقال أولريش: «أنت على الرغم من ذلك لطيفة يا كلاريسا».

وقال فالتر مدافعاً: «الحمد للّه على أنّها لا تحتاج إلى أن تفهم كلّ عبث في الكيمياء!» ولكنَّه أخذ بعد ذلك يدافع عن كتب آرنهايم التي قرأها. وقال إنّه لا يريد أن يقول إنَّ آرنهايم هو أفضل ما يقدِّر المرء على تصوَّره غير أنّه يعدّ على أيّة حال أفضل ما أبدعه الحاضر فهذه روح جديدة! والحقّ أنّه عِلْم لا شائبة فيه ولكنَّه في الوقت نفسه يتجاوز المعرِّفة! وهكذا انقضت النزهة وكانت النتيجة الختامية بالقياس إليهم جميعاً أقدامٌ مبلّلة ودماغٌ متحفّز وكأن أغصان الأشجار العارية الدقيقة المتألّقة في شمس الشتاء ظلّت كامنة في البشرة

twitter @baghdad_library

الشبكية في صورة شظايا والرغبةُ المشتركة في قهوة ساخنة والشعور بالضياع الإنساني.

وكان الثلج المتبخّر يتصاعد من الأحذية وسُرّت كلاريسا لأنّ الغرفة أصابها التلوّث وظل فالتر يزمّ شفتيه القويتين مع سِمَتَيهما الأنثويتين طوال الوقت إذ كان يبحث عن نزاع. وتحدَّث أولريش عن العمل الموازي. وعند نقطة آرنهايم عادوا إلى النزاع من جديد.

وكرَّر أولريش قائلاً: «سأقول لك ما آخذه عليه إنَّ الإنسان العلمي يعدّ اليوم قضية لا سبيل إلى اجتنابها أبداً فالمرء لا يستطيع ألّا يريد العلم! وما من وقت كان فيه الفرق بين خبرة مختص وخبرة غير مختص كبيراً مثلما هو في العصر الحاضر وإنَّ كلّ امرئ ليلاحظ ذلك من مقدَّرة مُدلّك أو مقدَّرة عازف بيانو. فالمرء ما عاد يرسل اليوم حصاناً إلى ميدان السباق بدون تحضير خصوصي. ولكنَّ في مسائل الإنسانية مازال كلّ امرئ يعتقد أنّه مندوب لاتخاذ قرار. وثمة حكم مسبق يزعم أنَّ المرء يولد ويموت إنساناً! ولكنَّ هل أعرف أكانت النساء قبل خمسة آلاف عام يكتبن الرسائل ذاتها حرفياً إلى عشاقهن كما يفعلن اليوم. وأنا لا أستطيع أن أقرأ مثل هذه الرسالة بعدُ بدون أن أتساءل أما كان ينبغي أن تُكتب بطريقة أخرى!».

وأظهرت كلاريسا ميلاً إلى الموافقة. أما فالتر فقد ابتسم مثل فقير هندي لا يريد أن يختلج له هُدب عندما يخِزُّه المرء بدبوس في وجنتيه.

وتدخَّل قائلاً: «وإذاً فهذا لا يعني شيئاً آخر سوى أنّك ترفض على المدى الأبعد أن تكون إنساناً!».

«تقريباً. فذلك شيء يتّصل به شعور غير مستحبّ بالسطحية والعبث!». واستأنف أولريش قائلاً بعد شيء من التفكير: «ولكنّي أريد أن أسلّم لك بعدُ بشيء مختلف تماماً. وهو أن الخبراء لا ينتهون أبداً فهم ليسوا غير منتهين

اليوم فحسب بل لا يقدِّرون على إنّهاء التفكير في عملهم على الإطلاق. وربّما كانوا لا يستطيعون حتى الرغبة في هذا. فهل يستطيع امرؤٌ مثلاً أن يتصوّر أنَّ الإنسان سيكون له روح بعدُ بمجرّد أن يكون قد تعلَّم بصورة كاملة كيف يفهمه ويعالجه[١١] من الناحية البيولوجية والنفسية. ومع ذلك فنحن نطمح إلى هذه الحالة! وهذه هي المسألة. فالمعرِّفة سلوك وعاطفة وهي في الأساس سلوك محظور. ذلك لأنّ القسر المتمثِّل في وجوب المعرِّفة يكوّن شخصيّة لا تكون في حالة التوازن شأنه في ذلك شأن الولع بالشراب والنزوع إلى الجنس والنزوع إلى العنف. وليس من الصحيح على الإطلاق أن الباحث يتعَّقب الحقيقة فهي التي تتعقبه. فهو يعاني منها. فالحقّ حقّ والحقيقة واقعية بدون أن تحفل به وإنما ينطوي هو على الحماسة إليها على حبّ السِكْر بالواقعي الذي يرسم شخصيته ولا يهمّ على الإطلاق أن يخرج من مقرّراته شيء متكامل أو إنساني أو كامل أو ما يمكن أن يخرج من ذلك على الإطلاق فهذا مخلوق منطوٍ على التناقض يعاني وهو مع ذلك فعّال إلى حدٍّ هائل!».

وسأل فالتر: «وبعد؟».

«أي بعد؟».

«أنت لا تريد بلا ريب أن تزعم أن المرء يستطيع أن يقف عند هذا الحد!».

وقال أولريش بهدوء: «أنا أودّ الوقوف عند هذا الحد وذلك أن نظرتنا إلى بيئتنا والى نفوسنا أيضاً تتغيّر مع كلّ يوم ونحن نعيش في عصر الانتقال وربّما يطول أمده وإذا لم ننجز أعمق مهمَّاتنا على وجه أفضل مِمّا نفعل حتى الآن إلى نهاية الكوكب. ومع ذلك ينبغي للمرء إذا كان موضوعاً في الظلام ألّا

(١١) الضمير هنا عائد على الروح.

twitter @baghdad_library

يشرع في الغناء بدافع الخوف كالطفل غير أنَّ مثل هذا الغناء بدافع الخوف هو الذي يكون عندما يتظاهر المرء بأنّه يعرف كيف يتصرّف في هذه الدنيا. فها أنت ذا تستطيع أن تزمجر فتزلزل الأرض غير أنَّ هذا مجرّد خوف بلا ريب! وأخيراً فأنا على يقين: «أننا نهرول كالخيل! ونحن مازلنا بعيدين جداً عن أهدافنا وهي لا تقترب ونحن لا نراها على الإطلاق وسوف نظل نخطئ في ركوب الخيل مراراً ونضطر إلى تبديل الخيل ولكنَّ ذات يوم بعد غد أو بعد ألفي عام سوف يبدأ الأفق يسيل وينهار فوقنا كالعاصفة!».

وكان قد خيّم الغسق وقال أولريش في نفسه: «ما من أحد يستطيع أن ينظر في وجهي بل إني لا أعرف حتى أنا لعلّي أكذب». وكان يتحدَّث كما لو كان امرؤٌ يلخّص في لحظة واحدة وهو غير مستيقن من نفسه نتيجة يقين عمره عقود من الزمان وكان يذكر أنَّ حلم الشباب هذا كان قد غدا أجوف منذ عهد بعيد وهو الذي كان يأخذ على فالتر وما عاد يريد مواصلة الحديث.

وردّ فالتر بحدة قائلاً: «وينبغي لنا أن نتخلّى عن كلّ معنى للحياة!؟».

وسأله أولريش لماذا يحتاج إلى معنى في الحقيقة؟ فالأمور تستقيم أيضاً هكذا كما قال.

وقهقهت كلاريسا ولم تكن تقصد سوءاً إذ كان السؤال قد بدا لها مضحكاً إلى هذا الحد.

وأشعل فالتر الضوء إذ بدا له أن ليس من الضروري أن يستغلّ أولريش أمام كلاريسا مزية الرجل الغامض. وانسكب الضوء الباهر المزعج فوق الثلاثة.

وقال أولريش مفسّراً بعناد: «إنَّ ما يحتاجه المرء في الحياة إنما هو مجرّد الاقتناع بأن العمل يسير على نحو أفضل مِمّا هو عند الجار وهذا يعني صورُك

المرسومة ورياضياتي وأطفال أيّ امرئ كان وزوجته كلّ ما يؤكّد لإنسان أنّه ليس في الحقيقة شيئاً غير عادي بأي طريقة ولكنَّ بهذه الطريقة المتمثّلة في عدم كونه بأية طريقة كانت شيئاً غير عادي لا يسهل أن يوجد مثيل له حقاً!».

ولم يكن فالتر قد عاد إلى الجلوس بعدُ وكان الإضطراب كامناً فيه النصر. وصاح قائلاً: «أتعرف ماذا تقول هنا؟ مواصلة الإهمال في العمل؟ أنت ببساطة نمساوي وأنت تدعو إلى فلسفة الدولة النمساوية فلسفة مواصلة الإهمال في العمل!».

وأجاب أولريش بقوله: «قد لا يكون هذا سيئاً كما تتصوَّر. فقد يصل المرء بدافع حاجة عاطفية إلى الإرهاف أو الدقة أو الجمال إلى مدى يعجبه عنده مواصلة الإهمال في العمل أكثر من كلّ الجهود بروح جديدة!. فأنا أتمنى لك السعادة إذ كشفت عن رسالة النمسا العالمية».

وأراد فالتر أنَّ يردّ وكان تبيّن أن الشعور الذي كان قد دفعه نحو الأعلى لم يكن نصراً فحسب بل ـ كيف يقول المرء ذلك؟ ـ كان أيضاً الرغبةَ في الخروج لحظةً من الزمان. وتأرجح بين الرغبتين ولكنَّ لم يكن من الممكن الجمع بين كلتيهما وكانت نظرته تنزلق من عيني أولريش نحو الطريق إلى الباب.

وحين باتا وحدهما قالت كلاريسا: «هذا القاتل ذو سمة موسيقيّة أيّ أنّه» وتوقَّفت ثم استأنفت قائلة على نحو ينطوي على سرّ: «لا يستطيع المرء أن يقول شيئاً على الإطلاق ولكنَّ يجب عليك أن تعمل شيئاً من أجله».

«وماذا ينبغي لي أن أعمل؟»

«تحرِّره»

«أتراك تحلمين؟»

twitter @baghdad_library

«لا ريب أنّك لا تعني على الإطلاق ما تقوله لفالتر على هذه الصورة؟!» كذلك سألته كلاريسا وكانت عيناها تبدوان كأنهما تلحّان عليه من أجل جواب لم يكن يستطيع أن يحزر مضمونه.

وقال: «لست أدري ماذا تريدين؟»

ونظرت كلاريسا إلى شفتيه بعناد ثم كررت قائلة: «ينبغي لك مع ذلك أن تفعل ما قلت؛ وستكون عندها قد تغيّرت».

وكان أولريش يتأمّلها ولم يكن يفهم حقّ الفهم ولا بدّ أنّه فات أذنه سماع شيء ما تشبيه أو أيّ شيء يتّصل بالكيفية أو الظرف مِمّا يضفي على كلامها معنى وبدا من الغريب جداً سماعها وهي تتكلّم بدون هذا المعنى وعلى هذا النحو الطبيعي وكأن المسألة تتعلّق بخبرة طبيعية حصّلتها.

ولكن هنا عاد فالتر أدراجه وبدأ بالقول: «أستطيع أن أسلّم لك ـ» وكانت المقاطعة قد خفّفت من حدة الحوار وجلس من جديد على كرسي صغير على البيانو ونظر مغتبطاً إلى حذائه الذي علق به التراب. وفكّر قائلاً في نفسه: «لماذا لا يعلّق بحذاء أولريش تراب؟ إنّه الملاذ الأخير للإنسان الأوروبي».

ولكن أولريش نظر إلى الساقين فوق حذاء فالتر. كانا داخلين في جوربين أسودين من القطن وكان لهما الشكل غير الجميل لساقَي فتاة بضّيْن. وقال فالتر: «يجب على الإنسان أن يقدّر ذلك إذا كان الرجل اليوم مايزال يملك الطموح إلى أن يكون شيئاً متكاملاً».

وقال أولريش: «هذا أمر ما عاد له وجود وأنت لا تحتاج إلا إلى أن تنظر في صحيفة فهي مفعمة بانعدام الشفافية إلى حدٍّ لا يقدّر وهناك يجري الحديث عن قدر كبير من الأشياء بحيث تتجاوز المسألة طاقة التفكير عند رجل مثل لايْبِنتْس غير أن المرء لا يلاحظ هذا. لقد تغيّر الناس وما عاد هنا إنسان

متكامل في مواجهة عالم متكامل بل شيء بشري يتحرَّك ضمن سائل غذائي عام». وقال فالتر على الفور: «صحيح جداً فما عاد يوجد حقاً ثقافة متكاملة بالمعنى الموجود عند غوته ولكنَّ من أجل ذلك يوجد اليوم أيضاً لكلّ فكرة فكرة مقابلة لها ولكل مَيلٍ ميلٌ مقابل له كذلك. وكل فعل ونقيضه يجدان اليوم في الذهن الأسس المتَّسمة بأقصى الإرهاف الذهني والتي يستطيع المرء بها أن يدافع عن الأفعال أو يدينها على حد سواء. ولست أفهم كيف تحبّ أن تدخل هذا في حمايتك!».

وهزّ أولريش بكتفيه.

وقال فالتر بهدوء: «يجب على المرء أن ينسحب انسحاباً كاملاً».

وردّ عليه الصديق قائلاً: «الأمر يستقيم على هذه الصورة أيضاً وربّما كنّا في الطريق إلى دولة النمل أو إلى أيّ توزيع آخر غير مسيحي للأعمال». ولاحظ أولريش في نفسه أن المرء يستطيع أن يوافق مثلما يستطيع أن يعارض وكان الإزدراء ماثلاً ضمن التأدب بوضوح كوضوح الطعام الشهي في الهُلام. وكان يعرف أن كلماته الأخيرة أيضاً لم يكن لها بدٌّ أن تغيظ فالتر غير أنّه أخذ بعد ذلك يتوق إلى أن يحادث ذات مرّة إنساناً يمكن أن يكون متوافقاً معه كلّ التوافق. وكانت قد حدثت مثل هذه الأحاديث بينه وبين فالتر في غابر الأيام. وعندها تُستخرَج الكلمات مثل الضباب من سطح جليدي ونظر إلى فالتر بدون ضغينة وكان على يقين أن هذا أيضاً كان يخامره الشعور بأنّه كلّما أوغل في الحديث ازدادا تشويهاً لرأيه الداخلي. غير أنّه كان يعزو ذلك إليه. وقال أولريش في نفسه: «كلّ ما يفكّر فيه الإنسان إما أن يكون ميلاً أو نفوراً!» وبدا له هذا في هذه اللحظة مفعماً بالحياة بمقدار ما هو صحيح بحيث بات يحسّ به مثل قَسْر جسدي مماثل للتأرجح الاحتكاكي بين أناس محشورين في مكان ضيّق بعضهم على بعض. والتفت ناظراً إلى كلاريسا.

twitter @baghdad_library

ولكن كان يبدو أنَّ كلاريسا ما عادت تصغي منذ زمن بعيد. وكانت قد تناولت في وقت غير معيَّن الصحيفة التي كانت موضوعة على المائدة أمامها ثم بحثت في داخل نفسها لماذا يسبِّب لها هذا متعة بالغة العمق وشعرت بالجانب غير الشفاف الذي لا يسبر غوره والذي كان أولريش قد تحدّث عنه أمام عينيها وتحسَّست الصحيفة بين يديها وأظهر الذراعان الظلمة وانفتحا من تلقاء نفسيهما وكان الذراعان مع جذع الجسم دعامتين متصالبتين وكانت الصحيفة معلقة بينهما وكان هذا هو المتعة ولكنَّ الكلمات التي يترتّب وصفها بها لم ترد في خاطر كلاريسا وإنما كانت تعرف أنّها كانت تنظر إلى الصحيفة بدون أن تقرأ وأنّه بدا لها أنَّ أولريش يكمن فيه شيء خفيّ على نحو بربري طاقةٌ وثيقة الصلة بها هي ذاتها بدون أن يخطر ببالها شيء أكثر دقَّة حول هذا وكانت شفتاها قد انفرجتا في الحقيقة وكأنّها توشك أن تبتسم ولكنَّ هذا حدث بدون وعي في توتّر متجمّد محلول القوى.

واستأنف فالتر بصوت خفيض قائلاً: «أنت على حقّ عندما تقول إنّه ما عاد هناك اليوم شيء جدي أو معقول أو مجرّد شيء يمكن أن ينفذ البصر من خلاله. ولكنَّ لماذا لا تريد أن تفهم أن المعقولية الصاعدة ذاتها التي تبث الوباء في المجموع كلّه هي المسؤولة عن ذلك. لقد استقر في كلّ الأدمغة مطلب التحوّل إلى المزيد من المعقولية بصورة مطَّردة أكثر من عقلنة الحياة وإضفاء التخصص عليها وفي الوقت نفسه عدم التمكّن من المقدرة على تصوَّر الوضع الذي يفترض أن ينتهي إليه عندما نعرف كلّ شيء ونفكّكه ونصنّفه في نماذج ونحوّله إلى آلات وتوحيد أنماطه ومعاييره. ولا يمكن للأمور أن تواصل سيرها على هذا النحو».

وأجاب أولريش برزانة قائلاً: «يا إلهي لقد كان لا بدّ لمسيحيْي عصور الرهبنة أن يكون مؤمناً على الرغم من أنّه لم يكن يستطيع أن يتصوّر إلا سماء

كانت مملّة بعض الشيء بما فيها من السحب وآلات الجُنُك ونحن نخاف من سماء العقل التي تذكّرنا بالخطوط المستقيمة والمناضد المستقيمة والأشكال الطباشيرية المرعبة في العصر المدرسي».

وأضاف فالتر وهو يقول مطرقاً برأسه: «إنني أشعر أن النتيجة ستكون هي تجاوز الخياليّة بغير زمام». وكان في هذا الحديث قليل من الجبن والمكر. وكان يفكّر في النقيض الخفيّ للمعقول عند كلاريسا. وبينما كان يتحدَّث عن العقل الذي يندفع إلى ألوان من التجاوز كان يفكّر في أولريش. أما الآخران فلم يلاحظا ذلك وقد عاد عليه هذا بالألم وبالنصر اللذين يكونان لمن لا يفهم. وقد كان أحبّ الأشياء إليه أن يرجو من أولريش ألّا يدخل بيته بعدُ مادام مقيماً في المدينة لو كان ذلك ممكناً فحسب بدون أن يسبّب ثورة عند كلاريسا. وكذلك جعل كلا الرجلين ينظران إلى كلاريسا صامتين.

ولاحظت كلاريسا فجأة إنهما ما عادا يتنازعان ففركت عينيها وغمزت بعينيها بمودّة لأولريش وفالتر اللذين كانا قاعدين أمام ألواح زجاج النافذة الملوّنة بزرقة المساء وكأنهما في خزانة زجاجية يغمرها شعاع أصفر.

twitter @baghdad_library

[٥٥]

سليمان وآرنهايم

غير أن قاتل الفتيان كريستيان موز بروجر كان له بعدُ صديقة ثانية وكانت مسألة ذنبه أو معاناته قد استحوذت على قلبها قبل بضعة أسابيع استحواذاً بالغ الحيويّة كما هو الحال عند الكثير من الأخريات. وكانت لديها نظرة إلى الحالة تختلف بعض الاختلاف عن النظرة القضائية.

كان اسم كريستيان موز بروجر يعجبها حقاً وكانت تتصوَّر على أساسه رجلاً وحيداً مديد القامة يجلس على طاحونة يغشاها الطحلب وهو يصغي إلى هدير المياه. وكانت على قناعة راسخة بأنَّ الاتهامات التي رفعت ضده سوف تنجلي بطريقة غير متوقَّعة على الإطلاق وكان يحدث حين تكون جالسة في المطبخ أو حجرة الطعام مع أعمال خياطتها أن يأتي موز بروجر إلى جانبها بعد أن يكون قد نفض عنه أصفاده. ثم كانت تنسج أخيلة جامحة كلّ الجموح ولم يكن من المستبعد فيها بحال من الأحوال أن يكون كريستيان عندما تعرف عليها وهي راحيل في الوقت المناسب قد تخلّى عن مسار حياته الذي كان فيه قاتلاً للفتيات وانسلخ من ذلك في صورة زعيم عصابة للصوص يبشِّر بمستقبل هائل.

ولم يكن هذا الرجل المسكين في سجنه يحسّ بالقلب الذي كان يخفق له وهو عاكف على غسيل ديوتيما الواجب إصلاحه. ولم يكن الطريق بعيداً عن مسكن رئيس القسم توتسي إلى المحكمة العليا. على أن النسر ما كان ليحتاج إلا إلى ضربات قليلة بجناحيه من سقف إلى آخر. ولكنَّ بالقياس إلى النفس

الحديثة التي تعبر وهي عابسة محيطاتٍ وقارات ليس هناك شيء يعدل في استحالته العثور على صلة بالنفوس التي تسكن عند أوّل ناصية.

وهكذا كانت التيارات المغناطيسيّة قد انحلّت من جديد وعادت راحيل منذ بعض الوقت تحبّ العمل الموازي بدلاً من موز بروجر. وحتى عندما لم تكن الأشياء في الحجرات الداخلية تسير سيراً كاملاً كما ينبغي لها كان يجري في حجرات الإنتظار أمور كثيرة على نحو غير عادي. على أنَّ راحيل التي كانت فيما مضى تجد دائماً وقت الفراغ لتقرأ الصحف التي تصل من العمادة إلى المطبخ ما عادت تبلغ ذلك منذ أن باتت تقف من وقت مبكر إلى وقت متأخّر خفيراً صغيراً أمام العمل الموازي. كانت تحبّ ديوتيما ورئيس القسم توتسي والشريف الكونت لاينزدورف والثري وأولريش أيضاً منذ أن لاحظت أنّه أخذ يلعب دوراً في هذا البيت وكذلك يحبّ الكلب أصدقاء منزله بشعور واحد بالروائح المختلفة التي تعني التغيّر المثير. ولكنَّ راحيل كانت ذكية فقد لاحظت في أولريش ملاحظة أكيدة حقاً وهي أنّه كان يقف موقفاً مناقضاً للآخرين قليلاً وبدأ خيالها ينسب إليه دوراً خصوصياً لمّا ينجلِ بعدُ في العمل الموازي. وكان ينظر إليها دائماً نظرة الود وكانت راحيل الصغيرة تلاحظ أنّه كان عند ذلك يتأملها وقتاً طويلاً بوجه خاص حين كان يعتقد أنّها لا ترى ذلك. وكانت ترى أنَّ من المؤكَّد أنّه يرغب منها في شيء ألّا ليت هذا ينجلي. كانت بشرتها البيضاء تنكمش من الترقّب ومن عينيها السوداوين الجميلتين كان ينطلق من حين إلى آخر سهم ذهبيّ صغير جداً نحوه! وكان أولريش يحسّ بحفيف ثياب هذا الشخص الضئيل بدون أن يستطيع أن يناقش نفسه الحساب عن ذلك بينما كانت هي تروح وتجيء بين الأثاث الفخم والزوّار متمسّحة بهما وكان هذا يتيح شيئاً من التسلية.

twitter @baghdad_library

ولم يكن يدين بمكانه من اهتمام راحيل للأحاديث المتكتّمة البالغة الضآلة في حجرة الإنتظار التي تعرّض من جرّائها مركز آرنهايم المهيمن للتداعي. ذلك لأنّ هذا الرجل المشرق كان له بدون أن يعلم فضلاً عنه وعن توتسي عدوٌ ثالث أيضاً يتمثّل في خادمه الصغير سليمان. وكان هذا الغلام الزنجي هو الإبزيم اللماع في الحزام السحري الذي كان العمل الموازي قد وضعه حول راحيل. وكانت قد استحوذت عليه ببساطة صغيراً مضحكاً جاء وراء سيّده من بلاد الأساطير إلى الشارع حيث كانت راحيل تخدم بحكم كونه شطر الأسطورة المخصَّص لها مباشرة. وهكذا تمَّ تدبير الأمور بصورة جماعية. لقد كان الثري هو الشمس وكان من نصيب ديوتيما وكان سليمان لراحيل وكان شظية مضيئة بالشمس فاتنة الألوان رفعتها لنفسها ولكنَّ هذا لم يكن هو رأي الفتى تماماً وكان قد بلغ على الرغم من ضآلة جسده ما بين العامين السادس عشر والسابع عشر. وكان مخلوقاً مفعماً بالرومانسية والخبث والمطالب الشخصيّة وكان آرنهايم قد انتقاه في سالف الأيام في جنوبي إيطاليا من فرقة من الراقصين واتخذه لنفسه وقد استحوذ الصغير المتململ على نحو غريب بكآبة نظرته المحملقة على قلبه. وقرّر الرجل الغني أن يفتح له باباً إلى حياة أرقى وكان هذا حنيناً إلى صحبة حميمة مخلصة وهو الحنين الذي لم يكن من النادر أن ينتاب الوحيد في صورة نقطة ضعف كان يخفيها في العادة وراء النشاط الآخذ في الازدياد. وكان قد عامل سليمان حتى عامه الرابع عشر معاملة قائمة على المساواة فيما يشبه عدم الاكتراث تقريباً مثلما كان الناس فيما مضى يربّون إخوة أولادهم من الرضاعة في منازل الأغنياء إذ كان يتاح لهم أن يشاركوا في كلّ الألعاب وضروب اللهو قبل أن تأتي اللحظة التي يضطر فيها المرء أن يظهر أنَّ لبن ثدي الأم يغذّي قليله أكثر مِمّا يغذي لبن ثدي المرضع. وكان سليمان يقعد القرفصاء نهاراً وليلاً لدى منصة عند المكتب أو أثناء الأحاديث التي تطول ساعات مع مشاهير الزوار على قدميه أو وراء ظهر

سيِّده أو على ركبتيه. وكان قد قرأ سكوت وشكسبير ودوماس حين كان سكوت وشكسبير ودوماس موضوعين على الطاولات هنا وهناك وتعلّم التهجئة من قاموس العلوم الإنسانية. وكان يأكل قطع الحلوى لسيِّده. وبدأ في وقت مبكر يدِّخن لفافاته أيضاً حين لم يكن أحد يراه. وكان معلِّم خصوصي يأتي ويعلّمه التعليم الابتدائي وذلك بصورة غير نظامية بعض الشيء بسبب الأسفار الكثيرة. ومع كلّ هذا كان سليمان يحسّ بالملل على نحو رهيب. ولم يكن يحبّ شيئاً حباً شديداً كحبه لوظائف الخادم التي كانت تتيح له أن يشارك فيها على النحو ذاته إذ كان هذا النشاط عملياً من ضروب نشاط الكبار التي تتملّق عنده دافع العمل. ولكنَّ ذات يوم ولم يكن ذلك اليوم قد بَعُد العهد به استدعاه سيِّده إليه وأعلن إليه بمودّة أنّه لم يف وفاء كاملاً بما لديه وقد أخذه على نفسه حياله وأنّه ما عاد الآن طفلاً وأن آرنهايم السيِّد يتحمّل المسؤولية عن تحوّل سليمان الخادم الصغير إلى إنسان صالح ومن أجل ذلك فقد قرّر أن يعامله معاملته لمن يجب أن يكونه في مستقبل الأيام بحيث يستطيع أن يتعوَّد على ذلك في أوانه بعدُ. وأضاف آرنهايم أنَّ كثيراً من الرجال الناجحين قد بدأوا ماسحي أحذية وغاسلي أطباق حيث كانت طاقتهم تكمن في ذلك على وجه الخصوص. ذلك لأنّ أهمّ الأمور هو أن يعمل المرء كلّ شيء بصورة كاملة منذ البداية الأولى على أن هذه الساعة التي رُقّي فيها سليمان من مخلوق مترف ليس له وضع محدَّد إلى خادم يتمتَّع بالمسكن والمأكل وبراتب صغير أحدثت في قلبه تخريباً لم يعرف عنه آرنهايم شيئاً ولم يفهم سليمان الأقوال التي أفضى وقد ظفرت راحيل بثقة هذا الفتى في اللحظة التي أخبرته فيها أنّه ربّما كان يجْري في بيتها الإعداد لعرب. ومنذ ذلك الوقت كان عليها أن تتلقى منه أشنع الأقاويل حول معبودها آرنهايم. وعلى الرغم من كلّ التعاظم كان خيال سليمان يبدو مثل وسادة للإبر ملأى بالسيوف والخناجر. وكان كلّ ما يرويه لراحيل عن آرنهايم يعصف بوقع حوافر الخيل. وكانت تتراقص

twitter @baghdad_library

المشاعل وسلالم الحبال. وقد أسرّ إليها أن اسمه ليس سليمان أبداً وذكر لها اسماً طويلاً غريب الوقع نطق به بسرعة بلغ منها أنّها لم تستطع قط أن تعيه. وفيما بعد أضاف إلى ذلك سراً مفاده أنّه إبن أمير من أمراء الزنج. وأنّه سُرق وهو طفل من أبيه الذي يملك آلافاً من المحاربين والأبقار والعبيد والحجارة الكريمة وأن آرنهايم اشتراه ليبيعه من جديد إلى الأمير في مستقبل الأيام بثمن باهظ إلى حدٍّ رهيب. ولكنَّه يريد أن يهرب وأنّه لم يستطيع أن يفعل ذلك حتى الآن لأنّ أباه يقيم بعيداً عنه بعداً شديداً.

على أن راحيل لم تكن من الغباء بحيث تصدّق هذه الحكايات غير أنّها صدّقتها إذ لم يكن في العمل الموازي مقياس لما لا يصدَّق كبيرٌ بما يكفي بالقياس إليها. وقد كانت خليقة أن يسرّها أن تحظّر على سليمان أن يتحدَّث عن آرنهايم على هذا النحو. غير أنّها كانت مضطرة أن تكتفي بذلك إزاء سوء الظن المختلط بالخوف حيال جسارته. ذلك لأنَّها كانت تشعر على نحو ما بالإدعاء القائل إنَّ سيّده لا يوثق به على أنّه يمثّل تعقيداً هائلاً وشيكاً باعثاً للتوتر في العمل الموازي على الرغم من كلّ الشكوك. وكان ثمة سحب عاصفة كان يختفي وراءها الرجل المديد القامة في الطاحونة التي يغشاها الطحلب وكان ضوء شاحب يتجمَّع في الملامح المتغضّنة لوجه سليمان الصغير المضحك.

[٥٦]

عمل مفعم بالحيويَّة في لجان العمل الموازي. كلاريسا تكتب إلى الشريف وتقترح عاماً لنيتشه

وفي هذا الوقت كان على أولريش أن يزور الشريف ثلاث مرات في كلّ أسبوع. وقد وجد له غرفة عالية ضيّقة ساحرة من حيث كونها مجالاً مهيّناً له. وكانت تقوم عند النافذة منضدة للكتابة من طراز ماريا تيريزا. وقد علقت على الجدار صورة داكنة فيها بقع حُمر وزرق وصفر ينبعث منها نور محصور تصوّر فرساناً لا على التعيين يطعنون فرساناً آخرين مطروحين أرضاً في الأجزاء اللدنة. وعلى الجدار المواجه له كانت توجد سيِّدة منفردة كانت أجزاؤها اللدنة محمية بعناية بمشدّ للقامة الناحلة موشّى بالذهب. ولم يكن من الممكن أن يتبيّن المرء لماذا نفيت إلى هذا الجدار وحدها تماماً إذ كانت على ما يبدو تنتمي إلى أسرة لاينزدورف وكان وجهها الفتي المغشّى بالمساحيق يبدو مشابهاً لوجه الكونت مثلما يشابه أثرُ قدم في الثلج الجافّ أثرَ قدم في الطين المبلَّل. على أنَّ أولريش لم يتح له آخر الأمر إلا القليل من الفرص لكي يتأمل وجه الكونت لاينزدورف. وكان المساعد الظاهري للعمل الموازي قد ارتقى منذ الإجتماع الأخير إلى حدِّ لم يدع للشريف أبداً سبيلاً لكي يكرّس نفسه للأفكار الكبرى بل كان يضطر إلى أن يقضي وقته بمطالعة العرائض ومع الزوار وفي الأحاديث والجولات القصيرة. وهكذا كان له حتى الآن حديث مع رئيس الوزراء ولقاء مع الأسقف ومناقشة في الديوان الإمبراطوري واتصل بضع مرات في مجلس الأعيان بأعضاء طبقة كبار النبلاء والبورجوازية النبيلة

twitter @baghdad_library

على أن أولريش لم ينجذب إلى هذه المناقشات ولكنَّ ما كان يعرفه لم يتجاوز أنَّ القوم كانوا يحسبون من كلّ الجوانب حساباً لأشكال المقاومة السياسية القويَّة من الطرف المعاكس. ومن أجل ذلك أعلنت كلّ هذه الجهات أن إمكاناتها لتأييد العمل الموازي تزداد قوّة كلّما قلّ ذكرها فيه وأنّها طلبت بصورة مؤقّتة تمثيلها فيه عن طريق مراقبين في اللجان فحسب.

وكان من دواعي السرور أنَّ هذه اللجان كانت تحقّق تقدماً كبيراً من أسبوع إلى أسبوع. فكانت قد قسمت العالم كما تقرّر في الجلسة التأسيسيّة تبعاً لوجهات النظر الكبرى الخاصّة بالدين والتعليم والتجارة والزراعة وهكذا دواليك. وفي كلّ لجنة كان يجلس ممثل للوزارة الخاصّة بها. وكانت كلّ اللجان قد انهمكت في مهمتها وهي أن تنتظر كلّ لجنة بالإتفاق مع كلّ اللجان الأخرى ممثلي الهيئات صاحبة الاختصاص وقطاعات الشعب للإحاطة برغباتها ومقترحاتها وطلباتها وتوجيهها إلى اللجنة الرئيسيّة. وبهذه الطريقة كان القوم يأملون أن يدَّعوا طاقات البلاد الأخلاقية «الرئيسيّة» تصب في اتجاههم منسّقة ومجمّعة. وكانوا مرتاحين إذ كان هذا التواصل الكتابيّ يتنامى. وكان في وسع رسائل اللجان إلى اللجنة الرئيسيّة الرجوع إلى رسائل أخرى سبق إرسالها إلى اللجنة الرئيسيّة. وأخذت تبدأ بجملة كانت تزداد أهمّية من مرّة إلى أخرى وكانت تبدأ بالكلمات: «بالإشارة إلى العدد المبيّن في هذا الموضع رقم كذا وكذا وبالتالي رقم كذا المحوَّل إلى العدد الروماني. . .» حيث كان يلي ذلك عدد من جديد وكانت كلّ هذه الأعداد تزداد كبراً مع كلّ رسالة وكان هذا ينطوي في ذاته على نموّ سليم وقد انتهى الأمر إلى أن المفوضيَّات بدأت أيضاً في الإفادة بطريقة نصف رسميّة عن الإنطباع الذي يحدثه إظهار قوّة الوطنية النمساوية لدى العالم الخارجي والى أن المبعوثين الأجانب كانوا يبحثون بحذر عن فرصة لاستقاء المعلومات وأنَّ

نواب الشعب الذين باتوا يقظين جعلوا يستطلعون النوايا. وأخذ النشاط الخصوصي يتجلّى في الاستيضاحات من قبل المحلات التجارية التي أباحت لنفسها أن تتقدَّم بمقترحات أو التمست مستنداً ثابتاً لربط مؤسَّستها بالوطنيّة. فكان يوجد جهاز ولأنه كان موجوداً لم يكن له بدٌّ أن يعمل ولأنه كان يعمل بدأ يسير. وعندما تبدأ سيّارة في المسير في حقل واسع حتى ولو لم يكن هناك أحد يجلس عند المقود فإنّها لا بدّ أن تقطع طريقاً معيَّناً بل طريقاً مؤثِّراً جداً.

وإذاً فقد نشأ على هذه الطريقة اندفاع قوي وأخذ الكونت لاينزدورف يشعر به موضع نظارته الأنفية وقرأ كلّ الرسائل بجدّ بالغ من البداية إلى النهاية فما عادت هذه مقترحات ورغبات لأناس عاطفيِّين غير معروفين كتلك التي غمرته في البداية قبل أن يصار إلى وضع المسألة في مسار سليم. وحتى عندما كانت هذه الالتماسات أو الاستيضاحات تأتي من قبل الشعب فإنّها كانت تأتي موقّعة من قبل مجالس إدارات الجمعيات التعاونية في الألب وروابط المفكِّرين الأحرار ومجموعات أديرة العذراء والاتحادات المهنية ونوادي السمر والنوادي الأهلية وسوى ذلك من المجموعات الصغيرة القليلة الشأن التي تتقدَّم الانتقال من الفردية إلى الجماعية مثلما تتقدَّم الكُناسة الصغيرة رياح الزوبعة. ولئن كان الشريف غير موافق على كلّ ما كان يطلب منه فقد كشف مع ذلك على وجه الإجمال عن تقدّم جوهري. فوضع نظارته الأنفية وأعاد الرسالة إلى مجلس الوزراء أو أمين السر الذي كان قد نقلها إليه وأومأ برأسه مرتاحاً بدون أن ينطق بكلمة وكان يخامره شعور بأن العمل الموازي يسير على طريق سليم ومرضٍ وأن الطريق الحقيقي سيتمّ العثور عليه.

أما مجلس الوزراء الذي كان يتسلَّم الرسالة فكان يضعها في العادة فوق كومة من الرسائل الأخرى وعندما كانت الأخيرة تغدو في الأعلى كان يقرأها بحضور الشريف. وكان من عادة فم الشريف عندئذ أن يتحدَّث قائلاً: «هذا

twitter @baghdad_library

ممتاز كلّه ولكنَّ المرء لا يستطيع أن يقول نعم ولا أن يقول لا مادمنا لا نعرف شيئاً مبدئياً عن محور أهدافنا». غير أنَّ هذا كان هو ما كان مجلس الوزراء قد قرأه مع كلّ رسالة سابقة بحضور الشريف وكان يكوّن أيضاً رأيه الخاص. وكان يمسك بقلم رصاص له غطاء ذهبي في يده وكان يكتب به على نهاية كلّ رسالة التعويذة السحرية «ل.ح». وكانت هذه التعويذة السحرية ل.ح التي كانت مستعملة في الدوائر الكاكانيّة تعني: «للحفظ» وكانت تعني بالعبارة الصريحة ما يعادل قولنا «ترفع للبتّ فيها فيما بعد» وكانت تعدّ مثالاً للحيطة التي لا تدع شيئاً يضيع ولا تفوّت شيئاً من جرّاء السرعة. فكان يحفظ على سبيل المثال التماس الموظَّف الصغير معونة استثنائية للنُفَساء إلى أن يكون الطفل قد كبر وغدا قادراً على الكسب بصورة مستقلّة. ولم يكن ذلك لسبب آخر سوى أن المادة ربّما أمكن ضبطها من الناحية التشريعية حتى ذلك الوقت. وكان قلب الرؤساء قبل ذلك يأبى أن يرّد الرجاء ولكنَّه كان يحفظ أيضاً التماس شخصيّة أو صاحب منصب من ذوي النفوذ لا يجوز للمرء أن يزعجهما بالرفض على الرغم من أنّه كان من المعروف أنَّ جهة أخرى ذات نفوذ كانت تعارض التماسهما. وكان يحفظ من الناحية المبدئية كلّ ما كان يردّ الدائرة للمرة الأولى إلى أن يكون قد سبقه حالة مماثلة.

ولكن سيكون من الخطأ كلّ الخطأ أن يتهكّم المرء على هذه العادة في الدوائر إذ يحتفظ بأكثر من ذلك كثيراً خارج المكاتب بل كم سيكون من الأمور ذات الدلالة الضئيلة أنَّ يردّ في أداء قسم ارتقاء العرش عند الملوك حتى الآن الوعدُ بمحاربة الأتراك أو الكفار عندما يأخذ المرء بعين الاعتبار أنّه لم يحدث قط في تاريخ البشريّة حتى الآن أن شطبت جملة شطباً كاملاً أو كتبت كتابة كاملة إلى النهاية إذ ينجم عن ذلك في بعض الأحيان تلك الوتيرة المربكة في التقدّم التي تشابه ثوراً مجنّحاً إلى حدٍّ الخلط بينها وبينه. وفي هذا

السياق تضيع في الدوائر بعض الأمور على الأقل. أما في العالم فلا يضيع شيء. وهكذا يعدّ الحفظ من الصيغ الأساسيّة لبنيان حياتنا ولكنَّ عندما كان شيء ما يبدو للشريف ملحّاً بوجه خاص كان يترتّب عليه أن يختار طريقة أخرى فكان يبعث عندئذ بالاقتراح إلى القصر أوّلاً إلى صديقه الكونت شتالبرج يستوضحه عمّا إذا كان يمكنه أن يدخله في الحسبان على أنّه ذو أهمّية حاسمة بصورة مؤقّتة كما كان يسمّي ذلك. وكان يعود الجواب بعد بعض الوقت عندئذ كلّ مرّة ومفاده أنَّ إرادة صاحب المقام الأعلى في هذه النقطة لا يمكن إبلاغها في الوقت الحاضر وأنّه يبدو أن الأمر المرغوب فيه بدرجة أكبر ترك الرأي العام يتكوّن من تلقاء نفسه أوّل الأمر. وتبعاً للتقبّل الذي يجده الاقتراح لديه وعلى أساس المتطلّبات الأخرى التي سيكون من الواجب استخلاصها سيؤخذ بعين الاعتبار فيما بعد من جديد. وكان الملف الذي تحوّل إليه الاقتراح بتلك الطريقة يذهب بعدئذ إلى الجهة الوزارية صاحبة الاختصاص ويعود من هناك بحاشية مفادها أنّهم لا يرون أنفسهم في هذه الدائرة مختصّين وحدهم في البتّ في ذلك. وعندما يكون هذا قد حدث كان الكونت لاينزدورف يسجّل ملاحظة بوجوب أن يُقتَرح في أحد الإجتماعات التالية للّجنة الرئيسيّة تعيين لجنة فرعية تابعة لمجلس الوزراء لدراسة المسألة.

على أنّه لم يكن يبدو حاسماً إلا في الحالة الواحدة التي كان يصل فيها رقعة لم تكن تحمل توقيع مجلس إدارة اتحاد ولا هيئة كنسيّة أو علمية أو فنيّة معترف بها من قبل الدولة. وقد وصل مثل هذا الكتاب في هذه الأيام من كلاريسا حيث كانت تعتمد فيه على أولريش وتقترح إقامة عام نمساوي لنيتشه وحيث يترتّب عمل شيء من أجل قاتل النساء موزبورجر إذ كتبت تقول إنّها تشعر بحكم كونها امرأة أنّها مدعوّة لاقتراح هذا. وكانت ترى ذلك يعدُ من جراء التطابق الحافل بالدلالة والذي يكمن في أن نيتشه كان مصاباً بمرض

twitter @baghdad_library

عقلي وأن موز بروجر كذلك أيضاً. وكان أولريش لا يكاد يستطيع إخفاء غيظه وراء نكتة حين عرض عليه الكونت لاينزدورف هذا الكتاب الذي عرفه من خلال الكتابة التي تتخلّلها على نحو متقاطع خطوط قائمة وخطوط أفقية غليظة ومع ذلك فقد قال الكونت لاينزدورف حين اعتقد أنّه لاحظ حرجه بجد وبدافع طيّب: «هذا أمر ليس بالقليل الشأن بل أودّ أن أقول إنّه ناريّ وحاسم غير أننا مضطرون مع الأسف إلى وضع كلّ أمثال هذه المقترحات المتفرّقة على الرفّ وإلا فلن نصل إلى هدف وقد تُسلّم هذه الرسالة مادام يبدو أنّك تعرف السيّدة التي كتبتها شخصياً بلا ريب للسيّدة ابنة عمك».

[٥٧]

تقدّم كبير.

ديوتيما تمرّ بتجارب غريبة مع جوهر الأفكار الكبرى

ودسّ أولريش الرسالة في جيبه لكي يواريها. ولكنَّ لم يكن من المسهل أيضاً أن يتحدَّث في ذلك إلى ديوتيما إذ كانت هذه تشعر منذ أن ظهر المقال حول العام النمساوي أنّها قد انتابتها اندفاعة غير عادية على الإطلاق ولم يسلّمها أولريش كلّ الملفّات التي تلقّاها من الكونت لاينزدورف وإن كان من الجائز أن تكون غير مقروءة بل كان البريد يأتي في كلّ يوم بأكداس من الرسائل ومقتطفات من الصحف وكان تجار الكتب يبعثون إليها بكميات هائلة من الكتب للنظر فيها. وتصاعد التردد على منزلها فطغى كما يطغى ماء البحر عندما يمتصّه الريح والقمر متَّحدين. وحتى الهاتف لم تكن تتاح له لحظة من السكون. ولولا أن راحيل الصغيرة كانت تعمل موظَّفة على الجهاز بنشاط كبير الملائكة وكانت تقدّم معظم المعلومات بنفسها إذ تبيَّن لها أنّه لا يمكن للمرء أنَّ يجهد سيّدتها بغير انقطاع وإلا لانهارت ديوتيما تحت وطأة المطالب.

على أن هذا الإنهيار العصبي الذي لم يأت أبداً وكان يرسل دقاته في جسدها مرعداً وهب لديوتيما الآن سعادة لم تعرفها بعد. كانت قشعريرة انهماراً للأهمِّية يغشاها من فوقها وقعقعةً كتلك التي تكون من جراء الضغط على حجر يستقر في قمة بنيان العالم لذعاً واخزاً كالشعور باللاشيء عندما يقف المرء على قمة جبل تفوق كلّ ما بعدها عُلُوّاً. وبكلمة موجزة كان الشعور

twitter @baghdad_library

الذي خرج دفعة واحدة إلى حيّز الوجود بموقع ابنة معلّم المدرسة المتوسّطة المتواضع والزوجة الشابة لنائب قنصل من الطبقة الوسطى التي ظلّت كذلك على الرغم من ارتقائها حقاً في الأجزاء الأكثر نضرة من كيانها. ومثل هذا الشعور بالموقع ينتمي إلى أحوال الوجود غير الملحوظة وذات الأهميّة الأساسيّة مع ذلك شأنه في ذلك شأن عدم ملاحظة دوران الأرض أو الجزء الشخصيّ الذي نسهم به في أحاسيسنا. وإنما يحمل الإنسان القسط الأكبر من غروره إذا علم أنّه لا يجوز له أن يحمله في قلبه تحت قدميه وهو في أرض وطن كبير أو ديانة أو درجة من درجات ضريبة الدخل بل يكفيه مع الافتقار إلى مثل هذا الموقع ما يمكن أن يكون لدى كلّ امرئ وهو أن يوجد على الذروة العليا الراهنة لعمود الزمن الصاعد من اللاشيء أيّ أن يعيش الآن مباشرة حيث آل كلّ السابقين إلى تراب ولمّا يوجد لاحقون بعد. ولكنَّ إذا صعد هذا الغرور الذي يعدّ في العادة لاشعورياً لأية أسباب. كانت دفعة واحدة من القدمين إلى الرأس فإنَّ هذا يمكن أن يؤدِّي إلى جنون خفيف مشابه لجنون تلك العذراوات اللواتي يعتقدن أنهن يمشين وهن حوامل بالكرة الأرضّية بل أنَّ رئيس القسم توتسي أولى ديوتيما الآن شرف الاستفسار منها عن الأحداث والرجاء منها في بعض الأحيان أن تتولى هذه المهمة الصغيرة وتلك حيث توارت الابتسامة التي دأب على أن يتحدَّث بها عن صالونها ليحلَّ محلها جدّ وقور وكان القوم مازالوا لا يعرفون بعد إلى أيّ مدى سوف تحظى الخطَّة بالقبول لدى صاحب المقام الأعلى وهي أن يرى نفسه وقد تبوَّأ مقام الصدارة في إعلان دولي للسلام. ولكنّه أرفق بهذه الإمكانية مراراً الرجاء المنطوي على القلق وهو الرجاء من ديوتيما ألّا تزجّ بنفسها في ميدان السياسة بأدنى مقدار بدون أن تسأله النصيحة قبل ذلك بل نصح لها على الفور بأنَّ على المرء إذا ما ظهر بصورة جديّة في أيّ وقت من الأوقات اقتراح يتّصل بعمل سلميّ دوليّ أن يحرص على الفور على ألّا ينجم عنه مضاعفات سياسية. وقال

لزوجته إنَّ المرء لا يحتاج بحال من الأحوال إلى أن يرفض فكرة جميلة كهذه حتى عندما تتوفر إمكانية تحقيقها. ولكنَّ من الضروري بصورة مطلقة أن يظلّ المرء منذ البداية منفتحاً تجاه كلّ إمكانات التنفيذ والانسحاب. ثم شرح لديوتيما الفرق بين نزع السلاح ومؤتمر السلام واجتماع الحكام نزولاً إلى الموقف الآنف الذكر من أجل تجهيز قصر السلام في لاهاي بصور زيتّية جداريّة لفنّانين محليّين. ولم يكن قد تحدّث إلى زوجته قط بمثل هذه الموضوعية بل كان يعود أحياناً والحقيبة الجلدية تحت ذراعه مرّة أخرى إلى غرفة النوم ليستكمل شروحه إذا كان قد نسي مثلاً أن يضيف أنّه هو شخصياً لا يعدّ كلّ ما يمت بصلة إلى اسم النمسا العالمية ممكناً على نحو بديهيّ إلا في ارتباطه بمشروع سلمي أو إنساني إذا لم يكن المرء ممّن يهملون التفكير والتقدير أو نحو ذلك.

وأجابت ديوتيما وهي تبتسم ابتسامة متأنّية: «سوف أبذل جهدي لكي أدخل رغباتك في حسباني. ولكنَّ لا يجوز لك أن تتصوَّر تصوَّرات مبالغاً فيها بصدد أهمّية السياسة الخارجية بالنسبة إلينا. فهناك تقدّم ينطوي على الخلاص على وجه الخصوص في الداخل وهو يصدر عن الأعماق المجهولة للشعب وأنت لا تعرف مقدار الالتماسات والمقترحات التي تنهال عليّ كلّ يوم».

كانت جديرة بالإعجاب إذ كان عليها أن تكافح صعوبات هائلة بدون أن تدع ذلك يبدو عليها. وكانت تلتقي في مشاورات اللجنة المركزية الكبرى التي أنشئت تبعاً لوجهات النظر الخاصّة بالدين والعدالة والزراعة والتعليم الخ عن كلّ المقترحات العليا الممثّلة لذلك التحفظ الجليدي المنطوي على الخوف الذي كانت ديوتيما تعرفه في زوجها حقّ المعرفة حين كان مايزال غير متّسم بهذا القدر من اليقظة. وكانت تشعر أحياناً باليأس الكامل من جراء نفاد صبرها ولم تكن تستطيع أن تخفي عن نفسها أنَّ هذه المقاومة من قبل العالم

twitter @baghdad_library

الخامل سيكون من الصعب تحطيمها. وعلى الرغم من أنَّ العالم النمساوي أنموذجاً لأمم العالم إذ لم يكن هناك في الحقيقة من شيء ضروري سوى البرهنة على أنَّ الفكر في النمسا يجد موطنه الحقيقي فقد تبيّن بالقدر ذاته من الوضوح أن هذا كان مايزال في حاجة إلى مضمون خصوصي بالنسبة إلى الرؤوس الخاملة البليدة وكان من الواجب استكماله عن طريق خاطرة تكون مواتية للفهم بطبيعتها المعقولة أكثر مِمّا تكون كذلك بطبيعتها العامة وكانت ديوتيما تدرس الساعات الطوال في كثير من الكتب لكي تعثر على فكرة تؤدي هذا العمل. وكان من الواجب بالطبع أن تكون بطريقة خاصة فكرة نمساوية رمزية أيضاً ولكنَّ ديوتيما مرَّت بتجارب غريبة مع جوهر الأفكار الكبرى.

فقد تبيَّن أنّها كانت تعيش في عصر كبير إذ كان الزمان مترعاً بالأفكار الكبرى. ولكنَّ ما كان ينبغي للمرء أن يصدِّق مدى صعوبة تحقيق الأعظم والأهم من ذلك بمجرّد أن تتوفر له كلّ الشروط حتى ذلك الشرط الواحد الذي يمكن أن يُعدَّ منها! وكانت ديوتيما كلّما أوشكت أن تتخذ قراراً حيال مثل هذه الفكرة اضطرت إلى أن تلاحظ أنّه سيكون شيئاً عظيماً أن يحقِّق المرء نقيضها. لقد كان الأمر على هذه الصورة على أيَّة حال ولم تكن في يديها حيلة إزاءه. فالمُثُل تتَّسم بخصائص غريبة ولعلّ من بينها أيضاً تلك الخاصّة المتمثِّلة في أنّها تنقلب إلى نقيضها حين يريد المرء أن يتابعها متابعة دقيقة. كان هناك مثلاً تولستوي وبيرتاسيتنر ـ وهما كاتبان كان المرء يسمع بأفكارهما في تلك الأيام بقدر متساوٍ على وجه التقريب ـ وكانت ديوتيما تقول في نفسها: ولكنَّ كيف تستطيع البشريّة أن تؤمن لنفسها دجاجاً مشوياً فحسب بدون عنف؟ وماذا يصنع المرء بالجنود إذا كان المرء يطالبهم مثلما يطالب أولئك بألّا يقتلوا؟ لسوف يغدو هؤلاء المساكين بلا رزق ولسوف يتمتَّع المجرمون بعصور ذهبية. غير أن أمثال هذه المقترحات كانت مطروحة للبحث وكان يسمع أن هناك

توقّعات قد جمعت وما كانت ديوتيما لتقدر على أن تتصوَّر حياة بدون حقائق أبدية أبداً. غير أنّها لاحظت الآن ما أثار دهشتها وهو أن كلّ حقيقة أبدية يوجد منها زوجان ووجوه عديدة ومن أجل ذلك فإنَّ الإنسان العاقل وكان هذا في هذه الحال رئيس القسم توتسي الذي حقَّق إنقاذاً معيَّناً لشرفه وذلك بانطوائه على سوء ظن راسخ الجذور بالحقائق الأبدية. والحقّ أنّه ما كان ليجادل أبداً في أنّها غير قابلة للاستغناء عنها. غير أنّه على يقين أن البشر الذين يتناولونها تناولاً حرفياً إنما هم مجانين وكان رأيه ـ الذي عرضه على زوجته بشهامة ـ أن المُثُل البشريّة تنطوي على قدر هائل من المطالب لا بدّ أن يفضي إلى افساد إذا لم يأخذه المرء بصورة مسبقة مأخذ الجدّ على نحو كامل وكان توتسي يسوق على ذلك البرهان الأفضل وهو أن كلمات كالمثل الأعلى والحقيقة الخالدة لا ترد على الإطلاق في المكاتب حيث يدور الأمر حول أشياء جديّة وأن المقرّر الذي يمكن أن يخطر بباله استعمالها في ملفّ يوشك أن يقترب على الفور ممن يطلب فحصاً طبياً رسمياً للحصول على إجازة استجمام. ولكنَّ ديوتيما كانت تنضح من أمثال ساعات الضَعف هذه في نهاية الأمر طاقة جديدة مرّة أخرى لكي تنهمك في دراساتها وإن كانت تصغي إليه وهي متألمة.

بل أن الكونت لاينزدورف فوجئ بطاقتها الفكريّة حين وجد آخر الأمر الوقت لكي يظهر من أجل استشارة. وكان الشريف يريد إعلاناً منبثقاً من وسط صفوف الشعب. وكان يرغب مخلصاً أن يستجلي إرادة الشعب ويخلّصها من الشوائب عن طريق مؤثّر صادر من الأعلى ويحذّر لأنّه كان يريد أن يعرضها في تلك الأيام على صاحب الجلالة لا في صورة عطاء يقصد إلى التزلّف بل آيةً على التقرير الذاتي لمصير الشعوب الدائرة في دوّامة الديمقراطية. وكانت ديوتيما تعلّم أن الشريف مازال يتمسّك بفكرة «إمبراطور

twitter @baghdad_library

السلام» وبإعلان متألّق عن النمسا الحقّة وإن لم يرفض اقتراح النمسا العالمية رفضاً مبدئياً على قدر ما كان يتمّ في ذلك من التعبير الصحيح عن شعور أسرة من الشعوب تلتف حول حاكمها الأبوي الجليل. وكان الشريف يستثني من هذه الأسرة بروسيا في صمت على الرغم من أنّه لم يجد ما يعترض به على شخص الدكتور آرنهايم بل أشار إليه بصراحة على أنّه شخصيّة مهمة. وكان يحذّر قائلاً: «إننا لا نريد بالتأكيد شيئاً وطنياً بالمعنى المستهلك. يجب أن نوقظ الأمة والعالم من سباتهما. وإني لأجد فكرة إقامة عام نمساوي جميلة حقاً ولقد قلت في الحقيقة حتى للصحفيِّين إنه لا بدَّ للمرء أن يوجِّه خيال الجمهور نحو مثل هذا الهدف. ولكنَّ هل فكَّرت ذات مرّة فيما ينبغي لنا عمله هذا العام إذا ظلَّت المسألة عند هذا العام النمساوي؟ ألّا ترين هذه هي المسألة! فهذا أمر يجب على المرء أن يعرفه أيضاً ولا بدّ للمرء أن يساعد قليلاً من الأعلى وإلا ظفرت العناصر غير الناضجة باليد العليا. على أنني لا أجد على الإطلاق وقتاً لاستدعاء شيء من الخواطر!».

ووجدت ديوتيما الشريف مفعماً بالهموم وردّت قائلة بحيويّة: «لا بدَّ للعمل أن يبلغ ذروته في شعار كبير أو لا يبلغ شيئاً على الإطلاق وهذا أمر مؤكَّد يجب عليه أن يستحوذ على قلب العالم. غير أنّه يقتضي أيضاً تأثيراً قادماً من الأعلى وهذا أمرلا جدال فيه. والعام النمساوي اقتراح ممتاز غير أني أرى العام الحالي خليقاً أن يكون أجمل. إنّه عام للنمسا العالمية حيث يستطيع الفكر الأوروبي أن يرى موطنه الحقّ في النمسا!».

وحذّر الكونت لاينزدورف قائلاً وقد أفزعته الجرأة الفكريّة لصديقته مراراً: «الحذر! الحذر! فربما كانت أفكارك دائماً أكبر مِمّا ينبغي يا ديوتيما! لقد سبق أن قلتِ هذا ذات مرّة ولكنَّ المرء لا يستطيع أن يكون حذراً بما

يكفي! وعلى هذا فماذا تصوَّرتِ من أمور ينبغي لنا أن نضعها في هذا العام العالمي؟».

غير أن الكونت لاينزدورف الذي كانت تحدوه تلك الاستقامة التي كانت تميّز تفكيره تمييزاً مسّ بهذا السؤال على وجه الدقة أكثر النقاط إيلاماً عند ديوتيما. فقالت بعد شيء من التردد: «سيِّدي الشريف هذا هو أصعب سؤال في العالم تريد مني إجابة عنه وإني أعتزم أن أدعو في أقرب وقت حلقة من أخطر الرجال شأناً أدباء ومفكِّرين. وأنا أريد أن أنتظر مقترحات هذا المؤتمر قبل أن أدلي بشيء».

وصاح الشريف وقد جنح على الفور إلى تأييد الإنتظار قائلاً: «هكذا تستقيم الأمور فالمرء لا يستطيع أن يكون حذراً بما فيه الكفاية. ألّا ليتك تعرفين ما يترتّب عليّ سماعه الآن في كلّ يوم!».

twitter @baghdad_library

[٥٨]

العمل الموازي يثير الهواجس ولكن لا يوجد في تاريخ البشريّة تراجع طوعي

وقد أتيح للشريف أيضاً ذات مرّة لكي يتحدَّث إلى أولريش حديثاً أكثر تفصيلاً فأسرّ إليه قائلاً: «إنَّ هذا الدكتور آرنهايم لا يجد كثيراً من القبول عندي ولا ريب أنّه رجل ظريف إلى حدٍّ فائق ولا يستطيع المرء أن يعجب من ابنة عمك غير أنّه بروسيّ آخر الأمر وهو ينظر نظرة البروسي. هل تعرف عندما كنت غلاماً صغيراً في العام خمس وستين كان المرحوم أبي يستضيف عندئذ في قصر شروديم ضيفاً من ضيوف الصيد كان ينظر مثل هذه النظرات أيضاً وقد تبيَّن بعد ذلك بعام أنّه لم يكن ثمة إنسان يعرف من أدخله بيننا في الحقيقة وأنّه كان رائداً في هيئة الأركان البروسية. وأنا لا أقصد بذلك أن أقول شيئاً على الإطلاق بصورة بديهيّة غير أنّه ليس من المستحب عندي أن يكون آرنهايم مطّلعاً على كلّ شيء يتّصل بنا.

وقال أولريش: «سيّدي الشريف إنّه ليسرني أنّك أعطيتني الفرصة للإعراب عن رأيي. لقد حان الوقت لكي يحدث شيء. وأنا أمرّ بتجارب تحملني على التروي وليست بالملائمة لمراقب أجنبي وإنما يفترض في العمل الموازي أن يثير مشاعر الناس جميعاً على نحو موفّق. فهل هذا ما يهدف إليه حضرة الشريف أيضاً؟».

«أجل بالطبع!».

فصاح أولريش قائلاً: «غير أن ما ينجح هو نقيض ذلك! ولديّ انطباع بأنّه يثير هواجس المثقَّفين جميعاً ويبعث فيهم الحزن على نحو يلفت النظر!».

وهزّ الشريف برأسه ولفّ إبهاماً حول آخر كما كان يفعل ذلك دائماً عندما كانت نفسه تنقبض وهو مطرق يفكِّر وكان هو أيضاً قد مرّ بالفعل بتجارب كانت مشابهة لتلك التي تحدّث إليه أولريش فيها الآن.

وروى هذا قائلاً: «منذ أن بات من المعروف أنَّ لي صلة ما بالعمل الموازي لا تمرّ ثلاث دقائق لا ألقى فيها أحداً يريد أن يتحدَّث إليّ حديثاً أكثر شمولاً إلى حدٍّ ما بدون أن يقول لي: «ما الذي تريدوّن أن تصلوا إليه في الحقيقة بالعمل الموازي؟ فما عاد يوجد اليوم بلا ريب أعمال كبرى ولا رجال عظماء!».

وتدخَّل الشريف قائلاً: «أجل فهم بذلك يقصدون كلّ من عداهم فحسب! وأنا أعرف هذا وإنه ليبلغ مسمعي أيضاً. فكبار رجال الصناعة يشتمون السياسة التي تخفِّف عنهم جمارك الحماية بما يكفي والسياسيّون يشتمون الصناعة التي لا تبذل إلا القليل من المال للانتخابات».

واستأنف أولريش عرضه من جديد قائلاً: «صحيح جداً! فإنَّ الجراحين يعتقدون اعتقاداً جازماً كلّ الجزم أنَّ الجراحة حقَّقت تقدّماً منذ عهد بلروت إلاأنهم يقولون إنَّ سائر الطب وكل الأبحاث في الطبيعة قلّما تجدي الجراحة في شيء بل أودّ أن أزعم إذا كان حضرة الشريف يسمح لي بذلك إنَّ علماء اللاهوت أيضاً على يقين أن اللاهوت يعدّ على أيّ نحو من الأنحاء أوسع مِمّا كان أيام المهسيح».

ورفع الكونت لاينزدورف يده في اعتراض المحاذِر قائلاً: «إذاً فأنا أرجو المعذرة إذا كنت قد قلت شيئاً غير ملائم وما كان من الواجب أن يكون ذلك أيضاً على الإطلاق ذلك لأنّ ما أرمي إليه يبدو أنّه يعني شيئاً عاماً بالمطلق.

twitter @baghdad_library

لقد قلت إنَّ الجرّاحين يزعمون أنَّ البحث في الطبيعة لا يفي كلّ الوفاء بما يجب أن يكون مطلوباً منه. وإذا تحدّث المرء في مقابل ذلك إلى باحث في الطبيعة عن الحاضر فسيشكو من أنّه يودّ لو يرفع البصر قليلاً بصورة عامة غير أنّه ينتابه الملل في المسرح ولا يجد رواية تسليه وحافزاً. وإذا تحدّث المرء إلى أديب قال هذا إنّه لا يوجد إيمان. وإذا تحدّث المرء إلى رسام مادمت أريد أن أدع أهل اللاهوت الآن كان في وسعه أن يكون على يقين بالغ أنّه سيزعم أن الرسامين لا يستطيعون أن يعطوا أفضل ما عندهم في عصر يبلغ فيه الأدب والفلسفة هذا القدر من البؤس. على أن التسلسل الذي يُنْحي به الواحد بهذا على الآخر لا يكون هو نفسه دائماً بالطبع. غير أنّه يتّسم في كلّ مرّة بشيء من سِمة بيتر الأسود(١٢) إذا كان حضرة الشريف يعرف هذا أو سِمة الإشبين. أما القاعدة التي تكمن في أساس هذا أو القانون فما أنا بقادر على استخلاصهما! وإني لأخشى أنَّ يكون المرء مضطراً إلى القول إنَّ كلّ إنسان راضٍ على وجه الخصوص ولاسيما عن نفسه غير أنّه لا يشعر بالإرتياح بوجه عام من جراء أيّ سبب كونيّ دونما تعيين ويبدو أنَّ العمل الموازي إنما يقصد به إلى الكشف عن هذا».

وأجاب الشريف عن هذه الشروح بدون أن يتّضح حقاً ما كان يقصد بذلك قائلاً: «يا إلهي لا شيء سوى نكران الجميل!».

ومضى أولريش قائلاً: لقد بات لديّ آخر الأمر حقيبتان مملوءتان بالمقترحات الخطّية ذات الطبيعة العامة التي لم أجد بعد فرصة لإحالتها إلى حضرة صاحب السعادة ولديّ واحدة منها بعنوان: (عَوْدٌ الى. . . !). وذلك أن عدداً من الناس كثيراً ما يخبروننا إلى حدٍّ بعيد أنَّ العالم كان في العصور السالفة في نقطة أفضل مِمّا هو الآن وأنَّ العمل الموازي لا يحتاج إلا إلى

(١٢) Schwarzer Peter

إعادته إليها. وحين أغضُّ النظر عن المطالبة البديهيّة بالعودة إلى الإيمان تظل العودة إلى عصر الباروك والى العصر القوطي والى الحالة الطبيعيّة والى غوته ممثلةً بعدُ وكذلك إلى القانون الألماني والى النقاء الأخلاقي والى جملة من الأشياء الأخرى. وقال الكونت لاينزدورف: «أجل ولكنَّ ربّما كان بين هذه فكرة أصيلة ولا ينبغي للمرء أن يثبّطها؟».

«هذا جائز ولكنَّ كيف ينبغي للمرء أن يجيب؟ أتراه يقول: بعد النظر ملياً في كتابكم القيّم المؤرَّخ في كذا وكذا نرى في الوقت الحاضر أنَّ الأوان غير مناسب بعدُ لكي...؟ أم يقول: بعد قراءته باهتمام نرجو منكم بياناً مفصَّلاً حول رغباتكم بصدد إعادة تنسيق العالم بأسلوب الباروك أو العصر القوطي وهكذا دواليك؟».

وابتسم أولريش ولكنَّ لاينزدورف وجد أنّه مفرط في المرح بعض الشيء في هذه اللحظة وجعل يلفّ إبهاماً على الآخر بقوّة مستجمعة على سبيل المعارضة وكان وجهه ذو الشارب المفتول يذكِّر في قسوته التي اتخذها بعصر فالنشتاين. ثم صرّح تصريحاً كان شديد الجدارة بالتنويه إذ قال: «لا عزيزي الدكتور. في تاريخ البشريّة لا يوجد رجوع طوعي!».

على أنَّ هذا التصريح فاجأ قبل كلّ شيء الكونت لاينزدورف نفسه إذ كان يريد في الحقيقة أن يقول شيئاً مختلفاً تماماً. كان محافظاً وقد استاء من أولريش. وأراد أن يعلّق بقوله إنَّ الطبقة الوسطى قد أعرضت عن الروح العالمية للكنيسة الكاثوليكية إعراض المزدري وهي تعاني الآن من النتائج. وكذلك كان الأمر يوشك أن يصل إلى الثناء على عصور المركزية المطلقة حيث كان العالم مازال يُدار من قبل شخصيّات واعية للمسؤولية بموجب وجهات نظر موحدة. ولكنَّ خطر له دفعة واحدة بينما كان مايزال يبحث عن الكلمات أنّه خليق أن يفاجأ مفاجأة مزعجة حقاً إذا ما اضطر ذات صباح أن

twitter @baghdad_library

يستيقظ بدون حمام ساخن وخطوط حديدية. وكان مجرّد منادٍ إمبراطوري يجوب الشوارع راكباً بدلاً من صحف الصباح. وعلى هذا قال الكونت لاينزدورف في نفسه: «ما كان ذات مرّة فلن يكون مرّة أخرى بالطريقة ذاتها». وبينما كان يفكّر في ذلك أخذه العجب الشديد. ذلك لأنّه إذا افترض أنّه لا وجود في التاريخ لعودة طوعيّة إلى الوراء كانت البشريّة تشبه رجلاً تسوقه غريزة ترحال رهيبة قُدُماً إلى الأمام وليس أمامه مجال للعودة ولا بلوغ. وكانت هذه حالة جدّ جديرة بالنظر.

على أنَّ الشريف كان يتمتَّع بمقدرة فائقة على أن يمسك بيد موفّقة بفكّرتين يمكن أن تناقض إحداهما الأخرى مباعداً بينهما بحيث لا تلتقيان في وعيه أبداً. غير أنّه كان خليقاً أن يرفض هذه الفكرة التي كانت موجَّهة ضدّ كلّ مبادئه ولكنَّه كان قد أحسّ ميلاً معيّناً إلى أولريش وعلى قدر ما كانت واجباته تدع له من الوقت كان مِمّا يسبّب له السرور العظيم أن يشرح الموضوعات السياسية شرحاً يقوم على المنظور الصارم لهذا الرجل المتوقّد الذهن الذي أُوصيَ به خيراً والذي كان يقف بحكم كونه من الطبقة الوسطى موقف المتجنّب حيال مسائل العصر الكبيرة حقاً ولكنَّ حين يبدأ المرء ذات مرّة بالمنطق حيث تنتج الفكرة تلقائياً من الفكرة السابقة عليها فإنَّ المرء لا يعرف في النهاية أبداً كيف ينتهي هذا. ومن أجل ذلم لم يسحب الكونت لاينزدورف تصريحه بل نظر إلى أولريش بإمعان وهو صامت فحسب.

وتناول أولريش بعد ذلك حقيبة ثانية واستغل الفرصة ليناول الشريف كلتا الحقيبتين وشرع يشرح قائلاً: «لقد اضطررت إلى أن أجعل عنوان الثانية: إلى الأمام نحو. . . !». ولكنَّ الشريف هبّ واقفاً ووجدان وقته قد انقضى وجعل يرجو بإلحاح أن يُتْرَك استئنافُ ذلك لمرة أخرى حين يتبقّى مزيد من الوقت للتأمل. وقال وهو واقف: «ثم أنَّ ابنة عمّك سوف تدعو رهطاً من أكبر

الأدمغة شأناً لهذه الأهداف فاذهب إليها اذهب إليها رجاءً اذهب على نحو مؤكَّد ولست أدري أيسمح لي أنا أن أكون حاضراً هناك!».

وحزم أولريش الحقيبتين وكرّ الكونت لاينزدورف على عقبيه مرّة أخرى في ظلام إطار الباب وقال: «من الطبيعي أن تجعل التجربة الكبيرة كلّ الناس يخافون ولكنّنا سنوقظهم من سباتهم!» ولم يكن شعوره بالواجب يسمح له أن يخلِّف أولريش وراءه بدون عزاء.

twitter @baghdad_library

[٥٩]

تأمّلات موز بروجر

وفي هذه الأثناء كان موز بروجر قد رتّب أموره في سجنه الجديد على قدر ما أمكنه ذلك. فلم يكد الباب يُغلق حتى سمع مِنْ يزمجر في وجهه وقد هدّدوه حين احتجّ بالضرب إذا كان يتذكَّر جيّداً. وزُجَّ به في زنزانة منفردة. وكانت يداه تقيّدان عند النزهة في الساحة وكانت عيون الحرس متعلِّقة به وكان مقصوص الشعر على الرغم من أن الحكم عليه لم يكن قد بات ساري المفعول وذلك فيما يقال من أجل قياس طوله. وكانوا دلَّكوه بمعجون من الصابون المنتن بحجة التعقيم. وكان رحّالة شيخاً وكان يعرف ألّا شيء من هذا مسموح به. غير أنّه ليس من الأمور البسيطة أن يتشبث المرء بشرفه وراء الباب الحديدي. كانوا يصنعون به ما يشاؤون فطلب أن يدخلوه على مدير السجن وشكا إليه واضطر المدير إلى الإعتراف بأن بعض هذه الأمور لا ينسجم مع التعليمات ولكنَّه ليس عقوبة كما قال بل من قبيل الحذر. وشكا موز بروجر إلى كاهن المؤسَّسة ولكنَّ هذا كان شيخاً طيّباً كانت رعايته الروحية تتَّسم بنقطة الضعف المتقادمة وهي أنّها كانت تصاب بالعجز أمام الجرائم الجنسيّة. كان يشمئز منها اشمئزازاً ينطوي على عدم الفهم من قبل جسد لم يمسَسْ حتى حافتها بل تولّاه الفزع من أن موز بروجر أثار فيه بمظهره الشريف نقطة الضعف المتمثِّلة في التعاطف الشخصي فأحاله إلى طبيب المؤسَّسة بينما كان هو ذاته يرسل كشأنه في كلّ أمثال هذه الحالات رجاءً كبيراً إلى الخالق فحسب رجاءً لا يعرض لشيء من التفاصيل ويتحدَّث عن

ضروب الاختلاط والبلبلة في هذه الدنيا حديثاً بلغ من عمومه أنَّ موز بروجر كان في لحظة الدعاء مشمولاً بالحديث على قدم المساواة مع الهراطقة والملحدين. أما طبيب السجن فقال لموز بروجر إنَّ كلّ ما يشكو منه ليس على هذا القدر من السوء وضربه ضربة خفيفة تبعث على الإرتياح ولم يسمح لشيء أن يحمله على أن يتحرَّك للنظر في شكاواه. ذلك لأنّه إذا كان موز بروجر يفهم حقّ الفهم فهذا أمر فائض عن الحاجة مادامت مسألة هل هو مريض أم يتظاهر بذلك لم تجد جواباً عن طريق الكلية. وأحسّ موز بروجر وقد تولّاه الحنق أنَّ كلاً من هؤلاء تكلّم على النحو الذي يلائمه. وأن هذا الكلام كان هو الذي يمنحهم الطاقة لكي يتعاملوا معه كما يشاؤون. وكان يخالجه شعور الناس البسطاء بأن على المرء أنَّ يقطع ألسنة المثقَّفين. ونظر في وجه الطبيب ذي الندوب وفي وجه الكاهن الذي جفّ ماؤه من الداخل وفي وجه المدير الديواني الشديد الانشراح فرأى كلاً من هذه الوجوه ينظر في وجهه بطريقة مختلفة وكان يكمن في هذه الوجوه شيء مشترك بينها شيء لا يمكنه الوصول إليه وقد كان عدوَّه طوال حياته.

على أن القوّة التقليصيّة التي تحشر في الخارج كلّ إنسان بكبريائه حشراً مجهداً بين كلّ الأجساد الأخرى كانت تحت سقف السجن أكثر استرخاءً إلى حدٍّ ما على الرغم من كلّ الأنظمة حيث كان كلّ امرئ يعيش على الإنتظار وكان ظلّ من اللاواقعية يفرّغ العلاقة الحيَّة للبشر بعضهم مع بعض حتى عندما تتَّسم بالفظاظة والعنف. وقد استجاب موز بروجر لتخفيف حدَّة التوتر بعد الكفاح المتّصل بالتحقيقات بكلّ جسده القوي. وبدا في نظر نفسه كسنٍّ مقلقل. وكان يشعر بحكّة في جلده ويشعر بالتلوّث والبؤس. كان إرهافاً مفرطاً في الحساسية مؤلماً عصبيّاً رقيقاً على نحو ما كان يعتريه في بعض الأحيان. وكانت المرأة التي ورّطته في هذا تبدو له في صورة امرأة فاسدة

twitter @baghdad_library

خبيثة أمام طفل حين كان يقارنها بنفسه. ومع ذلك فلم يكن موز بروجر غير راضٍ على وجه الإجمال. لقد كان في وسعه أن يلاحظ من خلال أمور كثيرة أنّه يعدُّ هنا شخصيّة هامة وكان هذا يتملق غروره بل كانت الرعاية التي كان يلقاها كلّ السجناء بغير تمييز تبعث على ارتياحه. كان على الدولة أن تطعمهم وتُغسّلهم وتلبسهم وتعنى بعملهم وصحتهم وكتبهم ونشيدهم منذ أن أُدينوا بشيء ما على حين أنّه لم يفعل هذا قطّ من قبل. وكان موز بروجر يستمتع بهذه العناية وإن كانت صارمة مثل طفل أتيح له أن يرغم أمه على أن تُشْغَل به وهي غضبى غير أنّه لم يكن يرغب أن تطول. وكان تصوُّر أنّه قد يُخفَّف عنه الحكم إلى السجن مدى الحياة أو يُسلَّم مرّة أخرى إلى مستشفى المجانين يبعث فيه تلك المقاومة التي نحسّ بها نحن عندما تظل كلّ الجهود للخلاص من حياتنا تعود بنا المرة تلوَ الأخرى إلى أوضاع الحياة البغيضة ذاتها. وكان يعرف أن محاميه كان يسعى من أجل إعادة النظر في القضيَّة وأنّه من المفترض أن يعاد التحقيق معه غير أنّه كان يعتزم مقاومة ذلك في الوقت المناسب والإصرار على أن لا يُقتَل.

أما أن وداعه لا بدّ أن يكون لائقاً فقد كان ذلك أمراً ثابتاً عنده لأنّ حياته كانت كفاحاً من أجل حقه. وفي الزنزانة المنفردة كان موز بروجر يفكّر في ماهية حقه ولم يكن في وسعه أن يفصح عن هذا غير أنّه كان هو ما كان الناس يضنّون عليه به طوال حياته. على أن شعوره جعل يضطرم في اللحظة التي فكَّر فيها بذلك وتقوَّس لسانه وشرع في حركة كحركة الحصان بالخطوة الإسبانيّة وكان يريد بذلك أن يؤكّد عليه على هذا النحو بأسلوب نبيل. وجعل يقول في نفسه متمهّلاً على نحو غير عادي لكي يحدّد هذا المفهوم وكان يفكّر وكأنّه يتحدَّث إلى امرئ ما قائلاً: «الحقّ هذا عندما لا يقترف المرء ظلماً أو شيء كهذا أليس كذلك؟» ـ وفجأة خطر له أنَّ: «الحقّ هو العدالة». وهكذا كانت

المسألة كان حقه هو عدالته! ونظر إلى مضجعه الخشبي ليقعد عليه واستدار على نحو احتفاليّ وحاول عبثاً أن يزحزح المضجع المثبّت بالبُزالات على الأرض ثم هبط مرتدًّا. لقد ضنّ عليه الناس بعدالته! وتذكَّر المعلِّمة التي كان عندها وهو في السادسة عشرة. وكان قد رأى في منامه أنَّ شيئاً بارداً يبث هواءه نحو بطنه ثم توارى في جسده وقد صرخ وسقط عن سريره وفي الصباح التالي شعر أنّه محطّم في كلّ جسده. على أنَّ فتية آخرين معلمين قالوا له إنَّ المرء إذا ما أظهر لامرأة قبضة يد بحيث يطلّ الإبهام قليلاً بين السبابة والوسطى لم تستطع أن تقاوم. وشعر بالاختلاط في أفكاره وزعم هؤلاء جميعاً أنّهم جرّبوا ذلك ولكنَّ عندما كان يفكِّر في ذلك كانت الأرض تميد تحت قدميه أو كان يشعر أن رأسه أخذ يحلّ في مكان من رقبته غير الذي كان فيه في العادة. وجملة القول إنّه كان ينتابه شيء يفترق بمقدار عرض شعرة عن النظام الطبيعي ولم يكن بالمؤكَّد تماماً. وقال: «أيتها المعلِّمة أنا أودّ أن أصنع لك شيئاً جميلاً. . .» وكانا وحدهما وإذا هي تنظر في عينيه ولابد أنّها قرأت فيهما شيئاً ما وتردّ قائلة: «أغرب عن وجهي واخرج من المطبخ!».

وعلى أثر ذلك مدّ لها قبته مع الإبهام المطلّ من خلالها. غير أن السحر لم يحدث إلا نصف مفعوله فقد احمر وجه المعلِّمة حتى بات كالدم وضربته على وجهه بالملعقة الخشبيّة التي كانت في يدها بسرعة بلغ منها أنّه لم يستطع أن ينجو بجلده ولم يدرك ذلك إلا حين أخذ الدم يسيل على شفتيه. غير أنّه كان يتذكَّر هذه اللحظة الآن بدقَّة لأنّ الدم عاد أدراجه دفعة واحدة وجعل يسيل نحو الأعلى وصعد متجاوزاً العينين. وانقضّ على المرأة القويَّة التي أهانته على هذا النحو الشائن وجاء المعلّم أما ما حدث منذ هذا الوقت حتى اللحظة التي كان فيها يقف في الشارع على ساقيه المتأرجحتين وقد رميت أمتعته وراءه فكان كأنَّ أحداً مزّق منديلاً أحمر كبيراً إرباً إرباً. وهكذا سخر الناس من عدالته وضربوها وأخذ يضرب في الأرض من جديد. فهل يجد المرء العدالة

twitter @baghdad_library

في الشارع؟! لقدكانت كلّ النساء حقاً لامرئٍ ما وكل التفاح وكل المهاجع. أما رجال الشرطة وقضاة الأقاليم فكانوا أسوأ من الكلاب.

أما أيّ شيء هذا الذي كان الناس في الحقيقة يمسكون به دائماً بوساطته ولماذا كان يُزَجُّ به في السجون وفي مستشفيات المجانين فذلك ما لم يستطع موز برجر أبداً أن يستخلصه على الوجه الصحيح. وكان يحملق طويلاً في الأرض وفي زوايا زنزانته مجهداً. وكان يشعر شعور امرئ سقط منه مفتاح على الأرض. ولكنَّه لم يستطع أن يجده. وعادت الأرض والزوايا من جديد رماديّة مطابقة للواقع مشرقة بضوء النهار بعد أن كانت منذ هنيهة بعدُ كأرض الأحلام حيث ينبُت فجأة شيء أو إنسان حين تصدر كلمة. واستجمع موز بروجر كلّ منطقه. ولم يكن يستطيع أن يتذكّر تذكّراً دقيقاً إلا كلّ الأماكن التي بدأ فيها هذا. وقد كان خليقاً أن يحصيها ويصفها. كان هذا مرّة في لِنتْس وكان مرّة أخرى في برايلا. وكان فيما بين هاتين سنون. وأخيراً هنا في المدينة. كان يرى كلّ حجر أمامه على نحو يبلغ من الوضوح ما لا تكونه الحجارة في العادة أبداً. وكان يتذكّر أيضاً المزاج السيِّئ الذي كان يصحب هذا في كلّ مرّة وقد يستطيع المرء أن يقول: كأنَّ سمّاً كان يجري في عروقه بدلاً من الدم أو نحواً من ذلك. لقد كان يعمل مثلاً في الخلاء وكانت النساء يَمرُرْنَ به ولم يكن يحبّ النظر إليهن إذ كنَّ يعكّرْنَ صفوه ولكنَّ كانت نسوة جديدات يمررن بغير انقطاع. هنالك كانت عيناه آخر الأمر تتابعانهن باشمئزاز وكان هذا مرّة أخرى هكذا هذا التسريح للعينين وغضُّهما كما لو كانتا تتحرّكان ضمن إسفلت أو إسمنت متحجّر. ثم لاحظ أنَّ تفكيره أخذ يتثاقل وكان على أيَّة حال بطيء التفكير وكانت الكلمات تكلِّفه تجشّمه عناءً ولم يكن يملك أبداً ما يكفي من الكلمات وفي بعض الأحيان عندما كان يحادث أحداً كان يحدث أن ينظر هذا إليه فجأة نظرة المندهش ولا يدري مقدار ما تفيده الكلمة الواحدة

حين كان موز بروجر ينطق بها ببطء. وكان يحسد كلّ البشر الذين تعلَّموا منذ صباهم كيف يتحدَّثون بسهولة. كانت الكلمات تلتصق نكاية فيه بالحلق متشبِّثة به وذلك على وجه الخصوص حين يكون في أشدّ الحاجة إليها وكانت تنقضي عند ذلك في بعض الأحيان فترة لا يمكن تقديرها قبل أن ينتزع مقطعاً صوتياً ويمضي قُدُماً من جديد. ولم يكن من الممكن ردّ التفسير القائل إنَّ هذا ما عاد له بعدُ سبب طبيعيّ. ولكنَّ عندما كان يقول في المحكمة إنَّ الماسونيين أو السوعيِّين أو الاشتراكيِّين هم الذين يلاحقونه بهذه الطريقة ما كان يفهمه إنسان. والحقّ أنَّ رجال القضاء كانوا يستطيعون أن يتحدَّثوا حديثاً أفضل منه وكانوا يواجهونه بكلّ شيء ممكن غير أنّهم لم تكن لديهم فكرة عن الملابسات الواقعية.

وكان هذا إذا استغرق بعض الوقت تولّى موز بروجر الخوف. وليجرِّب امرؤٌ أن يجعل نفسه في الشارع ويداه مغلولتان ثم ينتظر ليرى كيف يتصرّف الناس! لقد كان الشعور بأن لسانه أو شيئاً كان يوجد فيه على مدى أعمق في الداخل كان كأنّه مقيّد بالغراء يسبِّب له اضطراباً يبعث على الأسى كان يضطر إلى تكلِّف الجهد لإخفائه أياماً بطولها. ولكنَّ كان يأتي عندئذ فجأة حدٌّ صارم حدٌّ يكاد المرء يستطيع أن يقول عنه إنّه عديم الصوت أيضاً. وكانت نسمة باردة تحضر دفعة واحدة أو يظهر في الجوّ على مقربة شديدة منه كرة كبيرة وتطير داخلة في صدره. وفي اللحظة ذاتها كان يشعر بشيء عليه أو في عينيه أو على شفتيه أو في عضلات وجهه. وكان يخيّم على المحيط كلّه ضمور واسْوِداد وبينما كانت المنازل ترقد فوق الأشجار ربّما كان عدد من القطط تنطلق مارقة من الأحراش واثبة مسرعة. وكان الأمر يستغرق ثانية فحسب ثم كانت هذه الحالة تنقضي.

twitter @baghdad_library

وبذلك فحسب بدأت في الحقيقة الفترة التي كانوا جميعاً يريدون أن يعرفوا شيئاً عنها ولا يكفّون عن الحديث عنها. كانوا يعترضون عليه بأكثر الاعتراضات خلوّاً من الجدوى وكان من المؤسف أنّه لم يكن يستطيع هو نفسه أن يتذكَّر تجاربه إلّا على نحو بعيد عن الإرهاف وتبعاً لدلالتها فحسب. ذلك لأنّ هذه الأوقات كانت دلالةً كلُّها! وكانت تستغرق في بعض الأحيان دقائق غير أنّها كانت في بعض الأحيان تدوم أياماً بطولها. ومن أجل البدء بهذه لأنَّها الأكثر بساطة ولأنها هي التي كان يمكن لقاض أن يفهمها وفقاً لرأي موز بروجر كان يسمع عندئذ أصواتاً أو موسيقى أو عزفاً أو أزيزاً وكذلك صخباً أو صليلاً أو طلقاً نارياً أو قصفَ رغْدٍ وضحكاً ونداءً وحديثاً وهمساً. وكان هذا يأتي من أيّ مكان. كان يستقر في الجدران وفي الهواء وفي الثياب وفي جسده. وكان ينطوي على انطباع مؤدّاه أنّه يحمل هذا معه في جسده مادام صامتاً ولا يكاد يعتدل مزاجه حتى يختفي ذلك في المحيط ولكنَّ غير بعيد كلّ البعد عنه أبداً أيضاً. وكان حين يعمل تهدئ روعه الأصواتُ على الأغلب بكلمات شديدة التقطُّع وجمل قصيرة وكان إذا فكَّر في شيء نطقت الأصوات به قبل أن يصل هو إليه أو قالت متخابثة نقيض ما كان يريده. ولم يكن في وسع موز بروجر إلا أن يضحك من أنّهم أرادوا أن يعدّوه من أجل ذلك مريضاً على أنّه كان هو نفسه يعامل هذه الأصوات معاملة لا تختلف عن معاملته للقرود. وكان يسلّيه أن يسمع ويرى ما كانت تصنعه إذ كان هذا أجمل إلى حدٍّ لا يقبل المقارنة من الأفكار الجافّة الثقيلة التي كان هو ينطوي عليها ولكنَّ عندما كانت تثير حنقه كثيراً كان يتولّاه الغضب. على أن هذا لم يكن إلا شيئاً طبيعياً في نهاية الأمر. ولما كان موز بروجر ينتبه إلى كلّ الكلمات التي يستعملونها من أجله انتباهاً جيّداً جداً على الدوام فقد عرف أنّ هذا يسمّى هَلْوَسة ووافق على أنّه يملك خاصّة الهلوسة هذه امتلاكاً يتقدَّم به على الآخرين الذين لا يقدِّرون عليها إذ كان يرى أيضاً كثيراً مِمّا لا يراه الآخرون

من مناظر طبيعية جميلة وحيوانات من الجحيم غير أنّه كان يجد الأهميّة التي كانوا يعلقونها عليها مبالغاً فيها جداً. وعندما كانت الإقامة في مستشفى المجانين تغدو مفرطة الإزعاج بالقياس إليه كان يزعم ببساطة أنّه مصاب بالدُوار فحسب. وكانت الأدمغة الذكيّة تسأله كم يبلغ ارتفاع الأصوات وكان هذا السؤال قليل التعقُّل فقد كان ما يسمع عالياً بالطبع أحياناً كقصف الرعد وكان في بعض الأحيان أدنى ضروب الهمس انخفاضاً غير أنَّ الآلام التي كانت تعذِّبه أحياناً كان يمكن أن تكون آلاماً لا تطاق أو مجرّد آلام يبلغ من خفَّتها أن تماثل الوهم. ولم يكن هذا هو المهمّ. فما كان ليستطيع في كثير من الأحيان أن يصف على وجه الدقة ما كان يرى ويسمع ويحسّ. ومع ذلك فقد كان يعلم ما كان عليه الأمر. كان ذلك شديد الوضوح أحياناً. وكانت الرؤى تأتي من الخارج ولكنَّ بريقاً من الملاحظة كان يقول في الوقت نفسه إنّها كانت مع ذلك تصدر عنه هو ذاته. وكان المهمّ أنّه ليس مِمّا يدلّ على شيء مهم أبداً أن يكون شيء ما في الخارج أم في الداخل ففي حالته كان هذا كالماء الرائق على كلا الجانبين من جدار زجاجي شفّاف. ولم يكن موز بروجر في أوقاته الكبرى يلقي بالاً إلى الأصوات والرؤى بل كان يفكِّر. وكان يُسمَّى هذا بهذه التسمية لأنّ هذه الكلمة كانت تُحْدِث أَثَرها فيه على الدوام. وكان يفكِّر تفكيراً أفضل مِمّا يفعل الآخرون إذ كان يفكِّر ظاهراً وباطناً وكان يُفَكَّر في داخله خلافاً لإرادته وكان يقول إنَّ الأفكار تُصْطَنع له. وبدون أن يفقد تعقّله الرجولي البطيء كانت تثيره حتى أقلّ الأمور الثانوية شأناً مثلما يحدث لامرأة عندما ينعقد اللبن في ثدييها. وكان تفكيره ينساب عندئذٍ كجدول ترفِّده مئات من الجداول المتواثبة عبر مرج كثيف. وكان موزبروجر قد أطرق برأسه الآن، وجعل يرسل النظر الى الخشب من خلال أصابعه. وخطر بباله «أنّ الناس هناك يسمّون السنجاب «قطة البلّوط»، ولكن ينبغي أن يجرّب أحد ذات مرة أن يقول في المحكمة، بالجدّ الحقيقي على لسانه وفي

twitter @baghdad_library

وجهه، «قطة البلّوطات»! إذاً لرفعوا جميعاً أبصارهم كما لو وقعت طلقة حادة في وسط نار من نيران المناوشة التي تخرج ريحاً في مناورة هجومية! أما في هيسّن فيقولون: ثعلب الشجرة، ومثل هذا يعرفه الانسان الكثير الأسفار. وهنا أتى أطباء النفس بالعجائب، وقد أخذهم الفضول إذ عرضوا على موزبروجر صورة ملّونة لسنجاب، فأجاب على أثر ذلك: «هذا ثعلب، أو ربما كان أرنباً، ومن الممكن أن يكون أيضاً قطة أو نحو ذلك». وكانوا يسألون عندئذٍ بسرعة كبيرة، كل مرة: «كم تساوي أربعة عشر زائد أربعة عشر؟»، وكان يجيبهم بحذر: «حوالي ثمانية وعشرين إلى الأربعين». وكانت كلمة «حوالي» هذه تسبّب لهم مصاعب، كان موزبروجر يبتسم لها ابتسامة الرضى. ذلك لأن هذه مسألة بسيطة كل البساطة، وهو يعرف أيضاً أن المرء يصل الى الثمانية والعشرين عندما يتابع منطلقاً من الأربعة عشر بمقدار أربعة عشر، ولكن من تراه يقول أن المرء يجب أن يظل واقفاً هناك؟!. وتواصل نظرة موزبروجر تطوافها الى مدى أبعد كنظرة رجل بلغ ذروة رابية مرتسمة في السماء، وهو يرى الآن أن هناك ذُرى مماثلة لرواب وراءها بعد، وعندما لا تكون قطة البلّوط قطة، ولا ثعلباً، ويكون لها بدلاً من القرن[١٣] أسنان كالأرنب الذي يفترسه الثعلب، فإن المرء لا يحتاج إلى أن يتناول المسألة بكل هذه الدقة، غير أنها محبوكة بأي طريقة من هذا كله، وهي تجري فوق الأشجار: ولم يكن في وسع المرء، تبعاً لخبرة موزبروجر وقناعته، أن يستخرج شيئاً وحده، إذ أن الواحد معلّق بالآخر. وكان قد حدث في حياته أن قال لفتاة «فمك الوردي الجميل!» وإذا الكلمة تنحلّ دروز خياطتها فجأة، وينشأ شيء بالغ الإيلام. فقد بات الوجه رمادياً، كالتراب الذي يحتم عليه

(١٣) كلمة قرن هنا مأخوذة من كلمة سنجاب بالألمانية Eichhörnchen إذ تتركّب الكلمة من كلمتين إحداهما بمعنى (قرن). (المترجم)

الضباب. وبرزت وردة على جذع طويل، هنالك كان إغراء استلال سكين وقطعها، أو تسديد ضربة إليها، لكي تعود إلى الوجه من جديد، كبيراً إلى حد هائل. ولا ريب أن موزبروجر لم يكن يستلّ سكينه على الفور دائماً. بل لم يكن يفعل هذا إلا حين لا يعود لديه سبيل آخر للخلاص. وكان في العادة يستعمل كل طاقته العملاقة ليحافظ على تماسك العالم.

وكان يستطيع إذا اعتدل مزاجه أن ينظر في وجه رجل وأن يتعرَّف فيه على وجهه هو كما ينعكس من جدول ضحل بين صغار السمك والحجارة الناصعة. أما إذا ساء مزاجه فلم يكن يحتاج إلا إلى أن يدقّق بصورة عابرة فحسب في وجه الرجل وكان يتبيّن له أنّه هو الرجل ذاته الذي كان قد نشب النزاع بينه وبينه في كلّ مكان مهما تنكّر كلّ مرّة في وضع جديد. فبماذا يريدون أن يعترضوا عليه؟! إننا نتنازع جميعاً مع الرجل ذاته تقريباً. ولو حقّق المرء في ماهية البشر الذين نظلّ نتعلّق بهم بغير وجه معقول لكان لابدّ أن يتبيّن أنّه الرجل الذي عنده سن المفتاح الذي يوجد عندنا قفله. وفي الحب؟ ألّا ما أكثر البشر الذين ينظرون كلّ يوم في الوجه المحبوب ذاته غير أنّهم لا يستطيعون أن يقولوا حين يغمضون أعينهم كيف يبدو. أو حتى بدون الحبّ والكراهية؛ ما أكثر التغيّرات التي تتعرّض لها الأشياء بغير انقطاع تبعاً للعادة والمزاج والموقف! وما أكثر ما يحترق السرور ويبرز نواة من الحزن لا يمكن تخريبها! وما أكثر ما ينهال إنسان على آخر بالضرب في غير مبالاة وقد كان يمكن كذلك أن يدعه وشأنه. فالحياة تكوّن طبقة سطحية تتظاهر بأن ليس من الممكن أن تكون سوى ما هي عليه ولكنَّ الأشياء تغلي وتموج تحت إهابها. وكان موز بروّجر يقف دائماً وقدماه على كتلتين ترابيتين وهو يمسك بهما وهو يسعى جاهداً بأسلوب متعقّل إلى اجتناب كلّ ما يمكن أن يشوّشه ولكنَّ في بعض الأحيان كانت كلمة تنبثق في فمه. ويا لها من ثورة ويا له من حلم

twitter @baghdad_library

بالأشياء كانا يتدفقّان من كلمة مركّبة اعتراها البرد وخمد أوارها إلى هذا الحد مثل هُرَيْرَة البلوط أو الشفة الوردية!.

وعلى حين كان يجلس في الزنزانة على مقعده الطويل الذي كان في الوقت نفسه سريره ومنضدته كان يشكو من تربيته التي لم تعلّمه كيف يعبّر عن تجاربه كما يجب أن يكون التعبير. على أنَّ المخلوقة الضئيلة ذات العيون الصغيرة التي كانت ماتزال تسبِّب له حتى الآن بعد أن مضى عليها وقت طويل تحت التراب قدراً كبيراً من المتاعب كانت تثير غيظه. كانوا جميعاً إلى جانبها. ونهض متثاقلاً. وكان يشعر بهشاشته كأنه خشب متفحّم وكان قد عاوده الجوع وكان طعام المؤسَّسة أقلّ مِمّا ينبغي بالنسبة إلى الرجل العملاق ولم يكن يملك نقوداً لتحسينه. وفي مثل هذه الحالة كان من المستحيل أن يتمكَّن أن يتذكّر كلّ ما كانوا يريدون معرفته منه. وكان قد طرأ على كلّ حال تغيير على مدى أيام وأسابيع مثلما يحلّ آذار أو نيسان وفوق ذلك كانت القصّة قد حدثت آنذاك. ثم أنّه ما كان يعرف عنها أكثر مِمّا ورد في التقرير بل أنّه لم يعرف كيف وصل هذا إلى هناك. أما الأسباب والتقديرات التي كان يتذكّرها فكان قد قالها أثناء التحقيق ذاته. ولكنَّ ما كان قد حدث بالفعل كان يبدو له كأنّما تُلِيَ فجأة بطلاقة شيء بلغة أجنبية وقد أسعده جداً ولكنَّه ما عاد يستطيع أن يكرهه. وقال موز بروجر في نفسه:

«ترى هل يكون لهذا كلّه نهاية ما في أقرب وقت ممكن!».

[٦٠]

نزهة في دولة الأخلاق المنطقيَّة

على أنَّ ما كان يمكن قوله عن موز بروجر من الوجهة القانونية كان يمكن أن يقال في جملة. كان موز بروجر يمثِّل واحدة من تلك الحالات القصوى من القضاء والطبّ الشرعي المعروفة أيضاً لدى العامّة في صورة حالات من ضعف المقدرة على التمييز.

ومما يميّز هؤلاء التعساء أنّهم لا يتمتَّعون بصحة ناقصة فحسب بل يعانون أيضاً من مرض يشير إلى النقص. والطبيعة تنطوي على إيثار غريب لإخراج أمثال هؤلاء الأفراد بأعداد وفيرة. والطبيعة لا تقوم بقفزات فهي تحبّ الحالات الانتقاليّة وهي تدع العالم على الإجمال في حالة انتقالية بين الضعف العقلي والصحة غير أنَّ القضاء لا يلاحظ هذا. وهو يقول: إنَّ الإنسان إما أن يكون على استعداد للسلوك المخالف للقانون وإما ألّا يكون كذلك إذ لا وجود لشيء ثالث ومتوسِّط بين نقيضين. فهو يغدو بهذه المقدرة مستأهلاً للعقوبة وبهذه الخاصّة المنطوية على استئهال العقوبة عنده يصبح شخصاً قانونياً وبحكم كونه شخصاً قانونياً يسهم في الجميل الذي يسديه القانون. ومن لم يفهم هذا على الفور فلينظر في الفروسية. فعندما يسلك الحصان سلوك المجنون لدى كلّ محاولة لركوبه يعامل برعاية خاصة فينال أكثر الأعنّة ليونة وأفضلَ الفرسان وأكثر الأعلاف نقاءً ويحظى بأكثر ضروب المعاملة صبراً. وعندما يقترف فارس في مقابل ذلك إساءة يزج به في قفص مملوء بالبراغيث ويمنع عنه الطعام ويوضع في الأصفاد. وتبرير هذا الفرق يكمن في

twitter @baghdad_library

أن الحصان ينتمي إلى مجرّد المملكة الحيوانية التجريبية بينما يشترك الشماسُ في مملكة الأخلاق المنطقيّة. وبهذا المعنى يمتاز الإنسان على الحيوان ويجوز للمرء أن يضيف قائلاً: على المريض العقلي أيضاً بمقدرته على أن يسلك بالنظر إلى خصائصه الفكريّة والأخلاقية سلوكاً مخالفاً للقانون وأن يرتكب جريمة؛ ولما كان استحقاق العقوبة هو تلك الصفة التي ترقى به إلى مستوى الإنسان الأخلاقي فإنه يغدو من المفهوم أنَّ رجل القانون لا بدّ أن يتشبّث بها تشبثاً حديدياً.

ويضاف إلى ذلك مع الأسف أن أطباء النفس الشرعيين الذين يفترض فيهم أن يتصدّوا لهذا يكونون في العادة أكثر خوفاً في مهنتهم إلى حدٍّ بعيد من رجال القضاء فهم لا يدخلون في عداد المرضى الحقيقيين إلا أولئك الذين لا يستطيعون شفاءهم الأمر الذي يعدّ مبالغة متواضعة ذلك لأنهم لا يستطيعون شفاء الآخرين أيضاً وهم يفرّقون بين الأمراض العقلية غير القابلة للشفاء وبين تلك التي تتحسّن تلقائياً بمعونة الرب بعد بعض الوقت وأخيراً تلك التي لا يستطيع الطبيب أيضاً أن يشفيها في الحقيقة ولكنَّ المريض يستطيع أن يتجنّبها وذلك بالطبع مع افتراض أن تحدّث المؤثّرات والاعتبارات الصحيحة أثرها عليه عن طريق القضاء والقدر العلويّ في الوقت المناسب. وهذه المجموعة الثانية والثالثة لا تقدّم إلّا أولئك المرضى ذوي النقص الذين يعاملهم مَلاك الطب معاملة المرضى في الحقيقة عندما يأتون إليه في الممارسة الخصوصيّة والذين يُسْلِمهم مع ذلك لملاك القانون على وَجَل حين يصطدم بهم في الممارسة القضائية.

وقد كان موز بروجر يمثّل مثل هذه الحالة وكانوا قد احتجزوه خلال حياته الشريفة التي كانت تتخلّلها جرائم سكر رهيب بالدم في مستشفيات المجانين قَدْرَ ما تركوه مطلق السَراح وعُدَّ مصاباً بالشلل ومصاباً بجنون الارتياب

ومصاباً بالصرع ومصاباً بالإكتئاب الجنوني قبل أن يعيده إلى صحته من جديد أثناء التحقيق الأخير طبيبان شرعيان يتمتَّعان بالوجدان على نحو خاص. ولم يكن يوجد بالطبع في تلك الأيام في القاعة الكبرى الغاصّة بالبشر فرد واحد بمن في ذلك هذان لم يكن على يقين أنَّ موز بروجر مريض بأية طريقة من الطرق ولكنَّ لم تكن الطريقة التي تتماشى مع الشروط التي وضعها القانون. وكان يجوز للأدمغة ذات الوجدان أن تعترف بها. ذلك لأنّ المرء عندما يكون مريضاً بصورة جزئية فهو في نظر معلِّمي القانون سليم بصورة جزئية أيضاً. ولكنَّ إذا كان المرء سليماً جزئياً كان على الأقل قادراً على التمييز جزئياً. وإذا كان المرء قادراً على التمييز جزئياً كان قادراً عليه بصورة كاملة لأنّ المقدرة على التمييز كما يقولون هي حالة الإنسان التي يكون فيها متمتعاً بالمقدرة على التصميم على هدف معيَّن. ومثل هذا التصميم لا يمكن للمرء أن يملكه ويفتقده في الوقت نفسه.

والحقّ أنَّ هذا لا يستبعد وجود أفراد تجعل أحوالهم واستعداداتهم من العسير عليهم أن يقاوموا «الدوافع الأخلاقية» وأن يجدوا «المنعطف المفضي إلى الحيز» كما يسمِّي ذلك رجال القضاء وقد كان موز بروجر مثلَ هذه الشخصيّة التي كانت عندها الظروف التي لا تؤثّر بعدُ في امرئ آخر على الإطلاق تفضي إلى «التصميم» على عمل يستوجب العقوبة. ولكنَّ طاقاته الذهنية والعقلية كانت أوّلاً في نظر المحكمة غير مصابة بأذى إلى حدٍّ أنّه كان من الممكن مع استعمالها أن يظلّ الفعل غير متحقّق بالقدر ذاته ولم يكن يوجد بناء على ذلك سبب لاستبعاده من التراث الأخلاقي للمسؤولية. ومن الناحية الثانية فإنَّ الرعاية المنظَّمة للقانون تقتضي أن يعاقب كلّ عمل آثم عندما يُقتَرَف عن معرِّفة وقصد. ومن الناحية الثالثة فإنَّ المنطق التشريعيّ يفترض أن يكون الحد الأدنى من القدرة على التمييز والمقدرة على التصميم التلقائي على الفعل

twitter @baghdad_library

متوفِّراً عند كلّ المرضى العقليّين باستثناء أولئك التعساء كلّ التعاسة الذين يخرجون لسانهم عندما يُسألون عن حاصل سبعة في سبعة أو يقولون «أنا» عندما يفترض فيهم أن يذكروا اسم صاحب الجلالة الإمبراطورية أو الملكية وما كانت الحاجة لتمسَّ إلى إجهاد خاص للذكاء وقوة الإرادة للتعرف على السمة الإجرامية للفعل ومقاومة الدوافع الإجرامية. ولا ريب أن هذا هو أقلّ ما يجوز للمرء أن يطالب به أفراداً ينطوون على كلّ هذه الخطورة!.

وإنما تشابه المحاكمُ الأقبيةَ التي ترقد فيها حكمةُ أوائل الأوائل في القوارير ويفتح المرء هذه فيودّ لو يبكي من فرط استحالة الاستمتاع بالدرجة القصوى الأكثر تخمُّراً من درجات الاجتهاد البشري في الدقة قبل أن تكتمل. ومع ذلك فهي تبدو كأنّها تُسكِر مَنْ لم يتمرّسوا بها. ومن الظواهر المعروفة أن مَلاك الطب إذا استمع إلى أقوال رجال القضاء وقتاً طويلاً نسيَ في الكثير الكثير من الأحيان رسالته الخاصّة وعندئذ يطبق جناحيه مُهَفْهِفاً بهما ويسلك في قاعة المحكمة سلوك الملاك الاحتياطي للتشريع.

[٦١]

مثال المقالات الثلاث أو حُلُم الحياة الدقيقة

وبهذه الطريقة كان موز بروجر قد وصل إلى الحكم عليه بالإعدام ولم يكن يدين إلّا لنفوذ الكونت لاينزدورف وعاطفته الودّية نحو أولريش في وجود الأمل في إعادة النظر مرّة أخرى في حالته العقلية. ومع ذلك فلم يكن أولريش ينوي بحال من الأحوال أن يهتمّ بمصير موز بروجر في تطوّره اللاحق أيضاً. وقد كان المزيج المثبّط للهمّة من القسوة والمعاناة الذي يمثّل طبيعة أمثال هؤلاء البشر غير مستحبّ عنده شأنه في ذلك شأن المزيج من الدقة وعدم التبصُّر الذي يكوّن سمة الأحكام التي جرت العادة أن تصدر في حقهم. وكان يعرف على وجه الدقة النظرة التي سيكون عليه أن ينظرها إليه لو نظر في الحالة نظرة موضوعية والإجراءات التي يمكن للمرء أن يجرّبها مع أمثال هؤلاء البشر الذين لا يلائمهم دخول السجن ولا إطلاق السراح كما لا تكفيهم مستشفيات المجانين أيضاً. ولكنَّ كان حاضراً في ذهنه على النحو ذاته أنَّ آلافاً من البشر الآخرين كانوا يعرفون هذا أيضاً وأنَّ كلّ سؤال من أمثال هذا يناقش من قبلهم بغير انقطاع ويُقَلَّب على وجوهه التي يكون له فيها إسهام خاص وأنَّ الدولة سوف تقتل موز بروجر آخر الأمر لأنّ هذا يُعدّ في مثل هذه الحالة من نقص التكوين هو الأوضح والأرخص والأكثر أمناً ببساطة. وقد يكون من قبيل السلوك الفظ أن يرضى المرء بذلك ولكنَّ وسائل المواصلات السريعة أيضاً تقتضي من التضحيات أكثر مِمّا تقتضيه كلّ نمور الهند. والواضح أن العقلية

twitter @baghdad_library

اللامبالية والخالية من الضمير وغير المتبصّرة التي نحتمل بها هذا هي التي تمكّننا على الجانب الآخر من أوجه النجاح التي لا يمكن إنكارها علينا.

وهذه الحالة الفكريّة التي تتّسم بحدَّة نظر بالغة تجاه ما هو أقرب وبالعمى البالغ تجاه المجموع تجد أهمّ تعبير عنها في مَثَلٍ أعلى يمكن للمرء أن يسمِّيه المثل الخاصّ بعمل حياة يتألّف مِمّا لا يزيد على ثلاث مقالات. فهناك أعمال فكريّة حيث لا تكون الكتب الكبيرة هي التي تكوّن كبرياء الرجل بل المقالات الصغيرة. فإذا اكتشف امرؤٌ على سبيل المثال أن الحجارة قادرة على أن تتكلَّم ضمن ظروف لم تجرِ ملاحظتها بعدُ فلن يحتاج إلا إلى القليل من الصفحات لتصوير ظاهرة انقلابية كهذه وتفسيرها. أما الفكرة الجيّدة فيمكن للمرء في مقابل ذلك أن يكتب عنها المرة بعد الأخرى وليس هذا على الإطلاق مجرّد شأن من شؤون المثقّفين. ذلك لأنّه يعني منهجاً لا يخرج المرء معه أبداً بصورة واضحة تجاه أهمّ مسائل الحياة. وقد يمكن للمرء أن يقسم أعمال البشر تبعاً لعدد الكلمات التي تحتاج إليها فكلّما ازدادت هذه كان ذلك أسوأ بالقياس إلى طبيعتها. وما كانت كلّ المعارف التي أفضت بجنسنا من ارتداء الجلود إلى طيران الإنسان لتملأ مع براهينها في حالتها الجاهزة أكثر من مكتبة مراجع على حين أنَّ خزانة كتب بحجم الأرض ستقصّر تقصيراً بعيداً عن أن تكون كافية للإحاطة بكلّ ما تبقّى، هذا مع صرف النظر تماماً عن المناقشة المستفيضة جداً والتي لم تجرِ بالقلم بل بالسيف والأغلال. وقد يكون من الأفكار المعقولة أننا نمارس عملنا البشري ممارسة غير عقلانية إلى أقصى الحدود عندما لا نتناوله بأسلوب العلومِ الذي كان له السَبَق في طريقته بهذه الصورة النموذجية.

على أن هذا كان يمثّل بالفعل أيضاً الحالة النفسيّة والإستعدادَ الخاصّين بعصرٍ ـ بعدد من السنين لا يكاد يبلغ العقود ـ كان أولريش قد شهد فيه شيئاً

بعدُ منهما. وكان المرء يفكِّر في ذلك في تلك الأيام. ولكنَّ هذا «المرء» يمثِّل عن قصدٍ إفادةً هائلة. فما كان للمرء أن يقول مَنْ تراه كان يفكِّر على هذا النحو وكم كان عدد هؤلاء. وعلى كلّ حال فقد كان هذا يشغل الأذهان ـ وهو أنّه ربّما كان في وسع المرء أن يعيش حياة دقيقة. وسوف يسأل المرء اليوم ماذا يعني هذا؟ وسوف يكون الجواب بلا ريب هو أنَّ المرء يستطيع أن يتصوّر عملَ حياةٍ مؤلّفاً من ثلاث مقالات مثلما يستطيع أن يتصوّره أيضاً مؤلّفاً من ثلاث قصائد أو أحداث تكون فيها القدرة الشخصيّة على العمل مصعَّدة إلى الحد الأقصى. وهذا خليق أن يعني بناء على ذلك على وجه التقريب شيئاً من قبيل أن يسكت المرء حيثما لا يكون لديه شيء يقوله وألّا يعمل إلّا ما هو ضروري حيثما لا يكون لديه شيء خاص يبتغيه. على أنَّ أهمّ الأمور هو أن يظلّ بغير شعور حيثما لا ينطوي المرء على الشعور الذي لا يوصف وأن يبسط ذراعيه وأن ترتفع به موجة من موجات الإبداع! وسوف يلاحظ المرء الشطر الأكبر من حياتنا النفسيّة لا بدّ أن يتوقَّف بذلك. ولكنَّ ربّما لم يكن هذا خسارة مؤلمة أيضاً. وذلك أن الأطروحة القائلة إنَّ الرواج الكبير للصابون يشهد على الطهارة الكبيرة ليست في حاجة إلى أن تنطبق على الأخلاق حيث تكون الجملة الأحدث أكثر صِحَّةً وهي أن القسر الراسخ على الغسل يشير إلى أحوال داخلية غير نظيفة تماماً. وسيكون من المحاولات المجديّة أن يقصر المرء استهلاك الأخلاق على الحالة القصوى وأن يعزم على الاكتفاء بأن يكون أخلاقياً في الحالات الاستثنائية فحسب حيث يكون في ذلك ضمان لها وألّا يفكِّر في كلّ الحالات الأخرى في عمله تفكيراً مختلفاً عن تفكيره في المُعايرة الضرورية لأقلام الرصاص أو البُزالات. وعندئذ لن يحدث الكثير من الأمور المستحسنة قطعاً ولكنَّ ستحدث بعض الأمور الأفضل فلن تبقّى هناك موهبة بل ستبقّى العبقرية فحسب وسوف تختفي من صور الحياة صور النَسْخ الباهتة التي تنشأ عن المشابهة الشاحبة التي تكون بين الأحداث

twitter @baghdad_library

والفضائل والتي يحلّ محلّها التوحُّد المُسْكِر مع القداسة. وبكلمة موجزة سوف يتبقّى من كلّ قنطار من الأخلاق ميليغرام من الخلاصة الجوهرية التي تظل باعثة على السعادة بصورة سحرية في جزء من مليون جزء من الغرام.

ولكن المرء سيعترض قائلاً بأنَّ هذا مجرّد حلم! أجل إنّه لكذلك بلا ريب. فالأحلام تعني على وجه التقريب ما يعادل الإمكانات. وذلك أن كون الإمكانات ليست واقعاً لا يعبّر عن شيء آخر سوى أنَّ الظروف التي تتشابك معها في الوقت الراهن تمنعها من ذلك وإلا لكانت استحالةً فحسب فإذا حرَّرها المرء من قيدها وأتاح لها التطوّر نشأت المدينة الفاضلة. ويكون من قبيل العملية المماثلة أن يتأمّل باحث تغيُّر عنصرٍ ما ضمن ظاهرة مركّبة ويستخلص من ذلك نتيجته. فالمدينة الفاضلة تعني التجربة التي يتمّ فيها ملاحظة التغيّر الممكن لعنصر ما والآثار التي يمكن أن يحدثها في تلك الظاهرة المركَّبة التي نسمّيها الحياة. فإذا كان العنصر الملاحَظ هو الدقة ذاتها أخرجها المرء وتركها تتطوّر. وإذا كان المرء ينظر إلى هذا على أنّه عادة من عادات التفكير وموقف من مواقف الحياة وترك طاقته النموذجية تحدّث أثرها في كلّ ما يتّصل به فسوف يصل المرء إلى إنسان يحدث فيه ارتباط متناقض بين الدقة وعدم التحديد فهو يتمتَّع ببرودة الدم تلك المقصودة النزيهة التي يصورها مزاج الدقة. ولكنَّ كلّ شيء يتجاوز هذه الصفة يكون غير محدد. أما العلاقات الراسخة في الداخل التي تضمنها أخلاقٌ ما فقلما تكون لها قيمة عند الرجل الذي يتَّجه خياله نحو التغيّرات. وفي النهاية فعندما ينتقل مطلب الإشباع المتناهي دقةً وعظمةً من الميدان الذهني إلى مجال العواطف تتبيّن كما سبقت الإشارة النتيجة الباعثة على الوجل وهي أنَّ العواطف تختفي ويظهر محلها شيء من الفضيّلة مشابه للنار الأولى ـ وهذا هو حلم الدقة. ولن يعرف المرء كيف ينبغي لهذا الإنسان أن يقضي يومه طالما أنّه لا يستطيع بلا

ريب أن يظلّ غارقاً على الدوام في عمليّة الإبداع وسيكون قد ضحّى بنار الموقد الخاصّة بالأحاسيس المحدودة من أجل سعير نار خيالية؟. ولكنَّ هذا الإنسان الدقيق متوفِّر في هذه الأيام! فهو لا يعيش في الباحث في صورة إنسان ضمن إنسان فحسب بل يعيش أيضاً في التاجر وفي المنظِّم وفي الرياضيّ وفي المهندس الفنيّ وإن كان ذلك أيضاً بصورة مؤقَّتة خلال تلك المواعيد اليوميّة الرئيسيّة فحسب وهي التي لا يسمّونها حياتهم بل مهنتهم. ذلك لأنّ من يتناول كلّ شيء تناولاً عميقاً وعلى نحو خال من الحكم المسبق لا يشمئز من شيء اشمئزازه من فكرة تناوله لنفسه ذاتها تناولاً عميقاً. ولا يمكن الشك مع الأسف في أنّه سوف ينظر عندئذ إلى المدينة الفاضلة الخاصّة بذاته على أنّها محاولة لاأخلاقية ارتكبت حيث الأفراد لهم شغل جديّ.

من أجل ذلك كان أولريش قد ظلّ وحيداً إلى حدٍّ بعيد دائماً طوال حياته في مسألة هل ينبغي للمرء أن يكيّف سائر المجموعات مع المجموعة الأقوى من مجموعات الأعمال الداخلية أم لا وبعبارة أخرى هل يستطيع المرء أن يجد لشيء حدث ويحدث لنا هدفاً ومعنى.

twitter @baghdad_library

[٦٢]

والأرض أيضاً وأولريش على وجه التحديد يدينان بالولاء لطوباوية مذهب المقالات

على أن الدقة من حيث هي موقف إنساني تقتضي أيضاً عملاً ووجوداً دقيقين فهي تقتضي عملاً ووجوداً بالمعنى الكامن في ادعاء أقصى. ولكنّ يجب القيام بتمييز هنا.

وذلك أنّه لا يوجد في الواقع الدقة الخياليّة فحسب (التي لمّا توجدْ بعدُ على الإطلاق في الواقع) بل توجد دقّة متحذلقة وهاتان كلتاهما تتمايزان بأنّ الخياليّة تتمسك بالوقائع بينما تتمسك المتحذلقة بالتكوين الخيالي ومثال ذلك أنّ الدقة التي انساق الفكر الغريب لموز بروجر إلى نسقٍ من مفاهيم قانون يبلغ عمره ألفي عام كانت تحاكي الجهود المتحذلقة لمجنون يريد أن يطعن طائراً يطير طيراناً حراً بإبرة. غير أنّها لم تكن تحفل على الإطلاق بالحقائق بل بالمفهوم الخياليّ للتراث المتّصل بالحق. أما الدقة التي كشف عنها أطباء النفس في سلوكهم حيال المسألة الكبرى وهي هل يجوز أن يحكم موز بروجر بالموت أم لا فقد كانت دقيقة على وجه الإطلاق إذ لم تجرؤ على أن تقول أكثر من أن صورة مرضه لا تتماشى مع صورة من صور المرض التي تمت ملاحظتها حتى الآن على وجه الدقة وتركت متابعة البتّ في المسألة لرجال القضاء. إنّها صورة للحياة قدّمتها قاعة المحكمة في هذه المناسبة لأنّ كلّ البشر المفعمين بالحيّوية في الحياة الذين هم خليقون أن يجدوا أن من غير الممكن على الإطلاق أن يستعملوا سيّارة يتجاوز عمرها خمس سنوات أو أن

يدَّعوا مرضاً يعالج طبقاً للمبادئ التي كانت هي الأفضل قبل عشر سنوات والذين يكرّسون فوق هذا كلّ وقتهم بإرادتهم وعلى غير إرادة منهم لتنمية أمثال هذه المخترعات وهم مشغولون بعقلنة كلّ ما يدخل في مجالهم وأحب الأمور إليهم أن يدَّعوا مسائل الجمال والعدالة والحب والإيمان وباختصار كلّ مسائل الإنسانية مادامت لا تنطوي على مشاركة تجارية في هذا الصدد إلى نسائهم ومادامت هذه ماتزال غير كافية تماماً للإصغاء إلى نوع من الرجال يحدِّثونهن عن كأس الحياة وسيفها في تعرّجات تبلغ الألف عام وهن يصغين إليها في طيش وملل وريب بدون أن يصدقنها وبدون أن يفكِّرن في إمكان صياغتها على نحو مختلف أيضاً. وعلى هذا فهناك في الواقع حالتان من أحوال الفكر لا تصارع إحداهما الأخرى فحسب بل توجدان في العادة إحداهما إلى جانب الأخرى وذلك ما هو أكثر سوءاً بدون أن تتبادلا كلمة سوى تأكيدهما المتبادل بين نفسَيْهما إنهما مرغوبتان كلتاهما كلٌّ في مكانها. أما الأولى فتكتفي بأن تكون دقيقة وتتمسك بالحقائق وأما الأخرى فلا تكتفي بذلك بل تنظر دائماً إلى المجموع الكلّي وتستقي معارفها مِمّا يسمّى بالحقائق الأبدية والكبرى. فتظفر الأولى من وراء ذلك بالنجاح وتحظى الأخرى باتساع النطاق ورفعة الشأن. ومن الواضح أنَّ المتشائم يمكن أن يقول أيضاً إنَّ نتائج الأولى لا تساوي شيئاً وإنَّ نتائج الأخرى ليست بالحقيقية وإلّا فما يصنع المرء في يوم القيامة عندما توزن أعمال البشر بمقالات ثلاث في حمض النمل وإن وجد منها ثلاثون؟! ومن الناحية الأخرى ماذا يعرف المرء عن اليوم الآخر إذا كان لا يعرف حتى ما يمكن أن يصير إليه حمض النمل إلى ذلك الوقت؟!

twitter @baghdad_library

وبين كلا القطبين من هذه «اللّا ـ ولا»[١٤] كان التطوّر يتأرجح كالنواس إلى أن كان قد مضى حوالي أكثر من ثمانية عشر قرناً وكان ذلك لمّا يبلغ بعد عشرين قرناً حين عرفت البشريّة أوّل مرّة أنّه سيوجد في نهاية كلّ الأيام مثل هذه المحكمة الروحية. ومِمّا يتناسب مع التجربة أن كلّ اتجاه في هذا الصدد يعقبه الإتجاه المعاكس دائماً. وعلى الرغم من أنّه ليس من الممكن والمرغوب فيه أن تتمّ مثل هذه العودة كمسير البُزال الذي يزداد ارتفاعاً مع كلّ تحوّل في الإتجاه فإن التطوّر قلّما يكسب في هذا الصدد لأسباب غير معروفة أكثر مِمّا يخسر من جراء الطريق الملتوي والتخريب. وإذاً فقد كان الدكتور آرنهايم على حقّ كلّ الحقّ حين قال لأولريش إنَّ تاريخ العالم لم يسمح أبداً بشيء سلبيّ فتاريخ العالم تفاؤلي وهو يقف دائماً وقفة الحماسة إلى جانب الأوّل ولا يجنح لنقيضه إلّا بعد ذلك! وعلى هذا فلم يكن يُعقِب الأخيلة الأولى من أخيلة الدقة محاولة تحقيقها بحال من الأحوال بل كانت تترك للاستعمال غير المجنّح من قبل المهندسين والعلماء وكانت تتَّجه من جديد نحو الحالة الفكريّة الأرفع شأناً والأوسع نطاقاً.

وقد كان في وسع أولريش بعدُ أن يتذكَّر جيّداً كيف وصل ما هو مضطرب مقلقل من جديد إلى السمعة الحسنة وكانت التصريحات تتراكم على نحو مطّرد الزيادة حيث كان أولئك الذين يمارسون مهنة على جانب من الإضطراب من الأدباء والنقاد والنساء والممارسين لمهنة جيل جديد يجأرون بالشكوى من أنَّ المعرِّفة التحتية تشبه شيئاً ملعوناً يمزّق أوصال كلّ عمل إنساني رفيع بدون أن يتمكَّن من إعادة تركيبه أبداً مرّة أخرى. وكانوا يطالبون بعقيدة للإنسانية بعودة إلى الأصول الأولى وبالإرتقاء الفكري وبأمور شتَّى من هذا القبيل.

---

(١٤) تعبير عن النفي المزدوج لقضيتين مطروحتين معاً مثل قولك: لا هذا صحيح ولا ذاك. (المترجم)

وكان قد افترض في البداية بطريقة ساذجة أنَّ هؤلاء أناس أنهكوا أنفسهم بالركوب وقد نزلوا عن الحصان يعرجون ويصرخون مطالبين بإضفاء مسحة من الروح عليهم. غير أنّه اضطر شيئاً فشيئاً أن يتبيّن النداء المتكرِّر الذي كان يبدو له جدّ مضحك في البداية وجدَ صدًى واسعاً وأخذت المعرّفة تبدو غير عصرية وكان أنموذج الإنسان غير المرهف الذي يهيمن على الحاضر قد أخذ يكرّس نفسه.

وكان أولريش في مقابل ذلك قد رفض الأخذ بهذا فيما سلف وجعل الآن يواصل تكوين ميوله الفكريّة بطريقته الخاصة.

وكان مايزال يتوفّر في ذاكرته من أولى أيام وعيه الأوّل بذاته في صباه وهي الأيام التي كانت إعادة النظر إليها فيما بعدُ تحدّث تأثيراً وهزة بالغين حتى هذه الأيام تصوًرات شتى كانت محبوبة في سالف الأيام. وكان من هذه كلمة «الحياة على الفرضيّات». وكانت ماتزال تعبّر أبداً عن الجرأة والجهل غير الإرادية بالحياة حيث تكون كلّ خطوة جسارة بغير خبرة وعن الرغبة في علائق كبرى كما تعبِّر عن تلك المسحة من الريبة والبطلان التي يشعر بها الإنسان الشاب حين يدخل الحياة متردِّداً. وكان أولريش يرى في مقابل ذلك أنّه ما من شيء من ذلك يمكن استرجاعه في الحقيقة على أنَّ الشيء الوحيد الجميل والأكيد في هذا تقوم النظرة إليه بفحص العالم للمرة الأولى هو الشعور المشوّق بكون المرء مخصّصاً لأي شيء كان وهو لا يستطيع أن يقول لشيء لا بدون تحفّظ عندما يراقب أحاسيسه. وهو يبحث عن الحبيبة الممكنة ولكنَّه لا يعرف أهي الملائمة وهو على استعداد لأنّ يقتل بدون أن يتيقين أنّه لا بدّ له من فعل ذلك. فإرادة التطوّر المتَّصلة بطبيعته الخاصّة تمنعه من الاعتقاد بما هو كامل ولكنَّ كلّ ما يواجهه يبدو كما لو كان كاملاً. وهو يدرك أن هذا النظام ليس من الرسوخ بالقدر الذي يتجلّى به. وليس هناك نظام ولا

twitter @baghdad_library

«أنا» ولا صورة ولا مبدأ يتَّسم باليقين. وكل شيء آخذ في التبدّد بطريقة غير مرئية ولكنّها لا تنتهي قط إلى الاستقرار. أما المستقبل فيقع منه في مجال الإضطراب قدر أكبر مِمّا يقع في مجال الرسوخ. وأما الحاضر فما هو بأكثر من فرضية لم يتجاوزها المرء بعد. وأيّ شيء أفضل يفترض فيه أن يعمله عندئذ سوى أن يظلّ متحرّراً من العالم بذلك المعنى المستحسن الذي يحافظ عليه الباحث في مواجهة الحقائق التي تريد إغراءه بالإيمان بها على نحو متسرّع؟! من أجل ذلك كان يتردّد في أن يتَّخذ شيئاً من نفسه. فالشخصيّة والمهنة والنوعية الثابتة لطبيعته: هذه أمور تعدّ بالنسبة إليه تصوُّرات تتميّز فيها الخطوط الأساسيّة التي يفترض أن تبقى منها آخر الأمر وهو يحاول أن يفهم نفسه على نحو آخر ومع ميل إلى كلّ ما يزيده في الداخل وإن كان محرَّماً من الوجهة الأخلاقية أو الذهنية يشعر بنفسه كأنّه خطوة حرّة تتّجه نحو كلّ الجوانب غير أنّها تؤدي إلى التقدّم إلى الأمام دائماً من توازنٍ ما إلى التوازن الذي يليه. وإذا أحسّ ذات مرّة أنّه قد حظي بالخاطرة الصحيحة فهو يحسّ أنَّ قطرة من اللهيب الذي لا مثيل له قد سقطت في العالم ويجعلها ضؤ الأرض تبدو في صورة مختلفة.

وكان قد نشأ عن ذلك لدى أولريش فيما بعد مع المقدرة الفكريّة الآخذة في الازدياد تصوُّر ما عاد يربطه بكلمة الفرضيَّة المفتقرة إلى اليقين بل بات يربطه لأسباب معيَّنة بالمفهوم الخصوصي للمقالة. فمثلما تتخذ المقالة على وجه التقريب في تسلسل فقراتها شكل شيء كثير الجوانب بدون أن تحيط به كلّ الإحاطة ـ لأنّ الشيء الذي يُحاط به إحاطة كاملة يفقد حجمه مرّة واحدة فينحلّ في مفهوم ـ كان يعتقد أنّه يستطيع أن ينظر إلى العالم والى حياته الخاصّة أصحّ النظرات ويعالجهما على أصحّ الوجوه. وكانت قيمة الحدث أو الصفة من الصفات بل حتى جوهرها وطبيعتها يبدوان له مرتبطين بالظروف

التي كانت تحيط بهما وبالأهداف التي كانا يخدمانها وبعبارة موجزة: بالمجموع الكلّي الذي تنتمي إليه ذي الطبيعة التي تكون على هذه الصورة حيناً وعلى تلك حيناً آخر. وهذا آخر الأمر ليس إلا الوصف البسيط للحقيقة القائلة إنَّ القتل يمكن أن يبدو لنا جريمة أو عملاً بطولياً وأن ساعة الحبّ يمكن أن تكون الريشة التي سقطت من جناح ملاك أو من جناح إوزّة ولكنَّ أولريش كان يعمّمها ثم حدثت تلك الأحداث الأخلاقية في مجال قوّة واحد كان توافق الظروف فيه يشحنه بالمعنى وكانت تتضمن الخير والشرّ مثلما تتضمن الذرة إمكانات للإتحاد الكيميائي. وكانت بمعنى معيّن هي هذا الذي صارتْ إليه ومثلما تدل كلمة قاسٍ على طبائع أربعة مختلفة كلّ الاختلاف تبعاً لاقتران القسوة بالحب أو الفظاظة أو الجدّ أو الصرامة كانت كلّ الأحداث الأخلاقية تبدو له في دلالتها في صورة الوظيفة المستقلة لأحداث أخرى. وبهذه الطريقة نشأ نظام لا نهاية له من العلائق ما عاد فيه وجود على الإطلاق لمعانٍ مستقلّة كتلك التي تنسبها الحياة العادية لدى التناول البسيط الأوّليّ للأحداث والصفات وفيه تحوّل الراسخ ظاهراً إلى ذريعة مخلخلة تتقبّل كثيراً المعاني الأخرى. وتحوّل الحادث إلى رمز لشيء ربّما لم يحدث ولكنَّ حدث الشعور به خلال ذلك وتحوّل الإنسان إلى جوهر لإمكاناته وبات الإنسان القوي القصيدة غير المكتوبة لوجوه يواجه الإنسان في صورة تدوين في صورة واقع وشخصية. وفي الأساس كان أولريش يشعر بهذه النظرة أنّه قادر على كلّ فضيلة وعلى كلّ رذيلة. على أن كون الفضائل والرذائل كان يتمّ الإحساس بها ضمن النظام الإجتماعي المتوازن بصورة عامة وإن لم يُجْرِ الإعتراف بذلك أيضاً على أنّها متساوية في ثقل وطأتها كان يثبت له على وجه الخصوص أنَّ ما يحدث في الطبيعة في أيّ مكان وهو أنَّ كلّ مجال لتصارع القوى مع الزمن إنما ينزع إلى قيمة وسطى وحالة متوسّطة إلى توازن والى تجمّد. أما الأخلاق بالمعنى العادي فلم تكن تزيد عند أولريش على صورة الشيخوخة الخاصّة

twitter @baghdad_library

بنسق للقوى كان يجوز أن يختلط بها على نحو لا يخلو من خسارة في الطاقة الأخلاقية.

ومن الممكن أنَّ اضطراباً معيَّناً في الحياة كان يعبّر عن ذاته في هذه النظرات. غير أن الإضطراب لا يعني فيما يعنيه شيئاً سوى كفاية أشكال التأمين العادية. وفيما تبقّى قد يكون من الجائز التذكير بأنّه حتى الشخصيّة البالغة الخبرة التي تتصف بها البشريّة إنما تسلك فيما يبدو سلوكاً مطابقاً لمبادئ مشابهة تماماً. فهي تلغي على المدى البعيد كلَّ ما فعلته وتصنع أشياء أخرى في محله وهي أيضاً تتبدّل عندها على مرّ الزمن من الجرائم إلى فضائل والنقيض بالنقيض وهي تنشئ علائق فكريّة كبرى بين كلّ الأحداث ثم تدعها تنهار بعد بضعة أجيال من جديد إلا أن هذا يحدث بعضهُ في أثر بعض بدلاً من أن يحدث في شعورٍ حياتيٍّ واحد ولا يدع تسلسل محاولاتها سبيلاً للتعرّف على تصاعدٍ ما، بينما يعثر مذهب إنساني واعٍ في المقالة بصورة تقريبية على مهمة تحويل هذه الحالة الهشّة من الوعي بالعالم إلى إرادة وأنَّ كثيراً من خطوط التطوّر المنفردة ليشير إلى أن هذا يمكن أن يحدث قريباً فالمساعِدَة في المستشفى التي تلبس الأبيض الزهري وتمسح غائط المريض في طست من البورسلين الأبيض فتحوّله بالحموضة المساعدة إلى معجون أرجواني اللون يستحق لونه الصحيح انتباهها وإن لم تكن تعلَّم ذلك في عالم أكثر قابلية للتغيّر من السيِّدة الشابّة التي تقشعرّ اشمئزازاً من الشيء ذاته في الشارع والمجرم الذي يكون قد دخل مجال القوّة الأخلاقي لفعلته فما عاد يتحرَّك إلا كسابح يضطر إلى مجاراة تيار جارف وتعلَّم هذا كلّ أم جرف هذا منها ذات مرّة إلا أن الناس مازالوا لا يصدِّقون هذا حتى الآن لأنهم لم يجدوا مكاناً لهذه العقيدة. والطب النفسي يسمِّي المرح العظيم تبرّماً مَرِحاً وكأنّه تثاقل مرح وقد بيَّن أنَّ كلّ ضروب التعقيد الكبرى سواء منها تلك الخاصّة بالعفّة أم تلك

الخاصّة بالشهوانيّة وسواء منها تلك الخاصّة بالنزعة القائمة على الوجدان أم تلك القائمة على الطيش والقائمة على القسوة أم القائمة على المواساة إنما تصبّ فيما هو مَرَضيّ فما أقلّ ما كانت الحياة السلمية خليقة أن تعنيه بعدُ عندئذ حين لا يكون لها من هدف إلا الحالة المتوسّطة بين حالتين من الإفراط وكم ستكون ضئيلة الشأن حين لا يكون مثالها شيئاً آخر سوى الإنكار لإفراط مُثُلها!؟ وإذاً فأمثال هذه الألوان من المعرّفة تؤدّي إلى ألّا نعود نرى بعدُ في المعيار الأخلاقي استقرار نظم أساسية جامدة بل نرى فيها توازناً متحرّكاً مرناً يقتضي في كلّ لحظة أعمالاً من أجل تحديده. والمرء يأخذ في الإحساس المطرّد الزيادة بالمحدودية الكامنة في نسبة الضروب المكتسبة عن غير قصد من الإستعداد للتكرار إلى الإنسان من حيث كونه شخصيّة ثم في تحميل شخصيته المسؤولية عن هذه الضروب من التكرار ويتعرّف المرء على التفاعل المتبادل بين الداخل والخارج. وعن طريق الفهم لما هو غير شخصيّ في الإنسان على وجه الخصوص ثم اقتفاء آثار جديدة لما هو شخصيّ أيّ طرق معيّنة بسيطة من طرائق السلوك الأساسي أيّ غريزة لبناء الأنا تنشئ أناه مثل دوافع بناء العشّ عند الطيور من أنواع كثيرة من المادة بعدد من الأساليب. وقد تمَّ الإقتراب كثيراً من التمكّن عن طريق مؤثّرات معيَّنة من سدّ الطريق على أحوال منحطّة من أنواع شتى مثلما يتمّ سدّ الطريق على جدول جامح بحيث لا يعود يفضي إلّا إلى لامبالاة إجتماعية أو إلى بقية من انعدام البراعة حين لا يصنع المرء من المجرمين ملائكة عظاماً في الوقت المناسب. وعلى هذا كان من الممكن إيراد الكثير جداً من الأشياء المتناثرة والأشياء التي لم تتقارب بعدُ كثيراً والتي تعمل بصورة مشتركة على أن ينتاب المرء التعب من المبادرات الفجة ولم يكن يُفتَقَدُ من أجل ذلك بعدُ في اعتقاد أولريش إلا الصيغة ذلك التعبير الذي يجب أن يعثر على هدف الحركة قبل أن يتمّ بلوغه في أيَّة لحظة سعيدة لكي يمكن قطع القطعة الأخيرة من الطريق. وإن هذا لهو على الدوام

twitter @baghdad_library

تعبير جريء لا يمكن تبريره بعدُ تبعاً لوضع الأشياء ارتباطٌ بين الدقيق وغير الدقيق بين الدقة والعاطفة غير أنَّ هذا كان على وجه الخصوص في السنوات التي كانت خليقة أن تستحثَّه إذا جرى له شيء غريب. لم يكن فيلسوفاً فالفلاسفة من الجبابرة الذين لا يعتمدون على جيش ومن أجل ذلك فهم يخضعون العالم عن طريق اعتقاله في منظومة من الأفكار. ويبدو أنَّ هذا أيضاً هو السبب في أنّه وجد في عصور الطغيان شخصيّات فلسفية كبرى على حين أنَّ عصور الحضارة المتقدمة والديمقراطية لم توفَّق إلى إخراج فلسفة مقنعةً وذلك على الأقل إلى المدى الذي يمكن ضمنه الحكم على هذا تبعاً للأسف الذي يُسمع الإعرابُ عنه بصورة عامة. ومن أجل ذلك يجري التفلسف اليوم في قطع صغيرة بكثرة مفزعة حتى أنّه ما عاد يوجد بعدُ على وجه الخصوص إلا المتاجر التي يحصل فيها المرء على شيء ما بدون عقيدة بينما يسود سوء الظن الصريح حيال القطع الكبرى من الفلسفة. فالناس يعدّونها غير ممكنة ببساطة وكذلك لم يكن أولريش خالصاً من ذلك بحال من الأحوال بل أنّه كان ينظر إليها نظرة فيها شيء من التهكم تبعاً لإطّلاعاته العلميّة. وكان هذا يحدد الإتجاه لسلوكه بحيث كان كلّ ما يراه يدعوه إلى التأمّل مرّة بعد أخرى وكان مع ذلك مصاباً بوَجَلٍ معيَّن من التفكير المفرط. ولكنَّ ما كان له أثر حاسم في سلوكه آخر الأمر إنما كان شيئاً آخر بعد. لقد كان يوجد في طبيعة أولريش شيء كان يحدث أثره بطريقة مشتَّتة باعثة للشلل مجرِّدة للمرء من سلاحه ضد الترتيب المنطقي وضد الإرادة الصريحة وضدّ حوافز الطموح الموجَّهة توجيهاً محدّداً وكان لهذا أيضاً صلة باسم النزعة المَقاليّة الذي اختير من قبله في زمانه وإن كان يتضمّن أيضاً على وجه الخصوص الأجزاء التي كان قد استبعدها من هذا المفهوم بعناية واعية. على أن ترجمة كلمة Essay بالمحاولة كما قُدِّمت لا تتضمَّن إلا على نحو غير دقيق الإشارة الأكثر جوهرية إلى النموذج الأدبي. ذلك لأنّ المحاولة ليست هي التعبير المؤقَّت أو العابر عن قناعة يمكن أن

ترقى مع الفرصة الأفضل إلى مستوى الحقيقة مثلما يمكن لها أيضاً أن يتبيّن خطأها (ومن أمثال هذا الطراز لا يوجد إلا المقالات والرسائل التي يقدّمها المثقفون على أنّها «من فضلات ورشتهم») وإنّما تعدّ المحاولةُ الصورةَ الفريدة وغير القابلة للتغيير التي تتخذها الحياة الباطنية لإنسان في فكرة حاسمة. وما من شيء يعدّ بالقياس إلى هذا أكثر غرابة من اللامسؤولية والمهارة الجزئية في الخواطر التي يطلق عليها اسم (الذاتية)[١٥] ولكنَّ الصحيح والخطأ والذكي والغبي ليست مفاهيم يمكن تطبيقها على أمثال هذه الأفكار التي تخضع مع ذلك لقوانين لا تقل صرامة عمّا تبدو عليه من اللطافة وعدم إمكانية التعبير عنها. ولقد وجد من أمثال هؤلاء الكتاب للمقالات وأساتذة الحياة المتأرجحة في الباطن عدد غير قليل. ولكنَّ لن يكون من المجدي تسميتهم. أما دولتهم فتقع بين الدين والمعرّفة بين المثال والنظرية بين الحبّ الذهني والقصيدة. إنّهم قدّيسون بدين وبلا دين وفي بعض الأحيان يكونون ببساطة قد ضلوا طريقهم في مغامرة.

وما من شيء في النهاية أكثر دلالة من التجربة غير الطوعيّة التي تَعرُض للمرء لدى المحاولات الثقافيّة والعقلانية لتفسير أمثال كتّاب المقالات هؤلاء الكبار وتحويل نظرية الحياة على ما هي عليه إلى معرّفة بالحياة واستخلاص «مضمون» من حركة المتحرّكات ويتبقّى من كلّ شيء على وجه التقريب قدر يعادل ما يتبقّى من الجسد الموّن الرقيق للميدُوزا بعد أن يكون المرء قد رفعها من الماء ووضعها في الرمل. وذلك أن نظرية المتأثّرين تنحلّ في عقل غير المتأثّرين إلى هباء وتناقض وعبث ومع ذلك فلا يجوز للمرء في الحقيقة أن يعدّها هشة وغير قادرة على البقاء وإلا كان في وسع المرء أن يعدّ الفيل أيضاً أكثر هشاشة من أن يطيق الحياة في وسطٍ خالٍ من الهواء لا يتلاءم مع

---

(١٥) Subjektivität

twitter @baghdad_library

متطلبات حياته. ولسوف يكون مِمّا يبعث على الأسف الشديد أن تثير هذه الضروب من الوصف الإنطباع الخاص بسرٍّ ما أو حتى مجرّد انطباع خاص بموسيقى تغلب عليها إيقاعات «الجُنُك» وإيقاعات «الجليسّاندي». التنهدية. والعكس صحيح. على أن المسألة الكامنة في أساس هذه الضروب من الوصف كانت تطرح نفسها على أولريش لا في صورة حدس فحسب على الإطلاق بل كانت تطرح نفسها أيضاً على نحو موضوعي تماماً في الصورة التالية: الرجل الذي يريد الحقيقة يغدو عالماً والرجل الذي يريد أن يدع ذاتيته تلعب دورها ربّما يغدو كاتباً ولكنَّ ماذا ينبغي أن يصنع الرجل الذي يريد شيئاً ينفع فيما بين ذلك؟ على أنَّ أمثال هذه الأمثلة التي تقع «فيما بين ذلك» تقدّمها كلّ جملة أخلاقية وذلك مثل الجملة المعروفة والبسيطة: «لا تقتل» فالمرء يرى للوهلة الأولى أنّها ليست بالحقيقية ولا هي بالذاتية. ومن المعروف أننا نتعلّق بها تعلّقاً صارماً في بعض النواحي. أما في النواحي الأخرى فيسمح باستثناءات معيَّنة وكثيرة جداً ومع ذلك فهي محدودة بحدود دقيقة ولكنَّ في عدد كبير جداً من حالاتٍ من النوع الثالث مثلما يكون في الخيال أو في الأماني أو في المسرحيات أو لدى الاستمتاع بأخبار الصحف نتقلّب خارجين عن أيّ ضابط بين التهيُّب والإغراء. والناس يسمّون ما لا يكون حقيقةً ولا ذاتيةً في بعض الأحيان مطالبةً وقد تمَّ تثبيت هذه المطالبة على عقائد الدين وعلى عقائد القانون وأعطيت بذلك صفة حقيقية مشتقة ولكنَّ كتّاب الروايات يحدثوننا عن الاستثناءات بدءاً بتضحية ابراهيم وحتى المرأة الجميلة الأكثر شباباً التي أردت حبيبها قتيلاً ويرجعون هذا من جديد إلى ذاتية. وعلى هذا فالمرء يستطيع إما أن يتشبّث بالأوتاد وإما أن يدع الموجة العريضة بينها تحمله جيئة وذهاباً. ولكنَّ مع أيّ شعور!؟ إنَّ شعور الإنسان نحو هذه الجملة إنما هو خليط من الطاعة العمياء (بما في ذلك الطاعة ذات الطبيعة السليمة) التي تأبى مجرّد التفكير في شيء من ذلك ولكنّها تفعل ذلك على الفور إذا ما

زحزحت عن مكانها قليلاً بفعل الكحول أو العاطفة) والتخبّط العشوائي في خضمّ مفعم بالإمكانات. أوَينبغي لهذه الجملة ألّا تُفهَم إلا على هذا النحو بالفعل؟ لقد كان أولريش يشعر أن الرجل الذي يود فعل شيء ما بكلّ روحه لا يعرف بهذه الطريقة هل ينبغي له أن يفعل ذلك أو لا هل ينبغي له أن يدعه. وكان يحسّ مع ذلك أن المرء يمكن أن يفعل هذا أو يدعه صادراً في ذلك عن كلّ كيانه. فالخاطرة أو الخطر لم يكونا يغيبان بالنسبة إليه البتّة. وكان الإرتباط بقانون متّجه نحو الأعلى أو نحو الداخل يثير النقد من لدن عقله بل أكثر من هذا إذ كان يكمن أيضاً حظٌّ من القيمة في هذه الحاجة إلى إضفاء النبالة على لحظة الوعي بالذات عن طريق نسبٍ ما. ومع هذا كلّه ظلّ صدره أخرسَ ولم يكن يتكلّم إلا رأسُه غير أنّه كان يشعر أن قراره كان يمكن أن يتطابق بطريقة أخرى مع سعادته، وكان في وسعه أن يكون سعيداً، لأنه لا يقتل، أو يكون سعيداً لأنه يقتل، ولكن لم يكن من الممكن أبداً أن يكون المحصّل اللامبالي لمطلب مطروح عليه. أما هذا الذي كان يحسّ به في هذه اللحظة، فلم يكن أمراً، بل كان مجالاً يترتب عليه أن يدخله. وكان يدرك أنَ كل شيء فيه قد حُسم، وأنه يهدىء الخواطر مثل لبن الأم. ولكنّ ما كان يقوله له هذا ما عاد هو التفكير، وما عاد أيضاً تلمساً بالطريقة المألوفة المقطّعة إرباً إرباً. كان «إدراكاً كاملاً»، ومع ذلك فلم يكن هذا، مرة أخرى أيضاً، إلّا كما لو أن الريح حملت رسالة ما بعيداً. ولم تكن تبدو له صحيحة ولا خاطئة، ولا معقولة، ولا مناقضة للعقل، بل كانت تستحوذ عليه، وكأن مبالغة هادئة مباركة قد حلّت في صدره. وعلى الرغم من قلة ما يستطيع المرء صنعه من الحقيقة، من الأجزاء وَالحقيقية من المقالة، أو المحاولة(١٦) فإن في وسع المرء ان يكتسب في هذه الحالة قناعة ما، وذلك ليس بدون أن يتخلى عنها على

Essay (١٦)

twitter @baghdad_library

الأقل. ومثلما يضطر عاشق إلى ترك الحبّ لكي يصفه. على أن التأثر غير المحدود الذي كان يحرّك أولريش: أحياناً وهو ساكن لا يصنع شيئاً كان يناقص عنده دافع العمل الذي كان يلحّ على الحدود والأشكال. أجل، لقد كان يبدو أن من الصحيح، والطبيعي أن يريد المرء أن يعرف قبل أن يدع شعوره يتكلم، وهو يتصوّر على نحو عفويّ أن هذا الذي كان يريد العثور عليه في سالف الأيام لن يتنازل مع ذلك عن شيء من صلابته ورسوخه، وإن لم يكن بالحقيقة. غير أنه كان يحاكي في صورته الخصوصية، من جراء ذلك، رجلاً يقوم بتجميع عُدّة بينما تموت لديه الرغبة فيها. وكان خليقاً أن يجيب، كلما سأله امرؤ لدى كتابة المقالات الرياضية أو مقالات المنطق الرياضي، أو أثناء اشتغاله بعلوم الطبيعة، عن الهدف الماثل في ذهنه، بأن ليس هناك إلّا مسألة واحدة تستحق التفكير فعلاً، وأن هذه هي مسألة الحياة الصحيحة. ولكن عندما يظل المرء زمناً طويلاً يطرح مطلباً بدون أن يحدث له، أي للمطلب، شيء، فإن المخ يغفو على نحو مماثل بالضبط لإغفاء الذراع حين يظل زمناً طويلاً يرفع شيئاً ما. وكذلك فإن أفكارنا لا تستطيع، بالقدر ذاته، أن تظل واقفة على نحو مستمر، شأن الجند في الصيف، وهم في الاستعراض، فإنهم إذا اضطروا إلى الإنتظار وقتاً مفرطاً في الطول سقطوا من الإعياء، ببساطة. ولما كان أولريش قد اختتم مشروع فهم حياته في عامه السادس والعشرين على وجه التقريب فإن هذا الفهم ما عاد يبدو له مستقيماً كل الإستقامة وهو في عامه الثاني والثلاثين. ولم يكن قد تابع تكوين أفكاره. وبغضّ النظر عن شعور غير مؤكد مشوّق، كذلك الذي يخامر المرء وهو مغمض العينين حين ينتظر شيئاً ما، لم يكن يظهر فيه أيضاً كثير من الحركة الشخصية، منذ أن ولّت أيام المعارف الأولى المقلقة. وكان يبدو على الرغم من ذلك ان حركة من باطن الأرض، من مثل هذا النوع، هي التي كانت تُبْطئُ به في العمل العلمي، مع الزمن، وتمنعه أن يضع فيه كل إرادته. وقد

دخل من جرّائها في صراع خصوصيّ. ولا يجوز للمرء أن ينسى أن التركيب الدقيق للفكر هو في الأساس أكثر إيماناً بالله من تركيب الفكر الأدبيّ، ذلك لأنه خليق أن يخضع «للرب تعالى» بمجرد أن يتفضّل بالتجلّي له بالشروط التي يضعها هو من أجل الإعتراف بوجوده الفعلي، على حين أن أدباءنا لن يجدوا، إذا ما تجلىّ الرب، إلّا أن موهبته لا تتسم بما يكفي من الأصالة، وأن صورة العالم عنده ليست مفهومة بالقدر الكافي، من أجل وضعه على صعيد واحد مع المواهب الموهوبة من الله بالفعل. وعلى هذا فلم يكن أولريش يستطيع أن يستسلم لحدوس غير محدّدة بسهولة كبيرة، شأن أي واحد من النوع. غير أنه لم يكن يستطيع من ناحية أخرى، بالقدر ذاته، أن يخفي عن نفسه أنه كان عاش هو ذاته، في شيء من الدقة، سنين طوالاً، حياةً كانت ضدّ نفسه فحسب. وقد كان يود لو يحدث له شيء غير منتظر. ذلك لأنه حين كان يقضي ما كان يسميه بشيء من التهكم «إجازته من الحياة» لم يكن يملك شيئاً كان يهب له السلام في هذا الاتجاه أو ذاك.

وربما أمكن للمرء أن يورد على سبيل تبرئته أن الحياة تنصرم بسرعة لا تصدّق في سنين معيّنة. ولكنَّ اليوم الذي يضطر فيه المرء أن يبدأ بأن يعيش إرادته الأخيرة قبل أن يخلف وراءه بقيّتها يتقدَّم من حيث الموقع تقدماً بعيداً. ولا يمكن تأجيله. وكان هذا قد غدا عنده جلياً إلى حدٍّ ينطوي على التهديد منذ أن انقضى نصف عام تقريباً بدون أن يتغيَّر شيء. وبينما كان يروح ويغدو متحرّكاً في إطار العمل الصغير الجنونيّ الذي كان قد تولّاه وكان يتكلّم وكان يسرّه الإفراط في الكلام وكان يعيش بالإصرار اليائس الذي يكون عند صياد يلقي شباكه في نهر خاوٍ إذ لم يكن يفعل شيئاً مِمّا كان يتلاءم مع الشخصيّة التي كان يعنيها على أيَّة حال. ولم يكن يفعل ذلك عن قصد. كان ينتظر. وكان ينتظر وراء شخصه على قدر ما تدل هذه الكلمة على ذلك الجزء من الإنسان

twitter @baghdad_library

الذي يصوغه العالم وسيرة الحياة. وكان يأسه الهادئ المكبوت وراء ذلك يتصاعد مع كلّ يوم. وكان يعاني من أسوأ أزمة في حياته. وكان يزدري نفسه من أجل أوجه التقصير عنده أوَتُعَدُّ المحن الكبرى امتيازاً للرجال العظام. لقد كان خليقاً أن يسرّه الإيمان بذلك غير أنّه ليس بالصحيح لأنّ أكثر الشخصيّات العصبيّة بساطة لها أزماتها وكذلك لم يتبقّ له في الحقيقة ضمن الهزة الكبرى إلا تلك البقية من رباطة الجأش التي يتمتّع بها كلّ الأبطال والمجرمين فهي ليست بالجرأة وليست بالإرادة ولا هي بالثقة بل هي ببساطة تشبُّث صلب بالذات يصعب إخراجه مثلما يصعب إخراج الحياة من قطعةٍ حتى عندما تكون الكلاب قد أتت عليها بالنهش الكامل.

فإذا أراد أن يتصوّر كيف يعيش مثل هذا الإنسان حين يكون وحده فإنَّ من الممكن على أقصى الحدود أن يُروى أن ألواح زجاج النوافذ المضاءة في الليل تطل بنظرها على الحجرة وأنَّ الأفكار بعد أن تُستعمل تقعد هنا وهناك مثل الزبائن في حجرة الإنتظار عند محامٍ لا يرضون عنه أو ربّما يروى أن أولريش فتح في مثل هذه الليلة النوافذ ذات مرّة وأبصر جذوع الأشجار العارية كالأفاعي التي كانت التواءاتها تنتصب هناك بين الأغطية الثلجية في ذوائبها وبين الأرض سُوداً مُلْساً على نحو غريب. وشعر فجأة بمتعة في النزول كما كان في حُلّة النوم إلى الحديقة. كان يريد أن يتحسَّس البرودة في شعره. وحين غدا في الأسفل أطفأ النور لكيلا يقف خلف الباب المضاء. ولم يكن ينبعث من حجرة عمله إلا سقف من النور عبر الظل. وكان ثمة طريق يفضي إلى باب السياج الذي كان ينفتح على الشارع وكان طريق ثان يتقاطع معه بوضوح تشوبه الظلمة. ومشى أولريش نحو هذا متمهّلاً ثم ذكَّرته الظلمة المتصاعدة من بين تيجان الأشجار على نحو خياليّ مفاجئ بشخصية موز بروجر العملاقة. وبدت له الأشجار العارية في مظهر جسديّ على نحو غريب. كانت قبيحة مبللة

كالديدان وكانت مع ذلك في صورة يمكن للمرء معها أن يعانقها ويخرّ فوقها مغروروقاً وجهُه بالدموع. غير أنّه لم يفعل ذلك. على أنَّ عاطفية الانفعال ردته على أعقابه في اللحظة ذاتها التي مسّته فيها. ومن خلال الزبد اللبنيّ للضباب كان يمرّ أمام سياج الحديقة في هذه اللحظة مارّةٌ متأخِّرون. وقد كان من الممكن بلا ريب أن يبدو لهم كالمجنون إذ كانت صورته وهو في حلّة النوم الحمراء بين الجذوع السود تنفصل الآن عن هذه الجذوع. غير أنّه تقدّم الآن إلى الطريق بخطى راسخة وعاد راضياً نسبياً إلى بيته. ذلك لأنّه إذا كان ثمة شيء محفوظ له فإنه لم يكن له بدٌّ لذلك أن يكون شيئاً مختلفاً كلّ الاختلاف.

twitter @baghdad_library

[٦٣]

بوناديا ترى الرؤيا

وحين نهض أولريش في الصباح الذي تلا هذه الليلة متأخّراً ومحطّماً تحطيماً بالغاً أُنبئ بزيارة بوناديا وكانت هذه هي المرة الأولى التي قُدّر لهما فيها أن يتلاقيا من جديد منذ قطيعتهما.

وكانت بوناديا قد بكت كثيراً في وقت الفراق. وكانت بوناديا قد شعرت خلال هذا الوقت مراراً بأنّها استغلّت. ولطالما دارت مثل طبل معصوب بشريط الحزن وكانت قد خاضت الكثير من المغامرات ولقيت كثيراً من خيبات الأمل. وعلى الرغم من أن ذكرى أولريش كانت ترقد في بئر عميق لدى كلّ مغامرة فإنّها كانت تصعد منه مرّة أخرى بعد كلّ خيبة أمل عاجزةً عاتبة كالألم المهجور في وجه طفولي. وكانت بوناديا قد اعتذرت لصديقها مئات المرات من غيرتها بهدوء و«عاقبت كبرياءها الخبيثة» كما كانت تسمي ذلك. وأخيراً قرّرت أن تعرض عليه عقد مصالحة.

كانت ظريفة كئيبة جميلة حين جلست بالقرب منه. وكانت تشعر بانزعاج في معدتها. وكان هو ماثلاً أمامها «مثل فتى» وكانت بشرته مصقولة كالمرمر من الأحداث الجسام والدبلوماسية التي كانت تثق له بها. ولم تكن قد لاحظت بعدُ أبداً مقدار القوّة والتصميم اللذين كانا يتجليان في وجهه. وقد كانت خليقة أن يسرّها الإستسلام بكلّ شخصيتها غير أنّها لم تكن تثق بنفسها لكي تمضي إلى هذا المدى. ولم يكن يظهر في ملامحه ما يدعوها إلى ذلك. كانت هذه البرودة باعثة على حزن لا يُتصوّر بالنسبة إليها ولكنّها كانت كبيرة

مثل تمثال. وتناولت بوناديا على نحو مفاجئ يده المُدَلّاة وقبّلتها ومسح أولريش على شعرها وهو مطرق. وانتاب ساقيها الضعف بأشدّ الطرق في الدنيا أنثويةً وهمّت أن تخرّ على ركبتيها. هنالك دفعها أولريش برفق إلى الكرسيّ وجاء بالويسكي مع الصودا وأشعل لفافة.

واحتجّت بوناديا قائلة: «إن السيِّدة لا تشرب الويسكي في الضحى!» ووجدت المقدرة على الإستياء من جديد لحظة من الزمان. وانتابها الهلع من الأعماق إذ بدا لها أن البداهة التي قدَّم لها أولريش بها مشروباً فجّاً ومتَّسِماً كما كانت تفكِّر بانفلات العنان تنطوي على إيماءة خالية من الحب.

ولكن أولريش قال بمودّة: «سيفيدك هذا؛ فكل النساء اللواتي مارسن السياسة العظمى شربن الويسكي أيضاً». ذلك أنَّ بوناديا كانت قد قالت لكي تدخل من جديد على أولريش أنّها معجبة بالعمل الوطني العظيم وأنّها يسرّها أن تسهم فيه.

كان هذا مخطّطها. كانت تؤمن دائماً بأشياء عديدة في الوقت ذاته وكانت أنصاف الحقائق تسهِّل عليها الكذب.

كان الويسكي ذهبياً مخفّفاً وقد بعث الدفء مثل شمس أيار.

وكان يخامر بوناديا الشعور بأنّها في سن السبعين وأنّها تقعد أمام بيت على مقعد في حديقة. لقد كبرت. وشبّ أولادها. وكان أكبرهم قد بلغ الآن الثانية عشرة. وكان من المعيب بلا ريب أن تلاحق رجلاً لم يكن معروفاً حتى على وجه الدقة إلى مسكنه لمجرّد أن له عينين كان ينظر بهما إلى المرء مثلما ينظر رجل أمام نافذة. وقالت في نفسها: إنَّ المرء يميّز تمييزاً حسناً تماماً تفاصيل في هذا الإنسان لا تعجب المرء ويمكن أن تكون له بمثابة تحذير وإنه لمن الممكن على وجه الإطلاق ـ أنّه إذا ما استوقفه شيء فحسب في أمثال هذه اللحظات! ـ أن ينهار مجلّلاً بالعار بل ربّما متوقّداً بالغضب. ولكنَّ لأنّ

twitter @baghdad_library

هذا لا يحدث فإنَّ هذا الرجل يتنامى في دوره تنامياً تزداد حماسته الجامحة على نحو مطرِّد. والمرء يشعر بنفسه بوضوح تام في هذا السياق بأنّه مثل واحد من الكواليس يُرسَل عليه نور مصطنع؛ وأنَّ ما يواجهه المرء إنما هو عيون مسرحية وشاربان مسرحيان وأزراد حُلَّة تنحل. أما اللحظات الممتدة من دخول الحجرة إلى الحركة المفزعة الأولى العائدة إلى الصحو من جديد فتجري في وعي خرج من الرأس وبات يغطّي جدران الحجرة ببساط من الجنون. على أن بوناديا لم تكن تستعمل الكلمات ذاتها تماماً بل لم تكن تفكّر عند ذلك على الإطلاق في الكلمات إلا بصورة جزئية. ولكنَّ في الوقت الذي كانت تنزع فيه إلى أن تجسّد هذا لنفسها كانت تشعر على الفور بأنّها معرّضة من جديد لهذا التغيّر في الوعي. وكانت تقول في نفسها وهي تنظر إلى أولريش: «إنَّ من يستطيع أن يصف هذا سيكون فنّاناً عظيماً؛ كلا بل سيكون كاتباً من كُتّاب الفحش!» ذلك لأنَّها لم تكن تفقد النوايا الحسنة والإرادة الأفضل تجاه السلوك الحسن لحظة واحدة خلال أمثال هذه الحالات أيضاً؛ كانت هذه تقف عندئذ خارجاً وتنتظر. وكل ما في الأمر أنّها لم يكن لديها كلمة تقولها لهذا العالم الذي غيّرته الرغائب. وحين كان عقل بوناديا يعود كان هذا عذابها الأكبر. لقد كان تغيّر الوعي من جراء السكر بالجنس ذلك التغيّر الذي يضرب الآخرون من البشر عنه صفحاً على أنّه شيء طبيعي يتَّخذ عندها من جراء عمق السكر ومُباغتته وكذلك من جراء عمق الندامة قوةً كانت تبعث فيها الخوف بمجرّد أن تكون قد عادت أدراجها من جديد إلى محيط العائلة الوادع. كانت تبدو في نظر نفسها عندئذ مثل مجنونة وكانت لا تكاد تثق بأن تنظر إلى أولادها خوفاً من أن تلحق بهم الأذى بنظرتها المتَّسمة بالفساد. وكانت تختلج حين كان زوجها ينظر إليها نظرة أكثر مودة بعض الشيء وتتهيّب من رفع الكلّفة في الخلوة. من أجل ذلك كانت قد أنضجت في نفسها في أسابيع الفراق خطة مؤداها ألّا يكون لها بعدُ حبيب آخر سوى

أولريش. كان يُفترض أن يهب لها التماسك وأن يحفظها من ضروب التجاوز الأجنبية. وكانت تقول في نفسها الآن حيث كانت تجلس قبالته من جديد للمرة الأولى: «كيف استطعت أن أسمح لنفسي أن ألومه فحسب فإنه أكثر كمالاً مني إلى حدٍّ بعيد». وكانت تنسب إليه الفضل المتمثِّل في أنّها كانت في وقت معانقاتهما إنسانة أفضل وكانت تفكِّر أيضاً حقّ التفكير في أنّه لا بدّ لها أن يدخلها في أوّل حفلة خيرية في محيطه الإجتماعي الجديد. وأدّت بوناديا بغير صوت قسم الولاء للعَلَم واغرورقت عيناها بالدموع من التأثر وهي تفكِّر في هذا كله.

ولكن أولريش كان يجرع قدحه من الويسكي بتمهل رجل يضطر إلى تدعيم قرار صعب. وأعلن لها أنه ليس من الممكن في الوقت الراهن بعدُ أن يدخلها على ديوتيما.

وكان من البديهيّ أن بوناديا أرادت أن يخبرها على وجه الدقة لماذا لا يكون هذا ممكناً. ثم أنّها أرادت أن تعرف بدقَّة متى سيكون هذا ممكناً.

وكان على أولريش أن يشرح أنّها لم تبرُز بعدُ لا في الفن ولا في العالم ولا في الرعاية الإجتماعية وأن الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً جداً قبل ذلك قبل أن يتمكَّن من إفهام ديوتيما ضرورة مشاركتها.

على أن بوناديا كانت قد أُترِعَت خلال هذا الوقت بالمشاعر الخصوصيّة نحو ديوتيما وكانت قد سمعت عن فضائلها ما يكفي لكي لا تكون غيورة منها بل الأحرى بها أنّها كانت تشعر بالحسد والإعجاب حيال هذه المرأة التي شدّت حبيبها إليها بدون أن تقدّم له تنازلات غير أخلاقية وكانت تعزو هذه الرصانة التي تحاكي رصانة التماثيل والتي كانت تعتقد أنّها تلاحظها في أولريش إلى هذا التأثير. وكانت تعدّ نفسها «جامحة العاطفة» إذ كانت تفهم من ذلك قلّة شرفها مثلما تفهم فيه تبريراً مشرِّفاً لهذه على أيَّة حال. لكنها

twitter @baghdad_library

كانت تعجب بالنساء الباردات بالإحساس ذاته الذي يضع به التعساء من أصحاب الأيادي النديّة أيديهم في يد جافة وجميلة بوجه خاص. وقالت في نفسها: «إنّها هي قد غيّرت أولريش تغييراً كبيراً!» كان ثمة مثقب قاس في قلبها ومثقب حلو في ركبتيها. وكان هذان المثقبان الدائران في وقت واحد إذ يدور أحدهما معاكساً للآخر يوشكان أن يجعلا بوناديا عاجزة حين آنَسَت المقاومة من أولريش فلعبت بورقتها الأخيرة: موز بروجر!.

وكان قد تبيَّن لها من خلال التفكير المؤلم أن أولريش ينطوي على إيثار خصوصي لهذه الظاهرة الرهيبة وكانت هي نفسها تشمئز ببساطة اشمئزاز المتهيّب من «الشهوانيّة الفظة» التي كانت حسب قناعتها تفصح عن نفسها في أعمال موز بروجر. وكانت تحسّ في هذه المسألة بدون أن تدري بذلك بالطبع إحساساً مماثلاً بالضبط لإحساس المومسات اللواتي يبصرن في القاتل بدافع المتعة تهديداً لمهنتهنّ ببساطة ولشعور خالص تماماً من الإختلاط وبدون أيّ رومانسية مدنيّة ولكنّها كانت تحتاج فضلاً عن آثامها التي لا يمكن اجتنابها إلى عالم عادي سوي وحقيقي وكان يفترض في موز بروجر أن يفيدها في إعادة إنشائه. ولما كان أولريش ينطوي على نقطة ضعف حياله وكان لها هي زوجٌ كان قاضياً وكان قادراً على الإدلاء بمعلومات مفيدة فقد كانت في وحشتها قد نضجت لديها بصورة تلقائية تماماً فكرة الجمع بين ضعفها وضعف أولريش عن طريق وساطة زوجها. وكان هذا التصوّر المتّسم بالحنين ينطوي على الطاقة المواسية لنزعة شهوانيّة يباركها الشعور بالحق. ولكنَّ حين دنت من زوجها الطيّب كان هذا قد تولّته الدهشة من ثورتها القانونية على الرغم من أنّه كان يعرف أنّه كان من اليسير عليها أن تتحمّس لكلّ ما هو طيّب وسامٍ من الوجهة الإنسانية. ولما لم يكن قاضياً فحسب بل كان صياداً أيضاً فقد أجاب رافضاً بنيّة حسنة قائلاً إنَّ الأمر الصحيح الوحيد هو استئصال الوحش

المفترس في كلّ مكان بدون قدر كبير من رقة العاطفة وأبى أن يدلي بمزيد من المعلومات. ولدى محاولة ثانية قامت بها بعد بعض الوقت لم تطَّلع بوناديا منه إلا على الرأي الإضافي القائل إنّه يعدّ الولادة شأناً إنسانياً ولكنَّه يعدّ القتل شأناً من شؤون الرجال. ولما لم يكن يجوز لها أن تجرّ على نفسها الشبهة من جراء الإفراط في الاجتهاد فقد كان طريق الحقّ قد أُوصِدَ بذلك عليها وهكذا كانت قد وصلت إلى طريق الرحمة الذي تبقّى وحده إذا قدّر لها أن تقوم بشيء ما من أجل موز بروجر ابتغاء مرضاة أولريش. وكان هذا الطريق يمر عبر ديوتيما مروراً لا يستطيع المرء حتى أن يقول إنّه مفاجئ بل الأحرى أنّه جذّاب.

وكانت ترى نفسها في ذهنها صديقة لديوتيما وقد حققت لنفسها الرغبة المتمثّلة في اضطرارها إلى التعرف على المرأة الحائزة على الإعجاب من أجل القضيَّة التي لا تقبل التأجيل حتى وإن كانت أكثر زهواً بنفسها من أن تفعل ذلك عن حاجة شخصيّة. وكانت قد اعتزمت أن تكسبها إلى صف موز بروجر الأمر الذي لم يُوفَّق إليه أولريش على ما يبدو كما كانت قد حزرت ذلك لتوّها وكان خيالها يصور لها ذلك بصوّر جميلة. كانت ديوتيما الطويلة المرمرية تضع ذراعها حول كتف بوناديا الدافئ الذي أَثْخَنَت عليه الخطايا وكانت بوناديا تتوقّع لنفسها على وجه التقريب الدور المتمثّل في تمريغ هذا القلب السماوي البكر بقطرة من الوهن وكان هذا هو المخطَّط الذي شرحته لصديقها الضائع.

ولكن لم يكن من الممكن بحال من الأحوال كسب أولريش في هذا اليوم لصالح فكرة إنقاذ موز بروجر. لقد كان يعرف مشاعر بوناديا النبيلة وكان يعرف السهولة التي يتحوّل بها عندها استعارُ انفعالٍ جميل منفرد إلى رعب من

twitter @baghdad_library

سعير ناريّ يستحوذ على الجسد بأكمله. وقد أعلن لها أنّه لا ينطوي على أدنى رغبة في التدخّل في القضيَّة التي يُعدّها الناس لموزربروجر.

ونظرت إليه بوناديا بعينين جميلتين متكدِّرتين كان الماء منهما يطفو على الجليد مثلما يكون عند الحدود بين الربيع والشتاء.

على أنَّ أولريش لم يكن قد فقد أبداً كلّ الفقدان عرفاناً معيَّناً للجميل مقابل لقائهما الأوّل الجميل جمالاً طفولياً في تلك الليلة التي كان فيها يرقد عاجزاً على بلاط الشارع. وقد قعدت بوناديا القرفصاء عند رأسه وكان يقطر من عيني هذه المرأة الصبيّة في وعيه المنبعث ما في العالم وما في الصبا وما في المشاعر من الإبهام المضطرب المتَّسم بالمغامرة وعلى هذا فقد حاول أن يخفِّف من وقع الرفض الباعث على الانزعاج ويذيبه في حوار طويل. واقترح قائلاً: «هَبي أنّك مشيت ليلاً في مُتَنزّه واسع وأنَّ اثنين من الأوغاد هاجموك. أتراك تعتقدين عندئذ إنهما آدميّان يستحقان الرثاء؟ وأن المجتمع مسؤول عن فظاظتهما؟

وردّت بوناديا قائلة على الفور: «ولكنِّي لا أسير في المتنزهات ليلاً أبداً».

«ولكن إذا أقبل شرطي أتراك تطلبين اعتقال الإثنين معاً؟».

«إذاً لالتمست منه أن يحميني!».

«وهذا يعني بلا ريب أن يقبض عليهما؟!».

«أما ما يفعله بهما فهذا أمر لا أعلمه وأخيراً فإن موز بروجر ليس بالوغد».

«إذاً فافترضي أنّه يعمل نجاراً في مسكنك وأنت معه وحدك في البيت وهو يأخذ في النظر إليك نظرات مريبة».

واحتجت بوناديا قائلة: «إنَّ هذا الذي تطلبه مني فظيع بلا ريب!».

وقال أولريش: «بلا ريب ولكنّي أريد أن أبيّن لك أن هؤلاء البشر الذين يسهل أن يخرجوا عن توازنهم مزعجون إلى أقصى حدّ ولا يجوز للمرء في الحقيقة أن يسمح لنفسه بالحياد في مواجهتهم إلا عندما يتلقّى الضربات امرؤ آخر. عند ذلك يطالبون بالحدّ الأقصى من رقّتنا بلا ريب ويكونون ضحايا نظام اجتماعي أو ضحايا القدر. ويجب عليك أن تقرّي أنّه ما من امرئ يمكن أن يكون مسؤولاً عن أخطائه عندما ينظر المرء إليه بعينه الخاصّة فهي بالنسبة إليه في أسوأ الأحوال أخطاء أو صفات رديئة ضمن مجموع كلي لا يغدو من جراء ذلك أقلّ فضلاً ويكون هو بالطبع على الحقّ كلّ الحق!».

وكان على بوناديا أن تصلح شيئاً في جوربها وكانت تشعر أنّها مضطرة أن تنظر في أثناء ذلك إلى أولريش ورأسها منكّس إلى الوراء قليلاً بحيث نشأ عند الركبة بدون أن يلاحظ ذلك من قبل عينيها حياة حافلة بالتضادّ من الأهداب المدبّبة ومن الجورب الصقيل والأصابع المتوترة وذَوْبِ اللآلئ التي ذهب عنها التوتر في البشرة.

وأشعل أولريش لنفسه لفافة على عجل ومضى قائلاً: «فالإنسان ليس فاضلاً بل هو فاضل دائماً؛ وهذا فرق هائل أتفهمين؟ والناس يضحكون من سفسطائية حبّ الذات هذه ولكنَّ ينبغي للمرء أن يستخلص منها نتيجة مؤداها أن الإنسان لا يمكن أن يفعل شيئاً خبيثاً على الإطلاق ولا يمكن له إلا أن يحدث أثراً سيئاً فحسب وبهذه المعرفة ربّما نكون عند المنطق الصحيح لأخلاق إجتماعية».

وردَّتْ بوناديا وهي تتنهّد ثوبها من جديد إلى الوضع الصحيح ونهضت واقفة وحاولت أن تهدئ نفسها بجرعة من النار الذهبية الشاحبة. وأضاف أولريش وهو يبتسم قائلاً: «والآن أريد أن أشرح لك لماذا يشعر الناس مشاعر

twitter @baghdad_library

شتى تجاه موز بروجر ولكنَّهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً على الرغم من ذلك. ففي الأساس تُشابه كلّ هذه الحالات نهايةَ خيطٍ بارز نحو الخارج وعندما يأخذ المرء في الشد عليه يبدأ النسيج الإجتماعي كلّه بالانشراخ وسوف أبيّن لك هذا أوّلاً من خلال مسائل عقلانية بحتة».

وكانت بوناديا تفقد حذاءً بطريقة كانت تنطوي على الإشكال. وانحنى أولريش للبحث عنه وجاء القدم بأصابعه الدافئة تلقاء الحذاء في يده مثل طفل صغير وقالت بوناديا: دَعْ هذا دعه فسأفعل ذلك بنفسي» وكانت تمد قدمها نحوه.

واستأنف أولريش شرحه بموضوعية بينما كان يتصاعد في أنفه من الساق عبير المقدرة المتناقصة على التمييز قائلاً: «فهناك أوّلاً المسائل القانونية المتَّصلة بالطب النفسي هذه المسائل التي نعرف عنها أن الأطباء قد وصلوا فيها الآن على وجه التقريب إلى مدى يستطيعون عنده أن يمنعوا معظم أمثال هذه الجرائم إذا ما أردنا أن نبذل الوسائل المالية اللازمة من أجل ذلك فحسب وإذاً فما عاد هذا بعدُ إلا مسألة إجتماعية».

ورجته بوناديا حين قال كلمة إجتماعية الآن للمرة الثانية: «ويلاه هلّا تركت ذلك! فحين يجري الحديث عن ذلك أذهب إلى البيت من الغرفة إذ أن هذا يبعث على السآمة حتى الموت».

وخفّف أولريش من حدة كلامه قائلاً: «حسناً لقد أردت أن أقول: مثلما تصنع التقنيّة من الجثث المتفسخة والقمامة والهشيم والسموم منذ عهد بعيد أشياء نافعة فإنَّ من الممكن أن ينجح في هذا على وجه التقريب أيضاً تقنية علم النفس ولكنَّ العالم يضيّع على نفسه قدراً من الزمن كبيراً إلى حدٍّ مفرط في حل هذه المسائل. والدولة تبذل المال من أجل كلّ حماقة. غير أنّها لا يتبقّى

لديها قرش واحد من أجل حلّ أهمّ المشكلات الأخلاقية وهذا أمر كان في طبيعتها لأنّ الدولة هي أشدّ ما يوجّه من الأنظمة الإنسانية غباءً وشراً».

وكان يقول هذا بإيمان ولكنَّ بوناديا حاولت أن تعود به إلى لبّ المسألة فقالت بلهجة الملهوف: «يا عزيزي لا ريب أن الأفضل بالنسبة إلى موز بروجر ألّا يكون مسؤولاً!».

وردّ أولريش قائلاً: «يبدو أن قتل العديد من المسؤولين أهمّ من حماية واحدة لغير مسؤول عن القتل!».

وكان يروح ويغدو الآن على مقربة منها ووجدته بوناديا ثورياً وملتهباً. وتمكنت من الإمساك بيده ووضعتها على صدرها.

وقال: «خيراً سوف أشرح لك الآن المسائل الخاصّة بالشعور».

وفتحت بوناديا أصابعه وبسطت يده على صدرها. وقد كانت النظرة المرافقة خليقة أن تحرّك قلباً من الحجر واعتقد أولريش في اللحظات التالية أنّه يحسّ بقلبين في صدره مثلما تختلط دقات الساعات فيما بينها في دكان صانع الساعات. وأصلح وضع صدره باذلاً كلّ قوّة إرادته وقال برقة: «لا يا بوناديا!».

وكانت الدموع توشك الآن أن تطفر من عيني بوناديا وطيّب أولريش خاطرها قائلاً: «أوَليس من التناقض أن تثوري من أجل هذه القضيَّة الواحدة لأنَّني حدثتك عنها بطريقة المصادفة على حين لا تلاحظين شيئاً من ملايين المظالم الكبرى التي تحدّث بالقدر ذاته في كلّ يوم؟».

واحتجتْ بوناديا قائلة: «ولكن هذا لا يمت إلى ذلك بأية صلة أبداً فثمة شيء واحد أعرفه الآن! وإنني سأكون إنسانة فاسدة لو ظللت مكتوفة الأيدي!».

twitter @baghdad_library

وقال أولريش إنَّ على المرء أن يظلّ مكتوف الأيدي وأضاف قائلاً: «بل عليه أن يظلّ على وجه الخصوص ساكناً سكون العاصفة». وكان قد خلّص نفسه وقعد على مسافة من بوناديا ولاحظ قائلاً: «إنَّ كلّ شيء يحدث اليوم «في الأثناء» و«في الغضون» ولا بدّ لهذا أن يكون كذلك لأنّ وجدانية عقلنا تضطرنا إلى خلوٍّ من الوجدان مريعٍ في نفوسنا». وكان قد صبّ لنفسه من الويسكي الآن مرّة أخرى وسحب ساقيه عن الأريكة وأخذ ينتابه التعب وجعل يشرح قائلاً: «كل إنسان يفكّر أصلاً بالحياة كلّها. ولكنَّ كلّما ازداد تفكيره دقَّة ازداد هذا ضيّقاً وعندما ينضج يكون لديك إنسان أمامك يعرف في ميليمتر مربع محدد معرّفة يبلغ من جودتها ما يعدل ما يعرفه في العالم كلّه إثنا عشريّتان من البشر الآخرين على أقصى الحدود ويرى رؤية دقيقة مثل كلّ البشر الذين لا يعرفون معرّفة دقيقة مثله ويتحدَّثون حديثاً غير معقول عن مسألته ومع ذلك فلا يجوز له أن يتحرَّك لأنّه حين يغادر مكانه بمقدار ميكرو ميليمتر واحد يتحدَّث هو نفسه حديثاً غير معقول». وكان إرهاقه قد بات الآن ذهبياً رقيقاً مثل الشراب الذي كان قائماً على الطاولة وقال في نفسه: «وإذاً فأنا أيضاً أتحدَّث منذ نصف ساعة حديث الهراء». ولكنَّ هذه الحالة المفضية إلى الاتّضاع كانت مستعذبة. غير أنّه كان يخشى شيئاً واحداً وهو أن من الممكن أن يخطر ببال بوناديا أن تجلس إليه ولم يكن هناك إلا وسيلة واحدة لدفع ذلك: الحديث. وكان قد نصب رأسه ورقد ممدّداً هناك مثل شخوص الضريح في كنيسة آل ميديتشي وخطر هذا بباله دفعة واحدة وبينما كان يتَّخذ هذا الوضع سرى في جسده شعور بالعظمة حقاً وهَيَمانٌ في سكينتها وبدا في عين نفسه أكثر شموخاً مِمّا كان واعتقد للمرة الأولى أنّه يفهم على البُعْد هذه الأعمال الفنّية التي لم يكن قد نظر إليها حتى الآن إلا على أنّها أشياء غريبة وأخلد إلى الصمت بدلاً من الحديث. وكانت بوناديا أيضاً تشعر بشيء ما. لقد كانت

هذه «لحظةً» مثلما يسمّي المرء ما لا يستطيع أن يعبّر عنه. وكان شيء سامٍ بصورة تمثيلية يجمع الإثنين اللذين باتا صامتين فجأة.

وقال أولريش في نفسه بمرارة: «ما الذي تبقّى مني؟ ربّما إنسان شجاع لا يباع وهو يتصوّر أنّه لا يحترم إلا قليلاً من القوانين الشكليّة من أجل حرية الباطن. ولكنَّ حرية الباطن هذه تتمثل في أن المرء يستطيع أن يتصوّر كلّ شيء وأن يعرف المرء في كلّ وضع إنسانيّ لماذا لا يحتاج إلى أن يقيّد نفسه به وهو لا يعرف أبداً لماذا يودّ أن يدع نفسه تتقيّد به!». وفي هذه اللحظة القليلة السعادة التي كانت تنحل فيها من جديد موجة الشعور الصغيرة الغريبة التي كانت قد استحوذت عليه برهة من الزمان ربّما كان على استعداد أن يسلّم بأنّه لا يملك شيئاً سوى مقدَّرة على الكشف عن جانبين في كلّ قضية وهي ذلك الإجتماع بين الضدين(١٧) في الأخلاق الذي كان يميّز كلّ معاصريه تقريباً وكان يشكّل استعداد جيله أو قدره أيضاً وكانت علاقته بالعالم قد باتت شاحبة محفوفة بالظلال والسلبيّة وأيّ حقّ كان يملكه في معاملة بوناديا معاملة سيئة. لقد كان هو الحوار ذاته المزعج دائماً الذي كان يتكرّر بينهما. وكان ينشأ عن التكيّف الصوتيّ الداخليّ في الفراغ الذي كانت الطلقة يتردّد صداها فيه مضاعفَ الإرتفاع ولا يكفّ عن الجريان. وكان يكدّره أنّه ما عاد يستطيع أن يحدثها أبداً حديثاً مختلفاً عن هذا الأسلوب. وكان قد عثر من أجل الإشارة إلى العذاب الفريد الذي كان هذا يسبّبه لكليهما على الإسم الجميل العبثيّ في شطر منه وهو «باروك الفراغ». ونهض قائماً لكي يقول لها شيئاً لطيفاً. واتجه إلى بوناديا التي كانت ماتزال جالسة هناك بطريقة نبيلة قائلاً: «لقد خطر ببالي الآن شيء آخر أيضاً. أما غير القادر على الحكم الصائب فلا يقدّر على ذلك أبداً!».

Ambivalenz (١٧)

twitter @baghdad_library

وردت بوناديا بجواب بالغ الأهميّة قائلة: «واعجباً لك!» وكانت هذه هي المقاطعة الوحيدة وخيِّم الصمت من جديد.

على أنّها كانت إذا تحدّث أولريش بحضورها عن أشياء عامة لا تحبّ منه ذلك. وكانت تحسّ بحقّ مع كلّ خطاياها أنّها على الرغم من ذلك موجودة وسط جمع من البشر المماثلين لها وكانت تنطوي على إحساس صحيح تجاه ما هو غير اجتماعي وما هو مبالغ فيه وغريب في أسلوبه المتمثِّل في تقديم الأفكار إليها بدلاً من المشاعر. وعلى كلّ حال فقد كانت الجريمة والحب والحزن قد توحَّدتْ فيها الآن في هذا السياق في حلقة واحدة من الأفكار كانت خطيرة إلى أقصى الحدود وكان أولريش بعيداً الآن عن أن يبدو لها بعدُ مفزعاً وكاملاً مثلما كان عند بداية اللقاء. غير أنّه كان قد ظفر تعويضاً له بشيء من سمات الفتيان وكان يثير مثاليتها كطفل لا يجرؤ على المرور بشيء لكي يسرع إلى قلب أمه. وكانت قد لبثت أطول وقت تحسّ بإحساسٍ رقيقٍ تجاهه مُقَلْقَلٍ مطلق العنان. ولكنَّ منذ أن ردّ أولريش إيماءتها الأولى إلى ذلك فرضت على نفسها التحفظ بقوّة. ولم تكن قد تغلّبت بعدُ على ذكرى تجرُّدها هنا في زيارتها الأخيرة ورقادها على أريكته وهي حَيْرى. وكانت قد اعتزمت إذا لم يكن من ذلك بدٌّ أن تظل بقبعتها ونقابها جالسة حتى النهاية على كرسيها لكي يتعلّم أن يفهم أن أمامه امرأة تعرف في حالة الضرورة كيف تتحكم في نفسها مثلما تفعل منافستها ديوتيما. وكانت بوناديا تفتقد على الدوام الفكرة الكبيرة من جراء الانفعال الشديد الذي كانت تتعرّض له بسبب القرب من حبيب. وبالطبع فهذا شيء يمكن للمرء مع الأسف أن يقوله عن الحياة كلّها وهو أنّها تنطوي على الكثير من الانفعال وعلى القليل من المعنى. ولكنَّ بوناديا لم تكن تعرف هذا وكانت تحاول أن تفصح عن أيّة فكرة. أما أفكار أولريش فكانت تفتقِد

فيها الكرامة التي كانت تحتاج إليها. ومن الجائز أنّها كانت تبحث عن فكرة أكثر جمالاً وأكثر انطواءً على الشعور. ولكنَّ التردد المثالي والانجذاب المبتذل الانجذاب والخوف الرهيب من أن تُجتَذَب قبل الأوان كانا يختلطان في أثناء ذلك مع حافز الصمت الذي كانت تختلج فيه التصرّفات العاجزة وذكرى الراحة الكبيرة التي كانت قد ربطتها بحبيبها برهة من الزمن. وفي النهاية كان هذا يماثل أن يتعلّق المطر في الهواء وألّا يستطيع النزول. كانت بثوراً تنتشر فوق البشرة كلّها ويفزع بوناديا من جرّاء تصوُّرها أنّها يمكن أن تفقد السيطرة على نفسها بدون أن تلاحظ ذلك.

وفجأة انبثق عن ذلك وهم جسدي بالبرغوث. ولم تكن بوناديا تعلَّم أكان حقيقة أم وهماً. وكانت تحسّ بقشعريرة في مخّها بانطباع لا يصدَّق وكأن تصوّراً قد انفصل هناك عن الإرتباط الضبابيّ بسائر التصوّرات ولكنَّه لم يكن مع ذلك إلا وهماً وكانت تحسّ في الوقت نفسه بقشعريرة على بشرتها لا سبيل إلى الشك فيها فهي أمينة للواقع. وأمسكت أنفاسها فعندما يصعد شيء ما على الدرج بوقع أقدامه ويعرف المرء أن الدرج خال ومع ذلك يسمع المرء وقع الأقدام بوضوح كامل يكون الأمر كذلك. وأدركت بوناديا وكأنَّ برقاً أضاء لها أن هذا استئناف غير طوعي للحذاء المفقود وكان يعني وسيلة استعلام يائسة بالقياس إلى سيدة. ومع ذلك فقد كانت تحسّ في اللحظة التي كانت تريد فيها أن تطرد الشبح بوخزة شديدة فصرخت بصوت خفيض واحمرت وجنتاها احمراراً شديداً وطالبت أولريش بمساعدتها في البحث على أن البرغوث يفضل الأماكن ذاتها التي يفضلها العاشق. وتم فحص الجورب حتى الحذاء ولم يكن هناك بدٌّ من فتح القميص الخارجي عند الصدر. وقالت بوناديا إنّه جاء من الحافلة أو من أولريش. ولكنَّ لم يكن من الممكن العثور عليه ولم يخلّف آثاراً.

twitter @baghdad_library

وقالت بوناديا: «لا أدري ما كان هذا!».

وابتسم أولريش ابتسامة الود على غير انتظار.

هنالك أخذت بوناديا في البكاء مثل فتاة صغيرة أساءت السلوك.

[٦٤]

الجنرال شتوم فون بوردفير يزور ديوتيما

وكان الجنرال شتوم فون بوردفير قد أنبأ ديوتيما بزيارته. وكان هذا ذلك الضابط الذي كانت وزارة الحربية قد أوفدته إلى الجلسة التأسيسيّة الكبرى حيث قام بدورٍ أحدث أثره على القوم جميعاً ولكنَّ بدونِ أن يستطيع أن يمنع تخطّي وزارة الحرب لأسباب معقولة عند تشكيل اللجان من أجل العمل السلمي الكبير الأمر الذي حدث وفقاً لنموذج الوزارات. وكان جنرالاً لا يتَّسم بقدر كبير من المهابة صغير البطن له شارب صغير بدلاً من الشارب المفتول الكبير وكان مستدير الوجه يتَّسم بشيء من سمة محيط العائلات مع غيابٍ لكلّ مقدَّرة على ما هو مطلوب من ضباط القوات المسلّحة في اللوائح الخاصّة بالزواج. وقال لديوتيما إن الجندي يلائمه دور متواضع في حجرة المداولات وإن من المفهوم بداهة فوق هذا لاعتبارات سياسية أنَّ وزارة الحربية لا يمكن إدخالها في الحسبان لدى تشكيل اللجان. ومع ذلك فهو يجرؤ على القول إنَّ العمل المخطَّط له ينبغي أن يحدث أثره في اتجاه الخارج. على أن ما يحدث أثره في اتجاه الخارج إنما هو سلطان شعب. وكرّر قوله إنَّ الفيلسوف الصغير ترايْتْشكه قال إنَّ الدولة هي المقدرة على المحافظة على البقاء ضمن إطار الصراع بين الشعوب والقوّة التي يطوّرها المرء في السلام تبعد الحرب وتختصر قسوتها إلى الحد الأدنى. وظلّ يتحدَّث طوال ربع ساعة واستخدم بعض الشواهد الكلاسيكية التي كان مايزال يتذكَّرها مُؤثِراً لها من أيام المدرسة الثانوية وزعم أن سنوات الدراسة الإنسانية هذه

twitter @baghdad_library

كانت أجمل سنوات حياته. وحاول أن يحمل ديوتيما على الشعور بأنّه معجب بها وأنّه مفتون بالطريقة التي أدارت بها الجلسة الكبرى وأنّه لم يكن يريد إلا أن يكرِّر مرّة أخرى بعدُ أنَّ استكمال القوّة الدفاعية المتخلّفة تخلّفاً بعيداً وراء الدول العظمى يمكن أن يعني إذا فهم على الوجه الصحيح الإعلان الأكثر تعبيراً عن الفكر السلمي وأعلن آخر الأمر أنّه ينتظر وكلّه ثقة أن يخرج إلى حيّز الوجود إسهام شعبي في مسائل الجيش بصورة تلقائية.

على أنَّ هذا الجنرال اللطيف وضع ديوتيما في حالة من الفزع القاتل. وكان في كاكانيا في تلك الأيام عائلات كان الضباط يتردّدون عليها لأنّ بناتها تزوّجن من ضباط وعائلات لم تتزوج بناتها ضباطاً إما لأنّ المال لم يكن متوفراً من أجل الكفالة الخاصّة بالزواج وإما عن مبدأ لكي لا يتردّد ضباط هناك. وكانت أسرة ديوتيما تنتمي لكلا السببين إلى الصنف الثاني. وكانت النتيجة أن السيِّدة الجميلة ذات الضمير النقي كانت تحمل عن الجيش في حياتها تصوّراً مماثلاً على وجه التقريب لتصوُّر موت أسدلت عليه خرقة ملوّنة. وردّت بقولها إنّه يوجد في الدنيا كثير جداً مِمّا هو عظيم وطيب بحيث لا يكون من السهل أن يتمّ الاختيار وأن من المزايا الكبرى أن يتاح للمرء في غمرة العمل المادي في الدنيا أن يعطي إشارة كبرى ولكنَّ ذلك يعدّ أيضاً واجباً صعباً. وأخيراً فمن المفترض أن ينبثق الإعلان من وسط الشعب نفسه الأمر الذي تضطر هي من أجله إلى أن تُطامِنَ رغباتها الخاصّة قليلاً. وكانت تضع كلماتها بعناية وكأنّها مسلوكة بخيوط للربط صُفْرٍ ضاربة إلى السواد. وكانت تحرق على شفتيها كلمات رقيقة على بخور البيروقراطية الراقية.

ولكن حين ودّع الجنرال المرأة انهار باطن المرأة الراقي عاجزاً. ولو أنّها كانت قادرة على شعور دنيء مثل الكراهية لكرهت هذا الرجل المكتنز القصير ذي العينين المتزلّفتين والأزرار الذهبية عند البطن. ولكنَّ لما كان هذا يستحيل

عليها فقد أحسَّت بمهانة غامضة. ولم يكن في وسعها أن تفصحَ عن السبب. وفتحت النوافذ على الرغم من برودة الشتاء وجعلت تروح وتجيء بحفيف ثوبها الصاخب مراراً في الحجرة وحين عادت إلى إغلاق النوافذ كانت الدموع في عينيها وكانت تتولّاها دهشة شديدة إذ حدث أنّها كانت تبكي الآن للمرة الثانية دونما سبب. وتذكّرت الليلة التي كانت قد ذرفت فيها الدموع إلى جانب زوجها بدون تفسير لذلك. أما هذه المرة فكان الجانب العصبي البحت في الحدث الذي لم يكن يتلاءم معه مضمون ما أكثر وضوحاً بعدُ. لقد كان هذا الضابط البدين يستخرج الدموع من عينيها مثل بصلة بدون أن يسهم في ذلك شعور معقول. وقد أثار هذا الإضطرابَ فيها بحق وكان خوف مفعم بالتوجُّس يقول لها إنَّ ذئباً ما غير مرئي يتسلّل زاحفاً حول حظائرها وأنّه قد آن الأوان لطرده بقوّة الفكرة. وبهذه الطريقة حدث أنّها اعتزمت بعد زيارة الجنرال أن تقوم بسرعة بالغة بتحقيق الإجتماع الذي يفترض أن يكون عوناً لها في توفير مضمون للعمل الوطني.

twitter @baghdad_library

[٦٥]

من محاورات آرنهايم وديوتيما

وقد أزاح الهمّ عن قلب ديوتيما أن آرنهايم كان قد عاد لتوّه من رحلة وكان تحت تصرّفها. وردّ قائلاً على الفور: «لقد كان لي حديث مع إبن عمك قبل بضعة أيام حول الجنرالات». وكان يدلي بهذا النبأ وعليه سيماء رجل يشير إلى ملابسة لها شأنها بدون أن يريد بيانَ ما يدور حول الأمر. وخرجت ديوتيما بانطباع مؤدّاه أن إبن عمها المفعم بالتناقض والقليل التحمّس للفكرة العظيمة للعمل يشجع بعدُ أيضاً الأخطار الغامضة التي كانت تصدر عن الجنرال واستأنف آرنهايم قائلاً: «لست أود أن أعرّض هذا لسخرية بحضور إبن عمك». وبهذه الكلمات مهّد لمنعطف جديد قائلاً: «ولكن يهمّني أن أدعك تشعرين بشيءٍ ما كنتِ لتصِلي إليه من تلقاء نفسك بحكم كونك واقفة عن بُعْدٍ ألّا وهو العلاقة بين العمل والأدب. وأنا أقصد بالطبع العمل بمعناه الكبير العمل العالمي كما قدِّر لي أن أمارسه من خلال المركز الذي ولدت فيه وهو وثيق الصلة بالأدب فهو يتمتَّع بجوانب غير عقلانية بل صوفية على وجه التخصيص بل أني لأودّ أن أقول إنَّ العمل يتمتَّع بهذه بصورة خصوصيّة. ألّا ترين حقاً أنَّ المال يعدّ سلطة غير متسامحة إلى حدٍّ غير عادي».

وأجابت ديوتيما التي كانت ماتزال متعلِّقة بالجزء الأوّل غير المكتمل من الحديث قائلة بشيء من التردد: «في كلّ ما يمارسه البشر مُعَبِّين فيه كلّ شخصيتهم يكمن على ما يبدو قدر معيَّن من عدم التسامح».

وقال آرنهايم على عجل: «ولاسيما في المال فالأغبياء من البشر يتوهمون أن امتلاك المال متعة! وهو في الحقيقة مسؤوليّة رهيبة. ولست أريد الحديث عن الشخصيّات التي لا تحصى المرتبطة بي بحيث أكاد أمثّل بالنسبة إليهم المصيرَ ولكنَّ دعيني أروي أنَّ جدي قد بدأ بعملٍ في نقل القمامة في مدينة متوسّطة من مدن الراين». وعند هذه الكلمات شعرت ديوتيما بالفعل برعدة مفاجئة بدت لها مثل امبريالية إقتصاديّة ولكنَّ هذا كان خلطاً لأنَّها لم تكن تخلو تماماً من الأحكام المسبقة الخاصّة بمحيطها الإجتماعي. ولما كان العمل الخاص بنقل القمامة قد ذكّرها في طريقة النطق الخاصّة بموطنها بالفلاح العامل في السماد فقد جعلها الإعتراف الجريء لصديقها تحمرّ خجلاً.

واستأنف المعترف قائلاً: «في هذا العمل الخاص بمعالجة المخلّفات وضع جدي الأساس لنفوذ آل آرنهايم. غير أن أبي أيضاً يبدو عصامياً حين يدخل المرء في حسبانه أنّه وسّع هذه المؤسَّسة خلال أربعين عاماً إلى بيت من البيوتات العالمية ولم يكن قد درس أكثر من فصلين دراسيين في مدرسة للتجارة ولكنَّه كان يتغلغل بنظره الثاقب في أكثر العلاقات العالمية تعقيداً ويعرف كلّ ما يحتاج إلى معرفته قبل أن يعرفه الآخرون من الناس. لقد درس علم الاقتصاد وكل العلوم التي تخطر في البال غير أنّها غير معروفة لديه البتة ولا يستطيع المرء أن يشرح بأية طريقة كيف يصنع هو ذلك غير أنّه لا يخفق أبداً في أدنى شيء. وهذا هو سرّ الحياة القويَّة البسيطة العظيمة الصحية!».

وكان صوت آرنهايم وهو يتحدَّث عن أبيه قد اتّخذ نبرة غير مألوفة متَّسمة بالخشوع وكأن هدوءها المتَّسم بالسكون الخاص بالمحاضرات قد قفز قفزة صغيرة في مكان ما لا على التعيين. على أنَّ ما كان يلفت نظر ديوتيما بصورة أكبر حين كان أولريش يروي لها أن الناس يصفون آرنهايم الشيخ ببساطة بأنّه

twitter @baghdad_library

رجل قصير عريض المنكبين ظاهر عظام الوجه له أنف كالزرّ كان يلبس دائماً حلّة ذنب السنونو(١٨) مفتوحة على نحو عريض وكان يتصرّف بممتلكاته من الأسهم بحنكة وحصافة مثلما يفعل لاعب الشطرنج بفلّاحيه. وبدون أن ينتظر جوابها مضى آرنهايم قائلاً بعد توقّف قصير: «عندما يبلغ عمل من الأعمال ذلك القدر من الاتساع الذي يبلغه القليل جداً من الأعمال التي أتحدَّث عنها هنا لا يكاد يوجد شأن من شؤون الحياة لا يكون متشابكاً معه. إنّه كَوْنٌ مصغَّر. وإنكِ لخليقة أن تتولّاك الدهشة لو علمت أيّة مسائل بعيدة عن المسائل التجارية فيما يبدو أضطرُّ في بعض الأحيان إلى التطرّق إليها في محادثاتي مع الرئيس الأوّل من فنّية وأخلاقية وسياسية غير أن المؤسَّسة ما عادت تحلّق في الأعالي كما كانت في أيام البداية التي أحب أن أسمّيها بالأيام البطولية. على أنّه يوجد للأعمال على الرغم من ازدهارها حدٌّ خفيّ للنمو مثلما يوجد ذلك بالقياس إلى كلّ ما هو عضوي. هل سألتِ نفسك ذات مرّة لماذا ما عاد يتجاوز اليوم حيوان من الحيوانات في نموه حجم الفيل؟ وأنتِ تجدين السر ذاته في تاريخ الفن وفي العلائق الغريبة في حياة الشعوب والحضارات والعصور».

وندمت ديوتيما الآن على أنّها أجفلت مرتعدة من عملية تحويل النفايات وشعرت بالارتباك.

وقال آرنهايم: «الحياة ملأى بأمثال هذه الأسرار. وهناك شيء يعجز أمامه كلّ عقل وأبي على ارتباط بذلك. ولكنَّ إنساناً مثل إبن عمك المتَّسم بالإقدام والمبادرة والذي يمتلئ رأسه بهذا لا يتوفّر لديه حسّ تجاه الكيفيَّة التي يمكن بها جعلُ الأشياء مختلفة أو تحسينها».

---

(١٨) تسمية ساخرة للبذلة المسماة في الإنجليزيّة Frack

وعبّرت ديوتيما حين ورد اسم أولريش مرّة أخرى بابتسامة عن أن رجلاً مثل إبن عمها لا يتمتّع بحال من الأحوال بحقٍّ يدعيه في ممارسة نفوذ عليها. وكانت بشرة آرنهايم المتجانسة الضاربة إلى الصفرة قليلاً والتي كانت في وجهه ملساءَ كالكمثرى قد احمرّت على مدى يتجاوز الوجنتين وكان قد تخلّى عن حاجة عجيبة كانت بعثتها فيه ديوتيما منذ عهد طويل وهي أن يفضي بنفسه إلى آخر ما هو غير معروف بغير تحفّظ. على أنّه انكفأ على نفسه من جديد وتناول كتاباً عن الطاولة وقرأ عنوانه بدون أن يفهمه وأعاده إلى موضعه نافِدَ الصبر وقال بصوته المألوف الذي أحدث لدى ديوتيما في هذه اللحظة أثراً مزلزلاً مثل حركة إنسان يلملم ثيابه إذ أدركت من وراء ذلك أنّه كان عارياً. «لقد شردتُ بعيداً. أما ما لديَّ مِمّا يقال عن الجنرال فهو أنّك لا تستطيعين أن تعملي شيئاً أفضل من أن تنفذي مخطّطك في أسرع وقت ممكن وأن ترتقي بعملنا عن طريق تأثير الفكر الإنساني وممثليه المعترف بهم. غير أنّك لست في حاجة إلى أن ترفضي الجنرال من حيث المبدأ. فربما كان حسن النية وإنك لتعرفين مبدأي وهو أنّه لا ينبغي للمرء أبداً أن يتجنّب الفرصة لإدخال الفكر في جوّ السلطة البحتة».

وأمسكت ديوتيما بيده ولخّصت هذا الحديث عند الوداع قائلة: «أشكر لك إخلاصك!».

وترك آرنهايم اليد اللطيفة تستقر في يده لحظة من الزمان متردّداً وهو يحملق بنظره فوقها وكأنّه نسي أن يقول شيئاً ما.

twitter @baghdad_library

[٦٦]

بين أولريش وآرنهايم أمور ليست على ما يُرام

ولم يكن من النادر في تلك الأيام أن يستمتع إبن عم ديوتيما بأن يصف لها الخبرات المفيدة التي جمعها وهو إلى جانب الشريف. وكان يعلّق أهمّية خاصة على أن يعرض عليها المرة بعد الأخرى الحقائب التي تنطوي على الاقتراحات التي وردت إلى الكونت لاينزدورف.

وقال وفي يده رزمة غليظة من الإضبارات: «أيْ ابنة العم الوجيهة ما عدتُ أستطيع أن أسعف نفسي وحدي فالعالم كلّه يبدو أنّه ينتظر منا ضروباً من الإصلاح ونصف هذه المقترحات يبدأ بكلمات «انطلاقاً من...» على حين يبدأ النصف الآخر بكلمات «الى الأمام نحو...»! ولديّ هنا مطالب تمتدّ من «انطلاقاً من روما» إلى «الى الأمام نحو زراعة الخضر» ففي أيّ جانب تريدين أن تقفي؟».

ولم يكن من السهل التنسيق بين الرغبات التي وجهّها إلى الكونت لاينزدورف العالمُ المحيط به. ولكنَّ مجموعتين من الرسائل كانتا تتميَّزان بحجمهما. أما الأولى فكانت تنسب إلى تفصيل معيَّن من التفاصيل المسؤولة عن حالة العصر السيئة وتطالب بالتخلّص منه ولم تكن أمثال هذه التفاصيل أقلَّ من: اليهود أو الكنيسة الرومانية أو الاشتراكية أو الرأسمالية أو طريقة التفكير الميكانيكية أو إهمال التطوير التقنيّ أو الاختلاط العنصري أو التخلّص من الاختلاط العنصري أو ملكيّة الأراضي الكبيرة أو المدن الكبرى أو إضفاء السمة الثقافية أو القدر غير الكافي من تعليم الشعب. أما المجموعة

الأخرى فكانت تشير إلى هدف متقدّم سيكون بلوغه كافياً تماماً. وكانت أهداف المجموعة الثانية هذه الجديرة بالتعلّق بها لا تتميّز عن التفاصيل الجديرة بالإئتلاف في المجموعة الأولى في العادة بشيء سوى أمارات التعبير الوجدانية وذلك فيما يبدو لأنّه يوجد في العالم طبائع تجنح إلى النقد وطبائع تجنح إلى الإستحسان وقد ورد في رسائل المجموعة الثانية مع تنكّر ينطوي على السرور أنَّ على المرء آخر الأمر أن يكفَّ عن العبادة المضحكة للفنون لأنّ الحياة أديب أعظم من كلّ الكتاب وطالبت بمجموعات تقارير المحاكم وأوصاف الرحلات من أجل الإستعمال العام. على حين زعمت في الحالة ذاتها رسائل المجموعة الأولى باستحسان ينطوي على السرور أن الشعور الخاص بالقمة عند متسلقي الجبال يتجاوز كلّ أشكال الإرتقاء في الفن والفلسفة والدين. ومن أجل ذلك ينبغي للمرء أن يقوم بدلاً من تنمية هذه بتنمية اتحادات الألب. وبمثل هذه الطريقة ذات النهج المزدوج كانت تجري المطالبة بإبطاء وتيرة الزمن مثلما تجري المطالبة بمسابقة علنية لأفضل ركن للأدب والفن لأنّ الحياة لا تطاق أو قصيرة على نحو مستعذب. وكان القوم يرغبون في تحرير الإنسانية عن طريق المستوطنات الحدائقية أو من المستوطنات الحدائقية أو تحرير المرأة أو الرقص أو الرياضة أو الرفاهية في السكن وكذلك عن طريق أشياء أخرى لا تحصى وأمور غيرها لا حصر لها.

وأطبق أولريش حقيبته وشرع في حديث خاص فقال: «يا ابنة العم الوجيهة إنَّ من الظواهر الباعثة على العجب أن النصف الأوّل يلتمس العلاج في المستقبل وأن النصف الآخر يلتمسه في الماضي ولست أدري ما الذي ينبغي للمرء أن يستخلصه من ذلك. أما الشريف فخليق أن يقول إنَّ الحاضر لا يرجى له شفاء».

وسألت ديوتيما قائلة: «هل يقصد الشريف إلى شيء كنسيّ؟».

twitter @baghdad_library

«لقد توصّل في اللحظة الراهنة إلى معرِّفة مفادها أنّه لا يوجد في تاريخ البشريّة رجوع طوعيّ. غير أنّه ما يزيد في صعوبة المسألة أننا لا نملك تقدماً مجدياً أيضاً. فاسمحي لي أن أشير إلى أن مِمّا يعدّ وضعاً غريباً ألّا تسير الأمور لا إلى الأمام ولا إلى الوراء وأن يجري الإحساس باللحظة الراهنة أيضاً على أنّها لحظة لا تطاق».

وتحصنّت ديوتيما حين تحدّث أولريش على هذا النحو في جسدها السامق وكأنّها تتحصن في برج له ثلاثة نجوم في كرّاسة الرحلات.

ويسأل أولريش قائلاً: «هل تعتقدين أيتها السيِّدة الموقَّرة أن أيّ إنسان يناضل اليوم من أجل قضية أو ضدّها إذا جُعِلَ غداً بأعجوبة حاكماً مطلقاً للعالم سوف يفعل في اليوم ذاته ما كان يطالب به طوال حياته؟ إنني لعلى يقين أنّه سوف يمنح نفسه مهلة بضعة أيام».

ولما كان أولريش قد توقَّف قليلاً بعد ذلك فقد توجّهت ديوتيما نحوه فجأة بدون أن تجيب وسألته بصرامة قائلة: «لأي سبب أفسحت للجنرال مجالاً للآمال في عملنا؟».

«لأيّ جنرال؟».

«للجنرال شتوم!».

أهذا هو الجنرال المكتنز القصير الذي كان في الجلسة الأولى الكبرى؟ أنا؟ أنا لم أره مرّة واحدة منذ ذلك الوقت فضلاً عن أن أفسح له مجال الأمل في شيء ما!».

وكانت دهشة أولريش مقنعة وكانت تقتضي تفسيراً. ولكنَّ لمّا كان رجل مثل آرنهايم لا يمكن أن ينطق بغير الحقيقة أيضاً فقد كان لا بدّ أن يكون هناك سوء فهم. وشرحت ديوتيما على أيّ شيء يستند افتراضها.

وأكد أولريش قائلاً: «أيقال إذاً إنني تحدثت مع آرنهايم حول الجنرال شتوم؟ ولا هذا أيضاً أبداً!.

«أما ما كان مع آرنهايم ـ هِبي لي أرجوكِ لحظة من الوقت» ـ وجعل يتذكَّر ثم ضحك دفعة واحدة. «إنه لأمر مشرّف جداً أن يعلّق آرنهايم مثل هذه الأهميّة على كلّ كلمة من كلماتي! لقد تحدثت إليه في الفترة الأخيرة مراراً إذا شئت أن تسمي تناقضاتنا بهذه التسمية. ولقد تكلمت ذات مرّة في هذا السياق في الواقع أيضاً عن جنرال ولكنَّ لا عن جنرال معيّن وكان ذلك بصورة عرضيّة فحسب على سبيل المثال وقلت إنَّ الجنرال الذي يبعث لسبب استراتيجي بكتيبة إلى الهلاك المحقّق إنما هو قاتل عندما يربط المرء بذلك أنَّ الآلاف إنما هم أبناء لأمهات. ولكنَّه يغدو على الفور شيئاً مختلفاً عندما يقرنه المرء بأفكار أخرى وذلك مثلاً بضرورة التضحيات أو اللامبالاة بالحياة القصيرة. واستعملت أيضاً قدراً كبيراً من الأمثلة الأخرى. ولكنَّ هنا لا بدّ لك أن تسمحي لي باستطراد (فلأسباب طبيعية جداً يتناول كلّ جيل الحياة التي يجدها على أنّها ثابتة باستثناء القليل الذي يهتم بتغييره. وهذا مفيد ولكنَّه خاطئ. فالعالم يمكن تغييره في كلّ لحظة وفي كلّ الإتجاهات أيضاً أو في أيّ اتجاه نشاؤه حقاً وهذا أمر يستكنّ في أعضائه إنَّ صحَّ التعبير. ومن أجل ذلك سيكون من قبيل الأسلوب الفريد في الحياة أن يحاول المرء ذات مرّة ألّا يسلك في عالم معيَّن سلوك إنسان معيَّن ليس فيه إلّا إذا شئت أن أقول بضعة أزرار يجب تحريكها مِمّا يسمّونه تطوّراً. بل يجب أن يسلك سلوك الإنسان الذي ولد من أجل التغيير بصورة مسبقة والذي يُحدِق به عالم خلق من أجل التغيير أيّ إنسان يكاد يكون مثل قطرة صغيرة من الماء في سحابة. أوَتزدرينني لأنَّني أجنح إلى الغموض من جديد؟».

twitter @baghdad_library

«لا أزدريك ولكنّي لا أستطيع أن أفهمك» وأمرته ديوتيما قائلة: «هلّا سردت عليّ الحديث كلّه!».

وبدأ أولريش قائلاً: «لقد كان آرنهايم هو الذي بعثته إذ استوقفني وطلبني للحديث على نحو سريع وقال لي بابتسامة تتّسم بالفطرية الغريزية إلى حدٍّ بعيد وتتناقض إلى حدٍّ ما مع الموقف الهادئ الذي كان يحافظ عليه في العادة ولكنّها كانت مع ذلك مفعمة بالسموّ: «نحن معشر التجار لا نحسُب كما يمكن أن تعتقد أنت بل نتعلّم النظر إلى خواطرنا الناجحة فعلاً على أنّها شيء يسخر من كلّ حساب مثلما يفعل ذلك النجاح الشخصي للسياسي وأخيراً مثلما يفعله النجاح للفنّان أيضاً ـ وأنا أقصد بالطبع القادة من الناس أما صغارهم فليحسبوا ما شاؤوا أن يحسبوا. ثم رجاني أن أحكم على ما سوف يقوله الآن بالأناة التي يمكن أن يقتضيها شيء غير عقلاني وأسرَّ إليّ أنّه تنتابه خواطر معيَّنة حولي منذ اليوم الأوّل الذي رآني فيه. ومن المفترض يا ابنة العمّ الموقَّرة أنّك قد حدَّثته عني ببعض الأمور بلا ريب أيضاً. ولكنَّ ما كان في حاجة إلى أن يسمعها أبداً كما قال مؤكِّداً وقد صرّح لي أنني قد اخترت مهنة ذهنية تجريدية تماماً. ذلك لأنَّني مهما كنت موهوباً في ذلك فقد مضيت في طريق خاطئ إذ اشتغل بالعلوم وإنَّ موهبتي الجوهرية تكمن وإن كان ذلك قد يبعث على دهشتي: في مجال السلوك والتأثير الشخصي!».

وقالت ديوتيما: «هكذا؟».

وأسرع أولريش إلى الرد قائلاً: «أنا أرى رأيه تماماً فأنا لا أفتقر إلى الموهبة في شيء مثل افتقاري إليها من أجل نفسي».

وقالت ديوتيما التي كانت ماتزال مستاءة منه بسبب الحقائب: «أنت تتهكّم دائماً بدلاً من أن تكرِّس نفسك للحياة».

«أما آرنهايم فيزعم نقيض ذلك وهو أنني أحتاج إلى أن أستخلص من تفكيري نتائج بالغة العمق بالنسبة للحياة ـ كما يقول».

وحسمت ديوتيما المسألة قائلة: «أنت تتهكم وأنت سلبيّ وأنت تظل دائماً تفتقر إلى المستحيل وتتجنّب كلّ قرار واقعي!».

وردّ أولريش قائلاً: إنّها ببساطة قناعتي وهي أنَّ التفكير جهاز قائم بذاته وأن الحياة الفعلية جهاز آخر. ذلك لأنّ الفرق المتدرّج بين كليهما فرق بالغ الضخامة في الوقت الراهن. ودماغنا يبلغ من العمر بضعة آلاف من السنين، ولكنَّ حين لا ينجز كلّ شيء فِكراً إلا إلى نصفه ويكون قد نسي نصفه الآخر تكون صورته الأمينة هي الواقع ولا يستطيع المرء أن يأبى على هذا الجهاز إلا الإسهام الذهني».

وسألت ديوتيما بدون قصد عن الإهانة بل مثلما يطلّ جبل على جدول صغير عند سفوحه قائلة: «أوَلا يعني هذا تبسيط المهمة إلى حدٍّ مفرط؟ فآرنهايم يحبّ النظريات أيضاً ولكنّي أعتقد أنّه قلّما يسمح لنفسه بالإيغال في ذلك قبل أن يفحصه بالنظر إلى كلّ الملابسات: أوَلا ترى أن معنى كلّ تفكير إنما يتمثَّل في كونه إمكانية مكثَّفة من إمكانات التطبيق...؟».

وقال أولريش: «كلا».

«أنا أود أن أسمع بم أجابك آرنهايم عن ذلك؟».

«لقد قال لي إنَّ الفكر متفرّج لا حول له على التطوّر الفعلي لأنّه يتجنَّب المهمات الكبرى التي تطرحها الحياة ودعاني إلى أن أنظر إلى الأمور التي تتناولها الفنونُ والى صغائر الأمور التي تحقّقها الكنائس والى مدى ضيِّق مجالِ نظر العلم! وكان عليّ أن أفكِّر في أن الأرض قد تمَّ تقسيمها أثناء ذلك

twitter @baghdad_library

بالمعنى الحرفي. ثم صرح لي قائلاً إنَّ هذا هو بالذات ما أراد أن يحدثني عنه!».

وسألت ديوتيما متشوّقة إذ كانت تعتقد أنّها تحْزِر أن آرنهايم قد أراد أن ينحي باللائمة على إبن عمها بسبب سلوكه غير المنطوي على الإهتمام حيال مسائل العمل الموازي قائلة: «وبماذا أجبت؟».

«أجبته بأن التنفيذ يعدّ في كلّ وقت أقلّ جاذبية مِمّا لم ينفّذ وأنا لا أقصد بذلك هذا العائد إلى المستقبل مثلاً بل أقصد بالقدر ذاته إلى حدٍّ بعيد ما انقضى وفات. ويبدو لي أن تاريخنا هو أننا كلّما حققنا بعض الأشياء اليسيرة من فكرة ما جعلَنا السرورُ بذلك ندع القسم المتبقي الأكبر منها بغير إنجاز. فالمنشآت العظيمة هي في العادة مشروعات معطلة لأفكار ما وهذا ينطبق آخر الأمر أيضاً على الشخصيّات العظيمة: هذا ما قلته له. لقد كان هذا إلى حدٍّ ما فرقاً في اتجاه النظرة».

وقالت ديوتيما متكدرة: «كان هذا مشاكسة منك».

«وقد أخبرني مقابل ذلك كيف أبدو أنا له عندما أنكر شدة البأس والعزم من أجل أيّ تدبير عام فكريّ متأخّر. أتريدين أن تسمعي هذا؟ مثل رجل يرقد إلى جانب سرير مهيّأ له على الأرض. وأضاف قائلاً لي بصورة شخصية: «إن هذا من قبيل تبديد الطاقة بل يعدّ أمراً لا أخلاقياً من الناحية الجسديّة. وألحّ عليّ أن أفهم حقاً أن الأهداف الفكريّة ذات المدى الكبير لا سبيل إلى بلوغها إلا باستعمال علاقات القوّة القائمة اليوم من قوّة إقتصاديّة وسياسية وليس آخرها القوّة الفكريّة. أما هو شخصيّاً فيرى أن استخدامها أكثر أخلاقية من إهمالها. ولقد أجهدني كثيراً وسمّاني إنساناً بالغ النشاط في وضع دفاعي في وضع دفاعيّ متشنج. وأعتقد أن لديه أيّ سبب كان سبباً ليس بالهائل تماماً يحمله على الرغبة في كسب احترامي!».

وصاحت ديوتيما قائلة على سبيل العقوبة: «إنه يريد أن ينفعك!».

وقال أولريش: «كلا فربما كنت مجرّد حصاة صغيرة وهو مثل كرة زجاجية فخمة منتفخة ولكنّي أشعر أنّه يهابني».

لم تجب ديوتيما عن ذلك بشيء. وربّما كان هذا الذي نطق به أولريش ينطوي على الزهوّ. ولكنَّ كان قد خطر لها أن الحديث الذي كان قد رواه لم يكن بحال من الأحوال كما كان يجب أن يكون تماماً وذلك تبعاً للانطباع الذي كان آرنهايم قد أحدثه لديها بل أن هذا أثار لديها الإضطراب. وعلى الرغم من أنّها كانت تعدّ آرنهايم غير مؤهّل لسجيّة تتّسم بالمراوغة فقد اكتسب أولريش الثقة مع ذلك. وعلى هذا وجهت إليه السؤال عمّا ينصح به في مسألة الجنرال شتوم.

وكان جواب أولريش: «أبعديه!». ولم يكن في وسع ديوتيما أن توفر على نفسها الملامة المتمثّلة في أن هذا أعجبها.

twitter @baghdad_library

[٦٧]

ديوتيما وأولريش

كانت علاقة ديوتيما بأولريش قد تحسَّنت كثيراً في هذا الوقت عن طريق اللقاء الذي كان قد تحوّل إلى عادة. وكان عليهما أن يخرجا معاً في كثير من الأحيان للقيام بالزيارات. وكان يأتي إليها أكثر من مرّة في الأسبوع. ولم يكن من النادر أن يكون ذلك بدون إبلاغ وفي أوقات غير مألوفة. وكان مِمّا يريح كليهما في هذه الظروف أن يستفيدا من علاقة القربى بينهما وأن يخففا من وطأة القواعد الإجتماعية الصارمة بالطريقة المنزلية. ولم تكن ديوتيما تستقبله دائماً في الصالون ولم تكن مجهَّزة كلّ التجهيز من عقدة الشعر إلى حافة الهُدْبيّة للثوب بل كانت في بعض الأحيان في حالة تحلُّل من الهندام بثياب منزلية خفيفة وإن كان هذا يعني أيضاً مجرّد تحلُّل بالغ الحذر. وكان قد نشأ بينهما نوع من الترابط كان يتجلّى في المقام الأوّل في صورة التواصل. ولكنَّ الأشكال تحدّث أثرها باتجاه الداخل كما أن المشاعر التي تكوّنت منها يمكن إيقاظها عن طريقها أيضاً.

وكان أولريش يشعر أحياناً شعوراً بالغ الإلحاح بأن ديوتيما فائقة الجمال وكانت تبدو له عندئذ مثل بقرة فتية عالية طيّبة الأصل واثقة الخُطى وهي تتأمل الأعشاب التي كانت تجتثُّها بنظرة عميقة. وإذاً فلم يكن ينظر إليها حتى في تلك الأيام بدون ذلك الخبث والسخرية اللذين كان ينتقم بهما لنفسه عن طريق تشبيهات من مملكة الحيوان من النبالة الفكريّة لديوتيما وكان هذا يصدر عن غضب عميق وكان هذا ينطبق على هذا الطفل النموذجي البليد أقلّ مِمّا ينطبق

على المدرسة التي كانت كفاءاته قد لقيت فيها نجاحاً وكان يقول في نفسه: «كم كان يمكن أن تكون ظريفة لو أنّها كانت غير مثقفة كَسْلى طيِّبة القلب كثيراً كما هو شأن الجسد الأنثوي ذي البنيان الضخم والدافئ دائماً حين لا يتصوّر أفكاراً خاصة!».

على أن الزوجة الشهيرة لرئيس القسم توتسي الكثير التَشَكّي كانت تتبخّر عندئذ من جسدها ولم يكن يتبقّى إلا هذا نفسه مثل حلم يتحوّل بما معه من وسائد منجّدة وسرير وامرئٍ حالم إلى سحابة بيضاء تنفرد وحدها في العالم برقّتها.

ولكن حين كان أولريش يعود أدراجه من مثل هذه النزاهة لمَلَكة الخيال كان يرى أمامه شخصيّة طموحة من الطبقة الوسطى كانت تسعى إلى الاحتكاك بأفكار النبلاء. على أن القرابة الجسديّة مع التاقض الكبير في الجوهر كانت تبعث لديه الإضطراب آخر الأمر. ويكفي من أجل ذلك مجرّد تصوُّر القرابة والاعتداد بالنفس. فالإخوة لا يستطيعون في بعض الأحيان أن يحتمل بعضهم بعضاً بطريقة تتجاوز كلّ شيء تجاوزاً بعيداً الأمر الذي يمكن تبريره بناءً على ذلك وهو يأتي من مجرّد أن بعضهم يرتاب في بعض من جراء مجرّد وجودهم ويتمتَّع كلٌّ منهم بأثر انعكاسي على الآخر يُحدِث بعض التشويه. وكان يكفي أحياناً أن ديوتيما كانت تَعْدِل أولريش طولاً لكي توحي بفكرة أنّها تمت إليه بصلة القربى ولكي تجعله يحسّ بالنفور من جسدها. وكان قد نقل إليها هنا مهمة كان يتولّاها في العادة صديق صباه فالتر وإن كان ذلك مع بعض التعديلات وهي في الحقيقة مهمة إذلال كبريائه واستفزازه مثلما تذلّنا صور قديمة غير مستحبّة نرى فيها أنفسنا من جديد أمامنا وتتحدّانا في كبريائنا في الوقت ذاته. وقد تبيَّن من ذلك أن سوء الظن الذي كان أولريش يوليه ديوتيما كان لا بدّ أن يوجد فيه هو أيضاً شيء من الإرتباط والصلة الوثيقة وباختصار

twitter @baghdad_library

نفحةٌ من الميل الحقيقي مثلما كان الانتماء القلبيّ الغابر إلى فالتر يواصل حياته بعدُ بشقّ النفس في صورة سوء الظن.

وقد أثار هذا استغراب أولريش إذ لم يكن يحبّ ديوتيما زمناً طولاً إلى حدٍّ بعد بدون أن يستطيع الوصول إلى ما وراءه. كانا يقومان أحياناً بنزهات قصيرة وكان يُستفاد من الطقس الحسن بتشجيع من توتسي لكي يُعرَض على آرنهايم على الرغم من الفصل غير الملائم «ألوان الجمال في محيط ڤيينا» ـ ولم تكن ديوتيما تستعمل أبداً تعبيراً آخر من أجل ذلك سوى هذا الرَوْسَم[١٩] ـ وكان أولريش يرى نفسه وقد أخذوه معهم في دور قريب أكبر نسبيّاً يتكفل بحماية الشرف في كلّ مرّة إذ لم يكن رئيس القسم توتسي فارغ الوقت وقد تبيَّن بعد ذلك أن أولريش كان يرتحل أيضاً وحده مع ديوتيما إذا كان توتسي مسافراً. وكان هذا قد وضع من أجل أمثال هذه النزهات سيارات تحت التصرّف مثلما حدث أيضاً من أجل الأغراض المباشرة للعمل على قدر ما كانت تمس الحاجة لأنّ عربة الشريف كان في زينتها من الأعلام والرنوك مشهورة في المدينة أكثر مِمّا ينبغي ولافتة للنظر على أنّها لم تكن آخر الأمر سيارات آرنهايم الخاصّة أيضاً إذ يجد الأغنياء من الناس دائماً سيارات أخرى وهم الذين يقرون عيناً بالظفر بإعجاب هؤلاء عن هذا الطريق.

على أن أمثال هذه الرحلات لم تكن تفيد من أجل المتعة فحسب بل كان من أغراضها أيضاً الدعوة إلى مشاركة الشخصيّات ذوات النفوذ أو ذوات الثراء في المشروع الوطني وكانت تتمّ في مناطق الحماية في المدن أكثر مِمّا تحدّث في الريف. وكان كلا القريبين يريان معاً كثيراً من الأشياء الجميلة من أثاث عصر ماريا تيريزا وقصور عصر الباروك والبشر الذين كانوا مازالوا يحملون على أيديهم خدمهم والبيوت الحديثة المتميِّزة بأنساق الغرف الكبيرة

(١٩) الكليشيه

وقصور المصارف والمزيج من الصرامة الإسبانية مع عادات الحياة الخاصّة بالطبقة الوسطى في مساكن كبار العاملين في الدولة. وعلى وجه الإجمال كانت هذه فيما يتّصل بالنبلاء بقايا أسلوب في الحياة بدون ماء جار وكانت هذه تتكرّر في منازل الأغنياء من الطبقة الوسطى وقاعات المؤتمرات لديهم في صورة محسنةً من الناحية الصحية وأكثر ذوقاً ولكنّها أكثر شحوباً. وذلك أن طبقة السادة تظل دائماً بربرية إلى حدٍّ ما: كانت الرواسب والبقايا التي لم يحرقها استمرّار توهّج العصر قد ظلّت راقدة في قصور النبلاء وحيث كانت راقدة وعلى مقربة شديدة من السلالم الفخمة كانت القدم تطأ ألواحاً من الخشب الليّن وكان الأثاث الجديد الفظين ينتصب مهملاً بين القطع القديمة الرائعة. وكانت طبقة الذين ارتقَوْا في مقابل ذلك وهي المغرمة باللحظات المهيبة والكبرى عند أسلافها قد أصابت بصورة عفوية مجموعة مختارة تنمّ عن حسن الاختيار وإرهاف الذوق. وإذا كان قصرٌ تابعاً لملكية الطبقة الوسطى لم يظهر مثل قطعة عائلية فحسب كالثريّا التي يسلك فيها المرء أسلاكاً كهربائية ويزوّدها بالرفاهية الحديثة بل لم يكن يُستَبعد من الجمال في الجهاز إلا قَدْرٌ أقلّ ويجري فوق ذلك تحصيل أشياء قيّمة إما بالاختيار الخاص وإما بموجب النصيحة التي لا تُردُّ من قبل الخبراء. على أن إرهاب الذوق هذا كان يتجلّى أبلغَ ما يكون أثراً آخر الأمر لا في القصور بل في مساكن المدينة التي كانت مجهَّزة على نحو عصريّ تجهيزاً يتَّسم بالأبّهة التي تكون في باخرة من عابرات المحيط ولكنّها كانت في هذه البلاد ذات الطموح الإجتماعي المرهف تحافظ على الصدى الواضح الرقيق لخفوت كبير عن طريق نفحة لا يُمكن وصفها وعن طريق تمايز لا يكاد يلاحظ بين قطع الأثاث أو الوضع المهيمن لصورة على جدار.

twitter @baghdad_library

وقد فُتِنَت ديوتيما بهذا القدر الكبير من «الحضارة» وكانت تعرف دائماً أن وطنها ينطوي على أمثال هذه الكنوز غير أن المقدار فاجأها هي نفسها. وكانا يُدعَيان معاً إلى زيارات في الريف وقد لفت نظر أولريش أنّه لم يكن من النادر أن يرى الفاكهة يجري تناولها غير مقشّرة أو نحو ذلك على حين كان يتمّ في بيوت الكبار من أهل الطبقة الوسطى المحافظةُ الصارمة على تقليد السكين والشوكة وقد أمكن تسجيل الملاحظة ذاتها في الحديث الذي لم يكن يتّسم بالتميُّز الكامل إلا في منازل البورجوازيين تقريباً على حين كان يغلب على طريقة الكلام في أوساط النبلاء الطريقة المعروفة العفوية التي تذكّر بحديث الحوذيين. وكانت ديوتيما تدافع عن هذا بحماسة في وجه إبن عمها. وكانت تسلّم بأن المنازل الرفيعة الخاصّة بالبورجوازيين تتميَّز بقدر أكبر من الشروط الصحية وبقدر أكبر من الذكاء. أما منازل النبلاء الريفيّة فكان المرء يتجمّد فيها من البرد في الشتاء. وكانت غرف النوم المنخفضة توجد إلى جانب حجرات الإستقبال الفخمة. وكانت تقول إنّه لا يوجد مصعد للأطعمة ولا حمام للخدم ولكنَّ هذا على وجه الخصوص يعدّ الآن الجانب الأكثر بطولية بمعنى معيَّن والجانب الموروث والمخلَّف كما كانت تختتم الكلام وهي مفتونة.

وكان أولريش يستعمل هذه الرحلات ليقتفي آثار الشعور الذي كان يربط ديوتيما به. ولكنَّ لما كان كلّ شيء في هذا الصدد حافلاً بضروب من الاستطراد كان لا بدّ للمرء أن يتعقّبهما قليلاً قبل أن يصل إلى الأمرالحاسم:

وفي تلك الأيام كانت النساء يلبسْنَ ثياباً مغلقة من العنق إلى الكعبين وكانت هذه في ذلك الوقت أكثر ملاءمة للرجال على الرغم من أنّهم مازالوا حتى اليوم يلبسون ثياباً مماثلة. ذلك لأنّها كانت ماتزال تمثّل في علاقة حية الانغلاق الذي لا شائبة فيه والتحفّظ الصارم تجاه الخارج ذلك التحفظ الذي

كان يعدّ من علامات رجل المجتمع. وكانت الصراحة الجلية التي تتمثل في عرض المرء نفسه عارياً خليقة أن تبدو في تلك الأيام بمثابة ارتداد إلى البهيمية حتى بالنسبة إلى إنسان لا ينطوي إلا على القليل من الأحكام المسبقة ولا يعود تقديره للجسد المتجرد يعوقه أيّ خجل. وذلك ليس بسبب العري بل بسبب التخلّي عن وسيلة الحبّ المتحضّرة المتمثّلة في ارتداء الثياب بل كان المرء خليقاً أن يقول في ذلك الوقت إنَّ هذا يعدّ أدنى من البهيمية ذلك لأنّ حصاناً في عامه الثالث حسن التربية وكلب صيد يلعب ينطويان على تعبير أكبر كثيراً في عريهما مِمّا يمكن أن يصل إليه الجسد البشري على أنّهما لا يستطيعان في مقابل ذلك أن يرتديا ثياباً فليس لهما إلا الجلد أما البشر فكانت ماتزال لهم في تلك الأيام جلود كثيرة إذ كانوا قد ابتدعوا لأنفسهم من الثوب الكبير وأشكال ثنياته وأكمامه المنفوخة وثنيات ذيله وثنيات فتحة الصدر والدانتيل وأشكال الزمّ قشرة سطحية تعدل خمسة أمثال القشرة الأصلية وكانت تشكّل كأساً غنياً بالطيات صعب الاختراق مشحوناً بالتوتّر الشهواني يخفي في داخله الحيوان الأبيض النحيل الذي كان يحمل على البحث عنه ويجعل نفسه مثاراً للرغبة إلى حدٍّ رهيب. وكانت هذه هي الطريقة المرسومة سلفاً والتي تستعملها الطبيعة نفسها عندما توحي إليها أن تقاوم الجلود أو تنثر سحباً من الغموض لكي تصعّد في الحبّ والخوف الأحداث الموضوعية التي هي مدار الإهتمام في هذا الصدد إلى درجة الجنون المتسامي.

وكانت ديوتيما تشعر لأول مرّة في حياتها بأنّها تأثرت بهذه اللعبة تأثُّراً أعمق وإن كان ذلك بطريقة متحفظة ولم يكن الدَلُّ غريباً عنها إذ كان ينتمي إلى تلك المهامّ الإجتماعية التي لم يكن بدّ للسيّدة من أن تتقنها. وكذلك لم يكن يفوتها أبداً حين كانت نظرات الشباب تعبّر في هذا الصدد عن شيء آخر سوى التهيُّب منها بل كان ذلك يسرّها إذ كان يتيح لها أن تشعر بسلطان الزَجْر

twitter @baghdad_library

الأنثويّ الرقيق حين كانت ترغم نظرة الرجل الموجهة إليها مثل قرني ثور على أنَّ تتوجَّه إلى الانشغال بأمور مثالية كان فمها يعرب عنها. ولكنَّ أولريش الذي كان يغطيه القرب القائم على القرابة والغيريّة الماثلة في إسهامه في العمل الموازي والذي كان يجد الحماية أيضاً في ملحق الوصية الذي أنشئ لمصلحته كان يسمح لنفسه بألوان من الحرية كانت تخترق شبكة مثاليتها المتشعبة اختراقاً عمودياً. ومن ذلك أنّه حدث ذات مرّة في رحلة إلى الريف أنَّ العربة كانت تدرج وهي تمرّ بوديان خلّابة كانت سفوح الجبال المكسوّة بغابات الصنوبر القاتمة وكانت ديوتيما تشير إليها بالأبيات القائلة: «من ذا الذي أنشأك أيتها الغابة الجميلة ونصبك على هذا العلوّ...؟».

وكانت تستشهد بهذه الأبيات بصورة قصيدة على نحو بديهي بدون أن تشير مجرّد إشارة إلى الأغنية التابعة لها إذ كان هذا خليقاً أن يبدو لها مستهلكاً لا يفيد شيئاً. ولكنَّ أولريش ردّ بالقول: «المصرف العقاري للنمسا السفلى. أنت لا تعرفين يا ابنة العم أن كلّ الغابات هنا تعود إلى المصرف العقاري. والمعلِّم الذي تريدين أن تثني عليه إنما هو ناظر غابة معيّن منقبله والطبيعة هنا نتاج مخطط لصناعة الحراج. إنّها مستودع مرتّب بطريقة التسلسل لصناعة السيللوز الأمر الذي يستطيع المرء أن يراه فيها أيضاً ببساطة. وعلى هذا الطراز كانت أجوبته في كثير جداً من الأحيان وكانت إذا تحدثت عن الجمال تحدّث هو عن النسيج الذهني الذي يحمي البشرة وإذا تحدثت عن الحبّ تحدّث هو عن المنحنى البياني السنوي الذي يدل على التصاعد الآلي وعلى الهبوط في أرقام المواليد وإذا تحدثت عن الشخصيّات الكبرى في الفن بدأ هو بسلسلة الاستعارات التي تربط هذه الشخصيّات فيما بينها. وكان يحدث في الحقيقة دائماً أن تشرع ديوتيما في الحديث وكأنَّ الله قد وضع الإنسان في اليوم السابع لؤلؤة في محارة العالم حيث كان يذكر بأن الإنسان كتلة صغيرة

من النقاط الصغيرة على القشرة الخارجية الأولى لكرة أرضية متقزّمة. ولم يكن من الأمور البسيطة كلّ البساطة أن يستكشف المرء ببصره ما كان أولريش يرمي إليه بذلك. وكانت المسألة على ما يبدو تنطبق على ذلك المحيط من العظمة الذي كانت تشعر بارتباطها به وكانت ديوتيما تشعر بهذا على أنّه تحذلق مزعج قبل كلّ شيء. ولم تكن تستطيع أن تحتمل أن يدَّعي إبن عمها الذي بات الآن طفلاً مفزعاً بالنسبة إليها أنّه يعرف شيئاً ما معرِّفة أفضل منها. وكانت حججه المادية التي لم تكن تفهم فيها شيئاً لأنّه كان يأتي بها من الحضارة الدنيا الخاصّة بالحساب والدقة تزعجها إزعاجاً فظيعاً ـ وقد ردّت عليه ذات مرّة قائلة بحدة: «مازال يوجد والحمد للّه أناس يقدِّرون على الإيمان البسيط على الرغم من تجاربهم الكبرى!».

وأجاب أولريش قائلاً: «زوجك مثلاً ولقد سبق أن أردت أن أقول لك منذ عهد قريب إنني أفضله تفضيلاً بعيداً عن آرنهايم». وكانا قد تعوّدا في تلك الأيام أن يتبادلا الأفكار فيما بينهما على الغالب بحيث يتحدَّثان عن آرنهايم. ذلك لأنّ ديوتيما كانت شأن كلّ العاشقات يمتّعها أن تحدّث عن موضوع حبها بدون أن تشيَ بما في نفسها في هذه الأثناء كما كانت تعتقد على الأقل. ولما كان أولريش يجد هذا أمراً لا يطاق إلى حدٍّ بعيد كما هو بالنسبة إلى كلّ رجل لا يربط بانسحابه الخاص مقصداً كاملاً من ورائه كان يحدث في أمثال هذه المناسبات كثيراً أن كان يُذكَر آرنهايم بالسوء وكانت قد نشأت علاقة من نوع خاص تربطه بهذا. وكانا يلتقيان حين لا يكون آرنهايم مسافراً في كلّ يوم تقريباً وكان أولريش يعرف أن رئيس القسم توتسي كان يرتاب في الأجانب مثلما استطاع هو نفسه أن يلاحظ تأثيره على ديوتيما منذ اليوم الأول. وبالطبع فلم يكن قد وُجد بعد شيء سيّئ بين هذين على قدر ما كان امرؤٌ ثالث يستطيع أن يحكم على هذا إذ كان يؤيده في هذا التخمين تأييداً شديداً أنّه كان يوجد

twitter @baghdad_library

بين العاشقين من الأمور المستقيمة قدر كبير إلى حدٍّ لا يحتمل كان يجري على ما يبدو على نهج أعلى النماذج من وحدة الروح الأفلاطونية. وفي هذا الصدد كان آرنهايم يعرب عن ميل يلفت النظر إلى إدخال إبن عم صديقته في العلاقة الحميمة (أو ربّما عشقها؟ ـ كما كان يتساءل أولريش فقد كان يعدّ العشيقة أقرب إلى الصديقة مقسّمة على اثنين في أقرب الاحتمالات). وكان يوجّه كلمته إلى أولريش بطريقة صديق أكبر سناً وهي طريقة كان مسموحاً بها بسبب فارق السنّ ولكنّها اكتسبت عن طريق فارق المكانة مسحة غير مستحبة من الاستخفاف. وكان أولريش يردّ على هذا أيضاً بالرفض على الدوام تقريباً وبطريقة تنطوي على التحدي وكأنّه لا يعرف أدنى معرّفة كيف يقدّر التعامل مع رجل كان يستطيع أن يتحدَّث بدلاً منه مع الملوك والمستشارين حول أفكاره وكان يعارضه بطريقة غير مهذَّبة في الغالب وبأسلوب ساخر إلى حدٍّ غير لائق وكان يستاء هو نفسه من هذا النقص في التماسك الذي كان خليقاً أن يعوّضه تعويضاً أفضل عن طريق متعة الملاحظة الصامتة. ولكنَّ الحدث الذي أثار دهشته هو أنّه كان يشعر باستثارة بالغة العنف من جرّاء آرنهايم الذي كان يرى فيه الحالة الفذّة النموذجية التي تواتيها الظروف والتي كان يكرهها. ذلك لأنّ هذا الكاتب الشهير كان ذكياً بما يكفي لإدراك الوضع المنطوي على الإشكال الذي وضع الإنسان نفسه فيه منذ أن كفّ عن البحث عن صورته في مرآة الجداول بل بات يبحث عنها في صفحات ذكائه المتقطعة الحادّة ولكنَّ ملك الحديد هذا القائم بالكتابة كان يردّ المسؤولية عن ذلك إلى ظهور الذكاء لا إلى عدم اكتماله. وكان ثمة غشّ يكمن في هذا الجمع بين سعر الفحم والنفس ذلك الجمع الذي كان في الوقت نفسه تفريقاً بينهما يخدم الغرض وهو ما كان آرنهايم يفعله عن معرفة جلية بما كان يتحدَّث عنه في حدس ضبابيّ. وأضيف إلى ذلك مِمّا زاد في الانزعاج لدى أولريش شيءٌ كان جديداً عليه ألّا وهو الإرتباط بين الفكر والثروة. ذلك لأنّ آرنهايم حين كان يحدث حديث

المختص تقريباً حول أيّة مسألة من المسائل على حدة لكي يدع التفاصيل تتلاشى فجأة في ضوء «فكرة كبرى» بحركة متثاقلة إنما كان من الممكن أن ينشأ هذا عن حاجة لا تفتقر إلى التبرير. ولكنَّ هذا الاعتماد الحرّ على اتجاهين في الوقت نفسه كان يذكّر بالرجل الغني الذي ينجز كلّ ما هو جيّد وغالٍ وكان ظريفاً بمعنىً يذكّر قليلاً بأسلوب الغنى الفعلي. وربّما لم يكن هذا بعدُ يستفزّ أولريش أكثر ما يكون الاستفزاز إلى إثارة آلمت وقد مكّنته هذه المناعة من أن يقابل عدم التهذيب عند الرجل الأكثر شباباً بتلك الزمالة الودية التي لم يكن هذا يتبين مصدرها على نحو جليّ. ولا ريب في أن ما كان يهمّ أولريش نفسه هو ألّا يُفرط في الاستخفاف بخصمه إذ كان قد اعتزم ألّا يعود بهذه السهولة إلى واحدة من أنصاف المغامرات غير اللائقة التي كان ماضيه يحفل بها إلى حدٍّ مفرط. وكانت خطوات التقدّم التي لاحظها بين آرنهايم وديوتيما تهب لهذه العزيمة اطمئناناً كبيراً. ومن أجل ذلك كان يوجّه طلائع هجماته في العادة توجيه مقدّمة سفّود تتراجع في مرونة وهي محاطة بغلاف صغير يضعف الصدمة بطريقة ودية. وكانت ديوتيما هي التي عثرت على هذه التسمية آخر الأمر وكانت أمور إبن عمها موفّقة على نحو يبعث على العجب وكان وجهه الصريح ذو الجبين الوضّاح وصدره ذو الأنفاس الهادئة والمرونة الطليقة في كلّ أعضائه تشي لها بأنَّ الحاجات الخاصّة بالشرّ والشماتة والمنطوية على التمتع بطرق ملتوية لا يمكن أن يكون لها مكان طبيعي في هذا الجسد كلا ولم تكن أيضاً خالية كلّ الخلوّ من الافتخار بمثل هذه الظاهرة الحسنة في عضوٍ من عائلتها. وكانت قد عقدت العزم منذ بداية التعارف بينهما على أن تمسك بزمامه ولو أنّه كان أسود الشعر مائل الكتف غير نقيّ البشرة منخفض الجبين لقالت إنَّ نظراته تتلاءم مع هذا. غير أن الكيفيَّة التي كان يبدو بها في الواقع لم يكن يلفت نظرها فيها إلا قَدْرٌ معيَّن من عدم التطابق مع وجهات نظره. وكان ذلك يتجلّى في صورة إثارة للاضطراب لا سبيلَ إلى

twitter @baghdad_library

تفسيرها. وكانت خيوط التلمّس الخاصّة بحدسها تبحث عبثاً عن السبب. ولكنَّ هذا البحث كان يسبِّب لها متعة عند الطرف الآخر من الخيط. بل كان الحديث مع أولريش أحبّ إليها في بعض الأحيان من الحديث مع آرنهايم بمعنى معيَّن ليس بالجدّي كلّ الجدّ بالطبع. وكانت حاجتها إلى التفوّق تجد فيه إشباعاً أكثر. وكانت هي نفسها تشعر بالمزيد من الأمن. أما ما كانت تعدّه من قبيل القحّة أو التطاول أو عدم بلوغ النضج فكان يهب لها قدراً معيَّناً من الرضى يتوازن مع المثالية التي كانت تزداد خطورة في كلّ يوم والتي كانت تراها تتنامى في مشاعرها نحو آرنهايم على نحو لا يمكن تقديره. وإنما النفس مسألة خطيرة إلى حدٍّ رهيب وبناء على ذلك تكون المادية مسألة متَّسمة بالمرح. وكان التحكّم في علاقاتها بآرنهايم يجهدها أحياناً إلى حدٍّ بعيد مثل صالونها وكان التساهل بشأن أولريش يسهّل عليها الحياة ولم تكن تفهم نفسها غير أنّها أثبتت هذا التأثير وكان هذا يمكّنها إذا ما غضبت على إبن عمها من أن ترسل نحوه نظرة جانبية لم تكن تمثّل إلا ابتسامة ضئيلة كلّ الضآلة في زاوية من زوايا العين على حين كانت العين لا تبدي تأثُّراً على النحو المثالي بل كانت تنظر نظرة صريحة فيها شيء من الإزدراء.

وعلى كلّ حال ومهما كانت الأسباب فقد كان سلوك ديوتيما وآرنهايم تجاه أولريش مثل سلوك محاربين يتوقَّفان عند ثالث يتدافعانه فيما بينهما في خوف متناوب ولم يكن مثل هذا الوضع خالياً من الخطورة بالنسبة إليه فعن طريق ديوتيما اكتسبت الحيويّة في هذا الصدد مسألة هل يجب على البشر أن يكونوا متوافقين مع جسدهم أم لا؟

[٦٨]

استطراد: هل يجب على البشر أن يكونوا متوافقين مع جسدهم؟

وبصرف النظر عمّا كانت الوجوه تنطق به كانت حركة العربة تؤرجح كلا القريبين بحيث كانت الثياب تتلامس ويتراكب بعضها فوق بعض قليلاً ثم تعود إلى التباعد بعضها عن بعض ولم يكن في وسع المرء أن يعرف ذلك إلا من الكتفين لأنّ سائر الجسم كان يخفيه غطاء مشترك. غير أن الجسدين كانا يحسّان بهذا التلامس الذي كانت الثياب تخفّف منه إحساساً غير واضح المعالم على رقته مثلما يرى المرء الأشياء في ليلة قمراء. ولم يكن أولريش بالذي لا يطيب له هذا العبث الفني في الحبّ بدون أن يأخذه مأخذ الجدّ بوجه خاص. وكان الانتقال للإرهاف للرغبة في الجسد إلى الثياب ومن المعانقة إلى ضروب المقاومة أو بكلمة موجزة: من الهدف إلى الطريق إليه يتماشى مع طبيعته وكانت هذه تنساق بشهوانيتها إلى المرأة ولكنَّ كان تصدّها طاقاتها الأسمى عن الإنسان الغريب غير الملائم لها والذي كانت تجده ماثلاً أمامها فجأة بوضوح صارم حتى باتت تجد نفسها دائماً في تناقضات حية بين الميل والإعراض. ولكنَّ هذا يعني أنَّ الجمال الرفيع في الجسد الجسد الإنساني اللحظة التي ينبعث منها لحن الروح من آلة الطبيعة أو تلك اللحظة الأخرى التي يكّون فيها الجسد مثل كأس يملؤه شراب صوفيّ ظلّ طوال حياته غريباً عنه إذا صرف النظر عن الأحلام التي كانت تدور حول زوجة العمدة والتي أبطلت أمثال هذه الميول عنده وقتاً بالغ الطول.

twitter @baghdad_library

وكانت كلّ علاقاته بالنساء غير سليمة منذ ذلك الوقت وكان من المؤسف أن يجري هذا ببساطة شديدة على كلا الجانبين ومع توفر بعض النية الحسنة إذ يوجد أنموذج من المشاعر والتصرّفات والمضاعفات التي يجدها الرجل والمرأة بمجرّد أن يكرّسا لها الفكرة الأولى على أهبة الإستعداد للاستحواذ عليهما وإنه لتعاقبٌ معكوس بمعناه الداخلي تتزاحم فيه الأحداث الأخيرة في الصدارة ولا يعود هناك تدفّق من المنبع ولا يَرِدُ مع هذا التحوّل النفسي على الإطلاق الإعجابُ الخالص لإنسانين أحدهما بالآخر الشعور الأبسط والأعمق من بين مشاعر الحبّ والذي يعدّ الأصل الطبيعي لكلّ المشاعر الأخرى. وكذلك لم يكن من النادر أن يتذكّر أولريش أيضاً في رحلاته مع ديوتيما وداعها عند زيارته الأولى وكان قد احتفظ آنئذٍ بيدها اللطيفة في يده وهي يدٌ مكتملة من الوجهة الفنِّية ومن وجهة النبالة بدون ثقل. وكانا قد نظر أحدهما إلى عيني الآخر في أثناء ذلك ولا ريب في أن كلاً منهما شعر بالنفور ولكنّهما فكّرا في إنهما يمكن أن يتغلغلا أحدهما في الآخر إلى درجة التبخّر. وكان قد ظلّ شيء من هذه الرؤيا قائماً بينهما. وكذلك كان رأسان في الأعلى يكرّس أحدهما للآخر برودة مفزعة بينما كان الجسمان في الأسفل ينساب أحدهما في الآخر بغير مقاومة وبصورة لاهبة. وفي ذلك يكمن شيء أسطوري يتّسم بالشر مثلما يكون الحال في ربٍّ رأسين أو في قدم الشيطان المضاهية لقدم الفرس وكان كثيراً ما ضلل أولريش في صباه حين شهد ذلك مراراً. ولكنّ ثبت مع السنين أنّه ليس بشيء سوى وسيلة مثيرة من وسائل الحبّ البورجوازية وذلك بمعنى مماثل تماماً للتعويض عن العُرْي بالتجرُّد. وما من شيء يلتهب به الحبّ البورجوازي التهابَه من جراء المعرِّفة التي تتملّقة وهي معرِّفة أنّه يمتلك القدرة على اصطياد إنسان بإيقاعه في الإفتتان إذ يسلك في ذلك سلوكاً يبلغ من جنونه أن المرء لا يكون له بدٌّ من أن يتحوّل إلى قاتل على وجه التخصيص إذا ما أراد بطريقة أخرى أن يغدو السبب في أمثال هذه

التغيّرات. وإنه لمن الحقّ أن أمثال هذه التغيّرات توجد لدى المتحضرين من البشر وأن مثل هذا الأثر يصدر عنّا! : أوَلا يكمن هذا السؤال وهذه الدهشة في العيون الجريئة والمتحوّلة إلى عيون زجاجية عند كلّ أولئك الذين يلقون مراسيهم عند جزيرة المتعة المنعزلة حيث يكونون قتلةً ومصيراً وربّاً ويشهدون بطريقة مريحة إلى أقصى الحدود الدرجة القصوى التي يمكنهم بلوغها من اللاعقلانية وحبّ المغامرة؟

على أن النفور الذي اكتسبه مع الزمن من هذا الطراز من الحبّ امتد آخر الأمر أيضاً إلى جسده الخاصّ الذي كان يشجّع نشوء أمثال هذه الروابط المعكوسة دائماً إذ كان يعكس للنساء رجولة رائجة كان أولريش يعاني من جرائها من قدر كبير من الفِكَر والتناقضات الداخلية وكان ينتابه فيما ينتابه على وجه الخصوص غيرة من مظهره من حيث كونه يعمل بوسائل ليست طاهرة تماماً إذ كان يتجلّى في ذلك التناقض الذي يوجد أيضاً في الآخرين الذين لا يحسّون به. ذلك لأنّه كان هو نفسه الذي رعى هذا الجسد بالتمارين الرياضيّة وأضفى عليه القوام والتعبير والإستعداد للمبادرة وكذلك الإستعداد الذي لم يكن أثره في الإتجاه الداخلي ضئيلاً إلى حدٍّ لا يمكن عنده للمرء أن يقارنه بتأثير وجه خالد الابتسام أو وجه خالد الوقار على المزاج النفسي. ومن الأمور التي تلفَت النظر أن أغلبية البشر إما أن يكون لهم جسم مخرَّب صاغته وشوهته المصادفات يبدو أنّه لا يكاد يمت بصلة إلى فكرهم وطبيعتهم وإما أن يكون لهم جسم مغطّى بقناع الرياضة الذي يضفي عليه مظهر الساعات التي يكون فيها في إجازة بصورة تلقائية. ذلك لأنّ هذه هي الساعات التي يتابع الإنسان فيها حياكة نسيج حلم يقظة من أحلام إرادة الظهور ملتقط بأسلوب المتهاون من صحف العالم الجميل الكبير. وكل هؤلاء اللاعبين ذوي العضلات المفتولة من لاعبي التنس والفرسان والمتسابقين بالسيارات الذين

twitter @baghdad_library

يتّسمون بالمظهر الخاص بأعلى الأرقام القياسية على الرغم من أنّهم يتقنون مادة اختصاصهم في العادة إتقاناً جيّداً فحسب وهؤلاء السيّدات المفرطات في ارتداء الثياب أو المفرطات في التجرّد منها إنما هم أهل أحلام اليقظة ولا يتميّز هؤلاء من أهل أحلام اليقظة العاديين إلا بأن حلمهم لا يظلّ في الدماغ بل يُصاغ بصورة مشتركة في الهواء الطلق في صورة تشكيل صادر عن الروح الجماعية صياغة جسدية مسرحية. وقد ينزع المرء إلى أن يقول وهو يذكرظواهر غيبيّة أكثر من مشكوك فيها أنّها صياغة أسلوب النحت الفكري غير أنّهم يشتركون مع الحاكة العاديين للأخيلة اشتراكاً أكيداً في ضحالة معيّنة في حلمهم سواء في ذلك ما يتّصل بقربه من اليقظة أم ما يتّصل بمضمونه. ويبدو أن مشكلة الفراسة الشمولية ماتزال مستخفية حتى اليوم على الرغم من أن المرء قد تعلّم من الخط والصوت ووضعية النوم ومِمّا لا يعلمه إلا الله أن يستنتج نتائج تتصل بطبيعة الإنسان تكون في بعض الأحيان صحيحة إلى حدٍّ مفاجئ فإنّ المرء لا يملك للجسد من حيث هو متكامل إلا نماذج من الزيّ الشائع يتشكّل تبعاً لها أو على أقصى الحدود نوعاً من الفلسفة الأخلاقية الخاصّة بالاستشفاء الطبيعي.

ولكن أيكون هذا جسد فكرنا وأفكارنا وحَدْسِنا وخططنا أم جسد حماقاتنا ـ بما فيها من الحماقات الظريفة؟ على أن حبّ أولريش لهذه الحماقات فيما مضى مازال ينطوي عليها جزئياً لم يمنعه أن يشعر أنّه غير منسجم في الجسد الذي خلق منه.

[٦٩]

ديوتيما وأولريش ـ تتمة

وكانت ديوتيما بوجه خاص هي التي رسّخت لديه بطريقة جديدة هذا الشعور بأن الجانب السطحي والجانب العميق من صورة حياته ليسا متماثلين وكان هذا ينبعث بجلاء في الرحلات معها وهي تلك الرحلات التي كانت مثل الرحلات في ضوء القمر إذ كان جمال هذه المرأة الشابة ينفصل عن مجمل شخصها ويغطّي عينيه لحظاتٍ مثل شبح من أشباح الحلم. وكان يعلم حقّ العلم أن ديوتيما كانت تقارن كلّ ما يقوله بما يقال على وجه العموم ـ وإن كان ذلك أيضاً على مستوى معيَّن من العمومية. وكان من الممتع عنده أن تجد ذلك «منافياً للنضج» فكان يظلّ على الدوام جالساً كأنه أمام منظار موجه نحوه بصورة معكوسة وكان يزداد ضآلة على نحو مطّرد ويعتقد حين يتحدَّث إليها أو كان على الأقل غير بعيد من الإعتقاد بأنّه يسمع أحاديث أيام دراسته الأخيرة بكلماته الخاصّة حين كان يتَّخذ مظهر المحامي عن الشر والموضوعيّ إذ كان يتحمس مع رفاقه لكلّ الجناة والشياطين في تاريخ العالم لمجرّد أنّ المعلّمين كانوا يشيرون إليهم إشارة متَّسمة بالتقزز المثالي وعندما كانت ديوتيما ترمقه باستياء كان يزداد ضآلة بعدُ وينتقل من أخلاق النزعة البطولية ونزعة التوسّع إلى ما يوجد في سنوات الهمجيّة من كذب قائم على العناد وفجور قائم على الفظاظة والهياج غير متحدِّث في ذلك إلا بصورة رمزية جداً بالطبع مثلما يستطيع المرء أن يكتشف في حركة أو كلمة شبهاً بعيداً مع حركات أو كلمات منذ عهد بعيد بل حتى مع حركات لم يرها المرء إلا في الحلم أو رآها في

twitter @baghdad_library

الآخرين وهو مستاء. ولكنَّ هذا كان يتردّد صداه في جملة ما يتردّد في حبه لإثارة الشعور بالصدمة عند ديوتيما. وكان فكَّر هذه المرأة التي كانت خليقة أن تكون فائقة الجمال بدون فكرها يثير فيه شعوراً غير إنساني وربّما خوفاً من الفكر ونفوراً من كلّ الأشياء الكبيرة شعوراً كان ضعيفاً للغاية لا يكاد يمكن تمييزه ـ وربّما كان هذا الشعور تعبيراً بالغ الشطط عن مثل هذه النفحة المرسلة في زفرة! ولكنَّ لو كبّرها المرء في كلمات لكان لا بدّ لها أن تكون على نحو يرى المرء معه في بعض الأحيان لامثالية هذه المرأة فحسب بل مثالية العالم كلّه في تشعُّبها وانتشارها في صورة جسدية أمامه سابحة في الهواء فوق الجمجمة الإغريقية بمقدار عرض اليد وأنّها لم تكن على وجه الخصوص قرون الشيطان! هنالك كان ينكمش مرّة أخرى ويعود أدراجه بلغة المجاز مرّة أخرى إلى أخلاق الطفولة العاطفية الأولى التي يكمن في عينيها الإغراء والفزع مثلما يكمن في نظرة غزال. على أنَّ الأحاسيس الرقيقة تستطيع في هذا العصر أن تلهب العالم كلّه في لحظة واحدة من لحظات الاستغراق وهو العالم الذي مازال صغيراً إذ ليس لها غرض ولا إمكانية لإحداث أيّ شيء وهي على وجه الإطلاق نار لا حدود لها وكانت قليلة الملاءمة لأولريش. ولكنَّ بالنظر إلى مشاعر الطفولة هذه التي كان قلّما يستطيع أن يتصوّرها بعدُ إذ ما عاد يربطها إلا القليل من الأمور المشتركة مع الشروط التي يعيش بها المرء من البالغين انتابه الحنين آخر الأمر إلى صحبة ديوتيما.

وقد أوشك ذات مرّة أن يعترف لها بذلك. وكانا قد غادرا العربة في إحدى الرحلات ومضيا مشياً على الأقدام في واد صغير كان مثل مصبّ نهر يتألّف من مروج له ضفاف عمودية مكسوّة بالأحراش. وكان يشكّل مثلّثاً معوجّاً كان يقع في وسطه جدول متعرّج جمّده صقيع حفيف. وكانت السفوح مقطوعة الأشجار جزئياً وكان فيها أشجار متفرّقة تركت قائمة وكانت تبدو فوق

الجذوع المقطوعة وقمم الجبال كالرايات المغروسة. وكان المنظر الطبيعي قد أغراهما بالمسير. وكان يوماً من تلك الأيام المؤثِّرة الخالية من الثلج التي كان يمكن أن ينظر إليها في وسط الشتاء ومثلما ينظر المرء إلى ثوب صيفيّ كالح تقادَم زِيُّه. وسألت ديوتيما إبن عمها فجأة: «لماذا يسمِّيك آرنهايم في الحقيقة إيجابياً فاعِلاً؟ لقد قال إنَّ دماغك مفعم دائماً بالكيفية التي يمكن بها للمرء أن يغيِّر الأشياء ويحسّنها». وكانت قد تذكَّرت رفعة واحدة أن حديثها مع آرنهايم حول أولريش والجنرال قد انتهى بدون العثور على خاتمة. واستأنفت قائلة: «أنا لا أفهم هذا إذ يبدو لي أنَّ من النادر أن تتناول شيئاً ما تناولاً جدياً. ولكنَّ يجب أن أسألك مادمنا نتولّى معاً مهمّة تنطوي على المسؤولية! أمازلت تذكُّر حديثنا الأخير؟ لقد قلتَ عندئذ شيئاًما إذ زعمت أنّه ما من أحد خليق أن يحقِّق ما يريد لو كان في يده كلّ السلطات. وأودّ الآن أن أعرف ما كنت تقصد إليه بهذا. أوَلم تكن هذه فكرة تبعث على الفزع؟».

وأخلد أولريش إلى الصمت أوّل الأمر. وخلال هذا الهدوء وبعد أن أدلت بحديثها بما أمكن من الجسارة تبيّن لها مقدار الحيويّة التي كان هذا السؤال غير المباح يشغلها بها وهو مسألة هل سيحقِّق آرنهايم وهي ما يريد كلّ منهما في قرارة نفسه. واعتقدت فجأة أنّها باحت بسرها لأولريش واحمرّت خجلاً وحاولت أن تحوّل دون ذلك فازدادت احمراراً ونازعتها نفسها إلى أن تصرف النظر عنه بتعبير غير منطوٍ على الإهتمام قدر الإمكان وفي نظرةٍ عبر الوادي.

وكان أولريش قد لاحظ الحدث وردّ قائلاً: «إني لا أخشى كثيراً أن يكون السبب الوحيد الذي يحمل آرنهايم على أن يسمِّيني كما تقولين إيجابياً فاعلاً هو أنّه يبالغ في تقدير نفوذي في بيت توتسي. وأنت تعرف بنفسك قلّة اكتراثهم بكلامي ولكنَّ في هذه اللحظة الآن إذ سألتني تبيّن لي أيّ نفوذ ينبغي أن يكون

twitter @baghdad_library

لي عليك. فهل يُؤذَن لي أن أقول هذا لك بدون أن تنحي عليّ باللائمة على الفور مرّة أخرى؟».

وأطرقت ديوتيما في صمت علامة على الموافقة وحاولت أن تستجمع نفسها من جديد وراء مظهر الشرود.

وبدأ أولريش قائلاً: «لقد قلت إذاً إنّه ما من أحد سيحقّق ما يريد حتى وإن استطاع. أتذكّرين حقائبنا الملأى بالمقترحات؟ والآن أسألك: ألن يقع أيّ امرئٍ في الحرج إذا ما حدث فجأة ما كان يطالب به طوال حياته بحماسة؟ إذا نزلت على الكاثوليك مثلاً فجأة مملكة الربّ أو على الاشتراكيين دولة المستقبل؟ ولكنَّ قد لا يثبت هذا شيئاً فالناس يعتادون المطالبة وهم ليسوا على استعداد فوريّ للانتقال إلى التنفيذ وربّما وجد الكثيرون هذا طبيعياً تماماً. وعلى هذا فأنا أتابع السؤال: ما من شكّ في أن الموسيقيّ يرى الموسيقى هي الأهم وأن الرسام يرى الرسم ويبدو أن خبير الباطون أيضاً يرى ذلك في بناء بيوت بالباطون. فهل تعتقدين أن أحدهم سيتصوّر من أجل ذلك الرب سبحانه في صورة خبير اختصاصي في الباطون المسلّح وأنَّ الآخرين سيفضّلون عالماً مرسوماً أو عالماً منفوخاً على البوق على العالم الواقعي؟ سوف تعدّين هذا السؤال من قبل العبث ولكنَّ الجدّ كلّ الجدّ يكمن في أنَّ المرء لا بدّ له أن يطالب بهذا العبثي!

وقال وهو يتّجه نحوها بصورة كاملة: «والآن أرجو ألّا تعتقدي أنني لا أريد بذلك أن أقول شيئاً آخر سوى أنَّ كلّ امرئ يجتذبه ما يصعب تحقيقه وأنّه يشمئز مِمّا يمكن أن يناله بالفعل. فأنا أريد أن أقول إنَّ الواقع يستكنّ فيه مطالبة عبثية بما هو غير واقعي!».

وكان قد مضى بديوتيما بعيداً في الوادي الصغير بدون مراعاة لها. وكانت الأرض تزداد بَلَلاً كلّما أمعنا فيها صعوداً ربّما من جراء الثلج الذي كان ينضح

بالماء من السفوح وكان عليهما أن يقفزا من إحدى قطع العشب الصغيرة إلى القطعة التالية مِمّا كان يقطّع الحديث ويمكّن أولريش من استئنافه بطريقة القفز مرّة بعد أخرى. ومن أجل ذلك كان هناك أيضاً قدر كبير من الاعتراضات المنطقيّة على ما كان يقوله حتى إنَّ لم تستطع أن تختار واحداً منها وكانت قد بلّلت قدميها و ظلَّت تائهة خائفة واقفة على إحدى الكتل الترابية وأثوابها مرفوعة بعض الشيء.

واتجه أولريش إلى الوراء وضحك قائلاً: «لقد أخذتِ في شيء خطيرٍ إلى حدٍّ غير عادي يا ابنة العم العظيمة فالناس يُسَرّون سروراً لا حدّ له حين يُترَكون بحيث لا يستطيعون تحقيق أفكارهم!».

وسألت ديوتيما بغيظ قائلة: «وما أنت فاعل إذا ما تولَّيت السلطة العالمية مدّة يوم؟».

«لن يتبقّى أمامي شيء بلا ريب سوى أن أُلغيَ الواقع!».

«بل أريد أن أعرف بالفعل بماذا كنت خليقاً أن تبدأ!».

«هذا ما لا أعرفه أنا أيضاً بل أني لا أعرف على وجه الدقة ما أقصد إليه بذلك. إننا نبالغ مبالغة لا حدّ لها في تقدير الأمور الراهنة تقدير الشعور بالحاضر بهذا الكائن هنا مثلما توجدين الآن أنت معي في هذا الوادي وكأننا حُشِرْنا في سلّة وسقط علينا غطاء اللحظة الراهنة. إننا نبالغ في تقدير هذا وسوف نلاحظه على أنفسنا وربّما استطعنا بعد عام أن نروي كيف وقفنا هنا. ولكنَّ هذا الذي يحرٌكنا حقاً أو يحرٌكني أنا على الأقل يتناقض تناقضاً معيَّناً مع هذه الطريقة في المعاناة ـ وأنا ألتزم الحذر في الحديث فأنا لا أبحث عن تفسير ولا عن اسم لهذا!. فالحاضر يطغى عليه ويزيحه وهذا لا يمكن له بهذه الطريقة أن يكون حاضراً!».

twitter @baghdad_library

وكان ما يقوله أولريش هنا يتردّد صداه عالياً مختلطاً في الوادي الضيّق. وشعرت ديوتيما بالرهبة دفعة واحدة ونازعتها نفسها إلى العودة إلى العربة ولكنَّ أولريش استوقفها وجعل يستعرض لها المنظر الطبيعي وهو يشرح قائلاً: «لقد كان هذا قبل بضعة آلاف من السنين مجرىً للجليد. وكذلك فإنَّ العالم ليس بكلّ روحه هو ما يتظاهر بما هو عليه في اللحظة الراهنة وهذا المخلوق الدائري له شخصيّة هستيرية. فهو الآن يقوم بدور الأم المغذية المدنيّة. وفي سالف الأيام كان العالم بارداً جليدياً مثل فتاة شريرة وقبل بضعة آلاف من السنين كان يتّشح بكساء كثيف من غابات الثيران الساخنة والمستنقعات اللاهبة والحيوانات الشيطانية. ولا يستطيع المرء أن يقول إنّه اجتاز تطوّراً نحو الكمال ولا ماذا كان حاله الحقيقي والأمر ذاته ينطبق على ابنته البشريّة. وحسبكِ أن تتصوَّري الثياب التي كان الناس يقومون بها على مرّ الزمن هنا حيث نقف الآن. وإذا عبَّرنا عن هذا بمفاهيم بيت للمجانين كان مشابهاً لكلّ التصوّرات القسريّة ذات الاستغراق الطويل مع الهرب المفاجئ للأفكار الذي يوجد بعد انقضائه تصوُّر جديد للحياة. وإذاً فأنت ترين حقّ الرؤية أن الواقع يلغي نفسه بنفسه!».

وبدأ أولريش بعد برهة من البداية قائلاً: «وأودّ أن أقول لك شيئاً آخر وهو أنَّ شعوري بوجود أرض صلبة تحت قدميّ وبشرة صلبة حولي مِمّا يبدو لمعظم البشر طبيعياً للغاية وهو شعور غير متطوّر عندي إلى حدٍّ بعيد. هلّا فكَّرت ذات مرّة في ذلك حين كنتِ طفلة: حرارة طريّة كلّ الطراوة ثم مراهقة كان الشوق يستعر على شفتيها. أما أنا ففي داخلي شيء ما على الأقل يرفض افتراض أنَّ ما يسمّى بسن النضج الرجولي هو ذروة مثل هذا التطوّر فهو كذلك بمعنى ما وهو ليس كذلك بمعنىً ما. ولو كنت أنا اليعسوب الذي هو على شاكلة حورية الماء أيّ عذراء النمل لانتابني الخوف الرهيب من أنني كنت لسنة خلت

اليعسوب العريض الرماديّ الذي يجري إلى الخلف يرقةَ عذراء النمل التي تعيش على حافة الغابات مطمورة تحت قمة كثيب رملي ويمسك بكمّاشته غير المرئية النملة من خصرها بعد أن يكون قد أنهكها من قبل بقذف خفيّ بذرّات الرمل وفي بعض الأحيان ينتابني الخوف حقاً على نحو مماثل تماماً للذي كان قبل صباي حتى عندما كنت في تلك الأيام حورية ماء. ويفترض الآن أن أكون غولاً». ولم يكن يعرف هو حقّ المعرّفة ما كان يريد. وكان قد تهكّم باليعسوب واليعاسيب كل التهكم على المعرّفة الثقافية لكلّ شيء عند آرنهايم ولكنَّه كان يوشك أن يقول: هبي لي معانقة على سبيل التلطّف فنحن أولو قربى ولسنا منفصلين كلّ الانفصال ولسنا شيئاً واحداً بحال من الأحوال. إنّه على كلّ حال النقيض المتناهي في ظاهريته لعلاقة لائقة وصارمة».

ولكن أولريش كان على خطأ وكانت ديوتيما تنتمي إلى أولئك البشر الراضين عن أنفسهم وهم من أجل ذلك ينظرون إلى مراحل عمرهم نظرتهم إلى سلّم يفضي من الأسفل إلى الأعلى وعلى هذا فقد كان ما يقوله أولريش غير مفهوم عندها برمّته إذ لم تكن تعرف ما أمسك عن ذكره ولكنَّهما كانا قد وصلا في هذه الأثناء إلى العربة فشعرت بالطمأنينة وجعلت تتقبّل الآن حديثه من جديد على أنّه الحديث المعروف لديها ذلك الحديث الذي يتأرجح بين التسلية وإثارة الغيظ والذي ما عادت توليه أكثر من زاوية من عينها ولم يكن له في الحقيقة تأثير عليها في هذه اللحظة على الإطلاق سوى تأثير الصحوة. وكانت سحابة رقيقة من الارتباك صاعدة من زوايا قلبها قد تبدّدت الآن في فراغٍ جاف وأبصرت ربّما أوّل مرّة بجلاء وقسوة حقيقة أن علاقاتهما بآرنهايم لم يكن لها بدٌّ أن تضعها عاجلاً أو آجلاً أمام قرار حاسم يمكن أن يغيّر مجمل حياتها. وما كان المرء ليستطيع أن يقول إنَّ هذا كان يسعدها الآن ولكنَّ كان له ثقل جبل منتصب هناك حقاً. وكان ثمة ضعف قد ولّى وكان ذلك الموقف

twitter @baghdad_library

المتمثِّل في «عدم فعل المرء ما يودّ فعله» قد حظي لحظة من الزمان ببهاء عبثيّ تماماً وما عادت تفهمه.

وتنَّهد أولريش وهو يبتسم قائلاً: «إن آرنهايم على النقيض منِّي تماماً فهو يبالغ في تقدير السعادة التي ينطوي عليها الزمان والمكان عندما يلتقيان معه في اللحظة الراهنة على الدوام!» وكان ذلك مع حاجته العادية إلى أن ينتهي بما أعرب عنه إلى نهايته غير أنّه ما عاد يتحدَّث عن الطفولة ولم يصل إلى أن تتعرَّف عليه ديوتيما امرءاً رقيق القلب.

[٧٠]

كلاريسا تزور أولريش لتروي له قصة

وكان الإعداد الجديد للقصور القديمة يشكِّل المقدرة الخصوصيّة للرسام الشهير فان هيلموند الذي كان أكثر أعماله عبقرية ابنته كلاريسا. وذات يوم دخلت هذه عليه على غير انتظار.

وقالت له: «أرسلني أبي لكي أرى ألّا تستطيع أن تستغل علاقاتك الأرستقراطية العظيمة بعض الاستغلال من أجله أيضاً!». وجعلت تجول ببصرها في الحجرة بفضول ثم ألقت بنفسها على كرسي وبقبعتها على آخر. ثم مدت يدها إلى أولريش.

وهمّ أن يقول: «أبوك يبالغ في تقديري» ولكنّها قطعت عليه كلامه.

«ما هذا الهراء! أنت تعلَّم حقّ العلم أن الشيخ يحتاج إلى المال دائماً والأعمال ما عادت تسير كشأنها فيما مضى!». وضحكت قائلة: «هذا بالغ الأناقة جميل!» وجعلت تتفحّص ما حولها ثم نظرت إلى أولريش وكان مجمل موقفها ينطوي على شيء من الإضطراب المستحبّ لكلب ظريف يؤنّبه ضميره الآثم وقالت: «كلا إذا كان ذلك في وسعك فستفعله! وإذا لم يكن في وسعك فلن تفعله! لقد وعدتُ بذلك بالطبع غير أني أتيت لسبب آخر. فلقد أوحى إليّ من جراء مطلبه بفكرة وذلك أمراً ألمّ بعائلتنا وأودّ أن أسمع قولك في هذا». وتردّد الفم والعينان اختلجا لحظة ثم استأنفت متحفِّزة عبور عقبة البداية: «هل تستطيع أن تتصوَّر شيئاً عندما أقول: طبيب الجمال؟ فالرسام هو طبيب الجمال.

twitter @baghdad_library

وفهم أولريش وكان يعرف بيت والديها.

واستأنفت قائلة: «إنه يتَّسم بالغموض والنبل والأبّهة والترف وعليه البيارق والمِنَشّات! فأبي رسام والرسام نوع من طبيب الجمال والاحتكاك بنا له في المجتمع سمة العصر مثل القيام برحلة استجمام. أنت تفهم ذلك. ومِمّا يشكِّل أحد الموارد الرئيسيّة لأبي منذ عهد بعيد تجهيز القصور المدنيّة والريفيّة وأنت تعرف آل باخهوفن؟» وكانت هذه عائلة من البورجوازيين النبلاء. ولكنّ أولريش لم يكن يعرفها إلا أنّه قابل ذات مرّة الآنسة باخوفن قبل سنوات في صحبة كلاريسا.

وشرحت كلاريسا قائلة: «كانت هذه صديقتي وكانت في تلك الأيام في السابعة عشرة وأنا في الخامسة عشرة وكان على والدي أن ينشئ القصر ويعدّل بنيانه.

«أجل بالطبع قصر آل باخهوفن. لقد دعينا جميعاً وكان فالتر أيضاً أوّل مرّة ومايْنجاسْت».

«مايْنجاست؟». ولم يكن أولريش يعرف من يكون ماينجاست.

«ولكنّك تعرفه أيضاً بلا ريب ماينجاست الذي ذهب بعد ذلك إلى سويسرا ولم يكن بعدُ فيلسوفاً في تلك الأيام بل كان كالديك في كلّ الأسر التي كان فيها بنات».

وكرَّر أولريش قائلاً: «لم أعرفه أبداً معرِفة شخصيّة بل أعرف الآن حقّ المعرِفة من هو».

وجعلت كلاريسا تقدِّر في ذهنها تقديراً مُجهِداً وقالت: «خيراً إذاً إنتظر لقد كان فالتر في تلك الأيام في الثالثة والعشرين وكان ماينجاست أكبر قليلاً وأعتقد أن فالتر كان يعجب أبي إعجاباً قوياً في قرارة نفسه وكان قد دعي إلى

قصر لأول مرّة وكان أبي يبدو كأنه يتّشح بمعطف ملكي في داخل نفسه وأعتقد أن فالتر كان في البداية مغرماً بأبي أكثر من غرامه بي. أما لوسي ـ».

وقال أولريش راجياً: «مهلاً يا كلاريسا بحق الإله! فأنا أعتقد أنني ما عدت قادراً على المتابعة».

وقالت كلاريسا: «ولكن لوسي هي الآنسة باخهوفن ابنة آل باخهوفن الذين كنّا مدعوّين عندهم جميعاً هل فهمت ذلك الآن؟ إذاً فأنت تفهم الآن عندما كان أبي يلفّ لوسي بالمخمل والديباج ويضعها على أحد خيولها مع ذيل طويل لفستانها كانت تتخيّل أنّه تيسيان أو تنتوريتو. كانا غارقين في غرام أحدهما بالآخر.

«أي حبّ أبيك للوسي وحبّ فالتر لأبيك؟».

«ولكن مهلاً مهلاً! في تلك الأيام كان هناك الإنطباعية وكان أبي يرسم بأسلوب الزيّ القديم الموسيقي كما لايزال يفعل ذلك اليوم حساءً بنيّ مع أذناب الطواويس. أما فالتر فكان يميل إلى الهواء الطلق وأشكال الإستعمال الإنجليزيّة ذات الخطوط الواضحة إلى الجديد والأمين. وكان أبي قلّما يقدِّر على احتماله وكأنّه موعظة بروتستانتية. ولم يقدِّر آخر الأمر على احتمال ماينجاست أيضاً. ولكنَّ كان عليه أن يزوّج ابنتين وكان على الدوام ينفق من المال أكثر مِمّا يربده وكان متسامحاً تجاه نفسية الشابين وكان فالتر في مقابل ذلك يحبّ أبي في قرارة نفسه وقد سبق أن قلت هذا ولكنَّ لم يكن له بدّ أن يزدريه في العلانية بسبب الإتجاه الفني الجديد. ولم تكن لوسي تفهم شيئاً على الإطلاق من الفن ولكنّها كانت تخاف أن تفضح نفسها أمام فالتر وكانت تخشى أن يظهر أبي إذا ما كان فالتر على حقّ في صورة مجرّد شيخ مضحك. هل أصبحتَ الآن في الصورة؟».

وأراد أولريش من أجل هذا الغرض أن يعرف أين كانت الأم.

twitter @baghdad_library

«كانت أمي حاضرة أيضاً بالطبع وكانا يتنازعان دائماً كلّ يوم لا أكثر ولا أقلّ وأنت تعرف أنَّ فالتر كان يتمتَّع بوضع المُحابى في هذه الظروف وقد أصبح نوعاً من نقطة الالتقاء لنا جميعاً. أما أبي فكان يخاف منه وأما أمي فكانت تستفزّه وأما أنا فقد أخذت أغرم به. ولكنَّ لوسي كانت تتملقه وكذلك كان فالتر يتمتَّع بسلطة معيَّنة على أبي وأخذ يتذوّقها باستمتاع حذر. وأنا أقصد أنَّ أهمّيته الخاصّة تجلّت له في تلك الأيام. وما كان ليغدو شيئاً بدون أبي وبدوني. هل تفهم هذه الملابسات؟».

واعتقد أولريش أنَّ في وسعه أن يجيب عن هذا السؤال بالإيجاب.

وقالت كلاريسا مؤكّدة: «ولكنّي كنت أريد أن أروي شيئاً آخر». ثم فكّرت وقالت بعد هنيهة: «مهلاً فكّر أوّل الأمر فيَّ وفي لوسي فحسب: كانت هذه علاقة مشوّشة إلى حدٍّ مثير! لقد كنت بالطبع أخاف على أبي الذي كان يوشك في غرامه أن يدمّر الأسرة كلّها. ولا ريب أنني كنت أريد في هذا الصدد بالطبع أن أعرف أيضاً كيف يحدث شيء كهذا في الحقيقة. كانا مجنونين كلّ الجنون كلاهما وكانت الصداقة معي تختلط عند لوسي بالبداهة مع الشعور بأنّها تتخذ حبيباً من الرجل الذي لم يكن لي بدٌّ أن أخاطبه بكلمة أبي طاعة له ولم يكن استرسالها في هذا الخيال بالقليل ولكنّها كانت شديدة الشعور بالخجل أيضاً وأعتقد أنَّ القصر القديم لم ينطوِ بعدُ منذ إنشائه على أمثال هذه المضاعفات! وكانت لوسي تصول وتجول النهار كلّه حيثما استطاعت مع أبي وكانت تجيء إليّ في الليل إلى البرج لتعترف. وذلك أنني كنت أنام في البرج وكنا نوقد النور الليل كلّه تقريباً».

«والى أيّ مدى أطلقت لوسي لنفسها العنان مع أبيك؟».

«كان هذا هو الشيء الوحيد الذي لم أستطع الإطّلاع عليه. ولكنَّ تصوَّر أمثال هذه الليالي الصيفية! كان البوم ينعق وكان الليل يتنهّد وعندما كانت تثقل

علينا الوحشة كنّا نرقد كِلْتانا في سريري لكي نتابع الحديث هناك. ولم يكن في وسعنا أن نتصوَّر المسألة على نحو آخر سوى أن الرجل الذي استحوذت عليه عاطفة مشؤومة إلى هذا الحد سيضطر إلى إطلاق النار على نفسه. والحقّ أننا كنّا ننتظر ذلك اليوم ـ».

وقال أولريش مقاطعاً: «ولكن الإنطباع لديّ هو أنّه لم يحدث بينهما الكثير».

«وأنا أعتقد أيضاً: ليس كلّ شيء ولكنَّ بعض الأشياء بلا ريب وسوف ترى على الفور. وذلك أن لوسي اضطرت إلى مغادرة القصر فجأة لأنّ أباها وصل على غير انتظار وذهب بها بعيداً إلى رحل في إسبانيا. وهنا كان ينبغي لك أن ترى أبي الآن حين ظلّ وحيداً! أنا أعتقد أنّه لم يكن ينقصه أحياناً شيء كثير لكي يخنق أمي. وكان يغدو ويروح راكباً من الصباح إلى المساء بحمّالة الرسم القابلة للطيّ يشدّها وراء السرج بدون أن يرسم خطاً. وحين كان يظلّ في البيت لم يكن يحرّك فرشاته أيضاً. ويجب عليك أن تعرف أنّه يرسم في العادة مثل آلة غير أني كنت في تلك الأيام ألقاه كثيراً وهو جالس في إحدى القاعات الكبيرة الفارغة وراء كتاب لمّا يفتحه. وكان يظلّ أحياناً مطرقاً ساعات طوالاً ثم ينهض ويكون الشيء ذاته في حجرة أخرى أو في الحديقة طوال اليوم كلّه وكان آخر الأمر شيخاً وكان الشباب قد تخلّى عنه أليس هذا أمر يمكن فهمه؟! وأنا أتصوَّر أنَّ الصورة التي كان يرى فيها لوسي وإيّايَ في كثير من الأحيان صديقتين تضع كلّ منهما ذراعها على جسد الأخرى وتتحدَّثان حديثاً حميماً لا بدّ أنّها انحلّت فيه في تلك الأيام ـ مثل بذرة جامحة. وربّما عرف أيضاً أن لوسي كانت تجيء إليّ دائماً في البرج. وجملة القول إنّه حضر ذات مرّة حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً وكانت كلّ الأضواء في القصر مطفأة! ربّاه! لقد كان هذا شيئاً فظيعاً!». واندفعت كلاريسا الآن

twitter @baghdad_library

اندفاعاً شديداً بفعل أهمّية قصتها الخاصة: «أنتِ تسمعيّن هذا التلمُّس ووقع الخُطى على السلّم ولا تعرفين ما يكون هذا ثم تسمعيّن الضغط المفتقر إلى البراعة على الأكرة وانفتاح الباب المنطوي على المغامرة...».

«ولماذا لم تصرخي طلباً للنجدة؟».

«هذا هو الغريب. وكنت قد عرفت من الإيقاع الأوّل من يكون هذا ولا بدّ أنّه ظلّ واقفاً بالباب بغير حراك إذ لم يكن يُسمع شيء حيناً من الزمان ويبدو أنّه كان خائفاً أيضاً ثم أغلق الباب في حذر وناداني بصوت خافت وأنا كمن يطير عبر كلّ الأجواء ولم أرد أن أجيبه بحال من الأحوال ولكنَّ هذا هو الغريب إذا انبعث مني تماماً وكأني مكان عميق صوت كان كالبكاء المستعطف! أوَتعرف هذا؟».

«كلا امضي في حديثك!».

«والآن ببساطة وفي اللحظة التالية تعلّق بي يأس لا نهاية له وكاد يقع على سريري ورأسه راقد إلى جانب رأسي في الوسائد».

«أهي دموع؟».

«بل جفاف مختلج! جسد طاعن في السن مهجور! وفهمت هذا على التو. آه إني أقول لك لو أمكن للمرء أن يقول فيما بعدُ ما خطر بباله في أمثال هذه اللحظات لكان هذا شيئاً عظيماً! وأنا أعتقد أن غضباً جنونياً على كلّ الأخلاق استحوذ عليه بسبب ما فاته وألاحظ دفعة واحدة أنّه يعود إلى اليقظة من جديد ويعرف على الفور على الرغم من الظلام الدامس أنّه الآن متشنّج كلّ التشنّج من جوعٍ إليّ لا يرجو لشيء وقاراً وأعرف أنّه لا يوجد الآن هوادة ومراعاة. وكان قد ظلّ منذ تنهّدي ساكناً كلّ السكون على الدوام وكان جسدي جافاً إلى حدٍّ الالتهاب وكان جسده مثل ورق يضعه المرء على حافة النار. وكان قد

بات خفيفاً إلى الحد العادي وشعرت به ينزل ذراعه فتتلوّى حول جسدي وتنحلّ عن كتفي. وهنا أردت أن أسألك عن شيء ومن أجل ذلك أتيت ـ».

وقطعت كلاريسا حديثها.

وأسعفها أولريش بعد توقُّف قصير قائلاً: لماذا؟ أنتِ لم تسألي بعدُ شيئاً».

«كلا بل يجب عليّ أن أقول بعدُ شيئاً آخر قبل ذلك: لقد استفظعتُ فكرة أنّه لا بدّ أن يُعَدّ بقائي بغير حراك علامة على الموافقة ولكنني ظللت راقدة وأنا في حيرة كاملة. وكان خوف متحجّر قد جثم فوقي. فما رأيك في هذا؟».

«لا أستطيع أن أقول هنا شيئاً على الإطلاق».

«وكان يمسح على وجهي بإحدى يديه بغير انقطاع. أما الأخرى فكانت تتجوّل وهي ترتجف ببراعة تمثيليّة كما تعرَّف على صدري مثل قبلة عابرة ثم كانت كأنّما تنتظر جواباً وتصيخ السمع وأخيراً همّت ـ وأنت تفهم الآن تماماً ـ وكان وجهه يبحث في الوقت نفسه عن وجهي. ولكنَّ هنا انتزعت نفسي منه بآخر ما لديّ من طاقة والتفتُّ جانباً فإذا هذا الصوت الذي لا أعرفه في نفسي يعود من جديد راقداً بين الرجاء والتوجُّع فيخرج من صدري إذ أن لي وَحْمةً ميدالية سوداء ـ».

وقاطعها أولريش قائلاً ببرود: «وكيف تصرّف أبوك؟».

ولكن كلاريسا لم تسمح بمقاطعتها وابتسمت في توتر وأشارت عبر ثوبها إلى موضع في الداخل عند خاصرتها قائلة: «الى هنا! حتى هنا وصل. هنا الميدالية. هذه الميدالية تتمتَّع بطاقة عجيبة ولها في ذلك شأن غريب!».

وكان الدم يتدفق فجأة في وجهها. وأعادها صمت أولريش فجأة إلى الصحو وأذاب الفكرة التي كانت تحبسها وابتسمت في حرج واختتمت قولها

twitter @baghdad_library

بكلمات عجلى قائلة: «أبي؟ لقد نهض للتوّ ولم أستطع أن أرى ما يحدث في وجهه وأحسب أنّه كان حرجاً بلا ريب وربّما امتناناً. فلقد خلصته في اللحظة الأخيرة. ويجب عليك أن تتصوَّر رجلاً شيخاً وفتاة صبية لها القدرة على ذلك! ولا بدّ أنني بدوت في صورة تلفَّت النظر إذ صافحني برقة بالغة ومسح على رأسي باليد الأخرى مرّتين ثم مضى بدون أن يقول شيئاً. وعلى هذا فسوف تفعل من أجله ما تستطيع؟! ولكنَّ كان من الواجب عليّ آخر الأمر أن أشرح هذا لك أيضاً.

وكانت تقف عندئذ ناحلة متَّسمة باللياقة في حلّة لم تكن ترتديها إلا حين كانت ترتاد المدينة لتنصرف ومدت يدها للتحية.

[٧١]

لجنة اتخاذ القرار الرئيسي بصدد الذكرى السبعينية لحكم صاحب الجلالة تبدأ اجتماعاتها

أما كتابها إلى الكونت لاينزدورف ومطالبتها أولريش أن ينقذ موز بروجر فلم تقل كلاريسا عنهما كلمة واحدة. وبدا أنّها قد نسيت هذا كلّه. ولكنّ أولريش أيضاً لم يصل في أجل قريب إلى تذكُّر هذا مرّة أخرى. ذلك لأنّ ديوتيما ذهبت آخر الأمر في كلّ ضروب الإستعداد إلى مدى كان من الممكن عنده أن تدعى إلى الإجتماع «اللجنة الخاصّة من أجل اتخاذ قرار رئيسي بصدد الذكرى السبعينية لحكم صاحب الجلالة» وهي اللجنة التي احتفظت ديوتيما لنفسها شخصيّاً بإدارتها وذلك ضمن إطار «البحث في اتخاذ القرار الرئيسي وتقرير رغبات الأوساط ذات الشأن من السكان بصدد الذكرى السبعينية لحكم صاحب الجلالة». وكان الشريف قد صاغ الدعوة بنفسه وصحَّحها توتسي وعرضت على آرنهايم التصحيحات من قبل ديوتيما قبل أن تتمّ المصادقة عليها. ومع ذلك فقد ورد فيها كلّ ما كان يشغل بال الشريف. وجاء في الكتاب: «إن ما يفضي بنا إلى هذا الإجتماع إنما هو الإتفاق على مسألة أن الإعلان القويّ المنبثق من صفوف الشعب لا يجوز أن يترك للمصادفة بل يتطلّب تأثيراً يقوم على بُعد النظر ومن موقع يسمح بنظرة شاملة واسعة أيّ أنّه قادم من الأعلى». وكان يلي ذلك «الاحتفال النادر جداً بارتقاء العرش المبارك ذي السبعين حَوْلاً» والشعوب «المجتمعة على الامتنان» وإمبراطور السلام والافتقار إلى النضج السياسي وعام النمسا العالمية وأخيراً ورد التذكير

twitter @baghdad_library

«بالثروة والثقافة» لكي يشكّل هذا كلّه إعلاناً متألقاً عن القوميّة النمساوية «الحقيقيّة» ولكنَّ كان من الواجب النظر فيه بحذر شديد.

وبرزت من لوائح ديوتيما مجموعات الفن والأدب والعلم واستُكمِلَت بجهود شاملة وبعناية بينما لم يبق من ناحية أخرى إلا عدد ضئيل جداً من الشخصيّات التي كان يحق لها أن تشهد الحدث بدون أن ينتظر منها عمل ما وذلك بعد غربلة بالغة الصرامة. ومع ذلك فقد ارتفع عدد المدعّوين ارتفاعاً بلغ منه أنّه ما عاد من الممكن أنَّ يردّ الحديث عن تناول أصولي للطعام على المائدة الخضراء ولم يكن ثمة بدٌّ من اختيار الصيغة الأكثر تخفيفاً وهي سهرات الإستقبال مع البوفيه البارد. وكان القوم يجلسون ويقفون على قدر ما أمكنهم ذلك وكانت حجرات ديوتيما تحاكي معسكراً لجيش ثقافي كانت تتمّ رعايته بالشطائر وقوالب الجاتو والخمور والضروب الحلوة من الخمر والشاي بمقادير لم تتهيّأ إلا عن طريق تنازلات خصوصيّة من الميزانية قدّمها السيِّد توتسي لزوجته بدون مقاومة كما يجب أن يضاف إلى ذلك وهو الأمر الذي يمكن أن يستنتج منه أنّه كان يرمي إلى اللجوء إلى طرق دبلوماسية ثقافية جديدة.

وكان التحكّم الإجتماعي بهذا الحشد يكلّف ديوتيما مطالب كبيرة وربّما كانت خليقة أن تحسّ بصدمة من جراء هذه المطالب لولا أن رأسها كان يضاهي قشرة ثمرة رائعة كانت الكلمات تسقط من فيضها على حافتها وهي كلمات كانت ربّة المنزل تحيي بها كلّ من يظهر وتفتنه بالمعرّفة الدقيقة بآخر عمل من أعماله. وكانت الإستعدادات لذلك فائقة. ولم يكن التحكّم بها ممكناً إلا بمساعدة آرنهايم الذي كان قد وضع تحت تصرفها أمين سره الخاص من أجل ترتيب المواد وتجميع البيانات ملخّصة. على أن الخَبَث العجيب لهذه الحماسة النارية شكّل مكتبة كبيرة تمَّ تأمينها من الأموال التي

رصدها الكونت لاينزدورف من أجل بداية العمل الموازي. وكانت قد صُفَّت بصورة مشتركة مع كتب ديوتيما الخاصّة حِليةً وحيدة في الحجرة الأخيرة من حجرات ديوتيما التي أُخليَت وكانت سجاجيّدها المزهَّرة على قدر ما كان يمكن رؤيته منها بعدُ تشي بالمخدع وهو سياق كان يبعث أفكاراً غزلية تتصل بساكنة البيت. ولكنَّ هذه المكتبة أثبتت طريقة أخرى أنّها استثمار مفيد إذ كان كلّ من المدعّوين يتوجَّه بعد أن يكون قد تلقى تحية ديوتيما اللطيفة متردِّدًا عبر الحجرات وكان يجتذبه في هذا السياق جدار الكتب الموجود في النهاية بمجرّد أن يلاحظه وكان يرتفع وينخفض على الدوام مجموعة من الظهور القائمة بالتفحُّص أمامه كالنحل أمام سياج من الزهور. وكان سبب ذلك مقتصراً على ذلك الفضول النبيل الذي يكنّه كلّ مبدع لمجموعات الكتب إذ كان الإشباع الحُلْو يسري في النخاع عندما كان المتفرّج يكتشف آخر الأمر أعماله الخاصّة وكان المشروع الوطني يحصل على فائدته من ذلك.

وفي القيادة الفكريّة للمؤتمر تركت ديوتيما أوّل الأمر حرية مستحبة في التصرّف تسود المؤتمر وإن كانت تعلّق أهمِّية على توكيدها للشعراء كلٍ باسمه على الفور أنَّ كلّ حياة تقوم في الأساس على شعرٍ داخليّ حتى الحياة التجارية عندما ينظر المرء إليها نظرة «واسعة الأفق». ولم يدهش ذلك أحداً ولكنَّ تبيّن أن معظم الذين تميّزوا بأمثال هذه المخاطبات إنما جاؤوا وهم على يقين أنّهم مدعوون لكي يُسْدوا إلى العمل الموازي بإيجاز أيّ في نحو خمس دقائق وحتى خمس وأربعين دقيقة نصيحة لا يمكن أن تنتهي إلى الإخفاق إذا ما اتبعها وإن بدّد الخطباء الآخرون الوقت بمقترحات خاطئة لا طائل تحتها. وانتابت ديوتيما أوّل الأمر من جراء ذلك حالة نفسية قريبة من البكاء بوجه خاص ولم تستطع أن تحافظ على موقفها العفويّ البسيط إلا بشقّ النفس إذ بدا لها أن كلّ واحد كان يقول شيئاً مختلفاً بدون أن تكون على استعداد لإيجاد

twitter @baghdad_library

قاسم مشترك بينهم. وكانت ماتزال عديمة الخبرة في أمثال هذه الدرجات من التركيز الخاص بهواة الأدب. ولمّا لم يكن من السهل أن يحدث مثل هذا اللقاء العالمي لرجال عظماء مرّة ثانية فقد أمكن فهم ذلك خطوة خطوة فحسب وبجهد أصوليّ وعلى نحو منهجيّ. وفي العالم آخر الأمر كثير من الأشياء التي تعني بالنسبة إلى الإنسان الفرد شيئاً مختلفاً عمّا تعنيه بالنسبة إلى الناس مجتمعين. وثال ذلك أن الماء بكميات مفرطة في الضخامة يمثّل متعة أقلّ بما يعادل على وجه الدقة الفرق بين الشرب والغرق مِمّا هو في الكميّات الصغيرة. والحال كذلك بالنسبة إلى السموم وألوان المسرّات وأوقات الفراغ والعزف على البيانو والمثل العليا. بل يبدو أن الحال كذلك بالنسبة إلى كلّ شيء بحيث تتوقّف ماهيته بصورة مطلقة على درجة كثافته وعلى ظروف أخرى. وعلى هذا فيجب أن يضاف إلى ذلك مجرّد أن العبقرية أيضاً لا تشكّل استثناءً من هذا لكي لا يرى المرء في الإنطباعات التالية شيئاً من قبيل الاستخفاف بالشخصيات العظيمة التي وضعت نفسها تحت تصرف ديوتيما بطريقة تنطوي على نكران الذات.

وذلك أنّه كان من الممكن أن يخرج المرء على الفور من هذا اللقاء الأوّل بانطباع مؤدّاه أن كلّ رجل عظيم يشعر أنّه في موقع مضطرب إلى أقصى الحدود بمجرّد أن يغادر وُكْنَتَه في قمم الجبال ويكون عليه أن يتفاهم بناءً على أرضية عادية. وكانت الكلمة الفائقة التي تنزل عابرة فوق ديوتيما مثل حدث سماوي بمجرّد أن تجد نفسها وحدها في حديث مع واحد من العمالقة تفسح المجال إذا تدخّل فيها ثالث أو رابع ثم دخل الآن عدد من المتحدّثين في تناقضٍ بعضهم مع بعض لعجزٍ مؤلم عن الوصول إلى النظام. وكان من لا يتهيّب من أمثال هذه التشبيهات يستطيع أن يتمثّل صورة وزّةٍ عراقية تتابع تحرّكها على الأرض بعد طيران يتّسم بالزهوّ. ومع ذلك فإن هذا يمكن فهمه

جيّداً بعد فترة أطول من التعارف. فحياة عظماء الرجال تقوم اليوم على عبارة تقول: «لا يُعرَفُ من أجل ماذا» وهم يتمتَّعون بتقدير كبير يتمّ في عيد ميلادهم الخمسين إلى المئة على أبعد تقدير أو لدى الاحتفال بالذكرى العاشرة لقيام معهد زراعي عالٍ يزدان بألقاب الدكتوراه الفخرية ولكنَّهم يتمتَّعون بذلك أيضاً في العادة في مناسبات مختلفة حيث يكون على المرء أن يتحدَّث عن التراث الفكري الألماني. لقد كان لنا في تاريخنا رجال عظماء. ونحن ننظر إلى هذا على أنّه مؤسسة عائدة إلينا شأنها في ذلك شأن السجون أو الجيش. ولا بدّ للمرء أن يدسّ فيها امرءاً ما حين تكون حاضرة. وبناء على ذلك يأخذون بآلية معيَّنة تتماثل مع أمثال هذه الحاجات دائماً ذلك الذي انتهى إليه الدور للتوّ ويُولونَه الشرف الذي نضج للإيلاء. ولكنَّ هذا التقدير ليس بالواقعي تماماً. ففي قراراته يكمن الإيمان المعروف على نطاق عام بأنّه ما من أحد يستحقه وحده في الحقيقة ومن الصعب التمييز بين انفتاح الفم بدافع الحماسة وبين انفتاحه للتثاؤب. والمسألة في ذاتها تنطوي على شيء من عبادة الموتى عندما يعدّ اليوم رجل من الرجال عبقرياً مع الإضافة القائلة إنَّ هذا ما عاد له وجود أبداً كما تنطوي على شيء من ذلك الحبّ الهستيري الذي يحدث ضجة كبرى لا لسبب سوى أنّه يفتقر في الحقيقة إلى الشعور.

ومثل هذه الحالة لا تعدّ مستحبة عند الرجال ذوي الحسّ المرهف وذلك أمر مفهوم وهم يسعون إلى التخلّص منها بطرق شتى فمنهم من يصبح ثرياً بدافع اليأس إذ يتعلّمون الاستفادة من الحاجة التي تمسّ الآن لا إلى الرجال العظام فحسب بل تمسّ أيضاً رجال جامحين روائيين ظرفاء وأبناء الطبيعة الناعمين والى قادة الجيل الجديد. أما الآخرون فيحملون على هاماتهم تاجاً ملكياً غير مرئي لا يضعونه عنها في أيّة ظروف على الإطلاق ويؤكّدون بمرارة وتواضع أنّهم لا يريدون أن يدّعوا الحكم يصدر على قيمة ما أبدعوه إلا بعد

twitter @baghdad_library

ثلاثة قرون أو عشرة. غير أنّهم يحسّون جميعاً أنَّ من المآسي الرهيبة عند الشعب الألماني أن العظماء الحقيقيين لا يغدون أبداً تراثه الثقافي الحيّ إذ يتقدَّمونه على مدى مفرط في البعد. ومع ذلك فيجب تأكيد أن الحديث كان يجري حتى هنا عمّن يُسمّون بالمتأدبين إذ يوجد في علاقات الفكر بالعالم فرق جديره بالذكر إلى حدٍّ بعيد. فبينما يريد المتأدّب أن يحظى بالإعجاب بمثل طريقة غوته وميكيل آنجلو ونابليون ولوثر قلّما يعرف اليومَ أيٌّ امرئٍ بعدُ اسم الرجل الذي أهدى إلى البشر النعمة التي لا تقدر وهي التخدير وما من أحد يبحث في حياة جاوْس أو أويلر أو مكسويل عن السيِّدة فون شتاين ولا يهمّ إلا أقلّ الناس أين ولد لافوازييه وكاردانو وأين ماتا وبدلاً من ذلك يتعلّم الناس كيف استؤنف تطوير أفكارهم ومخترعاتهم بوساطة أفكار الآخرين ومخترعاتهم وهؤلاء أيضاً شخصيّات غير ممتعة تشتغل بغير انقطاع بعملها الذي يتابع حياته في شخصيّات أخرى بعد أن تكون النار القصيرة لتلك الشخصيّات قد خمدت منذ عهد بعيد. وتنتاب المرءَ الدهشة للوهلة الأولى حين يحسّ بحدة هذا الفرق الذي يفصل بين طريقتين من طرائق السلوك البشري. ولكنَّ سرعان ما تتجلى الأمثلة المعاكسة وسيظهر هذا الفرق على أنّه الحدّ الأكثر طبيعية بين كلّ الحدود. على أن العادة المألوفة تؤكِّد لنا أنّه هو الحدّ بين الشخصيّة والعمل بين عظمة الإنسان وعظمة مسألةٍ ما بين الثقافة والمعرٌفة بين الإنسانية والطبيعة. فالعمل والعبقرية المجتهدة لا يزيدان في العظمة الأخلاقية في الرجولة تحت عيني السماء في نظرية الحياة التي لا تقبل التجزّؤ والتي يتمّ توارثها من قبل رجال الدولة والأبطال والقديسين والمغنين وممثلي الأفلام بالطبع أيضاً. إنّها تلك القوّة الكبرى اللاعقلانية التي يشعر الشاعر أنّه يشارك فيها أيضاً مادام يؤمن بكلّمته ويتمسك بها حتى يصدر عنه تبعاً لظروف حياته صوت الباطن أو الدم أو القلب أو الأمة أو أوروبا أو البشريّة. إنّه الكلّ الخفيّ الذي يشعر أنّه آلته على حين يقتصر الآخرون على

البحث فيما يمكن فهمه. وبهذه الرسالة يجب على الإنسان أن يؤمن قبل أن يستطيع رؤيتها! ولا ريب أن ما يؤكّد لنا هذا هو صوت الحقيقة ولكنَّ أَوَلا يظلّ شيء من الغرابة عالقاً بهذه الحقيقة؟ فهناك حيث ينظر المرء إلى الشخصيّة أقلّ مِمّا ينظر إلى القضيَّة توجد بطريقة لافتة للنظر شخصيّة جديدة دائماً من جديد تدفع بالقضية إلى الأمام على حين أنَّ المرء عندما ينتبه إلى الشخصيّة يتوقّف الشعور بعد بلوغ ارتفاع معيَّن على أساس أنّه ما عاد هناك شخصيّة كافية وأن العظيم حقاً ينتمي إلى الماضي!

وكانوا بضعة من الكاملين الذين تجمّعوا عند ديوتيما. وكان هذا قدراً كبيراً دفعة واحدة وكان قرض الشعر والتفكير طبيعياً بالنسبة إلى كلّ إنسان كالسباحة بالنسبة إلى بطة فتية. وكانوا يمارسونهما مهنة ويصيبون منهما أيضاً بالفعل أفضل مِمّا يصيبه الآخرون ولكنَّ من أجل ماذا؟ لقدكان عملهم جميلاً وكان عظيماً وكان فريداً ولكنَّ هذا القدر من التفرّد كان مثل جوّ المقبرة ومثل النَّفَس المتجمّع العائد إلى الفناء بدون معنى مباشر وبدون أصل واطّراد. وكانت تحتشد في هذه الرؤوس ذكريات لا حصر لها عن تجارب وألوف مؤلّفة من ذبذبات الفكر التي يتقاطع بعضها مع بعض وكانت تنغرس مثل إبَر نسّاج للسجاجيّد في نسيج كان ينتشر حواليهم وأمامهم وبعدهم بدون خياطة وبدون حاشية. وكانوا ينسجون في أيّ موضع كان أنموذجاً كان يتكرر على نحو مماثل في أيّ مكان آخر وكان مع ذلك مختلفاً بعض الاختلاف. ولكنَّ هل يكون من قبيل استنفاد المرء لنفسه على الوجه الصحيح أن يضع مثل هذه البقعة الصغيرة فوق الأبد؟!

ولو قلنا إنَّ ديوتيما فهمت هذا لبدا ذلك شططاً في القول غير أنّها كانت تشعر برياح القبور تهبّ على حقول الفكر وكانت كلّما مضى هذا اليوم الأوّل إلى مدى أبعد نحو نهايته ازدادت إيغالاً في اليأس وكان من حسن حظها أنّها

twitter @baghdad_library

تذكّرت في هذا السياق فقداناً معيّناً للأمل كان آرنهايم قد عبّر عنه في مناسبة أخرى لم تكن حينئذ مفهومة كلّ الفهم بالنسبة إليها حين كان الحديث يدور حول مسائل مشابهة. وكان صديقها مسافراً. ولكنّها كانت تفكّر في أنّه قد حذّرها من أن تعلّق آمالاً مفرطة في الكبر على هذا الإجتماع. وهكذا كانت هذه الكآبة الآرنْهايْمية التي أمعنت فيها هي التي سبّبت لها في الحقيقة آخر الأمر متعة جميلة حزينة تنطوي على التملّق إلى حدّ محسوس تقريباً. وساءلت نفسها قائلة: «أليس هذا هو التشاؤم إذا ما أُمعِن النظرُ في نبوءاته التي يحسّ بها في كلّ مرّة أهل الأفعال عندما يحتكّون بأهل الكلام؟!».

[٧٢]

ابتسامة العلم الماكرة أو اللقاء المفصَّل الأوّل مع الشر

ويجب أن تلي ذلك الآن بضع كلمات حول ابتسامة هي فوق ذلك ابتسامة رجال وكان معها لحية خلقت من أجل النشاط الرجولي للضحك على اللحى. والمسألة تتعلّق بابتسامة العلماء الذين كانوا قد لبّوا دعوة ديوتيما وأصغوا إلى المشاهير من المتأدّبين. وعلى الرغم من أنّهم كانوا يبتسمون فإنه لا يجوز للمرء مطلقاً أن يعتقد أنّهم كانوا يفعلون ذلك على سبيل السخرية بل كان هذا على النقيض من ذلك تعبيرهم عن الاحترام وعدم الاختصاص بما كان الكلام يدور حوله. ولكنَّ لا يجوز للمرء أيضاً أن يغترّ بذلك. ففي وعيهم كان هذا صحيحاً ولكنَّ في عقلهم الباطن إذا شئنا أن نستعمل هذه الكلمة الشائعة أو بعبارة أصحّ في مجمل حالاتهم كانوا أناساً يعتمل فيهم تعلّق بالشر مثل نار تحت مرجل.

على أن هذا يبدو بالطبع مثل ملاحظة متناقضة. ولو أن امرءاً أراد أن يطرحها بحضور أستاذ جامعي نظاميّ وعموميّ لكان من المحتمل أن يردّ هذا بأنّه إنما يخدم الحقيقة والتقدّم ببساطة ولا يعرف شيئاً سوى ذلك لأنّ هذه هي إيديولوجيا مهنته ولكنَّ كلّ الإيديولوجيات المهنية تتَّسم بالنبل. والصيادون مثلاً بعيدون بعداً شديداً عن أن يسمّوا أنفسهم جزاري الغابة بل هم أقرب إلى أن يسمّوا أنفسهم أصدقاءَ صيّاديّين للحيوانات والطبيعة مثلما يطرح التجار مبدأ الفائدة الشريفة ويسمَّى اللصوص رب التجارة النبيل والدولي الجامع بين

twitter @baghdad_library

الشعوب إلههم أيضاً. وعلى هذا فلا ينبغي لنا أن نقيم كبير وزن لوصف نشاط ما تبعاً لشعور أولئك الذين يمارسونه.

وإذا تساءل المرء ببساطة كيف اكتسب العلم اليوم صورته المعاصرة الأمر الذي يعدّ مهماً في حدّ ذاته ـ مادام يهيمن علينا ولا يسلم منه حتى الأميّ ذلك لأنّه يتعلّم التعايش مع أشياء لا تحصى جاء بها العلم ـ فسيخرج بصورة أخرى إذ تفيد الروايات الجديرة بالتصديق أنَّ هذا بدأ في القرن السادس عشر وهو عصر الإضطراب النفسي المتناهي في عنفوانه أن الناس ما عادوا يحاولون كما كان يحدث حتى ذلك الوقت خلال ألفي عام من التأمّل النظري الدينيّ والفلسفي أن يتغلغلوا في أسرار الطبيعة بل باتوا يكتفون بالبحث في سطحها بطريقة لا يمكن أن تسمّى باسم آخر سوى أنّها سطحية. على أن جاليليو جاليلي العظيم الذي هو أوّل من يردّ اسمه في هذا السياق قضى مثلاً على المسألة التي تتهيّب بموجبها الطبيعة في جوهرها الكامن في أساسها من الأماكن الخالية حتى أنّها لتدع الجسم الساقط يظلّ يخترق مكاناً بعد مكان ويملأُه إلى أن يصل أخيراً إلى أرض صلبة. واكتفى بملاحظة أكثر عموماً إلى حدٍّ بعيد: فقد استقصى ببساطة مقدار السرعة التي يسقط بها مثل هذا الجسم والطرق التي يقطعها والأزمنة التي يستهلكها وما هي زيادات السرعة التي تتتابه. وقد ارتكبت الكنيسة الكاثوليكية خطأً فادحاً إذ هددت هذا الرجل بالموت وأرغمته على التراجع بدلاً من أن تقتله بدون أخذ وردّ. فعَنْ أسلوبه وأسلوب أمثاله في التفكير وفي النظر إلى الأشياء نشأت بعد ذلك ـ خلال وقت بالغ القصر إذا ما طبّقنا مقاييس الزمن التاريخي ـ مخطّطات رحلات الخطوط الحديدية وآلات العمل وعلم النفس الفيزيولوجي والفساد الأخلاقي المعاصر الذي ما عاد من الممكن أن يعالجه شيء. ويبدو أنّها ارتكبت هذا الخطأ عن ذكاء كبير. ذلك لأنّ جاليلي لم يكن مكتشف قانون سقوط الأجسام

وحركة الأرض فحسب بل كان أيضاً مخترعاً يتمتَّع باهتمام رأس المال الكبير كما يمكن أن يقال اليوم. وفضلاً عن ذلك فلم يكن هو الوحيد الذي كان الفكر الجديد قد استحوذ عليه بل تشير الروايات التاريخية على النقيض من ذلك إلى أن الروح الموضوعية التي كان مفعماً بها كانت تنتشر على نطاق واسع وبصورة جامحة كالعدوى. ومهما يبدُ اليوم وصف امرئٍ ما بأنّه ذو روح موضوعية غير لائق اليوم إذ نعتقد أنّه قد بات لدينا من ذلك قدر مفرط في كثرته فقد كان الإستيقاظ في تلك الأيام فن الميتافيزيقا بالانتقال إلى التأمّل الصارم في الأشياء بالنظر إلى قرائن شتى تمثّل بوجه خاص نشوة الموضوعية ونارها! ولكنّ حين يتساءل المرء عمّا خطر ببال البشريّة في الحقيقة إذ غيّرت نفسها على هذا النحو يكون الجواب هو أنّها لم تفعل بذلك شيئاً آخر سوى ما يفعله كلّ طفل متعقّل حين يكون قد حاول أن يمشي في وقت سابق لأوانه. فقد جلست على الأرض ومسّت هذه بجزء من جسمها يُعْتمَد عليه وهو جزء قليل النبالة. ويجب أن يقال إنّها جلست على ما يجلس الناس عليه في العادة. ذلك لأنّ الغريب في الأمر أن الأرض أظهرت أنّها استطاعت ذلك على نحو غير عادي. وأمكن منذ هذا التلامُس الخروجُ بمكتشفات وألوان من الرفاهية والمعارف بكثرة تصل إلى حدّ الأعجوبة.

وقد يمكن للمرء بعد هذه المقدّمة التاريخية أن يقول قولاً ليس بالباطل تماماً وهو أن ما نوجد في غماره الآن إنما هو أعجوبة المسيح الدجال لأنّ التشبيه المستعمل الخاص بالتلامس لا يترتّب تأويله في اتجاه الأمانة فحسب بل يترتّب تأويله بالقدر ذاته في اتجاه ما هو خالٍ من التهذيب وما هو مُستَكْرَه. وبالفعل فقد كان المحاربون والصيادون والتجار أيّ أهل الطبائع المتَّسمة بالمكر والعنف على وجه الخصوص هم الذين يملكون الحقائق قبل أن يجد أهل الفكر متعتهم في الكشف عنها. ففي الصراع من أجل الحياة لا توجد

twitter @baghdad_library

عواطف فكريّة رقيقة بل لا يوجد إلا الرغبة في قتل الخصم بأقصر الطرق وأكثرها واقعية. وهناك يكون كلّ امرئ إيجابياً فاعلاً وبالقدر ذاته لن يكون من الفضيّلة في العمل أن يخادع المرء نفسه بدلاً من السير على أساس متين حيث يدلّ الربح آخر الأمر على تغلّب على الآخر نفسيٌ وناجم عن الظروف. وإذا نظر المرء من ناحية أخرى إلى ماهية الصفات التي تؤدّي إلى الإكتشافات تجلّى له التحرر من الحذرِ ومن العوائقِ والجرأةُ وروحُ المبادرة وبالقدر ذاته حبُّ التخريب واستبعاد الاعتبارات الأخلاقية والمساومة المتأنّية من أجل أقلّ المزايا والانتظار العنيد على الطريق نحو الهدف إذا لم يكن من ذلك بدّ وتقديس القياس والعدد الذي يمثّل التعبير الأكثر حدةً عن سوء الظن بكلّ ما هو غير أكيد وبعبارة أخرى إنَّ المرء لا يرى شيئاً آخر سوى الرذائل القديمة رذائل الصيّادين ورذائل الجنود ورذائل التجار التي تترجم هنا مجرّد ترجمة إلى المجال الفكري وتُقلَب معانيها إلى فضائل وبذلك يتمّ النأيُ بها في الحقيقة عن الطموح إلى مزيّة شخصيّة ومبتذلة نسبياً. ولكنَّ عنصر الشر الأصلي كما يمكن للمرء أن يسمّيه لم يفتقد منها مع هذا التبدل. ذلك لأنّه يبدو غير قابل للتدمير وخالداً بل هو على الأقل خالدٌ خلودَ كلّ ما هو سامٍ بشرياً إذ لا يوجد في شيء أقلّ من الرغبة في نصبِ ساقٍ لهذا السمو ورؤيته يسقط على أنفه أو في شيء غير هذه الرغبة. ومن تُراه لا يعرف الإغراء الخبيث الذي يكمن لدى تأمّل إناء مطليّ بالزجاج طلاءً جميلاً فخماً في فكرة أن في وسع المرء أن يحوّله إلى مئات الشظايا بضربة واحدة بالعصا؟ وإذا تمّ تصعيد هذا إلى بطولية المرارة المتمثّلة في أنَّ المرء لا يمكنه أن يعتمد في الحياة على شيء سوى ما هو راسخ رسوخ الجبال كان ذلك شعوراً أساسياً تحيط به موضوعية العلم. وإذا لم يشأ المرء بدافع الاحترام أن يطلق عليه اسم الشيطان فلا ريب أن فيه على الأقل رائحة خفيفة من شَعْر الخيل المحترق.

وفي وسع المرء أن يبدأ على الفور بالإيثار الذي يكنّه التفكير العلمي للتفسيرات الحركية والسكونية والمادية التي تعرّض قلبها لما يشبه الطعن. وذلك أنَّ النظر إلى الفضيّلة على أنّها مجرّد شكل خصوصي من أشكال الأنانية وإيجاد علاقة بين الانفعالات والمفرزات الداخلية وتقرير أن الإنسان يتألّف في ثمانية أعشاره أو تسعة أعشاره من الماء وتفسير الحرية الأخلاقية الشهيرة للشخصية بأنّها من الأفكار اللاحقة الناجمة عن حرية التجارة وإرجاع الجمال إلى الهضم الجيّد والى النسيج الدهنيّ الأصوليّ وإرجاع الإنجاب والانتحار إلى المنحنيات البيانية السنوية التي تبيّن أن القرار المتناهي في حريته إنما هو قرار قسريّ والإحساس بوجود صلة قربى بين النشوة والمرض العقلي ووضع المؤخرة والفم على قدم المساواة أحدهما مع الآخر من حيث كونهما النهاية الشرجيّة والفميّة للشيء ذاته ـ: إنَّ أمثال هذه التصوّرات التي تكشف الخدعة في القطعة الفنّية الخاصّة بالوهم البشري إلى حدٍّ ما تجد دائماً نوعاً من الرأي المبدئي الذي يشجّع على إضفاء الصفة العلميّة عليها بوجه خاص. ولا ريب أن الحقيقة هي ما يحبه المرء هنا. ولكنَّ يوجد حوالَيْ هذا الحبّ النقيّ إيثار للتحرّر من الوهم وقسرٌ وصرامة وزجر بارد وتوبيخ جاف وإيثار ينطوي على الشماتة أو على الأقل إشعاع وجدانيّ لاإرادي من هذا الطراز.

وبعبارة أخرى فإن صوت الحقيقة له ضجيج جانبي مشبوه ولكنَّ أقرب المهتّمين يأبون أن يسمعوا بشيء من ذلك. على أن علم النفس يعرف اليوم كثيراً من أمثال هذه الضروب المكبوتة من الضجيج الجانبي ولديه أيضاً نصيحة جاهزة وهي أن يستخرج المرء هذه الضروب المكبوتة ويوضّحها أو يجعلها جليّة قدر الإمكان ليحول دون آثارها الضارة. وعلى هذا فكيف سيكون الأمر لو أراد المرء أن يقوم بالتجربة ويشعر بإغراء عرض مذاق

twitter @baghdad_library

الحقيقة الملتبس وأصواتها الجانبية الخبيثة الخاصّة بإيذاء الإنسان والمتّسمة بسمة كلاب حراسة العالم السفليّ على الملأ ودفعه إلى الحياة شأن من يطمئن إليه؟ وقد كان خليقاً أن يظهر الآن على وجه التقريب ذلك النقص في المثالية الذي سبق وصفه تحت عنوان طوباوية الحياة الدقيقة وهو تفكير في التجربة والتراجع ولكنَّه تابع لقانون الحرب الحديدي الخاص بالغزو الفكري. على أن هذا السلوك تجاه صياغة الحياة لا يتّسم بالطبع بالرفق ولا يبعث على الطمأنينة بحال من الأحوال وهو لن ينظر إلى ما هو جدير بأن يُعاش نظرة التوقير فحسب بحال من الأحوال بل هو أحرى أن ينظر إليه نظرته إلى خط تعديل الحدود ذلك الخط الذي يزيحه على الدوام الصراعُ حول الحقيقة الداخلية. وهو خليق أن يرتاب في قدسية الحالة الراهنة في العالم لا عن نزعة ريبيّة بل ضمن إطار التفكير في الإرتقاء حيث تكون القدم التي تقف وقفة راسخة هي الأكثر انخفاضاً أيضاً في كلّ وقت. وفي نار مثل هذه الكنيسة الحادّة الأنياب التي تكره النظرية من أجل ما لم يُوحَ به بعد وتطرح القانون وما هو ساري المفعول جانباً باسم حبٍّ كثير المطالب لصورتها التالية فإن الشيطان خليق أن يعود إلى الله من جديد أو بعبارة أبسط فإن الحقيقة ستكون هناك من جديد أختَ الفضيّلة ولن تمارس ضدها بعدُ المكائد الخفيّة التي تدبّرها ابنة الأخ الصبية ضد عمتها العانس العجوز.

وكل هذا يتقبّله الآن بوعي أكثر أو أقلّ إنسان شاب في القاعة التعليمية للمعرّفة. وهو يتعرَّف فوق ذلك على فكرة بناءة كبرى تجمع المتباعد مثلما يجتذب نجم دوّار حَجراً ساقطاً فيما يشبه اللعب ويحلّل شيئاً يبدو واحداً لا يقبل التجزؤ مثل نشوء حدث بسيط من مراكز الوعي إلى تيارات تختلف منابعها الداخلية بعضها عن بعض آلافاً. ولكنَّ إذا أراد امرؤٌ أن يحلم باستخدام مثل هذه الفكرة المكتسبة خارج حدود المهام الفنّية الخصوصيّة

فسيتمّ إفهامه بسرعة أن حاجات الحياة تختلف عن حاجات التفكير. ففي الحياة يحدث النقيض من كلّ ما اعتاده الفكر المثقف تقريباً. وتلقى الفروق والخصائص المشتركة الطبيعية هنا تقديراً عالياً جداً. ومهما يكن الشيء الموجود فإنَّه يجري الإحساس به حتى درجة معيَّنة على أنّه طبيعي ولا يسرّ المرء أن ينال منه. أما التغيّرات التي تغدو ضرورية فلا تجري إلا على نحو متردِّد وفيما يشبه عملية مراوحة في المكان. ولو أن أحداً خاطب بدافع فكرة نباتية محضة بقرة بصيغة التوقير (في تقدير صحيح للظرف المتمثِّل في أن المرء يكون عليه إلى حدٍّ بعيد أن يتصرّف تجاه المخلوق الذي يخاطبه بلهجة الألفةً تصرف اللامبالي) لعابَ عليه المرء إفراطه في التكلّف إذا لم يَعب عليه جنونه ولكنَّ ليس بسبب العقلية الودية تجاه الحيوان أو المماثلة لآكلات الأعشاب وهي العقلية التي تعدّ إنسانية سامية بل بسبب انتقالها المباشر إلى الواقع وبكلمة موجزة: يوجد بين الفكر والحياة توازن معقَّد يتلقَّى فيه الفكر على أقصى الحدود نصف متطلباته الألف مسدَّدةً وفي مقابل ذلك يزدان بلقب الدائن الفخريّ.

ولكن إذا كان الفكر نفسُه في صورته القويَّة التي وجدها مؤخراً مثلما سبق افتراضُ ذلك قديساً شديد الرجولة يتحلّى بالفضائل الجانبية المتَّصلة بالحرب والصيد فسيكون من الممكن أن يُستَخلَص من الظروف الموصوفة أن الميل الكامن فيه الفاحِش لا يمكن أن ينبثق في أيّ مكان في كماله المتعاظم على أيَّة حال ولا أن يجد الفرصة لتمحيص نفسه من خلال الواقع. ومن أجل ذلك يكون من الجائز مصادفتُه على طرق شتى غريبة حقاً لا يمكن التحكّم بها وعليها يُفلِت مّن الانغلاق العقيم. ومن الممكن الآن أن يظلّ من الأمور المعلّقة مسألةُ هل كان كلّ شيء حتى الآن لعباً بالتصوّرات أم لم يكن كذلك. ولا يمكن مع ذلك إنكار أن هذا التكهّن الأخير يحظى بتوكيده الفريد. وهناك

twitter @baghdad_library

مزاج من أمزجة الحياة لا اسم له يكمن اليوم في دمِ عدد من البشر غير قليل. وهو يتمثَّل في توقّع الأكثر سوءاً والإستعداد للشغب وسوء الظن بكلّ ما يقدّره الناس. وهناك أناس يشكون من انعدام المثل عند الشباب. ولكنَّ في اللحظة التي يترتّب عليهم فيها أن يتصرّفوا لا يقرّرون من تلقاء أنفسهم تماماً شيئاً يختلف عمّا يقرّره من يدعم بدافع سوء الظن الصحي في مواجهة الفكرة طاقتها اللطيفة عن طريق مفعول أيَّة هِراوة كائنةً ما كانت. وبتعبير آخر هل يوجد أيّ غرض نزيه لا يكون من الضروري أن يتزوّد بقدر ضئيل من الفساد وإدخال الصفات الإنسانية الدنيا في الحسبان لكي يكتسب في هذا العالم صفة الجدّ ويكون ذا مقصد جِدّي؟ فإن كلماتٍ مثل: يقيّد ويُرغِم ويشدّ بالبُزال ولا يهاب ألواح النوافذ الزجاجية المحطمة والنهج الشديد لها من المصداقية وقعٌ مستحب. على أن التصوّرات من النوع القائل إنَّ الفكر الأكبر إذا ما دُسَّ في ساحة ثكنة تعلّم القفز على صوت الرقيب خلال ثمانية أيام أو أن ملازماً وثمانية رجال يكفون لإلقاء القبض على كلّ برلمان للخطباء في العالم لم تجد في الحقيقة التعبير الكلاسيكي عنها إلا فيما بعد أيّ في الإكتشاف المتمثّل في أنَّ المرء يستطيع ببضع ملاعق من زيت الخروع يجرّعها أحد المثاليّين أن يحوّل أشدّ القناعات رسوخاً إلى شيء مضحك. ولكنَّ هذه التصوّرات كانت تنطوي منذ عهد بعيد على قوّة الإرتفاع الجامحة التي تتَّسم بها الأحلام الرهيبة على الرغم من أنّها حرمت من حماية القانون حرماناً مبنياً على الاستياء. والحال أنَّ كلّ فكرة من بين فكّرتين على الأقل عند كلّ إنسان يوضع في مواجهة فكرة مهيمنة وإن كانت تهيمن عليه بجمالها تعدّ اليوم من هذا القبيل: لن تستطيع أن تحتال عليّ في شيء! فسأمسك بك وأنت صغيرٌ ضئيل! وهذا الغضب التصغيريّ الخاص بعصر لم تستفزِزْه كلّ الكلاب فحسب بل هو عصر استفزازي أيضاً ما عاد يمثّل بلا ريب التقسيم الثنائي الطبيعي بالنسبة إلى الحياة إلى فظّ وسامٍ بل هو أقرب كثيراً إلى أن يكون خبطةً من خبطات الفكر

المنطوية على التعذيب الذاتي واستمتاعاً لا يوصف بالمسرحية بما يتعرَّض له الخير نفسه من المهانة والتدمير ببساطة رائعة. وهذا أمر يبدو أنّه ليس بالعديم الشبه بالإرادة الحماسية لمعاقبة النفس بتلفيق الأكاذيب عليها. وربّما لم يكن من الأمور خُلُوّاً من العزاء على الإطلاق أن يؤمن المرء بعصر ظهر إلى حيّز الوجود وعَجُزُه بارز إلى الأمام وهو لا يحتاج إلا أن يُسوّى بيدي الخالق.

وإذاً فسوف تعبر ابتسامة رجال عن أمور كثيرة شتى من هذا القبيل وإن كانت تلفَّت من الملاحظة الذاتية أو أنّها لمّا تَعْبُر بعدُ أبداً مجال الوعي. وهكذا كانت طبيعة الابتسامة التي كان معظم المدعّوين من مشاهير الخبراء ينسجمون بها مع مطامح ديوتيما الجديرة بالثناء وكانت تتصاعد مثل حكّة على السيقان التي لم تكن تعرف حقّ المعرّفة إلى أين ينبغي لها أن تتجه وحطّت على الوجه في صورة دهشة تنطوي على حُسنِ النية. وكان يسرّ القوم أن يستطيعوا أن يروْا أحد معارفهم أو زميلاً من المقرَّبين ويحادثوه. وكان يخالجهم شعور بأنّهم سيطأون الأرض وطأً شديداً على سبيل الاختبار بضع مرات عند الانصراف إلى بيوتهم بعد مغادرة الباب. ولكنَّ ما من شكّ في أن الاحتفال كان جميلاً كلّ الجمال. على أن مثل هذه المشروعات العامة تعدّ بالطبع شيئاً لا يكتسب قط مضموناً صحيحاً شأنها في ذلك شأن كلّ التصوّرات البالغة العموم والفائقة السمو على وجه الإطلاق. فأنت لا تستطيع أن تتصوَّر حتى الكلب إذ يكون هذا إشارة إلى كلاب معيَّنة والى خصائص معيَّنة للكلاب. على أن الوطنية أو الفكرة الوطنية الأكثر جمالاً هي أحرى ألّا يستطيع تصوَّرها ولكنَّ إذا لم يكن لهذا مضمون فلا ريب أن له معنى. ولا ريب أنَّ من الخير بعثُ هذا المعنى من حين إلى آخر. وكذلك كان يتحدَّث معظمهم بعضهم إلى بعض. وكان أكثر هذا بلا ريب في اللاشعور. غير أن ديوتيما التي كانت ماتزال واقفة في حجرة الإستقبال الرئيسيّة وهي تخصّ

twitter @baghdad_library

المتأخِّرين بمخاطبة ما سمعت وقد أخذتها الدهشة على نحو غامض أن أحاديث حادة كانت تنعقد حواليها كان يتناهى إلى مسمعها منها ما لم يكن من النادر فيه إذا لم يكن كلّ شيء خداعاً حتى المناقشات حول الفرق بين البيرة البوهيمية والبيرة البافارية أو أجور الناشرين.

وكان من المؤسف أنّها لم تكن تستطيع أن تتفرّج على حفلتها من ناحية الشارع أيضاً. فمن هناك كان النور يتألق ساطعاً مطلاً من خلال الواجهة العليا للنوافذ وكان يزيد فيه بريق السلطة والنبالة الذي أضفته عليه العربات المنتظِرة ويزداد بفعل نظرات المتفرجين الذين ظلوا واقفين أثناء مرورهم وجعلوا ينظرون إلى الأعلى برهة من الزمن بدون أن يعرفوا السبب حقّ المعرِّفة ولو أن ديوتيما أحسَّت بهذا لكان ذلك خليقاً أن يسرّها. وكان مايزال يقف أناس في الضوء المتوسِّط السطوع ممن نثرهم الاحتفال على الشارع وبدأت من وراء ظهورهم الظلمة الكبيرة التي سرعان ما أصبحت على مسافةٍ ما ظلمةً كبيرة لا سبيل إلى اختراقها.

[٧٣]

جيردا ابنة ليوفيشِل

وفي غمرة هذا لبث أولريش زمناً طويلاً لا يجد الوقت للوفاء بالوعد كان قطعه للمدير فيشل وليزور أسرته. والحقّ أنّه لم يجد الوقت على الإطلاق قبل أن يصادفه حدث غير منتظر وكان هذا زيارة زوجة فيشل كليمنتينا.

وكانت قد أبلغت عن مجيئها بالهاتف وانتظرها أولريش انتظاراً لا يخلو من القلق وكان قد تردد على منزلها آخر مرّة قبل ثلاثة أعوام حين قضى في هذه المدينة بضعة شهور ولكنَّه لم يجئ هذه المرة إلى هناك إلا مرّة واحدة إذ لم يكن يريد أن يحرِّك ساكناً في نزوة غرامية ولّى عهدها. وكان ينطوي على الخوف من خيبة الأمل المتَّصلة بالأمومة لدى السيِّدة كليمنتينا. ولكنَّ السيِّدة كليمنتينا كانت تنطوي على «قلب واسع الأفق». ولم يكن يتاح لها مع المنازعات اليوميّة الصغيرة مع زوجها ليو إلا القليل من الفرص لكي تستعمل ذلك فكان تحت تصرفها من أجل الأحوال الخاصّة التي كانت قلّما تلمّ بها مع الأسف ذروةٌ من ذُرى الشعور بطوليةٌ على وجه الخصوص. وعلى كلّ حال فقد كانت السيِّدة الناحلة ذات الوجه الصارم المشوب بشيء من الحزن على شيء من الحرج حين وجدت نفسها في مواجهة أولريش والتمست منه حديثاً على انفراد علي الرغم من إنهما كانا وحدهما على أيَّة حال ـ وقالت إنّه هو الوحيد الذي يمكن بعدُ أن تصغي جيردا إلى رأيه. وأضافت قائلة إنّها تود ألّا يسيء فهم رجائها.

twitter @baghdad_library

وكان أولريش مطَّلِعاً على الأحوال في بيت فيشل ولم يكن الأب والأم في حرب دائمة فحسب بل كانت جيردا الابنة التي بلغت الثالثة والعشرين قد أحاطت برهط من الشباب ذوي الأطوار الغريبة الذين جعلوا من ليو الوالد الذي كان يحر الإرم من الغيظ مع ما في ذلك من المخالفة الشديدة لإرادته من الأغنياء المشجعين «لفكرهم الجديد» إذ لم يكن القوم يستطيعون أن يجتمعوا في أيّ مكان على نحو مريح مثلما كانوا يفعلون عنده ـ وقالت إنَّ جيردا بالغة العصبيّة وإنّها تعاني من فقر الدم وهي تنفعل على الفور انفعالاً رهيباً إذا ما حاول المرء وضع حد لهذا الاتصال كما روت السيِّدة كليمنتينا وأنّهم آخر الأمر فتيان أغبياء يفتقرون إلى التهذيب غير أن عداءهم للساميّة ذلك العداء الصوفي الذي يحملون للعرض قصداً لا يتَّسم بالفظاظة فحسب بل يعدّ أيضاً علامة على فظاظة باطنهم ثم أضافت الآن قائلة إنّها لا تريد أن تشكو من العداء للسامية فهذه ظاهرة من ظواهر العصر ولا بدّ للمرء أن يستسلم لذلك الآن بل ربّما كان في وسع المرء أن يسلّم بأن هذا كانت له أسبابه من بعض الوجوه ـ وتوقَّفت كليمنتينا وقد كانت خليقة أن تجفف دمعة بمنديل جيبها لولا أنّها كانت ترتدي نقاباً ولكنّها توقَّفت لذلك عن إخراج الدمعة بالبكاء واكتفت بأن تسحب منديلها الصغير الأبيض من حقيبة يدها الصغيرة.

وقالت: «أنت تعرف طبيعة جيردا فهي فتاة جميلة وموهوبة ولكنَّ ـ».

واستدرك أولريش قائلاً: «على شيء من الفظاظة».

«أجل والى الله الشكوى فهي متطرفة دائماً».

«وعلى هذا فمازالت جرمانية النزعة؟».

وكانت كليمنتينا تتحدَّث عن مشاعر الأبوين. وقد سمت زيارتها تسمية مثيرة للعطف نوعاً ما إذ سمتها مسيرة أم وكان لها هدف إضافيّ يتمثَّل في كسب أولريش لبيتها من جديد بل أنّه لقي ضروباً من النجاح العظيم في العمل

الموازي كما كان الناس يسمعون. واستأنفت قائلة: «وأودّ أن أعاقب نفسي بنفسي لأنّني وقفت إلى جانب هذا الاتصال خلافاً لإرادة ليو في السنوات الأخيرة ولم أكن أجد شيئاً في ذلك فهؤلاء الشبان مثاليون على طريقتهم وعندما يكون المرء متّسِماً بالبساطة والعفوية لا يكون له بدّ أيضاً من أن يحتمل كلمة جارحة ذات مرة. ولكنَّ ليو ـ وأنت تعرف طبيعته ـ ينفعل حيال العداء للسامية سواء أكان هذا مجرّد عداء صوفي ورمزي أم لم يكن كذلك».

واستدرك أولريش قائلاً: «وجيردا ألّا تريد بطرازها الحرّ الألماني الأشقر أن تعترف بالمشكلة؟».

إنّها في هذا الأمر مثلما كنت أنا في صباي. وهل تعتقد آخر الأمر أن هانز زيبّ له مستقبل في ذاته!».

وسأل أولريش بحذر: «وهل بين جيردا وبينه خطبة».

وتنهّدت كليمنتينا قائلة: «هذا الفتى لا يعطي أقلّ أمل في كسب الرزق بلا ريب! فكيف يستطيع عندئذ أن يتحدَّث عن الخطبة. ولكنَّ حين حظر عليه ليو البيت لبثت جيردا ثلاثة أسابيع تأكل القليل جداً حتى هزلت فلم يبق منها إلا العظام». وقالت فجأة وهي غضبى: «هل تعلَّم أن هذا يبدو لي مثل تنويم مغناطيسي مثل عدوى فكريّة. أجل إنَّ جيردا تبدو لي أحياناً كالمنوَّمة مغناطيسياً فالفتى مايفتأ يعرض في بيتنا نظراته في الحياة وجيردا لا تلاحظ الإهانة المستمرّة الكامنة في ذلك لوالديها على الرغم من أنّها بنية طيِّبة في العادة ودافقة بالحنان. ولكنَّ حين أقول لها شيئاً ما تجيب قائلة: «أنت تنتمين إلى الزيّ القديم يا ماما». وقد قلت في نفسي إنك أنت الوحيد الذي تحفِل به نوعاً ما وإن ليو ليقدّرك التقدير الكبير! ـ فهلّا قَدِمْتَ إلينا ذات مرّة وفتحت عيني جيردا قليلاً على قلّة نضج هانز وأصحابه».

twitter @baghdad_library

ولما كانت كليمنتينا شديدة الانضباط وكان هذا عملاً من أعمال العنف لم يكن لها بدّ أن يتتابها ألوان من القلق الشديد على الرغم من كلّ ألوان الصراع فقد كانت تشعر في هذا الوضع بشيء من قبيل الإلتزام الجماعي المتضامن مع زوجها. ورفع أولريش حاجبي عينيه مهموماً.

«وأنا أخشى أن تقول إنني أنا أيضاً من الزي القديم فهؤلاء الشبان الجدد لا يستمعون إلينا نحن المسنين وهذه مسائل مبدئية».

وتدخّلت كليمنتينا قائلة: «لقد خطر ببالي أنّه ربّما كان مِمّا يمكن أن يوجّه جيردا صوب أفكار أخرى أن يكون لديك أيّة مهمة لها في هذا العمل الكبير الذي يكثر الناس من الحديث عنه» وآثر أولريش أن يعدها بزيارته سريعاً وأن يؤكّد لها مع ذلك أن العمل الموازي مازال بعيداً عن أن ينضج نضجاً كافياً من أجل مثل هذا الإستعمال.

وحين رأته جيردا يدخل بعد بضعة أيام علت خدّيها بقع حمر مستديرة كالدائرة ولكنّها صافحته بقوّة وكانت واحدة من تلك الفتيات العصريات اللواتي يعرفن هدفهن على نحو جذّاب واللواتي يمكن لهن أن يصبحن على الفور جابياتٍ في سيّارة عامة إذا ما اقتضت هذا فكرة عامة.

ولم يخب ظن أولريش في افتراضه أنّه سوف يلقاها وحيدة. كانت أمها في هذه الساعة قد خرجت تسعى من أجل تأمين بعض المشتريات. وكان أبوها مايزال في المكتب. ولم يكد أولريش يخطو الخطوات الأولى في الحجرة حتى ذكّره كلّ شيء تذكيراً يبعث على التشويش بيوم من أيام صحبتهما السالفة. وكان العام في تلك الأيام يتقدّم هذا بلا ريب مقدار بضعة أسابيع وكان ربيعاً غير أنّه كان واحداً من تلك الأيام ذات الحرارة اللاذعة التي تسبق الصيف أحياناً مثلما تسبق ألسنة اللهيب وهي طائرة والتي يصعب احتمالها على الأجساد التي لم تتمرّس بالقسوة. وكان وجه جيردا يبدو مرهقاً مستطيلاً

وكانت في ثياب بيض تفوح منها رائحة البياض مثل كتان يُجفَّف على المرج وكانت الستائر مُسدَلة في كلّ الحجرات وكان المنزل كلّه حافلاً بالنور الغَسَقيّ الجامح وسهام الحرّ التي كانت تخترق برؤوسها المبتورة حاجز الستائر الرمادية. وكان أولريش يشعر حيال جيردا أنّها تتألف برمتها من أمثال هذه الستائر الكتانية المغسولة غسلاً حديثاً مثلما كان ثوبها وكان شعوراً موضوعياً تماماً وقد كان في وسعه أن ينضوَ عنها بهدوء واحداً منها بعد الآخر بدون أن يحتاج من أجل ذلك أدنى حاجة إلى دافع غرامي. وقد عاوده هذا الشعور الآن أيضاً. كان شعوراً بالألفة طبيعياً تماماً على ما يبدو ولكنّه عبثيّ وكانا يخافان منه كلاهما.

وسألت جيردا: «لماذا لم تأتنا طوال هذا الوقت؟».

وقال لها أولريش على نحو مباشر إنّه كان خليقاً أن يخرج بانطباع مفاده أن أبويها لا يرغبان في علاقة حميمة كهذه بدون هدف الزواج.

وقالت جيردا: «آه إنَّ أمي مضحكة. إذاً فنحن لا يحق لنا أن نكون أصدقاء بدون أن يكون ثمة تفكير في ذلك في الوقت ذاته؟! ولكنَّ أبي يرغب أن تأتي مرات أكثر. ومن المفترض أن تكون قد أصبحتَ مع هذه الحكاية شيئاً مهماً بلا ريب».

ونطقت بهذا بصراحة كاملة معبّرة عن هذا الغباء عند كبار السن وهي مستيقنة من الرابطة الطبيعية التي كانت تجمعهما كليهما في مواجهة هذا.

وردّ أولريش قائلاً: «سوف آتي ولكنَّ قولي لي الآن يا جيردا إلى أين سيفضي بنا هذا».

وكانت المسألة إنهما لم يكونا يحبّان أحدهما الآخر وكانا قد لعبا التنس معاً فيما مضى وكانا يلتقيان في المجتمع ويخرجان معاً ويهتم أحدهما بالآخر

twitter @baghdad_library

وبهذه الطريقة تخطيا بدون أن يلاحظا الحدود التي تميز الإنسان الحميم الذي يكشف عن نفسه بما فيها من حالة الإضطراب في مشاعره من كلّ أولئك الذين يتظاهر المرء بالدماثة أمامهم. وكانا قد باتا يألفان أحدهما الآخر فجأة إلى حدٍّ أصبحا معه مثل إثنين يحبان أحدهما الآخر منذ عهد طويل بل ما عادا يتحابّان تقريباً ولكنَّهما أعفيا نفسيهما من الحبّ في هذه الأثناء! وكانا يتلاومان بحيث كان المرء يستطيع أن يعتقد إنهما لا يحبان أحدهما الآخر ولكنَّ هذا كان في الوقت نفسه عائقاً ورابطة. وكانا يعرفان أنّه لم يكن ينقصهما سوى شرارة صغيرة لكي ينشأ منها نار ولو أن فارق السن بينهما كان أقل. ولو كانت جيردا امرأة متزوجة لكان من الجائز أن ينشأ عن الفرصة اللصُّ وعن السرقة عاطفة جامحة فيما بعد على الأقل ذلك لأنّ المرء يوهم نفسه بالحب مثلما يوهمها بالغضب عندما يقوم بحركاتهما. ولكنَّ لأنهما كانا يعرفان ذلك ومن أجل ذلك على وجه الخصوص فإنهما لم يفعلا ذلك و ظلَّت جيردا فتاة وكان يتولّاها الغيظ الشديد من ذلك.

وبدلاً من أن تجيب عن سؤال أولريش كانت تشتغل بشيء ما في الحجرة. وفجأة كان يقف إلى جانبها وكان هذا أمراً ينطوي على كثير من التهوّر. ذلك لأنّ المرء لا يستطيع في مثل هذه اللحظة أن يقف بالقرب من فتاة ويشرع في الحديث عن مسألة ما. وكانا يتابعان طريق المقاومة الأقل مثل جدول يسعى إلى تجنب العوائق فينساب منحدراً في مرج. وكان أولريش يضع ذراعه على خاصرة جيردا وقد بلغ برؤوس أصابعه إلى الخط الذي يتابع في العادة وهو ينطلق نحو الأسفل الشريط الداخلي لحمّالة الجورب. وحوّل وجه جيردا الذي كان مشوّشاً يتصبب عرقاً وقبلها على شفتيها ثم وقفا هنالك لا يستطيعان انفصالاً ولا اتحاداً. ووصلت رؤوس أصابعه إلى الشريط المطاطي العريض لحمّالة جوربها وتركته يضرب ساقها ضرباً خفيفاً بضع مرات. على

أنّه حرّر نفسه الآن وكرَّر سؤاله وهو يهزّ كتفيه: «الى أين سيفضي بنا هذا الآن يا جيردا؟».

وغالبت جيردا انفعالها وقالت: «أوَليس هناك بدٌّ من أن يفضي هذا إلى شيء!».

وقرعت الجرس وأوعزت بإحضار شيء من المرطبات وبعثت الحركة في البيت.

ورجا منها أولريش برفق وهما يجلسان وكان عليهما أن يأخذا في حديث جديد قائلاً: «هلّا حدثتِني شيئاً عن هانز!». على أن جيردا التي لم تكن قد ثابت إلى نفسها بعدُ تماماً لم تجب أوّل الأمر ولكنّها قالت بعد هنيهة: «أنت إنسان مغرور ولن تفهمنا أبداً نحن الأصغر سنّاً!».

وردّ أولريش محوِّلاً وجهة الحديث: «لا تخافي فأنا أعتقد يا جيردا أنني أتخلَّى الآن عن العلم وعلى هذا فأنا أتحوّل إلى الجيل الجديد. أوَيكفيك أن أقسم أن المعرِّفة تمتّ بصلة إلى حبّ التملك وأنّها تمثّل دافعاً إلى الادخار يتّسم بالبؤس وأنّها رأسمالية باطنية متعجرفة؟ وإني لأنطوي في قرارة نفسي على قدر من الشعور أكثر مِمّا تعتقدين غير أني أودّ حمايتك من كلّ ضروب الثرثرة التي هي مجرّد كلام!».

وردت جيردا قائلة بفتور: «يجب عليك أن تتعرَّف على هانز على نحو أفضل» ولكنّها أضافت بعد ذلك فجأة قائلة بعنف: «على أنّك لن تفهم أبداً آخر الأمر أن المرء يستطيع أن ينصهر مع الآخرين من البشر بدون حبّ التملك!».

وقال أولريش مصرّاً بحذر: «ومازال هانز يأتيكِ كثيراً كالعهد به؟». وهزت جيردا بكتفيها. ولم يكن أبواها الذكيان قد حظّرا البيت على هانز زيبّ

twitter @baghdad_library

بل أقرّا له ببضعة أيام في الشهر. وفي مقابل ذلك كان على هانز زيبّ الذي كان طالباً ولم يكن شيئاً ولم يكن يبشّر بشيء بعد أن يغدو شيئاً ما وأن يعطيهما كلمة الشرف وألا يدفع جيردا منذ الآن إلى شيء غير سليم وأن يكفَّ عن الدعاية الخاصّة بالعمل الصوفيّ الألماني. وكانا يأملان بذلك أن يجرّداه من سحر المحظور وكان هانز زيب قد أعطاهما كلمة الشرف المطلوبة دونما أخذ وردّ على عفّته (لأن الشهوانيّة وحدها تسعى إلى الامتلاك ولكنّها رأسمالية يهودية). على أنّه لم يكن يفهم من تلك الكلمة أنَّ عليه أن يكفّ عن دخول البيت مرات أكثر في الخفاء أو يكف عن الأحاديث اللاهبة والمصافحات المنطوية على الحماسة وحتى عن القبلات الأمر الذي كان مايزال كلّه من مقتضيات الحياة الطبيعية بين ذوي الصداقات بل كان يفهم من ذلك مجرّد الدعاية لرابطة خالدة من الكهنوت والدولة وهي الدعاية التي كان يمارسها نظرياً حتى ذلك الوقت وكان مِمّا يزيده إيثاراً لإعطاء كلمة الشرف أنّه كان ينظر إلى النضج من أجل تطبيق مبادئه على أنّه أمر لمّا يَئِن أوانه بعدُ عنده وعند جيردا وأن إيصاد الباب في وجه وساوس الطبيعة الدنيا كان يوافق فكره تماماً.

غير أن كلا الشابين كانا يعانيان بالطبع من هذا القسر الذي كان يضع لهما حداً من الخارج قبل أن يجد الحدَّ الداخليّ الخاص بهما. وذلك أن جيردا ما كانت لتقبل هذا التدخّل من جانب والديها لولا أنّها لم تكن هي نفسها غير واثقة ولكنَّ ذلك كلّه كان يزيد من إحساسها بمرارة التدخّل. والحقّ أنّها لم تكن تحبّ صديقها الفتى حباً شديداً. وكان الأكثر من ذلك إلى حدٍّ بعيد هو أن التناقض مع والديها هو الذي كانت تترجمه إلى تعلُّق به. ولو أن جيردا ولدت بعد مولدها ببضع سنوات لكان أبوها واحداً من أغنى رجال المدينة وإن لم يكن عندئذ من أهل السمعة المرموقة بوجه خاص وإذاً لكانت أمها خليقة أن تعجب به من جديد بدون أن تصل جيردا إلى الوضع الذي تحسّ معه

بالمشاحنات بين مُنجِبَيْها إحساسها بصراع في نفسها هي ذاتها وإذاً لكان من الجائز عندئذ أن تشعر وهي مزهوّة بنفسها أنّها مخلوق من خليط عنصري. ولكنَّ لما كانت الأحوال في الواقع على ما كانت عليه فقد ثارت على والديها وعلى مشكلات حياتهما وأبت أن ترزح تحت عبئهما من الناحية الوراثية وكانت شقراء حرّة ألمانية مفعمة بالقوّة كأنْ لم يكن لها صلة بهما. وكان لهذا على قدر ما كان يبدو النقيصةُ المتمثِّلة في أنّها لم تصل أبداً إلى أن تخرج والغيظ الذي كان يأكل قلبها إلى النور. أما في محيطها المنزلي فكانت حقيقة وجود القوميّة والإيديولوجيا العنصرية تُعامَل على أنّها غير موجودة على الرغم من أن هذه كانت تجرّ نصف أوروبا إلى أفكار هستيرية. وكان كلّ شيء داخل الجدران الفيشليّة على وجه الخصوص يدور حولها. وأما ما كانت جيردا تعرفه من ذلك فقد تسرّب إليها من الخارج في الأشكال المظلمة من الإشاعة في صورة تلميح ومبالغة. وكان التناقض الكامن في أنَّ أبويها كانا في العادة يتلقّيان عن كلّ ما كان كثير من الناس يقولونه انطباعاً بالغ الأثر ولكنَّهما كانا يشكّلان استثناءً غريباً في هذه الحالة. كان هذا التناقض قد انطبع فيها في وقت مبكر. ولما كانت تفتقر في هذه المسألة المتَّسمة بسمة عالم الأرواح إلى روح معيَّنة موضوعية فقد ربطت بها على وجه الخصوص في سنوات النضج الناقص كلّ ما كان بالنسبة إليها غير مستحب وباعثاً على الوحشة في بيت والديها.

وذات يوم تعرّفت على حلقة الشباب الجرماني المسيحي الذي كان هانز زيبّ ينتمي إليه وشعرت دفعة واحدة أنّها في موطنها الحقيقي. وربّما كان من الصعب الإبانة عمّا كان يؤمن به هؤلاء الشباب. كانوا يشكّلون واحداً من تلك المذاهب الفكريّة الحرّة الصغيرة غير المحدودة التي لا تحصى والتي كانت الشبيبة الألمانية تحفل بها منذ اضمحلال المثال الخاص بالنزعة

twitter @baghdad_library

الإنسانية. ولم يكونوا معادين عنصريين للسامية بل كانوا أعداءً (للعقلية اليهودية) التي كانوا يفهمون منها الرأسمالية والاشتراكيّة والعلم والعقل وسلطة الوالدين وصلف الوالدين والحساب وعلم النفس والشك. وكانت المادة التعليمية الرئيسيّة عندهم هي الرمز وعلى قدر ما كان أولريش يستطيع المتابعة وقد كان ينطوي على شيء من الفهم لأشياء من هذا القبيل فقد كانوا يطلقون اسم الرمز على الأشياء الكبيرة للنعمة التي يغدو بها ما في الحياة مِمّا هو مشوَّش ومتقزّم كما كان يقول هانز زيبّ جلياً وعظيماً والتي تزيح صخب الحواس وتبلّل الجبهة في أنهار الأُخرَويّة وكانوا يسمّون بهذا الإِسم هيكل إيزينهايم والأهرام المصرية ونوفاليس وكانوا يعدّون بتهوفن وستيفان جورج بمثابة إرهاصات. أما ما هو الرمز معبَّراً عنه بالكلام الموضوعي فذلك ما لم يكونوا يقولونه أولاً: لأنّ الرموز لا يمكن التعبير عنها بالكلام الموضوعي وثانياً: لأنّ الآريين لا يجوز لهم أن يكونوا موضوعيِّين ومن أجل ذلك لم يوفّقوا في القرن الأخير إلا إلى إشارات أو رموز وثالثاً: لأنّ هناك قروناً ما عادت تبدع لحظة النعمة البعيدة عن الإنسان في الإنسان البعيد عن البشر إلا بقدر ضئيل.

على أن جيردا التي كانت فتاة ذكية كانت تحسّ في سرَّها بقدر غير قليل من سوء الظن بهذه النظرات المبالغ فيها غير أنّها كانت تسيء الظن أيضاً بسوء الظن هذا الذي كانت تعتقد أنّها تميّز فيه الميراث العقلي العائد إلى الوالدين. ومهما يكن من تظاهرها بالإِستقلال فقد كانت تسعى جاهدة على وَجَل إلى ألّا تطيع والديها وكانت تعاني من الخوف من أن أصلها قد يستطيع أن يحول بينها وبين متابعة أفكار هانز. وكانت تثور على الحدود التحريمية لأخلاق ما يُسمَّى بالبيت الفاضل وعلى التدخّل المتعجرف والخانق من جانب حقّ التصرّف الأبويّ في الشخصيّة من أعمق أعماقها على حين كان هانز الذي لم يكن

«ينتسب إلى بيت أبداً» كما كانت أمها تعبّر عن هذا أقلّ معاناة إلى حدٍّ بعيد وكانت جيردا قد استخلصته من محيط الرفاق «قائداً فكرياً» لها وكان يتحدَّث حديثاً متوقد العاطفة مع صديقته المماثلة له في السن ويحاول أن يردّها بمناقشاته الكبيرة المصحوبة بالقبلات إلى «مجال المطلق» غير أنّه كان من الناحية العملية متوافقاً ببراعة كاملة مع محدودية آل فيشل مادام القوم يسمحون له أن يرفض هذا «بدافع فكريّ» الأمر الذي كان بالطبع يوجِد على نحو مستمرّ باعثاً على التشاحن مع الأب ليو.

وقال أولريش بعد برهة: «عزيزتي جيردا إنَّ أصدقاءك يعذبونك مع أبيك وهم أكثر من أعرف من المبتزّين فظاعة!».

وانتاب جيردا الشحوب واحمرّ وجهها وردّت قائلة: «أنت نفسك ما عدت شاباً فأنت تفكّر تفكيراً مختلفاً عنّا!». وكانت تعرف أنّها جرحت كبرياء أولريش وأضافت قائلة بلهجة المصالحة: «أنا لا أتصوَّر على الإطلاق كثيراً جدًا من الأمور ضمن إطار الحب. وربّما كنت أضيّع وقتي مع هانز كما تقول وربّما كان عليّ أن أخلد إلى العزلة بصورة مطلقة ولن أحب أحداً أبداً إلى الحد الذي أستطيع عنده أن أفتح له كلّ ثنية من ثنايا نفسي تفكيراً وشعوراً وعملاً وحلماً: فأنا لا أصوِّر ذلك لنفسي تصويراً مفزعاً إلى هذا الحد!».

وقاطعها أولريش قائلاً: «أنت تتَّسمين بالنضج المبكر جداً يا جيردا حين تتحدَّثين مثل أصدقائك!».

وجنحت جيردا إلى الحدّة فصاحت: «عندما أتحدَّث إلى أصدقائي تنتقل الأفكار من واحد إلى آخر ونحن نعرف أننا نعيش ونتكلّم في أعماق شعبنا أتُراك تفهم هذا على وجه الإطلاق؟ إننا نقف بين عدد لا يحصى من الرفاق المتماثلين نوعاً ونشعر بهم وهذا يعدّ بطريقة ما معنوياً وجسدياً وهي طريقة لا ريب ـ كلّا إنّها الطريقة التي لا ريب أنّك لا تستطيع أن تتصوَّرها مجرّد تصوّر

twitter @baghdad_library

لأنّك كنت تتوق دائماً إلى إنسان واحد فحسب فأنت تفكِّر مثل حيوان مفترس!».

لماذا مثل حيوان مفترس هذه الجملة كما كانت معلّقة في الهواء بوّاحةً بدت لها هي نفسها حمقاء وخجلت من عينيها اللتين كانتا تتجهان نحو أولريش وقد انفتحتا انفتاحاً شديداً في خوف.

وقال أولريش برفق: «لا أريد أن أجيب عن ذلك بل أوثر أن أروي لك قصّة لكي أغيّر الحديث. هل تعرفين - وقرّبها إليه بيده التي كان يتوارى فيها معصمها كطفل بين صخور الجبل - القصّة المثيرة عن اصطياد القمر؟ أنت تعلّمين بلا ريب أن أرضنا كان لها في الماضي أقمار عديدة؟ وهناك نظرية لها كثير من الأنصار لا تعدّ بموجبها أمثال هذه الأقمار كما نعدّها نحن أجساماً سماوية متبرّدة مثل الأرض نفسها بل تُعَدّ كراتٍ جليدية مسرعة عبر الفضاء الكوني اقتربت من الأرض اقتراباً شديداً فأمسكت بها ويقال إنَّ قمرنا هو الأخير من بينها فهلّا نظرتِ إليه ذات مرة!» وكانت جيردا تتابعه وهي تبحث في سماء الشموس عن القمر الشاحب وسأل أولريش: «أوَلا يبدو مثل قرص من الجليد؟». وما هذا بالإضاءة! فهل سبق لك أن فكّرتِ ذات مرّة كيف يحدث أن الرجل في القمر يدير تلقاءنا الوجهَ ذاته دائماً؟ وذلك أنّه ما عاد يدور قمرُنا الأخير إذ تمَّ الإمساك به! أوَلا ترين فعندما يكون القمر قد وقع ذات مرّة تحت سلطان الأرض لا يدور حولها فحسب بل تجتذبه هي أيضاً إليها فيزداد قرباً منها على نحو مطّرد غير أننا لا نلاحظ هذا لأنّ هذا الاجتذاب البُزاليّ يستغرق آلافاً من القرون ولكنَّ لا يمكن إنكار ذلك. وفي تاريخ الأرض يتوجّب أن تكون قد مرَّت آلاف من السنين كانت الأقمار قبلها قد اجتُذِبَت من قِبَلها اجتذاباً بالغ القرب وكانت تنطلق بسرعة هائلة حول الأرض. ومثلما يجر القمر وراءه اليوم موجة من الطوفان يبلغ ارتفاعها متراً

أو مترين كان يسحب في تلك الأيام أكَمة من الماء والطين مثل الجبل في رحلة مترنّحة حول الأرض. ولا يستطيع المرء في الحقيقة أن يتصوّر الفزع الذي عاشه جيل إثر جيل على الأرض المجنونة خلال أمثال هذه الآلاف من السنين ـ».

وسألت جيردا: «وهل كان يوجد بشر في تلك الأيام؟».

«بلا ريب إذ أنَّ مثل هذا القمر الجليدي يتصدّع في النهاية وينهار مدويّاً ويتخلف عنه الطوفان الذي كان يجرّ تحت مساره في ارتفاع الجبل وتتحطّم في موجة هائلة فوق الكرة كلّها قبل أن تعود إلى التجزُّؤ من جديد. وهذا ليس بشيء آخر سوى الطوفان الأمر الذي يعني ما يعادل فيضاناً أكبر عاماً. وكيف كان من الممكن أن تروى كلّ الحكايات بهذا القدر من التوافق لولا أن البشر جرّبوه معاً بالفعل؟ ولما كان مايزال لدينا قمر فإنَّ أمثال هذه الآلاف من السنين ستعود مرّة أخرى أيضاً. إنّها فكرة غريبة...».

وأطلّت جيردا مبهورة الأنفاس من النافذة على القمر وكانت يدها ماتزال راقدة في يده وكان القمر يرقد بقعةً شاحبةً قبيحةً في السماء وكان هذا الوجود الباهت يضفي على المغامرة الكونيّة الخياليّة التي كانت تحسّ أنّها ضحيّتها من خلال أيَّة رابطة شعورية سمة الحقيقة اليوميّة البسيطة.

وقال أولريش: «غير أن هذه القصّة غير حقيقية على الإطلاق والخبراء يعدّونها نظرة مجنونة. ثم أنَّ القمر لا يقترب من الأرض أيضاً بل لقد ابتعد عنها إثنين وثلاثين كيلو متراً عمّا كان ينبغي أن يكون عليه حسابياً إذا صدقت ذاكرتي».

وسألته جيردا وهي تحاول أن تسحب يدها من يده: «فلماذا رويتَ لي هذه القصّة إذاً» وكان رفضها قد فقد مع ذلك كلّ طاقته وكانت تنتابها مثل هذه الحالة دائماً حين تتحدَّث إلى رجل لم يكن بحال من الأحوال أغبى من هانز

twitter @baghdad_library

ولكنَّ كان له نظرات لا مبالغة فيها وأظافرُ أناملٍ مشذّبة وشعر ممشّط وكان أولريش يلاحظ الزغب الأسود الدقيق الذي كان ينبثق فوق بشرة جيردا الشقراء في صورة النقيض. وكان التركيب المقعد للبشر المساكين المعاصرين يبدو كأنّما يتفتّح من براعم الجسد مع هذه الشعيرات. وأجاب قائلاً: «لست أدري أينبغي لي أن أعود؟».

وأفرغت جيردا انفعال يدها التي تحرّرت في أشياء صغيرة مختلفة كانت تُزَحْزِحُها جيئة وذهاباً ولم تُحِرْ جواباً.

وقال أولريش وهو يَعِدُها على الرغم من أن هذا لم يكن مقصدَه قبل هذا اللقاء: «إذاً فسأعود قريباً».

[٧٤]

القرن الرابع قبل الميلاد في مقابل العام ١٧٩٧
أولريش يتلقّى رسالة من والده مراراً

وكانت قد انتشرت على نحو سريع إشاعة مؤداها أن الإجتماعات عند ديوتيما تمثّل نجاحاً فائقاً. وفي هذا الوقت تلقّى أولريش رسالة مطوّلة على نحو غير مألوف من والده أرفَق بها رزمة غليظة من الكتيّبات والمنشورات المنفصلة وجاء في الرسالة على وجه التقريب: «ولدي العزيز! إنَّ صمتك طويل ومع ذلك فقد سمعت من جانب ثالث بارتياح عن جهودي من أجلك من صديقي الطيّب النوايا الكونت شتالبرج وحضرة الشريف الكونت لاينزدورف وقريبتنا زوجة رئيس القسم توتسي أما ما يجب عليّ أن ألتمسه منك الآن لكي تبذل من أجله كلّ نفوذك في محيطك الجديد فهو ما يلي:

إن العالم خليق أن يتصدّع إذا جاز أن يُعدَّ حقاً كلّ ما يُرى أنّه حقّ وإذا جاز لكلّ إرادة تبدو في نظر نفسها مباحة أن تعدّ كذلك. ومن أجل ذلك كان واجبنا جميعاً أن نحدّد تلك الحقيقة الواحدة وتلك الإرادة الصائبة وأن نسهر على قدر ما نُوفَّق إليه في هذا بوعي للواجب قائم على النزاهة على إرساء دعائم هذا بالشكل الواضح القائم على النظرة العلميّة وقد تستخلص أنت من ذلك ما يعنيه إخباري إياك أنَّ هناك في أوساط غير المختصّين وكذلك مع الأسف وبوجوه عديدة في الأوساط العلميّة أيضاً وهي التي تخضع لإيحاءات عصر مختلط مشوَّش حركة تتَّسم بمنتهى الخطورة قائمة منذ عهد طويل تهدف إلى الوصول بمناسبة الصياغة الجديدة لقانوننا الجنائي إلى أشكال معيَّنة من

twitter @baghdad_library

التحسين والتخفيف المزعومَيْن. ولا بدّ لي أن أمهّد بالقول إنَّ هناك منذ بضع سنوات لجنة من أجل هذه الصياغة الجديدة مندوبة من قبل الوزير حظيتُ بشرف الانتماء إليها مثلما حظي بذلك زميلي في الجامعة الأستاذ شفونج الذي ربّما كنت تذكَّره من وقت سابق من وقت لم أكن فيه قد محّصته بنظري بعدُ حتى لقد أُتيح له أن يكون طوال سنين أفضلَ أصدقائي. أما ما يتّصل بأشكال التخفيف التي تحدثتُ عنها فقد بلغني في بعض الأحيان في صورة الإشاعة ـ التي تبدو أيضاً محتملة في حد ذاتها إلى حدٍّ بعيد مع الأسف أن من المنتظر في عام اليوبيل القادم لحاكمنا الجليل العطوف أيّ مع الاستغلال لكلّ أمزجة الشهامة بذل جهود خاصة لتمهيد السبيل إلى ذلك الإضعاف غير المبارك لرعاية الحقّ عندنا. وقد عقدنا العزم أنا والأستاذ شفونج على حدٍّ سواء وبصورة بديهيّة على سدِّ الباب في وجه هذا.

وأريد أن أدخل في الحسبان أنّك لست مثقفاً ثقافة حقوقية غير أن من المعروف لديك أن ثغرة الاختراق التي تحظى بالإيثار الأكبر في لُجّة هذا الإضطراب الحقوقيّ الذي يطلق على نفسه اسم الإنسانية زوراً إنما يشكّله المطمح المتمثِّل في توسيع مفهوم عدم المقدرة على التمييز الذي يستبعد العقوبة في صورته الغامضة الخاصّة بالمقدرة الناقصة على التمييز ليشمل أيضاً أولئك الأفراد الذين لا يُحْصَوْن عدداً الذين ليسوا مرضى عقليين ولا هم عاديين من حيث الأخلاق والذين يشكِّلون جيش أولئك المصابين بالنقص وضعاف العقول من الوجهة الأخلاقية وذلك الجيش الذي يصيب حضارتنا مع الأسف بوباء مطّرد الزيادة. وسوف تقول لنفسك إنَّ مفهوم مثلَ هذه المقدرة الناقصة على التمييز ـ إذا أمكن أن يُسمَّى هذا مفهوماً على الإطلاق وذلك ما أعارض فيه! ـ لا بدّ أن يكون له أوثق الصلة بالصياغة التي يعطيها للتصوَّرات

الخاصّة بالمقدرة الكاملة على التميز وبالتالي عدم المقدرة على التمييز وبذلك أصل إلى الموضوع الحقيقي لتصريحي.

فقد اقترحت إضافة إلى الصياغات القانونية الموجودة بالفعل وبالنظر إلى الظروف التي تمَّ إيرادها في اللجنة الاستشارية المذكورة آنفاً إعطاء الصيغة التالية للفقرة ٣١٨ من قانون العقوبات المستقبليّ:

«يُعَدّ الفعل المستوجب للعقوبة غير متوفّر إذا كان الفاعل في وقت ارتكاب الفعل كان موجوداً في حالة من فقدان الوعي أو الاختلال المرضي في النشاط الذهنيّ بحيث ـ» وتقدّم الأستاذ شفونج باقتراح بدأ على وجه الدقة بالكلمات ذاتها.

ولكنه استطرد بعد ذلك بالكلمات التالية: «ـ بحيث يكون قرار الإرادة الحرُّ عنده مستبعداً» بينما كان يفترض في اقتراحي أن ينصّ على ما يلي: «ـ بحيث لا يكون مالكاً المقدرة على تبيُّن الذنب في عمله» ـ ويجب أن أعترف أنني لم ألاحظ أنا نفسي المقصد السيئ في هذه المناقضة في البداية على الإطلاق وقد كنت شخصياً أمثّل على الدوام النظرة القائلة إنَّ الإرادة تخضع في حال وجود التطوّر المطرّد للفهم والعقل للرغبة وبالتالي للدافع في صورة التفكير والقرار الناجم عنه فالسلوك المقصود يكون بذلك دائماً سلوكاً مرتبطاً بالتفكير لا سلوكاً غريزياً. وعلى قدر ما يختار الإنسان إرادته يكون حراً. وعندما ينطوي على مطامع بشرية أيّ مطامع تتماشى مع عضويته الحسِّية أيّ أن تفكيره يكون مختلاً فهو غير حرّ وعلى هذا فالإرادة ليست شيئاً قائماً على المصادفة بل هي قرار ذاتيّ ناتج عن الأنا الخاصّة بنا وعلى هذا تتحدّد الإرادة في التفكير وحين يكون التفكير مختلاً لا تعود الإرادة إرادة بل يتصرّف الإنسان صادراً عن طبيعة رغبته فحسب! ولكنَّ من المعروف لديَّ بالطبع أن النظرة المناقضة ممثَّلةٌ في الأدب أيضاً وهي النظرة التي يفترض بموجبها أن

twitter @baghdad_library

يتحدّد الفكر في الإرادة وهذه نظرة لم تجد لها أتباعاً بين الحقوقيين المحدثين إلا منذ عام ١٧٩٧ بلا ريب على حين صمدت النظرة المتبنّاة من قِبَلي لكلّ الهجمات منذ القرن الرابع للميلاد غير أنني أردت أن أبرهن على نزولي على رغبته واقترحت من أجل ذلك صياغة تجمع بين كلا المقتَرَحيْن وكان من المفترض أن يكون نصُّها كما يلي:

«يعدّ العمل المستوجب للعقوبة غير متوفّر إذا كان الفاعل في وقت ارتكاب الفعل كان موجوداً في حالة من فقدان الوعي أو الاختلال المرضي في النشاط الذهنيّ بحيث لا يملك المقدرة على إدراك وجه الإثم في عمله ويكون قرارُ الإرادةِ الحرُّ مستبعَداً عنده».

غير أن الأستاذ شفونج ظهر الآن على طبيعته الحقيقيّة! فقد ازدرى نزولي على رغبته وزعم قائلاً في صلف إنَّ حرف «و» في هذه الجملة يجب الاستعاضة عنه بحرف «أو» وأنت تفهم القصد فهذا هو على وجه الخصوص ما يميّز المفكّر من العامي بلا ريب وهو أنّه يميّز حرف «أو» على حين يضع هذا ببساطة حرف «و». وقام شفونج بمحاولة لاتهامي بالتفكير السطحي إذ عرّض استعدادي للتفاهم المعبَّر عنه بحرف «و» الذي كان يهدف إلى الجمع بين كلتا الصيغتين في صيغة واحدة لشبهة مفادها أنني لم أدرك ضخامة التناقض الذي يترتّب تجاوزه بمداه الكامل!

ومنَ المفهوم بصورة بديهيّة أنني تصديت له منذ هذه اللحظة بكلّ القسوة.

لقد سحبت اقتراحي التوسّطيّ وشعرت أنني مضطرّ إلى الإصرار على قبول صيغتي الأولى بدون موارَبة. غير أن شفونج ينزع إلى إثارة الصعوبات في وجهي بمراوغة الماكرين إذ يعترض مثلاً بالقول إنّه بموجب اقتراحي الذي يقوم على أساس المقدرة على إدراك الذنب لا يجوز تبرئة شخص يعاني مثلما يحدث من تصوًّرات جنونية ذات نوعية خاصة ولكنَّه سليم فيما عدا ذلك بسبب

المرض العقلي إلا حين يمكن إثبات أنّه كان يفترض نتيجة لتصوَّراته الجنونية الخصوصيّة وجود ظروف يمكن أن تبرر سلوكه أو ترفع استحقاقه للعقوبة بحيث يكون سلوكه بناء على ذلك سلوكاً صحيحاً وإن كان ذلك في عالم قائم على تصوّر خاطئ. غير أن هذه حجة باطلة كلّ البطلان وذلك أن المنطق التجريبي إذا كان يعرف أشخاصاً يعدّون مرضى من ناحية وأصحاء من ناحية أخرى فإن منطق الحقّ لا يجوز له في صدد العقل ذاته أن يسلّم أبداً بعلاقة مختلطة بين حالتين من أحوال الحق. فبالنسبة إليه إما أن يكون الأشخاص قادرين على التمييز وإما ألّا يكونوا كذلك ويجوز لنا أن نفترض أن الأشخاص الذين يعانون من تصوَّرات جنونية ذات نوعية خاصة ينطوون هم أيضاً على المقدرة على التمييز بين الحقّ والباطل بصورة عامة. فإذا كانت المقدرة محتجبة عنهم في حالة خاصة من جراء التصوّرات الجنونية فقد كان الأمر يحتاج إلى مجرّد إجهاد خاص لذكائهم من أجل تحقيق التوافق بين هذا وبين ما تبقّى من أناهُم وليس هناك سبب على الإطلاق لرؤية صعوبة خاصة بذلك.

ذلك لأنَّني رددت أيضاً على الأستاذ شفونج على الفور بأنّه إذا كانت أحوال المقدرة على التمييز وعدم المقدرة على التمييز لا يمكن أن توجد منطقياً في وقت واحد فإنه لا بدّ للمرء مع أمثال هؤلاء أن يفترض أنّها تتعاقب بعضها إثر بعض في تناوب سريع. وينجم عن ذلك عندئذ بالنسبة إلى نظريته على وجه الخصوص الصعوبة الخاصّة في الإجابة بصدد كلّ فعل على حدة على سؤال من أيّ ظرف من هذه الظروف المتبدِّلة نشأ الفعل إذ يجب على المرء من أجل هذه الغاية أن يورد كلّ الأسباب التي أثرت على المتهم منذ ميلاده وكل العلل التي أثرت على أجداده الذين أثقلواكاهله بخصائصهم الحسنة والسيئة ـ على أنّك لن تصدّق ذلك الآن ولكنَّ شفونج تجاسر على أنَّ يردّ عليّ بأن هذا صحيح كلّ الصحة لأنّ منطق الحقّ لا يجوز له في صدد

twitter @baghdad_library

الفعل الواحد ذاته أن يسمح أبداً بعلاقة مختلطة بين حالتين من الأحوال القانونية ومن أجل ذلك فلابدّ أيضاً أن يُقرَّر في صدد كلّ إرادة على حدة هل كان من الممكن بالنسبة للمتهم تبعاً لتطوّره النفسي أنَّ يسيطر على إرادته أم لا. واستحسنَ الإِدعاء القائل إننا خليقون أن نعرف أنَّ إرادتنا حرة بوضوح أكثر إلى حدٍّ بعيد من وضوح رؤيتنا أنَّ كلّ ما يحدث له سبب. ومادمنا في الأساس أحراراً فنحن كذلك أيضاً بموجب الأسباب الخاصّة الفردية مِمّا يوجب على المرء أن يفترض أن المسألة في مثل هذه الحالة لا تحتاج إلا إلى إجهاد خاص لقوة الإرادة من أجل مقاومة الدوافع الإجرامية المقيّدة تقييداً سببياً».

وعند هذا الموضع أمسك أولريش عن متابعة البحث في خطط والده وجعل يَزِن بيده مطرقاً برأسه مرفقاتِ الكتاب الكثيرة المستشهد بها في الحاشية. وألقى نظرة أخرى واحدة فحسب على نهاية الكتاب. وعلم أن أباه ينتظر منه «تأثيراً موضوعياً» من الكونت لاينزدورف وشتالبرج وأنّه يوجّه النصيحة الملحّة بأن يشير في الوقت المناسب في اللجان المختصة في العمل الموازي إلى الأخطاء التي يمكن أن تنشأ فيما يتّصل بروح الدولة من حيث هل كلّ إذا ما اتخذت في عام اليوبيل مسألةٌ لها كلّ هذا القدر من الأهميّة صياغة وحلاً خاطئين.

[٧٥]

الجنرال شتوم فون بوردفير ينظر إلى زياراته لديوتيما على أنّها تنويع جميل في الواجبات الوظيفية

وكان الجنرال القصير البدين قد زار ديوتيما للتعارف مراراً ـ وعلى الرغم من أن الجندي قد خصّص له دور متواضع في حجرة المداولات فقد كان قد بدأ يتجرّأ على التنبؤ مع ذلك بأن الدولة هي المقدرة على الصمود في معترك الصراع بين الشعوب وأن القوّة العسكرية التي يتمّ تطويرها في السلم تبعد الحرب. ولكنَّ ديوتيما قطعت عليه الكلام وقالت وهي ترتجف من الغضب: «سيِّدي الجنرال إنَّ الحياة كلّها ترتكز على قوى السلام بل أن الحياة التجارية نفسها تعدّ شعراً إذا ما فهمها المرء فهماً صحيحاً». ونظر الجنرال القصير إليها لحظة من الزمان وهو مذهول ولكنَّه ثاب إلى نفسه على الفور وقال مجارياً لها: «يا صاحبة السعادة ـ ومن أجل فهم هذه المخاطبة لا بدّ من التذكير بأن زوج ديوتيما كان من رؤساء الأقسام وأن رئيس القسم في كاكانيا يعادل في مرتبته مرتبة آمر الفرقة العسكرية وأن أمراء الفرق العسكرية هم وحدهم الذين كانوا يتمتَّعون بحق المخاطبة بلقب صاحب السعادة وأن هذا الحقّ لا يعود إليهم إلا ضمن التعامل الوظيفي. ولكنَّ لما كانت المهنة العسكرية متَّسمة بالفروسية فإن المرء ما كان ليستطيع أن يحرز فيها تقدماً إذا لم يخاطب بلقب صاحب السعادة خارج الخدمة أيضاً. وعملاً بروح المطامح الفروسية كان الناس يخاطبون زوجاتهم أيضاً على النحو ذاته بلقب صاحب السعادة بدون أن يمعنوا النظر ملياً في مسألة متى كان هؤلاء يوجدون في الخدمة ـ»: ومثل

twitter @baghdad_library

هذه العلاقات المعقدّة كان يخترقها الجنرال القصير في جولته الخاطفة ليؤكّد لديوتيما على الفور مع الكلمة الأولى موافقته المطلقة وولاءه وكذلك قال لها: «إن صاحبة السعادة تقطع عليّ الكلام. أما وزارة الحربية فلم يكن من الممكن إدخالها في الحسبان عند تشكيل اللجان الأساسيّة لأسباب سياسية وهو أمر بديهيّ ولكننا سمعنا أن الحركة العظيمة ينبغي لها أن تكتسب هدفاً سلمياً ـ عملاً عالمياً من أعمال السلام فيما يقولون أو إنشاء لوحات زيتّية جدارية لقصر لاهاي؟ وأستطيع أن أؤكد لصاحبة السعادة مقدار تعاطفنا العظيم مع هذا. والحقّ أنَّ الناس يحملون في العادة تصوّرات خاطئة عن العسكريّين وبالطبع فأنا لا أريد أن أزعم أن الملازم الشاب لا يرغب في الحرب غير أنَّ كلّ الجهات المسؤولة مقتنعة أعمق الاقتناع أنّه لا بدّ للمرء أن يربط جوّ العنف الذي نطوّره نحن مع الأسف ببركات الفكر مثلما قلتِ ذلك على وجه الدقة أنتِ يا صاحبة السعادة».

واستخرج فرشاة صغيرة من جيب سرواله ومرّ بها بضع مرات على لحيته الصغيرة جيئة وذهاباً وكانت هذه عادة سيئة في أيامه في الكلية الحربية حيث كانت اللحية ماتزال تشكّل أمل الحياة الكبير المنتظر بفارغ الصبر. ولم يكن يعرف ذلك على الإطلاق. وكان يحملق بعينيه البنيتين الكبيرتين في وجه ديوتيما محاولاً أن يقرأ أثر كلماته وكانت ديوتيما تبدو وقد طابت نفسها وإن لم تكن كذلك في حضوره بصورة كاملة أبداً. وقد تفضّلت على الجنرال بالإدلاء ببعض الإيضاحات عمّا حدث في الجلسة الكبرى وذلك أن الجنرال أظهر حماسته للمجلس الكبير وأعرب عن إعجابه بآرنهايم وعبّر عن اقتناعه بأن مثل هذا الإجتماع لا بدّ أن يحدث أثره المبارك بصورة فائقة واستفاض قائلاً: «إن هناك كثيراً من الناس الذين لا يعلمون أبداً مقدار قلّة ما ينطوي عليه الفكر من النظام بل أنني لعلى يقين إذا سمحت لي صاحبة السعادة أنَّ

معظم الناس يعتقدون أنّهم يشهدون في كلّ يوم تقدّماً في النظام العام فهم يرون كلّ شيء مفعماً بالنظام من المصانع والمكاتب وجداول رحلات الخطوط الحديدية والمؤسَّسات التعليمية ـ بل يحق لي بلا ريب أن أذكر أيضاً بفخر ثكناتنا التي تذكّر بوسائلها المتواضعة على وجه الخصوص بالنظام في أوركسترا موسيقيّة جيّدة وفي وسع المرء أن يوجّه النظر حيث يشاء فيرى نظاماً للسير ونظاماً للرحلات ونظاماً للضرائب ونظاماً للكنائس ونظاماً للتجارة ونظاماً للمراتب ونظاماً للحفلات ونظاماً للأخلاق والعادات وهكذا دواليك. وعلى هذا فأنا على يقين أنَّ كلّ إنسان تقريباً يعدّ اليوم عصرَنا أكثر العصور التي وجدت حتى الآن نظاماً. أَوَلا تشعر صاحبة السعادة أيضاً في أعمق أعماقها أيضاً بهذا الشعور؟ على أني أحسّ بهذا الشعور أنا على الأقل. وعلى هذا فأنا حين لا أكون منتبهاً انتباهاً شديداً أحسّ على الفور أن روح العصر الحديث إنما تكمن في هذا النظام الأعظم وأن ممالك نينوى وروما إنما انهارت من جراء أيّ نوع كان من أنواع التهاون وأعتقد أن معظم البشر يحسّون هذا الإحساس ويفترضون بهدوء أن الماضي قد تولّاه الفناء على سبيل العقاب على شيءٍ ما لم يكن على مايرام. غير أن هذا التصوّر إنما هو تضليل بلا ريب لا ينبغي للمثقفين من الناس أن يستسلموا له. وفي هذا تكمن مع الأسف ضرورة القوّة والمهنة العسكرية!».

وكان الجنرال يحسّ بارتياح عميق لثرثرته مع هذه السيِّدة الشابة الظريفة إذ كان يجد في ذلك تنويعاً جميلاً في الواجبات الوظيفية غير أن ديوتيما لم تكن تعرف بماذا كان ينبغي لها أن تردّ عليه وكانت تكرر بصورة اعتباطية كيفما اتفق: «إننا نأمل بالفعل أن نجمع أكثر الرجال أهمّية غير أن المهمة تظل عسيرة بعدُ أيضاً وأنتَ لا تتصوَّر مقدار التعقيد الماثل في الإشارات التي نتلقاها والمرء يود أن يختار الأفضل بلا ريب ولكنَّك قلت «النظام» يا سيِّدي

twitter @baghdad_library

الجنرال ولن يصل المرء أبداً عن طريق النظام وعن طريق التقدير الموضوعي والمقارنة والتمحيص إلى الهدف. فلابدّ أن يكون الحلّ برقاً وناراً وحَدْساً وتركيباً! وعندما يتأمّل المرء تاريخ البشريّة فإنه ليس بالتطوّر المنطقي بل يذكِّر بخواطره المفاجئة التي لا يتبيّن مغزاها إلا بصورة لاحقة بالشعر!».

وردّ الجنرال قائلاً: «يجب أن يُعذَر الجندي يا صاحبة السعادة لأنّه لا يفهم إلا القليل من الشعر ولكنَّ حين يستطيع المرء أن يهبَ لحركةٍ برقاً وناراً فستكون كذلك يا صاحبة السعادة ومثل هذا يفهمه ضابط مسنّ!».

[٧٦]

الكونت لاينزدورف يبدي تحفّظه

الى هذا المدى كان الجنرال كامل التهذيب وإن كان يقوم بزياراته بدون أن يُدعى إلى ذلك وكانت ديوتيما قد وثقت به أكثر مِمّا كانت تريد. أما ما كان يحيط به من الفزع على الرغم من ذلك ويجعلها تأسف لرقتها من جديد فيما بعد فلم يكن هو نفسه في الحقيقة بل كان كما شرحت ذلك ديوتيما لنفسها صديقها الشيخ الكونت لاينزدورف. أكان الشريف غيوراً؟ وإذا كان كذلك فمِمّن؟ وكان لاينزدورف لا يظهر أنّه ذو فائدة كبيرة بالنسبة إلى المجلس كما كانت ديوتيما تتوقّع على الرغم من أنّه كان يشرّفه كلّ مرّة بحضور قصير. وكان الشريف ينطوي على نفور صريح مِمّا كان يسمّيه (مجرد أدب). وكان هذا أحد التصوّرات التي ارتبطت عنده مع اليهود والصحف وتجار الكتب المولعين بالإثارة وروح الطبقة الوسطى المتحرِّرة المُثَرثِرة ثرثرةَ العاجزين والمنتجة من أجل المال. وكانت كلمة (مجرّد الأدب) على وجه الخصوص قد أصبحت تعبيراً جديداً من لَدُنْه وكان أولريش كلّما اتّخذ إجراءات لكي يتلو عليه المقترحات الواردة إليه بالبريد والتي كان يوجد بينها كلّ التلميحات الخاصّة بتحريك العالم إلى الأمام أو إلى الخلف صدّه الآن بالكلمات التي يستعملها كلّ امرئ حين يطلع إلى جانب مقاصده الخاصّة على مقاصد الآخرين من البشر جميعاً فكان يقول: «كلا كلا فلديّ اليوم أمر هام وهذا الذي هنا ما هو إلا مجرّد أدب!» وكان تفكيره ينصرف حينئذ إلى الحقول والى الفلاحين وكنائس الريف الصغيرة وذلك النظام الذي وثّقه الله برباط وثيق مثل

twitter @baghdad_library

حُزْمات على حقل حصيد والذي يتَّسم بقدر فائق من الجمال والصحة والمنفعة وإن كان يبيح على الأراضي في بعض الأحيان مواقد غَلْيِ الخمور أيضاً لكي يدخل التطوّر في حسبانه ولكنَّ حين يكون للمرء هذا النظر البعيد الهادئ تبدو فيه نوادي الرماة وتعاونيات الألبان قطعة من نظام وثقافة راسخين وإن كانت ماتزال شديدة الإنعزال في موطنها. وإذا رأت هذه نفسها مدفوعة إلى طرح مطلبٍ ما على أساس عقائدي كان لهذه كما يمكن للمرء أن يقول امتياز ملكيّة فكريّة مسجلة في السجل العقاري على المطالب التي يطرحها أيّ رجل من عامة الناس. وهكذا كان يحدث أن الكونت لاينزدورف كان إذا أرادت ديوتيما أن تحادثه حديثاً جدياً حول ما حصّلته بالتجربة من الشخصيّات الكبرى تناول في العادة التماس أيّ ناد من النوادي يتألّف من خمسة من الرؤوس الغبيّة بيده أو سحبهُ من جيبه وطرح ادعاءً مفاده أن هذا الورق له في عالم الهموم الحقيقيّة وزن أثقل من خواطر العباقرة.

وكان هذا رجلاً مماثلاً لذلك الذي كان رئيس القسم توتسي يفاخر به في إضبارات وزارته التي كانت تستبعد النظر إلى المجمع على أنّه موجود من الناحية الرسميّة. وكانت في مقابل ذلك تأخذ مأخذ الجدّ الصارم كلّ لسعة بعوضة عند أدنى ساع من سعاة الريف ولم يكن لدى ديوتيما في أمثال هذه الهموم أحد تستطيع أن توليه ثقتها سوى آرنهايم ولكنَّ آرنهايم على وجه الخصوص كان يدخل الشريف في حمايته وكان هو الذي أبان لها عن بُعد النظر الهادئ عند هذا السيِّد العظيم حين شكت من الإيثار الذي يظهره الكونت لاينزدورف لرماة النوادي وتعاونيات الألبان. وقد شرح ذلك قائلاً بجد: «إن الشريف يؤمن بالطاقة التوجيهية للأرض وللعصر وصدّقيني فإنَّ هذا يأتي من ملكيّة الأرض والأرض تزيل التعقيد مثلما تطهّر الماء وحتى أنا على أرضي المتواضعة جداً أحسّ لدى كلّ إقامة بهذا الأثر. فالحياة الفعلية تصنع

البساطة». وبعد شيء من التردّد أضاف قائلاً: «إن حضرة الشريف يُعَدّ في الخطوط الكبرى من صورة حياته متسامحاً إلى أقصى الحدود أيضاً إذا لم نقل إنّه صبور إلى حدٍّ المجازفة أيضاً ـ». ولما كان هذا الجانب من وليّ نعمتها الشريف جديداً على ديوتيما فقد حملها على أن ترفع طَرْفَها على نحو مفعم بالحيّوية ومضى آرنهايم قائلاً مع توكيد غير محدَّد: «لست أريد أن أدّعي على وجه اليقين أنَّ الكونت لاينزدورف يلاحظ إلى أيّ مدى يسيء إبن عمك استغلال ثقته به بحكم كونه أميناً للسر وأريد أن أضيف على الفور أن ذلك كان بالطبع عن طريق تشكّكه بالمخطّطات العليا والتخريب التهكّمي. وإني لخليقٌ أن أخشى ألّا يكون تأثيره على الكونت لاينزدورف تأثيراً ملائماً إذا لم يكن هذا الزوج الحقيقي منسجماً انسجاماً محكماً في المشاعر والأفكار الكبرى التي تقوم عليها الحياة الفعلية بحيث يستطيع أن يستنتج هذه الثقة على ما يبدو».

وقد كان هذا تصريحاً قوياً حول أولريش غير أن ديوتيما لم تحفل كثيراً بذلك لأنّ القسم الآخر من نظرة آرنهايم أحدث لديها انطباعاً مماثلاً لامتلاك الأرض لا كما يمتلكها مالك الأرض بل مثلما تمتلك رسالة روحية ووجدت هذا عظيماً وجعلت تقلّب النظر في فكرة تصوُّرها لنفسها زوجةً على مثل هذه الممتلكات وقالت: «إني لأعجب أحياناً لمقدار الرويّة التي تحكم بها على الشريف! ولا ريب أن هذا آخر الأمر فصل غارق من فصول التاريخ». ورد آرنهايم قائلاً: «أجل بلا ريب غير أن الفضائل البسيطة من الشجاعة والشهامة وتهذيب النفس تلك الفضائل التي طوّرتها هذه الطبقة تطويراً نموذجيّاً سوف تحتفظ بقيمتها دائماً وهي تتمثل في كلمة واحدة: السيّد! ولقد تعلّمت أن أعلّق أهمّية أكبر على عنصر السيِّد حتى في حياة الأعمال التجارية دائماً».

twitter @baghdad_library

وسألت ديوتيما وهي ممعنة في التفكير: «وعندئذ سيكون السيِّد في النهاية مماثلاً على وجه التقريب للقصيدة؟».

وقال صديقها مؤيِّداً: «لقد قلت كلمة رائعة! إنّها سرّ الحياة القوية. فإن الإنسان لا يستطيع بالعقل وحده أن يكون أخلاقياً ولا أن يمارس السياسة فالعقل لا يكفي والأشياء الحاسمة تتمّ من خلال تخطّيه وأولئك البشر الذين حققوا شيئاً عظيماً كانوا على الدوام يحبّون الموسيقى والقصيدة والصورة والتربية والدين والشهامة. أجل بل أنني لأودّ أن أزعم أنّ الذين يفعلون هذا من البشر هم وحدهم الذين يحظوْن بالسعادة! ذلك لأنّ هذه هي الأشياء التي تسمّى بالأشياء التي لا تقبل الوزن والتي تصنع السيِّد والرجل وكذلك يعدّ ما يسهم في إعجاب الشعب بالممثل بقية غير مفهومة من هذا. ولكنَّ إذا أردنا العودة إلى إبن عمك: فمن الطبيعي أنَّ المسألة ليست من البساطة بحيث يبدأ المرء في التحوّل إلى المحافظة عندما يكون المرء قد أصبح أكثر استرخاء من أن يكون أهلاً لضروب الفسق بل أننا لو كنّا قد ولدنا جميعاً ثوريين فسيلاحظ المرء ذات يوم أن الإنسان الطيّب البسيط مهما يكن تقييم ذكائه أيّ الإنسان الذي يمكن الاعتماد عليه الإنسان المرح الشجاع المخلص لا يسبِّب متعة لا مثيل لها فحسب بل يعدّ أيضاً مادة الأرض الفعلية التي تستقر فيها الحياة. وهذه حكمة من حكم الأسلاف غير أنّها تعني التبدل الحاسم في الذوق الذي يكون موجهاً في الصبا نحو الغريب الطريف بالطبع نحو ذوق الرجل. وإني لمعجب بابن عمك في أمور كثيرة وإذا كان في هذا القول قدر من الإفراط إذ قلّما يستطيع المرء أن يحتمل المسؤولية عمّا ينطق به فأنا أود أن أقول على وجه التقريب إنني أحبه لأنّه ينطق على شيء فائق الحرية والإستقلال إلى جانب الكثير مِمّا يعدّ في داخله صُلْباً وغريباً. وربّما كان هذا المزيج من الحرية والصلابة الداخلية هو ذاته ما يصنع سحره آخر الأمر. غير أنّه إنسان

خطير بطرافته الأخلاقية الطفولية وعقله المثقَّف الذي يبحث دائماً عن المغامرة بدون أن يعرف ما يدفعه إلى ذلك في الحقيقة».

twitter @baghdad_library

[٧٧]

آرنهايم صديقاً للصحفيين

وقد أتيح لديوتيما مراراً أن تلاحظ الأمور التي لا يمكن تقديرها في موقف آرنهايم.

فقد استدعي مثلاً بناء على نصيحته إلى جلسات «المجمع» (وهو الإسم الذي عمّد به رئيس القسم توتسي بشيء من التهكم «اللجنة الخاصّة لصياغة قرار رئيسي بصدد الذكرى السنوية السبعين لحكم صاحب الجلالة») في بعض الأحيان أيضاً ممثلو الصحف الكبرى. وكان آرنهايم يتمتَّع على الرغم من أنّه كان حاضراً بصفة ضيف فحسب بدون وظيفة باهتمامٍ من قبلهم كان يتقاصر عنه كلّ المشاهير من الآخرين. ذلك لأنّ الصحف تَعدّ «السببِ ما لا يمكن تقديره مختبرات للفكر ومحطات تجارب له الأمر الذي يمكن أن يجعل منها خيراً عميماً بل هي في العادة مخازن وأسواق بورصة. ولسوف يكون أفلاطون إذا ما اتخذناه مثالاً لأنّه يعدّ إلى جانب حفنة من الآخرين أكبر المفكِّرين مفتوناً بعمل الصحيفة حيث يمكن في كلّ يوم أن تُبتَدَع فكرة جديدة ثم تستبدل وتزداد إرهافاً وحيث تنهال الأخبار متجمّعة من كلّ أقاصي الدنيا بسرعة لم نشهدها أبداً وتكون هيئة من الأساتذة المبدعين على أهبة الإستعداد لاختبارها على الفور في مضمونها من حيث الفكر والواقع وعندئذ سوف يحسب إدارة تحرير الصحيفة هي ما كان يسمِّيه توپوس أورانيوس أيّ المكان السماوي للأفكار الذي وصف وجوده وصفاً بلغ من تأثيره أنَّ كلّ البشر الأكثر صلاحاً مازالوا حتى اليوم يعدّون مثاليّين عندما يتحدَّثون إلى أطفالهم أو موظَّفيهم

وبالطبع فإن أفلاطون لو تحدّث اليوم فجأة في إدارة تحرير وأثبت بالفعل أنّه ذلك الكاتب العظيم الذي مات قبل أكثر من ألفي عام لأثار بذلك شهرة هائلة وتلقى أكثر العروض فائدة. ولو كان عندئذ على استعداد أن يكتب خلال ثلاثة أسابيع مجلدات من رسائل الرحلات الفلسفية وبضعة آلاف من قصصه القصيرة المعروفة وربّما أن يخرج أيضاً هذا العمل أو سواه من أعماله القديمة في أفلام لكانت أحواله خليقة أن تسير على المدى البعيد على مايرام تماماً. ومع ذلك فإنَّه بمجرّد أن تزول الأهميّة الآنية لعودة السيِّد أفلاطون ويحاول بعد ذلك أن يحدد واحدة من أفكاره المعروفة التي لم تستطع أبداً أن تثبت كلّ الثبوت فإن رئيس التحرير سوف يطلب إليه أن يكتب بعدُ أيضاً في بعض الأحيان لملحق التسلية في الصحيفة مقالة أدبية فنّية جميلة حول هذا (على أن تكون متَّسمة بالرشاقة والطلاقة وألا تكون عسيرة الأسلوب مع مراعاة محيط القراء) وسوف يضيف محرِّر صفحة الأدب والفن قائلاً إنّه لا يستطيع أن يورد مثل هذا الإسهام مع الأسف إلا مرّة واحدة في الشهر على الحد الأقصى إذ يترتّب أن يؤخذ في الحسبان أيضاً قدر كبير من المواهب الأخرى وسوف ينطوي كلا السيِّدين بعد ذلك على شعور بأنّهما قاما بالكثير جداً من أجل رجل كان في الحقيقة سيِّد أرباب القلم الأوروبّيين غير أنّه كان قد عفّى عليه الزمن ولا يقف بحال من الأحوال على قدم المساواة مع رجل مثل باول آرنهايم.

أما ما يتّصل الآن بآرنهايم فما كان ليوافق أبداً على هذا في الحقيقة لأنّ تهيُّبه من كلّ عظيم كان خليقاً أن يتعرّض للإصابة غير أنّه كان خليقاً من بعض النواحي أن يجد هذا مفهوماً جداً مع ذلك. فاليوم، إذ يختلط كلّ حديثٍ ممكن بعضُه ببعض وإذ يستخدم الأنبياء والنصّابون العبارات ذاتها حتى في الفروق الصغيرة التي لا يجد الإنسان المشغول وقتاً لتعقّب آثارها وإذ تقع إدارات التحرير من جراء ذلك على نحو مستمرّ تحت وطأة كونِ أيّ امرئ كان

twitter @baghdad_library

عبقرياً يصعب جداً أن يتعرَّف المرء على قيمة إنسانٍ أو فكرةٍ ما على الوجه الصحيح. والحقّ أنّه لا يمكن الاعتماد إلا على السمع لإدراك متى تكون الغمغمة والتمتمة ووقع الخُطى وراء باب إدارة التحرير عاليةَ الصوت بدرجة كافية لكي يسمح لها بالدخول من حيث كونها صوتاً يمثِّل العامة. ومنذ هذه اللحظة تدخل العبقرية عندئذ بلا ريب في حالة أخرى ما عادت مجرّد شأن تافه من شؤون نقد الكتب والمسرح التي قلّما يحملها القارئ كما ترغب الصحيفة على محمل الجدّ مثل حديث الأطفال بل تتضمن مرتبة حقيقية مع كلّ ما ينطوي هذا عليه من النتائج.

على أنَّ المتحدِّثين الأغبياء يتجاهلون ما يكمن وراء ذلك من الحاجة اليائسة إلى المثالية. وذلك أنَّ عالم الكتابة والاضطرار إلى الكتابة حافل بالكلمات والمفاهيم الكبيرة التي فقدت موضوعها. فالنعوتُ الخاصّة بالرجال الكبار والحماساتُ الكبيرة تعيش حياة أطول من بواعثها. ومن أجل ذلك يظلّ قدر كبير من النعوت باقياً وقد سبقت صياغته ذات مرّة غير محدَّدة من قبل رجلٍ له شأنه من أجل رجل له شأنه. غير أن هؤلاء الرجال طواهم الموت منذ عهد بعيد ويظلّ استخدام المفاهيم التي واصلت حياتها أمراً لا بدّ منه. ومن أجل ذلك يستمرّ البحث عن الرجل الملائم للنعوت. «فالخصب الهائل» عند شكسبير و«عالمية» غوته و«العمق السيكولوجي» عند دوستويفسكي وكل التصوّرات الأخرى التي خلّفها تطوّر أدبي كبير تظلّ تحوم بالمئات في رؤوس الكتاب. ومن جرّاء محض التعثّر في الرواج يسمِّي هؤلاء اليوم حتى استراتيجيَّ التنس امرءاً لا يُسبَر غوره أو شاعرَ (الموضة) عظيماً ومن المفهوم أنّهم يتَّسمون عندئذ بعرفان الجميل حين يستطيعون أن يغدقوا مخزون كلماتهم بدون خسارة على هذا الرجل. ولكنَّ يجب أن يكون هذا رجلاً أصبحت أهمِّيته حقيقة من الحقائق بحيث يفهم المرء أنَّ الكلمات تجد مكانها الملائم

فيه وإن لم يكن من المهمّ أيضاً أن يكون هذا على الإطلاق. وقد كان آرنهايم مثلَ هذا الرجل. ذلك لأنّ آرنهايم كان آرنهايم ولم يكن يتجلّى في آرنهايم إلا آرنهايم نفسه وكان قد ولد في صورة حدث بحكم كونه وريثاً لوالده ولم يكن من الممكن أن يثير شكاً في أهمّية ما كان يقول بالنسبة لِلْلَحظة الراهنة وكان لا يحتاج إلا إلى بذل جهد يسير للتصريح بأي شيء كان مِمّا كان الناس يستطيعون أن يجدوه ذا شأن مع الإرادة الحسنة وقد صاغ هذا آرنهايم نفسه في مبدأ صحيح أيضاً إذ اعتاد أن يقول: «إن جزءاً كبيراً من الأهميّة الفعلية للرجل يكمن في استطاعته أن يجعل نفسه مفهوماً من قبل معاصريه».

وإذاً فقد كان هذه المرة أيضاً منسجماً على نحو ممتاز مع الصحف التي كانت تستحوذ عليه غير أنّه كان يضحك من رجال المال أو السياسيين الطموحين الذين كان أحبَّ الأمور إليهم أن يشتروا غابات بأكملها من الصحف إذ كانت هذه المحاولة للتأثير على الرأي العام تبدو له في فظاظتها كما لو عرض رجل على امرأة مالاً لقاء حبّها على الرغم من أنّه يستطيع أن ينال كلّ شيء بأرخص من ذلك كثيراً بأن يثير خيالها وكان قد أجاب الصحفيِّين الذين سألوه عن المجمع بأنَّ مجرّد حقيقة هذا الإجتماع يبرهن على ضرورته العميقة إذ لا يحدث في تاريخ البشريّة شيء غير معقول وقد أصاب بذلك ما وافق مزاجهم المهني على نحو بلغ من امتيازه أن هذا القول المأثور رُوِيَ في العديد من الصحف وكان إذا تأمله المرء عن كثب جملة جيّدة بالفعل ذلك لأنّ البشر الذين ينظرون نظرة الإهتمام إلى كلّ ما يحدث لا بدّ أن يسوء حالهم إذا لم تتوفّر لديهم القناعة بأنّه ما من شيء غير معقول يحدث غير أنّهم سيؤثِرون من ناحية أن يعضّوا على ألسنتهم إمساكاً عن الكلام على أن ينظروا إلى شيء ما نظرةَ الإهتمام المفرط وإن كان هذا الشيء هو المهمّ بعينه. وقد أسهمت النفحة الضئيلة من التشاؤم التي كانت كامنة في تصريح آرنهايم إسهاماً

twitter @baghdad_library

كبيراً في إضفاء الاحترام الواقعي على المشروع وكان من الممكن الآن أيضاً أن يفسّر الظرف المتمثّل في أنّه كان غريباً عن البلاد على أنّه إسهام من البلدان الأجنبية بأسرها في الأحداث الفكريّة ذات الأهميّة الهائلة في النمسا.

أما الآخرون من المشاهير الذين كانوا يسهمون في المجمع فلم يكونوا يتمتَّعون بالموهبة اللاشعورية ذاتها في الظفر بإعجاب الصحافة غير أنّهم كانوا يلاحظون أثرها. ولما كان المشاهير بوجه عام قلّما يعرف بعضهم بعضاً ولا يَلْقى بعضهم بعضاً في قطار الخلود الذي يسوقهم جميعاً إلا في عربات المطعم في الغالب فقد أحدث التقدير الخاص الذي كان آرنهايم يتمتَّع به لدى الجمهور أثره عليهم أيضاً بدون تمحيص وعلى الرغم من أنّه كان ينأى بنفسه عن جلسات كلّ اللجان المعيَّنة من قبلُ ومن بعد فقد كان من نصيبه في المجمع بصورة تلقائية دور النقطة المحورية. وكان هذا اللقاء كلّما أحرز تقدّماً تبيّن بمزيد من الوضوح أنّه كان هو موضوع حماسته الحقيقي على الرغم من أنّه لم يفعل في الأساس شيئاً من أجله ربّما باستثناء أنّه أفصح في تعامله مع مشاهير المشاركين عن حكم كان يمكن للمرء أن يفسره على أنّه تشاؤم ينطوي على حبّ الجهر بالرأي بمعنى أنه لا ينبغي أن يُنتظر شيء من المجمع. ولكنَّ مهمةً نبيلة إلى هذا الحد تقتضي من ناحية أخرى لذاتها وحدها كلّ ما يتوفّر للمرء من التفاني والتكريس القائمين على الثقة ومثل هذا التشاؤم اللطيف يكتسب الثقة ـ أيضاً بين كبار الرجال. ذلك لأنّ التصوّر القائل إنّ الفكر اليوم لم يحظ أبداً بنجاح فعلي على الإطلاق يجد لأية أسباب كانت تعاطفاً أكثر مع التصوّر أن فكَّر أحد الزملاء كان ينبغي أن ينال هذا النجاح وكان في وسع المرء أن ينظر إلى حكم آرنهايم المتحفّظ على المجمع على أنّه تكيُّف مع هذه الفرصة.

[٧٨]

تحوُّلات ديوتيما

على أن مشاعر ديوتيما لم يكتب لها التطوّر المتصاعد على خط مستقيم مماثل تماماً لنجاح آرنهايم.

*

وكان يبدو أنّها كانت تحسب أنّها تستيقظ في وسط جَمْع في مسكنها الذي جرّد الحلم كلّ حجراته وبدّله أرضاً من أراضي الأحلام. ووقفت هنالك يحيط بها المكان والبشر وكان ضوء الثريا ينسكب على شعرها منحدراً منه على كتفيها وخاصرتيها حتى لقد حَسِبَت أنّها كانت تحسّ بطوفانه الساطع. وكانت كلّها تمثالاً وكان من الممكن أن تكون تمثالاً من تماثيل أحواض النوافير في المركز من نقطة محورية للعالم وقد انسكبت عليها ذروة سحر الفكر. وكانت ترى في هذا الوضع فرصة لا تعود أبداً لتحقيق كلّ ما كان المرء يعتقد أنّه الأهم والأعظم على مدى الحياة ولم يكن يضيرها كثيراً أنّها لم تكن تستطيع أن تفكّر في شيء محدد في هذا الصدد وكان المسكن كلّه ووجوه البشر فيه والأمسية كلّها يُحِطْنَ بها كثوب حريري أصفر من الداخل وكانت تشعر به ملتفّاً على بشرتها غير أنّها لم تكن تراه. وكان بصرها يتّجه من حين إلى آخر إلى آرنهايم الذي كان في العادة يقف في مكان ما ضمن مجموعة من الرجال ويتحدَّث غير أنّها لاحظت عندئذ أن بصرها كان يستقر عليه طوال الوقت كلّه وكانت صحوتها فحسب هي التي انصرفت إليه. وكانت الذؤابات القصوى من أجنحة روحها إذا صحّ هذا القول تستقر بدون أن ترسل النظر على وجهه دائماً وتنبئ عمّا كان يعتمل فيه.

twitter @baghdad_library

وإذا شئنا البقاء عند أولريش كان من الواجب أن يضاف أن ثمة شيئاً حالماً كان في مظهره أيضاً. كان مثلاً كتاجر له أجنحة الملائكة الذهبية تنزَّل على المؤتمر. وكان هدير قطارات الاكسبريس والقطارات الفخمة أو صرير السيارات وهدوء أكواخ الصيد واصطخاب أشرعة قوارب الصيد في هذه الأجنحة غير المرئية المنطوية ذات الحفيف الخافت مع حركة قائمة بالشرح من ذراعه وهي الأجنحة التي زوَّده بها شعورها. وكثيراً ما كان آرنهايم يغيب في الأسفار من قبلُ كما كان من بعد. وكان حضوره ينطوي بذلك دائماً على شيء يمتدّ من فوق اللحظة الحاضرة والأحداث المحليّة التي كانت لها أهمّية كبيرة عند ديوتيما متخطياً إياها. وكانت تعرف أن مجيئاً وذهاباً خفيّين للبرقيات والزائرين والمبعوثين كان يحدث حين يكون هنا. وكانت قد خرجت شيئاً فشيئاً بتصوَّر ربّما كان مبالغاً فيه عن أهمّية بيت من البيوتات العالمية وعلاقته المعقدّة مع أحداث الحياة الكبيرة. وكان آرنهايم يتحدَّث في بعض الأحيان حديثاً ممتعاً إلى حدٍّ يبهر الأنفاس عن العلاقات الخاصّة برأس المال الدولي وشركات ما وراء البحار والملابسات السياسية وكانت آفاق جديدة تماماً تنفتح للمرة الأولى بصورة مطلقة أمام ديوتيما. ولم يكن المرء يحتاج إلا إلى أن يكون قد سمعه مرّة واحدة فحسب وهو يتحدَّث عن التضادّ الفرنسي ـ الألماني ذلك التضاد الذي لم تكن ديوتيما تعرف عنه قدراً أكبر كثيراً من أن الأشخاص في محيطها كانوا يحسّون بنفور طفيف من ألمانيا ممتزج بالتزام ثقيل معيَّن تجاه الأُخوّة: أما في وصفه فقد كان ذلك يتحوّل إلى مشكلة غاليّة ـ كلتيّة ـ شرقية مرتبطة بمناجم الفحم في اللورين وبعد ذلك بحقول النفط المكسيكية والتعارض بين أمريكا الإنجليزيّة وأمريكا اللاتينية. ولم تكن لدى رئيس القسم توتسي أيّة فكرة عن أمثال هذه العلاقات أو أنّه لم يكن يظهرها على أقلّ تقدير. وكان يكتفي بأن يلفت نظر ديوتيما من حين إلى آخر إلى أن وجود آرنهايم وتفضيله بيتها لا يمكن فهمه من وجهة نظره بحال من الأحوال

بدون افتراض أهداف خفيّة غير أنّه كان يسكت عن طبيعتها المحتملة وكان هو نفسه لا يعرف عن ذلك شيئاً.

وكذلك كانت زوجته تشعر شعوراً قوياً بتفوق البشر الجدد على مناهج الدبلوماسية المتقادمة ولم تكن قد نسيت اللحظة التي عقدت فيها العزم على أن توصل آرنهايم إلى قمة العمل الموازي. وكانت هذه هي الفكرة الكبيرة الأولى في حياتها. وكانت قد وجدت نفسها في حالة عجيبة. كان قد ألمّ بها نوع من حالة الحلم والانصهار. وكانت الفكرة قد بلغت مدًى جدّ رائع ولكن كلّ ما كان يشكّل عالم ديوتيما حتى ذلك الوقت قد ذاب في مواجهة هذه الفكرة. على أن ما كان يستطيع أن يصوغه من ذلك في كلمات كان يعني القليل حقاً لقد كان تألّقاً والتماعاً كان فراغاً حقيقياً وهرباً للأفكار بل كان في وسع المرء أن يسلّم بهدوء ـ كما كانت ديوتيما تقول في نفسها ـ بأن النواة المتضمّنة في ذلك وهي فكرة إيصال آرنهايم إلى قمة العمل الوطني ذي النوعية الجديدة هي فكرة مستحيلة. كان آرنهايم أجنبياً وظل هذا صحيحاً وعلى هذا فلم تكن هذه الخاطرة ممكنة التحقيق بالصورة المباشرة التي أفضت بها إلى الكونت لاينزدورف والى زوجها. ولكنّ كلّ شيء جاء مع ذلك بالصورة التي أوحيت إليها في هذه الحالة. ذلك لأنّ كلّ الجهود الأخرى لإعطاء العمل مضموناً سامياً حقّ السموّ كانت قد ذهبت أيضاً أدراج الرياح حتى ذلك الوقت. وكانت الجلسة الأولى الكبرى وأعمال اللجان وحتى هذا المؤتمر الخصوصي الذي كان آرنهايم قد حذّر منه أخيراً ممتلاً لسخرية غريبة من سخريات القدر التي لم تسفر حتى هذا الوقت عن شيء سوى آرنهايم الذي كان الناس يتزاحمون من حوله وكان عليه أن يتحدّث بغير انقطاع وأن يشكّل نقطة المحور الخفيّة لكلّ الآمال. وكان هذا هو النموذج الجديد للإنسان الذي نُدِب لعزل القوى القديمة في توجيه المصائر. وكان من حقها أن تباهي

twitter @baghdad_library

بأنّها كانت هي التي اكتشفته على التوّ وتحدَّثت إليه حول تغلغل الإنسان الجديد في أجواء السلطة وأعانته على أن يشق طريقه هنا في وجه مقاومة كلّ الآخرين. وعلى هذا فإذا كان آرنهايم مايزال يضمر بالفعل شيئاً خصوصياً في هذا الصدد كما كان رئيس القسم توتسي يتكهَّن بذلك فقد كانت ديوتيما أيضاً توشك أن تعقد العزم بصورة مسبقة على أن تسانده بكلّ الوسائل. ذلك لأنّ الساعة الكبيرة لا تحتمل اختباراً لتوافه الأمور. وكانت تشعر بوضوح أن حياتها كانت توجد على قمة من القمم.

وبصرف النظر عن العاثري الحظ والمحظوظين يعيش الناس جميعاً حياة متساوية في سوئها غير أنّهم يعيشون ذلك السوء في مراحل مختلفة. وهذا الوضع الخاص بالإحساس الذاتي بالمرحلة يعدّ بالنسبة إلى إنسان اليوم الذي قلّما يتوفّر لديه بوجه عام نظرة مستطلعة إلى معنى حياته تعويضاً جديراً بأن يطمح إليه إلى حدٍّ فائق ومن الممكن في الحالات الكبيرة أن تتصاعد إلى سِكْرٍ بالعلوّ والقوّة مثلما يوجد ناس يصابون بالدوار في طابق عالٍ وإن كانوا يعرفون أنّهم يقفون في وسط الحجرة مع إغلاق النوافذ. وعندما كانت ديوتيما تفكّر في أنَّ واحداً من أكثر الرجال في أوروبا نفوذاً يعمل معها بصورة مشتركة على إدخال الفكر في مجالات السلطة وكيف جمعت بينهما كليهما على وجه الخصوص لُحمة القدر معاً وفيما كان يجري وإن لم يكن يحدث شيء خصوصي في هذا اليوم بالذات في الطابق العلوي من الهيكل البشري الخاص بالنمسا العالمية: عندما كانت تفكّر في هذا كانت تداعيات أفكارها تشابه على الفور عقداً قد انحلّ إلى أنشوطات وكانت سرعة التفكير تزداد وكان الجريان ميسّراً وكان شعور خاص بالسعادة والنجاح يرافق خواطرها وكانت حالة من التدفق تأتيها بوجهات النظر التي كانت تفاجئها هي نفسها وقد تصاعد اعتدادها بنفسها وكانت أوجه النجاح التي ما كانت لتجرؤ على الإيمان بها

فيما مضى تقع في متناول يدها وكانت تشعر أنّها أكثر مرحاً مِمّا اعتادت بل كانت تخطر في بالها أحياناً نكات جريئة وبشيء لم تكن قد لاحظته بعد أبداً في حياتها كلّها بأمواج من السرور بل من العربدة كانت تتخلّلها وكانت تشعر كأنّها في حجرة على برج لها كثير من النوافذ. ولكنَّ هذا كان له جانب الموحش في ذاته إذ كان يعذبها إحساس ممتع غير محدد وعام ولا يوصف يلحّ عليها بعد أيّة أحداث بعد حدث عامل شامل لم تكن تقدر على أن تكوّن تصوّراً عنه بل كان المرء يوشك أن يقول إنّها كانت تشعر فجأة بدوران الكرة الأرضيّة تحت قدميها ولم تكن تتحرر منها أو أنَّ هذه الأحداث العنيفة التي ليس لها مضمون ملموس كان لها أثر معوّق مثل كلب يتواثب أمام الساقَيْن ولم يرَه أحد قادماً. من أجل ذلك كانت ديوتيما يتولّاها الخوف من التغيّر الذي كان قد انتابها بدون إقرارها الصريح له. وكانت حالتها على الإجمال تشابه أقربَ ما تشابه ذلك اللون الرمادي الفاتح العصبيّ الذي يمثّل لون السماء المتحرِّرة من كلّ ثقل في ساعة الانكسار عند أشدّ درجات الحرارة.

وقد شهد طموح ديوتيما إلى المثل الأعلى في هذا الصدد تبدّلاً هاماً ولم يكن هذا الطموح ممكن التميز على نحو موثوق تماماً من الإعجاب السليم بالأشياء العظيمة كان مثالية نبيلة تسامياً هادئاً ولما كان المرء في الأوقات العصبيّة المعاصرة قلّما يظلّ يعرف ما عسى أن يكون هذا فلنشرح بعضاً من ذلك بإيجاز مرّة أخرى. لم تكن المثالية موضوعية لأنّ الموضوعية تمت بصلة إلى العمل الحرفيّ والعمل الحرفي غير نظيف دائماً بل كانت أقرب كثيراً إلى أن تنطو على شيء من رسم الأزهار من قبل الأرشيدوقات اللواتي لم تكن النماذج الأخرى سوى الأزهار غير اللائقة بهنّ وكان من الأمور المميَّزة تماماً لهذه المثالية مفهوم الحضارة إذ كان المرء يشعر بأنّه حضاري غير أن المرء كان يستطيع أن يسمّيه انسجامياً أيضاً لأنّه كان يستنكر كلّ ضروب انعدام

twitter @baghdad_library

التوازن ويرى مهمة الثقافة في تحقيق التواؤم فيما بين التناقضات الفجّة المتوفّرة في العالم مع الأسف. وبكلمة واحدة ربّما لم يكن على الإطلاق مختلفاً جداً عمّا لايزال الناس يفهمونه ـ وذلك بلا ريب هناك حيث يتمسك الناس بالتقاليد المدنيّة الكبرى فحسب ـ من المثالية المحكمة والطاهرة التي تفرّق تفريقاً شديداً بين الأشياء التي هي لائقة بها والتي ليست كذلك ولا تؤمن بحال من الأحوال لأسباب تتصل بالإنسانية الأعلى بالإيمان الخاص بالقديسين (والأطباء والمهندسين) وهو أنّه يوجد في البقايا الأخلاقية طاقة تسخين سماوية غير مستغلة. ولو أن المرء أيقظ ديوتيما فيما مضى من نومها وسألها ماذا تريد لكانت خليقة أن تجيب بدون أن تضطر إلى التروي بأن طاقة الحبّ في النفس الحيَّة تحتاج إلى أن تفصح عن نفسها للعالم كله. غير أنّها كانت خليقة بعد شيء من اليقظة أن تقيّد ذلك بملاحظة أن المرء ما عاد يستطيع في العالم المعاصر كما أصبح من جرّاء طغيان الحضارة والعقل إلا أن يتحدَّث بطريقة حذرة عن طموح مناسب لطاقة الحب. وذلك حتى في حالة أسمى الطبائع بلا ريب ولسوف تكون قد قصدت ذلك على هذا النحو بالفعل. ومازال يوجد حتى اليوم آلاف من أمثال هؤلاء البشر يماثلون نضّاحي طاقة الحب. وعندما كانت ديوتيما تقعد لقراءة كتبها كانت تزيح شعرها الجميل عن جبينها فيضفي عليها ذلك مظهراً منطقياً وكانت تقرأ قراءة تنطوي على الشعور بالمسؤولية طامحة إلى أن تتخذ لنفسها مِمّا كانت تسميه بالحضارة عوناً لها في الوضع الإجتماعي غير السهل الذي كانت تجد نفسها فيه. وكذلك كانت تعيش أيضاً فكانت تقسّم نفسها قطرات صغيرة متناهية في الصغر من قطرات الحبّ البالغ الإرهاف على كلّ الأشياء التي كانت تستحق ذلك. كانت تهبط على هذا نسمةً على شيء من البعد عن نفسها ولم يتبقّ لها هي نفسها في الحقيقة إلا قارورة الجسد الفارغة التي كانت تعود إلى إدارة منزل رئيس القسم توتسي. وكان هذا قد أدى قبل وصول آرنهايم مؤخراً إلى تقلّبات حافلة بالكآبة

الثقيلة حين كانت ديوتيما ماتزال تقف وحدها بين زوجها وبين أكبر إشعاع في حياتها إشعاع العمل الموازي. غير أن حالتها كانت قد توطّدت منذ ذلك الوقت بطريقة طبيعية جداً. كانت طاقة الحبّ قد تقلّصت تقلّصاً قوياً وتراجعت إلى الجسد إنَّ صح التعبير وتحوّل الطموح «المناسب» إلى طموح ذاتي وصريح جداً وكان ذلك التصوّر الذي أحدثه لديها أوّل الأمر إبن عمها وهو أنّها توجد في الحالة السابقة على فعلٍ ما وأن ثمة شيئاً لم تكن تريد أن تتصوَّره بعدُ يوشك أن يحدث بينها وبين آرنهايم يتمتَّع بدرجة من التركيز أعلى كثيراً من كلّ التصوّرات التي كانت قد شغلتها حتى الآن حتى باتت لا تحسّ بشيء آخر سوى أنّها انتقلت من الحلم إلى اليقظة. ولم يكن رئيس القسم القصير المتَّسم برائحة مستحبّة لبشرته السمراء الجافة يدرك ما كان يحدث. وكان قد لفت نظره في بعض المرات أن زوجته كانت تحدّث خلال وجود الضيوف انطباعاً حالماً من نوع خاص يتَّسم بالانكفاء على النفس والبُعد والعصبيّة الشديدة. كان عصبياً بالفعل وشديد الغيبوبة على أيّ نحو من الأنحاء في الوقت ذاته. ولكنَّ كانا إذا خلا أحدهما إلى الآخر ودنا هو منها ليسألها عن ذلك ارتمت على عنقه فجأة في مرح لا تبرير له وطبعت زوجاً من الشفاه ساخناً سخونة فائقة على جبينه فذكّره ذلك بمكواةِ مصفّف الشعر حين تدنو من البشرة دُنوّاً مفرطاً خلال عملية تجعيد اللحية. وكانت مثل هذه الرقة غير المنتظرة غير مستحبة. وكان هو يمحو أثرها من جديد بصورة خفيّة حين لا تكون ديوتيما ناظرةً إليه. ولكنَّ كان إذا أراد ذات مرّة أن يضمها بين ذراعيه أو كان قد ضمّها وهو ما كان أكثر إثارة للغيظ أنحت عليه باللائمة منفعلةً لأنّه لم يكن يحبّها أبداً بل كان يرتمي عليها مثل حيوان. على أن الصورة كان يتّصل بها قدر معيّن من الحساسية والنزوات وهي الصورة التي كان قد كوّنها لنفسه منذ صباه عن امرأة مرغوبة مكمّلة لطبيعة الرجل. وكان الظرْف المفعم بالروحانية الذي كانت ديوتيما تناول به فنجاناً من القهوة أو تتناول به كتاباً

twitter @baghdad_library

بيدها أو تحكم به على أيّة مسألة لم يكن من الممكن تبعاً لقناعة زوجها أن تستطيع فهم شيء منها كان هذا يفتنه دائماً بصورته المكتملة. وكان هذا يحدث أثره فيه مثل أثر موسيقى الشيفرة الخافتة وهي شيء كان يحبه حباً غير عادي. ولكنَّ توتسي كان يميل بالطبع أيضاً كلّ الميل إلى الرأي القائل إنَّ فصل الموسيقى عن الطعام (أو الذهاب إلى الكنيسة) والطموح إلى ممارستها في ذاتها يمثّل في حد ذاته غطرسة بورجوازية وإن كان يعرف أنّه لا يجوز للمرء أن يقول ذلك بصوت عالٍ ولا يجوز له فضلاً عن ذلك أن يشتغل بأمثال هذه الأفكار بصورة تمثيلية. فماذا كان ينبغي له أن يفعل حين كانت ديوتيما تعانقه حيناً وتزعم حيناً آخر أنّه قد استفزّها أن الإنسان المفعم بالروح إلى جانبه لا يجد الحرية لكي يرتقي إلى طبيعته الحقة. وبماذا كان يمكن أن يجاب على مطالب كهذه. أكان هذا هو تفكيره بأعماق بحر الجمال أكثر من انشغاله بجسدها؟ لقد كان عليه أن يستجلي على نحو مفاجئ الفرق بين الشهوانيّ الذي تحوم في داخله روح الحبّ طليقاً متخفّفاً من عبء الرغبة وبين رجل الجنس. وقد كانت هذه بالطبع ضروب من الذكاء المستمد من المطالعة التي كان في وسع المرء أن يضحك منها. ولكنَّ إذا عُرضت من قبل امرأة تتجرّد من ثيابها أثناء ذلك ـ مع أمثال هذه التعليمات تخرج من شفتيها! ـ كما كان توتسي يفكّر تحوّلت إلى ضروب من الإزعاج. ذلك لأنّه لم يكن يغيب عن باله أن ملابس ديوتيما الداخلية كانت قد حققت خطوات من التقدّم نحو طيش دنيويّ معيّن. وكانت في الحقيقة دائمة العناية والرويّة في ملابسها إذ كان مركزها الإجتماعي يقتضي أن تكون أنيقة مثلما كان يقتضي ألّا تكون منافسة للكبيرات من السيِّدات. ولكنّها كانت تقدّم الآن فيما بين درجات الملابس الواقعة بين المتانة الشريفة وبين نسيج العنكبوت الشهواني وقد تنازلت لصالح الجمال وكانت خليقة قبل ذلك أن تعدّها غير لائقة بسيدة ذكية. غير أنّها كانت إذا لاحظ جيوفاني ذلك احمرت من الخجل حتى الكتفين

وروت شيئاً عن السيِّدة فون شتاين التي ما كانت لتقدم تنازلات حتى لرجل مثل غوته! وإذاً فما عاد ينبغي لرئيس القسم توتسي حين كان يرى أن الوقت قد حان للتحرر من التعامل مع شؤون الدولة الهامّة المتَّسمة بالمناعة تجاه التأثّر بالحياة الخاصّة وليجد الاسترخاء في أحضان الطبيعة ولا يكاد المرء يقول شططاً إذا زعم أنّه كان يشعر في أعمق أعماق نفسه باشمئزاز من ذلك على وجه الخصوص وفي سياق ذلك كان النجاح العمومي الذي كانت زوجته تلقاه في هذا الوقت يكاد يؤلمه. وكانت ديوتيما تتمتَّع بالشعور العام الممالئ لها وكان هذا شيئاً يحترمه رئيس القسم توتسي في كلّ الظروف إلى حدٍّ كان يجعله يخشى أن يبدو غير متفهم إذا ما قابل بكلمات السلطة أو التهكم الحاد مزاج ديوتيما غير المفهوم بالنسبة إليه وتبيّن له شيئاً فشيئاً أن من الآلام المعذبة التي يجب إخفاؤها بعناية كون المرء زوجاً لزوجة من ذوات الشأن بل أن هذا يعدّ بمعنى معيَّن مشابهاً لفقدان الرجولة عن طريق حادث. وكان يبذل عناية كبيرة لكي لا يدع هذا يبدو عليه. وكان يروح ويغدو ملتفاً بسحابة من انعدام الشفافية الرسميّة اللطيفة ولم يكن يندّ عنه صوت أو يلفت النظر حين يكون عند ديوتيما زائر أو تكون هناك مناقشات ويتقدّم فوق ذلك من حين إلى آخر بملاحظات مفيدة على نحو مهذَّب أو ملاحظات ساخرة على سبيل العزاء أيضاً وكان يبدو أنّه يقضي حياته في عالم مجاور ودِّي مغلق. وكان يبدو دائماً على تفاهم مع ديوتيما بل كان يحمل فيما بينه وبينها دائماً من حين إلى آخر مهمة صغيرة لها وكان يشجِّع في العلن تردد آرنهايم على بيته وفي الساعات التي كانت تتركها له الهموم الخطيرة في وظيفته حرة كان يدرس كتب آرنهايم ويكره الرجال الذين يكتبون من حيث كونهم علّة آلامه.

ذلك لأنّ هذه كانت المسألة التي كانت تتفاقم فتصل إليها في بعض الأحيان وهي مسألة سبب تردّد آرنهايم على بيته: وتلك هي مسألة لماذا كان

twitter @baghdad_library

آرنهايم يكتب؟ فالكتابة شكل خاص من أشكال الثرثرة وكان الرجال الثرثارون لا يطاقون عند توتسي وكان يحسّ عندئذ بالحاجة الملحّة إلى أن يطبق فكّيه أحدهما على الآخر وأن يبصق من خلال الأسنان المطبقة مثل بحّار. وكان لهذا بالطبع استثناءاته التي كان يقرّها وكان يعرف بعضاً من كبار الموظّفين الذين كانوا قد كتبوا مذكّراتهم بعد تقاعدهم. وكان يعرف أمثال هؤلاء الذين كانوا يكتبون في الصحف أحياناً وكان توتسي يفسر ذلك بأن الموظّف لا يكتب إلا حين يكون مستاءً أو حين يكون يهودياً. ذلك لأنّ اليهود كانوا حسب قناعته طموحين ومستائين. ثم أن عظماء الرجال من أهل الممارسة كانوا قد كتبوا كتباً حول تجاربهم ولكنَّ في خريف حياتهم وفي أمريكا أو على أقصى الحدود في إنجلترا. ثم أن توتسي كان يتمتَّع مطلقاً بثقافة أدبية وكان يفضّل شأن كلّ الدبلوماسيِّين المذكّرات التي كان الناس يستطيعون أن يتعلّموا منها أقوالاً مأثورة طريفة ومعرّفة بالبشر. ولكنَّ كَونَ مثل هذه ما عادت تكتب اليوم لا بدّ أن يعني شيئاً ما بلا ريب. ويبدو أن المسألة تتصل هنا بحاجة عفى عليها الزمن وما عادت تتلاءم مع عصر من الموضوعية الجديدة وأخيراً فإن المرء يكتب أيضاً لأنّ هذه مهنته وكان توتسي يعترف بهذا كلّ الإعتراف إذا كان المرء يكسب من وراء ذلك ما يكفي أو كان يقع ضمن ذلك مفهوم الأديب المفترض على أيّ نحو من الأنحاء بل كان يشعر أنّه يتشرّف إلى حدٍّ بعيد برؤية قمم هذه المهنة في بيته وهم الذين كان يدخل في عدادهم أولئك الكتاب الذين كان يغذّيهم حتى الآن الصندوق الهزيل لوزارة الخارجية ولكنَّه كان خليقاً بدون كثير من التروّي أن يعدّ من هذه الأعمال أيضاً الإلياذة وموعظة الجبل اللتين كان يقدّرهما كليهما بلا ريب وكان يفسّر نشوءهما بأنّه صادر عن مهنة تمارس بصورة طوعية أو على سبيل الإلتزام. أما كيف بلغ الأمر برجل مثل آرنهايم الذي لم يكن في حاجة إلى هذا بطريقة من الطرق أن يكتب كلّ هذا

القدر فقد كان هذا شيئاً كان توتسي أقرب ما يكون إلى أن يتكهّن وراءه شيئاً لم يقترب منه بطريقة من الطرق.

twitter @baghdad_library

[٧٩]

سليمان يحبّ

وكان سليمان العبد الزنجي الصغير أو الأمير الزنجي أيضاً قد رسّخ لدى راحيل الوصيفة الصغيرة أو صديقة ديوتيما خلال هذا الوقت قناعةً مفادها أن عليهما أن يرقبا الأحداث في البيت اتقاء لمخطط خفيّ لآرنهايم إذا ما حانت اللحظة الملائمة وبعبارة أدق: فإنه لم يقنعها ولكنَّهما كانا ينتبهان كلاهما كالمتآمرين ويصغيان كلّ مرّة إلى الباب كلّما كان هناك زائر. وكان سليمان يروي الكثير إلى حدٍّ مخيف عن سعاة البريد الرائحين والغادين وعن الشخصيّات الحافلة بالأسرار التي كانت تروح وتغدو على سيِّده في الفندق ويعلن استعداده لأداء يمين الأمراء الأفريقيين على أنّه سوف يكتشف المعنى الخفيّ. وكان القَسَم الأفريقي يقتضي أن تضع راحيل يدها بين أزرار سترته وقميصه على صدره العاري وهو ينطق بالقسم وأن يفعل لراحيل بيده مثلما فعلت له. ولكنَّ راحيل أبت ذلك. ومهما يكن من أمر فإن راحيل الصغيرة التي كان يتاح لها أن تُلبِس سيّدتها وتنضوَ عنها ثيابها وأن تخبر بالهاتف عنها والتي كان ينساب بين يديها شعر ديوتيما الأسود كلّ صباح ومساء بينما كانت تنساب في مِسْمَعَيْها الأحاديث الذهبية هذه الطموحة الصغيرة التي عاشت على ذروة عمود منذ أن وُجِد العمل الموازي وكانت ترتعد كلّ يوم في تيارات التبتّل التي كانت تتصاعد من عينيها نحو السيِّدة المشابهة للآلهة كانت تجد متعتها منذ بعض الوقت في التجسّس على هذه المرأة بكلّ بساطة.

ومن خلال الأبواب المفتوحة من الحجرات المجاورة أو من خلال الخصاص المغلق على نحو متردد لأحد الأبواب أو بصورة مطلقة حينما كانت تؤدّي على مهل أيّ شيء بالقرب منها كانت تصغى إلى ديوتيما وآرنهايم وتوتسي وأولريش فتطّلع على النظرات والتنهيدات وقبلات اليد والكلمات والضحك والحركات التي كانت مثل مِزَقٍ من وثيقة ممزَّقة لم يكن في وسعها أن تؤالف بينها. ولكنَّ ثقب المفتاح الصغير بوجه خاص كان يكشف عن مقدَّرة كانت تذكَّر راحيل على نحو غريب بما يكفي بالحقبة المنسيّة منذ عهد طويل حين فقدت شرفها. وكان البصر يوغل بعيداً في داخل الحجرة منحلاً في الأجزاء ذات الثنايا وكانت الشخصيّات تسبح في تلك الأجزاء أما الأصوات فما عاد يتمّ الإمساك بها من حافة الكلمات الضيّقة بل كانت تستفحل إيقاعاً عديم المعنى. وكان التهيّب والتبجيل والإعجاب الذي ترتبط به راحيل بهذه الشخصيّات يمزّقه عند ذلك انحلال جامح وكان هذا أمراً مثيراً كما لو أن عاشقاً تغلغل فجأة بكلّ كيانه في الحبيبة إلى حدٍّ يبلغ من عمقه أن يغشّيَ ظلام العينين وتشتعل النار وراء ستار البشري. كانت راحيل الصغيرة تقعد القرفصاء وراء ثقب الباب وكان ثوبها الأسود يتوتر عند الركبتين والعنق وحول الكتفين. وكان سليمان يقعد القرفصاء بملابس الخدم الرسميّة إلى جانبها كفنجان ساخن من الشوكولاته في طبق أخضر داكن. وكان في بعض الأحيان يستند إلى كتف راحيل أو ركبتها أو ثوبها حين يفقد توازنه وذلك بحركة سريعة من اليد تستقر لحظة ثم تتحرر حتى رؤوس الأصابع وتحرر هذه أخيراً في شيء من التردد الرفيق أيضاً وكان يضطر إلى القهقهة وكانت راحيل تضع أصابعها الصغيرة البضّة على وسادتي شفتيه المكتنزتين.

على أن سليمان لم يجد المجمع ممتعاً آخر الأمر على النقيض من راحيل وكان يتهرّب من مهمة خدمة الضيوف بصورة مشتركة معها على قدر ما كان

twitter @baghdad_library

يستطيع. وكان يفضّل أن يأتي مع آرنهايم حين كان آرنهايم يقوم بالزيارة وحده. عند ذلك كان عليه بالطبع أن يقعد في المطبخ وينتظر إلى أن تفرغ راحيل من جديد. وكانت الطباخة التي كانت قد تسلّت معه تسلية حسنة للغاية في اليوم الأوّل قد استاءت لأنّه أصبح منذ ذلك الوقت كالأخرس تقريباً. ولكنَّ راحيل لم يتح لها الوقت أبداً لتقعد في المطبخ طويلاً. وحين كانت تذهب من جديد كانت الطباخة التي كانت فتاة في الثلاثين تغدق على سليمان ألوان المودة الأموميّة وقد صبر عليها حيناً بوجهه المتكبّر في لون الشيكولاته ولكنَّه دأب على النهوض عندئذ والتظاهر بأنّه نسي شيئاً أو أنّه يبحث عن شيء ما. ثم أنّه كان يرفع عينيه نحو السقف ممعناً في التفكير ويتّخذ وضعاً يكون فيه ظهره نحو الباب ويأخذ في سير القهقرى وذلك على وجه الدقة كما لو كان يريد بذلك مجرّدَ أن يرى السقف رؤية أفضل. وكانت الطباخة تكشف هذه المسرحية غير البارعة بمجرّد أن ينهض ويدير بياض عينيه محملقاً. غير أنّها كانت تتظاهر بدافع الغيرة والغيظ بأنّها لا تتصوّر شيئاً في هذا الصدد. وكان سليمان آخر الأمر لا يكلّف نفسه على الإطلاق مزيداً من العناء أيضاً في التمثيل الذي كان مثل صيغة مختصرة حتى اللحظة التي كان يقف فيها على عتبة المطبخ المشرق ويتردّد ووجهه خالٍ من التكلّف قدر الإمكان برهةً قصيرة أخرى ولم تكن الطباخة ترسل بصرها حتى الآن بوجه خاص وكان سليمان ينْسَرب كصورة مظلمة في ماء داكن وظهره إلى الأمام في حجرة الإنتظار المظلمة ويصغي إصغاء فائضاً عن الحاجة ثانيةً أخرى ثم يأخذ في اقتفاء أثر راحيل فجأة بوثبات بارعة في أرجاء المنزل الغريب.

ولم يكن رئيس القسم توتسي يوجد في البيت أبداً. أما آرنهايم وديوتيما فلم يكن سليمان يخشاهما إذ كان يعلم إنهما لم يكونا يلقيان بالاً إلا إلى نفسيهما بل أنّه قام بضع مرات بمحاولة لقَلْب شيء ما ولم يُلاحَظ وكان في

كلّ الحجرات سيِّداً كالأيِّل في الغابة وكان الدم يندفع في رأسه كقرون لها ثمانية عشر فرعاً في مثل حدة الخناجر. وكانت رؤوس هذه القرون تحتك بالجدران والسقف. وكان من تقاليد البيت أن تسدل الستائر في كلّ الحجرات حين لا تكون قيد الإستعمال في اللحظة الراهنة لكي لا تتأثر عند ذلك ألوان الأثاث من الشمس وكان سليمان ينطلق مجذِّفاً عبر الظلمة الجزئية مثلما ينطلق في الدغل الكثيف. وكان يسره أن يقوم بهذا مصحوباً بحركات مبالغ فيها. وكان ينزع إلى العنف. ولم يكن هذا الفتى الذي أفسده تدليل النسوة الفضوليات قد عاشر امرأة قط بل تعرّف على رذائل الفتيان الأوروبيين فحسب وكانت رغائبه ماتزال بعيدة بعداً شديداً عن صقل التجارب مطلقةَ العنان إلى حدٍّ بعيد مستعرةً في كلّ الإتجاهات حتى أن رغبته لم تكن تعرف أكان ينبغي لها أن تهدّئ ثائرتها في دم راحيل أم في قبلاتها أم في تجمّد كلّ العروق في جسده بمجرّد أن يبصر الحبيبة.

وكانت راحيل أينما اختبأت ظهر لها بغتة وضحك لحيلته الناجحة وكان يقطع عليها الطريق ولم تكن ثمة قدسية عنده لا لحجرة عمل سيِّده ولا لحجرة نوم ديوتيما. وكان يَبرُز من وراء الستار ومنضدة الكتابة والخزائن والأسرّة. وكان قلب راحيل تكاد تتقطّع نياطه في كلّ مرّة من جرّاء مثل هذه القحّة والخطر الذي يترتّب عليها بمجرّد أن تتكاثف الظلمة الجزئية في أيّ مكان متحوّلةً إلى وجه أسود كان ينبعث منه ضوء صفَّين من الأسنان البيض. ولكنَّ سليمان كان لا يكاد يواجه راحيل الحقيقيّة حتى يتغلّب عليه التهذيب. وكانت هذه الفتاة أكبر منه كثيراً وكانت في مثل جمال قميص السادة الرقيق اللطيف الذي لا يستطيعُ أن يفسده على التوّ وإن توفّرت له أشدّ الإرادة قوّة حين يخرج من بين الغسيل الجديد الغَسْل وكانت تتَّسم بقدر من الواقعية المطلقة فتغدو معه كلّ الخيالات باهتة في حضورها. وكانت تنحي عليه باللائمة لسلوكه غير

twitter @baghdad_library

المهذّب وتثني على ديوتيما وآرنهايم وعلى الشرف المتمثّل في السماح لها بالإسهام في العمل الموازي. ولكنَّ سليمان كان يحمل لها دائماً هدايا صغيرة معه. فكان يأتيها حيناً بزهرة ينتزعها من الباقة التي كان سيِّده قد بعث بها إلى ديوتيما ويأتيها حيناً آخر بلفافة سرقها في البيت أو حفنة من قطع الحلوى سرقها من طبق أثناء مروره. وكان يضغط عندئذ على أصابع راحيل فحسب ويقود يدها وهو يناولها الهدية إلى قلبه الذي كان يستعر في جسده الأسود كشعلة حمراء في الليل البهيم.

بل حدث أن تسلل سليمان ذات مرّة إلى حجرة راحيل التي اضطرت إلى أن تنزوي داخلها بعمل من أعمال الخياطة بناء على أمر صارم من ديوتيما التي تعرّضت للتشويش من جراء اضطراب في حجرة الإنتظار في النهار السابق أثناء وجود آرنهايم. وكانت قد تفقدته قبل أن تدخل محبسها المنزليّ على عجل بدون أن تعثر عليه وحين عادت إلى حجرتها الصغيرة محزونة كان يجلس مشرق الوجه على سريرها ناظراً إليها. وترددت راحيل في إغلاق الباب غير أن سليمان وثب وأغلقه ثم جعل ينقّب في جيوبه فأخرج منها شيئاً ونفخ عنه الغبار وقرّبه من الفتاة مثل مكواة ساخنة.

وأمرها قائلاً: «هاتي يديك!».

فمدتها راحيل نحوه وكان في يده بضعة أزرار ملوّنة من أزرار القمصان وقام بمحاولة لتثبيتها في ثنية كم راحيل وكانت راحيل تحسب أنّه زجاج.

وقال يشرح مزهوّاً: «إنّها حجارة كريمة!».

على أن الفتاة التي أوجست شراً من هذه الكلمة استردّت ذراعها على عجل ولم تكن تتصوَّر في نفسها شيئاً محدداً. لقد كان من الممكن أن يكون أمير من أمراء الزنج وإن كان مخطوفاً مالكاً بعدُ في السر لعدد من الحجارة الكريمة مخيطةً في قميصه وألا يُعرَف حول ذلك شيء مؤكّد غير أنّها كانت

تخاف بصورة عفوية من هذه الأزرار وكأن سليمان كان يناولها السمّ. وبدت لها كلّ الأزهار والسكاكر التي سبق أن أهداها إليها غريبة حقاً دفعة واحدة فشدّت يديها على جسدها وهي مذهولة وكانت تشعر أنّه لا بدّ أن تقول له كلاماً جدياً. كانت أكبر منه سناً وكانت تخدم أسياداً طيّبين. غير أنّها لم يخطر ببالها في هذه اللحظة إلا أقوال مأثورة من قبيل: «الأمانة هي الأطول عمراً» أو: «عليك بالإخلاص والاستقامة أبداً» وشحب وجهها إذ بدا لها هذا مفرطاً في البساطة. وكانت قد تلقَّت حكمة حياتها في بيت أبويها وكانت هذه حكمةٍ صارمة فائقة الجمال والبساطة كمتاع البيت القديم غير أن المرء لم يكن يستطيع أن يصنع بها الكثير. ففي أمثال هذه الأقوال كان لا يأتي أبداً إلا جملةٌ تعقبها الخاتمة على الفور. وكانت في هذه اللحظة تخجل من هذه الحكمة الطفولية مثلما يخجل المرء من أشياء قديمة بالية. أما أن الصندوق القديم الذي يقوم على أرض الفقراء من الناس يغدو بعد مائة عام حِلْيةً في صالون الأغنياء فذلك أمر لم تكن تعلّمه وكانت شأن كلّ الأشراف والبسطاء من الناس تعجب بكرسيّ الخيزران الجديد. من أجل ذلك كانت تبحث في ذاكرتها عن محصّلات حياتها الجديدة. ولكنَّ على الرغم من كثرة ما كانت تتذكَّر من الأشياء الرائعة التي تتصل بالحب والخوف من الكتب التي كانت قد حصلت عليها من ديوتيما لم يكن ثمة واحدٌ منها يلائمها بوجه خاص فتستعملَه هنا. كانت كلّ الكلمات والمشاعر الجميلة لها مواقفها الخاصّة بها وكانت قليلة الملاءمة لموقفها كمفتاحٍ في قفل غريب. وقد حدث الشيء ذاته للأقوال المأثورة والتحذيرات الرائعة التي كانت تتلقّاها من ديوتيما. وأحسَّت راحيل بضباب من اللّهيب يحدّق بها وأوشكت الدموع أن تطفر من عينيها وأخيراً قالت: «أنا لا أسرق أسيادي!». وقال سليمان كاشفاً عن أسنانه: «لماذا؟».

«أنا لا أفعل هذا!».

twitter @baghdad_library

وصاح سليمان: «أنا لم أسرق فهذا لي!».

«الأسياد الطيّبون يُغنَوْن بنا» كذلك كانت تشعر راحيل. كانت تشعر بالحب نحو ديوتيما وبالاحترام الذي لا حد له تجاه آرنهايم وبالإشمئزاز العميق من أولئك المثيرين للاضطراب والهدّامين من البشر الذين تسمّيهم الشرطة الصالحة عناصر هدامة غير أنّها لم تكن تملك الكلمات اللازمة لكلّ هذا. وتدحرجت فيها كلّ هذه الكتلة الضخمة من المشاعر كعربة عملاقة مثقلّة بالتبن والثمار أصاب العجز كابحَها وقبقابَه.

وكرَّر سليمان الذي عاد إلى الإمساك بيد راحيل قائلاً: «هذا لي فخذيه! وانتزعت ذراعها وأراد أن يتشبّث به وانتابه الغضب شيئاً فشيئاً وعندما أوشك أن يضطر إلى إطلاق يدها إذ لم تكن قوته الصبيانية كافية في وجه مقاومة راحيل التي كانت تشدّ نفسها من قبضة يديه بكلّ وزن جسمها خرّ جاثياً فاقد الوعي وأخذ يعضّ ذراع الفتاة مثل حيوان.

وصرخت راحيل وكان عليها أن تكتم صرختها ولكمت سليمان في وجهه.

ولكن عينيه كانتا قد اغرورقتا بالدموع في هذه اللحظة وخرّ على ركبته وجعل يضغط بشفتيه على ثوب راحيل ويبكي بكاءً بلغ من حرارته أن راحيل شعرت بالبلل الساخن يتسرّب إلى فخذها.

ولبثت واقفة عاجزة أمام الجاثي الذي كان يتعلّق بثوبها ويدفن رأسه في جسدها. ولم تكن قد عرفت من قبل أبداً مثل هذا الشعور في حياتها وتخلّلت بأصابعها الأسلاك الطرية في غابة شعره.

[٨٠]

التعرف على الجنرال شتوم الذي يظهر فجأة في المجمع

وكان المجمع قد شهد في هذه الأثناء إغناءً جديراً بالتنويه. فعلى الرغم من التدقيق الصارم في أولئك الذين كانوا يُدعَوْن يظهر الجنرال ذات مساءٍ ويشكر لديوتيما أجزل الشكر ما توليه إياه دعوتها من الشرف ويقول إنَّ الجندي رسم له دور متواضع في حجرة المداولة غير أن السماح له بشهود اجتماع رفيع كهذا حتى بصفة مستمع صامت فحسب كان يمثِّل منذ حداثته شوقاً من أشواقه الشخصيّة. وكانت ديوتيما تجول ببصرها من فوق رأسه صامتةً تبحث عن صاحب الذنب. وكان آرنهايم يتحدَّث حديث رجل الدولة مع آخر إلى حضرة الشريف وكان أولريش ينظر في ملل لا يوصف إلى خزانة الطعام ويبدو كأنه يعدّ قوالب الكاتو المنتصبة هناك. وكانت واجهة المشهد المألوف موصدة لا ثغرة فيه ولم تكن تتيح أدنى مجال لتسرّب مثل هذه الشبهة غير المألوفة.

غير أن ديوتيما لم تكن تعرف من ناحية أخرى شيئاً على وجه الدقة مثل معرفتها أنّها لم تَدْعُ الجنرال بنفسها إلا إذا كان عليها أن تفترض أنّها تسير في نومها أو تعتريها نوبات من فقدان الوعي. لقد كانت لحظة فظيعة. فهنا كان يقف الجنرال القِصير وكان يحمل حقاً دعوة في جيب الصدر من حلّة السلاح الملوّنة بلون زهرة «لا تَنْسَني». ذلك لأنّ جسارة وقحة كهذه كما لم يكن بدٌّ لمثل هذا المجيء أن يكون في العادة ما كانت ليتوقّعها أحد من رجل في مثل مركزه. وكان يوجد من ناحية أخرى هناك في حجرة كتب ديوتيما منصة كتابة

twitter @baghdad_library

رشيقة وكانت قد احتُبِسَت في دُرْجها بطاقات الدعوة المطبوعة بقدر فائض ولم يكن لأحد سوى ديوتيما سبيل إلى الوصول إليها. أكان توتسي؟ ـ كما طاف في ذهنها ولكنَّ هذا أيضاً لم يكن ينطوي إلا على القليل من الإحتمال في حد ذاته. وبقي لغز يتّصل بعالم الأرواح إنَّ صحّ التعبير تجاه كيفية وصول الدعوة إلى الجنرال. ولما كان من اليسير على ديوتيما أن تميل في المسائل الشخصيّة إلى الاعتقاد بالقوى الغيبية فقد شعرت برعدة من قحف رأسها إلى أخمص قدمها ولكنَّ لم يكن قد تبقّى لديها سوى أن ترحّب بالجنرال.

على أنّه كان آخر الأمرقد تعجّب قليلاً من الدعوة وكان وصولها المتأخّر قد فاجأه لأنّ ديوتيما لم تدعه يلاحظ أدنى قدر من مثل هذه الرغبة. وكان قد لفت نظره أن العنوان المكتوب على ما يبدو من قبل يد مستأجَرة كشف لدى الإشارة إلى رتبته ومنصبه ومخاطبته بهما عن أخطاء ما كانت لتتلاءم مع سيِّدة في مثل مركز ديوتيما الإجتماعي. غير أن الجنرال كان إنساناً مرحاً ولم يكن من السهل أن يبلغ به الأمر أن يفكّر في أمر غير مألوف كهذا فضلاً عن أن يفكّر في أمر غيبيّ فافترض أنّه حدث هنا سهوٌ ما صغير لم يكن من الواجب أن يمنعه من الاستمتاع بنجاحه.

ذلك لأنّ اللواء شتوم فون بوردفير مدير القسم العسكري والثقافي والتربوي في وزارة الحرب كان مسروراً سروراً صادقاً بالمهمة الرسميّة التي ظفر بها. فحين كانت الجلسة التأسيسيّة الكبرى للعمل الموازي على الأبواب في ذلك الوقت استدعاه رئيس القسم الرئاسي إليه وقال له: «أنت يا شتوم من أهل الثقافة الواسعة وسنكتب لك كتاب تعريف وتذهب. فراقب قليلاً وحدثنا عمّا يدور في أذهانهم على التحقيق». وقد استطاع فيما بعد أن يؤكّد ما كان يريد. أما أنّه لم يكن من الممكن بالنسبة إليه أن يتّخذ موطئ قدم في العمل الموازي فقد كان ذلك يعني وصمة سوداء في صفحة مؤهلاته كان يحاول عبثاً

أن يمحوها عن طريق زياراته لديوتيما. من أجل ذلك جرى إلى القسم الرئاسي حين جاءت الدعوة بعد ذلك حقاً وأبلغه برشاقة وبشيء من القحة المتَّسمة بالتهاون واضعاً ساقاً قبل الأخرى تحت بطنه وهو مبهور الأنفاس أن النتيجة الممهَّد لها والمنتظرة من قبله قد حصلت الآن بطبيعة الحال حقاً.

وقال الفيلد مارشال فروست فون آوفبروخ على أثر ذلك: «لا بأس فأنا لم أكن أتوقع خلاف ذلك» ودعا شتوم إلى الجلوس وقدّم له لفافة وحوّل إشارة النور أمام الباب إلى علامة «ممنوع الدخول مؤتمر هام» ثم أفضى إلى شتوم بمهمته التي كانت في جوهرها تتجاوز المراقبة والإعلام: «أفهمت نحن لا نريد بالطبع شيئاً على وجه التخصيص ولكنَّك سوف تكثر من الذهاب قدر ما تستطيع وتظهر أننا حاضرون. أما أننا غير موجودين في اللجان فربما كان الأمر على ما يرام ضمن هذه الحدود ولكنَّ لا يوجد سبب يقتضي أن نكون حاضرين حين يجري التشاور حول هدية فكريّة إنَّ صح التعبير من أجل عيد ميلاد قائدنا العسكري الأعلى. ومن أجل ذلك فقد اقترحتك أنت بالذات أيضاً على معالي السيِّد الوزير وهنا لا يستطيع أحد أن يعترض بشيء والسلام! أتمنى لك التوفيق!». وأومأ الفيلد مارشال فروست فون آوفبروخ إيماءة ودِّية ونسي الجنرال شتوم فون بوردفير أنَّ الجندي لا يجوز له أن يظهر خلجة من خلجات نفسه ويكاد المرء يقول إنّه صَفَق بمهمازيه صادراً في ذلك عن قلبه وقال: «شكراً يا صاحب السعادة وسمعاً وطاعة!».

وإذا كان هناك مدنيّون يتَّسمون بالنزعة الحربية فلماذا لا ينبغي أن يكون هناك ضباط يحبّون فنون السلام؟ لقد كانت كاكانيا تضم الكثير منهم. وكانوا يرسمون ويجمعون الجنادب وينشئون مجموعات من طوابع البريد أو يدرسون تاريخ العالم. كانت الحاميات الكثيرة المتقزّمة والظَرْف المتمثِّل في أن الضابط كان محظوراً عليه أن يخرج على الجمهور بأعمال فكريّة بدون تصريح

twitter @baghdad_library

رسمي من رؤسائه يضفيان على مطامحهم في العادة سمة شخصيّة بوجه خاص. وكان الجنرال شتوم قد انغمس هو أيضاً في أمثال هذه الهوايات في السنين الخوالي. وكان قد خدم في الأصل في سلاح الفرسان غير أنّه لم يكن بالفارس الكفء ولم تكن يداه وساقاه القصيرتان ملائمتين للتشبث بحيوان غبيّ كهذا والإمساك بزمامه كما هو شأن الفرس. وكان يفتقر أيضاً إلى روح الآمريّة إلى حدٍّ بلغ منه أن رؤساءه دأبوا على القول عنه في ذلك الوقت إنّه إذا صفّ المرء رتلاً من الخيل على أن تكون رؤوسها نحو جدار الحظيرة بدلاً من أذيالها كما يحدث في العادة فإنه لا يعود قادراً على إخراجها من باب الثكنة. وانتقاماً لذلك ترك شتوم القصير في تلك الأيام لحيته تنمو كاملة سوداء ضاربة إلى السمرة مقصوصة قصّاً مستديراً وكان الضابط الوحيد في سلاح الفرسان الإمبراطوري الذي كانت له لحية كاملة غير أن هذا لم يكن محظوراً حظراً صريحاً وكان قد بدأ يجمع سكاكين الجيب بطريقة علمية ولم يكن دخله يكفي من أجل جمع الأسلحة غير أنّه سرعان ما بات يملك قدراً كبيراً من السكاكين مرتّبة حسب طريقة تركيبها فمنها ذات ساحِبة فلين ومبرد أظافر ومنها بدونهما وكذلك تبعاً لأنواع الفولاذ وتبعاً للمصدر ولمادة القشرة وهكذا دواليك. وكان الصندوق العالي ذو الأدراج الصغيرة المنبسطة والرقعات المكتوبة ينتصب في حجرته مِمّا عاد عليه بسمعة العلماء. وكذلك كان يستطيع نظم القصائد. وكان وهو بعدُ طالب عسكري يحصل دائماً على تقدير «ممتاز في الديانة والإنشاء الألماني». وذات يوم استدعاه العقيد إلى ديوان الكتيبة وقال له: «لن تصبح أبداً ضابطاً يستفاد منه في سلاح الفرسان. فلو أني وضعت رضيعاً على الفرس وقدَّمته إلى الجبهة فإنه لا يستطيع أيضاً أن يتصرّف خلافاً لتصرفك. ولكنَّ الكتيبة لم يتوفّر لها منذ عهد طويل أحد في المدرسة الحربية وقد تستطيع أن تبلّغ عن نفسك يا شتوم!».

وهكذا انتهى شتوم إلى عامين رائعين في مدرسة أركان الحرب في العاصمة. وهناك أيضاً أحدث من الوجهة الذهنية شعوراً بالافتقاد إلى قوّة الشكيمة التي يحتاجها المرء من أجل الركوب. غير أنّه كان يشارك في كلّ الحفلات الموسيقيّة العسكرية ويزور المتاحف ويجمع بطاقات المسرح. ووضع خطة للانتقال إلى الحياة المدنيّة غير أنّه لم يكن يعرف كيف ينبغي أن ينفذها. وكانت النتيجة النهائية أنّه لم يكن من الممكن أن تلاحظ كفاءته للخدمة في أركان الحرب ولا عدم كفاءته على نحو صريح أيضاً وكان يعدّ مفتقراً إلى البراعة والى الطموح غير أنّه كان ينظر إليه على أنّه فيلسوف وألحق عامين آخرين على سبيل التجربة بالأركان العامة لدى قيادة فرقة من قوات المشاة. وكان بعد انقضاء هذه الفترة وهو بمرتبة نقيب فرسان ينتمي إلى العدد الكبير من أولئك الذين لم يكونوا ينتقلون من القوات أبداً حاملين صفة احتياط للطوارئ في الأركان العامة إلا إذا طرأت أحوال غير عادية تماماً وكان نقيب الفرسان شتوم يخدم الآن في كتيبة أخرى وكان يعدّ الآن أيضاً ذا ثقافة عسكرية ولكنَّ سرعان ما اكتشف رؤساؤه الجدد أيضاً المسألة المتَّصلة بالرضيع والكفاءات العلميّة. وكان يخوض مسيرة الشهيد حتى بلوغ مرتبة المقدم ولكنَّه لم يكن يحلم وهو بعدُ رائدٌ إلا بإجازة طويلة براتب مؤقت لكي يبلغ الموعد الذي يحال فيه إلى التقاعد برتبة عقيد ماجور أيّ أنّه يحمل اللقب ويلبس الحلة الرسميّة وإن كان ذلك بدون الراتب التقاعدي الخاص بالعقيد. وما عاد يذكر الترقية التي كانت تسير في القوات تبعاً للائحة المراتب مثل ساعة بطيئة إلى حدٍّ لا يوصف ولا أوقات الضحى إذ كان يعود أدراجه والشمس ماتزالْ عالية في السماء مجلَّلاً بالمهانة من أعلاه إلى أسفله من ميدان التدريب. ويدخل الملهى بجزمة الفروسية المغبرّة ليزيد فراغ اليوم الذي سيمتدّ طويلاً بعدُ بفراغ أقداح الخمر الفارغة. وما عاد ثمة شيء من مجالس الأنس المتَّصلة بالوظيفة وحكايات الكتيبة ونظيرات ديانا في الكتيبة اللواتي

twitter @baghdad_library

كنّ يقضين حياتهن إلى جانب أزواجهن فيها واللواتي يتكرر سلّم مراتبهن تبعاً لسلّم دقيق دقّة الفضة مازال يسمع صوته رقيقاً رقة لا شائبةفيها وما عاد يذكر تلك الليالي حيث كان الغبار والخمر والملل وبُعد الأراضي التي يقطعونها والاضطرار إلى موضوع الحديث الخالد الحصان مِمّا يمارسه السادة المتزوجون وغير المتزوجين في مجلس الأنس ذلك الذي كانت الستائر تسدل على نوافذه حيث كانوا يوقفون النساء على رؤوسهن ليصبّوا الشمبانيا في تنانيرهن ولا عاد يذكر اليهودي العالميّ في معاقل الحاميات الغاليسيّة الملعونة الذي كان مثل مخزن تجاري مشبوه يحصل المرء فيه على كلّ شيء من الحبّ إلى صابونة السرج بالدين والفائدة وحيث كانت تُجتَذب الفتيات اللواتي كنّ يرتعدن من الرهبة والخوف والفضول. وكان ما يشكّل عزاءه الوحيد متابعة جمع السكاكين وساحبات الفلّين بأسلوب متروٍّ وحتى هذه كان اليهودي يأتي بالكثير منها إلى المقدَّم المجنون في بيته ويمسحها في كمه قبل أن يضعها على الطاولة بوجه خاشع وكأنّها من مكتشفات ما قبل التاريخ.

وقد حدث التحوّل غير المنتظر حين تذكَّر شتوم رفيقاً من رفاق دفعته من المدرسة الحربية واقترح تحويله إلى وزارة الحربية حيث كانوا يبحثون في القسم الخاص بالثقافة عن مساعد للوزير كان يفترض فيه أن يكون له عقل مدني متفوق. وبعد عامين عُهد بالقسم إلى شتوم الذي كان قد أصبح في هذه الأثناء عقيداً وكان قد بات امرءاً آخر منذ أن صار تحته مقعد بدلاً من حيوان الفروسية المقدَّس وأصبح جنرالاً وبات في وسعه أن يشعر شعور الواثق إلى حدٍّ بعيد أنّه سيغدو فريقاً أيضاً. وكان قد حلق لحيته بالطبع منذ وقت طويل قبل ذلك ولكنَّ كان قد نما له جبهة مع تقدّمه في السن وكان ميله إلى الاكتناز يضفي عليه مظهر الثقافة الشاملة من نوع معيَّن كما أنّه بات سعيداً أيضاً والسعادة أحرى أن تضاعف المقدرة على الإنجاز. وكان قد دخل في علاقات

كبرى وظهر ذلك في كلّ شيء في ثوب المرأة التي ترتدي ثياباً غير عادية وفي الأشكال الجريئة من فقدان الذوق وفي أسلوب البناء الجديد في تلك الأيام في ڤيينا وفي التلوّن المنتشر في سوق الخضار الكبير وفي هواء الشوارع الإسفلتيّ البني الضارب إلى الخضرة في هذا الإسفلت الهوائي الليّن الحافل بالأبخرة السامّة والروائح العادية والطيّبة وفي الصخب الذي كان ينفجر في ثوانٍ ليخرج لَغَطاً منفرداً وفي التعدد الذي لا نهاية له من المدنّيين وحتى في طاولات المطاعم الصغيرة البيض المتّسمة بالفردية إلى حدٍّ لا مثيل له وإن كانت تبدو كلّها متماثلة على نحو لا ينكر كانت توجد في هذا كلّه سعادة تطنّ في الرأس مثل صليل المهاميز كانت سعادة كتلك التي لا يمكن أن يجدها المدنيّون من الناس إلا في رحلة بالخطوط الحديدية في الهواء الطلق. ولا يعرف المرء أنّى يكون ذلك غير أنّه سيقضي يومه ناضراً سعيداً يخيّم عليه شيء ما. وفي مثل هذا الشعور كانت تنحصر الأهميّة الخاصّة للمرء وهي أهمّية وزارة التربية والثقافة وأهمّية كلّ إنسان آخر. وكان كلّ شيء يبلغ من القوّة ما جعل شتوم لا يفكّر مرّة واحدة منذ أن كان هنا في العودة إلى زيارة المتاحف أو زيارة مسرح. على أن هذا كان شيئاً قلّما يخطر في الوعي غير أنّه كان يتغلغل في كلّ شيء من شريط رتبة الجنرال إلى أصوات جرس البرج وكان ينطوي كذلك على معنى مثل موسيقى تتوقّف رقصة الحياة بدونها على الفور.

أما الشيطان فكان قد مضى في طريقه! كذلك كان شتوم يتصوّر نفسه بينما كان يقف الآن فائضاً عن الحاجة في كلّ شيء حتى هنا أيضاً في هذا المؤتمر الشهير للفكر في وسط الحجرات. لقد كان يقف الآن هنا! وكانت البزّة الرسميّة الوحيْدة في هذا المحيط المشبع بالفكر! وقد أضيف إلى ذلك شيء آخر ليحمله على العجب وليتصوّر المرء الكرة الكونية ذات الزرقة السماوية وقد أزرقّ لونها قليلاً ضارباً إلى زرقة زهرة «لا تنسني» الماثلة في ثوب شتوم

twitter @baghdad_library

العسكري وقد ائتلفت بأسرها من السعادة والأهميّة ومن فوسفور المخ الحافل بالأسرار والخاص بالإشعاع الداخلي ولكنَّ في وسط هذه الكرة كان قلب الجنرال وعلى هذا القلب مثلما كانت تقف ماريا على رأس الأفعى كانت امرأة ربانية تختلط بابتسامتها كلّ الأشياء وهي تمثّل الثقل الخفي لكلّ الأشياء وهكذا يصل المرء على وجه التقريب إلى الإنطباع الذي أحدَّثته ديوتيما لدى شتوم فون بوردفير منذ الساعة الأولى التي ملأت فيها صورتها عينيه المتحرّكتين على مهل. وكان حبّ الجنرال شتوم للنساء قليلاً في الحقيقة كحبّه للخيل. وكانت ساقاه المكتنزتان القصيرتان إلى حدٍّ ما تشعران وهما على السرج إنهما بغير وطن. وحتى حين كان الجنرال يضطر إلى الحديث عن الخيل في أوقات الفراغ من الخدمة كان يرى في المنام ليلاً أنّه ظلّ راكباً حتى لم يبق منه إلا العظام وأنّه لا يستطيع النزول. وكذلك فإن نزوعه إلى الدعة كان يستهجن منذ البداية الأولى أيضاً ألوان الشطط في الغرام. ولما كانت الوظيفة ترهقه بما يكفي لم يكن يحتاج إلى أن يدع طاقاته تنساب من خلال صمامات ليلية. غير أنّه ما كان مكدّراً للصفو في زمانه أيضاً بلا ريب ولكنّه كان إذا لم يقضِ أمسياته مع سكاكينه بل مع رفاقه لجأ في العادة إلى حيلة حكيمة. ذلك لأنّ نظرته إلى الانسجام الجسدي سرعان ما علمته أن المرء يمكن له أن ينتقل عن طريق مرحلة الشطط إلى الإفراط في الشراب المفضي إلى النعاس بسرعة وكان هذا بالنسبة إليه أكثر راحة إلى حدٍّ بعيد من أخطار الحبّ وخيبات أمله. وحين تزوّج فيما بعد وكان عليه في أجل قريب أن يعيل طفلين مع أمهما الطموحة أدرك هنالك فحسب كم كانت عاداته في الحياة متعقّلة فيما مضى قبل أن يستسلم لإغراء العادات الزوجيّة وهو الأمر الذي لم يدفعه إليه بلا ريب إلا الجانب غير العسكري بعض الشيء وهو ذلك الجانب المتّصل بالتصوّر الخاص بالمحارب المتزوج. ومنذ ذلك الوقت تطوّر لديه على نحو مفعم بالحياة مثال للمرأة خارج نطاق الزواج كان على ما يبدو

يحمله في نفسه من قبلُ أيضاً بصورة لاشعورية وكان يكمن في حماسة لطيفة للنساء اللواتي يحملنه على الخوف وبذلك يوفّرن عليه كلّ جهد. وعندما كان ينظر إلى صور النساء التي كان يحتَزُّها في أيام عزوبته من المجلّات المصوّرة ـ وكان هذا دائماً مجرّد جانب فرعيّ من نشاطه في الجمع ـ كانت هذه تتّسم جميعاً بهذه السمة. غير أنّه لم يكن يعرف ذلك من قبل. ولم يتحوّل الأمر إلى حماسة طاغية إلا من جراء لقائه بديوتيما. وبصرف النظر تماماً عن تأثير جمالها كان عليه منذ البداية الأولى حين سمع أنّها ديوتيما ثانية أن ينظر في دائرة المعارف الكبرى ليرى ماذا تعني ديوتيما على وجه الإطلاق. على أنّه لم يفهم الرمز كلّ الفهم ولم يلاحظ إلا أن له علاقة بالوسط الكبير الخاص بالثقافة المدنيّة التي مازال لا يعرف منها مع الأسف إلا أقلّ القليل على الرغم من مركزه. وكانت القوّة الفكريّة الطاغية للعالم تنصهر مع الفتنة الجسديّة لهذه المرأة. واليوم إذ بلغت العلاقات بين الجنسين هذا القدر من التبسيط لا بدّ للمرء أن يؤكّد حقاً أن هذا هو أقصى ما يمكن للمرء أن يشهده. وكانت هذه هي الحماسة التي عادت بشتوم فون بوردفير إلى هناك من جديد بعد أن صرفته ديوتيما عنها بوقت قصير فرابط على مقربة من المرأة التي كانت محطّ الإعجاب إذ لم يكن يعرف أحداً سواها وجعل ينصت إلى أحاديثها وكان أحبّ الأمور إلى نفسه أن يدوّن الملاحظات إذ أنّه ما كان ليحسب أن من الممكن أن يتّخذ مثل هذا الغنى الفكري لعباً وهو يبتسم كأنّما يلعب بسلسلة من اللآلئ لولا أنّه كان شاهد عيان للأحاديث التي كانت ديوتيما تحيّي بها أكثر المشاهير تبايناً. على أن نظرتها بعد أن كانت قد التفتت جانباً بضع مرات كانت هي التي لفتت نظره إلى ما في تَنَصُّتِهِ مِمّا لا يليق بجنرال وحملته على أن يبتعد مجفلاً. وطاف بالمسكن الغاصّ بمن فيه بضع مرات وشرب قدحاً من الخمر وأراد أن يلتمس على وجه الخصوص في جدار من جدران غرفةٍ موضعاً زخرفياً فإذا هو يكتشف أولريش الذي كان قد رآه منذ الجلسةالأولى وبعث

twitter @baghdad_library

هذه اللحظة الضوء في ذاكرته إذ كان أولريش ملازماً يتَّسم بحضور البديهة والإضطراب في إحدى كتيبتي الفرسان اللتين كان الجنرال شتوم قد تولّى قيادتهما في أيامه وهو مقدّم بأسلوب يتَّسم بلين العريكة. وقال شتوم في نفسه: «إنه إنسان مشابه لي وقد وصل وهو بعد حديث السن إلى هذا المركز الرفيع!». وانطلق متَّجهاً صوبه. وبعد أن أكّدا التعارف بينهما وتحدثا هنيهة عن التغيّرات التي طرأت أشار شتوم إلى المؤتمر من حوله وقال: «إنّها فرصة ممتازة لي من أجل التعرف على أهمّ المسائل المدنيّة في العالم!».

وأجابه أولريش: «سوف يتولّاك العجب يا سيِّدي الجنرال».

وصافحه الجنرال الذي كان يبحث عن حليف بحرارة قائلاً على نحو له دلالته: «لقد كنت ملازماً في كتيبة الرمّاحين التاسعة وسوف يكون هذا في وقت ما شرفاً عظيماً لو كان الآخرون أيضاً لا يفهمون هذا بعدُ مثلما أفهمه أنا!».

١

[٨١]

الكونت لاينزدورف يعرب عن رأيه في السياسة الواقعية أولريش يؤسِّس جمعيات

وعلى حين لم تكن قد أمكنت ملاحظةُ أدنى بادرة لنتيجة ما في المجمع كان العمل الموازي يحقِّق في قصر الكونت لاينزدورف خطوات من التقدّم تتّسم بالعنفوان. وهناك كانت خيوط الواقع تسير سيراً متوائماً. وكان أولريش يأتي إلى هناك مرّتين في الأسبوع.

ولم يكن ثمة شيء يبعث على دهشته مثل عدد الجمعيات الموجودة. وكانت تُسجَّل جمعيات برية وبحرية وجمعيات للامتناع عن المسكرات وجمعيات لشربها وبإيجاز جمعياتٌ وجمعيات مضادة لها وكانت هذه الجمعيات تدعم مطامح أعضائها وتعوق مطامح الآخرين. وكان هذا يحدث انطباعاً مؤدّاه أن كلّ إنسان ينتمي إلى جمعية على الأقل. وقال أولريش متعجباً: «سيِّدي الشريف هذا شيء ما عاد في وسع المرء أن يسمِّيه مزرعة للجمعيات كما اعتاد الناس أن يسموه بنيّة حسنة بل هذا هو الحالة الرهيبة المتمثِّلة في أنَّ كلّ إنسان موجود في ذلك النوع من الدولة النظامية التي ابتدعها ينتمي أيضاً إلى عصابة من اللصوص. . . !».

ولكن الكونت لاينزدورف كان مولعاً بالنوادي فرد قائلاً: «هلّا نظرت في مسألة أنَّ سياسة الايديولوجيين لم تؤدِّ بعدُ أبداً إلى شيء حسن. ويجب علينا أن نمارس السياسة الواقعية. بل أنني لا أتردد أبداً في النظر إلى المطامح الفكريّة المفرطة في محيط ابنة عمك على أنّها خطر أكيد!».

twitter @baghdad_library

وقال الآخر برجاء: «هل يتفضّل حضرة الشريف بإعطاء الخطوط التوجيهية».

ونظر إليه الكونت لاينزدورف وكان ينظر في مسألة هل يُعدّ ما كان يريد الإفضاء به مفرطاً في الجرأة بالنسبة إلى الرجل الأصغر سناً والمفتقر إلى الخبرة. غير أنّه حزم أمره بعد ذلك وبدأ قائلاً بحذر: «أجل ألّا ترى سوف أقول لك شيئاً ربّما كنت لا تعرفه بعد لأنّك حديث السن فالسياسة الواقعية تعني ألّا يفعل المرء على وجه الخصوص ما يسر الناس فعله وفي مقابل ذلك يستطيع المرء أن يكسب الناس إلى جانبه بأن يحقّق لهم رغائب صغيرة!».

وحملق في الكونت لاينزدورف على أن مستمع الكونت لاينزدورف الذي كان يبتسم مزهواً حملق فيه غير متمالك نفسه.

وقال شارحاً: «أليس كذلك لقد قلت منذ هنيهة إنَّ السياسة الواقعية أن تتوجَّه بسلطان الفكرة بل يجب أن تنقاد للحاجة العملية. فالأفكار الجميلة خليقة أن يسرّ كلّ امرئ تطبيقها بالطبع وهذا أمر مفهوم بصورة بديهيّة تماماً بلا ريب. وعلى هذا فينبغي للمرء أن يتجنّب على وجه الخصوص عمل ما يرغب فيه الناس! وهذا قول سبق أن قاله كانط».

وصاح الملقّن بهذا وقد بوغت قائلاً: «حقاً! ولكنَّ لا بدّ للمرء أن يكون له هدف!».

«الهدف! لقد كان بسمارك يريد أن يرى الملك البروسي عظيماً كان هذا هدفه. ولم يكن يعرف منذ البداية أنّه سيقوم فوق ذلك بمحاربة النمسا وفرنسا وسيؤسس الدولة الألمانية».

«إذاً فحضرة الشريف يريد أن يقول إنّه ينبغي لنا أن نريد النمسا عظيمة وقويّة ولا شيء بعد ذلك؟».

«مايزال لدينا من الوقت أربع سنوات. وفي هذه السنوات الأربع يمكن أن يحصل كلّ شيء ممكن وفي وسع المرء أن يوقف شعباً على قدميه ولكنَّ لا بدّ له أن يتعلّم المشي بعد ذلك بنفسه أتفهمني؟ الإيقاف على القدمين هذا ما يجب علينا أن نفعله غير أن قدمَيْ الشعب إنما يتمثّلان في مؤسساته الراسخة في أحزابه وجمعياته الخ وليس فيما يجري اللَغَط به!».

«سيِّدي الشريف! ولكنَّ هذه فكرة ديمقراطية حقاً».

«أجل بل ربّما كانت أرستقراطية أيضاً على الرغم من أن رفاق طبقتي لا يفهمونني. فقد أجابني الشيخ هانِنْشتاين وتوركهايم صاحب حقّ البكورة[٢٠] بأنّه لن ينشأ عن مجملِ هذا الا مجرّد خَنزَرة. فلنُنشِئ بحذر! يجب علينا أن ننشئ على النطاق الصغير ولنكن لطفاء مع البشر الذين يأتون إلينا».

من أجل ذلك لم يكن أولريش يردُّ أحداً في الفترة التالية. وهكذا جاءه رجل وتحدَّث إليه طويلاً عن جمع الطوابع فقال إنّه يشكّل أوّلاً رابطة دولية وإنه يشبع من ناحية ثانية الطموح إلى الامتلاك وحبّ الظهور الذي لا يمكن إنكار أنّه أساس المجتمع وأنّه يقتضي من وجهة ثالثة لا المعارف فحسب بل يقتضي أيضاً وعلى وجه الخصوص قرارات فنِّية. ونظر أولريش إلى الرجل. كان مظهره ينمّ عن الحزن والبؤس. غير أنّه بدا أنّه أدرك مسألة هذه النظرة لأنّه ردّ بالقول إنَّ الطوابع تعدّ أيضاً مادة تجارية قيّمة وأنّه لا يجوز للمرء أن ينتقص من قدرها إذ يتمّ في هذا الصدد تحقيق حجم معاملاتٍ بالملايين إذ كان يسافر إلى بورصات الطوابع الكبرى تجار وجمّاعون من بلدان كلّ السادة. ويمكن للمرء أن يغدو غنياً من وراء ذلك غير أنّه مثاليّ من حيث شخصه وهو يكوّن مجموعة خاصة لا يحفل بها أحد ليصل بها إلى الكمال وهو لا يريد إلا أن

(٢٠) هو أولوية الإبن البكر في الوراثة على سائر إخوته. (المترجم)

twitter @baghdad_library

يُفتتَح في عام اليوبيل معرض كبير للطوابع تتمّ فيه توعية البشر في مضماره الخصوصي!

وجاء بعده آخر وحدّثه بما يلي: عندما يسير في الشوارع ـ غير أن ما هو أكثر من ذلك إثارة انطلاقه في الحافلة ـ يقوم منذ سنين بإحصاء الخطوط المستقيمة في الحروف اللاتينية الكبيرة في لافتات المحلات التجارية (فحرف A يتألّف مثلاً من ثلاثة وحرف M من أربعة) ويقسّم عددها على عدد الحروف وكانت النتيجة المتوسّطة حتى الآن ثابتة وهي إثنان ونصف غير أن من الواضح أن هذا لا يعدّ بحال من الأحوال شيئاً لا يتزعزع ويمكن أن يتغيّر مع كلّ شارع جديد. على أن المرء ينتابه القلق الكبير للانحرافات ويشعر بالسرور الكبير لدى إصابة الهدف وذلك ما يماثل الآثار التطهيرية المنسوبة إلى التراجيّديا. وعندما يحصي المرء الحروف ذاتها فإن الأمر الذي يمكن لسيادته أن يتأكد منه هو أن قابليته للقسمة على ثلاثة تعدّ حالة سعيدة كبرى ومن أجل ذلك تحدّث معظم اللافتات شعوراً بعدم الرضى يلاحظ بوضوح ويصل حتى إلى تلك التي تتألف من حروف ذوات كتل أيّ من تلك الحروف ذات الخطوط الأربعة مثل كلمة WEM التي تسبّب السعادة بصورة خاصة تماماً في كلّ الظروف. وقال الزائر متسائلاً: «أما ما ينتج عن ذلك فليس شيئاً آخر سوى أنّه يجب على وزارة الصحة الشعبيّة أن تصدر أمراً إدارياً يشجّع اختيار الحروف ذات الخطوط الأربعة في تسمية المؤسّسات ويقمع قدر الإمكان استعمال الحروف ذات الخط الواحد مثل O. S. I. C لأنّها كانت تسبب التعاسة لقلّة جدواها!.

ونظر أولريش إلى الرجل وباعد بينه وبينه غير أن ذاك لم يكن في الحقيقة يحدث انطباعاً بإنه مصاب بمرض عقلي بل كان رجلاً ينتمي إلى «أفضل الطبقات» في الثلاثينات من العمر يبدو ذكياً ودوداً. وتابع شرحه بهدوء قائلاً:

«إن الحساب الذهني يعدّ مقدَّرة لا غنى عنها في كلّ المهن وإن مِمّا يتلاءم مع التربية الحديثة أن يُلبِس المرء التعليم لباس اللعب وإن علم الإحصاء قد كشف في كثير من الأحيان عن علاقات عميقة قبل أن يمتلك نفسيرها بوقت طويل وإن الضرر البليغ الذي يحدثه تعليم القراءة معروف وأخيراً فإن الإثارة الكبيرة التي أحدَّثتها تقديراته حتى الآن بالنسبة لكلّ من قرّر أن يكرِّرها تتحدَّث عن نفسها بنفسها. ولو أن وزارة الصحة الشعبيّة حُمِلَت على أن تتبنّى اكتشافه لتبعتها دول أخرى خلال أجل قريب وأنَّ سنة اليوبيل يمكن أن تتحوّل صورتها إلى بركة على الإنسانية.

وكان أولريش ينصح أمثال هؤلاء الناس قائلاً: «أسِّسْ جمعية فمازال أمامك من أجل ذلك أربعة أعوام وإذا نجحت في ذلك فلا ريب أن حضرة الشريف سيقف إلى جانبك بكلّ نفوذه!».

غير أن معظمهم كان له جمعية من قبل وعندئذ كانت المسألة تختلف فتكون بسيطة نسبياً حين يقترح ناديًا لكرة القدم إضفاء لقب الأستاذية على مظهره القانوني توثيقاً لأهمّية التربية البدنية الحديثة إذ يستطيع المرء عندئذ أن يبعث الأمل في تلبية الطلب على أيَّة حال. ومع ذلك فقد كان الأمر عسيراً في حالات كالحالة التالية حيث كان من الواجب استقبال زائر في نحو الخمسين قدم نفسه على أنّه من كبار موظَّفي الدوائر وكانت جبهته وضّاءة كجبهة الشهداء وصرح بأنّه مؤسِّس جمعية «أوْلْ» للاختزال ورئيسها وهو يسمح لنفسه بأن يوجِّه اهتمام أمين سرّ العمل الوطني الكبير نحو نظام «أولْ» في الاختزال.

وقال مفصِّلاً إنَّ نظام «أول» للاختزال اختراع نمساوي وهذا يكفي لتفسير كونه لا يجد انتشاراً ولا تشجيعاً ويسأل السيِّد أليس كاتبَ اختزال الأمر الذي نفاه هذا عُرضت له المزايا الفكريّة للاختزال وهي توفير الوقت وتوفير الطاقة الفكريّة وسأله عن رأيه في كمية العمل الفكري التي يجري إهدارها يومياً في

twitter @baghdad_library

هذه الأعمال التطريزية وألوان الاستفاضة وأشكال عدم الدقة وضروب التكرار الباعثة على البلبلة والأشكال المماثلة من الصور الجزئية واختلاط الأجزاء الكتابية ذات الدلالة المعبّرة حقاً مع الأجزاء التي هي مجرّد أجزاء تقليدية وتعسفية شخصية؟ وكان من بواعث دهشة أولريش أنّه تعرف على رجل كان يلاحق الكتابة الموجودة في الحياة اليوميّة ذات البراءة الظاهرة بكراهية لا ترحم. أما من حيث توفير العمل الفكري فقد كان الاختزال مسألة حيوية بالنسبة إلى البشريّة الآخذة في التقدّم في ظلّ عصر السرعة. غير أن مسألة الطويل والقصير أظهرت أنّها ذات أهمّية حاسمة من وجهة نظر الأخلاق أيضاً. وذلك أن الكتابة ذات الآذان الطويلة كما كانت تسمّى حسب التعبير المرّ للموظَّف الكبير بسبب أنشطتها التي لا معنى لها تجرّ إلى عدم الدقة والتعسُّف وحبّ البعثَرة والإستعمال المتهاون للوقت على حين أن الاختزال يربّي على الدقة ويصلّب عود الإرادة والموقفَ الرجوليّ. وقال إنَّ الاختزال يعلّم فعل ما هو ضروري والتخلّص مِمّا هو غير ضروري وغير خادم للهدف. ثم ألّا يعتقد سيادته أن ثمة شيء من الأخلاق العلميّة يكمن هنا وهو شيء يعدّ في الذروة من الأهميّة بالنسبة إلى النمساويّ. ولكنَّ قد يحق للمرء أيضاً أن يتناول المسألة من وجهة النظر الجمالية. أوَلا يعدّ الإسهاب قبيحاً بحق؟ أوَلم يصرح كبار الكلاسيكيّين بأن التعبير عن ذروة الملاءمة للغرض يعدّ من المقوّمات الأساسيّة للجميل؟ واستأنف الموظَّف الكبير قائلاً: «ولكن اختصار وقت الجلوس مع الانكباب على منضدة الكتابة يعدّ فائق الأهميّة من وجهة النظر الخاصّة بالصحة الشعبيّة أيضاً. وبعدّ أن تمت على هذا النحو مناقشة مسألة الاختزال بالاستناد إلى علوم أخرى أيضاً مِمّا أدهش المستمع هُنالك فحسب انتقل زائره إلى عرض التفوُّق اللانهائي لنظام «أوْل» على كلّ الأنظمة. فبيّن له أن كلّ نظام آخر من نظم الاختزال يُعدّ بموجب مجمل وجهات النظر المعروضة مجرّد خيانة لفكرة الاختزال ثم استعرض قصّة آلامه

إذ كانت هناك النظم الأقدم والأقوى التي كان قد أتيح لها الوقت لكي تربط نفسها بكلّ المصالح المادية الممكنة. كانت المدارس التجارية تعلّم نظام فوجِلْباوْخ مقاومةً كلّ تغيير وتتبعها في ذلك فئة التجار ـ جرياً على شريعة الخمول. أما الصحف التي تكسب من وراء إعلانات المدارس التجارية قدراً كبيراً من المال كما يمكن للمرء أن يرى فتوصد أبوابها في وجه كلّ مقترحات الإصلاح. وأما وزارة التعليم؟ فهذه هي السخرية بعينها! ـ كما قال السيّد أول. فقبل خمسة أعوام حين اتّخذ قرار الإدخال الإلزامي لتعليم الاختزال في المدارس المتوسّطة قامت وزارة التعليم بدراسة من أجل التباحث حول النظام الواجب اختياره وكان الموجودون في هذه الدراسة بالطبع ممثلو المدارس التجارية وطبقة التجار وكتاب الاختزال في البرلمان الذين كانوا يرتبطون بالمراسلين الصحفيين ارتباطاً وثيقاً ولا أحد سواهم! وقال إنَّ من الواضح أنّه كان من المفروض أن يصل نظام فوجِلْباخ إلى القبول وأن جمعية أوّل للاختزال قد حذّرت من هذه الجريمة بحقّ التراث الشعبي القيّم واحتجّت عليها! غير أن ممثّليها ما عادوا يُستَقبَلون مجرّد استقبال في الوزارة!

وكان أولريش يخبر الشريف بأمثال هذه الحالات. وسأل الكونت لاينزدورف: وما هو أوّل؟ أهو موظّف؟ وجعل الشريف يحك أنفه طويلاً غير أنّه لم ينتهِ إلى قرار. وقال بعد هنيهة: «ربما كان عليك أن تتحدّث إلى المستشار الذي يرأسه لترى أيعاني من شيء ما...؟ ولكنَّ مزاجه كان يتّسم بسمةٍ عملية فرجع عن ذلك وقال: «كلا أتعرف ماذا؟ نحن نفضل أن نحضّر ملفاً وليعربوا عن رأيهم فيه! وأضاف قائلاً بشيء من الإيناس كان يفترض فيه أن يتيح للآخر إمعان النظر: «إن المرء لا يستطيع أن يعرف بصدد كلّ هذه الأمور أهي عبث أم لا. ولكنَّ أنظر يا دكتور فإن الشيء المهمّ ينشأ أصولاً وبصورة مباشرة عن نظرة المرء الجديّة إليه! وأنا ألاحظ هذا من جديد في

twitter @baghdad_library

الدكتور آرنهايم الذي تجري الصحف وراءه. فإنَّ في وسع الصحف بالطبع أن تفعل شيئاً آخر أيضاً ولكنّها حين تفعل هذا يصبح الدكتور آرنهايم مهماً. وأنت تقول إن السيِّد أوْل له جمعية؟ وهذا لا يثبت شيئاً بالطبع. ولكنَّ ينبغي للمرء من ناحية أخرى أن يفكِّر تفكيراً حديثاً وحين يقف كثير من الناس إلى جانب شيء ما يستطيع المرء أن يكون على يقين كبير بأن شيئاً ما سوف ينجم عن ذلك!».

[٨٢]

كلاريسا تطالب بعام لأولريش

ولا ريب في أن صديقها لم يقم بزيارته لسبب آخر سوى أنّه كان عليه أن يهدّئ رَوْعها بصدد الرسالة التي كانت قد بعثت بها إلى الكونت لاينزدورف وكان قد نسيها حين كانت عنده آخر مرّة ومع ذلك فقد خطر بباله أثناء الرحلة أنّه لا بدّ أن يكون فالتر قد انتابته الغيرة تجاهه وأن هذه الزيارة خليقة أن تثير مشاعره بمجرّد أن يطّلع عليها. غير أن فالتر لم يستطع ببساطة أن يقاوم ذلك بشيء ما. وقد كان هذا الوضع الذي يتعرَّض له معظم الرجال في الحقيقة مضحكاً حقاً إذ لا يتوفّر لديهم الوقت للسهر على نسائهم إذا كانوا غيورين إلا بعد اختتام دوام المكتب.

على أن الساعة التي قرّر أولريش أن ينطلق فيها لم تكن تتيح احتمال لقاء فالتر في البيت وكانت هذه الساعة في وقت مبكر جداً من بعد الظهيرة وكان قد اتصل بالهاتف وكانت النوافذ تبدو بلا ستائر وكان بياض نُدَف الثلج يتغلغل بقوّة بالغة من خلال ألواح الزجاج. وفي هذا الضوء الذي لا يرحم والذي كان يحاصر كلّ الأشياء كانت تقف كلاريسا وهي تنظر من وسط الحجرة ضاحكة إلى صديقها. وكانت تُشرِق بالألوان الصارخة إذ كان التقوُّس الضئيل لجسدها الناحِل يميل تجاه النافذة على حين كان جانب الظل ضباباً أسمر ضارباً إلى الزرقة كان ينبعث منه الجبين والأنف والذقن كزاوية حادة من الثلج ذهبت بحدّتها الريح والشمس وكانت أقلّ تذكيراً بإنسانٍ منها بلقاء بين ثلج وضوء في الوحدة الشبحية في شتاء الجبال العالية. وكان أولريش يدرك بعض

twitter @baghdad_library

الإدراك السحر الذي لم يكن لها بدٌّ أن تمارسه على فالتر في بعض اللحظات وأفسحت أحاسيسه المقسّمة تجاه صديق الصبا المجالَ هنيهةً لإمعان النظر في الصورة الاستعراضية التي كان إثنان من البشر يعرضانها أحدهما للآخر والتي ربّما كان قليل المعرفة بحياة صاحبَيْها مع ذلك.

وبدأ قائلاً: «لست أدري أحدَّثْتِ فالتر عن الرسالة التي كتبتها إلى الكونت لاينزدورف. غير أني أتيت لأتحدث إليك وحدك ولأحذّرك لكي تكفّي في المستقبل عن أمثال هذه الأعمال». وقرّبت كلاريسا كرسيّين معاً وحملته على القعود وقالت برجاء: «لا تتحدَّث عن ذلك إلى فالتر ولكنَّ قل لي ما هو مأخذك على هذا؟ أنت تقصد عام نيتشه بلا ريب؟ فماذا قال في ذلك صاحبك الكونت؟».

«وماذا تحسبينه قائلاً في ذلك؟! فالرابطة التي ربطتِ بها هذا بموز بروجر كانت جنونية على وجه الخصوص. وقد كان خليقاً على أيّة حال أن يطرح الرسالة جانباً أيضاً».

وانتابت كلاريسا خيبة شديدة وقالت: «هكذا إذاً» ثم قالت: «ومن حسن الحظ أن لك ما تدلي به في هذا الصدد أيضاً!».

«لقد سبق أن قلت لكِ إنك مجنونة ببساطة!».

وابتسمت كلاريسا وتقبّلت ذلك على أنّه تملّق ووضعت يدها على ذراع الصديق وسألته: «أتعدّ العام النمساوي حماقة؟».

«طبعاً».

«ولكن عاماً لنيتشه خليق أن يكون شيئاً حسناً فلماذا يفترض الآن أنّه لا يجوز للمرء أن يريد شيئاً لمجرّد أنّه يمكن أن يكون حسناً وفقاً لمفاهيمنا أيضاً؟!».

وسأل: «وكيف تتصوَّرين إذاً عام نيتشه في الحقيقة؟».

«هذا شأنك!».

«أنت مضحكة!».

«كلا أبداً. قل لي لماذا يبدو لك مضحكاً أن تحقّق ما يعدّ جدياً بالنسبة إليك؟!».

ورد أولريش قائلاً: «وَدِدْت لو فعلت هذا على أنّه ليس ضرورياً أن يكون عام نيتشه على وجه الخصوص إذ يمكن أن يتناول المسيح أو بوذا أيضاً».

«أو يتناولك. هلّا تصوَّرت عاماً لأولريش!». وقالت هذا بهدوء يعادل على وجه الدقة هدوءها حين طالبته أن يحرِّر موز بروجر. غير أنّه لم يكن هذه المرة شارداً بل نظر في وجهها بينما كان يسمع كلماتها ولم يكن في الوجه إلا ابتسامة كلاريسا المألوفة التي كانت تخرج دائماً على غير إرادتها كتقطيبة مرحة يدفع بها الإجهاد نحو الأعلى.

وقال في نفسه: «خيراً إذاً فهي لا تقصد بذلك إلى السوء».

غير أن كلاريسا اقتربت منه من جديد وقالت: «لماذا لا تقيم عاماً لك؟ فربما كنت تتمتَّع الآن بالسلطة اللازمة لذلك ولا يجوز لك كما أسلفتُ القول إنَّ تحدّث فالتر بشيء من ذلك ولا أن تفضي إليه بشيء عن رسالة موز بروجر ولا أن تحدثه على الإطلاق بأنني تحدثت إليك في ذلك! ولكنَّ صدقني إنَّ هذا القاتل موسيقيّ إلا أنّه لا يستطيع أن يؤلف تأليفاً موسيقياً ألم تلاحظ بعدُ أبداً أن كلّ إنسان يقف في نقطة المحور من كرة سماوية؟ وعندما يتزحزح عن مكانه تذهب معه وهكذا فلابد للمرء أن يصنع الموسيقى بدون ضمير مثل الكرة السماوية التي يقف المرء تحتها ببساطة!...».

«وأنت تعتقدين أنّه ينبغي لي أن أخترع شيئاً مشابهاً ليكون عاماً لي؟».

twitter @baghdad_library

وكانت كلاريسا ترد على كلّ حال: «كلّا» وكانت شفتاها الرقيقتان تريدان أن تقولا شيئاً غير إنهما أخلدتا إلى الصمت وكان اللهب ينطلق صامتاً من العينين ولم يكن في وسع المرء أن يقول ما الذي كان يصدر عنها في أمثال هذه اللحظات. وكان ثمة حريق كما لو أن المرء اقترب منه شيء متوهج اقتراباً مفرطاً وكانت تبتسم الآن غير أن هذه الابتسامة التوت فتجعدت على شفتيها كرماد متخلّف بعد أن انطفأ الحدث في عينيها.

وكرّر أولريش قائلاً: «ولكن كان من الممكن أن أتصوّر هذا مجرّد تصوّر على أقصى الحدود. أما الآن فأنا أخشى أن تكوني قصدتِ أن عليّ أن أقوم بانقلاب؟!».

وفكّرت كلاريسا وقالت بدون أن تحفل باعتراضه: «فلنقل عاماً لبوذا. ولست أدري بماذا طالب بوذا إنما على وجه التقريب فحسب ولكنَّ فلنتناول المسألة ببساطة. وإذا كان المرء يعدّ ذلك مهمّاً فعليه أن يحقّقه! ذلك لأنّه إما أن يكون الشيء مستحقاً للإيمان به وإما ألّا يكون كذلك».

«حسناً انتبهي: لقد قلت: عام نيتشه ولكنَّ بماذا طالب نيتشه؟».

وأطرقت كلاريسا تفكّر وقالت في حرج: «على أنني بالطبع أعدّ نصباً تذكارياً لنيتشه أو شارعاً باسمه ولكنَّ يجب أن يصل المرء بالناس إلى أن يعيشوا مثلما...».

وقاطعها قائلاً: «مثلما كان يطالب؟! ولكنَّ بماذا كان يطالب؟».

وحاولت كلاريسا أن تجيب وانتظرت وأخيراً ردّت قائلة: «كلا فأنت تعرف ذلك بنفسك...».

وقال معاتباً: «لا أعرف شيئاً على الإطلاق غير أني أريد أن أقول شيئاً واحداً: إنَّ المرء يستطيع أن يحقّق مطالب يوبيل الإمبراطور فرانتس جوزيف

للحساء أو مطالب رابطة حماية مالكي القطط المنزلية غير أنَّ المرء لا يستطيع أن يحقِّق الأفكار الجيّدة مثلما لا يستطيع ذلك في الموسيقى! أما ما يعنيه هذا فلست أدري غير أن الأمر على هذه الشاكلة».

وكان قد اتّخذ مجلسه آخر الأمر على الأريكة الصغيرة وراء الطاولة الصغيرة. وكان هذا المكان أكثر كفاءة للمقاومة من ذلك المكان على الكرسي الصغير. وكانت كلاريسا ماتزال واقفة في وسط الحجرة الفارغ وكأنّها على الضفة الأخرى من سراب كان يزيد من طول لوح الطاولة وهي تتحدَّث. وكان جسدها الناحل يشارك في الحديث والتفكير بهدوء وكانت في الحقيقة تحسّ بكلّ ما كانت تريد أن تكونه وكانت تفعل ذلك أوّل الأمر بكلّ جسدها وهي تعاني على الدوام من الحاجة إلى أن تفعل به شيئاً ما. وكان صديقها يعدّ جسدها قاسياً وغلامياً. ولكنَّ الآن في هذه الرشاقة المتَّسمة بالليونة على ساقين مضمومين بدت له كلاريسا مرّة واحدة مثل راقصة من جاوة وفجأة خطر بباله أنّه لن يكون من بواعث العجب عنده أن تسقط مغشياً عليها أم تراه كان هو نفسه مغشياً عليه. وألقى كلمة مطوّلة وبدأ قائلاً: «أنت تريدين أن تعيشي تبعاً لفكَّرتك وتريدين أن تعرفي كيف يستطيع المرء ذلك. غير أنَّ الفكرة هي أكثر الأشياء تناقضاً في العالم. فاللحم يرتبط بالأفكار مثلما يرتبط بها رمز مقدّس جزئي (فيتيش). فيغدو اللحم سحرياً عندما تكون الفكرة فيه. ومن الممكن أن تغدو الصفعة العادية قاتلة من جراء فكرة الشرف والعقوبة ونحو ذلك. ومع ذلك فإن الأفكار لا يمكن لها أبداً أن تحافظ على الحالة التي تكون فيها أقوى ما تكون إنّها تحاكي تلك المواد التي تتحوّل على الفور في الهواء إلى صورة أخرى أكثر ثباتاً غير أنّها صورة تطرّق إليها الفساد وقد طالما شاركت في هذا. ذلك لأنّ الفكرة إنما هي أنتِ في حالة محددة. فثمة شيء لا على التعيين ينفث أنفاسه فيكِ كما لو أن لحناً ورد فجأةً داخل صخب

twitter @baghdad_library

الأوتار. وثمة شيء ما يقف أمامك مثل السراب وقد تشكّل من فوضى روحك موكب لا نهاية له وتبدو كلّ جمالات العالم واقفة على طريقك. وهذا تُحدِثه في الغالب فكرة وحيدة ولكنّها تغدو بعد حين من الزمان مشابهة لكلّ الأفكار الأخرى التي سبق أن كانت لديك وتغدو تابعة لها وتصبح جزءاً من وجهة نظرك أو شخصيتك أو مبادئك أو أحوالك النفسية. لقد فقدت أجنحتها واتخذت ثباتاً خالياً من الأسرار».

وردّت كلاريسا قائلة: «إن فالتر يغار منك لا من أجلي بل لأنّك تبدو كأنك يمكن أن تفعل ما يودّ لو يفعله هو أوَتفهم؟ إنّه شيءٌ فيك يخيّب أمله في نفسه ولست أدري كيف ينبغي لي أن أعبّر عن هذا».

ونظرت إليه نظرة فاحصة.

وتشابك الحديثان أحدهما في الآخر.

وكان فالتر دائماً طفل الحياة المدلَّل الرقيق الذي كان يجلس في حضنها. ومهما كان يحدث له من أحداث فقد كان يبدي لها حيوية رقيقة. لقد كان فالتر دائماً ذلك الذي يعاني المعاناة الأكثر. وقال أولريش في نفسه: «ولكن المعاناة الأكثر هي إحدى السمات الأسبق والأدقّ التي يتعرَّف المرء من خلالها على الإنسان المتوسِّط. فالعلائق تنتزع من المعاناة سُميَّتها الشخصيّة أو حلاوتها!». هكذا كانت المسألة على وجه التقريب ـ وهذا التوكيد نفسه وهو توكيد أن الأمر كان على هذه الصورة كان علاقةً ولم يكن المرء يتلقّى مقابل ذلك قبلة أو وداعاً. وعلى الرغم من ذلك كان فالتر يغار منه؟ كان هذا يسرّه. وأخبرته كلاريسا قائلة: «لقد قلت له إنّه ينبغي أن يقتلك».

«ماذا؟».

«قلت: أن يقتلك. فإذا لم تكن قد بلغت المدى الفائق الذي تتخيّله عن نفسك أو كان هو خيراً منك ولا يمكن أن ينتهي إلى السكينة إلا عن هذا الطريق فسوف يكون هذا تفكيراً صحيحاً كلّ الصحة. وفضلاً عن ذلك فأنت تستطيع أن تدافع عن نفسك».

وأجاب أولريش على غير ثقة: «أنت تطرحين هذا طرحاً لا بأس به... !».

لم نَزِدْ على أن تحدّثنا حديثاً عابراً فما رأيك آخر الأمر؟ إنَّ فالتر يقوله إنّه لا يجوز للمرء أن يفكّر بشيء كهذا مجرّد تفكير».

وردّ متردِّداً وهو ينظر إلى كلاريسا نظرة دقيقة: «كلا بل يجوز التفكير». وكان لها سحرها الخصوصيّ بل يستطيع المرء أن يقول: كأنّها كانت تقف إلى جانب نفسها. كانت غائبة وحاضرة وكل من هاتَيْن إلى جانب الأخرى.

وقاطعته قائلة: «ماذا؟ التفكير؟». وكانت تتحدَّث متجهة نحو الحائط الذي كان يجلس أمامه وكأن عينها موجَّهة إلى نقطة بينهما: «أنت في مثل سلبية فالتر!». وكانت هذه الكلمة أيضاً واقعة بين مسافتين. كانت تتخذ مسافة مثل إهانة وكانت تُصالح مع ذلك عن طريق دُنوّ حميم كانت تفترضه بصورة أولية وكررت قائلة بجفاف: «أنا أقول في مقابل ذلك: عندما يستطيع المرء أن يفكّر في شيء فعليه أن يكون قادراً على فعله أيضاً».

ثم غادرت مكانها وذهبت إلى النافذة وعقدت يديها على ظهرها ونهض أولريش على عجل وتبعها ووضع ذراعه على كتفها وقال: «يا كلاريسا الصغيرة لقد كنْت غريبة الأطوار حقاً منذ هنيهة غير أنّه لا بدّ لي أن أشفع لنفسي بكلمة طيِّبة فأنا في الحقيقة لا أعني شيئاً بالنسبة إليك بلا ريب وهذا ما أقصد أن أقوله».

twitter @baghdad_library

وكانت كلاريسا تحملق ببصرها عبر النافذة غير أنّها كانت تفعل ذلك الآن بحدة وحطّت ببصرها على شيء ما في الخارج لكي تهيّئ لنفسها مستنداً عليه وكانت قد خرجت بانطباع مؤدّاه أن أفكارها كانت في الخارج وقد عادت الآن أدراجها من جديد وهذا الإحساس الذي كانت معه كالمكان الذي يظلّ المرء يشعر فيه أن الباب قد أوصد منذ هنيهة لم يكن جديداً عليها وكانت قد مرَّت بها في بعض الأحيان أيام وأسابيع كان فيها كلّ ما يحيط بها أكثر إشراقاً وخفّة مِمّا كان في العادة وكأنّه ما كان ليكلّف المرء كثيراً من الجهد أن ينزلق داخلاً فيه ليخرج عن نفسه في نزهة في الدنيا مثلما جاءت بعد ذلك أوقات عصيبة كانت تشعر فيها أنّها كالمعتقلّة. وكانت هذه الأوقات الثانية لا تدوم إلا قليلاً غير أنّها كانت تخشاها مثل العقوبة لأنَّ كلّ شيء كان يغدو عندئذ ضيّقاً كئيباً. وفي اللحظة الحاضرة التي كانت تتميَّز بسكينتها الصافية ذات الصحو كانت تشعر بالإضطراب وما عادت تعرف حقّ المعرّفة ما كانت تريده منذ حين وكان مثل هذا الوضوح العميق وهذا التماسك الهادئ يمهّد في كثير من الأحيان لوقت العقوبة وكانت كلاريسا تجهد نفسها وكان يعتريها حين يكون من الممكن أن تستأنف الحديث على نحو مقنّع الإحساس بأنّها تنقل نفسها بذلك إلى الأمان. وقالت وهي تزمّ شفتيها استنكاراً: «لا تقل لي الصغيرة وإلا قتلتك بنفسي في النهاية!». وقد صدر عنها هذا الآن كالمُزاح الصِرف أيّ أنّه كان ناجحاً. وأدارت رأسها في حذر لكي تنظر إليه واستأنفت قائلة: «لقد عبّرت عمّا في نفسي على هذا النحو فحسب بالطبع. ولكنَّ يجب عليك أن تفهم أنني أقصد شيئاً ما أين كنّا نقف؟ لقد قلت إنَّ المرء لا يستطيع أن يعيش وفقاً لفكره وأنتما لا تملكان الطاقة الحقّة لا أنت ولا فالتر!».

«لقد سمَّيتني سلبياً بطريقة مفزعة غير أن هناك نوعين من هذا فهناك سلبية سلبية وهذه هي سلبية فالتر وأخرى إيجابية!».

وسألت كلاريسا بفضول: «وما هي هذه السلبية الإيجابية؟».

«انتظار السجين لفرصة الانعتاق». وقالت كلاريسا: «أهذا فحسب إنّه التهرّب!».

وقال معترفاً: «فليكن ربما».

وكانت كلاريسا ماتزال تعقد يديها وراء ظهرها وكانت قد باعدت بين ساقيها كما يكون الوضع في حالة جزمة الركوب «هل تعرف ماذا يقول نيتشه؟ إنَّ إرادة المعرِّفة الوثيقة تعدّ جنباً مثل إرادة المشي الوثيق فلابد للمرء أن يبدأ في أيّ مكان لا على التعيين في ممارسة قضية لا أن يكتفي بالحديث عنها! لقد كنت أنتظر منك أنت بوجه خاص أن تقوم بشيء خاص ذات مرة!».

وكانت قد تمكنت فجأة من الإمساك بزرّ في صُدَيْريّه وكانت تُدوّرُه وقد رفعت وجهها نحوه ووضع يده على يدها على نحو لاإرادي لكي يحمي زرَّه.

واستأنفت قائلة وهي متردِّدة: «لقد فكَّرت فأطلت التفكير إلى حدٍّ ما. إنَّ الوضاعة الكبيرة تماماً تنشأ في هذه الأيام لا بأن يقتربها المرء بل بأن يفسح لها المجال فهي تنمو في الفراغ» ونظرت إليه بعد هذا الأداء ثم استأنفت قائلة بعنف: «فإفساح المجال أخطر عشر مرات من الفعل! أوَتفهمني». وكانت تغالب نفسها لترى ألّا ينبغي لها أن تصف هذا وصفاً أكثر دقَّة بعد. ولكنّها أضافت قائلة: «أليس كذلك أنت تفهمني فهماً ممتازاً يا عزيزي؟ والحقّ أنّك تقول إنّه ينبغي للمرء أن يدع كلّ شيء يسير على ما هو عليه غير أني أعرف كما تقول! لقد قلت لنفسي في بعض الأحيان إنك أنت الشيطان!» وكانت هذه الجملة قد أفلتت الآن منزلقة من فم كلاريسا مثل سحلية. وفزعت. على أنّها لم تكن في الأصل تفكِّر إلا في توسّلات فالتر من أجل طفل ولاحظ صديقها اختلاجاً في عينيها اللتين كانتا تنظران إليه في رغبة ولكنَّ وجهها المصوَّب نحو الأعلى كان يطغى عليه شيء ما ولم يكن شيئاً جميلاً بل كان أقرب إلى

twitter @baghdad_library

أن يكون مؤثِّراً على نحو قبيح مثلما كان يمكن أن يكون انصباب هائل للعرق تنمسح معه معالم الوجه غير أن هذا لم يكن جسدياً بل كان خيالياً محضاً وشعر بالعدوى تسري إليه على الرغم من إرادته وانتقل إلى ذهول خفيف وما عاد في وسعه أن يقاوم هذا الحديث العبثي مقاومة حقيقية وأمسك في النهاية بكلاريسا من يدها وأجلسها على الأريكة وجلس إلى جوارها.

وبدأ بالقول: «إذاً فسأحدِّثك الآن لماذا لا أفعل شيئاً». وسكت.

ولكن كلاريسا التي كانت قد عادت في لحظة التماسّ من جديد إلى طبيعتها المألوفة استحثّته.

وتأهب للكلام قائلاً: «إن المرء لا يستطيع أن يفعل شيئاً لأنّ ـ غير أنّك لن تفهمي هذا بلا ريب ـ» واستخرج لفافة وانصرف لإشعالها.

وأعانته كلاريسا قائلة: «إيهِ؟ ماذا تريد أن تقول؟» غير أنّه مضى في صمته. عند ذلك دفعت ذراعها خلف ظهره وجعلت تهزّه مثل غلام يعرض قوته. وكانت الخصلة المستحبّة فيها أن المرء لم يكن يحتاج البتة إلى أن يقول شيئاً على الإطلاق إذ كانت تكفي لفتةُ ما هو فائق للعادة لكي تنقلها إلى الخيال. وصاحت فوق ذلك: «أنت مجرم كبير!». وحاولت عبثاً أن تؤلمه.

ومع ذلك ففي هذه اللحظة قاطعتهما عودة فالتر على نحو غير مستحبّ.

[٨٣]

ما يحدث مثله أو لماذا لا يخترع المرء التاريخ

وماذا كان في وسع أولريش أن يقول لكلاريسا في الحقيقة؟

لقد سكت عن هذا لأنَّها أثارت في نفسه ولعاً خصوصياً بالنطق بكلمة «الرب». لقد أراد أن يقول مثلاً إنَّ الرب لا يقصد العالم بالمعنى الحرفيّ بحال من الأحوال بل هو صورة وقياس أو تعبير لم يكن له بدٌّ أن يستخدمه لأسباب ما وكان ذلك بالطبع غير كافٍ على الدوام ولا يجوز لنا أن نفهمه حرفياً بل يجب علينا أن نستخرج الحل الذي يكلِّفنا به بأنفسنا. وكان يسائل نفسه أكانت كلاريسا ستوافق على أن تفهم هذا فَهْمَها للعبة من ألعاب الهنود أو ألعاب اللصوص؟ بلا ريب. فلو أن أحداً تقدّمها لضغطت بنفسها على جانبه مثل ذئبة وانتبهت انتباهاً حاداً.

غير أنّه كان مايزال هناك شيء يريد أن يقوله شيء عن المسائل الرياضيّة التي لا تسمح بحلّ عام بل بحلول منفردة يقترب المرء من الحلّ العام عن طريق التأليف بينها. وقد كان في وسعه أن يضيف أنّه كان ينظر إلى مسألة الحياة البشريّة على أنّها مثل هذه المسألة. أما ما يسمّيه المرء بالعصر ـ بدون أن يعرف هل ينبغي للمرء أن يفهم من ذلك القرون أو آلاف السنين أو المدى بين المدرسة والطفل الحفيد ـ فإن هذا النهر العريض غير المنضبط من الأحوال سيكون خليقاً عندئذ أن يعني على وجه التقريب شيئاً معادلاً لتعاقب لا خطَّةَ فيه من محاولات الحل غير الكامنة والخاطئة إذا أُخِذَت كلاً على حدة

twitter @baghdad_library

والتي لا يمكن أن يخرج منها الحل الصحيح والشامل إلا حين تفهم البشريّة كيف تلّخصها.

وفي الحافلة كان يتذكّر ذلك في طريق العودة. وكان بعض الناس يسافرون معه نحو المدينة واستحيا قليلاً أمام هؤلاء البشر من أمثال هذه الأفكار وكان في وسع المرء أن يقرأ في وجوههم أنّهم كانوا عائدين من أشغال معيَّنة أو أنّهم كانوا ذاهبين إلى مسرّات معيّنة. أجل لقد كان يرى حتى على ثيابهم ما خلّفوه وراءهم أو ما كانوا يستقبلونه وأخذ يتأمّل جارته. لا ريب أنّها كانت سيِّدة أمّاً في حوالي الأربعين ومن الجائز جداً أن تكون زوجة موظَّف أكاديمي. وكان في حضنها نظارة أوبرا صغيرة وبدا لنفسه بأفكاره إلى جانبها مثل غلام يعبث بل مثل غلام يعبث عبثاً ليس بالمهذّب تماماً.

ذلك لأنّ الفكرة التي ليس لها غرض عمليّ تعدّ شغلاً مُستَرَقاً ليس بالمهذب جداً ولاسيما أمثال هذه الأفكار التي تقوم بخطوات متكلّفة هائلة فلا تمس التجربة إلا بنعلين ضئيلين يشتبه في كونها ذات منشأ غير سليم. أجل لقد كان الناس فيما مضى يتحدَّثون عن طيران الأفكار وفي أيام شيلر كان الرجل الذي ينطوي صدره على أمثال هذه المسائل ذات الطبيعة السامية خليقاً أن يعدّ مرموق السمعة جداً. أما اليوم فيخالج المرء الشعور بأن مثل هذا الإنسان يعدّ إنساناً ليس على مايرام إذا لم تكن هذه هي مهنته ومصدر دخله بطريق المصادفة على وجه الخصوص. ويبدو أن المسألة قد جرى توزيعها على صورة أخرى. فقد انتزعت من قلب الإنسان مسائل معيَّنة وأنشئ للأفكار ذات الطيران العالي نوع من مزرعة الدواجن يسمّى بالفلسفة أو اللاهوت أو الأدب. وهناك تتكاثر بطريقتها تكاثراً مطّرد الإضطراب وعلى هذا النحو يعدّ هذا أمراً صائباً حقاً إذ ما عاد إنسان يحتاج في صدد هذا الانتشار إلى أن يلوم نفسه لكونه لا يعنى بها شخصيّاً. وكان أولريش بما كان عليه من احترام

للاختصاصيّة والتخصّص قد عقد العزم في الأساس على ألّا يعترض بشيء على مثل هذا التقسيم للأعمال. غير أنّه كان مايزال يبيح لنفسه أن يفكّر بنفسه على أيّة حال على الرغم من أنّه لم يكن فيلسوفاً بحكم المهنة. وكان في اللحظة الراهنة يتخيّل أن هذا سيؤدّي إلى الطريق إلى دولة النحل. فالملكة سوف تضع البيض وذكور النحل سوف تعيش حياة مكرّسة للمتعة والفكر والمختصون سوف يعملون. ومثل هذه البشريّة ممكنة التصوّر أيضاً بل ربّما كان من الممكن تصعيد مجمل العمل. فالآن مايزال كلّ إنسان يضمّ في نفسه البشريّة بأكملها إنَّ صح التعبير. غير أن من الجليّ أن هذا قد أصبح أكثر مِمّا ينبغي وما عاد يثبت كفاءته على الإطلاق بحيث يكاد الإنسانيّ يعدّ أكثر ضروب الخداع نقاءً وربّما كان النجاح خليقاً أن يتوقّف على اتخاذ تدابير وقائية جديدة في التقسيم والتوزيع لكي ينشأ تركيب فكري أيضاً في مجموعة خصوصيّة من تلك المجموعات الخاصّة بالعمّال فبدون الفكر ـ؟ كان أولريش يريد أن يقول إنَّ الأمر ما كان خليقاً أن يسرّه. ولكنَّ هذا كان حكماً مسبقاً بالطبع فالمرء لا يعرف طبعاً علامَ تتوقّف المسألة. وأصلح وضعه وتأمل وجهه في قرص الزجاج الموجود في مواجهة مقعده تسليةً لنفسه وإذا وجهه يسبح في الزجاج المائع بعد هنيهة متغلغلاً على نحو عجيب بين الداخل والخارج مطالباً بأي استكمال كائناً ما كان.

أكان هناك حرب بلقانية في الحقيقة أم لم يكن؟ لقد حدث تدخل من أيّ نوع كان بلا ريب. أما أن هذا كان حرباً فذلك ما لم يكن يعرفه على وجه الدقة. لقد كانت أشياء كثيرة جداً تحرّك البشريّة وكان الرقم القياسي في ارتفاع الطيران قد ارتفع من جديد وهي مسألة تبعث على الزهو وإذا لم يكن مخطئاً فقد كان الرقم يقف الآن عند ٣٧٠٠م وكان الرجل يدعى جوهو وكان ملاكم زنجيّ قد حطّم البطل الأبيض وانتزع بطولة العالم وكان يسمّى

twitter @baghdad_library

جونسون وقد سافر رئيس جمهورية فرنسا إلى روسيا وكان يجري الحديث عن تعريض السلام العالمي للخطر وكان لحنٌ صادح مكتشف حديثاً قد كسب مبالغ طائلة في جنوبي أمريكا مِمّا لم يكن له وجودٌ بعدُ في شمالي أمريكا نفسها وعانت اليابان من زلزال رهيب أصاب اليابانيّين المساكين. وبكلمة واحدة كان يحدث الكثير كان عصراً حافِلاً بالحركة وهو العصر الواقع عند نهاية العام ١٩١٣ وبداية العام ١٩١٤. ولكنَّ العصر الذي كان لعامين أو لخمسة أعوام خلت من قبله كان أيضاً عصراً حافلاً بالحركة فقد كان لكلّ يوم ألوان إثارته. وعلى الرغم من ذلك لم يكن من الممكن أن يتذكّر المرء ما حدث في تلك الأيام إلا تذكُّراً واهياً أو لم يكن يتذكّر ذلك على الإطلاق. وكان في وسع المرء أن يختصر المسألة فقد حقّق الدواء ضد الزهري ـ وجرى البحث في استقلاب المواد في النباتات ـ وبدأ غزو القطب الجنوني ـ وأثارته تجارب شتاينخ وكان في وسع المرء بهذه الطريقة أن يُسقط نصف اليقين بغير حرج ولم يكن هذا يشكّل الكثير. فأي شأن غريب يمثله التاريخ حقاً! كان من الممكن أن يقول المرء وهو على يقين عن هذا الحدث أو ذاك إنّه وجد مكانه في التاريخ في هذه الأثناء أو إنّه سوف يجده على نحو مؤكّد. أما أنَّ هذا الحدث قد حدث على وجه الإطلاق فذلك ما لم يكن مؤكّداً. ذلك لأنّ من مقتضيات الحدوث أن يحدث الشيء في عام محدد لا في عام آخر سواه أو لا يحدث على الإطلاق ومِمّا يقتضيه ذلك أن يحدث هو نفسه لا أن يحدث في النهاية شيء مماثل أو على شاكلته. غير أن هذا هو على وجه الخصوص ما لا يستطيع إنسان أن يقوله عن التاريخ سوى أن يكون قد دوّنه مثلما تفعل ذلك الصحف أو أن يتناول الأمر أموراً تتّصل بالمهن والثروات. ذلك لأنّ عدد السنين التي يكتسب المرء بعدها الحقّ في الإحالة على التقاعد أو متى يمتلك المرء مبلغاً محدداً أو ينفقه يعدّ مهماً بالطبع وفي مثل هذا السياق يمكن للحروب أيضاً أن تتحوّل إلى مذكّرات. إنَّ تاريخنا يبدو مقلقلاً ومتلبّداً عندما

يتأمله المرء عن كثب مثل وَحلٍ لم يُمهَّد بالوطء جزئياً. وفي النهاية يجري طريق فوقه متجاوزاً إياه بطريقة غريبة إنّه ذلك المسمّى «طريق التاريخ» الذي لا يعرف أحد من أين جاء. وقد كانت هذه الخدمة للتاريخ من حيث مادته شيئاً يبعث على استياء أولريش. كان الصندوق المضيء المتأرجح الذي كان يسافر فيه يبدو له مثل آلة كان يجري فيها هزُّ بضع مئات من الكيلوغرامات من البشر جيئة وذهاباً لكي يُصنَع منهم المستقبل. وقد كانوا يجلسون قبل مائة عام بوجوه مماثلة في عربة بريد وبعد مائة عام سوف يجري لهم ما لا يعلمه إلا الله غير أنّهم سوف يقعدون هنا أناساً جدداً في أجهزة مستقبلية جديدة على هذا النحو بالضبط ـ كذلك كان يشعر ويتذمّر من هذا التقبّل بغير مقاومة للتغيرات والأحوال المعاصرة العاجزة وما ينتج بغير تخطيط ومشاركة القرون غير اللائقة بالإنسان في الحقيقة وكأنّما كان يثور فجأة على القبعة التي كان يضعها على رأسه وكانت غريبة الشكل بما فيه الكفاية.

ونهض على غير إرادة منه وقطع بقية الطريق على قدميه وفي الوعاء البشري الأكبر من المدينة حيث كان يوجد الآن هدأ انزعاجه متحوّلاً من جديد إلى مرح. لقد كانت خاطرة مجنونة من كلاريسا الصغيرة. فقد أرادت أن تقيم عاماً للفكر ووجّه انتباهه إلى هذه النقطة. لماذا كان هذا عبثاً بهذه الصورة؟ لقد كان في وسع المرء آخر الأمر أن يتساءل بالقدر ذاته لماذا يعدّ عمل ديوتيما الوطني عبثاً؟

الجواب رقم ١: لأنّ تاريخ العالم ينشأ بلا ريب مثلما تنشأ كلّ التواريخ الأخرى. ولا يخطر ببال المؤلّفين شيء جديد وهم ينقلون كلٌّ منهم عن الآخر وهذا هو السبب في أن كلّ السياسيّين يدرسون التاريخ بدلاً من البيولوجيا أو نحوها. وفي هذا ما يكفي عن المؤلّفين.

twitter @baghdad_library

ثانياً: ولكنَّ التاريخ ينشأ في معظمه بدون مؤلّفين فهو لا ينشأ من المركز بل من المحيط من علل صغيرة. ومن المحتمل ألّا يكون هناك قدر كبير من الأمور يقتضيه ذلك كما يعتقد لكي يُصنَع من الإنسان القوطي أو من الإغريقي القديم إنسانُ الحضارة الحديث. ذلك لأنّ الطبيعة البشريّة قادرة بسهولة على افتراس البشر بقدر ما هي قادرة على نقد العقل المحض فهي تستطيع أن تحقّق كلا الأمرين بالقناعات والخصائص ذاتها عندما تكون الظروف ملائمة لذلك. والفروق الخارجية الكبيرة جداً تمثّل فروقاً داخلية ضئيلة جداً.

الانحراف رقم (١): كان أولريش يتذكّر تجربة مماثلة من أيامه العسكرية فكتيبة الفرسان تركب في أرتال ثنائية ويدعونهم يمارسون «تناقل الأمر» حيث تجري متابعة إعطاء الأمر الذي يجري النطق به خافتاً من نفر إلى نفر فإذا صدر الأمر الآن من الأمام: «يجب على الرقيب أن يركب في المقدّمة إذا جاء الأمر من الوراء: «يجب إطلاق الرصاص فوراً على ثمانية من الفرسان أو شيء من هذا القبيل وبالطريقة ذاتها ينشأ تاريخ العالم أيضاً.

الجواب رقم (٣): لو وضع من أجل ذلك جيل من الأوروبيِّين المعاصرين في سن الطفولة الأولى في العام المصري ٥٠٠٠ ق.م. وترك هناك لبدأ تاريخ العالم مرّة أخرى من العام ٥٠٠٠ ولتكرر بادئ الأمر حيناً من الزمان ثم يأخذ في الانحراف تدريجياً لأسباب لا يخمّنها إنسان.

الانحراف الثاني: إنَّ قانون تاريخ العالم ـ كما خطر له في هذه الأثناء ـ ليس شيئاً آخر سوى مبدأ الدولة الخاص «بالتمادي في السوء» في كاكانيا القديمة. لقد كانت كاكانيا دولة ذكية إلى حدٍّ هائل.

الانحراف الثالث أو الجواب رقم (٤)؟: وإذاً فطريق التاريخ ليس طريق كرة البلياردو التي إذا ما ضربت سارت في مسار محدَّد بل يماثل طريق السحب ويماثل طريق متسكّع في الأزقة يتحوّل اتجاهه هنا بتأثير ظلّ من

الظلال وهناك من جرّاء مجموعة من البشر أو من جرّاء امتزاج غريب بين واجهات المنازل وأخيراً يبلغ موضعاً لا كان يعرفه ولا كان يريد بلوغه. ففي مسار تاريخ العالم يكمن تراجع معيَّن. والحاضر يعدّ دائماً كالمنزل الأخير من مدينة وهو منزل ما عاد يُعَدّ على أيّ نحو من الأنحاء منتمياً كلّ الانتماء إلى منازل المدينة وكل جيل يسأل مندهشاً من أنا وماذا كان أسلافي؟ وقد كان أولى به أن يسأل أين أنا وأن يفترض بصورة أولّية أن أسلافه لم يكونوا مختلفين كيفاً بل مختلفين مكاناً وقال في نفسه: بذلك كان من الممكن تحقيق بعض المكاسب.

وقد كان هو نفسه الذي أعطى لأجوبته وانحرافاته هذه الأرقام حتى الآن وكان فوق ذلك ينظر في وجه عابر حيناً وفي واجهة من واجهات العرض حيناً آخر لكي لا يدع الأفكار تفلت منه تماماً غير أنّه كان قد أخطأ المسير في هذه الأثناء على الرغم من ذلك بعض الشيء واضطر إلى التوقّف لحظة لكي يفهم أين كان وليجد أقرب طريق إلى البيت وقبل أن يسلكه اجتهد في إصلاح وضع سؤاله مرّة أخرى على الوجه الدقيق. وإذاً فقد كانت كلاريسا الصغيرة المجنونة على حقّ كلّ الحق. ينبغي للمرء أن يصنع التاريخ ولا بدّ له أن يخترعه وإن كان قد جادل في ذلك أمامها أيضاً. ولكنَّ لماذا لا يفعل المرء ذلك؟ وفي هذه اللحظة لم يخطر بباله من جواب إلا المدير فيشل في مصرف لويد صديقه ليو فيشل الذي كان في السنين الخوالي يقعد معه هنا وهناك في الصيف أمام أحد المقاهي. ذلك لأنّ هذا كان خليقاً في هذه اللحظة لو أنّه خاض معه في هذا الحديث بدلاً من أن يخوضه حواراً ذاتياً وأن يجيب على طريقته قائلاً: «همومك في رأسي!». وكان أولريش ممتناً له من أجل هذا الجواب المنعش الذي كان خليقاً أن يجيب به. وردّ هو على الفور قائلاً في ذهنه: «يا عزيزي فيشل هذا أمر ليس على هذا القدر من البساطة فأنا أقول

twitter @baghdad_library

«التاريخ» غير أني أقصد حياتنا إذا كنت تتذكّر ولقد سبق أن سلّمت منذ البداية بأنَّ مِمّا يبعث على الصدمة الشديدة أن أسأل: لماذا لا يصنع المرء التاريخ أيّ لماذا لا يهاجم التاريخ مثل حيوان مهاجمةً إيجابية إلا عندما يكون مصاباً أيّ عندما يكون ثمة حريق وراءه وبكلمة واحدة لماذا لا يصنع التاريخ إلا في حالة الطوارئ؟ ولماذا يبدو هذا باعثاً على الصدمة إذاً؟ وما هو مأخذنا على ذلك على الرغم من أنّه لا يعني أكثر من أن الإنسان لا ينبغي له أن يدع الحياة الإنسانية تسير ببساطة على النحو الذي تسير عليه؟».

وعندئذ سوف يردّ المدير فيشل قائلاً: «لا ريب أن من المعروف كيف يحدث هذا. ولا بدّ للمرء أن يكون مسروراً حين لا يقوم السياسيون ورجال الدين والسادة الكبار الذين ليس لديهم ما يعملونه وكل الآخرين من البشر الذين يجرون هنا وهناك بفكرة ثابتة بتعكير صفو الحياة اليوميّة. وأخيراً فإن المرء يتمتَّع بالثقافة. أوَليس ثمة عدد بالغ الضخامة من الناس خليقون أن يسلكوا اليوم فحسب سلوك غير المثقَّفين!». وكان المدير فيشل على حقّ بالطبع. والمرء خليق أن يكون مسروراً بمعرفته الكافية بالقروض الرهنيّة والأوراق المالية وبألا يفرط الآخرون من الناس في التدخّل في التاريخ لأنهم يزعمون أنّهم ضالعون فيه وما كان للإنسان أن يعيش بدون أفكار وحاشا لله. غير أن الصحيح يمثّل توازناً معيَّناً بينهما توازناً في القوّة سلاماً مسلحاً بين الأفكار حيث لا يمكن أن يحدث قدرٌ كبير من جانب من الجوانب. وكان يتمتَّع بالثقافة من أجل التسكين. وهذا شعور أساسي من مشاعر الحضارة ومع ذلك يتوفّر الآن أيضاً الشعور المعاكس وهو يزداد حيوية على نحو مطّرد ومؤداه أن عصر التاريخ السياسي البطولي الذي تصنعه المصادفة وفرسانها يواصل الحياة جزئياً وأنّه يجب الاستعاضة عنه بحل يجري وفقاً لمخطط

مرسوم ويسهم فيه كلّ من يعنيه ذلك. غير أن عام أولريش انتهى عندئذ بأن وصل أولريش في هذه الأثناء إلى بيته.

twitter @baghdad_library

[٨٤]

القول بأنَّ الحياة العادية أيضاً ذات طبيعة طوباوية

وعثر هناك على الكومة المألوفة من الكتابات التي كان الكونت لاينزدورف قد بعث بها إليه. وكان صناعيٌّ قد عرض جائزة مرتفعة إلى حدٍّ غير عادي لأفضل إنجاز في التربية العسكرية للشباب المدني واتخذت الهيئة الأسقفيّة موقفاً من الاقتراح الخاص بوقف كبير لدار الأيتام وأعلنت أنّها مضطرة إلى الإعراب عن قلقها من كلّ اختلاط مذهبيّ وتحدَّثت لجنة الثقافة والتعليم عن نجاح الاقتراح الصادر مؤقتاً بصورة حاسمة والخاص بنصب تذكاري كبير لامبراطور السلام وشعوب النمسا بالقرب من المقر الإمبراطوري. وبعد الاتصال بالوزارة الإمبراطورية الملكية للثقافة والتعليم والتشاور مع الاتحادات الرئيسيّة للفنّانين وروابط المهندسين والمعماريِّين أسفرت أمثال تلك الاختلافات في الرأي عن أن اللجنة رأت نفسها في وضع يقتضي الإعلان عن مسابقة من أجل أفضل فكرة حول مسابقة من أجل النصب التذكاري المزمع إنشاؤه وذلك بدون المساس بالمتطلّبات التي ينبغي تبيانها فيما بعد في حالة موافقة اللجنة المركزية. وقد أعاد ديوان القصر إلى اللجنة المركزية بعد الإطّلاع المقترحات المعروضة للإطّلاع قبل ثلاثة أسابيع وأعلن أنّه لا يستطيع الإعراب في الوقت الحاضر عن الإرادة العليا في هذا الصدد غير أن من المرغوب فيه أن يدع الرأي العام يكوّن نفسه بنفسه بعدُ أوّل الأمر في هذه النقاط أيضاً. وأعلنت الوزارة الإمبراطورية ـ الملكية للثقافة والتعليم بالإشارة إلى الكتاب الوارد أنّها لا تستطيع تأييد التشجيع الخاص لنادٍ أوّلْ

للاختزال وأعلن نادي الصحة الشعبيّة المسمّى «الحرف الخطيّ» عن إنشائه والتمس مخصصاتٍ مالية له.

ومضى الأمر على هذا المنوال. وأزاح أولريش رزمة العالم الواقعي جانباً وفكّر هنيهة. ثم نهض فجأة وطلب قبّعته ومعطفه وأعلن أنّه سيكون في البيت من جديد خلال ساعة أو ساعة ونصف ونادى عربة وعاد أدراجه إلى كلاريسا.

وكان قد خيم الظلام. ولم يكن المنزل يلقي على الشارع إلا قليلاً من الضوء من نافذة. وكانت مواطئ الأقدام تشكّل حفراً متجمّدة تجمّداً قاسياً كان المرء يتعثر فيها وكان الباب موصداً وجاءت الزيارة على غير انتظار بحيث ظلّ الصياح وقرع الباب والصفق بالأيدي غير مفهوم وقتاً بالغ الطول. وحين وقف أولريش آخر الأمر في الحجرة بدا أنّها ليست بالحجرة التي كان قد غادرها بلا ريب منذ حين فحسب بل كانت عالماً غريباً يبعث على الذهول فيه طاولة أعدت للاجتماع البسيط لإنسانين وكراسيّ كان على كلٍ منها شيء يوحي هناك بالجوّ المنزليّ وجدران كانت تنفتح للدخيل بمقاومة معيّنة.

وكانت كلاريسا ترتدي ثوب نوم صوفياً بسيطاً وهي تضحك. أما فالتر الذي كان قد لحق بالقادم المتأخّر فقد نظر بأجفان مختلجة وأودع مفتاح البيت الكبير في درج من أدراج الطاولة وقال أولريش بغير لف أو دوران: «لقد عدت أدراجي لأنّني مازلت مديناً لكلاريسا بجواب». ثم بدأ من المنتصف الذي قوطع فيه حديث من قبل فالتر وبعد برهة كانت الحجرة والمنزل والشعور بالوقت قد تبدّدت وكان الحوار معلّقاً في مكان ما فوق الفضاء الأزرق في شبكة النجوم. وكان أولريش يطوّر البرنامج لكي يعيش المرء تاريخ الأفكار بدلاً من تاريخ العالم. وقدم لذلك بالقول إنّ الفرق سيكون أوّل الأمر كامناً فيما يحدث بدرجة أقلّ مِمّا يكمن في المعنى الذي يعطيه المرء إياه وفي

twitter @baghdad_library

المقصد الذي يربطه المرء به وفي النظام القائم الذي يحيط بالحدث الفرد وأنَّ النظام القائم الآن هو نظام الواقع وهو يحاكي مسرحية رديئة والناس لا يتحدَّثون عبثاً عن المسرح العالمي إذ تظلّ الأدوار ذاتها والعقد والخرافات ذاتها ترتسم في الحياة. فالمرء يحبّ لأنّ الحبّ موجود وعلى النحو الذي يوجد به الحبّ والمرء يتَّسم بالزهو مثل الهنود أو الإسبان أو العذارى أو الأسد بل يقتل المرء في خمسين بالمائة من الحالات لا لشيء إلا لأنّ هذا يعدّ مأساوياً ورائعاً. وفي النهاية فإنَّ السياسيين الناجحين القائمين بتشكيل الواقع يشتركون في كثير من الأمور مع كتّاب الأعمال الناجحة جداً بصرف النظر عن الاستثناءات الكبيرة تماماً. فالأحداث المفعمة بالحياة التي يخرجونها تبعث على الملل بافتقارها إلى الفكر والجدّة غير أنّها تنقلنا عن هذا الطريق بوجه خاص إلى تلك الحالة الناعسة الخالية من المقاومة والتي تتقبل كلّ تغيير. وإذا نظر إلى الأمر على هذا النحو فإن التاريخ ينشأ عن الروتين الفكريّ وممّا لا شأن له من الوجهة الفكريّة وينشأ الواقع بصورة متميِّزة عن حقيقة أنّه لا شيء يحدث للأفكار. وفي وسع المرء كما قال أن يلخِّص ذلك بإيجاز بقوله: قلّما يهمّنا ما يحدث وإنما يهمنا كثيراً: لِمَن وأيْن ومتى يحدث بحيث لا يكون المهمّ عندنا فكرة الأحداث بل خرافتها ولا اكتساب مضمون جديد للحياة بل توزيع ما هو متوفِّر وذلك مماثل على وجه الدقة لما يمثِّل بالفعل الفرق بين المسرحيات الجيّدة والمسرحيات الناجحة فحسب. ولكنَّ ينتج عن ذلك النقيضُ الحقيقي المتمثِّل في أنَّ المرء سيضطر أوّل الأمر إلى التخلِّي عن موقف حبّ التملك الشخصي في مواجهة التجارب. وسيكون على المرء أن ينظر إلى هذه بناء على ذلك نظرة أقلّ اتساماً بالسمة الشخصيّة والواقعية وأكثر اتساماً بالعموم والجانب الفكري أو بحيث تكون خالية من السمة الشخصيّة كما لو كانت مرسومة أو مُغنّاة. ولا يجوز للمرء أن يعطيها الإتجاه العائدة إليه بل يجب أن يوجِّهها نحو الأعلى والخارج. وإذا كان هذا

يتّسم بالسمة الشخصيّة فإنه لابدّ أن يحدث فضلاً عن هذا شيء جماعيّ الأمر الذي لم يكن أولريش يستطيع وصفه حقاً وكان يسمّيه نوعاً من العَصْر والتخزين في الأقبية والتكثيف للعصارة الفكريّة بدون أن يمكن للفرد أن يشعر بالطبع أنّه مجرّد عاجز متروكٍ لما يحلو له. وبينما كان يتحدَّث على هذا النحو تذكَّر اللحظة التي قال فيها لديوتيما إنّه يجب على المرء أن يلغي الواقع.

ولا ريب أنّه كان من المفهوم بصورة بديهيّة على وجه التقريب أن فالتر كان يقول عن هذا كلّه أوّل الأمر إنّه ادعاء عاديّ تماماً وكأن العالم كلّه لن يقوم بـ«تخزينٍ وعَصْرٍ» للأدب والفن والعلم والدين على كلّ حال! وكأنَّ أيّ مثقّف كان يُماري في قيمة الأفكار ولم يكن يقدّر قيمة الفكر والجمال والفضيلة! وكأنَّ كلّ تربية هي شيء آخر سوى الإدخال في نظام من أنظمة الفكر!

وأوضح أولريش ما في نفسه بالإشارة إلى أن التربية تعني مجردَ إدخالٍ فيما هو قائم وسائل في كلّ مرّة وهو هذا الذي يكون قد نشأ عن تدابير وقائية بدون مخطط مرسوم. الأمر الذي يقتضي وجوب التأكّد قبل كلّ شيء فحسب من أجل الحصول على الفكر من عدم امتلاكه بعد! وكان يسمّي هذا فكرة مفتوحة تماماً تمارس تجربة الشعر على نطاق واسع من الوجهة الأخلاقية.

ثم صرح فالتر الآن بأنَّ هذا ادعاء غير ممكن وقال: «ما أظرف الطريقة التي يطرح بها هذا وكأنَّ لنا الخيار على وجه الإطلاق في أن نعيش الأفكار أو نعيش حياتنا! ولكنَّ في النهاية ربّما كنت تعرف القول المأثور: «لستُ كتاباً متناهياً في الذكاء بل أنا إنسان فيه تناقُضُه»؟ فلماذا لا تمضي إلى أبعد من ذلك؟ ولماذا لا تطالب بأن نلغي بطننا من أجل أفكارنا؟ غير أني أردّ عليك: «إن الإنسان مصنوع من شيء وضيع»! فإن كوننا نمدّ ذراعنا ونسحبه ولا نعرف هل ينبغي لنا أن نتجه يميناً أو يساراً وكونُنا مؤلّفين من عادات وأحكام مسبقة

twitter @baghdad_library

وتراب ومع ذلك فنحن نسير في طريقنا قدر طاقتنا: هذا هو على وجه الخصوص ما يُشكّل الإنسانيّ! وعلى هذا لا يحتاج المرء إلا إلى أن يقبس قليلاً من الواقع فيتبيّن في أحسن الأحوال أنّه أدب!».

وأقر أولريش قائلاً: «إذا كنت تسمح لي أن أفهم من ذلك أيضاً كلّ الفنون الأخرى وفلسفات الحياة والأديان وهكذا دواليك فأنا أريد بلا ريب أن أقول شيئاً مماثلاً لذلك وهو أن وجودنا ينبغي أن يكون مؤلّفاً بصورة مطلقة من الأدب!».

وصاح فالتر قائلاً: «ماذا أنت تسمّي فضيلة المخلّص أو حياة نابليون أدباً؟!» ولكنَّ خطر في باله بعد ذلك شيء أفضل فاتجه إلى صديقه بالهدوء الذي تضفيه ورقة رابحة جيّدة وقال: «أنت إنسان يرى في خضار الصناديق جوهر الخضار الطازجة!».

وسلّم أولريش قائلاً بهدوء: «أنت على حقّ بلا ريب وقد كان في وسعك أن تقول أيضاً إنني امرؤٌ يريد أن يطبخ بالملح فقط». ولم يكن يريد الآن مزيداً من الحديث في ذلك.

ولكن هنا تدخلت كلاريسا واتجهت إلى فالتر وقالت: لست أدري لماذا تعارضه! ألم تكن تقول أنت نفسك كلّما حدث لنا شيءٌ خصوصي: ينبغي للمرء أن يستطيع أن يعرض هذا الآن على مسرح للناس جميعاً لكي يمكن لهم أن يروه ويفهموه! ـ وقد كان للمرء أن يغني في الحقيقة! واتجهت إلى أولريش موافقة وقالت: «ينبغي للمرء أن يغني ما في نفسه!».

وكانت قد نهضت ودخلت في الدائرة الصغيرة التي كانت تشكّلها الكراسي وكان موقفها تصويراً ذاتياً غير بارع إلى حدٍّ ما لرغائبها وكأنّها كانت تريد أن تتأهّب لرقصة. أما أولريش الذي كان مرهف الحسّ تجاه تعرية النفس الخالية من الذوق فقد تذكّرفي هذه اللحظة أن معظم البشر إذا أردنا أن نقول

ذلك على وجه التقريب أيّ البشر المتوسّطين الذين يُستَفزُّ عقلُهم بدون أن يستطيعوا أن يبدعوا شيئاً ما تخالجهم هذه الرغبة في أن يتاح لهم عرضُ أنفسهم. ويتّسم بذلك أيضاً أولئك الذين يسهل أن يحدث فيهم «ما لا يمكن التصريح به» وهي الكلمة الأثيرة لديهم حقاً والأرضّية الضبابية التي يبدو فوقها ما يصرّحون به مضخّماً تضخيماً يفتقر إلى اليقين بحيث لا يتبيّنون قيمته الحقيقيّة أبداً. ولكنَّ كلاريسا على حق: فالمسرح يبرهن على أن أحوال المعاناة الشخصيّة العنيفة يمكن لها أن تخدم غرضاً غير شخصي أيّ سياقاً من المعاني والصور يفصلها جزئياً عن الشخصيّة».

وقاطعته كلاريسا من جديد قائلة: «أنا أفهم أولريش فهماً جيّداً جداً. أنا لا أستطيع أن أتذكّر أن شيئاً سرّني في يوم من الأيام سروراً خصوصياً لأنّه جرى لي شخصيّاً بل لأنّه حدث فحسب على وجه الإطلاق! واتجهت إلى زوجها قائلة: «وكذلك فأنت لا تريد أن تملك الموسيقى فليس ثمة سعادة إلا في حضورها. والمرء يجتذب التجارب إلى نفسه وينشرها من جديد في وقت واحد. والمرء يريد لنفسه ولكنّه لا يريد أن يكون بائعاً إلى نفسه!».

وأمسك فالتر بصدغيه غير أنّه انتقل من أجل كلاريسا إلى نقضٍ جديد. وكان يجتهد في إخراج كلماته مثل شعاع بارد هادئ واتجه إلى أولريش قائلاً: «عندما تعلّق قيمة سلوك ما على بثّ الطاقة الفكريّة فحسب فأنا أود أن أسألك الآن شيئاً: إنَّ هذا ليس بالممكن حقاً إلا في حياة ليس لها من هدف آخر سوى إنتاج الطاقة والقوّة الفكريتين».

ورد هذا قائلاً: «إنّها الحياة التي تزعم كلّ الدول القائمة أنّها تطمح إليها!».

ومضى فالتر قائلاً: «وعلى هذا ففي مثل هذه الدولة سيعيش البشر وفقاً للأحاسيس والأفكار الكبيرة وبموجب الفلسفات والروايات؟ وأنا أتابع

twitter @baghdad_library

سؤالك الآن: أتراهم سيعيشون على نحوٍ تنشأ معه فلسفة وأدب عظيمان أم على نحو يكون معه كلّ ما يعيشونه في ذاته فلسفة وأدباً متجسدَيْن في لحم ودم إنَّ صح التعبير. على أني لا أرتاب فيما تقول لأنّ الأمر الأوّل لن يكون شيئاً آخر سوى ما يفهم اليوم على أيّة حال من كلمة دولة الثقافة. ولكنَّ لما كنت تعني الأمر الثاني فأنت تتجاهل أن الفلسفة والأدب سيكونان هناك فائضَيْن عن الحاجة حقاً. وبصرف النظر عن أن المرء لا يستطيع أن يتصوّر حياتك وفقاً لأسلوب الفن أو تريد أن تسميها على الإطلاق فإنّها لا تعني بناء على ذلك شيئاً آخر سوى نهاية الفن!» وبذلك اختتم الحديث وأنهى لعبته بهذه الورقة الرابحة بإصرار مراعياً كلاريسا.

وأحدث هذا أثره بل احتاج أولريش إلى برهة لكي يتمالك نفسه. غير أنّه ضحك بعد ذلك وسأل: «أتراك لا تعرف أن كلّ حياة كاملة تمثّل نهاية الفن؟ ويبدو لي أنّك أنت نفسك على الطريق إلى الإمساك عن الفن من أجل كمال حياتك».

ولم يكن يقصد بذلك سوءاً ولكنَّ كلاريسا كانت تصغي. ومضى أولريش قائلاً: «إن كلّ كاتب عظيم ينفث هذه الروح التي تحبّ مصائر الشخصيّات المتفرّقة لأنّها لم تكن تنسجم مع الأشكال التي تريد أن تفرض عليها المجموع بأكمله. والأمر يقود إلى قرارات لا يمكن البتّ فيها. فالمرء يستطيع أن يصوّر حياتها. استخرجْ المغزى من كلّ الآداب وسوف تحصل على إنكار لا نهاية له ليس بالكامل في الحقيقة ولكنّه مبنيّ على التجربة في أمثلة متفرقة لكلّ القواعد والمبادئ والتعاليم السارية التي يقوم عليها المجتمع الذي يحبّ هذه الآداب. وفي النهاية فإن القصيدة بسرّها تبتر معنى العالم كما هو معلّق بالآلاف من الكلمات اليوميّة من منتصفه وتحوّله إلى بالون يطير مولّياً. وعندما يسمّي المرء

هذا كما هو مألوف جمالاً فسيكون الجمال انقلاباً ينطوي على تهوّر لا مثيل له وقسوة أكبر مِمّا كانت عليه أيّة ثورة سياسية!».

وكان فالتر قد علاه الشحوب حتى شفتيه. هذا الفهم للفن على أنّه نفي للحياة على أنّه تناقض مع الحياة كان يكرهه. وكان هذا في نظره بوهيمية بقية من رغبة متقادمة في إغاظة «البورجوازي» وقد لاحظ في ذلك البديهيّة الساخرة القائلة إنّه لا يمكن أن يوجد بعدُ جمالٌ في العالم المكتمل لأنّه سيكون فائضاً عن الحاجة هناك. غير أنّه لم يسمع السؤال غير الصريح من صديقه. ذلك لأنّ أحادية الجانب فيما ادعاه كانت ظاهرة بجلاء عند أولريش أيضاً. وقد كان في وسعه أن يقول بالقدر ذاته من الصحة نقيض ذلك وهو أن الفن نفي لأنّ الفن هو الحبّ فهو حين يحبّ فإنّما يُجمّل وقد لا يوجد في العالم كلّه وسيلة أخرى لتجميل شيء أو مخلوق سوى أن يُحَبّ. ولما كان حبنا يتألّف من قِطَع أيضاً لهذا فحسب كان الجمال شيئاً كالتصعيد والتضاد ولا يوجد إلا بحر الحبّ حيث يكون تصوّر الكمال الذي ما عاد قادراً على التصعيد وكمال الجمال القائم على التصعيد شيئاً واحداً! وكانت أفكار أولريش قد لامست من جديد«الدولة» فأمسك على استياء. وكان فالتر قد استجمع نفسه في هذه الأثناء وبعد أن كان قد صرّح بأنّه تنويه صديقه بأن على المرء أن يعيش على وجه التقريب كما يقرأ على أنّه تنويه عادي أوّل الأمر ثم عدّه ادعاءً مستحيلاً انتقل الآن إلى إثبات أنّه ادعاء آثم ووضيع.

وبدأ بالطريقة ذاتها المتحفِّظة على نحو مفتعل كشأنه من قبل قائلاً: «لو أن إنساناً اتّخذ اقتراحك وحده أساساً لحياته لكان لا بدّ له أن يرحب بكلّ ما يثير في نفسه فكرة جميلة على وجه التقريب إذا ضربنا صفحاً عن الإمكانات الأخرى ـ بل سيكون عليه أن يرحِّب بكلّ ما يحمل في ذاته إمكانية فهمه على هذا النحو. وهذا خليق بالطبع أن يعني الخراب العام. ولكنَّ لما كان هذا

twitter @baghdad_library

الجانب لا يعنيك على الأرجح ـ أو ربّما كنت تفكّر في تلك التدابير الوقائية غير المضمونة التي لم تُدْلِ بشيء من التفاصيل عنها ـ فأنا أريد مجرّد بيان حول العواقب الشخصيّة. أما أنا فلا يبدو لي ذلك ممكناً على نحو آخر سوى أن يكون مثل هذا الإنسان عندئذ في كلّ الأحوال التي لا يكون فيها شاعرَ حياته على وجه التخصيص أسوأ حالاً في ذلك من الحيوان. فإذا لم يكن تخطر بباله فكرة فلن يخطر بباله قرار أيضاً وهو خليق أن يكون ببساطة في جزء كبير من الحياة أسيراً لغرائزه وأهوائه وللعواطف المألوفة في الدنيا بأسرها. وبعبارة موجزة لأكثر الأشياء على الإطلاق بعداً عن السمات الشخصيّة التي يتكوّن منها الإنسان مطلقاً. وسيكون عليه مادامت مناوأة التوجيه العلوي قائمة أن يظلّ على نحو ثابت يبيح لنفسه أن يفعل بنفسه ما يخطر بباله مباشرة!؟».

وأجابت كلاريسا بدلاً من أولريش قائلة: «سيكون عليه عندئذ أن يرفض أن يفعل شيئاً وهذه هي السلبية الفاعلة التي يجب على المرء أن يكون قادراً عليها في بعض الظروف!».

على أن فالتر لم تواتِه الشجاعة لينظر إليها إذ كانت القدرة على الرفض تلعب بينهما دوراً كبيراً. وكانت كلاريسا التي تُرى في قميص النوم الذي يغطّي القدمين مثل ملاك صغير تثب واقفة في السرير وهي ترتّل بأسنان تلتمع كالبرق كلاماً لنيتشه عن ظهر قلب «مثل المطمار[21] ألقي بسؤالي في نفسك! أنت تتمنى طفلاً وزواجاً غير أني أسألك ألأنت الإنسان الذي يحقّ له أن يتمنّى طفلاً؟ ألأنت المنتصر المهيمن على فضائلك؟ أم أن الحيوان والحاجة ينطقان بلسان...!؟» وكان هذا منظراً فظيعاً كلّ الفظاعة في الظلمة الجزئية في حجرة النوم بينما كان فالتر يحاول عبثاً أن يغريها بالعودة إلى الوسادة. وإذاً فقد كانت خليقة أن تعتمد في المستقبل على شعار جديد. فالسلبية الفاعلة

(٢١) شاقول البنّائين.

التي يجب على المرء أن يكون قادراً عليها إذا دعت الضرورة كانت تبدو منطبقة تماماً على الرجل بلا صفات. أتراها كانت تمحضه الثقة؟ أم كان يشدّ أزرها في النهاية في سماتها الخصوصيّة؟ كانت هذه الأسئلة تتلوّى كالديدان في صدر فالتر وقد أوشك أن يشعر بالغثيان واكفهرّ وجهه الآن وزال عن وجهه كلّ التوتر حتى كان يقطّب وجهه فاقد القوى.

ولاحظ أولريش ذلك وسأله باهتمام هل يعاني من شيء.

ونفى فالتر ذلك بجهد وأظهر بحزم وهو يبتسم أنّه لا يودّ إلا أن يصل بعبثه إلى نهايته.

وأقرّ أولريش قائلاً باستسلام: «لله درُّك! فما أنت بالمخطئ ولكنَّ ما أكثر ما كنّا نتسامح بنوع من الروح الرياضيّة في تصرّفات تلحق الضرر بنا نحن حين ينفذها الخصم بطريقة جميلة. وذلك أن قيمة التنفيذ تتنافس عندئذ مع قيمة الأذى. وفي كثير جداً من الأحيان يكون لدينا أيضاً فكرة نتصرف بموجبها متقدمين مسافة إلى الأمام ولكنَّ سرعان ما يحلّ محلها العادة والمثابرة والمنفعة والإيحاء. إذ لا تسير الأمور على نحو آخر وعلى هذا فربما وُصفَت حالة لا تعدّ قابلة للتنفيذ إلى النهاية بحال من الأحوال ولكنَّ شيئاً واحداً لا بدّ للمرء أن يسلّم لها به وهو أنّها على وجه الإطلاق الحالة التي نعيش فيها».

وكان فالتر قد استعاد طمأنينته وقال برقة: «عندما يعكس المرء الحقيقة يستطيع دائماً أن يقول شيئاً يعدّ صواباً مثلما يعدّ معكوسه بدون أن يخفي المرء أن المزيد من النزع ما عادت له قيمة بالنسبة إليه. «ويبدو أنّك خليق أن تقول عن شيء إنّه مستحيل ولكنّه واقعي».

غير أن كلاريسا كانت تحكّ أنفها حكاً شديداً وقالت: «أنا أجد هذا بالغ الأهميّة حقاً وهو أنَّ شيئاً مستحيلاً يكمن فينا جميعاً وهو يفسّر الكثير جداً من الأمور. لقد خرجت وأنا أستمع بانطباع مؤدّاه أنّه لو أمكن للمرء أن يشرّحنا

twitter @baghdad_library

لبدت حياتنا كلّها مثل حلقة مجرّد شيء دائري حول شيء ما». وكانت قد سحبت من قبل خاتم زواجها وجعلت تنظر الآن من خلال فتحته صوب الجدار المضاء. «أنا أقصد أنّه لا شيء في وسطه بلا ريب ومع ذلك فهو يبدو بدقَّة كما لو أن هذا هو ما يعوَّل عليه. على أن أولريش لا يستطيع أن يعبّر عن هذا أيضاً بمثل هذا الكمال!».

وهكذا انتهت هذه المناقشة مع الأسف بألم عند فالتر بلا ريب.

[٨٥]

سعي الجنرال شتوم إلى إدخال النظام على العقل المدني

كان يبدو أن أولريش قد لبث بعيداً عن البيت قدر ساعة أكثر مِمّا كان صرّح به عند الإنصراف. وحين عاد إلى البيت أُنبئ أن ضابطاً في انتظاره منذ وقت طويل وفاجأه أنّه لقي في الطابق العلوي الجنرال فون شتوم الذي حيّاه تحية الزمالة القديمة وصاح به هذا قائلاً: «صديقي العزيز يجب عليك أن تسامحني إذ أقتحم عليك منزلك في مثل هذه الساعة المتأخّرة غير أني لم أستطع أن أعود من العمل قبل هذا الوقت وقد لبثت فوق هذا جالساً منذ ساعتين هنا وسط مجموعة كتبك التي تعدّ رهيبة حقاً!». وقد تبيّن بعد تبادل بعض المجاملات أن شتوم قاده إلى هنا مطلب ملحّ وكان قد وضع ساقاً على الأخرى بنشاط الأمر الذي كلّفه بعض الجهد بالنظر إلى قامته ومدّ ذراعه ذات اليد الصغيرة وقال: «عاجل؟ لقد اعتدت أن أقول لمستشاريَّ عندما يأتونني بإضبارة عاجلة: لا يوجد شيء عاجل في الدنيا سوى الطريق إلى موضع معيَّن. ولكنَّ إذا تحدثنا بجد فإن ما يسوقني إليك فائق الأهميّة. لقد سبق أن قلت لك إنني أنظر إلى بيت ابنة عمك على أنّه فرصة خصوصيّة لي لكي أتعرّف على أهمّ المسائل المدنيّة في العالم. على أن هذا يعدّ آخر الأمر شيئاً غير رسمي وفي وسعي أن أؤكّد لك أنّه بهرني إلى حدّ هائل. غير أننا نعدّ من وجهة أخرى عسكريِّين. ومهما تكن لنا نقاط ضعفنا فنحن بعيدون بعداً شديداً عن أن نكون أغبياء إلى الحد الذي يُظَن بنا على وجه العموم. وأنا آمل أن تسلّم بأننا إذا عملنا شيئاً ذات مرّة عملناه على نحو أصولي وممتاز أتراك تسلّم

twitter @baghdad_library

بهذا؟ لقد كنت أنتظر هذا أيضاً وبعد ذلك أستطيع أن أتحدّث إليك بصراحة عندما أعترف لك على الرغم من ذلك بأنني أشعر بالخجل من فكرنا العسكري. أقول الخجل فأنا اليوم إلى جانب قسيس الميدان ذلك الرجل في الجيش الذي هو الأكثر علاقة بالفكر غير أنني أستطيع أنَّ أقول لك إنَّ فكرنا العسكري إذا نظر إليه بدقَّة فهو يبدو مهما يكن تفوقه مثل التقرير اليومي وآمل أن تكون ماتزال تعرف ما هو التقرير اليومي أيّ أنّه ليس بالصحيح إذ يكتب فيه ضابط التفقّد عدد الأنفار والخيل الحاضرة وعدد الأنفار والخيل الغائبة أو المريضة أو نحو ذلك وأن الرَمّاح لايْتوميشل تخلّف طوال هذا الوقت وهكذا دواليك. أما لماذا كان كذا من الأنفار والخيل حاضراً أو غائباً أو مريضاً وهكذا دواليك فهذا ما لا يدوّنه وهنا هو على وجه الخصوص ما يجب على المرء أن يعرفه دائماً عندما يتعامل مع السادة المدنيِّين. فحديث الجندي موجز بسيط موضوعي ولكنَّ كان عليّ في كثير جداً من الأحيان أن أجتمع بسادةٍ من الوزارات المدنيّة هنالك كانوا يسألون في كلّ مناسبة لماذا ينبغي أن يكون هذا الذي اقترحه وهم يعتمدون على اعتبارات وملابسات ذات طبيعة أعلى. غير أنني اقترحت ـ وسوف تعطيني كلمة الشرف على أن ما يدور بيننا الآن سيظلّ بيننا! ـ على الرئيس صاحب السعادة فروست أو بعبارة أصح: أنا أريد أن أفاجئه بذلك مفاجأة أكبر أن أنتهزّ الفرصة عند ابنة عمك لكي أتعرّف على هذه الاعتبارات والملابسات ذات الطبيعة الأعلى على نحو أصوليّ إذ جاز لي أن أقول ذلك بدون أن أكون غير متواضع وأقرّبَها إلى الفكر العسكري. وأخيراً فإنّ لدينا في الجيش أطباءَ وأطبّاء بيطريين وصيادلة ورجال دين ومحاضرين ومدراء مسرح ومهندسين وقادة فرق موسيقيّة. ولكنَّ مازال ينقصنا دائرة مركزية للفكر المدني».

ولاحظ أولريش الآن فحسب أن شتوم فون بوردفير كان قد جاء معه بحقيبة عمل وكانت تستند إلى قدمي طاولة الكتابة. وكانت واحدة من تلك الحقائب المتّخذة من جلد البقر التي تحمل على الكتفين بحزام قوي وتستعمل لنقل الأضبارات إلى مباني الوزارات ذات الطرق البعيدة وعبر الشوارع من دائرة رسميّة إلى أخرى. وكان يبدو أن الجنرال كان قد جاء معه خادم خاص كان ينتظر في الأسفل بدون أن يلاحظ ذلك أولريش. ذلك أن شتوم جرّ الحقيبة الثقيلة بشق النفس إلى ركبتيه وترك القفل الفولاذي الصغير يرتفع واثباً وقد ظهر ذا تقنية حربية إلى حدٍّ فائق. وقال وهو يبتسم بينما كان رداؤه الأزرق الفاتح يتوتّر لدى الإنحناء عند أزراره الذهبية: «لم أكن أتسكّع منذ أن أخذت أشهد مشروعكم. ولكنَّ هل تعرف أنَّ هناك أشياء تسبّب لي بعض الارتباك». والتقط بأصابعه من الحقيبة عدداً من الأوراق المفصلة التي تغطيها الكتابات والخطوط الغريبة وقال شارحاً: «ابنة عمك. لقد تحدَّثتُ في ذلك ذات مرّة مع ابنة عمك حديثاً مفصلاً وهي تودّ بطريقة معقولة أن تسفر الجهود الهادفة إلى إقامة نصب تذكاري فكري لمولانا الفائق السموّ عن فكرة تكون بمثابة الفكرة الأعلى مكانةً بين الأفكار التي تتوفّر لدينا اليوم غير أني لاحظت الآن على الرغم من أنّه يجب عليّ أن أعجب إعجاباً شديداً بكلّ هؤلاء الذين دعتهم إلى ذلك أنَّ هذا يسبّب صعوبات شيطانية. فإذا قال أحدهم شيئاً ادعى الآخر نقيضه ـ هل سبق أن لفت هذا نظرك أيضاً؟ ـ غير أن ما يبدو لي أنا على الأقل أكثر سوءاً بعدُ إلى حدٍّ بعيد: هو أن الفكر المدني يمثّل هذا الذي يطلق عليه في الخيل اسم الأكول الرديء. أتراك مازلت تذكّر؟ فمثل هذه البهيمة تستطيع أن تقدّم إليها التقنين المضاعف من العلف فلا تَسْمَن مع ذلك. وصحّ كلامه على أثر معارضة موجزة من سيِّد البيت قائلاً: «أو لنقل ولا مانع لديّ أن تقول إنّه يزداد بدانة مع كلّ يوم ولكنَّ عظامه لا تنمو كما أن فَرْوَه يظلّ بغير بريق ويظل ما يحصل عليه مجرّد كرش مملوءة بالعشب. فهذا ما يهمني كما تعلَّم

twitter @baghdad_library

وقد اعتزمت أن أعنى بهذه المسألة وهي لماذا لا يمكن أن يدخل المرء على ذلك نظاماً ما في الحقيقة».

وناول شتوم ملازمه السابق وهو يبتسم أولى الأوراق وقال شارحاً: «مهما يقلّ القائلون فينا فقد كنّا دائماً في الجيش نعرف النظام. وهذا هنا هو الإيداع لكلّ الأفكار الرئيسيّة التي حصلت عليها من المشتركين في الإجتماعات عند ابنة عمك. وأنت ترى أن كلّ واحد إذا سئل على انفراد كانت نظرته إلى ما هو أهمّ شيئاً مختلفاً في الحقيقة» وتأمل أولريش الورقة وهو مندهش. كانت على شاكلة استمارة استبيان أو كانت مقسمة على شاكلة الفهارس العسكرية إلى حقول عن طريق خطوط متصالبة وكانت تدويناتها تتألف من كلمات تقاوم مثل هذا التوجّه إلى حدٍّ ما إذ قرأ بخط جميل ديوانيّ أسماء يسوع المسيح وبوذا وجوتاما وكذلك السيِّد هارتا ولاؤوتسه ولوثر ـ مارتن وغوته ـ فولفجانج وجانجهوفر ـ لودفيج وتشمبرلين وكثيراً من الآخرين الذين كانوا يجدون تتمتهم في ورقة أخرى على ما يبدو ثم في عمود آخر كلمات: المسيحية الإمبريالية قرن التواصل الخ وهي كلمات كانت تتبعها حقول أخرى من الكلمات في أعمدة أخرى.

وقال شتوم شارحاً: «لقد كان في وسعي أيضاً أن أسمي هذا السجل العقاري للحضارة الحديثة ذلك لأننا وسّعنا هذا بعد ذلك وهو يتضمّن الآن أسماء الأفكار ومبتدعيها الذين بعثوا الحركة فينا في السنوات الخمس والعشرين الأخيرة ولم يكن لديّ تقدير للجهد الذي يقتضيه هذا!» ولما كان أولريش يريد أن يعرف كيف تمَّ إنجاز هذا الفهرس فقد سرّه أن يشرح العملية وفقاً لنظامه: «لقد استعملت في ذلك نقيباً وملازمَينْ وخمسة من ضباط الصف للفراغ من هذا في هذا الوقت القصير. ولو أتيح لنا أن نكون متَّسمين بالحداثة الكاملة لبعثنا إلى كلّ الكتائب بسؤال: «من تراه الإنسان الأعظم؟» مثلما

يفعلون هذا اليوم في الاستفتاءات العامة في الصحف وما شاكلها كما تعلّم وذلك في الوقت نفسه مع الأمر بالإبلاغ عن نتيجة الاستفتاء بالنسبة المئوية. ولكنَّ مثل هذا لا يصح في الجيش إذ لا يجوز لهيئة من هيئات القوات أن ترد على أسئلة إلا على أسئلة صاحب الجلالة. ثم أنني فكَّرت في استقصاء ماهية الكتاب الأكثر مطالعة وعلى قدر من الطبعات ولكنَّ سرعان ما تبيَّن أن هذا هو بعد الكتاب المقدَّس كتيِّب البريد الخاص بالعام الجديد المتضمن للتعريفات والنكات القديمة والذي يحصل عليه كلّ مرسل إليه لقاء أعطية لساعي البريد الأمر الذي لفت نظرنا من جديد إلى مقدار إشكالية الفكر المدني وذلك أن مِمّا لا ريب فيه أنَّ الكتب تعدّ بوجه عام أفضل ما يلائم كلّ قارئ أو يجب على الأقل كما قيل لي أن يكون لكاتب في ألمانيا عدد كبير جداً من المماثلين له فكراً لكي يعدَّ رجلاً غير عادي. أما كيف تمَّ عمل ذلك في نهاية الأمر فلا أستطيع أن أقوله لك في اللحظة الراهنة. كان هذا فكرة العريف كيرش بالاشتراك مع الملازم ميليشار. غير أننا أصبنا فيه نجاحاً».

ووضع الجنرال شتوم الورقة جانباً والتقط أخرى وعليه سيماء تنذر بخيبات أمل خطيرة. وكان قد قرّر بعد إجراء جرد للمخزون الفكري في أوروبا الوسطى مع أسفه لا مجرّد أنّه يتألّف من جملة من المتناقضات بل وجد أيضاً ما أثار دهشته وهو أنَّ هذه المتناقضات تأخذ في التداخل فيما بينها لدى إمعان النظر فيها. وقال: «أما أنَّ كلّ واحد يقول لي شيئاً مختلفاً عن المشاهير عند ابنة عمك عندما أرجو منه بياناً فذلك أمر تعوّدته ولكنَّ مسألة أنّه يبدو لي بعد أن تحدَّثت إليهم وقتاً طويلاً أنّهم سوف يقولون الشيء ذاته جميعاً على الرغم من ذلك هذه المسألة هي ما لا أستطيع أن أدركه بأية طريقة. وربّما كانت قلّة التوفيق عندي غير كافية لذلك ببساطة!».

twitter @baghdad_library

أما ما كان يبعث الخوف في عقل الجنرال شتوم بمثل هذه الطريقة فلم يكن بالأمر التافه وما كان ينبغي له في الحقيقة أن يظلّ أمره متروكاً لوزارة الحربية وحدها على الرغم من أنّه كان يمكن أن يتبيّن أنّه يرعى علاقات مثلى من أنواع شتى خاصة بالحرب. لقد أُهدِيَت إلى العصر الحاضر طائفةٌ من الأفكار الكبرى وأهديت مع كلّ فكرة بفضلٍ خصوصيّ من القَدَر في الوقت ذاته أيضاً فكَرتُها القابلة بحيث تجد الفردية والجماعة والقوميّة والعالمية والاشتراكية والرأسمالية والإمبريالية ونزع السلام والعقلانية والخرافة مكانها الطبيعي فيه على حد سواء. ويقترن بذلك بعدُ البقايا غير المستهلكة من تناقضات أخرى لا تحصى ذات قيمة معاصرة مساوية لها أو أقلّ منها. وهذا يبدو أنّه طبيعي جداً مثلما يوجد النهار والليل والحار والبارد والحب والكراهية. وكما يوجد مقابل كلّ عضلة قابضة في الجسم البشري العضلة الباسطة المعاكسة لها وما كان الجنرال شتوم ليخطر بباله شأنه في ذلك شأن أيّ امرئ آخر أن يلاحظ في ذلك شيئاً غير عادي لولا أن طموحه قد عصف به حبُّه لديوتيما في هذه المغامرة. ذلك لأنّ الحبّ لا يكتفي بأن تقوم وحدة الطبيعة على المتناقضات بل يريد في سعيه إلى الفكرة المرهفة وحدة بدون متناقضات وهكذا فقد حاول الجنرال بكلّ الطرق الممكنة أن ينشئ هذه الوحدة. وكان يحدِّث أولريش قائلاً وهو يشير في الوقت نفسه إلى الأوراق العائدة إلى ذلك: «إنَّ الإيعاز بوضع فهرس قادة الأفكار يعني أن هذا الفهرس يضم كلّ الأسماء التي قادت في الحقبة الأخيرة جيوشاً كبرى من الأفكار إلى النصر وهذه الأخرى هنا أمرٌ بالقتال وهذا هناك مخطَّط للزحف وهذا محاولة لتحديد المخازن أو أماكن السلاح التي يخرج منها المدد من الأفكار غير أنّك تلاحظ بلا ريب ـ وقد تركت هذا يبرز بوضوح في الرسم عندما تتأمل إحدى مجموعات الأفكار القائمة في معترك الصراع اليوم وأنّها لا تستمد مددها من المقاتلين ومن المادة الفكريّة من مخزنها الخاص بل تستمده أيضاً من مخزن

خصمها وأنت ترى أنّها تغيّر جبهتها على نحو مستمرّ وأنّها تقاتل فجأة وبغير سبب أبداً بجبهة معكوسة ضد ظهر جبهتها الخاصّة وأنت ترى حواليك في مكان آخر أن الأفكار تجري بغير انقطاع متنقِّلة جيئة وذهاباً بحيث تجدها في هذا المحور من محاور المعركة حيناً وفي الخطّ الآخر منها حيناً آخر وبعبارة موجزة فإنَّ المرء لا يستطيع أن ينشئ خطة نظامية بأسلوب مهذَّب ـ الأمر الذي لا أستطيع أن أصدِّقه من ناحية أخرى من جديد حقاً ـ هذا الذي سوف يسمّيه كلّ رئيس حكومة من إناث الخنازير». وترك شتوم بضعة عشرات من الأوراق تنزلق دفعة واحدة إلى يد أولريش وكانت تغطيها مخطّطات الزحف والخطوط الحديدية وشبكات الطرق ومخطّطات المدن ورموز القوات ومواقع القيادات والدوائر والمربعات والأماكن المظلَّلة. ومثلما يكون في اجتهاد محكم لهيئة الأركان العامة كانت خطوط حمر وخضر وصفر وزرق تتخلّلها وكان مرسوماً فيها رايات من أنواع ودلالات شتى كما قدّر لها أن تغدو شعبية جداً بعد ذلك بعام وتنهّد شتوم قائلاً: «كل هذا لا يجدي شيئاً! لقد بدّلت أسلوب العرض وحاولت أن أعالج القضيَّة من وجهة نظر الجغراية العسكرية بدلاً من الوجهة الاستراتيجية على أمل أن أكسب بهذه الطريقة مجالاً للعمليات مقسّماً تقسيماً ثابتاً على الأقلّ ولكنَّ هذا لم يجد أيضاً وها هي ذي محاولات التصوير القائمة على الجغرافية والجبال والمياه!». وكان أولريش يرى قمم الجبال معيَّنة وكانت تنطلق مها تشعّبات تعود فتحتشد في مكان آخر وينابيع وشبكات أنهار وبحيرات. وقال الجنرال وقد التمع في عينه الناطقة بحب الحياة ولم يكن لذلك الأصغر سناً بدٌّ من أن يضحك من هذا التصوير القوي ولكنَّ الجنرال رجاه قائلاً: «كلّا لا تضحك. لقد تصوَّرت الأمر كما يلي: لقد أصبحت أنت مدنياً لامعاً وأنت خليقٌ وأنت في مركزك أن تفهم القضيَّة غير أنّك سوف تفهمني أنا أيضاً. لقد جئت إليك لكي تساعدني وإنَّ احترامي لكلّ ما هو فكرٌ كبير إلى حدٍّ لا أستطيع عنده أن أصدق أنني على حق!».

twitter @baghdad_library

وواساه أولريش قائلاً: «أنت تحمل الفكر على محمل الجدّ أكثر مِمّا ينبغي يا سيِّدي المقدم وقال كلمة المقدم عن غير قصد واعتذر قائلاً: «لقد رددتني إلى الماضي ردّاً بالغ العذوبة يا جنرال شتوم إذ كنتَ في بعض الأحيان تأمرني بالتفلسف في ركن من أركان الكازينو غير أنني أكرر لك أنّه لا يجوز للمرء أن يحمل الفكر على محمل الجدّ إلى هذا الحد الذي تبلغه في هذه اللحظة».

وتنّهد شتوم قائلاً: «لا أحمله على محمل الجد؟! غير أني ما عدت أستطيع أن أعيش بدون نظام أعلى في رأسي! ألّا تفهم هذا؟ وإني لأرتعد عندما أتذكّر الوقت الطويل الذي عشته بدونه في ميدان التدريب وفي الثكنة بين نكات الضباط وحكايات النساء.

وجلسا إلى المائدة وكان أولريش متأثّراً بالخواطر الصبيانية التي عرضها الجنرال بجرأة الرجال عرضاً مفصّلاً ومن جرّاء الشباب الذي لا يتطرّق إليه الفساد والذي تضفيه الإقامة في الحاميات الصغيرة في الوقت المناسب. وكان قد دعا رفاق السنين الخوالي إلى أن يشاطروه عشاءه وكان الجنرال واقعاً إلى حدٍّ كبير تحت تأثير الرغبة في مشاطرته أسراره بحيث كان يلتقط كلّ قرص من القديد بالشوكة وهو منتبه ـ وقال وهو يرفع قدح الخمر: «إن ابنة عمك هي أكثر من أعرف من النساء جدارة بالإعجاب ويقال بحق إنّها ديوتيما ثانية وإني لم أرَ شيئاً بعدُ كهذا أبداً. أوَتعلَّم أنت لا تعرف زوجتي وليس لديّ ما أشكو منه حيالها بحال من الأحوال كما أننا رزقنا أطفالاً أيضاً. غير أن امرأة مثل ديوتيما هذه امرأة تعدّ شيئاً مختلفاً كلّ الاختلاف بلا ريب! وعندما يكون هناك حفل استقبال أقف أحياناً وراءها إنّها فيض باهر من الأنوثة! وهي في هذه الأثناء تتحدّث من الطرف الأمامي مع أيّ كان من المدنيين اللامعين في الوقت ذاته حديثاً يبلغ ما فيه من الثقافة أنني أرى تدوين الملاحظات أحبّ

الأمور إليّ! على أن رئيس القسم توتسي لا يدري على الإطلاق ما أتيح له فيها من المزايا وأستميحك العفو إذا كان هذا المدعو توتسي يحظى بتعاطفك على وجه الخصوص غير أني لا أستطيع أن أحتمله! إنّه يتسلل هنا وهناك مبتسماً كأنه لا تخفى عليه خافية وهو لا يريد أن يكشف لنا عن ذلك. على أنّه لا يحسن به أن يمثّل ذلك عليّ فمع كلّ تقديري للمدنيين يتبوّأ موظَّفو الحكومة المكانة الأدنى إذ أنَّ هؤلاء ليسوا شيئاً آخر سوى نوع من الجيش المدنيّ الذي ينازعنا الأولوية في كلّ مناسبة وهو يتّسم فوق ذلك بأدب قليل الحياء كالقطة حين تقعد على شجرة وهي ترمق كلباً وتابع شتوم ثرثرته قائلاً: «ولكن الدكتور آرنهايم ينتمي إلى طراز مختلف بهذا الصدد. وربّما كان مغروراً أيضاً غير أنّه لا بدّ للمرء أن يعترف بمثل هذا التفوّق». وكان من الواضح أنّه قد استعجل في الشراب بعد الكلام الكثير إذ بات مرتاحاً ومتَّسِماً بالألفة ومضى قائلاً: «لست أدري ما هذا ويبدو أنني لا أفهمه لأنّ الناس يتمتَّعون في هذه الأيام ذاتها بذهن بالغ التعقيد ولكنَّ على الرغم من أنني معجب بابنة عمك نفسها بلا ريب وكأنني ولا بدّ لي أن أتحدَّث هكذا على وجه الخصوص وكأنني أغصّ بلقمة مفرطة في الضخامة في حلقي! فإنَّ مِمّا يبعث على الإرتياح عندي أيضاً أنّها مغرمة بآرنهايم».

«كيف؟ أأنت متأكّد أنَّ بينهما شيئاً ما؟» وسأل أولريش هذا السؤال بشيء من الحرارة على الرغم من أنّه لم يكن من المفروض في هذا أن يعنيه من قريب في الحقيقة وحملق فيه شتوم بعينيه القصيرتي النظر المتكدِّرتين من الانفعال بعدُ على نحو يتّسم بسوء الظن ووضع نظارته الأنفية وردّ قائلاً بأسلوب الضبّاط ذي الصراحة العارية: «أنا لم أزعم أنّه نالها» ثم دسّ نظارته الأنفية وأضاف قائلاً بأسلوب بعيد عن السمة العسكرية تماماً: «غير أني ما كنت لأعترض على ذلك بشيء أيضاً وليأخذني الشيطان فقد سبق أن قلت لك

twitter @baghdad_library

إنَّ المرء يخرج في هذا المجتمع بذهن معقَّد ولا ريب أنني لست بالطويل اللسان ولكنَّ عندما أتصوَّر الرقة التي يمكن أن توليها ديوتيما لهذا الرجل أشعر عندئذ أنا أيضاً بألوان من الرقة بدلاً عنه والأمر على نقيضه عندي وكأن قبلاتي هي التي يمنحها لديوتيما».

«أوَيعطيها القبلات؟».

«وأنّى لي أن أعرف هذا فأنا لا أتجسَّس عليهما وإنما أتصوَّر الأمر على هذا النحو فحسب فأنا لا أفهم حتى نفسي. على أنني رأيت ذات مرّة كيف أمسك بيدها حين كانا يعتقدان ألّا أحد ينظر إليهما وإذا هما يلبثان برهة ساكنين وكأنّما صدر إيعاز يقول: «ركوعاً للصلاة ارفعوا الخوذات!». ثم أنّها رجت منه شيئاً بصوت خافت تماماً وأجابها عن ذلك بشيء فلاحظت الأمر من كليهما حرفياً إذ كان عسير الفهم جداً. وذلك أنّها قالت: «آه يا ليت المرء يعثر على الفكرة المنقذة!» وأجاب هو قائلاً: «ما من شيء يستطيع أن يأتينا بالخلاص إلا فكرة حبّ نقية لا ينتابها اليأس!» والظاهر أنّه أدرك هذا إدراكاً شخصيّاً إلى حدٍّ مفرط لأنَّها عَنَتْ بلا ريب الفكرة المخلصة التي تحتاج إليها من أجل مشروعها الكبير ـ: لماذا تضحك لا تكلِّف نفسك فأنا لي دائماً سماتي الخصوصيّة وقد صمّمت الآن على أن أساعدها! ولا بدّ أن يكون من الممكن عمل هذا وهناك كثير جداً من الأفكار ولا بدّ لواحدة أن تكون هي المخلصة في النهاية! ولكنَّ يجب عليك أن تساعدني فحسب!».

وكرّر أولريش قائلاً: «عزيزي الجنرال لا أستطيع إلا أن أقول لك مرّة أخرى إنك تحمل التفكير على محمل الجدّ أكثر مِمّا ينبغي ولكنَّ عندما كنت تعلّق قيمة على ذلك فأنا أستطيع أن أحاول أن أشرح لك كيف يفكِّر المدنيّ على قدر ما أستطيع». وكانا قد وصلا إلى السيجار وشرع قائلاً: «أنت أوّلاً في طريق خاطئ أيّها الجنرال فالفكر لا يُلتَمَس عند المدنيين كما أن الجندي

لا يلتمس عند العسكريِّين كما تعتقد بل الأمر على النقيض من ذلك بالضبط! ذلك لأنّ الفكر هو النظام وأين يوجد النظام أكثر مِمّا يوجد في الجيش؟ كلّ ياقات العنق تبلغ هناك من الإرتفاع أربعة سنتمترات وعدد الأزرار محدد بدقّة وحتى في الليالي الأكثر حُفولاً بالأحلام تنتصب الأسرّة عند الجدران في خط مستقيم كخيط البنّاء! وعلى هذا فالتشكيل القتالي للسَريّة في الخطّ المتقدِّم وحشد الكتيبة والوضع الصحيح لإبزيم حزام الرأس أمور تعدّ من المتاع الفكري ذي الأهميّة الرفيعة وإلا فليس هناك متاع فكري على الإطلاق!».

وغمغم الجنرال قائلاً في حذر: «هلّا استغفلتَ جدّتك!» وكان يرتاب هل ينبغي له ألّا يثق بأذنيه أم لا يثق بالخمر التي استمتع بها.

وأصرّ أولريش قائلاً: «أنت متعجّل فالعلم لا يكون ممكناً إلا حيث تتقرّر الحوادث أو يكون من الممكن التحكّم فيها حقاً وأين يمكن أن يوجد التكرار والتحكم أكثر مِمّا يوجد في الجيش؟ فحجر اللعب لن يكون حجر لعب لو لم يكن في الساعة التاسعة مربعاً مثلما يكون في السابعة. وقوانين مسارات الكواكب إنما هي نوع من أصول الرماية وما كان في وسعنا على الإطلاق أن نكوّن مفهوماً عن شيء ما أو نصدر عليه حكماً لو أنّ كلّ شيء كان يمرّ بنا مرّة واحدة مروراً عابراً. إنَّ ما يمكن أن يوصف به شيءٌ ما فيحمل اسمه لا بدّ له أن يكون قابلاً للتكرار وأن يكون متوفراً في كثير من النماذج ولو أنّك كنت لمّا تَرَ القمر بعدُ أبداً لكنت خليقاً أنْ تعدّد مصباح جيب. وثمة ملاحظة عارضة وهي أن الحرج العظيم الذي سبّبه الله للعلم إنما يكمن في أنّه لم يُرَ إلا مرّة واحدة وكان هذا عندما خلق العالم ولمّا يكن هناك بعدُ مراقبون مدرَّبون».

ولا بدّ للمرء أن يضع نفسه في موضع شتوم فون بوردفير. لقد كان كلّ شيء يُملى إملاءً منذ أيام الكلِّية الحربية من شكل القبعة حتى التصريح بالزواج وكان قليل الإحساس بالميل إلى أن يفتح فكره على أمثال هذه التفسيرات وردّ

twitter @baghdad_library

قائلاً بخبث: «صديقي العزيز فليكن هذا كلّه ولكنّه لا يعنيني في شيء في الحقيقة فأنت تقدّم نكاتٍ جيّدة تماماً عندما تقول إننا اخترعنا العلم في الجيش غير أنني لا أتحدَّث عن العلم بل عن الروح مثلما تقول ابنة عمك وهي تتحدَّث عن الروح وأنا أودّ عندئذ أكثر ما أودّ أن أتجرّد عارياً فما أقلّ ما يلائم هذا حِلّة عسكرية!».

ومضى أولريش لا يلوي على شيء قائلاً: «عزيزي شتوم إنَّ كثيراً جداً من الناس يأخذون على العلم أنّه خالٍ من الروح وأنّه آلي وأنّه يُحوّل إلى هذا أيضاً كلّ ما يتّصل به غير أن العجيب أنّهم لا يلاحظون أنَّ هناك في شؤون النفس رتابة أسوأ إلى حدٍّ بعيد مِمّا هي في شؤون العقل. فمتى يكون الشعور طبيعياً وبسيطاً حقاً؟ عندما يكون ظهوره ممكن التوقع عند كلّ البشر ذوي الوضع المتماثل آلياً تماماً! وكيف يستطيع المرء أن يطالب البشر جميعاً بالفضيلة ما لم يكن السلوك الفاضل هو ذلك الذي يمكن أن يكرِّره المرء كما يشاء؟! وقد كان في وسعي أن أسوق لك بعدُ كثيراً من الأمثلة الأخرى كهذه وعندما تهرب من هذه الرتابة الموحشة إلى أعمق أعماق كياننا حيث تجد الحركات غير الخاضعة للرقابة موطنها هناك في هذا العمق النديّ من أعماق المخلوق ذلك العمق الذي يحمينا من التبخر بالعقل ماذا تجد؟ إثاراتٍ ومساراتٍ انعكاسية وترسّخاً للعادات والمهارات وتكراراً وترسخاً وانصقالاً وتسلسلاً ورتابة! وهذه حلّة عسكرية وثكنة وانضباط يا عزيزي شتوم. وهناك قرابة تلفَّت النظر بين الروح المدنيّة والجيش. وربّما كان في وسع المرء أن يقول إنّها تتشبث بهذا النموذج الذي لا تبلغه كاملاً أبداً حيثما استطعت ذلك وحيثما لا يكون هذا ممكناً بالنسبة إليها تكون مثل طفل ترك وحده. ولتأخذ مثالاً على ذلك جمال امرأة فحسب: إنَّ ما يفاجئك في صورة الجمال ويتمكّن منك أن تعتقد أنّك تبصره أوّل مرّة في حياتك إنما كنت تعرفه في قرارة نفسك

منذ عهد بعيد وتبحث عنه وقد كان بريقٌ أولي منه ماثلاً دائماً في عينيك وهو يكتسب الآن مجرّد سطوعه الكامل المماثل لسطوع النهار وفي مقابل ذلك عندما يتّصل الأمر حقاً بحبّ من النظرة الأولى أيّ بجمال لم تشعر به من قبل أبداً فأنت لا تعرف ببساطة ما ينبغي لك أن تصنع تلقاءه إذ لم يسبق هذا شيء مماثل وأنت لا تعرف لذلك اسماً وليس لديك من شعور جواباً على ذلك وإنما أنت ببساطة مشوَّش تشويشاً لا حدّ له مبهور النظرة قد نُقِلتَ إلى دهشة عمياء إلى تبلّد للحس مثل تبلّد المأفونين يبدو أنّه قلّما يمت إلى السعادة بسبب ـ».

وهنا قاطع الجنرال صديقه بحرارة وكان حتى الآن يصغي إليه بمرانٍ يكتسبه المرء في ميدان التدريب من جرّاء توبيخ رؤسائه وتعليماتهم التي يضطر المرء في حالة الضرورة إلى التمكّن من تكرارها ولا يجوز له مع ذلك أن يستوعبها في صدره لأنّ المرء لا يستطيع بالقدر ذاته أن يعود إلى البيت راكباً على قنفذ غير أنَّ أولريش كان قد أصابه الآن وصاح قائلاً بعنف: «شرف الحقيقة! هذا ما تصفه وصفاً صحيحاً إلى حدٍّ فائق أما أنا فعندما أستغرق كلّ الاستغراق في الأعجاب بابنة عمك يذوب كلّ شيء في نفسي متحوّلاً إلى لاشيء وعندما أستجمع قواي بشقّ النفس لكي تخطر ببالي آخر الأمر فكرة أستطيع أن أفيدها بها ينشأ على النحو ذاته فراغ لديّ مزعج إلى أقصى الحدود. ولا ريب أنّه لا يجوز للمرء أن يسمّيه مأفوناً ولكنَّ ما من شكّ في أنّه شديد الشبه بذلك. وإذاً فأنت ترى إذا فهمتُ عنك حقّ الفهم أن تفكيرنا نحن العسكريّين تفكير سليم تماماً. أما أنَّ العقل المدني ـ ويجب عليّ بناء على ذلك أن أرفض وجوب أن تكون نموذجاً له فلا ريب أن هذه مجرّد نكتة منك! ـ ولكنَّ كوننا نتمتّع بعقل مماثل أمر أتصوَّره أيضاً في بعض الأحيان وأما ما يتجاوز ذلك فيما ترى كلّ الأشياء التي تبدو لنا نحن العسكريّين مدنيّة إلى حدٍّ

twitter @baghdad_library

غير عادي كالروح والفضيلة وحرارة العاطفة والنفس ـ والسيِّد آرنهايم يستطيع أن يعالج هذه الأمور بطلاقة لا تصدِّق غير أنّك ترى أن هذا فكره أجلّ بالطبع فأنت تقول حقاً إنَّ هذا يمثِّل على وجه الخصوص ما يسمّى بهذه الاعتبارات ذات الطبيعة الأسمى. غير أنّك تقول كذلك إنَّ المرء يغدو من جراء ذلك مخبولاً كلّ الخبل وهذا صحيح كلّه إلى حدٍّ فائق ولا ريب أنّك لا تريد أن تجادل في هذا والآنَ أسألك كيف يصحّ هذا يا ترى!».

«لقد قلت من قبل أوّلاً وقد نسيت هذا لقد قلت أوّلاً إنَّ الفكر في الجيش يجد نفسه في موطنه وأقول الآن ثانياً إنَّ الجسدي عند المدني ـ».

وقال شتوم ثائراً في سوء ظن: «ولكن هذا غير معقول بلا ريب فقد كان التفوّق الجسدي عند العسكريِّين عقيدة على نحو مماثل بالضبط للقناعة المتمثِّلة في أن طبقة الضباط هي أقرب الطبقات إلى العرش وإذا كان شتوم لم ينظر إلى نفسه أيضاً على أنّه ذو قوّة جسدية فقد ظهر في اللحظة التي بدا فيها أن هذا موضع شك اليقينُ المتمثِّل في أن البطن المدني لا بدّ أن يكون مع توفّر مماثل للأشياء الأخرى أكثر ضعفاً من بعض الوجوده من بطنه.

ودافع أولريش عن نفسه قائلاً: «ما هذا بأكثر عبثية ولا أقلّ من كلّ شيء آخر ولكنَّ يجب عليك أن تدعني أكمل حديثي. ألّا ترى لقد انقضى نحو مائة عام منذ كانت الأدمغة الرئيسيّة في المدنيِّين الألمان تعتقد أن المواطن المفكِّر سوف يستخرج قوانين العالم من رأسه وهو جالس إلى منصة كتابته مثلما يستطيع المرء أن يبرهن على نظريات المثلثّات. وكان المفكِّر في تلك الأيام رجلاً في نانكينجهوزن كان يرمي شعره عن جبينه ولم يكن يعرف بعد مصباح الكاز فضلاً عن أن يعرف الكهرباء أو أن يعرف الفونوغراف ومنذ ذلك الوقت تمَّ إخراج هذا التعاظم من نفوسنا إخراجاً كاملاً وقد تعرّفنا في هذه الأعوام المائة على أنفسنا وعلى الطبيعة وعلى كلّ شيء بصورة أفضل إلى حدٍّ بعيد

جداً ولكنَّ النجاح يتمثَّل إنَّ صح التعبير في أنَّ كلّ ما يكسب المرء من النظام من الوجهة الفردية يعود فيخسره على المستوى الشمولي بحيث يزداد ما لدينا من الأنظمة على نحو مطّرد ويقلّ ما لدينا من النظام على نحو مطرِّد».

وقال شتوم مؤيِّداً: «هذا يتطابق مع أبحاثي».

ومضى أولريش قائلاً: «إلا أن الناس ليسوا متحمِّسين مثلك للبحث عن تلخيص. لقد دخلنا بعد الجهود الماضية في حقبة من الانكفاء. هلّا تصوَّرت فحسب كيف يحدث هذا اليوم: عندما يخرج رجلٌ له شأنه فكرةً إلى العالم سرعان ما تتعرّض لعملية تقسيم تتألف من إقبال وإعراض. ففي البداية ينتزع المعجبون قطعاً كبيراً منها على النحو الذي يلائمهم ويشوِّهون أستاذهم مثلما تفعل الثعالب بالجيفة ثم يقوم الخصوم بإبادة المواضع الضعيفة وبعد وقت قصير لا يتبقّى من العمل إلا مخزون من الأقوال المأثورة يستخدمه الصديق والعدو على النحو الذي يلائمهم وتكون النتيجة التباساً عاماً فليس هناك كلمة نعم لا ترتبط بها كلمة لا وأنت تستطيع أن تفعل ما تشاء فتجد عشرين من أجمل الأفكار التي تؤيِّد وعندما تشاء تجد عشرين من الأفكار التي تعارض. ويكاد المرء يعتقد أن المسألة مماثلة لما يكون في الحبّ والكراهية ومع الجوع حيث لا بدّ أن يتباين الذوق لكي يصل إلى ما يعود إليه».

وصاح شتوم وقد تحقّق الظَفَرُ به من جديد: «لقد سبق أن قلتُ أنا شيئاً مماثلاً لهذا لديوتيما! ولكنَّ ألّا ترى أن المرء يجد في هذه الفوضى التبرير للعسكريِّين وإني لأخجل حقاً من الاعتقاد بذلك مجرّد لحظة واحدة!».

وقال أولريش: «أما أنا فخليق أن أنصح لك أن تنبّه ديوتيما إلى أن الله يبدو أنّه يبعث لأسباب ماتزال مجهولة لدينا عصراً من عصور التربية البدنية. ذلك لأنّ الشيء الوحيد الذي يعطيها مستنداً ما هو الجسد الذي تنتمي إليه

twitter @baghdad_library

وبذلك تكون خليقاً فوق ذلك أن تحظى بأسبقية معيَّنة من حيث كونك جنرالاً».

وتراجع الجنرال القصير البدين مبتدعاً وقال بعد هنيهة بارتياح مرير: «أما فيما يتّصل بالتربية البدنية فأنا لست أجمل من درّاقة مقشّرة». وأضاف قائلاً: «ويجب أن أقول لك أيضاً إنني لا أفكّر في ديوتيما إلا بطريقة لائقة وأرغب أن أظل على مثل هذا الأسلوب أمامها».

وقال أولريش: «من المؤسف أن رغبتك كانت جديرة برجل مثل نابليون غير أنّك لن تعثر على قرن ملائم!».

واحتمل الجنرال السخرية مع التقدير الذي أضفته عليه فكرة المعاناة من أجل سيّدة قلبه. وقال بعد شيء من التفكير: «أنا أشكر لك نصائحك الهامّة على أيّة حال».

[٨٦]

تاجر الملك واختلاط المصالح بين الروح والتجارة وكذلك: كلّ الطرق إلى الفكر تنطلق من الروح ولكن ما من أحدٍ منها يعود به إليها

وفي هذا الوقت الذي كان فيه حبّ الجنرال يتراجع أمام إعجابه بديوتيما وآرنهايم كان آرنهايم خليقاً أن يضطر منذ عهد بعيد إلى اتخاذ قرار بأن لا يعود أبداً. وبدلاً من ذلك كان يتأهّب لإقامة طويلة فاحتفظ بالحجرات التي كان يسكنها احتفاظاً دائماً وكانت حياته الحافلة بالحركة تحدّث انطباعاً بالسكون.

وكان العالم يتعرّض في تلك الأيام لهزّات شتى. وكان من يملك معلومات حسنة حوالي نهاية العام ١٩١٣ يخرج بصورة لبركان يغلي وإن كان ثمة إيحاء عام ينبعث من العمل السلمي ومؤدّاه أنَّ هذا لا يمكن أن يعود إلى الإنفجار أبداً. ولم يكن هذا الإيحاء متساويَ القوّة بوجه عام وكانت نوافذ القصر القديم في ميدان بالهاوس حيث كان يعمل رئيس القسم توتسي كثيراً ما تظلّ تقذف بضوئها حتى ساعة متأخِّرة من المساء في الأشجار العارية في الحديقة المقابلة. وكان المتجوّلون المثقّفون إذا مرّوا في الليل انتابتهم الرعدة. ذلك لأنّه مثلما كان القديس يوسف متغلغلاً في يوسف النجار العادي كان اسم ميدان بالهاوس متغلغلاً في القصر القائم هناك بسرٍ ما يتمثّل في أنّه أحد المطابخ الستّة التي كان يتمّ فيها وراء النوافذ ذات الستائر المسدلة تحضير مصير البشريّة. وكان الدكتور آرنهايم على إطّلاع حسن جداً على هذه الأحداث. وكان يتلقّى برقيات بالشيفرة ويحظى من وقت إلى آخر بزيارةٍ من

twitter @baghdad_library

أحد موظّفيه الذي كان يأتي من المركز بمعلومات شخصيّة وكانت نوافذ مسكنه الفندقي مضاءة في كثير من الأحيان في مقدّمتها. وكان من الممكن للملاحظ القويّ الخيال أن يعتقد أن حكومة معارضة ثانية هنا تبيت هنا مؤسسة قتالية حديثة تنذر بالخراب من المؤسّسات الدبلوماسية الإقتصادية. على أن آرنهايم لم يكن يقصّر آخر الأمر في إحداث مثل هذا الإنطباع بنفسه. ذلك لأنّ الإنسان لا يكون بدون إيحاءات المظهر إلا ثمرة حلوة غزيرة العصارة بدون قشرة. فحتى في الإفطار الذي كان لهذا السبب لا يتناوله وحده بل في ذلك المكان من الفندق الذي كان الوصول إليه متاحاً للناس جميعاً. كان يعطي التعليمات اليوميّة وهو على ما هو عليه من التمرّس الحكومي للحاكم الخبير ومن الموقف الهادئ المهذّب للرجل الذي يعرف أنّه مراقَب لأمين سره الذي يدوّنها بالاختزال ولم تكن واحدة منهن لتكفي لإدخال السرور على نفس آرنهايم. ولكنّ في الوقت الذي كانت فيه تحتل مكانها في وعيه لا فيما بينها فحسب بل كانت تتعرّض للتحديد في هذا الصدد من جرّاء الأمور الجذابة في الإفطار وكان يحلّق في الأعالي ويبدو أنّ الموهبة الإنسانية تحتاج - وكانت هذه إحدى أفكاره المفضّلة - إلى تضييق معيَّن على وجه الإطلاق لكي تستطيع أن تتطوّر. أما الشريط المثمر حقاً والواقع بين الحريّة الطاغية للأفكار والهرب الجبان للأفكار فهو كما يعرف كلّ خبير بالحياة ضيّق إلى حدٍّ فائق. غير أنّه كان فضلاً عن ذلك يُعَدّ أيضاً مستيقناً أن المسألة تقوم إلى حدٍّ بعيد على مَنْ يمتلك الفكرة. ذلك لأنّ من المعروف أنَّ الأفكار الجديدة والهامّة يندر أن يكون لها مكتشف وحيد. ومن الناحية الأخرى فإنَّ دماغ الإنسان المعتاد على التفكير لا يتوقّف عن إخراج الأفكار ذات القيمة المتباينة. ومن أجل ذلك فلا بدّ للخواطر أن تحصل على خاتمتها أيّ الصيغة الفعّالة من الخارج دائماً لا من التفكير فحسب بل من مجمل ظروف الشخصيّة. فكان سؤالٌ من أمين السر أو نظرة إلى طاولة مجاورة أو التحية من أحد الداخلين

كان أيّ شيء من هذا القبيل يذكر آرنهايم كلّ مرّة في اللحظة المناسبة بضرورة أن يجعل من نفسه ظاهرة مؤثّرة وكانت وحدة المظهر هذه تنتقل أيضاً على التوالي إلى تفكيره وكان قد صاغ هذه الخبرة في الحياة في القناعة الملائمة لحاجاته وهي أنّه لا بدّ للإنسان المفكِّر أن يكون دائماً وفي الوقت نفسه أيضاً من أهل التصرّف والسلوك.

غير أنّه لم يكن على الرغم من مثل هذه القناعة يعلّق أهمّية كبيرة جداً على نشاطه في اللحظة الراهنة. وعلى الرغم من أنّه كان يتابع به هدفاً كان يمكن أن يكون مجزأً على نحو مفاجئ في ظروف معيَّنة فقد كان يخشى أن يقدِّم من أجل إقامته تضحياتٍ من الوقت لا يمكن تبريرها وكان يستحضر مراراً إلى ذاكرته الحكمة القديمة الباردة: «فرّق تَسُد». وهي تنطبق على كلّ احتكاك مع البشر والأشياء وتقتضي تجريداً معيَّناً من القيمة لكلّ علاقة منفردة عن طريق مجموع العلاقات. ذلك لأنّ سرّ الحالة النفسية التي يريد المرء أن يتصرّف فيها بنجاح مماثل لسر الرجل الذي تحبّه نساء كثيرات وهو لا يفضّل واحدة على سبيل الحصر ومع ذلك فقد كان هذا لا يجدي. لقد كانت ذاكرته تصوّر له المطالب التي يفرضها العالم على رجل ولد لعمل عظيم غير أنّه لم يكن يستطيع على الرغم من ذلك وبعد مساءلة متكرِّرة من وجوه عديدة لضميره أو يوصد على نفسه الباب إلى النتيجة القائلة إنّه يحبّ وقد كان هذا سؤالاً غريباً لأنّ القلب الذي يناهز الخمسين من العمر إنما هو عضلة متصلّبة ما عادت قادرة على أن تتمدّد بمثل بساطة العضلة عند إبن العشرين حولاً في أيام ازدهار الحبّ وكان هذا يسبِّب له منغّصات ليست باليسيرة.

وقد قرّر أوّل الأمر وهو مهموم أنَّ مصالحه المنتشرة في العالم كانت تذوي كزهرة محرومة من الجذور وكانت انطباعات الحياة اليوميّة غير ذات الشأن التي تصل إلى عصفور على النافذة أو إلى ابتسامة ودِّية من خادم مطعم

twitter @baghdad_library

هي التي تزدهر على وجه الخصوص. أما مفاهيمه الأخلاقية التي كانت في العادة تمثّل نسقاً كبيراً من الصَوابيّة لم يكن يفلت منه شيء فقد لاحظ عليها أنّها كانت تزداد فقراً في مدى العلاقات وكانت في مقابل ذلك تجنح إلى شيء من الجسديّة وكان في وسع المرء أن يسمِّي هذا تفانياً غير أن هذا كان في الوقت ذاته كلمة كان لها في العادة معنى آخر أوسع كثيراً على أنّه معنى مختلف أيضاً على أيّة حال إذ لم يكن من الممكن الاستغناء عنه في أيّ مكان إذا كان التفاني في واجب أو في شيء أسمى أو من أجل قائد وحتى في الحياة نفسها في غناها وفي تعدد جوانبها ذلك التفاني الذي يفهم في العادة على أنّه فضيلة رجولية يعدّ عنده جوهر السلوك القويم الذي كان من كلّ سعة الأفق يتضمّن من التحفظ أكثر مِمّا يتضمّن من البذل. وكان من الممكن أن يقال الشيء ذاته عن الإخلاص الذي يكون له إذا ما اقتصر على امرأة مذاقٌ هامشيّ محدود وعلى الشهامة والحُلُم والإيثار ورقة الإحساس وكل الفضائل التي يتمّ تصوّرها في العادة حقاً مقترنة بالمرأة غير أنّها تفقد في هذا الصدد أفضل ما فيها من الغنى بحيث يصعب أن يقال هل تصبّ معاناة الحبّ فيها وحدها مثلما ينصبّ الماء في الموضع الأكثر عمقاً في الموضع الذي لا يكون في العادة خالياً من العلل أم أنَّ معاناة حبّ المرأة هو الموضع البركاني الذي يعيش على حرارته كلّ ما يزدهر على سطح الأرض لذلك فإن الدرجة العالية جداً من الغرور الرجولي يمكن أن يلمسها المرء في مجتمع الرجال على نحو أكثر يقيناً منها في مجتمع النساء وعندما كان آرنهايم يقارن غناه بالأفكار ذلك الغنى المحمول إلى أجواء السلطان بحالة السعادة التي تحدّث عن طريق ديوتيما لم يكن يستطيع على الإطلاق أن يقاوم تأثير حركة تراجعية كانت قد انتابته وكان يحسّ في بعض الأحيان بالحاجة إلى ألوان العناق والى القبلات مثل غلام يخرّ على قدمَيّ الممتنع إذا لم تتحقّق رغبته بحرارة أو كان يضبط نفسه متلبِّساً بالرغبة في أن يجهش بالبكاء وأن تندّ عنه كلمات كان يفترض فيها أن تتحدى

العالم بل أن تخطف المحبوبة آخر الأمر فتسوقها إلى يديه. على أن من المعروف بلا ريب أن الحافة الخالية من المسؤولية في الشخصيّة الواعية تلك الحافة التي تأتي منها الأساطير والقصائد هذه الحافة تجد فيها الذكريات الطفولية المتنوّعة موطنها فيها وتغدو مرئيّة عندما ينشر السكر الخفيف الناجم عن الإرهاق ولَعِب الكحول المطلق العنان أو أيَّة هزّة النور في أرجاء هذه الأماكن. وكذلك فإنَّ نوبات آرنهايم أكثر جسديةً من أمثال هذه الأنماط حتى أنّه لم يكن لديه سبب لأنّ يثور عليها (ويزيد بمثل هذا الانفعال الانفعال الأصلي قوةً إلى حدٍّ بالغ) إذا ما أكدّت له هذه الارتكاسات الطفولية تأكيداً ملحاً أن حياته النفسية كانت حافلة بالمستحضرات الأخلاقية الباهتة. وكانت العالمية التي كان يطمح دائماً إلى إضفائها على تصرّفاته من حيث كونه إنساناً يعيش أمام أنظار أوروبا كلّها تتجلى له دفعة واحدة في صورة شيء يتَّسم بالخواء. وربّما كان هذا لا يعدو أن يكون طبيعياً إذا افترض سريانه على الناس جميعاً غير أن الغرابة كانت تتمثل في قلْبِ هذه الخاتمة الأمر الذي كان يلحّ كذلك على آرنهايم ذلك لأنّ العالميّ حين يكون خاوياً يكون الإنسان الداخلي بصورة معكوسة هو الذي فقد صحته. وهكذا كان آرنهايم لا يلاحقه الآن حيثما كان ضر وبهذه الطريقة كان يتذكَّر طفولته بتسلسل طبيعي. كانت له في صور صباه عينان كبيرتان سوداوان مستديرتان مثلما يرسمون يسوع الفتى حين كان يجادل علماء الكتاب المقدَّس في الهيكل. وكان يرى كلّ المربّيات والمربّين يقفون مجتمعين في دائرة حوله ويعجبون من مواهبه الفكريّة إذ كان طفلاً ذكياً وكان له مربّون أذكياء دائماً. على أنّه أثبت أيضاً أنّه طفل متوقّد مفعم بالأحاسيس لم يكن يستطيع أن يحتمل ضيماً. ولما كان هو ذاته يتمتَّع بحماية أكبر من أن ينتابه معها شيء من ذلك فقد كان يهتمّ في طريقه بالظلم الذي يلحق بالغرباء وكان يزجّ بنفسه من أجلهم في معارك وكان هذا عملاً له شأنه الكبير إذا ما أُدْخِل في الحسبان مقدار ما كان يتعرّض له من العوائق حتى

twitter @baghdad_library

أنّه لم يكن ينقضي أبداً أكثر من دقيقة بدون أن يندفع إليه أحد ليفصله عن خصمه. ولما كانت أمثال هذه المعارك تستغرق بهذه الطريقة وقتاً طويلاً بما يكفي على وجه الخصوص لتحصيل هذه المعاناة المؤلمة أو تلك ولكنّها كانت تتعرّض للمقاطعة في وقت ملائم بما يكفي لكي تخلّف لديه الإنطباع الخاص بالشجاعة التي لا تلين لها قناة فقد كان آرنهايم لايزال يعود إليها في ذهنه متفهّماً لها وقد انتقلت سجيّة السيّد ذي الشجاعة التي لا تُهاب شيئاً إلى كتبه ومبادئه فيما بعد على النحو الذي يحتاجه الإنسان الذي ينبغي له أن يقول لمعاصريه كيف يجب أن يكون سلوكهم لكي يحظوا بالكرامة والسعادة.

وإذاً فقد ظلّت حالة طفولته هذه حيةً عنده بصورة نسبية. ولكنَّ حالةً أخرى كانت قد توقّفت بعد بعض الوقت وكانت بمثابة الإستمرّار التحويلي بصورة جزئية كانت تتجلّى للمتأمّل كأنّما ذهب بها النوم أو تحجّرت على الأصح إذا جاز أن تُفهم في هذا الصدد. وكانت هذه هي حالة الحبّ الباعثة على الفزع والتي انبعثت الآن إلى حياة جديدة من خلال الاحتكاك بديوتيما وكان الأمر المميّز أنَّ آرنهايم كان قد تعرّف على هذه الحالة في أيام فتوّته في الأصل بدون نساءٍ تماماً وبدون شخصيّات معيَّنة على الإطلاق. وقد كان في هذا شيء يبعث على الحيرة ثم لم يتخلّص منه طوال حياته على الرغم من أنّه عرف على مرّ الزمن أحدث التفسيرات له. «وربما كان ما كان يقصد إليه مجرّد هذا الذي وصل على نحو غير مفهوم من شيء مازال غائباً مثل تلك التعبيرات النادرة في الوجوه التي لم تكن تمتّ إلى الإطلاق بصلة إلى هذه بل كانت تمتّ بصلة إلى أيّة وجوه أخرى يجري التكهّن بها فجأة وراء كلّ ما تَمَّتْ رؤيته وكانت ألحاناً صغيرة في غمرة ألوانٍ من الصخب مشاعر في البشر بل كان ينطوي على مشاعر لم تكن حين تلتمسها كلماتُه بالمشاعر على وجه الإطلاق بل كانت كما لو أن شيئاً استطال فيه وقد انغمست في مقدَّمته المدبّبة باعثة

على البلل مثلما تستطيع الأشياء أحياناً في أيام الربيع ذات الضوء الساطع المحموم عندما تزحف ظلالها خارجة عليها وتقف ساكنة ومتحرِّكة في اتجاه ما كالصور المنعكسة في الجدول». كذلك كان قد عبّر عن هذا بعد وقت طويل بالطبع وبنبرة مختلفة، أديب مختلف أديب كان آرنهايم يقدّره إذ كان يعدّ من علائم سعة الإطّلاع أن يكون المرء على معرِّفة بهذا الرجل المنطوي على الأسرار والمحجوب عن وجه الجمهور بدون أن يفهمه هو نفسه آخر الأمر إذ كان آرنهايم يربط أمثال هذه التأويلات بأحاديث عن انبعاث روح جديدة على نحو ما كان شائعاً في أيام صباه أو بأجساد الفتيات النحيلات الطويلات اللواتي كان الناس يحبّونهن مصوَّرات في تلك الأيام وكان يميّزهن بزوج من الشفاه كان يبدو مثل كأس زهرة مكتنز.

وفي تلك الأيام وكان هذا حوالي العام ١٨٨٧ ـ «يا إلهي ـ أيّ قبل جيل من البشر تقريباً» كما كان آرنهايم يقول في نفسه ـ كانت صوره الضوئية تظهر إنساناً حديثاً «جديداً» كما كانوا يقولون في تلك الأيام أيّ أنّه كان يرتدي في هذه الصور صديرياً من الأطلس الأسود مغلّقاً من الأعلى ورباط ياقة عريض من الحرير الأسود كان يرتبط بزيّ العصر الفكتوريّ عصر الاستقامة غير أنّه كان يُقصَد به إلى التذكير ببودلير الأمر الذي كان يدعمه زهرة أوركيد كانت مغروسة في عروة ممثلةً اختراعاً جديداً ينطوي على مغزى سحري خبيث حين كان على آرنهايم الإبن أن يذهب إلى المائدة ويكرّس شخصه الضئيل في وسط جمع من التجار الأقوياء وأصدقاء والده. أما في أيام العمل فكان ما يبعث على السرور أن تظهر الصور قضيب القياس خلية كانت تطلّ من حلّة العمل إنجليزيّة لدنة كان يلبس فوقها بطريقة مضحكة حقاً ولكنّها كانت تعلي من شأن الرأس ياقةٌ عالية مقفلة مقوّاة هكذا كان آرنهايم يبدو وكان مايزال حتى اليوم لا يقدِّر على أن يحرم صورته قدراً معيَّناً من اللطف. وكان يتقن لعب التنس

twitter @baghdad_library

بحماسة كانت غير مألوفة بعد وكان التنس يمارس في تلك الأيام الأولى في ملاعب معشوشبة. وكان مِمّا يبعث على دهشة والده أنّه كان يحضر على مرأى من الناس جميعاً مؤتمرات العمّال إذ كان قد تعرّف خلال عام دراسي في زوريخ على الأفكار الاشتراكية بصورة تبعث على الصدمة. على أنّه لم يكن يتردّد أيضاً في أن ينطلق في يوم آخر بجواده لا يلوي على شيء في أرجاء قرية من قرى العمّال. وجملة القول إنَّ هذا كلّه كان دوامة من العناصر الفكريّة الحافلة بالتناقض والجديدة مع ذلك والتي بعثها التصوّر الساحر ومؤداه أن المرء ولد في العصر المناسب الذي يُعَدّ بالغ الأهميّة وإن أدرك الناس فيما بعد بالطبع أن قيمته لا تكمن في ندرته على وجه الخصوص بل أن آرنهايم الذي كن يفسح مجالاً مطّرد الزيادة للمعارف المحافظة كان يخالجه الشك في أن يكون هذا الشعور المتجدد على الدوام بأنّه آخر القادمين لا يمثّل تبذيراً من قبل الطبيعة ومع ذلك فلم يضجّ بنفسه إذ لم يكن يضحي بما ملكه ذات مرّة على الإطلاق إلا أنّه كان يبدو له اليوم على الرغم من كلّ ما كان يتجلّى في حياته من الاكتمال وتعدّد الجوانب أنَّ شيئاً واحداً فيها من بين كلّ هذه الأشياء قد أحدث فيه أثراً لاحقاً بصورة مختلفة كلّ الاختلاف وهو الذي كان يبدو له أوّل الأمر أنّه الأكثر مجانبة للواقع بينها جميعاً: ألّا وهو تلك الحالة المنطوية على الاستشعار الرومانسي بالمستقبل والتي كانت قد أوحت إليه ألّا ينتمي إلى العالم الحافل بحركة الحياة فحسب بل إلى عالم آخر أيضاً كان يسبح فيه مثل نَفَس محتبس.

وكان هذا الاستشعار المستقبلي الحماسي الذي عاد حاضراً فيه من جراء ديوتيما بكلّ أصالته يفرض على كلّ عمل ونشاط سكوناً وبات اضطراب تناقضات الشباب والنظرات المتبذّلة المفعمة بالأمل إلى المستقبل تفسح المجال لحلم اليقظة ومؤداه أنَّ كلّ الكلمات والأحداث والمطالب هي نفسها

في أعماقها المنصرفة عن السطح. وفي أمثال هذه اللحظات كان الطموح نفسه يخلد إلى الصمت وكانت أحداث الواقع بعيدة كالصخب أمام حديقة. وكان يبدو له أن الروح خرجت من ضفافها وباتت حاضرة حقاً الآن فحسب. على أنَّ المرء لا يستطيع أن يؤكِّد بما يكفي من الحيويّة أن هذا لم يكن فلسفة بل كان معاناة جسدية بالقدر ذاته كما لو رأى المرء القمر معلّقاً في نور الضحى أخرسَ يغمره شعاع سماء النهار. وفي هذا الظرف كان باول آرنهايم الفتى قد بات يتناول طعامه رزيناً في مطعم راقٍ ويخرج معتنياً بهندامه إلى كلّ مجتمع ويفعل في كلّ مكان ما كان يجب فعله. ولكنَّ كان في وسع المرء أن يقول إنَّ المسافة منه إليه كانت في هذا الصدد مثل المسافة إلى الإنسان الآخر أو الشيء الآخر وأن العالم الخارجي لم يكن يتوقَّف عند جلده وأن العالم الداخلي لم يكن يبعث ضوءه من خلال نافذة التفكير فحسب بل كانا يتحدان كلاهما في عزلة وحضور غير منقسمين يتَّسمان بمثل ما يكون في اليوم الخالي من الأحلام من اللطف والهدوء والسموّ. أما ما يتّصل بالأخلاق فقد ظهرت بعد ذلك لامبالاة كبيرة حقاً وتعادل في القيم فما عاد ثمة شيء صغير ولا شيء كبير. فكانت القصيدة والقبلة على يد امرأة يزنان مثل ما يزن مؤلّف متعدد المجلدات أو عمل سياسي كبير وبات كلّ ما يتَّسم بالشرّ عديم المعنى كما أصبح كلّ ما هو خيّر أيضاً فائضاً عن الحاجة في هذا الاحتواء من قبل القرابة اللطيفة الأولى بين كلّ الكائنات. وإذاً فقد كان آرنهايم يتصرّف كعادته تماماً إلا أنّه كان يبدو أن هذا يحدث من خلال دلالة يتعذّر إدراكها دلالة كان الإنسان الباطني يقف وراء شعلتها المرتجفة بغير حراك وهو ينظر إلى الخارجي الذي كان يأكل أمامها تفاحة أو يدع الخياط للتو يقيس له حُلَّة.

أكان هذا الآن خيالاً أم كان ظلاً لحقيقة لن يفهمها المرء أبداً كلًا لفهم؟ لا يمكن الإجابة عن ذلك إلا بأنَّ كلّ الأديان كانت تزعم في مراحل معيَّنة من

twitter @baghdad_library

تطوّرها أنّه حقيقة وعلى هذا المنوال كلّ العاشقين وكل الرومانسيّين وكل البشر الذين ينطوون على ميل إلى القمر أو إلى الربيع أو إلى الموت السعيد لأيّام الخريف الأولى. ولكنَّ هذا يتلاشى بالنتيجة من جديد إذ يتبخّر طائراً أو يجفّ وهذا أمر لا يمكن تمييزه. ومع ذلك فذات يوم يقرّر المرء أنَّ شيئاً آخر يحلّ محلّه وينساه بمثل السرعة التي ينسى بها التجارب غير الواقعية أو الأحلام أو الخيالات. ولما كانت تجربة الحبّ هذه ذات الأصالة والعالمية دأبت على الظهور في أغلب الأحيان في وقت واحد مع الغرام الشخصي الأوّل فإن المرء يعتقد فوق ذلك فيما بعد وهو مطمئن أنّه يعرف كيف يقدّرها ويعدّها من الحماقات التي لا يجوز للمرء أن يبيحها لنفسه إلا قبل الحصول على حقّ الانتخاب السياسي. وإذاً فقد كانت هذه هي طبيعتها ولكنَّ لمّا لم تكن مرتبطة قط في حالة آرنهايم بامرأة لم يكن من الممكن أيضاً أن تختفي من قلبه معها بالطريقة الطبيعية وكانت في مقابل ذلك تغشاها المؤثّرات التي تعرّض لها كيانه بمجرّد أنَّ تولّي أعمال أبيه بعد إكمال فترة دراسته وفراغه ولما كان لا يفعل شيئاً فعلاً جزئياً فقد اكتشف هناك خلال أمد قصير أن الحياة المبدعة وذات الطبيعة السليمة تعدّ قصيدة أكبر إلى حدّ بعيد من كلّ القصائد التي كان الشعراء يبتدعونها في حجرات مكاتبهم وكان هذا الآن شيئاً مختلفاً كلّ الاختلاف.

وفي هذا السياق تجلّت لأول مرّة موهبته في النموذجيّة. ذلك لأنّ قصيدة الحياة تتقدَّم على كلّ القصائد الأخرى بأنّها كأنّما وضعت بحروف كبيرة مهما يكن مضمونها في العادة. فحول أصغر المتمرّنين الذي يعمل في مؤسسة تجارية عالمية يدور العالم وتطلّ القارات بنظرها من فوق كتفيه بحيث لا يكون شيء مِمّا يعمله بدون معنى. أما الكاتب الوحيد في حجرته ففي أقصى الأحوال يدور حوله الذباب مَهْما يُجهد نفسه وهذا أمر يبلغ من قوّة إقناعه أن

كثيراً من الناس يبدو لهم في اللحظة التي يبدأون فيها بالإبداع في المواد الحيويّة كلّ ما كان يحرِّكهم فيما مضى «مجرد أدب» أيّ أنّه يحدث في أفضل الأحوال أثراً واهياً ومختلطاً على أنّه يكون في أغلب الأحيان حافلاً بالتناقض نافياً لنفسه بنفسه وهو أثر لا يتناسب على الإطلاق مع النفي الذي يتّخذه المرء من إنشائه. وبالطبع فإنَّ الأمور لم تكن تسير على هذا النحو تماماً مع آرنهايم الذي لم يتنكّر للآثار النفسيّة الجميلة للفن ولا كان قادراً على أن ينظر بعدُ إلى أيّ شيء كان ذات مرّة يحدث لديه اضطراباً شديداً على أنّه حماقة أو وهم. ولم يكد يدرك تفوّق علاقاته الرجولية على علاقاته العائدة إلى الشباب الحالم حتى بادر إلى العمل بتوجيه المعارف الرجولية الجديدة على تحقيق انصهار لكلتي مجموعتي التجارب. وكان يفعل بذلك حقاً ما يفعله كلّ الكثيرين من البشر الذين يشكّلون أغلبية المثقّفين منهم والذين لا يريدون بعد الدخول في حياة الكسب أنَّ يتنكّروا لأوجه اهتمامهم السابقة كلّ التنكر بل يكونون الآن أحرى أن يجدوا علاقة هادئة ناضجة حيال الدوافع الحماسية العائدة إلى شبابهم. على أن اكتشاف قصيدة الحياة الكبرى التي يعرفون أنّهم يسهمون في وضعها يهب لهم مرّة أخرى جرأة المتذوّقين من غير المتخصّصين تلك الجرأة التي كانوا قد افتقدوها يوم كانوا يحرقون قصائدهم فيتاح لهم وهم يقرضون الشعر في خضمّ الحياة أن ينظروا إلى أنفسهم على أنّهم خبراء بالفطرة ويبادرون إلى إشباع عملهم اليومي بروح المسؤولية الفكريّة ويشعرون أنّهم يواجهون آلافاً من القرارات الصغيرة لكي يكون هذا أخلاقياً وجميلاً ويتّخذون لأنفسهم نموذجاً من التصوّر القائل إنَّ غوته كان يعيش على هذه الطريقة ويقولون إنَّ الحياة ما كانت لتسرّهم بدون الموسيقى وبدون الطبيعة وبدون النظر في اللهو البريء عند الأطفال والحيوانات وبدون كتاب جيّد. وهذه الطبقة الوسطى المشبعة بهذه الروح مازالت بين الألمان هي المستهلك الرئيسي للفنون ولكل أدب غير مفرط في الصعوبة. غير أن أعضاءها ينظرون

twitter @baghdad_library

إلى الفن والأدب الذي كان يبدو لهم فيما مضى بمثابة اكتمال لرغائبهم نظرة الاستعلاء على نحو مفهوم وعلى الأقل بعين من ينظر إلى مرحلة أولية ـ وإن كانت هذه أكثر اكتمالاً في نوعها مِمّا أتيح لهم أو يرون في ذلك من الرأي مثل ما يراه مثلاً صانع صفائح الحديد في نحات تماثيل الجَفْصين إذا ما كان ينطوي على الضعف الذي يجعله يجد منتجاته جميلة.

وقد كان آرنهايم يماثل هذه الحالة الوسطى من أحوال الثقافة مثلما تماثل قَرَنفُلَةٌ رائعة مكتنزة من قَرَنفُلات الحدائق قرنفلةً في أرض صخرية نشأت على حافة طريق. ولم يكن يردّ في حسبانه قط انقلابٌ فكري أو تجديد مبدئي بل كان لا يردّ على الدوام إلا الاندماج العميق فيما هو قائم والتملّك والتصحيح اللطيف والبعث الأخلاقي لحياة جديدة في الإمتياز الباهت للقوى. لم يكن واحداً من أبناء الذوات ولم يكن يتقرّب زُلفى إلى ذلك الجزء من النبلاء المتفوّقين عليه. وعندما أدخل البلاط واحتك بكبار النبلاء مثلما احتك برؤوس البيروقراطيّين لم يكن يسعى بحال من الأحوال إلى أن يتكيَّف مع هذا المحيط مقلِّداً بل مجرّد هاوٍ لعادات الحياة الإقطاعية المحافظة وكان الهاوي الذي لا ينسى أصله البورجوازي الغوتِّوِي[٢٢] ـ الفرانكفورتي إنَّ صح التعبير أو يتظاهر بنسيانه ولكنَّ موقف المعارضة عنده كان قد استُنفِد بهذا العمل وكان التناقض الأكبر خليقاً أن يبدو له متجنّياً على الحياة. ولا ريب أنّه كان مقتنعاً في قرارة نفسه بأن أهل الإبداع ـ وفي طليعتهم التجار الذين يمسكون بزمام الحياة ويخلصونهم في عصر جديد ـ مندوبون للحلول محلّ قوى الحياة القديمة في هيمنتها في أيّ وقت من الأوقات وقد أضفى عليه هذا كبرياء معيَّنة هادئة قدّم لها شهادة التبرير ذلك التطوّر الذي حدث منذ ذلك الوقت. ولكنَّ عندما يسلّم المرء أيضاً تسليماً مبدئياً بوجود هذا الإدعاء للحق في السيادة من

(٢٢) نسبة إلى غوته.

جانب المال تظل هناك المسألة المفتوحة وهي استعمال السلطة التي هي موضع الطموح استعمالاً صحيحاً. لقد كان الأمر سهلاً بالنسبة إلى أسلاف مدراء المصارف وكبار الصناعيين إذ كانوا منقذين وقد ابتلعوا خصومهم كاللقمة السائغة تاركين أسلحة الفكر للكهنوت وفي مقابل ذلك يمتلك الإنسان المعاصر في المال كما كان آرنهايم يفهم ذلك أضمن طرق المعالجة لكلّ العلاقات في هذه الأيام في الحقيقة. ولكنَّ إذا كان من الممكن أن تكون قاسية أيضاً ومماثلة على وجه الدقة للمقصلة فمن الممكن أن تكون أيضاً كالمصاب بالروماتيزم في إرهاف حسها ـ وليفكّر المرء في أسواق المال عند أقلّ باعث من البواعث! ـ وهي ترتبط ارتباطاً بالغ الدقة بكلّ ما تسيطر عليه. وعن طريق هذا الترابط الدقيق بين كلّ صور الحياة ذلك الترابط الذي لا يستطيع أن ينساه إلا كبرياء الإيديولوجيّين الأعمى توصّل آرنهايم إلى أن يرى في التاجر الملكي التأليف بين الانقلاب والإستمرار والمثابرة بين السلطان وبين التحضّر البورجوازي وبين الجرأة المتعلّقة والمعرّفة المفعمة بالشخصيّة. غير أنّها كانت تمثّل في أعمق جوانبها صورة رمزية للديمقراطية الآخذة في النشوء. وكان يريد عن طريق العمل الدؤوب والصارم من أجل شخصيته الخاصّة وفي سبيل التنظيم الفكري للعلاقات الإقتصادية والإجتماعية المتاحة له وعن طريق أفكار حول قيادة الدولة بأسرها وبنيانها أن يرسي دعائم عصر جديد تكون فيه قوى المجتمع غير متساوية بحكم القدر والطبيعة منظّمة تنظيماً صحيحاً ومثمراً ولا يتحطّم المثل الأعلى بالوقائع المفضية إلى التقييد بالضرورة بل يتطهّر ويتوطّد. ومن أجل التعبير عن هذا بطريقة موضوعية قام بتحقيق الخلط بين مصالح النفس والتجارة عن طريق صياغة التصوّر السقفيّ الخاص بالتاجر الملكي. أما الشعور بالحب الذي كان فيما سلف يحمله على الإحساس بأن كلّ شيء إنما هو في الأساس شيء واحد فكان يكمن الآن نواةً في إيمانه بالوحدة والانسجام بين الثقافة والمصالح البشريّة.

twitter @baghdad_library

وفي هذا الوقت تقريباً بدأ آرنهايم بنشر كتبه أيضاً وظهرت فيها كلمة (الروح). وفي وسع المرء أن يتكهّن بأنّه كان يستعملها كالمنهاج أو القفزة إلى الأمام مثل كلمة (مَلَكيّة). ذلك لأنّ من المؤكَّد أن الأمراء والجنرالات ليس لهم نفس. أما رجال المال فكان هو الأوّل بينهم والأمر الأكيد أيضاً أن حاجةً من الحاجات كانت تلعب في هذا الصدد دوراً في الدفاع عنه بطريقة لا تتهيّأ للعقل التجاري في مواجهة محيطه الأضيّق الشديد العقلانية أيّ في مواجهة طبيعة والده القيادية المتفوّقة في مجال الأعمال التي أخذ يلعب إلى جانبها شيئاً فشيئاً دور شخصيّة وليّ العهد الذي طعن في السن ومن المؤكَّد بالقدر ذاته أن طموحه إلى التمكّن من كلّ ما هو جدير بالمعرّفة وهو تعلّق بالتاريخ الجامع الذي ما كان إنسان قد نضج له بذلك القدر الذي كان يتلاءم مع حاجته ـ وجد في الروح وسيلة للحطّ من قيمة كلّ ما لم يكن عقله يستطيع التمكّن منه. ذلك لأنّه كان في هذا الصدد لا يختلف عن سائر عصره الذي لم يطوّر من التعاليم الدينية ميلاً دينياً قوياً بطريقة جديدة بل استمد ذلك من مجرّد رفض يتّسم بالحساسية الأنثوية للمال والمعرّفة والحساب وهي الأمور التي كان يخضع لها بحماسة جارفة. غير أنَّ ما كان موضع التساؤل والشك هو هل كان آرنهايم حين يتحدَّث عن الروح يؤمن هو نفسه بها وينسب إلى امتلاك الروح من الواقعية مثلَ الذي كان ينسبه إلى ملكيّة أسهمه. كان يستعملها تعبيراً عن شيء لم يكن يملك تعبيراً آخر عنه. وكان يستعملها حين تستبدّ به حاجته ـ إذ كان خطيّباً لم يكن من السهل عليه أن يدع خطيّباً آخر يتحدَّث. وبعد ذلك حين كان قد أحاط علماً بالأثر الذي بات قادراً على إحداثه لدى الآخرين كان يستعملها أيضاً على نحو مطّرد الزيادة في كتبه ـ فكان يأتي على الحديث عنها وكأن وجودها أمر يجب افتراضه على نحو يبلغ من اليقين ما يَعدِل افتراض وجود الظهر على الرغم من أن المرء لا يراه. وكانت تنتابه حماسة جامحة حقيقية للكتابة بهذه الطريقة عن شيء غير أكيد وقائم على الإحساس الداخلي

يرتبط بعلاقة متشابكة مع ما هو مفرط في اليقين من شؤون العالم مثل صمت عميق وسط الكلمات الحارة. لم يكن ينكر فائدة المعرِفة بل كان على النقيض من ذلك يُحْدِث بنفسه عن طريق تجميعه النشيط انطباعاً لا يقدِّر على إحداثه إلا رجل كانت تتهيأ له كلّ الوسائل من أجل ذلك غير أنّه كان يصرّح بعد إحداث هذا الإنطباع بأنّه يوجد فوق مجال الذكاء الحادّ والدقة مملكة للحكمة ما عاد يمكن التعرّف عليها إلا عن طريق الحدس والتكهّن وكان يصف الإرادة التي تؤسس الدول والمؤسَّسات العالمية لكي يُفهِم أنّه على كلّ عظمته ليس شيئاً سوى ذراع لا بدّ أن يحرّكه قلب يخفق في غير المرئي وكان يشرح لمستمعيه أوجه تقدّم التقنيّة أو قيمة الفضائل بالطرق المألوفة إلى أقصى الحدود كما يتصوّر ذلك كلّ مواطن ولكنَّ ليضيف إلى ذلك أن مثل هذا الإستعمال للقوى الطبيعية والفكريّة يظلّ مع ذلك مجرّد جهل ينذر بعاقبة وخيمة إذا لم يستشعر المرء أن هذه القوى إنما هي اضطرابات محيط يكمن تحتها على عمق سحيق قلّما تخدشه الأمواج وكان يتلو أمثال هذه التصريحات بأسلوب مراسيم والٍ لملكة مطرودة تلقّى توجيهاتها منها شخصيّاً وهو ينظم العالم بموجبها.

وربما كان هذا التنظيم الموضوع الحقيقي والأكثر عنفواناً لحماسته. كان نزوعاً إلى السلطان يتجاوز إلى حدّ بعيد كلّ ما كان يستطيع حتى الإنسان في مثل مكانته أن يبيحه لنفسه وكان يفضي على نحو مباشر إلى أن يضطر الرجل البالغ القوّة في عالم الواقع إلى أن يعتكف مرّة واحدة في العام على الأقل في قصره بمنطقة الحدود ويملي على أمين سره كتاباً بالاختزال. وكان هذا الإحساس الداخلي الغريب الذي كان قد انبعث أوّل الأمر وبأشدّ الأشكال حرارة في ساعات صباه الحماسية قد شقّ لنفسه هذا الطريق غير أنّه كان مايزال ينتابه في بعض الأحيان أيضاً على نحو مباشر وإن كان ذلك بقوّة

twitter @baghdad_library

متضائلة ثم كان يُلمّ به في غمرة أعماله العالمية مثل خدر مستعذب وحنين إلى الدير الذي كان يوحي إليه بأن كلّ التناقضات وكل الأفكار الكبيرة وكل تجارب العالم وجهوده ليست شيئاً واحداً فحسب مثلما يتمّ فهمها على نحو غير دقيق في صورة ثقافة وإنسانية بل هي أيضاً ماثلة في معنى جامح الكلمات وساكنٍ سكوناً له بريق كما يحبّ أن يُصالب المرء يديه في يوم صارخ الجمال على النهر ناظراً إلى المروج وهو لا يريد أن ينفصل عن ذلك أبداً. وبهذا المعنى كانت كتابته حلاً وسطاً ولما كان لا يوجد إلا روح واحدة وكانت هذه غير ملموسة بل هي في المنفى ولا تستطيع أن تنبئ عن نفسها إلا بطريقة واحدة غامضة غموضاً يلفت النظر كثيراً أو مُلتَبسة. وكان هناك مسائل لا تُحصى كثيرة كثرةً لانهائية على نحو مطلق وهي كلّ المسائل التي يستطيع المرء أن يطبّق عليها هذه الرسالة الملكية فقد نشأ على كرّ السنين ذلك الجرح الجدي عليه الذي يجده كلّ المشرّعين والأنبياء حين يستغرق المرء وقتاً مفرطاً في طوله. وكان آرنهايم لا يحتاج إلا إلى أن يجلس في عزلته إلى الكتابة فيواجه القلم أفكاره بدرجة من الجدوى تعدّ هائلة بدرجة خاصة من الروح إلى مشكلات الفكر إلى الفضائل إلى الاقتصاد والسياسة تلك الأفكار التي يغمرها شعاع من مصدر غير مرئي فتظهر في ضوء جليّ موحّدة توحيداً سحرياً. وكان هذا النزوع إلى التوسع ينطوي على شيء يبعث على السِكْر على أنّه كان في مقابل ذلك مرتبطاً بذلك الانفصام في الوعي الذي يعدّ عند الكثيرين الشرط الأوَّلي للإبداع الكتابي الذي يعطل الفكر فيه كلّ شيء وينسى ما لا يتلاءم مع مخطّطاته. على أن آرنهايم ما كان ليسترسل في الكلام إلى هذا المدى أبداً وهو يتحدَّث في مواجهة متحدِّث في مقابلة ويربط بين علاقات الأرض عن طريق شخصه. غير أنّه كان وهو عاكف على الورق الجاهز ليعكس نظراته يسرّه الاسترسال بما يكفي في التعبير المجازي عن القناعات التي لم تكن ثابتة إلا في أقلّ أجزائها وكانت في أغلبها ضباباً من الكلمات التي كان الإِدعاء

الوحيد في مطابقتها للواقع وهو ادعاء غير قليل في النهاية يكمن في أنّه يرتقي بصورة لاإرادية في المواضع ذاتها دائماً.

من أجل ذلك كان على من يودّ لَوْمَه أن يدخل في حسبانه أن امتلاك شخصيّة فكريّة مزدوجة أمر بعيد عن أن يكون قطعة فنّية لا يخرجها إلا المجانين. بل أن إمكانية النظرة السياسية والمقدرة على كتابة مقالة صحفية والمقدرة على الإيمان باتجاهات جديدة في الفن والأدب وغير ذلك مِمّا لايحصى يعدّ على وجه اليقين تبعاً لسرعة إيقاع العصر مبنياً على الموهبة المتمثّلة في أن يكون المرء مقتنعاً لمدة ساعات محدّدة بقناعات مخالفةٍ له وأن يجتزئ من المضمون الكامن للوعي جزءاً من نفسه فيوسّعه محوّلاً إياه إلى قناعة كاملة جديدة. وكان هذا يعني بهذه الطريقة مزيةً أخرى. وهي أن آرنهايم لم يكن أبداً مقتنعاً بما كان يقول اقتناعاً صادقاً كلّ الصدق. وحين كان في ذروة سنوات الرجولة كان قد أفصح عن رأيه في كلّ ما كان قائماً على الجملة والتفصيل وكانت قناعاته واسعة النطاق ولم يكن يجد حداً يجب عليه أن يتوقّف عنده عن اكتساب قناعات جديدة في المستقبل متطوّرة عن القديمة على نحو متناسق حين كان يتابع طريقه بالطريقة ذاتها. ولم يكن من الممكن أن يغيب عن بال رجل يفكّر تفكيراً فعالاً كان يمعن النظر في التقديرات الخاصّة بالجدوى والموازنات في الأحوال الأخرى للوعي أنَّ هذا عمل لا ضفاف له ولا مجرى وإن كان ينتشر انتشاراً لا ينضب له معيَّن تقريباً. وكان يجد حدوده الوحيدة في وحدة شخصه. وعلى الرغم من أن آرنهايم كان يحتمل كثيراً من الاعتداد بالنفس فإن هذا لم يكن حالة مُرْضية بالنسبة إلى عقله وما من شكّ في أنّه كان يردّ السبب إلى البقية غير العقلانية التي تظهرها الحياة للمتأمل الخبير في كلّ مكان. وكان يحاول أيضاً أن يهدّئ ثائرة نفسه وهو يهز كتفيه بأن كلّ شيء في العصر الحاضر ينتهي إلى ما لا ضفاف له ولما لم يكن هناك أحد

twitter @baghdad_library

يستطيع أن يرتفع فوق نقاط ضعف قرنه كلّ الإرتفاع فقد كان يستطلع في ذلك حتى الإمكانية الثمينة المتمثّلة في ممارسة فضيلة التواضع التي يختص بها كلّ عظماء الرجال إذ كان يضع فوق نفسه دونما جسد ظواهر مثل هومير أو بوذا لأنَّها كانت تعيش في عصور أكثر مؤاتاةً ولكنَّ مع بلوغ الزمن الذي وصل فيه نجاحه الأدبي إلى الذروة بدون أن يطرأ على حياته المتَّسمة بسمة ولاية العهد تغيُّر حاسم كانت تنمو تلك البقية غير العقلانية وكان يستفحل النقص في النتائج الملموسة وعدم الإرتياح إلى كونه أخطأ هدفه ونسي إرادته الأولى نسياناً شديد الوطأة. وكان ينظر إلى عمله نظرة شمولية وكان حتى إذا أمكن له أن يكون راضياً عنه يعتقد الآن مع ذلك في بعض الأحيان أنّه يرى نفسه من جراء كلّ هذه الأفكار مجرّد محجوب عن أصل يحدث آثاره بصورة لاحقة مفعمة بالحنين بحجاب كأنّه جدار من قطع الماس كان يزداد صفاقة مع كلّ يوم.

وكان قد انتابه من هذا القبيل في الحقبة الأخيرة على وجه الخصوص شيء مُستكرهٌ أثّر فيه تأثيراً عميقاً وكان يستعمل وقت الفراغ الذي كان يهبه لنفسه الآن مراتٍ أكثر مِمّا كان يفعل في العادة لكي يملي على أمين سره بالآلة الكاتبة مقالة في التوافق بين مباني الدولة ومفهوم الدولة وكان قد قطع جملة «إننا نرى صمت الجدران عندما نتأمل هذا البناء» بعد كلمة (الصمت) لكي يتمتَّع لحظة من الزمان بصورة مبنى الكاتدرائية الروماني الذي كان قد نجم أمام وجهه الباطني لتوّه على غير استدعاء غير أنّه حين عاد إلى النظر في المخطوط لاحظ أن أمين السر كان قد دوّن في استباقه بحكم العادة قوله: «إننا نرى صمت الروح عندما ع ـ» وفي هذا اليوم أمسك آرنهايم عن الإملاء وفي اليوم التالي أوعز بشطب الجملة.

فماذا كان يزِن في مقابل تجارب بمثل هذا القدر من الاتساع وعمق الحلفيّة هذا الأمر المألوف نوعاً ما من الحبّ المرتبط ارتباطاً جسدياً بامرأة؟ لقد كان آرنهايم مضطراً مع الأسف أن يعترف بنفسه أن هذا كان يزن على وجه الدقة قدر ما تزن المعرّفة الملخّصة لحياته ومفادها أنَّ كلّ الطرق إلى الفكر تنطلق من الروح ولكنَّ ما من طريق منها يعود به إليها! ولا ريب أن كثيراً من النساء كن يقدّرن ما في العلاقات الحميمة معه من السعادة ولكنَّ حين لم يكنّ ذوات طبائع طفيلية كنَّ نساءً عاملاتٍ ومثقفات وفنّانات ذلك لأنّ المرء كان يستطيع التفاهم مع صنف المرأة التي ينفق عليها وحتى ذات الكسب على أساس من العلاقات الواضحة وكانت الحاجات الأخلاقية المتّصلة بطبيعته قد أفضت به دائماً إلى علاقات كانت الغريزة وما يرافقها من ضروب الصراع التي لا سبيل إلى تجنّبها تتميَّز فيها باستناد معيَّن إلى العقل مع النساء. غير أن ديوتيما كانت الأنثى الأولى التي مسّت حياته الخفيّة في جانبها الأخلاقي الخلفيّ. ومن أجل ذلك كان ينظر إليها في بعض الأحيان نظرة الحسد بوجه خاص. ولم تكن آخر الأمر إلا زوجة موظّف تتمتَّع بأفضل الأساليب في الحقيقة غير أنّها تفتقر بلا ريب إلى ذلك التكوين الإنساني الأسمى الذي لا يستطيع إضفاءه إلا السلطة وقد كان خليقاً أن يرى لنفسه الحقّ في فتاة من بيوت المال الأمريكية العليا أو من كبار النبلاء الإنجليز إذا ما أراد أن يرتبط ارتباطاً كاملاً. وكانت له لحظات كان يتجلّى فيها لعينيه في قرارة نفسه الخلافُ الأصيل كلّ الأصالة في حجرة الأطفال أو في كبرياء الأطفال الساذجة إلى حدٍّ بعيد أو في فزع الطفل المتمتع بالرعاية الذي يساق أوّل مرّة إلى المدرسة العمومية بحيث كان غرامه المتناهي يبدو له مثل عار وشيك. وعندما كان في أمثال هذه اللحظات يقوم بأعماله بترفُّع جليديّ على قدر ما يمكن أن يتوفّر هذا لرجل ميّت منكفئ على نفسه فحسب كان يبدو له عقلُ

twitter @baghdad_library

المال الذي لا يمكن لشيء أن يلوّثه قوةً طاهرة إلى حدٍّ فائق بالنسبة إلى الحب.

غير أن هذا لم يكن يعني شيئاً سوى أنّه قد حان بالنسبة إليه الوقت الذي لا يدرك فيه السجين كيف استطاع أن يدع حريته تُسرَق منه بدون أن يدافع عنها حتى الموت. وذلك أن ديوتيما حين كانت تقول: «ما هي الأحداث العالمية؟ إنما هي قليل من الصخب حول روحنا. . . !» ـ كان هو يشعر ببنيان حياته يهتز.

[٨٧]

موز بروجر يرقص

وكان موز بروجر مازال في هذه الأثناء يقعد في زنزانة للتحقيق تابعة للمحكمة العليا وكانت الرياح قد سارت وفقاً لما تشتهي سفن محامي دفاعه وكان يسعى لدى السلطات لكي لا تصل بالقضية إلى جرة القلم الأخيرة على نحو مستعجل.

وكان موز بروجر يبتسم لذلك. كان يبتسم بدافع الملل.

كان الملل يؤرجح أفكاره على أنّه كان يطفئ الأفكار في العادة. أما أفكاره هو فكان يؤرجحها هذه المرة. وكانت الحال كما لو أن ممثلاً يقعد في حجرة الملابس منتظراً المشهد الخاص به.

ولو أن موز بروجر كان لديه خنجر لاستلّه الآن ولقطع به رأس الكرسيّ ولقطع رأس الطاولة والنافذة والبرميل والباب ولنصب لكلّ من قطع له رأسَه رأسُه الخاص إذ لم يكن في هذه الزنزانة إلا رأسه الخاص وكان هذا جميلاً وكان في وسعه أن يتصوّره وهو قاعد على الأشياء عريضَ الجمجمة وقد امتد شعره كالفَرْو من الرأس إلى الجبين وكانت الأشياء تحلو له عند ذلك.

ألا حبذا لو كان المكان أكبر والطعام أفضل!

وكان مسروراً حقّ السرور بأنّه ما عاد يستطيع أن يرى بشراً. كان البشر بالنسبة إليه أمراً يصعب احتماله. كان لهم في كثير من الأحيان أسلوب في البصاق أو في رفع الكتف عالياً ما يجعل المرء يفقد الأمل كلّ الفقدان ويودّ لو

twitter @baghdad_library

يضربهم بجُمع يده في ظهرهم كما لو كان على المرء أن يحدث ثقباً في جدار. ولم يكن موز بروجر يؤمن بالله بل كان يؤمن بعقله الشخصي وكانت الحقائق الأبدية عنده موضع الإزدراء: القاضي والقس والدركيّ. ولم يكن له بدّ أن يتولّى أمره بنفسه وهنالك كان المرء يخرج بانطباع مؤدّاه أن الناس جميعاً يسدّون عليه الطريق! كان يرى أمامه ما رآه في كثير من الأحيان: المحابر والقماش الأخضر وأقلام الرصاص ثم صورة الإمبراطور على الجدار وكيف كانوا يجلسون هناك جميعاً وكان هذا في ترتيبه يبدو له مثل شَرَك وقد طغى عليه الشعور بأنّه يجب أن يكون مغطّى هكذا بدلاً من أن يكون مغطّى بالعشب والأوراق. ثم كان يخطر بباله في العادة كيف كان حرش من الأحراش يقوم في الخارج عند منعطف نهر وخرير بئر من الآبار قطع ممزّقة من مناطق متداخلة ومخزون لا نهاية له من الذكريات التي لم يكن يعرف عنها البتة أنّها كانت تحظى بإعجابه في حينها. وكان يحلم: «لقد كان في وسعي أن أسرد عليهم شيئاً!» مثلما يحلم إنسان شاب وقد طالما اعتقل هذا حتى أنّه لم يطعن في السن أبداً. وقال موز بروجر في نفسه: «في المرة التالية سيكون عليّ أن أنظر في هذا بدقّة أكثر وإلا فلن يفهموني». ثم ابتسم ابتسامة صارمة وجعل يتحدّث عن نفسه إلى القضاة مثل أب يقول عن ابنه: «إنه لا يصلح لشيء فأحسنوا حبسه وعندئذ ربّما يكبح جماح نفسه!».

وبالطبع فقد كان يتولّاه الغيظ الآن في بعض الأحيان من الترتيبات القائمة في السجن أو أن ذلك كان يؤلمه غير أنّه كان يستطيع عندئذ أن يطلب إدخاله على طبيب السجن أو المدير وكان كلّ شيء يعود على هذا النحو إلى نظام وسكينة معيَّنين مثلما يعود الماء فوق جرذ ميت سقط فيه. على أنّه لم يكن بالطبع يتصوّر هذا ضمن هذه الصورة على وجه الخصوص. غير أنّه كان

ينطوي الآن على انطباع دائم تقريباً يمتدّ كصفحة عاكسة من الماء لا يكدّر صفوها شيء وإن لم يكن يملك من أجلها الكلمات.

كانت الكلمات التي يملكها: ـ هـ. مْ سو. سو.

كانت الطاولة موز بروجر

وكان الكرسي موز بروجر

وكانت النافذة المسوَّرة والباب الموصد هو موز بروجر ذاته.

على أنّه لم يكن يقصد ذلك على نحو جنوني وغير عادي بحال من الأحوال. كانت الشرائط المطاطية قد زالت ببساطة وكان وراء كلّ شيء أو مخلوق إذا ما أراد أن يقترب منه اقتراباً شديداً شريط مطاطيّ يتوتّر مشدوداً وإلا لأمكن في النهاية أن تختلط الأشياء متداخلة بعضها في بعض. وفي كلّ حركة يوجد شريط مطاطي لا يدع المرء يفعل ما يريد أبداً وكانت هذه الشرائط المطاطية قد زالت الآن مرّة واحدة أم لعلّ مجرّد الشعور المعوّق كان كأنه شعور بشرائط مطاطية؟

لا ريب أن هذا أمر ليس في وسع المرء أن يميّزه بهذه الدقة. وقال موز بروجر في نفسه: «ومثال ذلك أنَّ النساء يمسكن جواربهن بالشرائط المطاطية. ها أنذا قد وجدتها! وهنّ يضعن الشرائط المطاطية حول الساق كالتعويذة تحت القميص مثل الحلقات التي تطلى بها أشجار الفاكهة لكيلا تتسلقها الديدان».

ولكن هذا لم يُذكَر إلا عَرَضاً لكي لا يعتقد المرء أن موز بروجر أحسّ بالحاجة إلى أن يخاطب كلّ شيء مخاطبة الأخ لأخيه إذا لم يكن الأمر كذلك الآن على وجه الخصوص بل كان من الداخل والخارج فحسب.

twitter @baghdad_library

كان يهيمن الآن على كلّ شيء ويصرخ فيه شأن السيّد كان ينظّم كلّ شيء قبل أن يُقتَل وكان في وسعه أن يفكِّر فيما يشاء وكان في اللحظة الراهنة مطواعاً مثل الكلب الحسن التربية الذي يقال له: «ارقُدا». وكان على الرغم من اعتقاله ينطوي على شعور هائل بالقوّة.

وفي الموعد الدقيق كان الحساء يأتي وفي الموعد الدقيق كان يتمّ إيقاظه ويساق إلى النزهة. كان كلّ شيء في الزنزانة صارم المواعيد لا يتزَحْزَح وكان هذا يبدو لنا في بعض الأحيان أمراً لا يصدَّق أبداً.

وفي عملية قَلب غريبة كان يخرج بانطباع مؤدّاه أن هذا النظام يصدر عنه هو على الرغم من أنّه كان يعرف أنّه كان مفروضاً عليه.

على أن أناساً آخرين يحظون بأمثال هذه التجارب عندما يرقدون في ظلّ صيفيّ لأحد الأسيجة ويطنّ النحل وتجري الشمس صغيرة قاسية في السماء المشرقة ذات البياض اللبنيّ هنالك يدور الكون مثل لعبة آلية حول أمثال هؤلاء البشر. أما في موز بروجر فكان يحقِّق هذا مجرّد النظرة الهندسية التي كانت زنزانته تتيحها له.

وقد لاحظ في هذا الصدد أنّه كان يتوق إلى الطعام الجيّد كالمجنون وكان يحلم به وفي النهار كانت معالم الطبق الجيّد من شواء لحم الخنزير تلوح لعينيه بثبات يكاد يكون رهيباً بمجرّد أن يعود فكره أدراجه من شواغل أخرى. وكان يأمر عندئذ قائلاً: «طبقان! أو ثلاثة! وكان يفكِّر في ذلك تفكيراً يبلغ من قوته وتضخيمه للتصوَّر بنهمه أنّه كان ينتابه على الفور شعور بالامتلاء والغثيان وكان يفسد معدته بالتفكير وكان يفكِّر قائلاً وهو ينوس برأسه: «لماذا يعقب رغبة المرء في الأكل بسرعة بالغة اعتقاده أنّه يوشك أن ينفجر؟». إنَّ كلّ متع الدنيا تقع بين الأكل والإنفجار آه أيّ عالم هذا إنَّ في وسع المرء أن يثبت بمئات الأمثلة مقدار ضيِّق هذا المكان! شيء واحد من هذا فحسب: المرأة

التي لا ينالها المرء تعدّ كما لو أن القمر يزداد في الليل ارتفاعاً في كبد السماء على نحو مطّرد ويمتص القلب ويمعن فيه مصّاً. ولكنَّ عندما يكون المرء قد نالها يودّ لو يطأ وجهها بجزمته. فلماذا يكون المرء على هذا النحو؟ لقد كان يذكر أنّه طالما سئل عن ذلك: وعلى هذا فقد كان في وسع المرء أن يجيب أن النساء هن نساء ورجال لأنّ هؤلاء يجرون وراءهن غير أن أولئك الذين كانوا يسألونه كانوا يأبون أن يفهموا هذا حقّ الفهم. كانوا يريدون أن يعرفوا لماذا يتخيل أن الناس متآمرون عليه كأنْ لم يكن حتى جسدُه هو متآمراً عليه معهم! أما في حالة النساء فهذا واضح كلّ الوضوح ولكنَّ حتى مع الرجال كان جسده يتفاهم على نحو أفضل منه هو ذاته. فما هي إلا كلمة تفضي إلى أخرى والمرء يعرف ما يلزم ويظل المرء اليوم كلّه يتعارك مع الواحد بعد الآخر وفي لمح البصر يكون المرء قد تجاوز الشريط الضيّق الذي يتعامل ضمنه الناسُ بعضُهم مع بعض بغير خطر. ولكنَّ حين يكون جسده قد جرّ عليه هذا عند ذلك لا يكون عليه أيضاً إلا أن يحرِّره من هذا! وعلى قدر ما كان موز بروجر يتذكَّر فقد كان مغتاظاً أو كان خائفاً وكان صدره يندفع مع ذراعيه إلى الأمام مثل كلب كبير أُمِرَ بهذا. ولم يكن في وسع موز بروجر أن يفهم أبعد من ذلك أيضاً فالمجال بين المودة والإرتياح مجال ضيّق وعندما يبدأ ذات مرّة على هذا النحو ينتابه الضيّق إلى حدٍّ مفزع على عجل.

وكان يتذكَّر على نحو جيّد للغاية أن أولئك الذين يستطيعون التعبير عمّا في نفوسهم بالكلمات الأجنبية ومازالوا يجلسون لمحاكمته كثيراً ما تَلَوْا عليه قولهم: «ولكنٍ هذا ليس بالسبب الذي يقتل من أجله المرءُ امرءاً آخر على الفور!» وكان موز بروجر يهز كتفيه. لقد قتل أناساً من أجل بضعة قروش أو من أجل لا شيء لأنّ امرءاً آخر تخيَّل الأمر على هذه الصورة بوجه خاص. غير أنّه كان حريصاً على نفسه فما كان امرءاً من هذا القبيل. وكان اللوم قد أثَّر

twitter @baghdad_library

فيه مع الزمن وكان خليقاً أن يسرّه أن يعرف لماذا كانت تضيّق الدنيا إلى هذا الحد من حين إلى آخر أو كما ينبغي أن يُسمى هذا بحيث كان يضطر إلى تأمين مكان له بالقوّة لكي يستطيع الدم أن يخرج من رأسه من جديد. وكان يستغرق في التفكير. ولكنَّ ألم تكن المسألة على هذه الصورة أيضاً في حالة التفكير ذاته؟ وعندما كان يبدأ وقت ملائم من أجل ذلك كان خليقاً ألّا يحبّ سوى أن يبتسم من السرور. هنالك كانت الأفكار لا تعود تغلي تحت الجمجمة بل كان لا يعود هناك فجأة إلا فكرة وحيدة. وكان الفرق يعدِّل في ضخامته الفرق بين مشية الطفل التي تشبه مشية البطة ورقصة الأنثى الماكرة الجميلة. كان ببساطة كالمسحور. فثمة عزف على الأكورديون وضوء على الطاولة وفراشات تأتي طائراتٍ من الليلة الصيفية: هكذا كانت كلّ الخواطر تسقط الآن في ضوء الواحدة أو كان موز بروجر يمسك بها حين كانت تقبل عليه بأصابعه الضخمة ويهشّمها. وكان من الممكن أن ينظر إليها طوال لحظة فيما بين ذلك خطيرة مثل صغار التنين وكانت قطرة من دم موز بروجر قد سقطت في العالم ولم يكن في وسع المرء أن يرى هذا إذ كان يسود الظلام غير أنّه كان يشعر بما كان يحدث في غير المرئي وكانت البلبلة تقوم هناك في الخارج في الوقت ذاته وكان الجَعْدُ يتحوّل إلى سَبط مسترسل وكان رقص بغير صوت يحلّ محلّ الصرير الذي لا يطاق والذي كان العالم يعذبه به في العادة في كثير من الأحيان. وكان كلّ ما يحدث الآن جميلاً مثلما تغدو فتاة دميمة جميلة حين لا تعود واقفة هناك وحدها بعدُ بل يمسُّها الآخرون من يدها ويُدار بها في رقصة ويكون الوجه قد نصب سلّماً نحو الأعلى ينظر منه آخرون نحو الأسفل. وكان هذا غريباً وعندما كان موز بروجر يفتح عينيه وينظر إلى البشر الذين كانوا في مثل هذه اللحظة التي كان فيها كلّ شيء يصيخ السمع إليه راقصاً يبدون له ذوي جمال أيضاً. هنالك لم يكونوا متآمرين عليه ولم يكونوا يشكِّلون جدراناً وقد تبيّن أن ما كان يشوّه وجه البشر والأشياء كالعبء لم يكن إلا إرادة السعي إلى

التفوّق عليه. ثم كان موز بروجر يرقص أمامهم. كان يرقص غير مرئي موفور الكرامة وهو الذي لم يراقص أحداً قط في حياته تحرِّكه موسيقى كانت تتحوّل تحوّلاً مطّرد الزيادة إلى إخلادٍ إلى النفس والى النوم إلى حضن الجدة وأخيراً إلى سكينة الرب ذاتها إلى حالة لا تصدِّق على نحو رائع وهي حالة متحلِّلة على نحو قاتل وكان يرقص أياماً بطولها فلا يراه أحد إلى أن فارقه كلّ شيء وخرج منه معلّقاً بالأشياء متصلّباً رقيقاً كنسيج عنكبوت جعل منه الصقيع شيئاً غير صالح للاستعمال.

وإذا كان المرء لم يشارك في هذا فكيف يريد عندئذ أن يحكم على الآخر؟! وبعد الأيام والأسابيع السهلة التي كان موز بروجر فيها يكاد يستطيع أن يخرج من جلده كانت أيام الاعتقال الطويلة ماتفتأ تعود ولم تكن سجون الدولة شيئاً إلى جانبها. وكان إذا أراد أن يفكِّر عندئذ تقلّص فيه كلّ شيء تقلّصاً فارغاً مريراً. أما بيوت العمّال واتحادات الثقافة الشعبيّة حيث كان القوم يريدون أن يقولوا له كيف ينبغي له أن يفكِّر فكان يكرهها وهو الذي مازال يذكر كيف كانت الأفكار تستطيع أن تقوم في داخله بخطوات كبيرة على عكّاز! وكان يجر قدميه عندئذ عبر العالم آملاً أن يجد مكاناً تتغيّر فيه الأمور من جديد.

أما اليوم فما عاد في وسعه إلا أن يبتسم لهذا الأمل ابتسامة الاستخفاف. ولم يكن قد أصاب نجاحاً قط في العثور على الحد الوسط بين حالتيه ذلك الوسط الذي ربّما كان في وسعه أن يظلّ عنده. لقد شبع من ذلك وكان يبتسم ابتسامة رائعة في مواجهة الموت. وكان آخر الأمر قد رأى الكثير بافاريا والنمسا نزولاً إلى تركيا. وكان قد حدث الكثير مِمّا قرأه في الصحف أيامَ كان يعيش. وكان عصراً مضطرباً على وجه الإجمال. وكان في قرارة نفسه فخوراً في الحقيقة حقّ الفخر بأنّه عاش فيه. وعندما كان المرء ينظر فيه على هذا

twitter @baghdad_library

النحو فقد كان على التفصيل شأناً يتّسم بالبلبلة والوحشة غير أن طريقه كان يسير في الوسط آخر الأمر وكان في وسع المرء أن يراه فيما وراء ذلك واضحاً كلّ الوضوح من المهد إلى اللحد. ولم يكن موز بروجر ينطوي بحال من الأحوال على شعور بأنّه سيُعدَم بل كان يعدم نفسه بنفسه بمعونة الآخرين. هكذا كان يرى ما لم يكن لمجيئه من بدّ وكان كلّ شيء مع ذلك ملخّصاً على نحوٍ ما في كلٍ شامل: الطرق الزراعية والمدن ورجال الدرك والطيور والأموات وموتُه. وكان هو ذاته لا يفهم هذا كلّ الفهم. على أن الآخرين كانوا أقلّ فهماً له وإن كان في وسعهم أن يتحدّثوا عنه بمزيد من الاستفاضة.

وبَصق. وكان يفكّر في السماء التي تبدو مثل مصيدة للفئران مطلية بالأزرق وكان يقول في نفسه: «في سلوفاكيا يصنعون أمثال مصائد الفئران هذه المستديرة العالية».

[٨٨]

الإرتباط بالأشياء الكبيرة

لقد كان من الواجب منذ عهد طويل أن يذكر الظرف الذي تمَّ التطرّق إليه من خلال روابط مختلفة أما صيغته فيمكن أن تكون مثلاً على النحو التالي: لا يوجد شيء يمكن أن يكون خَطِراً على الفكر مثل ارتباطه بالأشياء الكبيرة.

فثمة إنسان يتجوّل في غابة ويرتقي جبلاً ويرى العالم منبسطاً تحته ويتأمل طفله الذي وضع بين ذراعيه أوّل مرّة أو يتمتَّع بالسعادة في تسلّمه أيّ مركز يُحسَد عليه على نطاق عام. ونحن نسأل: ماذا يمكن أن يحدث في داخله في هذه الأثناء؟ ويبدو له أنّه لا ريب أنّها أمور كثيرة وعميقة وهامة غير أنّه لا يتمتَّع بحضور البديهة لكي يتناولها بالكلمة إنَّ صح التعبير. وذلك أن ما هو جدير بالإعجاب أمامه وخارجه مِمّا كان يلفّه مثل غلاف مغناطيسي كان يستخرج أفكاره من داخله. وهنا كانت نظراته تنغرس في آلاف من التفاصيل غير أنّه كان يشعر شعوراً غامضاً كما لو أنّه أطلق كلّ ذخيرته بطريق الخطأ. وفي الخارج تكسو الساعة المفعمة بالروح والشمس المتعمّقة أو الكبيرة العالمَ بفضّة مُغَلْفَنةٍ حتى أوراقه الصغيرة وعروقه ولكنَّ في نهايته الأخرى في نهايته الشخصيّة سرعان ما يلفت النظر نقص داخلي معيَّن في المادة وينشأ هناك حرف «O» كبير فارغ مستدير على نحو من الأنحاء. وهذا الظرف هو العَرَض الكلاسيكي من أعراض التماسّ مع كلّ خالد وعظيم مثل عَرَض الإقامة على ذرى البشريّة والطبيعة. على أنَّ الشخصيّات التي تفصل مجتمع الأشياء الكبيرة ـ ومنها بوجه خاص أيضاً النفوس العظيمة التي لا توجد بالنسبة إليها أشياء

twitter @baghdad_library

صغيرة على الإطلاق - يُجتَذَب إليها الجانب الباطني متحوّلاً إلى سطحية متوسّعة بصورة عفوية.

ومن أجل ذلك يستطيع المرء أيضاً أن يعبّر على خطر الإِرتباط بالأشياء الكبيرة بأنّه قانون صون المادة الفكريّة وهو يبدو متمتعاً بصحة شديدة على العموم فأحاديث الشخصيّات ذوات المراكز الرفيعة العاملة في جلائل الأمور تعدّ في العادة أكثر خلوّاً من المضمون من أحاديثنا والأفكار التي تمتّ بصلة وثيقة بوجه خاص إلى أشياء نبيلة بوجه خاص تبدو في العادة كما لو كانت خليقة أن تعدّ شديدة التخلّف بدون هذه المساندة. ثم أن أعزّ المهمات علينا وهي تلك المتَّصلة بالأمة والسلام والإنسانية والفضيلة ونحو ذلك من المهمات الغالية تحمل على عاتقها أرخص غطاء نباتي للفكر وهذا خليق أن يكون عالماً مقلوباً إلى حدّ بعيد ولكنَّ عندما يفترض المرء أنَّ معالجة موضوع ما يجوز أن تقلّ أهمّيتها كلّما ازداد هذا الموضوع نفسه أهمّية عند ذلك يكون هذا عالم النظام.

غير أن هذا القانون الذي يقدّر على الإسهام الكبير للغاية في فهم الحياة الفكريّة الأوروبية لا يتمتَّع دائماً بالقدر ذاته من الوضوح. وفي عصور الانتقال من مجموعة الأشياء الكبيرة إلى مجموعة جديدة يمكن للفكر الساعي إلى خدمة الأشياء الكبيرة أن يبدو هدّاماً على الرغم من أنّه يبدّل حلّته فحسب. وقد كان مثل هذا الانتقال ممكن الملاحظة منذ تلك الأيام حين كان الناس الذين يجري الحديث عنهم هنا همومهم وانتصاراتهم. فقد كان هناك مثلاً كتب إذا شئنا أن نبدأ بموضوع كان يهمّ آرنهايم كثيراً على وجه الخصوص - كانت تباع بطبعات كبيرة جداً غير أن الناس كانوا مايزالون لا يُولونها أكبر الاحترام على الرغم من أن الاحترام الكبير كان لا يتمّ إيلاؤه إلا لكتب ثبت لها مستوى من الطبعات. وكان هناك صناعات ذات نفوذ كصناعة لعبة كرة

القدم أو التنس ولكنَّ الناس كانوا مايزالون يتردّدون في إحداث مقاعد دراسية لها في المعاهد التقنيّة العليا. وجملة القول: سواء أكان الفُتوّة السعيد والأميرال دريك قد أدخل في عصره البطاطا من أمريكا فبدأت بذلك نهاية المجاعة النظامية الثابتة في أوروبا أم كان الذي فعل هذا الأمير راليه الأقل حظاً من السعادة والبالغ الثقافة والمماثل في حبه للعراك أم كان هؤلاء جنداً من الإسبان غير معروفي الأسماء أو حتى الأفّاق الجريء وتاجر الرقيق هوكِنْز فإنه لم يخطر ببال أحد ردحاً طويلاً من الزمن أن يَعُدّ هؤلاء الرجال بسببِ البطاطا أعظم شأناً على سبيل المثال من الشيرازي العالم الفيزيائي الذي لا يعرف عنه إلا أنّه فسّر قوس القزح تفسيراً صحيحاً. ولكنّ تحوّلاً في التقييم لمراتب أمثال هذه الأعمال كان قد بدأ مع العصر البورجوازي وفي عصر آرنهايم كان هذا التحوّل قد بلغ من الازدهار مدىً بعيداً وما عاد يعوقه بعدُ إلا أحكام مسبقة قديمة. وكانت كمية الأثر وأثر الكمية من حيث كون ذلك موضوعاً جديداً للتقدير واضحاً وضوح الشمس مايزال يكافح تقديراً متقادماً أعمّ من تقديرات النبلاء للمزيّة الكبيرة ولكنَّ كان قد نشأ عن ذلك في عالم التصوّر أكثر أنصاف الحلول اتساماً بالجنون مثل تصوَّر الفكر الكبير ذاته ذلك التصوّر الذي لم يكن له بدٌ أن يكون في صورته التي عرفناه بها في الحيل الإنساني الأخير تركيباً يأتلف من أهمّيته الخاصّة وأهمّية البطاطا. ذلك لأنّ الناس كانوا ينتظرون رجلاً كان من المفترض أن يتّسم بتفرّد العبقريّ ويكون له مع ذلك قابلية الفهم العام التي يتّسم بها البلبل.

وقد كان من الصعب أن يقال قبل ذلك ما الذي سوف ينجم بهذه الطريقة إذ لم يكن المرء ينظر نظرة المتمعّن في خطر الإرتباط بالأشياء الكبيرة في العادة إلا بعد أن تكون عظمة هذه الأشياء قد انقضى شطر منها. وما من شيء أكثر بساطة من أن يبتسم المرء ابتسامة الهازئ من الحاجب الذي عامل

twitter @baghdad_library

الأحزاب التي ظهرت معاملة الاستخفاف باسم صاحب الجلالة ولكنَّ مسألة هل يعدّ الرجل الذي يُعامَل اليومَ باسم الغد معاملة تبعث على الإرتقاء حاجباً أم لا أمر لا يُعرَف في العادة قبل أن يحلّ ما بعد الغد. على أن خطر الإرتباط بالأشياء الكبيرة ينطوي على الصفة المزعجة للغاية وهي أن الأشياء تتبدّل ولكنَّ الخطر يظلّ هو نفسه دائماً.

[٨٩]

يجب على المرء أن يساير عصره

وكان الدكتور آرنهايم قد حظي بالزيارة التي أُبلِغ عنها وهي زيارة اثنين من كبار موظّفي مؤسسته وتباحث معهما طويلاً. وفي الصالون كانت تتناثر فيه الصباح الملفّات والحسابات دونما ترتيب في انتظار أمين السر. وكان على آرنهايم أن يتّخذ قرارات وكان على المندوبين أن يستعملوا من أجل العودة قطاراً من قطارات بعد الظهر وكان يستمتع اليوم كشأنه دائماً بأمثال هذه الظروف لأنّها كانت تحقّق مع كلّ الشروط قدراً معيَّناً من التشويق. وكان يفكّر قائلاً: «خلال عشر سنوات ستكون التقنيّة قد بلغت مدى يتيح للمؤسسة أن يكون لها طائراتها الخاصّة للرحلات. عند ذلك سوف أستطيع أن أوجّه جماعتي انطلاقاً من عذوبة الصيف في الهيمالايا». ولما كان قد اتّخذ قراراته بين عشية وضحاها ولم يكن قد تبقّى لديه إلا أن يراجعها مرّة أخرى وأن يقرّها فقد كان في هذه اللحظة فارغاً وكان قد أوعز بإحضار الإفطار له في الحجرة واستسلم مع سيجار الصباح هذا للاسترخاء الذهني إذ كان يفكّر الآن بالاجتماع إلى ديوتيما التي اضطر إلى أن يغادرها في المساء السابق.

وكانت هذه المرة حفلة مسلّية إلى أقصى الحدود. زوّار كثيرون جداً دون الثلاثين وعلى أقصى الحدود في الخامسة والثلاثين مازالوا بوهيميين تقريباً غير أنّهم باتوا معروفين وقد أحاطت الصحافة علماً بهم ولم يكونوا محليّين فحسب بل كانوا أيضاً ضيوفاً من كلّ أنحاء العالم قد اجتذبهم نبأ مفاده أن امرأة في كاكانيا تنتمي إلى أرقى الأوساط تشقّ للفكر طريقاً إلى العالم. وفي

twitter @baghdad_library

بعض الأحيان كان المرء يشعر كأنه في مقهى. وكان آرنهايم يبتسم حين يفكّر في ديوتيما التي كانت تبدو وقد تولّاها الخوف وهي في عقر دارها. غير أن المسألة كانت على الإجمال شديدة الإثارة وكانت على أيّة حال تجربة خارجة عن الحد المألوف كما بدا له. وكانت صديقته التي خاب أملها في الإجتماعات غير ذات الجدوى للرجال الكبار جداً قد قامت بمحاولة حازمة لكي تَرفُد العمل الموازي بالفكر الأكثرحداثةً وكانت علاقات آرنهايم مفيدة لها في هذا الصدد. وكان يكتفي بهزّ رأسه حين يتذكّر الأحاديث التي كان عليه أن يستمع إليها. وكان يجدها كثيرة الجنون غير أنّه «لابد للمرء أن يكون ليّن الجانب تجاه الشباب» كما كان يقول في نفسه «إذ يغدو المرء بغيضاً حين يرفضهم ببساطة». وإذاً فقد كان يشعر من جراء هذا باستمتاع جدّي إنَّ صح هذا التعبير إذ كان هذا شيئاً كثيراً إلى حدٍّ ما دفعة واحدة.

وأي شيء كان ينبغي للشيطان أن يستخرجه من ذلك؟ المعاناة. وكانوا يقصدون تلك المعاناة الشخصيّة التي كانت النزعة الإنطباعية قد تحدثت حديث المتحمّس عن حرارتها الأرضّية وقربها من الواقع مثلما يتحدَّث المرء عن نبات عجائبيّ قبل خمسة عشر عاماً. وكانوا يعدّون الإنطباعية الآن مائعة مختلطة. وكانوا يطالبون بالتحكم في الجانب الشهواني والتركيب(٢٣) الفكريّ!

أما التركيب فلا ريب أنّه كان على وجه الإجمال نقيض التشكُّك وعلم النفس والفحص والتحليل والميول الأدبية في عصر الآباء.

وعلى قدر ما كان المرء يفهم من ذلك فإنهم لم يكونوا يقصدون بهذا مقصداً فلسفياً إلى حدٍّ بعيد بل كان ذلك أقرب إلى أن يكون حاجةَ العظام

---

(٢٣) Synthese

والعضلات الفتية إلى الحركة بغير عوائق الأمر الذي كانوا يفهمونه من كلمة التركيب (Synthese) وهو قفز ورقص يحرّم المرء فيه على نفسه كلّ تكدير للصفو عن طريق النقد. وكانوا إذا لاءمَهم ذلك لا يتورّعون عن أن يقذفوا بالتركيب أيضاً إلى الشيطان هو ومعه التحليل ومجمل الفكر. ثم إنهم زعموا أنّه لا بدّ للفكر أن يُدفَع به نحو الأعلى بفعل عصارة المعاناة. وفي العادة كان الذين يدّعون هذا بالطبع أعضاء جماعة أخرى ولكنَّهم كانوا على شاكلتهم أيضاً في الحماسة في بعض الأحيان.

ثم يا للكلمات الكبيرة التي كانت عندهم! كانوا يطالبون بالحميّة الثقافية وبأسلوب التفكير السريع الذي يقفز إلى صدور العالم والدماغ المُرهَف للإنسان الكوني. وماذا كان خليقاً أن يسمع بعدُ فيما عدا ذلك؟

الصياغة الجديدة للإنسان على أساس مخطَّط أمريكي للعمل العالمي عن طريق وسيلة الطاقة القائمة على الميكانيك.

النزعة الخاصّة بالشعر الغنائي مرتبطة بأشدّ ما في الحياة من النزعات المسرحية إلحاحاً.

النزعة التقنيّة وهي فكْر لائق بعصر الآلة.

وكان أحدهم قد صاح قائلاً إنَّ بليريو يعوم منذ حين فوق بحر المانش بسرعة خمسين كيلومتراً في الساعة! وأن قصيدة هذه السرعة سرعة الخمسين كيلومتراً هي التي يجب على المرء أن يكتبها وأن يبعث بكلّ سائر الأدب العفِن إلى القمامة!

كانوا يطالبون بالإتجاه إلى التسريع وهذا هو التصعيد الأقصى لسرعة المعاناة على أساس الآلية الحيويّة الرياضيّة والدقّة الخاصّة بالقفز في السيرك!

التجديد الفوتوغرافي عن طريق الفيلم.

twitter @baghdad_library

ثم قال أحدهم إنَّ الإنسان يمثّل مجالاً داخلياً حافلاً بالأسرار ومن أجل ذلك يجب على المرء أن يربطة بالكون عن طريق المخروط والكرة والأسطوانة والمكعب. ولكنَّهم كانوا يزعمون كذلك نقيض هذا وهو أن النظرة الفردية إلى الفن وهي النظرة الكامنة في أساس هذا الرأي قد انتهت. وقالوا إنّه يجب على المرء أن يهب للإنسان القادم عن طريق المباني الشعبيّة والمستوطنات شعوراً جديداً خاصاً بالمسكن وبينما كان يتكوّن مثل هذا الحزب ذي النزعة الفردية والحزب الإجتماعي اعترض حزب ثالث قائلاً إنَّ الفنّانين المتديِّنين هم وحدهم الإجتماعيون بالمعنى الحقيقي. ثم طالبت مجموعة ثالثة من مهندسي العمارة الجدد بالقيادة لنفسها لأنّ هدف هندسة العمارة إنما هو الدين مقترناً فضلاً عن ذلك بالأثر الإضافي لحبّ الوطن والثبات في الأرض. على أن المجموعة الدينية التي لقيت المساندة من المجموعة التكعيبية اعترضت قائلة إنَّ الفن ليس شأناً يتَّسم بالتبعية بل هو شأن مركزيّ تحقيقٌ لقوانين كونية. ولكنَّ المجموعة الكونية تخلّت في المرحلة التالية عن المجموعة الدينية وتحالفت الآن مع المهندسين المعماريين على الإدعاء القائل إنَّ العلاقة مع الكون إنما يتمّ إعطاؤها بأفضل وجه عن طريق الأشكال المكانية التي تعطي الفردي مفعولاً وتجعله نموذجياً. ثم سُمِعت جملة تقول إنّه يجب على المرء أن يغوص بنظره في نفس الإنسان ثم يسجّلها بعد ذلك في أبعاد ثلاثة. ثم طرح أحدهم على نحو مثير للجدل ومؤثّر مسألة ماذا يعتقد المرء الآن في الحقيقة: هل يعدّ عشرة آلاف من البشر الجائعين أهمّ أم العمل الفني؟! ولما كانوا جميعاً على وجه التقريب فنّانين بأية طريقة من الطرق فقد كانوا يمثّلون في الواقع الرأي القائل إنَّ الشفاء الروحي للبشرية لا يمكن تحصيله إلا في الفن إلا أنّهم لم يستطيعوا الإتفاق على طبيعة هذا الشفاء والمطالب التي ينبغي أن تطرح على العمل الموازي من أجلها. غير أن المجموعة الإجتماعية الأصلية تولَّت الآن زمام القيادة من جديد وطوّرت

أصواتاً جديدة. وتحوّل سؤال هل يعدّ العمل الفني أهمَّ أمْ محنةُ العشرة آلاف من البشر إلى سؤال: هل يرجح وزن عشرة آلاف من الأعمال الفنِّية على محنة إنسان واحد؟ على أنَّ الفنّانين المتمكنين طالبوا بألا يكون من حقّ الفنّان أن ينظر إلى نفسه على أنّه بالغ الأهميّة وكان مطلبهم: لينتهِ تمجيّده لذاته وليجُعْ وليكن اجتماعياً! وقال أحدهم إنَّ الحياة هي العمل الفني الأكبر والوحيد. واعترض صوت قويّ قائلاً: «ليس الفن الذي يوحّد بل الجوع! وذكّر صوت توفيقيّ بأن أفضلَ الوسائل ضد المبالغة في تقدير الذات في الفن قاعدةٌ سليمة للعمل اليدوي. وبعد هذا الرأي التوفيقي استعمل أحدهم فترة التوقّف الناشئة عن الإرهاق أو الإشمئزاز المتبادل وسأل من جديد بهدوء هل يعتقد المرء أن في وسعه أن يقوم بشيء ما طالما لم يتحقَّق التماسّ بين الإنسان والمكان؟! وتحوّل هذا إلى إشارة مفادها أن النزعة التقنيّة والتسريعية وهكذا دواليك تعلن عن مجيء دورها في الكلام واستمرّ تجاذب أطراف الحوار زمناً طويلاً. ولكنَّ في النهاية اتفق القوم لأنهم كانوا يريدون الذهاب إلى البيت وكانوا يريدون أيضاً أن يخرجوا بنتيجة مع ذلك. ومن أجل ذلك أقرّ بعضهم لبعض الإدعاء الذي كان يبدو على وجه التقريب هكذا: إنَّ العصر الحاضر عصر حافل بالترقّب نافد الصبر جموح تعِس غير أن المسيح الذي يعلّق عليه الأمل وينتظره لمّا يظهر بعد.

وفكّر آرنهايم هنيهة.

وكانت تتجمع حوله على الدوام حلقة وعندما كان ينفك عن المحيط أناس رديئو السمع أو ليس لهم من شأن كان يحلّ محلهم على الفور أناس جدد وكان قد غدا محوراً لهذا المؤتمر الجديد أيضاً على نحو حاسم وإن لم يكن هذا يتجلّى دائماً في الجدل غير المهذب إلى حدٍّ ما. وكان واسع الإطّلاع فيما كان يشغلهم منذ عهد طويل. وكان مطَّلعاً على العلاقات في

twitter @baghdad_library

المدرسة التكعيبية وكان قد أنشأ مستوطنات ذات حدائق لموظّفيه وكانت الآلات مع عقلها وسرعتها مألوفة لديه وكان يعرف كيف يتحدَّث عن النظر في أعماق النفس وكانت له أموال في صناعة الأفلام الآخذة في الظهور. وبينما كان يستعيد مضمون هذا الجدل تذكّر فوق هذا أنّها كانت بعيدة عن أن تكون منظَّمة على النحو الذي كانت ذاكرته تصوِّر له بصورة عفوية. وتمتاز أمثال هذه الأحاديث بمسار خصوصي وكأن المرء وضع الأحزاب معصوبة العيون ضمن شكل كثير السطوح وأوعز إليها بالانطلاق مباشرة وهي مسلحة بعصا. إنّها مسرحية مختلطة ومرهقة بدون منطق. ولكنَّ أوَليست صورة عن مسار الأشياء على وجه الإجمال؟ وهذا أيضاً لا ينجم عن أشكال الحظر وقوانين المنطق التي تبلغ إلى مداها على أقصى الحدود فعالية الشرطة بل عن قوى الفكر الدافعة غير المنظّمة. كذلك كان آرنهايم يسائل نفسه حين كان يتذكَّر الإهتمام الذي لقيه وقد وجد أن في وسع المرء أن يقول أيضاً إنَّ الأسلوب الجديد في التفكير كان يضاهي الربط الحر بين الأفكار في حالة استرخاء الذهن وهو الأمر البالغ الإثارة على نحو لا ينكر.

وأشعل لنفسه سيجاراً ثانياً على سبيل الاستثناء على الرغم من أنّه لم يكن يبيح لنفسه في العادة أمثال هذه الألوان من الضعف الشهوانيّ. وبينما كان مايزال يمسك بعود الثقاب وكان في حاجة إلى عضلات وجهه من أجل أولى حركات المصّ اضطر إلى الابتسام فجأة لأنّه تذكَّر الجنرال القصير الذي كان قد حدّثه أثناء الحفلة ولما كان آل آرنهايم يملكون مصنعاً لألواح المدافع والدبابات وكانت مهيّأة في حالة الجدّ لإنتاج هائل من الذخيرة فقد فهم فهماً جيّداً جداً عن الجنرال المضحك بعض الشيء والمتعاطف مع ذلك (وكان يتكلّم على نحو مغاير تماماً للجنرالات البروسيين بطريقة أكثر استرخاءً بالطبع ولكنَّ كان في وسع المرء أيضاً أن يقول إنّه كانت تباركه ثقافة قديمة! وكان لا

بدّ للمرء بالطبع أن يضيف الآن: ثقافة آفلة) حين أعرب هذا عن رأيه بصورة تنطوي على الألفة ـ وهو يتنهّد بأسلوب فلسفي على وجه الخصوص! ـ في الأحاديث التي خاضوا فيها في هذه الأمسية حولهما والتي كانت لها بصورة جزئية على الأقل سمة النزعة السلمية المتطرّفة كما لم يكن بدٌّ للمرء أن يسلّم بذلك.

وكان الجنرال وهو الضابط الوحيد الذي يشعر على ما يبدو أنّه ليس في المكان الصحيح تماماً وكان يشكو تقلّب الرأي العام لأنّ بعض الأقوال حول قدسية الحياة الإنسانية وجدت استحساناً. «لست أفهم هؤلاء الناس» بمثل هذه الكلمات كان قد توجَّه نحو آرنهايم والتمس منه إيضاحاً بحكم كونه من ذوي الفكر البارزين على الصعيد العالمي وقال: «لست أفهم لماذا يتحدَّث هؤلاء بمثل هذا الجهل عن «الجنرالات الدمويّين»؟ وإني لأشعر أنني أفهم السادة الأكبر سناً أولئك الذين يأتون إلى هنا في العادة فهماً جيّداً تماماً على الرغم من أنّه لا ريب في أنّهم ليسوا عسكريّين البتة ومثل ذلك عندما يقوم الشاعر الشهير ـ ولا أدري ما اسمه هذا السيِّد الشيخ البدين ذو الكَرِش الذي يقال إنّه صاغ الأشعار في آلهة الإغريق والنجوم والمشاعر الإنسانية الخالدة؛ لقد قالت لي سيِّدة البيت إنّه شاعر حقاً في عصر لا يخرج في العدة إلا بالذكاء على أبعد الحدود ـ وكما قلت فأنا لم أقرأ شيئاً له غير أنني كنت خليقاً أن أفهمه بلا ريب لو أن أهمِّيته كانت تكمن بالفعل في المقام الأوّل في أنّه لا يشتغل بشيء صغير إذ أننا نسمِّي هذا في الجيش آخر الأمر استراتيجياً. أما الرقيب إذا سمحتَ لي بهذا المثال من المرتبة الوضيعة فعليه بالطبع أن يُعنى بكلّ رجل في جماعته على حدة وفي مقابل ذلك فإن الاستراتيجي يدخل في حسبانه الألف من البشر على أنّهم أصغر الوحدات ويجب أيضاً أن يكون في وسعه أن يضحّي بعشر من هذه الوحدات مرّة واحدة عندما يقتضي ذلك هدفاً

twitter @baghdad_library

أعلى. وأنا أرى أنّه ليس من المنطقي أن يسمّى هذا في حالة من الحالات جنرالاً دموياً وفي الحالة الأخرى عقلاً خالداً وأرجو منك أن تشرح لي هذا إذا كان هذا ممكناً!».

وكان الوضع الغريب لآرنهايم في هذه المدينة وهذا المجتمع قد بعث لديه حباً معيَّناً للتهكم كان في العادة متحفظاً بعناية. وكان يعرف من كان يعنيه السيِّد القصير وإن لم يفصح عنه وفضلاً عن ذلك فإن المسألة لم تكن تتوقَّف على هذا فقد كان في وسعه هو نفسه أن يسوق إليه بعض الأنواع الأخرى من اللعب من هذا النوع الكبير. وكانوا قد أدّوا في هذه الأمسية دوراً سيئاً وهذا أمر لم يكن من الممكن التغاضي عنه.

واحتبس آرنهايم وهو يفكِّر متروِّياً لحظة من الزمان وهو منزعج دخان السيجار بين شفتيه المفتوحتين. ولم يكن له بدّ على الرغم من مكانته أن يتناهى إلى سمعه بعض الملاحظات الخبيثة وكأنّها موجهة إليه هو ذاته. أما ما كان يتعرّض للّعنة فلم يكن في كثير من الأحيان بأقلّ من هذا الذي كان أحبّه في صباه على نحو مماثل بوجه خاص لحب هؤلاء الشباب الآن لأفكار جيلهم. وكان قد جرّب شعوراً خصوصياً إلى حدٍّ بعيد ويكاد المرء يستطيع أن يسمِّيه شعوراً مقبضاً يتمثَّل في أنّه يلقى التبجيل من الشباب الذين كانوا يسخرون في نَفَس واحد من ماض شارك هو نفسه فيه سراً بغير هوادة. وكان آرنهايم يحسّ في هذا الصدد بمرونة وقدرة على التبدُّل وحبّ للمبادرة في نفسه ويكاد المرء يستطيع أن يقول إنّه كان يحسّ باللامبالاة الجريئة لضمير شرير جيّد التمويه. وفكّر بسرعة البرق فيما كان يفصله عن هذا الجيل الجديد. كان الشباب يناقض أحدهم الآخر في كلّ شيء وكل ما كان مشتركاً بينهم بوضوح هو أن ما كانوا يعالجونه إنما كان الموضوعية والمسؤولية الفكريّة والشخصيّة المتوازنة.

على أن ظرفاً خصوصياً أتاح لآرنهايم أن يحسّ في هذا الصدد بشيء يكاد يكون كالشماتة. لقد كانت المبالغة في تقدير رفاق معيَّنين من أترابه الذين كان الجانب الشخصي يبرز عندهم بطريقة عظيمة بوجه خاص أمراً لا يوافق هواه على الدوام وبالطبع فإن خصماً نبيلاً مثله لم يكن يسمّي أسماء حتى ولا في ذهنه غير أنّه كان يعلم على وجه الدقة مَنْ كان يفكّر فيه. «فتى متوقّد الذهن متواضع متعطّش إلى متعة مجيّدة» - إذا شئنا أن نتحدَّث بأسلوب هاينه الذي كان آرنهايم يحبّه بطريقة خفيّة وكان في هذه اللحظة يستشهد به لنفسه. «يجب على المرء أن يفخر بمطامحه واجتهاده في الشعر وبالجهد المرير والمثابرة التي لا توصف والجهود المضنية التي يُعدّ بها شعره...». «لم تسعفه عرائس الشعر غير أنّه يملك بين يديه عبقرية اللغة». «أما القسر المخيف الذي يجب عليه أن يمارسه بحق نفسه فيسمّيه مأثرة عظيمة من مآثر الكلام». وكان آرنهايم يتمتَّع بذاكرة ممتازة وكان في وسعه أن يظلّ طوال ساعات ينشد الشعر عن ظهر قلب. وشَرَد. وكان يعجب أن هاينه قد استبق هنا وهو يكافح رجلاً من عصره ظواهر لم تتجلَّ في مظهرها الكامل إلا الآن وحفزه هذا إلى أعمال خاصة حين توجَّه الآن إلى الممثل الثاني للفكر الألماني المثالي إلى شاعر الجنرال. وكانت هذه هي ضربة الفكر السمينة بعد الضربة الغثّة. وكانت مثاليته الاحتفالية تتماشى مع تلك الآلات الموسيقيّة النفخية الكبيرة العميقة في فرق الأوركسترا التي تشبه مراجل قاطرات موضوعة في الأعلى وهي تخرج نخيراً وصوت ارتطام غير متلائمين وتغطي بلحن واحد ألفاً من الإمكانات وتنفُث طروداً ضخمة حافلة بالمشاعر الخالدة. ومن كانت له المقدرة على أن ينفخ في أحد هذه الأنواع شعراً - كما كان آرنهايم يقول في نفسه بلهجة لا تخلو تماماً من المرارة - كان معدوداً لدينا اليوم شاعراً خلاقاً للأديب فلماذا لا يعدّ إذاً جنرالاً في الوقت نفسه؟ فأمثال هؤلاء الناس تربطهم

twitter @baghdad_library

بالموت أفضل العلاقات بلا ريب وهم يحتاجون على الدوام إلى بضعة آلاف من الموتى لكي يستمتعوا بلحظة الحياة استمتاعاً كريماً.

ولكن واحداً منهم يزعم عند ذلك أنّه حتى كلب الجنرال الذي ينبح القمر في ليلة كرنفال إذا ما قُدِّم للاستجواب خليقٌ أن يجيب قائلاً: ماذا تريدوّن لا ريب أنّه القمر وأنّها المشاعر الخالدة عند جنسي وذلك مماثل على وجه الدقة لواحد من السادة المشهورين بذلك! أجل وهو يمكن أن يضيف بعدُ على وجه الخصوص قائلاً إنَّ شعوره قوي ينبئ بالمعاناة بلا ريب وأن تعبيره حافل بالإثارة وهو مع ذلك من البساطة بحيث يفهمه الجمهور. أما يتّصل بأفكاره فلا ريب أنّها تتخلف وراء شعوره غير أن هذا يتلاءم كلّ التلاؤم مع المطالب السائرة ولم يسبق له أن شكّل عائقاً في الأدب.

واحتبس آرنهايم دخان سيجاره مرّة أخرى بين شفتيه وقد شعر بصدمة مزعجة و ظلّت شفتاه لحظة من الزمان مفتوحتين في صورة حاجزَيْ حدود مرفوعين جزئياً بين شخصه وبين العالم الخارجي. وكان قد أثنى على بضعة من هؤلاء الشعراء المتَّسمين بالنقاء بوجه خاص في كلّ مناسبة لأنّه أمر لائق وآزرهم في بعض المناسبات بالمال أيضاً غير أنّه لم يكن في الحقيقة يطيقهم هم وأشعارهم المتغطرسة كما لاحظ ذلك الآن. وقال في نفسه: «هؤلاء السادة أهل الحسب والنسب الذين لا يستطيعون حتى أن يعولوا أنفسهم يجب في الأساس أن يدخلهم المرء في حديقة لحماية البيئة الطبيعية بصورة مشتركة مع آخر الثيران البرية الأمريكية والنسور!». ولما كان الوقت غير ملائم لمؤازرتهم كما كان المساء المنقضي قد أظهر ذلك فقد انتهى تفكير آرنهايم نهاية لا تخلو من كسب له.

[٩٠]

الإطاحة بعرش الإيديوقراطية

يبدو أنَّ من الظواهر المبرَّرة تبريراً جيّداً أنّه في العصور التي يضاهي فكرُها سوقاً للسلع يعدّ من قبيل النقيض الصحيح لذلك شعراء لا يمتّون إلي عصرهم بأية صلةعلى الإطلاق. فهم لا يلوّثون أنفسهم بالأفكار المعاصرة ويقدمون ما يسمّى بالشعر النقي ويتحدَّثون إلى المؤمنين بهم بلهجات منقرضة وكأنّهم عائدون من الخلود لتوّهم لمجرّد إقامة عابرة على الأرض على نحو مماثل بدقَّة لرجل ذهب إلى أمريكا قبل ثلاثة أعوام وبات يتحدَّث الألمانية مهشَّمةً في زيارته للوطن. وهذه الظاهرة هي على وجه التقريب كما لو أن امرءاً وضع فوق فجوة جوفاء قبّة جوفاء ولما كان الخواء السامي لا يزيد على أن يضخّم الخواء العادي فليس هناك آخر الأمر شيء أكثر طبيعية سوى أن يُعْقِبَ عصرَ هذا التبجيل للشخصيات عصرٌ آخر يتحوّل تحوّلاً أساسياً عن مجمل الموقف الذي يُمارَس بمسؤولية وعظمة.

وكان آرنهايم يسعى بحذر وعلى سبيل الاختبار وبشعور ينطوي على الإرتياح إلى تأمين نفسه شخصيّاً ضد الأصرار ويجد مكانه في هذا التطوّر القادم حسب تكهّنه. ولم يكن هذا بالأمر التافه بلا ريب. وكان يفكّر في هذا الصدد بكلّ ما رآه في السنين الأخيرة في أمريكا وأوروبا وفي الحماسة الجديدة للرقص وهل كانوا يرقصون الآن على موسيقى بتهوفن العميقة أم كانوا يرقصون على إيقاع نزعة حسية جديدة وفي التصوير حين كان يُفترض أن يتمّ التعبير عن الحد الأقصى بين العلاقات الفكريّة بحدّ أدنى من الخطوط

twitter @baghdad_library

والألوان وفي الفيلم حيث كانت الحركة المعروفة بدلالتها بالنسبة إلى العالم كلّه تجتذب العالم كلّه عن طريق تجديد صغير في مظهرها وأخيراً ببساطة في الإنسان كما كان يعتقد منذ تلك الأيام إذ أقنعته الرياضة أنّه يتحكّم بصدر الطبيعة الكبير بوسائل طفل يتقلّب ويتخبّط. وكان ما يلفت النظر في كلّ هذه الظواهر تعلُّق معيَّن بالمجاز عندما يفهم المرء من ذلك علاقة فكريّة معيَّنة يكون فيها لكلّ شيء معنى أكثر من ذلك الذي يأتيه بطريق الصراحة. فمثلما كانت الخوذةُ وبضعةٌ من السيوف المتصالبة تذكّر بمجتمع عصر الباروك بكلّ الآلهة وحكاياتها ولم يكن امرؤٌ كالسيِّد فون هِنْتس يقبّل الكونتيسة كونتس بل كان ربٌّ من أرباب الحرب يقبّل إلهة العفة يشهد هنتس وكونتس اليوم حين يتعانقان درجة سرعة العصر أو أيّ شيء من مجموعة التصوّرات النموذجية الجديدة التي تبلغ العشرات والتي ما عادت بالطبع تشكّل أوليمباً يحوم فوق الشوارع المرصوفة بأشجار الطقسوس(٢٤) بل تشكّل مجمل البلبلة الحديثة. ففي السينما وعلى المسرح وعلى خشبة مسرح الرقص وفي الحفلات الموسيقيّة وفي السيارة وفي الطائرة وفي الماء وفي الشمس وفي ورش الخياطين وفي مكاتب التجار ينشأ على نحو مستمرّ سطح هائل يتألّف من الإنطباعات والتعبيرات والحركات والتصرّفات والتجارب. ولما كان هذا الحديث في تفاصيله وفي مظهره بعيداً جداً عن التناسق كان مشابهاً لجسم يدور بحيويّة فيندفع كلّ شيء نحو السطح ويرتبط بعضه ببعض هناك بينما يظلّ الداخليّ متخلّفاً غير متناسق في حالة من الغليان والتزاحم. ولو كان آرنهايم قادراً على أن يطلع ببصره بضع سنوات إلى الأمام لكان قد رأى أنَّ ألفاً وتسعمائة وعشرين من السنين من الأخلاق المسيحية وملايين القتلى في حرب مزلزلة وغابة ألمانية من الأشعار كانت تهدر وتصطخب متغنّيةً بشعور الحياء

(٢٤) Taxus: شجر دائم الخضرة من الفصيلة الصنوبرية. (المورد)

عند النساء لم تقدر أيضاً على أن تتردد ساعة حين أخذت أثواب النساء وشعورهن تتقاصر وأخذت بنات أوروبا يخرجن من أثوابهن هنيهة عاريات كما تخرج الموزة من قشرتها خارجات من محرَّمات ألْف عام. ولقد كان خليقاً أن يرى تغيّرات أخرى ما كان ليحسبها ممكنة وليس المهمّ في ذلك ما سيدوم منه أو يعود إلى الزوال مادام المرء يدخل في حسبانه نوعية الجهود الكبرى والعبثية على ما يبدو التي سيكون قد اقتضاها توجيه أمثال هذه الثورات في ظروف المعيشة نحو طريق التطوّر الفكري القائم على المسؤولية عن طريق الفلاسفة والمصوّرين والأدباء بدلاً من الطريق الذي يمرّ بالخياطين وأحدث الأزياء والمصادفات ذلك لأنّ المرء يستطيع من خلال ذلك أن يقدِّر نوعيّة الطاقة الإبداعية التي تتهيأ للسطح مقارنةً بالعناد العقيم للمخ.

هذه هي الإطاحة بعرش الإيديوقراطية بعرش المخ وتحويل موقع الفكر إلى المحيط الخارجي وهو الإشكالية الأخيرة كما كانت تبدو لآرنهايم. وما من شكّ في أن الحياة قد سلكت هذا الطريق دائماً وكانت ماتفتأ تغيّر بناء الإنسان من الخارج إلى الداخل غير أن ذلك كان يتمّ فيما مضى بفرق يتمثّل في أن المرء كان يشعر أنّه ملتزم أن يخرج شيئاً ما من الداخل إلى الخارج. وحتى كلب الجنرال الذي كان هو يتذكَّره في هذه اللحظة على نحو ودي ما كان ليقدر على فهم تطوّر آخر لأنّ المُرافِق الوفيّ للإنسان كان قد صاغه الرجل المستقر المِطواع في القرن الماضي على شاكلته غير أن إبن عمه ديك السهوب البريّ الذي يرقص ساعات بطولها خليق أن يفهم كلّ شيء. ويبدو أنّه عندما ينفش ريشه ويفحص الأرض بأصابع قدميه ينشأ من الروح أكثر مِمّا يكون عندما يُربط عالم على منصة كتابته فكرة بالفكرة التالية. ذلك لأنّ كلّ الأفكار تأتي آخر الأمر من المفاصل والعضلات والغدد والعينين والأذنين والإنطباعات الإجمالية الغامضة التي ينطوي عليها كيس البِشْرة التي تنتمي إليه

twitter @baghdad_library

على وجه الإجمال. وربّما كانت القرون المنصرمة قد ارتكبت خطأً فادحاً إذ كانت تعلق قيمة كبيرة على الفهم والعقل والقناعة والمفهوم والشخصيّة وكانت المسألة كما لو أن المرء أراد أن يعدّ قسم السجلات والمحفوظات أهمّ الأقسام في دائرة ما لأنّ مكتبها يوجد في المركز على الرغم من أنّها ليست إلا دوائر مساعدة تتلقى توجيهاتها من الخارج.

وفجأة وجد آرنهايم وربّما حفزته ظواهر الانحلال الخفيفة التي بعثت فيه الحبّ المنطقة التي يجب البحث فيها عن الفكرة المنقذة والمنظِّمة لهذه الإشكالات: وكانت تمت بالصلة على نحوٍ ما وبطريقة وجدانية إلى التصوّر الخاص بالحجم المتصاعد للمعاملات. وكان ثمة حجم متصاعد من الأفكار والتجارب لا يمكن إنكاره على هذا العصر ولم يكن هناك بدٌّ أن ينشأ نتيجة طبيعية عن تجنّب المعالجة الفكريّة التي تسرق الوقت. وجعل يتصوّر دماغ العصر وقد حل محله العرض والطلَب والمفكر المتكلّف وقد حلّ محله التاجر المنظِّم وجعل يستمتع عفوياً بالمسرحية المؤثِّرة الخاصّة بإنتاج هائل للتجارب التي تترابط وتنحلّ بصورة حرة في صورة نوع من البودينغ الرَجْراج الذي يرتجف في كلّ أجزائه عند كلّ اهتزاز وناقوس عملاق يُرعِد إرعاداً هائلاً إذا ما لمسه المرء أدنى لمسة. أما أن هذه الصور لم تكن تتطابق بعضها مع بعض كلّ التطابق فقد كان هذا نتيجة حالة حالمة أدخَلْنَ فيها آرنهايم. ذلك لأنّه كان يبدو له أن من الممكن للمرء أن يقارن مثل هذه الحياة على وجه الخصوص أيضاً بحلم يشهد المرء فيه في الخارج أعجب الأحداث ويكون فيه في الداخل في الوقت نفسه ساكناً في موقع متوسِّط متضائل الأنا التي ترسل كلُّ المشاعر شعاعها من خلال فراغها مثل أنابيب التوّهج الزرق. فالحياة تفكِّر من حول الإنسان وتنشئ وهي ترقص من أجله الروابط التي يصوغها صياغة عديمة الإتقان بشقّ النفس وعلى نحو بعيد عن أن يكون غنياً بتلك

الأشكال المضاهية للأشكال الهندسية التي يخرجها المِشْكال[٢٥] عندما يستخدم من أجل ذلك العقل. كذلك كان آرنهايم يفكِّر تفكير التاجر وكانت الاستثارة قد بلغت منه حتى رؤوس أصابع يديه وقدميه العشرين حيال التواصل الحرّ الفكري والجسديّ في عصر قادم. وكان يبدو له أنّه ليس من المستبعد أن يكون ثمة شيء جماعيّ منطقيّ عام في طور النشوء وأن الناس يجدون أنفسهم وهم يغادرون الفردية المتقادمة بكلّ تفوّق العنصر الأبيض وملكة الاختراع عنده في طريق العودة إلى إصلاح للفردوس لكي يدخلوا برنامجاً جديداً حافلاً بالتنويع على تخلّف جنة عدن.

وكان ثمة شيء واحد فحسب يحدث أثراً مكدِّراً للصفو. وذلك أنّه مثلما يتمتَّع المرء في الحلم بالمقدرة على أن يُدخلَ في حدث من الأحداث شعوراً لا يمكن تفسيره يتخلل الشخصيّة كلّها فإنه يتمتَّع بالمقدرة ذاتها في اليقظة أيضاً. ولكنَّ عندما يكون في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ويذهب إلى المدرسة فحسب. وهنالك أيضاً يكون ثمة ضروب من الغليان كبيرة على نحو معروف في الإنسان واندفاع متحفّز ومعاناة غير متناسقة. أما المشاعر فكثيرة الإضطرام. ولكنَّ لما يتمايز بعضُها من بعض إلى حدٍّ بعيد. فالحب والغضب وسعادة الإنسان والاستهانة به وبالاختصار كلّ المجرّدات الأخلاقية أحداث اختلاجيّة تغطي العالم كلّه تارة ثم تتقلّص إلى لاشيء تارة أخرى. والحزن والرقة والعظمة والنبل يرفعن قباب سموات عالية فارغة. وماذا يحدث؟ أما من الخارج من العالم المفصَّل فيأتي شكل جاهز ـ كلمة بيت من الشعر ضحكة شيطانية ويأتي نابليون وقيصر والمسيح أو ربّما يأتي أيضاً مجرّد الدموع على قبر الوالدين ـ وينشأ الأثر في ارتباط خاطف. وهذا الأثر المتَّسم بسمة تلميذ

---

(٢٥) Kaleidoskop: أداة فيها قطع متحرِّكة من الزجاج الملون كلّما تغيّر وضعها عكست مجموعة لا نهاية لها من الأشكال والألوان. (المورد)

twitter @baghdad_library

السنة الثانوية الأخيرة يعدّ في كلّ خطوة من خطواته وهو ما يسهل على المرء أن يحيط به بنظرة واحدة تعبيراً عن الشعور وهو التغطية المتناهية في الدقة للرغبة وللإشباع والاستغراق الكامل لتجارب شابّ في حياة نابليون العظيم. ومع ذلك فيبدو أن ارتباط الكبير بالصغير غير قابل للعكس على أيّ نحو من الأنحاء والمرء يشهد ذلك سواء في الأحلام أم في الصبا عندما يكون المرء قد ألقى كلمة عظيمة أو عندما يمسك لدى الإستيقاظ بطريقة غير سعيدة بالكلمات الأخيرة أن هذه ليست في الحقيقة جميلة إلى ذلك الحد غير المألوف كما بدت له. ولا يبدو المرء في نظر نفسه عندئذ متألقاً كلّ التألق عديم الوزن مثل الديك الراقص بل لم يزد على أن نبح القمر بقدر كبير من الشعور مثل ذلك الكلب عند السيِّد الجنرال الذي نال الحظوة من وجوه عديدة.

وإذاً فلم يكن من الممكن هنا أن يصح كلّ شيء ـ كما كان يفكّر آرنهايم مشجعاً نفسه ـ وأضاف يقول وهو يقظان: ولكنَّ يجب على المرء بالطبع أن يمارس عصره بكلّ الجدّ. وأيُّ شيء كان آخر الأمر أهمّ عنده من أن يطبّق مبدأ الإنتاج الذي ثبتت صحته على صناعة الحياة أيضاً؟

[٩١]

المضاربة في الفكر على الهبوط والارتفاع

على أن الإجتماعات عند آل توتسي استؤنفت الآن استئنافاً نظامياً ومكثّفاً.

وخاطب رئيس القسم توتسي في «المجمع» «ابن العم» قائلاً: «هل تعلّم أن هذا كلّه مسبق وجوده من قبل؟».

وكان يشير بعينه إلى المضمون البشري في مسكنه الذي بات غريباً عنه «لقد سبق أن تكوّنت في بدايات المسيحية وفي القرون القريبة من ميلاد المسيح وفي المرجل اللاهب المسيحي - الشرقيّ الأدنى - الهيلينستيّ - اليهوديّ في تلك الأيام نِحَلٌ لا تحصى» وأخذ يحصي: «الآدميّون وأتباع قابيل والأبيونيّون والحجريّون والأرشيونيّون والمتعففون وأصحاب حجر الحيّة». وبتريّث يلفت النظر آخذ في الاستعجال كذلك الذي ينشأ عندما يريد امرؤٌ أن يخفي الطلاقة والسلاسة التي يتّسم بها عملُه فيُطامِنُ نفسه أخذ يورد قائمة طويلة من الجماعات الدينية المسيحية المبكّرة والسابقة على المسيحية. وكان هذا يحدث انطباعاً مؤدّاه أن يرغب أن يفهم إبن عم زوجته بحذر أنّه يعلم من الأحداث في بيته أكثر مِمّا تأدب على إظهاره لأسباب خاصة.

ثم مضى يروي مع شرح الأسماء المذكورة أن أحد المذاهب كان يقف موقف المعارض من الزواج لأنّه كان يدعو إلى العفة بينما كان المذهب الآخر يطالب بالعفة غير أنَّ المضحك في الأمر أنّه كان يرغب أن يصل إلى هذا الهدف عن طريق طقوس الفجور. وكان أتباع أحد المذاهب يَجُبّون أنفسهم

twitter @baghdad_library

لأنهم يعدّون الجسد النسائي من اختراع الشيطان. وكان الرجل والمرأة عند آخرين يأتيان الإجتماعات في المعابد عاريَيْن. وكان المفكِّرون المؤمنون الذين وصلوا إلى استنتاج مؤدّاه أن الأفعى التي أغوت حوّاء في الفردوس شخصيّة إلهيّة يمارسون اللواط. وكان آخرون لا يطيقون العذارى لأنّ قناعتهم العلميّة كانت تفترض أن السيِّدة العذراء ولدت أطفالاً آخرين سوى عيسى الأمر الذي تكون معه العذرية خطأً خطيراً. وكان بعضهم يفعل على الدوام شيئاً كان الآخرون يفعلون نقيضه وكان كلا الجانبين يفعلان ما يفعلان للأسباب والقناعات ذاتها تقريباً ـ وكان توتسي يروي ذلك بالجدّ الذي يليق بالأحداث التاريخية حتى عندما تكون غريبة مصحوبة بنبرة جانبية متصلة بالنكات الرجالية. وكانا يقفان عند الجدار. وألقى رئيس القسم توتسي بقية لفافته في طبق للرماد وهو يبتسم ابتسامة تنطوي على الاستياء وكان ما يزال يرسل بصره إلى حيث الازدحام وهو شارد واختتم كلامه وكأنّه لم يكن يريد إلا أن يبيّن على وجه الدقة مقدار المدة اللازمة للّفافة بقوله: «أنا أجد أن الحالة الخاصّة باختلاف الرأي والنظرات الذاتية التي كانت سائدة في تلك الأيام تذكِّر تذكيراً ليس بالقليل بمنازعات أدبائنا وسوف تذهب بها الريح غداً. ولو لم ينشأ بفعل الظروف التاريخية المختلفة في الوقت المناسب نظام يقوم على موظَّفي الكهنوت ذو فعالية سياسية لما تبقّى اليوم أثر يذكر من العقيدة المسيحية...».

ووافقه أولريش. «إن موظَّفي العقيدة الذين تدفع لهم الطائفة بصورة نظامية لا يسمحون بالعبث بالتعاليم الرسميّة. وأقصد على وجه الإطلاق أننا نظلم سماتنا العامة وما كان ينشأ بدون إمكان الاعتماد عليها تاريخ أبداً لأنّ الجهود الفكريّة تظل أبداً مثاراً للنزاع وقَبْضَ الريح».

ورفع رئيس القسم بصره على نحو ينم عن سوء الظن ثم أعرض بنظره على الفور من جديد. كانت التصريحات من هذا الطراز مفرطة في الشطط بالنسبة إليه. ومع ذلك فقد كان يسلك مع إبن عم زوجته هذا سلوك المودة والقربى إلى حدٍّ يلفت النظر على الرغم من أنّه لم يعرفه إلا منذ عهد قريب. وكان يروح ويغدو فيوحي مظهره بأنّه يعيش في غمرة ما كان يحدث في بيته في عالم آخر منعزل كان يحجب معناه الأسمى عن كلّ نبدة مستطلعة. غير أنّه كان يبدو في بعض الأحيان أنّه ما عاد يستطيع المقاومة وكان يضطر إلى أن يكشف عن نفسه لامرئ ما لحظة من الزمان وإن كان ذلك على نحو غامض وكان هذا عندئذ في كلّ مرّة إبن العم الذي كان يتحدَّث إليه. وكان هذا نتيجة إنسانية للحرمان من الإعتراف به ذلك الحرمان الذي لم يكن له بدٌّ أن يحتمله في علاقته بزوجته على الرغم من نوبات الرقة العابرة. وكانت ديوتيما تقبله عندئذ مثل فتاة صغيرة وربّما فتاة في الرابعة عشرة عندما تغطي غلاماً أصغر منها بعدُ بالقبلات بدافع انفعال لا يعلم ماهيته إلا الله. وبصورة لاإرادية كانت شفة توتسي العليا تنقبض تحت اللحية الصغيرة المجعَّدة على استحياء. وكانت الأحوال الجديدة التي نشأت في بيته قد وضعته هو وزوجته في أوضاع غير ممكنة. ولم يكن قد نسي شكوى ديوتيما من شخيره بحال من الأحوال. وكان في هذه الأثناء قد قرأ كتب آرنهايم أيضاً وكان على استعداد للحديث فيها وكان في وسعه أن يقرّ ببعض الأمور وأن يعدّ الكثير جداً منها غير صحيح ولم يفهم بعضاً منها بذلك الهدوء المطمئن الذي يفترض بصورة مسبقة أن هذا ذنب الكاتب غير أنّه كان على الدوام معتاداً أن يصدر في أمثال هذه المسائل ببساطة الحكم المحترم للرجل الخبير. وأما التوقع القائم الآن على أن ديوتيما سوف تعارضه في كلّ مرّة أيّ ضرورة إقدامه معها بصورة مشتركة على خوض هذه المناقشة العويصة فقد كان يحسّ به تغييراً بعيداً عن الصواب في حياته الخاصّة إلى حدٍّ لم يستطع معه أن يفصل في أمر حديث ما بل كان خليقاً أن

twitter @baghdad_library

يفضّل ضمن أمنياته نصف الواعية أن يطلق النار على نفسه وعلى آرنهايم. وقلّص توتسي فجأة جفني عينيه البنيتين الجميلتين مستاءً وقال في نفسه إنّه يجب عليه أن يكون أكثر حزماً في الإنتباه إلى حالاته النفسية. أما إبن العم إلى جانبه (ولم يكن حسب وجهة نظره على الإطلاق رجلاً يجوز للمرء أن يوطد معه الصلات!) فكان يذكّره بزوجته في الحقيقة عن طريق الرابطة المعنوية الخاصّة بصلة القربى فحسب وهي تلك الرابطة التي قلّما كانت تحفل بمضمون حقيقي وكان قد لاحظ منذ عهد طويل أيضاً أن آرنهايم أفسد بالتدليل هذا الرجل الحديث السن بطريقة حذرة معيَّنة الأمر الذي كان هذا يكشف عن نفور ظاهر منه: وكانت هاتان ملاحظتين غير حافلتين بالمضمون حقاً ومع ذلك فقد كانتا كافيتين لبعث الإضطراب لدى توتسي بمودّة لا سبيل إلى تفسيرها. وفتح عينيه البنيتين ونظر بعينين كبيرتين كعيني البوم بدون أن يقصد إلى رؤية شيء.

وكان إبن عم زوجته يرسل النظر أمامه آخر الأمر على نحو مماثل له بوجه خاص في أفة تنمّ عن الملل ولم يكن قد لاحظ فترة توقُّف الحديث مجرّد ملاحظة. وأحسّ توتسي أنّه لا بدّ من قول شيء. وكان يشعر بالقلق كما لو أن الصمت يمكن أن يبوح بسرّ الإنسان الذي يعاني من الخيالات. وعلّق وهو يبتسم وكأن القول في موظَّفي العقيدة كان لا بدّ له أن ينتظر الإذن بالدخول أمام أذنيه حتى الآن قائلاً: «إنه ليسرُّك أن تسيء النظرة إلى كلّ شيء وأن زوجتي لا تسيء صنعاً بلا ريب إذ ينتابها شيء من الخوف من مساعدتك على الرغم من كلّ تعاطفها القائم على أواصر القربى. وإذا جاز لي أن أعبّر بهذه الطريقة فإن أفكارك المتَّصلة برفاقك في الإنسانية تميل إلى المضاربة على الهبوط».

وردّ أولريش قائلاً بسرور: «هذا تعبير ممتاز وإن كنت مضطراً إلى الرضى بالاكتفاء به! ذلك لأنّ تاريخ العالم هو الذي كان يضارب على الدوام في الإنسان على الإِرتفاع فهي على وجه التقريب من قبيل ما تحاوله هنا زوجتك عن طريق الإيمان بقوّة الأفكار. وكذلك يعدّ الدكتور آرنهايم على قدر ما يستطيع المرء أن يطمئن إلى كلامه مضارباً على الارتفاع. وفي مقابل ذلك يترتّب عليك من حيث كونك مضارباً على الانخفاض بحكم المهنة أن تكون لك في وسط هذه الجوقة من الملائكة أحاسيس وَدِدْتُ لو أطّلع عليها».

وجعل يتفحّص رئيس القسم بنظراته باهتمام. وسحب توتسي علبة لفافاته من جيبه وهزّ منكبيه وأجاب قائلاً: «لماذا تعتقد أن من المفروض أن يكون تفكيري في هذا الصدد مختلفاً عنه لدى زوجتي؟». وكان يريد أن يرفض تحوّل الحديث إلى منعطف شخصي غير أنّه زاد في قوّة هذا التحوّل بجوابه وكان من حسن الحظ أن الآخر لم يلاحظ هذا ومضى قائلاً: «إنما نحن كتلة تتخذ كلّ صورة تدخل فيها بهذه الطريقة أو تلك!».

وردّ توتسي متهرّباً: «هذا يتجاوز مستواي».

وسرّ أولريش بهذا. كان هذا مناقضاً له هو نفسه وكان يستمتع أيّما استمتاع بالحديث إلى رجل لا يستجيب إلى الإثارة الفكريّة بل لا يملك وسيلة أخرى للدفاع أو يريد استعمالها سوى التذرّع بكلّ شخصه مرّة واحدة. وكان نفوره الأصلي من توتسي قد تحوّل إلى النقيض منذ عهد طويل في مقابل التصنّع في بيته غير أنّه لم يكن يفهم لماذا كان توتسي يصبر على هذا وكان يتكهّن تكهّنات شتى في هذا الصدد. وقد تعرّف عليه ببطء شديد مثل الحيوان الذي يرقبه المرء من الخارج بدون الإنطباع المُخفّف الذي تحقّقه الكلمة لدى البشر الذين يتحدّثون بدافع الحاجة الصريحة. وفي البداية كان قد أعجبه المظهر الجافّ للرجل المربوع المتوسّط القامة والعين ذات اللون القاتم

twitter @baghdad_library

والقوية والتي تشي بشعور كثير الافتقار إلى الاطمئنان والتي لم تكن لها أدنى صلة بعين الموظَّف على أنّها لم تكن تتوافق بطريقة من الطرق مع شخصيّة توتسي الراهنة كما تجلّت من خلال الأحاديث باستثناء أن المرء كان يفترض وهو الأمر الذي لم يكن وروده نادراً أنّها عين فتى كانت تطلّ من بين الملامح الرجولية ذات النوع المختلف كنافذة تفضي إلى جزء من الداخل غير مستعمل ومعزول ومنسيّ منذ عهد طويل. وكان الأمر التالي الذي لفت نظر إبن العم رائحة جسد توتسي. كانت رائحة مثل رائحة خشب الكينا أو علب الثقاب الجافة أو مزيج من مؤثرات الشمس والبحر والعوالم الطريفة وقساوة الجسد والآثار المتفرّقة لما هو مزعج. وكانت هذه الرائحة تبعث لديه على التفكير. ولم يكن من معارفه من يتَّسم بالرائحة الشخصيّة إلا إنسانان: هذا وموز بروجر. وعندما كان يتمثَّل رائحة توتسي الرقيقة الحادّة ويفكّر في الوقت نفسه في ديوتيما التي كان يستقر على سطحها العلويّ الواسع رائحة رقيقة من روائح المساحيق التي لم يكن يبدو أنّها تخفي شيئاً كان المرء يصل إلى تناقضات في الهوى كان يبدو أن التعايش الحقيقي المضحك بعض الشيء بين هاتين الشخصيتين لا يتلاءم معها بطريقة من الطرق وكان على أولريش أن يستعيد أفكاره إلى أن تكون قد تلاءمت من جديد مع تلك المسافة الفاصلة عن الأشياء التي يعدها المرء مباحة قبل أن يتمكّن من الرد على جواب توتسي الرافض.

وشرع يقول من جديد بتلك اللهجة التي توحي بشيء من الملل ولكنّها حازمة والتي تعبّر من الوجهة الإجتماعية عن الأسف للاضطرار إلى إملال الآخرين لأنّ الوضع الذي يوجدون فيه في اللحظة الحاضرة لا يتيح شيئاً أفضل: «إنه لغرور مني لا ريب أن من الغرور أن أحاول أن أحدّد أمامك ما هي الدبلوماسية غير أني أودّ التصحيح. فأنا أحاول أن أقول: إنَّ الدبلوماسية

تفترض أن النظام الذي يمكن الركون إليه لا يمكن بلوغه إلا باستعمال الكذب والجبن وأكل لحوم البشر وباختصار: عن طريق الدناءات ذات الجذور الراسخة لدى البشر. إنّها مثالية على الهبوط إذا شئنا أن نستعمل تعبيرك الصائب مرّة أخرى وأنا أرى أن هذا يبعث على الكآبة إلى حدٍّ ساحر لأنّه يفترض بصورة أولية أن عدم إمكان الاعتماد على قوانا العليا يمهّد لنا السبيل إلى افتراس البشر مثلما يمهّد لنا السبيل إلى نقل العقل المحض».

واعترض رئيس القسم قائلاً: «من المؤسف أنّك تنظر إلى الدبلوماسية نظرة رومانسية وتخلط شأن كثير من الناس بين السياسة والمكر وهذا أمر يمكن أن يصحّ في حالة الضرورة حين كان مايزال يُمارَس من قبل هواة الأمراء غير أنّه لا يصح في عصر يرتبط فيه كلّ شيء بالاعتبارات البورجوازية. ونحن لسنا من ذوي المزاج الكئيب بل نحن متفائلون. ويجب علينا أن نؤمن بمستقبل حسن وإلا فما نحن بمستطيعين أن نصمد أمام ضميرنا الذي لا يعدّ بلا ريب مختلف الطبيعة عن ضمير الآخرين من البشر وعندما تريد أنت أن تستعمل على وجه الإطلاق كلمة افتراس البشر فأنا لا أستطيع أن أقول إنَّ من خدمات الدبلوماسية أن تحوّل بين العالم وبين افتراس البشر ولكنَّ لا بدّ للمرء لكي يستطيع هذا أن يؤمن بشيء أسمى».

وقاطعه إبن العم بدون لف ولا دوران قائلاً: «وبماذا تؤمن؟».

وقال توتسي: «ولكنك ألست تعلَّم! إنني ما عدت بلا ريب غلاماً فأستطيع الإجابة عن ذلك ببساطة! وكل ما أردت أن أقوله إنّه كلّما ازداد سعي الدبلوماسي إلى التوافق مع التيارات الفكريّة في عصره ازدادت مهنته سهولة عليه. ولقد تبيَّن في الأجيال البشريّة الأخيرة على النقيض من ذلك أن المرء يزداد حاجة إلى الدبلوماسية كلّما ازدادت خطوات تقدّم الفكر في كلّ الجوانب وهذا آخر الأمر طبيعيٌ بلا ريب!».

twitter @baghdad_library

وصاح أولريش بصوت بلغ من الحرارة أقصى ما كانت تسمح به صورة سيِّدين يتجاذبان أطراف الحديث على نحو معتدل وهي الصورة التي كانا يريدان أن يعكساها قائلاً: «بالطبع! ولكنَّك تقول بذلك مثل ما أقول! لقد أكدت مع الأسف أن الفكريّ والفاضل لا يكونان قادرين على البقاء بدون مساعدة الشرير والماديّ وأن تجيبني على وجه التقريب بأنّه كلّما توفّر مزيد من الفكر ازدادت الحاجة إلى الحذر. فلنقل إذاً: إنَّ المرء يستطيع أن يعامل الإنسان على أنّه فتى وضيع فلا ينتهي به بهذه الطريقة إلى كلّ شيء تماماً ولكنَّ المرء يستطيع أن يحمّسه وينتهي به إلى كلّ شيء. ومن أجل ذلك نتأرجح بين كلتا الطريقتين. ونحن نخلط كلتا الطريقتين وهذا كلّ ما في الأمر. ويبدو لي أنني أتمتع بتطابق معك أبعد مدى بكثير مِمّا تريد أن تسلّم به».

واستدار رئيس القسم توتسي نحو السائل المزعج ورفعت ابتسامة صغيرة لحيته الصغيرة وأرسلت عيناه المتألقتان نظرة فيها تعبير ساخر مستسلم وكان يود أن ينهي هذا النوع من الحوار إذ كان غير مأمون كالجليد الزَلِق وطفولياً لا جدوى منه كتزلّج العلمان على الجليد الزلق. وردّ بقوله: «انظر ربّما كنت تحسب هذا بربرية غير أني سأفسّره لك: إنَّ التفلسف أمر ينبغي ألّا يباح في الحقيقة إلا لأساتذة الجامعة! وأنا أستثني من ذلك بالطبع كبار فلاسفتنا المعروفين الذين أقدّرهم أيّما تقدير وقد قرأتهم جميعاً غير أنّهم موجودون الآن على نحو ما وأساتذتنا الجامعيون معيّنون من أجل ذلك فهذه مهنة ولا تترتب عليها آثارٌ ما وأخيراً فهناك أيضاً حاجة إلى المعلّمين لكي لا تموت القضيَّة ولكنَّ المبدأ النمساوي القديم وهو أن مواطن الدولة لا ينبغي له أن يفكِّر في كلّ شيء يكون فيما عدا ذلك على صواب. فمن النادر أن ينجم عن ذلك شيء من الخير ومن السهل أن يتَّسم بشيء من الغرور».

ولفّ رئيس القسم لفافة وأخلد إلى الصمت وما عاد يحسّ بحاجة إلى تبرير «بربريته» وكان أولريش ينظر إلى أصابعه المعروقة ذات البشرة السمراء وكان مفتوناً بالغباء الجزئي الوقح الذي قدّمه توتسي. وعلّق بصورة مهذَّبة قائلاً: «لقد عبّرت عن المبدأ ذاته الحديث جداً كما كانت الكنائس تطبّقه منذ آلاف السنين حيال أعضائها والاشتراكية مجدداً». ونظر توتسي إلى الأعلى نظرة عابرة لكي يدرك ما يقصد إليه إبن العم بتلفيقه. ثم توقّع أن يؤدّي هذا من جديد إلى تفكير طويل واستاء بصورة مسبقة لهذه المجاهرة الفكريّة الدائمة. غير أن إبن العم لم يزد على أن جعل يتأمل الرجل ذا العقلية العائدة إلى ما قبل العام ١٨٤٨ إلى جانبه بارتياح. وكان يفترض منذ وقت طويل أن لدى توتسي من الأسباب التي تحمله على أن يحافظ على علاقات زوجته بآرنهايم ضمن حدود معيَّنة وودّ لو يعرف ما كان يرغب في بلوغه من وراء ذلك. على أن المسألة ظلَّت غير مؤكَّدة. وربّما كان توتسي يكتفي بأن يسلك تجاه العمل الموازي سلوك المصارف التي كانت حتى الآن تسلك حياله سلوك المتحفظ قدر الإمكان بدون أن تتخلى مع ذلك تماماً عن أن يكون لها إصبع واحد على الأقل من أصابع اليد في اللعبة ولم يكن يلاحظ في هذا السياق ربيع الحبّ الثاني عند ديوتيما على الرغم من أن هذا بات جلياً للغاية. وكان ذلك قلّما يُفْتَرَض. وكان أولريش يجد متعة في تأمل الثنيات والأخاديد العميقة في وجه جاره والنظر إلى التشكُّل القاسي لعضلات فكّه حين كانت أسنانه تعضّ على مقدّمة اللفافة. وكان هذا الإنسان يبعث في نفسه تصوّراً للرجولة المحضة. وكان قد انتابه شيء من الملل من الحديث الكثير مع نفسه. وكانت المتعة المتمثّلة في أنّه يصوّر لنفسه إنساناً ضنيناً بالكلام مستعذبة لديه كثيراً. كان يتصوّر أنّه لا ريب أن توتسي لم يكن يستطيع وهو بعدُ غلام أن يحتمل الآخرين من الغلمان حين كانوا يكثرون من الحديث وعن هؤلاء كان ينشأ فيما بعد الرجالُ المتذوّقون للأدب على حين كان الفتيان الذين يؤثرون أن يبصقوا

twitter @baghdad_library

من خلال الأسنان على أن يفتحوا فمهم يغدون رجالاً لا يسرّهم أن يفكّروا في شيء لا طائل تحته. وهم يلتمسون في الفعل وفي المكر وفي التحمّل أو الدفاع البسيطين تعويضاً عن الحالة التي لا يُستغنى عنها وهي حالة الشعور والتفكير التي تبعث على الشعور بالعار لديهم على أيّ نحو من الأنحاء بحيث يحبّون أن يستعملوا الأفكار والمشاعر أكثر ما يحبّون ذلك لمجرّد تضليل الآخرين من البشر. وبالطبع فإن توتسي خليق إذا ما أبدى المرء في مواجهته ملاحظة من هذا النوع أن يرفضها مباشرة على أنّها ملاحظة مفرطة العاطفة إذ كان مبدأه عدم السماح مطلقاً بالمبالغات وألوان الخروج على المألوف لا في هذا الإتجاه ولا في الإتجاه الآخر. ولم يكن يجوز للمرء أن يتحدَّث إليه فيما كان يمثله هو أيّما تمثيل من حيث شخصيته مثلما لا يجوز للمرء أن يسأل موسيقياً أو ممثلاً أو راقصاً عمّا يقصده في الحقيقة وكان أحبَّ الأمور إلى أولريش في هذه اللحظة أن يربّت على كتف رئيس القسم أو يمرّ بأصابعه في شعره برقة ليمثّل بطريق التمثيل الإيمائي الصامت التفاهم بينهما.

أما ما لم يكن أولريش يتصوّره فكان مجرّد هذا الشيء الواحد وهو أن توتسي لم يكن يحسّ بالحاجة إلى أن يبصق من خلال أسنانه في خيط رجوليّ من الماء الدافق وهو غلام فحسب بل كان يحسّ بها الآن أيضاً في هذه اللحظة. ذلك لأنّه كان يشعر بشيء من التلطُّف غير المؤكّد على جانبه وكان الموقف غير مريح بالنسبة إليه. وكان يعرف هو نفسه أن التصريح الذي أدلى به عن الفلسفة كان يختلط فيه بالنسبة إلى المستمع الغريب أمور شتى لم تكن مستحبّة على وجه الخصوص. ولا بدّ أن الشيطان هو الذي أنقذه فأعطى «ابن العم» (إذ كان لا يسمّي أولريش دائماً إلا بهذا الإسم لأية أسباب كانت) هذا البرهان الصبياني على ثقته. ولم يكن يستطيع أن يحتمل الرجال الثرثارين وكان يسائل نفسه وهو مذهول أتراه كان يريد في النهاية بدون أن يعلم أن

يكسبه حليفاً في صدد قضية زوجته. واكتست بشرته مع هذه الفكرة لوناً داكناً من العار إذ كان يرفض مثل هذه المساعدة. وبصورة لاإرادية ابتعد عن أولريش ببضع خطوات مقنّعة بقناع سيّء بحجة عارضة.

غير أنّه عاد يفكِّر بعد ذلك في المسألة من وجه آخر فعاد أدراجه وسأل: «هل فكَّرت في الحقيقة ذات مرّة لماذا يطيل الدكتور آرنهايم المُقام عندنا؟». وجعل يتصوّر فجأة أنّه يُظهر عن طريق مثل هذا السؤال بأفضل وجه أنّه يعامل كلّ ارتباط بزوجته على أنه مستبعد.

ونظر إبن العم إليه غير متمالك نفسه في غير حياء. لقد كان الجواب الصحيح قريباً إلى حدٍّ يجعل من العسير أن يجد المرء جواباً آخر. وسأل متعثراً: «أتظن أن لديه سبباً خصوصياً بالفعل؟ إذاً فلن يكون عندئذ إلا سبباً يتّصل بالعمل التجاري؟».

وأجاب توتسي الذي عاد إلى الشعور بأنّه ديبلوماسي قائلاً: «لست بقادر على أن أدعي شيئاً ولكنَّ هل يمكن أن يوجد سبب آخر؟».

وأقرّ أولريش قائلاً بأدب: «بالطبع لا يمكن أن يوجد سبب آخر في الحقيقة. لقد أدليت بملاحظة ممتازة. ولا بدّ لي أن أعترف أنني لم يخطر ببالي شيء على الإطلاق في هذا الصدد. لقد كنت أفترض على وجه التقريب أن للمسألة صلة بميوله الأدبية. وهذا أمر يمكن أن يكون ممكناً آخر الأمر أيضاً بلا ريب».

وجاد رئيس القسم على هذا بمجرّد ابتسامة شاردة. وسأله قائلاً: «وعندئذ يترتّب عليك أن تفسّر لي لأي سبب ينطوي رجل مثل آرنهايم على ميول أدبية؟» غير أنّه ندم على ذلك على الفور لأنّ إبن العم اتّخذ أهبته من جديد لجواب مستفيض. وقال: «ألم يلفت نظرك بعدُ أن قدراً من الناس كبيراً إلى حدٍّ يلفت النظر يحدِّثون أنفسهم في الشارع في هذه الأيام؟».

twitter @baghdad_library

وهزّ توتسي منكبيه في غير مبالاة.

«ثمة شيء لديهم ليس على مايرام. وهم لا يستطيعون على ما يبدو أن يعيشوا تجاربهم بصورة كاملة أو يتكيّفوا معها ولا بدّ لهم أن يُخرجوا شيئاً منها وعلى هذا النحو فيما أتصوَّر تنشأ أيضاً حاجة مبالغ فيها إلى الكتابة. وقد لا يرى المرء هذا بكلّ هذا الوضوح في الكتابة ذاتها إذ يتهيأ عند ذلك بعد الموهبة والتمرّين شيء يتجاوز أصله إلى مدى بعيد ولكنَّ الأمر ممكن التميز لدى القراءة بدون لَبْس على الإطلاق: فعلى وجه التقريب ما عاد ثمة إنسان يقرأ اليوم وكل امرئ يستخدم الكتاب لمجرّد أن ينفض لديه فائضه الخاص بطريقة شاذة في صورة موافقة أو رفض».

وسأل توتسي الآن باهتمام لا شكّ فيه: «وإذاً فأنت ترى أن في حياة آرنهايم شيء ليس على مايرام. لقد قرأت كتبه في الفترة الأخيرة بدافع مجرّد الفضول لأنّ كثيراً من الناس يعطونه فرصاً سياسية بالغة الضخامة ولكنَّ لا بدّ أن أعترف أنني لا أتبيّن ضرورتها ولا غرضها».

وقال إبن العم: «في وسع المرء أن يصوغ السؤال صياغة أكثر شمولاً إلى حدٍّ بعيد. فعندما يكون الإنسان على جانب من الغنى بالمال والنفوذ يستطيع معه أن ينال كلّ شيء بالفعل فلماذا يكتب عندئذ؟ وقد كان عليّ في الحقيقة أن أتساءل بكلّ سذاجة لماذا يكتب كلّ القصاصين المحترفين؟ إنهم يسردون شيئاً لم يوجد وكأنّما كان له وجود. وهذا أمر جليّ. ولكنَّ أتراهم الآن يعجبون بالحياة إعجاب الطفيليّ بالرجل الغنيّ أولئك الذين لا يستطيعون أن يشبعوا من الحديث عنها وإن كانت قلّما تلقي بالاً إليهم؟ أم أنّهم لا يفتأون يجترّون مكرّرين؟ أم أنّهم يمارسون سرقة السعادة إذ يقيمون في الخيال ما لا يستطيعون أن يبلغوه في الواقع أو لا يستطيعون احتماله؟».

وقاطعه توتسي قائلاً: «ألم تكتب أنت أبداً؟».

«إن ما يبعث على قلقي أنني لم أكتب قطّ. ذلك لأنّني لم أبلغ من السعادة بحال من الأحوال القدر الذي لا يضطرني إلى فعل ذلك. لقد اعتزمت أن أقتل نفسي من جرّاء طبيعة شاذة كلّ الشذوذ إذا لم أشعر بالحاجة إلى ذلك عمّا قريب!». وكان يقول هذا برقّة بلغ ما فيها من الجدّ أن هذا المُزاح طفا خارجاً متميزاً من تيار الحوار بدون أن يقصد هو إلى ذلك مثلما يظهر حجر يغشاه التيار.

ولاحظ هذا توتسي وحمله إرهاف حسّه على إعادة تركيب السياق على عجل. وقال مقرِّراً: «وإذاً فجملة القول إنك تقول بذلك مثلما أقول أنا حين أرى أن الموظَّفين لا يشرعون في الكتابة إلا حين يحالون على المعاش. ولكنَّ كيف ينطبق هذا على الدكتور آرنهايم؟».

وأخلد إبن العم إلى الصمت.

وقال توتسي فجأة بصوت خفيض: «هل تعلَّم أن آرنهايم ينظر هنا نظرة متشائمة كلّ التشاؤم بعيدة كلّ البعد عن المضاربة «على الارتفاع» إلى المشروع الذي يسهم فيه إسهام المُضحّي؟!» وكان قد تذكَّر دفعة واحدة كيف استرسل آرنهايم في البداية الأولى في حديث معه ومع زوجته معرباً عن شكّ كبير في الآمال المعقودة على العمل الموازي. أما أن هذا قد خطر بباله في هذه اللحظة بالذات بعد كلّ هذا الوقت الطويل فقد بدا له ذلك بطريقة لم يكن هو نفسه يعرفها ولكنَّه بدا له نجاحاً لدبلوماسيته على الرغم من أنّه لم يستطع أن يطّلع إلا على ما يعدّ في حكم اللاشيء من أسباب إقامة آرنهايم حتى الآن.

وارتسم تعبير المفاجأة على وجه إبن العم بالفعل.

twitter @baghdad_library

وربما كان ذلك بدافع مجرّد التلطّف إذ كان مايزال يريد الصمت. ولكنَّ كلا السيِّدين احتفظا بهذه الطريقة على أيَّة حال حين فرّق بينهما بُعيد ذلك الضيوف الذين اقتربوا منهما بالإنطباع الخاص بحديث مثير.

[٩٢]

من قواعد حياة الأغنياء

وقد كان كلّ هذا القدر من الإهتمام والإعجاب الذي لقيه آرنهايم خليقاً أن يجعل رجلاً آخر سواه سيّئ الظن مضطرباً وقد كان في وسعه أن يتصوّر أنّه يدين به لماله. غير أن آرنهايم كان يرى في سوء الظن آية على التفكير غير النبيل لا يجوز لرجل يتسنّم الذروة أن يبيحه لنفسه إلا على أساس من المعلومات التجارية الصريحة وفضلاً عن ذلك فقد كان على يقين أن الثروة سجية من سجايا الشخصيّة. فكل رجل غني ينظر إلى الثروة على أنّها سجية من سجايا الشخصيّة. وكل رجل فقير ينظر إليها على نحو مماثل. والدنيا كلّها على يقين من ذلك وهي ساكتة عليه إلا أن المنطق يثير بعض الصعوبات إذ يدَّعي أن امتلاك المال ربّما أضفى سجايا معيَّنة غير أنّه لا يمكنه أبداً أن يكون هو بذاته سجية إنسانية. فالظاهر يعاقب الكذب. وكل أنف بشري لامندوحة له عن أن يشم على الفور النسمة الرقيقة من الإستقلال وعادة الأمر وعادة اختيار المرء الأفضل لنفسه في كلّ مكان والإزدراء اليسير للدنيا والمسؤولية المرتبطة بالسلطة والمتَّسمة بالوعي الدائم والناجمة عن دخل كبير مضمون. والمرء يرى من خلال ظاهرة مثل هذا الإنسان أن هذه الظاهرة تغذّيها نخبة مختارة من قوى العالم وتجدّدها في كلّ يوم. فالمال يدور دورته في السطح العلوي من العالم مثل النسغ في زهرة. وهنا لا يوجد إضفاء لصفات ولا اكتساب لعادات ولا شيء يستقبل غير مباشر أو عن طريق طرف ثالث: دمِّر حساب المصرف والكريديّة وإذا الرجل الغني يعود ليس غير مالك للمال

twitter @baghdad_library

فحسب بل هو زهرة ذابلة في اليوم الذي يكون فيه قد أدرك ذلك. والآن يدرك كلّ امرئ بالصورة المباشرة ذاتها التي كان فيما مضى يلاحظ بها صفة غناه صفةَ اللاشيء التي لا سبيل إلى وصفها فيه. تلك الصفة التي تفوح رائحتها مثل سحابة خطرة من القلق وانعدام المصداقية وانعدام الكفاءة والفقر وإذاً فالثروة صفة شخصيّة بسيطة لا سبيل إلى تحليلها من غير تدمير.

غير أن مفعول هذه الصفة النادرة وعلاقاتها يتميّزان بالتعقيد الفائق ويتطلّبان طاقة نفسية كبيرة من أجل التحكّم فيها. فأولئك الذين لا يملكون المال هم وحدهم الذين يتصوّرون الثروة مثل حلم. أما البشر الذين يملكونه فيؤكّدون في مقابل ذلك في كلّ مناسبة يلتقون فيها بأولئك الذين لا يملكونه نوعية الإزعاج الذي يعنيه. وقد كان آرنهايم على سبيل المثال كثيراً ما يفكّر في أنَّ كلّ مدير قسم تقني أو تجاري في مؤسسته يفوق إلى حدٍّ كبير في المقدرة الخصوصيّة ولم يكن له بدّ أن يؤكّد لنفسه كلّ مرّة أنَّ الأفكار والمعرّفة والإخلاص والموهبة والرويّة وما شاكل ذلك إذا نُظر إليها من زاوية نظر عالية بما يكفي ظهرت في صورة صفات يستطيع المرء شراءها لأنّها متوفّرة بكثرة على حين أنَّ المقدرة على استخدامها تقتضي صفات لا يملكها إلا القلائل الذين ولدوا في الذروة ونشأوا عليها. وثمة صفة أخرى ليست بأقل شأناً عند الأغنياء وهي أن كلّ الناس يريدون منهم المال. والمال لا يلعب دوراً وهذا صحيح وأن العديد من الآلاف أو عشرات الآلاف هي شيء لا يحسّ الرجل الغني بوجوده أو عدم وجوده ذلك لأنّ الأغنياء يؤثِرون أن يؤكّد وا أيضاً في كلّ مناسبة أن المال لا يغيّر شيئاً من قيمة الإنسان وهم يريدون أن يقولوا بذلك إنهم سيكونون بمثل القيمة التي يتمتّعون بها الآن بدون المال أيضاً ويتكدّرون دائماً عندما يسيء امرؤٌ آخر فهمهم. ومن المؤسف أنّه ليس من النادر أن يجري لهم هذا على وجه الخصوص في تعاملهم مع أهل

الفكر. فأمثال هؤلاء يغلب أن يكونوا غير مالكين للمال على نحو يلفت النظر بل لا يملكون إلا المخطّطات والموهبة غير أنّهم لا يشعرون من جرّاء ذلك بانتقاص في قيمتهم وما من شيء يبدو أقرب إليهم من أن يلتمسوا من صديق لا يلعب المال دوراً عنده أن يؤازرهم من فيضه من أجل أيّ غرض حسن. وهم لا يدركون أن الرجل الغني يود أن يساندهم بأفكاره وبمقدرته وبجاذبيته الشخصيّة. وفضلاً عن هذا فإن الناس يوقعونه بهذه الطريقة في تناقض مع طبيعة المال. ذلك لأنّ هذا ينزع إلى التكاثر على نحو مماثل بالضبط لنزوع طبيعة الحيوان إلى التكاثر. فالمرء يستطيع أن يضع المال في استثمارات سيئة وعندئذ يتدهور في ميدان علم المال ويستطيع المرء أن يشتري به سيّارة جديدة على الرغم من أن القديمة ماتزال مثل جودة الجديدة أو ينزل في صحبة خيوله الخاصّة بلعبة البولو في أغلى الفنادق في مرابع الاستشفاء العالمية أو ينشئ جوائز للسباق وللفن أو يصرف على مائة من الضيوف في أمسية واحدة مقدار ما يمكن أن تعيش به مائة عائلة طوال عام. وبهذا كلّه يقذف المرء بالمال من النافذة مثلما يفعل من ينثر البذار وهو يعود فيدخل متكاثراً من الباب. أما أن يمنح بهدوء لأغراض وأناس لا يُجدونَه فتيلاً فهذا أمر لا يمكن تشبيهه إلا بعملية اغتيال للمال. ومن الممكن أن يتَّفق أن تكون هذه الأغراض حسنة وأن يكون هؤلاء البشر أناساً لا مثيل لهم وعندئذ ينبغي للمرء أن يشجعهم بكلّ الوسائل إلا بالوسائل المالية. كان هذا مبدأً من مبادئ آرنهايم وقد أكسبه تطبيقُه الدؤوب اشتهارَه بأسهامه الإبداعي والفعّال في التطوّر الفكري في عصره.

وكان آرنهايم يستطيع أيضاً أن يقول عن نفسه إنّه يفكّر تفكير الاشتراكي وكثير من الأغنياء يفكّرون تفكير الاشتراكيين. فهم لا يعترضون على أن ما يدينون له برأسمالهم إنما هو قانون طبيعي من قوانين المجتمع وهم على قناعة

twitter @baghdad_library

راسخة أن الإنسان هو الذي يضفي على المُلْك معناه وليس الملك هو الذي يضفيه على الإنسان. وهم يناقشون بهدوء في أن الملكية سوف تنقطع في المستقبل حين لا يعود لهم وجود ويزيدهم دعماً لقولهم أنّهم يتمتّعون بشخصية إجتماعية أنّه ليس من النادر أن يُؤثر الإشتراكيون حتى الآن التردد على الأغنياء على التردد على الفقراء في ترقّب المستيقن للسقوط الذي لامندوحة عنه. ومن الممكن أن يستمرّ المرء على هذا النحو طويلاً إذا ما أراد أن يصف كلّ علاقات المال التي كان آرنهايم متمكناً منها. على أن النشاط الإقتصادي ليس بالنشاط الذي يمكن للمرء عزله عن سائر ألوان النشاط الفكري وقد كان من الطبيعي بلا ريب أن يمنح أصدقاءه في الفكر وفي الفن المال أيضاً فضلاً عن النصائح حين كانوا يلحّون عليه في الرجاء غير أنّه لم يكن يعطيهم دائماً ولم يكن يعطيهم الكثير أبداً. وكانوا يؤكّد ون له أنّهم لا يقدّرون على أن يلتمسوا ذلك إلا منه وحده في العالم كلّه لأنّه هو وحده الذي يتمتّع بالسجايا الفكريّة اللازمة لذلك أيضاً وكان يصدّقهم في ذلك إذ كان مقتنعاً بأن الحاجة إلى رأس المال تتخلّل كلّ العلاقات البشريّة وهي طبيعية كالحاجة إلى هواء التنفس على حين كان يجامل أيضاً نظرتهم القائلة إنَّ المال قوّة روحية إذ كان لا يطبّق هذه إلا بتحفظ قائم على الشعور المرهف فحسب.

ولماذا يغدو الإنسان موضع الحبّ والإعجاب على وجه الإطلاق؟ أليس هذا سراً يصعب استقصاؤه مستديراً أملس كالبيضة؟ وهل يلقى المرء حباً أكثر صدقاً حين يحدث ذلك بسبب شارب منه حين يحدث بسبب سيّارة؟ وهل يعدّ الحبّ الذي يبعثه المرء لأنّه واحد من أبناء الجنوب الذين لوّحتهم الشمس أكثر اتساماً بالسمة الشخصيّة من ذلك الذي يثيره المرء عن طريق كونه ابناً لواحد من أكبر رجال الأعمال. وكان لآرنهايم في ذلك الزمن من الذين كان فيه كلّ الرجال المسايرين للزيّ السائد تقريباً يحلقون لحاهم ناعمة كما كان له

من قبلُ على وجه الدقة لحية ذقن صغيرة مدبّبة وشارب مقصوص قصّاً قصيراً. وكان هذا الشعور الضئيل باللياقة الغريبة والملائم له مع ذلك في وجهه يذكره بما له بطريقة مستعذبة لأسباب لم تكن واضحة حتى عنده هو حين كان يتحدَّث مفرطاً في نسيان نفسه أمام المستمعيِّن المتحمِّسين.

twitter @baghdad_library

[٩٣]

صعوبة معالجة العقل المدني حتى عن طريق التربية البدنيّة

وكان الجنرال يقعد منذ وقت طويل على أحد المقاعد التي كانت قد ألصقت بالجدار في صورة حلقة حول الميدان الثقافي لألعاب الجمباز والى جانبه «وَليُّه» كما كان يسرّه أن يسمّى أولريش وكان بين كليهما مقعد خال قد انتصب عليه قدحان مشبعان كانا قد غنماهما من المقصف. وكان ثوب الجنرال الأزرق الفاتح قد انحسر إلى الأعلى عند القعود وبات يشكّل فوق البطن غضوناً مثل جبهة تولّاها الهمّ. وكان كلا الرجلين صامتين وهما يصغيان إلى حدِّيث كان يُخاض فيه أمامهما. وقال أحدهم: «لابدّ للمرء أن يعدّ لعب بوپريه عبقرياً. لقد رأيته يلعب في الصيف هنا وفي الشتاء من قبلُ على الريفيرا. وهو إذا ارتكب خطأ أسعفه الحظ. بل إنّه كثيراً ما يرتكب الأخطاء. ولعبه يناقض في بنائه المعرِّفة الواقعية بالتنس. ولكنَّ هذا الإنسان المخصوص بنعمة الله يظلّ خارج قواعد اللعب العادية».

واعترض أحدهم قائلاً: «أنا أفضِّل التنس العلميّ على الحدسيّ. برادوك على سبيل المثال. وقد لا يكون هناك كمال غير أن برادوك قريب منه».

وردّ المتحدث الأوّل قائلاً: «إن عبقرية بوپريه وفوضاه العبقرية التي لا خطة فيها يبلغان الذروة عندما تعجز المعرِّفة!».

وقال رجل ثالث: «ربما كان القول بالعبقرية ينطوي على شيء من الشطط».

«وكيف تريد أن تسميه؟ إنّها العبقرية التي توحي إلى الرجل في أكثر اللحظات بعداً عن الإحتمال بأسلوب المعالجة الصحيح!».

وأسعفه نصير برادوك قائلاً: «أما أنا فسأقول أيضاً «إن الشخصيّة يجب أن تتجلّى سواء أكانت اليد تمسك بمضرب تنس أم كانت تمسك بمصائر الشعوب».

واحتج الثالث قائلاً: «كلا كلا فالعبقرية تنطوي على الغلوّ!».

وكان الرابع موسيقياً. فقال: «أنتم على الباطل كلّ الباطل. فأنتم تتجاهلون التفكير الواقعي الذي يكمن في الرياضة لأنكم مازلتم تألفون على ما يبدو المغالاة في تقدير النظامي والمنطقي. وهذا أمر طواه الزمن على نحو مماثل على وجه التقريب للحكم المسبق القائل إن الموسيقى إغناء للشعور وإن الرياضة مدرسة لإرادة غير أن الأداء الحركي المحض يبلغ من سحره أن الإنسان لا يستطيع أن يحتمله بدون حماية. وهذا ما ترونه في السينما عندما تفتقد الموسيقى. والموسيقى حركة داخلية وهي تنمّي الخيال الحركي. وعندما يكون المرء قد أدرك الجانب السحري في الموسيقى فلن يتردّد ثانية في أن يقرّ للرياضة بالعبقرية فالعلم وحده هو الذي ليس فيه عبقرية إنّه بهلوانية الدماغ!».

وقال نصير بوپريه: «إذاً فأنا على حقّ عندما لا أقر بالعبقرية للعب برادوك العلمي».

ودافع عن هذا نصيرُه قائلاً: «أنت تتجاهل أنّه يجب على المرء هنا أن ينطلق من إحياء جديد لمفهوم العلم!».

وسأل أحدهم قائلاً: «وأيُّ الإثنين يغلب الآخر في الحقيقة؟».

twitter @baghdad_library

ولم يكن أحد يعرف ذلك. كان كلٌّ منهما قد هزم الآخر مراراً ولكنَّ لم يكن أحد يحتفظ في ذهنه بالأرقام الدقيقة.

واقترح أحدهم قائلاً: «لنسأل آرنهايم».

وانفضّت المجموعة. واستمرّ الصمت فوق الكراسي الثلاثة وأخيراً قال الجنرال شتوم متروّياً: «عفواً فقد كنت أصغي طوال الوقت ولكنَّ كلّ هذا كان من الممكن أن يقال أيضاً عن جنرال منتصر باستثناء الموسيقى. فلماذا تجدون ذلك في الحقيقة عبقرياً في لاعب التنس وبربرياً في الجنرال». وكان فكَّر مرات مختلفة منذ أن أسدى إليه وليُّه النصيحة بأن يحاول ذلك مع ديوتيما بالتربية البدنية في الكيفيَّة التي يستطيع بها أن يستعمل هذا المدخل الذي تعلَّق عليه الآمال إلى الأفكار المدنيّة على الرغم من نفوره الأصلي من ذلك. غير أن الصعوبات كانت كبيرة إلى حدٍّ غير مألوف في هذا الإتجاه أيضاً كما لم يكن له بدٌّ أن يحسن في كلّ مرّة مع الأسف.

[٩٤]

ليالي ديوتيما

وكانت ديوتيما تعجب من أنَّ آرنهايم كان يحتمل كلّ هذا البشر بارتياح ظاهر. ذلك لأنّ حالة مشاعرها كانت تتماشى إلى حدٍّ مفرط مع ما سبق لها أن عبّرت عنه بضع مرات بقولها إنَّ شؤون العالم ليست أكثر من قليل من الجَعْجعة حول نفوسنا.

وكان ينتابها الارتباك في بعض الأحيان حين كانت تنظر حواليها فترى منزلها حافلاً بنبلاء العالم والفكر. أما قصّة حياتها فلم يكن قد تبقّى منها إلا التعارض الأكثر ظاهرية بين العمق والسموّ ووضعها من حيث هي فتاة ذلك الوضع المفعم بمحدودية الطبقة الوسطى القائمة على القلق والتوجّس. والآن هذا النجاح الذي يبهر الروح. وكانت تحسّ أنّها مدعوة على الرغم من أنّها كانت تقف الآن على درجة ضيّقة إلى حدٍّ يبعث على الدوَار إلى أن ترفع قدمها مرّة أخرى منتظرة أن يرتفع بها السلم فوق ذلك وكان القلق يجتذبها. وكانت تصارع قراراً بأن تدخل حياة يكون فيها العمل والفكر والنفس والحلم شيئاً واحداً. وما عادت تحمّل نفسها في الأساس هموماً إذ كانت الفكرة التتويجية للعمل الموازي تأبى أن تظهر وكذلك ما عادت النمسا العالمي تثير اهتمامها. وحتى التجربة القائلة إنَّ لكلّ مشروع كبير من مشاريع الفكر البشري مشروع مضاد ما عادت تبعث المخاوف في نفسها فمسار الأشياء هناك حيث تتّسم بالأهميّة لا يكون منطقياً بل هو أقرب إلى أن يذكّر بالبرق والنار. وكانت قد اعتادت ألّا تستطيع أن تتصوَّر شيئاً يتّصل بالعظمة التي كانت تشعر أنّها محاطة

twitter @baghdad_library

بها. وكانت أحب الأشياء إليها أن تدع العمل يظلّ حيث هو وتتزوج آرنهايم مثلما تكون كلّ الصعوبات حسنة بالنسبة إلى الفتاة الصغيرة حين تدعها تسقط وترتمي على صدر أبيها. غير أن النمو الظاهري الذي لا يوصف في عملها كان يمسكها على نحو مُحكَم. فلم تكن تجد الوقت لاتخاذ القرار. وكان الترابط الظاهري بين الأحداث والترابط الداخلي يتابعان سيرهما في صورة سلسلتين مستقلتين إحداهما إلى جانب الأخرى مع محاولات غير مجديّة للربط بينهما. وكان الحال كما كان في زواجها الذي تابع مسيرته حتى على نحو أكثر سعادة من قبل كما كان يبدو على حين كان كلّ ما يتّصل بالنفس يوجد في حالة انحلال.

وقد كان على ديوتيما بحسب طبيعتها أن تتحدَّث إلى زوجها حديثاً صريحاً غير أنّه لم يكن ثمة شيء تستطيع أن تقوله له. أكانت تحبّ آرنهايم؟ لقد كان في وسع المرء أن يطلق على علاقتها به قدراً كبيراً من الأسماء بحيث كان هذا الإسم البالغ الابتذال يردّ أيضاً بين أفكارها بصورة استثنائية. ولم يحدث أن قبَّل أحدهما الآخر وما كان توتسي ليفهم ألوان تعانق الأرواح المتناهية في ظاهريتها حتى ولو اعترفت له بها. وكانت ديوتيما نفسها تعجب من أنّه ما عاد يحدث بينها وبين آرنهايم ما يمكن أن يروى. غير أنّها لم تكن قد اطّرحت أبداً عادة الفتاة الطيّبة الصبية التي ترفع البصر إلى الرجال الطاعنين في السن طامحةً إليهم كلّ الاطّراح. وقد كانت أقرب إلى أن تتمكّن من تصوّر أحداث إنَّ لم تكن ملموسة لمس اليد فهي على أيّة حال ممكنة التصوّر على صعيد الرواية مع إبن عمها الذي كان يبدو لها أحدث سناً مِمّا كانت هي عليه والذي كان يلقى شيئاً من الإزدراء من جانبها منها إلى أن تتمكّن من ذلك مع الرجل الذي كانت تحبه والذي كان يعرف إلى حدٍّ بعيد كيف يقدّرها حين تفضي إليه بمشاعرها في تأملات عامة تتميَّز بسموّ فكري عظيم. وكانت

ديوتيما تعرف أنّه لا بدّ للمرء أن يدخل مترنّحاً في تغيرات تنقض أسس ظروف الحياة وأنّه لا بدّ له أن يستيقظ بين جدرانها الأربعة الجدد بدون أن يستطيع أن يتذكّر حقاً كيف دخل فيها غير أنّها كانت تشعر أنّها عرضة لموثرات كانت تتلقّاها وهي يقظى. ولم تكن خالصة تماماً من النفور الذي كان يحسّ به النمساوي المتوسّط في عصرها تجاه الشقيق الألماني. وكان هذا النفور ينسجم في صورته الكلاسيكية التي كانت في هذه الأثناء قد أصبحت نادرة والعائدة على وجه التقريب إلى تصوّر كان يضع بقلب طيّب رأسَيْ غوته وشيللر المبجّلَين على جسد كان يتغذى بالبودنج اللزج والصلصة وينطوي على شيء من عمقهما اللابشريّ. ومهما يكن من نجاح آرنهايم العظيم في محيطها فإنه لم يكن يغيب عن بالها أن ضروباً من المقاومة ظهرت بعد فترة المفاجأة الأولى ولم تتخذ في أيّ مكان شكلاً ما أو خرجت إلى حيّز العلانية غير أنّها كانت تبعث في نفسها القلق مثل الهَمهَمة وكانت تحملها على أن تعي الفرق الذي كان يكمن بين موقفها الخاص وبين تحفّظ بعض الشخصيّات التي كانت تتوجّه في سلوكها تبعاً لها في العادة. على أن أشكال النفور الشعبي لا تعدّ في العادة شيئاً آخر سوى نفور المرء من نفسه مستخرجاً من أعماق ظلمة التناقضات الخاصّة ومُلصَقاً على ضحيّة مناسبة وهي طريقة أثبتت فعاليتها منذ أقدم العصور حيث كان رجل الطب يستخرج العلة من جسد المريض بقضيب صغير كان يصرّح بأنّه مقرّ الشيطان. أما أن حبيب ديوتيما كان بروسياً فقد كان هذا يبعث الإضطراب في قلبها فضلاً عن كلّ الأشياء الأخرى بمخاوف لم تكن تستطيع أن تكوّن عنها تصوّراً صحيحاً. ولا ريب أنّه لم يكن مِمّا يفتقر إلى التبرير كلّ الافتقار أنّها كانت تطلق على هذه الحالة المفتقرة إلى الحسم والتي كانت تتميّز بوضوح شديد من الخشونة البسيطة للحياة الزوجيّة اسم العاطفة.

twitter @baghdad_library

وكانت لديوتيما ليال مؤرّقة. وفي هذه الليالي كانت تتأرجح بين رئيس من روساء الصناعة البروسيين وبين رئيس من رؤساء الأقسام النمساويّين. وفي حالة انجلاء سماء الحلم الجزئي كانت حياة آرنهايم العظيمة المشبعة بالتألُّق تمرّ بها. وكانت تطير إلى جانب الرجل المحبوب عبر سماء من ألوان التقدير الجديدة ولكنَّ هذه السماء كانت لها زرقة بروسية غير مستحبّة. وفي الليلة الظلماء كان الجسد الأصفر لرئيس القسم توتسي مايزال راقداً إلى جانب جسدها في هذه الأثناء. غير أنّها كانت تحدس ذلك مجرّد حدس مثل رمز أصفر ضارب إلى السواد من رموز الحضارة الكاكانية القديمة وإن كان لا يملك من هذه إلا القليل. أما الواجهة العائدة إلى عصر الباروك في قصر الكونت لاينزدورف صديقها الشريف فكانت وراء ذلك وحول ذلك كان القرب من بيتهوفن وموزارت وهايدن والأمير أويجين يحوم في الجو مثل الحنين إلى الوطن الذي يعود إلى الظهور قبل الهرب. ولم تكن ديوتيما تستطيع أن تحزم أمرها على خطوة الخروج من هذا العالم ببساطة على الرغم من أنّها كانت تكره زوجها من أجل ذلك. وفي جسدها الجميل الكبير كانت الروح تسكن عاجزة كأنّها في بلاد بعيدة مزدهرة.

وقالت ديوتيما لنفسها: «لا يجوز لي أن أكون ظالمة فإنسان الوظيفة والمهنة ما عاد بلا ريب ذا يقظة ولا واسع الأفق ولا متفتّح الذهن ولكنَّ ربّما كانت لديه الفرصة في شبابه من أجل ذلك» وكانت تتذكّر ساعات من أيام زفافها على الرغم من أن رئيس القسم توتسي لم يكن شاباً حتى في تلك الأيام. وقالت في نفسها بقلب طيّب: «لقد حصل على مركزه وشخصيته بالاجتهاد والإخلاص للواجب وهو نفسه لا يبدي حقاً أن هذا إنما تمّ على حساب حياة شخصيته».

وكانت منذ انتصارها الإِجتماعي تفكّر بمزيد من الروية في زوجها وكانت أفكارها تقدّم من أجل ذلك تنازلاً آخر. وكانت تفكّر قائلة: «ما من أحد يعدّ إنسان العقل الخالص وإنسان المنفعة الخالص. فكل امرئ بدأ بأن عاش بنفس حيّة ولكنَّ الحياة اليوميّة تنتهي به إلى التعثّر والعواطف المألوفة تعصف به كالحريق والعالم البارد يحدث فيه تلك البرودة التي تنتهي بها نفسه إلى العجز». وربّما كانت أكثر تواضعاً من أن تلومه على هذا لوماً صارماً في الوقت المناسب. كان الجو بالغ الكآبة. وكان يبدو لها أنّها لن تجد أبداً الجرأة على توريط رئيس القسم توتسي في فضيحة طلاق لم يكن لها بدٌّ أنَ تهزّه أعمق هزة على ما كان يتَّسم به من الإِرتباط المقعد بوظيفته.

وقالت لنفسها فجأة: «إذاً فالخيانة الزوجيّة أولى!».

الخيانة الزوجيّة. هذه الفكرة كانت ديوتيما قد وقعت عليها منذ بعض الوقت.

فإنَّ من المفاهيم غير المجديّة أن يؤدِّي المرء واجبه في المكان الذي وُضع فيه فهو يبذل مقادير من الطاقة من أجل لاشيء. أما الواجب الحقيقي فهو أن يختار مكانه وأن يصوغ العلاقات صياغة واعية! وعندما حكمت على نفسها بالمثابرة على البقاء إلى جانب زوجها كان هناك بلا ريب شقاء لا طائل تحته وشقاء مثمر وكان واجبها يقتضي أن تحسم أمرها. ولا ريب أن ديوتيما لم يسبق لها أبداً حتى الآن أن استطاعت أن تهضم ذلك الجانب المتماجن إلى الحد المخزي والطائش إلى درجة غير مستحسنة وهو الأمر الذي يظلّ عالقاً بكلّ أوصاف الخيانات الزوجيّة التي عرفتها. ولم تكن تقدر على أن تتصوَّر نفسها حقّ التصوّر في مثل هذا الوضع. وكانت ملامسة أكرة باب نُزُل ليلي تبدو لها مثل الغوص في مستنقع. وكان ثمة اطمئنان أخلاقي معيَّن في جسدها يقاوم الإِرتقاء السريع للسلالم الغريبة بالأثواب ذات الحفيف وكانت

twitter @baghdad_library

القبلات الممنوحة على عجل تناقض طبيعتها على نحو يماثل على وجه الدقة كلمات الغزل ذات الرفيف العابر فكانت أكثر جنوحاً إلى الكوارث. أما النزهات الأخيرة وكلمات الوداع التي تنقطع بها الأنفاس في الحنجرة وألوان الصراع العميق بين واجب المحبوبة وواجب الأم فكان هذا يتلاءم تلاؤماً أفضل كثيراً مع استعدادها. غير أنّها لم يكن لها أطفال من جراء نزعة الاقتصاد عند زوجها وكان من المفترض اجتناب المأساة على وجه الخصوص. وهكذا فقد صحّ عزمها على اختيار نموذج عصر النهضة إذا قُدِّر للأمور أن تبلغ هذا المدى. إنّه حبّ يعيش والخنجر في القلب. وما كان في وسعها أن تتصوَّر هذا على وجه الدقة ولكنَّ ما من شكّ في أن هذا كان صادقاً وكانت الحلفيّة أعمدة متصدّعة تتطاير فوقها السحب. وكان الإثم والتغلّب على الشعور بالإثم والمتعة التي يكفّر عنها الألم ترتعد في هذه الصورة وتملأ جوانح ديوتيما بتصعيد واستغراق لا مثيل لهما. وكانت تقول في نفسها: «أينما يجد الإنسان أقصى إمكاناته ويعرف أغنى تفتّح طاقاته فإلى هناك يجب أن ينطلق إذ يكون هناك مفيداً في الوقت ذاته من أجل أعمق تصعيد في حياة المجموع!».

وكانت تنظر إلى زوجها على قدر ما كان يتيحه لها الليل. وما كان هذا الإنسان الذكيّ ليلاحظ على الإطلاق وقائع نفسية معيَّنة مثلما لا تستطيع العين أن تحسّ بالأشعة فوق البنفسجية في الطيف!

كان رئيس القسم توتسي يتنفس غير شاعر بشيء في هدوء تهدهده فكرة مفادها أنّه لا يمكن أن يحدث أثره على ديوتيما أيضاً هنالك جعلت تدير في ذهنها أكثر من مرّة هذه الفكرة: الهَجْر! مفارقة آرنهايم وكلمات الألم الكبيرة النبيلة والتخلي الذي يبلغ طموحه إلى السماء والانفصال البيتهوفيني. وتوتّرت عضلة قلبها القويَّة تحت وطأة هذه المطالب. وكانت أحاديث متألقة تألّق

الخريف مفعمة بكآبة الجبال الزرق البعيدة تملأ المستقبل. ولكنَّ أهجرٌ وسرير زوجي مزدوج؟! ورفعت ديوتيما نفسها في الوسادة وكان شعرها يتكور فوضوياً ثائراً. أما نوم رئيس القسم توتسي فما عاد الآن ذلك النوم البريء بل بات نوم الأفعى التي ينطوي جسدها على أرنب صغير. وكانت ديوتيما توشك أن توقظه وأن تصرخ في وجهه في صدد هذه المسألة الجديدة قائلة إنّها مضطرة أن تغادره مضطرة ومُريدة لذلك!! وقد كان مثل هذا الهرب إلى مشهد هستيريّ في وضعها الفصاميّ أمراً يمكن فهمه على نحو جيّد ولكنَّ جسدها كان أكثر عافية من أن يلائمه ذلك وكانت تشعر أنّه لا يستجيب ببساطة استجابة الفزع الأقصى حيال قُرب توتسي منها. وكانت تفزع فزعاً جافاً من هذا الرعب المفتقد. ثم كانت الدموع تحاول عبثاً أن تجري على وجنتها. غير أن الغريب في الأمر أن التفكير في أولريش كان يعني في هذا الظرف بالذات عزاءً معيَّناً لها. ولم يكن من عادتها أن تفكِّر فيه في هذا الوقت غير أن تصريحاته العجيبة القائلة إنّه يود أن يلغي الواقع وأن آرنهايم يبالغ في تقديره كان لها وقع جانبي غير مفهوم وقعٌ سابح في الهواء كانت ديوتيما تعرض عن الاستماع إليه في وقته غير أنّه كان يعود إلى الظهور في هذه الليالي. وقالت في نفسها وقد تولّاها الغيظ: «إن هذا لا يعني حقاً شيئاً آخر سوى أنّه لا ينبغي للمرء أن يفرط في الإهتمام بما سيحدث فهو أكثر الأشياءاتساماً بالسمة العادية في العالم!» وبينما كانت تترجم هذه الفكرة ترجمة بالغة السوء والبساطة عرفت أنّها كانت لا تفهم شيئاً فيها وأن الإضطراب الذي كان يشلّ رأسها مع وعيها جُملةً والذي كان مثل مسحوق منّوم كان ينبغث من هذا بالذات. وكان الوقت يمرّ مسرعاً كخطّ مظلم. وكان مِمّا يجعلها تشعر بالعزاء أن المرء كان يستطيع على أيّ نحو من الأنحاء أن يجد افتقارها إلى اليأس المستديم أمراً جديراً بالإقرار أيضاً ولكنَّ هذا ما عاد يتّضح لها.

twitter @baghdad_library

وفي الليل كانت الأفكار تنساب في النور حيناً وفي النوم حيناً آخر كالماء في إقليم الكارست الجبلي وحين كانت تعود من جديد إلى الظهور بعد هنيهة كانت ديوتيما تخرج بانطباع مؤدّاه أنّها كانت تحلم بالفوران المُزبد السابق مجرّد حلم. على أن النهر الجياش الصغير الذي كان وراء سلسلة الجبال المظلمة لم يكن مثل التيار الهادئ الذي كانت ديوتيما قد انزلقت إليه آخر الأمر. وكان الغضب والإشمئزاز والجرأة والخوف قد اختلط كلٌّ بالآخر في جريانه ولم يكن يحقّ لأمثال هذه المشاعر أن توجد ولم تكن بالموجودة في معارك النفوس لا إثم على إحدا وكان أولريش قد طواه النسيان من جديد. ذلك لأنّه ما عاد يوجد الآن إلا الأسرار الأخيرة التّوق الأبدي للنفس. أما أخلاقيتها فلا تكمن فيما يفعل المرء أنّها لا تكمن في حركات الوعي ولا في خلجات العاطفة فالعواطف أيضاً (مجرد قليل من الجعجعة حول نفسنا)[٢٦]. فالمرء يستطيع أن يكسب ممالك أو يخسرها ولكنَّ النفس لا تتأثر. والمرء لا يستطيع أن يفعل شيئاً ليصل إلى مصيره غير أن مصيره ينبت أحياناً من أعماق الكيان هادئاً وفي كلّ يوم مثل أنشودة الأجواء. ثم أن ديوتيما كانت ترقد عندئذ يقظى كما لم تكن في ساعة أخرى غير أنّها مفعمة بالثقة. وكانت هذه الأفكار مع خاتمتها المستمدة من العين تتميَّز بأنّها تنوّمها بعد برهة قصيرة كلّ القصر حتى في أشدّ الليالي أرقاً. وكانت تحسّ بحبها ينتقل كرؤيا مخملية إلى الظلمة اللانهائية التي تمتد إلى ماوراء النجوم حباً لا ينفصل عنها ولا ينفصل عنها باول آرنهايم ولا تمسه مخطّطات ولا نتال منه مقاصد. وما عادت تجد وقتاً لتمد يدها نحو كأس الماء المحلّى بالسكر الذي كانت تتركه على منصة النوم الصغيرة لمكافحة أرقها غير أنّها لم تكن تستعمله دائماً إلا في هذه اللحظة الأخيرة لأنَّها كانت تنساه في لحظات الانفعال. وكان صوت الشرب

---

(٢٦) هذه الجملة في الأصل بالفرنسية. (المترجم)

ينبعث خريره كهمس عشّاق وراء جدار إلى جانب نوم زوجها الذي لم يكن يسمع شيئاً من ذلك ثم ارتدت ديوتيما راقدة في وسادتها مستغرقة وغاصت في صمت الوجود.

twitter @baghdad_library

[٩٥]

الكاتب الكبير نظرة من الخلف

إنه أمر يكاد يكون معروفاً إلى الحد الذي يجعل الحديث عنه من نافلة القول: فمنذ أن استيقن مشاهير ضيوفها أن جديّة المشروع لا تقتضيهم جهوداً كبيرة باتوا يتصرّفون تصرّف البشر. أما ديوتيما التي كانت ترى منزلها حافلاً بالصخب والفكر فقد انتابتها الخيبة. ولم تكن تعرف من حيث كونها نبيلة النفس قانون الحذر الذي يتصرّف المرء بموجبه حين يكون شخصيّة غير رسميّة تصرّفاً مناقضاً لتصرفه في مهنته. ولم تكن تعرف أن السياسيين يتناولون إفطارهم وكلٌّ إلى جانب الآخر بصورة ودِّية في قاعة الاستجمام بعد أن يكونوا قد سمّوا أنفسهم في قاعة الإجتماع أوغاداً وغشاشين. أما أن القضاة الذين يكونون قد حكموا بصفتهم الحقوقية على شقيّ بعقوبة فادحة يصافحونه مصافحة المُواسي بعد اختتام التحقيق على أنّه إنسان فهذا أمر كانت تعرفه حقاً غير أنّها لم تجد أبداً في ذلك مأخذاً يؤخذ عليهم. وأما أن الراقصات يعشن خارج مهنتهن الملتبسة في كثير من الأحيان بل كانت تجده مؤثراً. وكذلك كان يبدو لها من الرموز الجميلة أن الأمراء كانوا في بعض الأحيان ينبذون التاج لكي لا يكونوا إلا بشراً. ولكنَّ حين أدركت أن أمراء الفكر أيضاً يخرجون إلى النزهة متنكرين بدا لها هذا السلوك المزدوج غريباً. فأي عاطفة وأي قانون يكمنان في أساس هذا النكران العام ويؤديان بالرجال إلى التظاهر بأنّهم لا يعرفون وهم خارج المهنة شيئاً عن الرجال الذين يكونونهم داخل المهنة؟ وذلك أنّهم يظهرون بعد اختتام عملهم في مظهر يماثل على وجه الدقة

مكتباً رُفع أثاثه بعد العمل فحُفظت أدوات الكتابة في الأدراج ونُصبت المقاعد فوق الطاولات وعلى هذا فإن الواحد منهم يتألّف من رجلين ولا يعرف المرء أتراهم يثوبون إلى أنفسهم في الحقيقة عند المساء أم في الصباح؟

وعلى الرغم من أنّه كان يتملّقها إلى حدٍّ بعيد أنَّ حبيب روحها كان يحظى بإعجاب كلّ الرجال الذين كانت قد حشدتهم حولها وكان يحتكّ بأحداث السن احتكاكاً نشيطاً على وجه الخصوص فقد كان يثبّطها مع ذلك في بعض الأحيان أن تراه منهمكاً في هذا النشاط. وكانت ترى أن أمير الفكر لا يجوز له أن يجعل شغله الشاغل الاحتكاك بنبلاء الفكر العاديين ولا ينبغي له أن يكون منفتحاً على سوق الأفكار المحتدم.

وكان السبب يكمن في أن آرنهايم لم يكن أميراً من أمراء الفكر بل كان كاتباً كبيراً.

والكاتب الكبير خليفة أمير الفكر وهو يمثّل في عالم الفكر الاستعاضة عن الأمراء بالأغنياء وهي تلك الاستعاضة التي حدثت في عالم السياسة. فمثلما كان حال أمير الفكر في عصر الأمراء ينتمي الكاتب الكبير إلى عصر الحرب الكبرى والبيت التجاري الكبير. إنّه صورة خاصة من صور ارتباط الفكر بالأشياء الكبيرة. وأقل ما يطلب من المفكر الكبير بناء على ذلك أن يكون مالكاً لسيارة ولا بدّ له أن يسافر كثيراً وأن يُستقبل مِنْ قِبَلِ الوزراء وأن يلقي المحاضرات وأن يوحي إلى رؤساء الرأي العام بأنّه يمثّل قوّة لا يستهان بها من قوى الضمير. إنّه المسؤول عن شؤون فكْر الأمة حين يقتضي الأمر إثبات الإنسانية في الخارج وهو يستقبل حين يكون في الوطن كبار الضيوف وعليه فوق هذا كلّه أن يفكّر في أعماله التي لابدّ أن يؤديها بمرونة فنّان السيرك الذي لا يجوز أن يلاحظ عليه المرء الإجهاد. ذلك لأنّ الكاتب الكبير لا يعدّ بحال من الأحوال وببساطة مثل الكاتب الذي يكسب الكثير من المال وهو لا يحتاج

twitter @baghdad_library

أبداً إلى أن يكتب «الكتاب الأكثر قراءة» في العام أو الشهر بل يكفي ألّا يكون له شيء من الاعتراض على هذا الأسلوب في التقييم. ذلك لأنّه يتبوأ مكانه في كلّ هيئات التحكيم ويوقّع على كلّ البيانات ويكتب كلّ المقدّمات ويلقي كلّ خطب الاحتفال بأعياد الميلاد ويدلي برأيه في كلّ الأحداث الهامّة ويستدعى حيثما اقتضى الأمر تبيان مدى ما وصلت إليه الأمور من التقدّم. ذلك لأنّ الكاتب الكبير لا يمثّل في كلّ ألوان نشاطه مجموع الأمة أبداً بل لا يمثّل على وجه الخصوص إلا شطرها الأكثر تقدماً النخبة العظيمة وهي توشك أن تتحوّل إلى أكثرية وهذا يجعله محاطاً بتوتر فكري دائم. وبالطبع فإن الحياة في تطوّرها المعاصر هي التي تؤدي إلى صناعة الفكر الكبرى مثلما تدفع الصناعة على نحو معكوس إلى الفكر والى السياسة إلى التحكّم في الضمير العام. وفي الوسط تتلامس كلتا الظاهرتين. ومن أجل ذلك فإن دور الكاتب الكبير لا يلفت النظر إلى شخصيّة معيَّنة مثلاً بل يمثّل شخصيّة على لوحة الشطرنج الإجتماعية فيها قاعدة للّعب وواجب كما صاغه الزمن. أما أولئك الذين يجاهدون في سبيل الخير في هذا الزمن فيمثّلون وجهة النظر القائلة إنّه قلّما يُجديهم أن يكون لفلان من الناس فكّر (فالمتوفر من هذا كثير بحيث لا يهمّ أن يكون أقلّ قليلاً أو أكثر قليلاً) بل يجب على المرء أن يكافح اللافكر ومن أجل ذلك تمسّ الحاجة إلى إظهار الفكر ورؤيته ونقله إلى حيّز الفعل. ولما كان الكاتب الكبير ملائماً لذلك ملاءمة أكثر حتى من كاتب أكبر منه ربّما ما عاد الكثيرون يستطيعون فهمه فإنّ القوم يسهمون قدر طاقتهم في الوصول بالعظمة إلى النطاق الواسع حقاً.

وعندما يفهم المرء هذا على هذا النحو فإنه لم يكن يترتّب على كون آرنهايم يعني واحدة من التجسيدات الاختبارية الأولى لهذه العلاقات وإن كانت تجسيدات مكتملة إلى حدٍّ بعيد إمكان توجيه لوم شديد إليه. ومع ذلك

فقد كان هذا يقتضي استعداداً معيَّناً على أيَّة حال. ذلك لأنّ معظم الكتاب يودّون لو كانوا كتاباً كباراً إذا ما استطاعوا ذلك فحسب. ولكنَّ شأن هذا كشأن الجبال. فبين جبل جراتس وجبل القديس بولتن يوجد كثير من الجبال التي كان من الممكن أن تظهر على نحو مماثل بالضبط لجبل مونتي روزا إلا أنّها شديدة الانخفاض. وإذاً فالشرط الأولي الأكثر حتمية لكي يغدو الإنسان كاتباً كبيراً يظلّ يتمثّل في أن يكتب المرء كتباً أو مسرحيات تلائم الرفيع والوضيع. ولا بدّ للمرء أن يعمل قبل أن يستطيع أن يحدث الأثر الطيّب. وهذا المبدأ هو الأرضّية الخاصّة بكلّ حياةٍ لكاتب كبير. وهذا مبدأ رائع موجه ضد كلّ إغراءات العزلة وهو على وجه الخصوص مبدأ غوته الخاص بالعمل ومفاده أن على المرء ألّا يتحرَّك إلا في وسط العالم الودي وعندئذ يأتي كلّ شيء آخر من تلقاء نفسه. ذلك لأنّ الكاتب حين يشرع في العمل يطرأ تبدّل هام في حياته فيكفّ ناشره عن التعليق بالقول إنَّ التاجر الذي يتحوّل إلى ناشر يشبه مثالياً مأساوياً لأنّ من الممكن أن يحقّق كسباً بطريقة مختلفة كلّ الاختلاف لو أن القماش أو الورق لم يفسدا بالطباعة. أما النقد فيكتشف فيه موضوعاً نبيلاً لإبداعه. ذلك لأنّ النقاد لا يكونون في كثير جداً من الأحيان أناساً أشراراً بل هم بفضل ظروف العصر غير الملائمة شعراء غنائيون سابقون لا بدّ لهم أن يعلّقوا قلوبهم بشيء ما لكي يتمكّنوا من الإعراب عمّا في نفوسهم وهم شعراء غنائيون للحرب أو للغرام تبعاً للمحصلة الداخلية التي يجب عليهم أن يقدموها على نحو ملائم. ومن المفهوم أنّهم يفضّلون أن يختاروا من أجل ذلك كتاب الكاتب الكبير بدلاً من كتاب الكاتب العادي. على أنَّ لكلّ إنسان قدرة على العمل محدودة بالطبع تتوزع أفضل نتائجها بسهولة على ما يصدر حديثاً في كل عام بأقلام كبار الكتّاب. وهكذا يتحوّل هؤلاء إلى صناديق ادخار من أجل الازدهار الفكري القومي إذ يجتذب كلّ منها التفسيرات النقدية التي لا تعدّ بحال من الأحوال مجرّد تأويلات بل

twitter @baghdad_library

فقرات إضافية بصورة مباشرة بينما لا يتبقّى لكلّ الأمور الأخرى إلا القليل نسبياً غير أن هذا لا يتنامى إلى أقصى مداه إلا عن طريق كتاب المقالات والتراجم والمؤرِّخين الصحفيين الذين يشبعون حاجتهم من رجل عظيم. وإذا أردنا أن نتحدث بالأسلوب المهذّب فإنَّ الكلاب تفضّل من أجل أغراضها المبتذلة كلّ الابتذال الركن الحافل بالحياة على الصخرة المنعزلة. فكيف يفترض في البشر الذين يحدوهم الدافع الأسمى إلى الوصول بأسمائهم إلى الشهرة أن يختاروا صخرة منعزلة على نحو جليّ! وما هي إلا هنيهة وإذا الكاتب الكبير ما عاد كائناً قائماً لوحدة بل بات يمثّل تكافلاً معيشياً ونتيجةً من نتائج مجتمع العمل الوطني بأدق معانيه. وهو يشهد أجمل توكيد تستطيع الحياة أن تقدِّمه ومفاده أن ازدهاره يرتبط ارتباطاً وثيقاً إلى أقصى الحدود بازدهار عدد لا يحصى من البشر الآخرين.

ويبدو أن هذا هو السبب في أنَّ المرء يجد أنَّ من السمات العامة في شخصيّة الكاتب الكبير شعور حاد بحسن السلوك أيضاً. أما الوسائل القتالية للكتابة فلا يستعملونها إلا حين يشعرون بتهديد لمكانتهم وفي كلّ الحالات الأخرى يتميّز سلوكهم بالتوازن والرضى. وهم يتّسمون بالتسامح الكامل تجاه التفاهات التي تقال في الثناء عليهم. وليس من اليسير عليهم أن يتنزّلوا إلى مستوى مناقشة الكتاب الآخرين ولكنَّهم حين يفعلون ذلك فمن النادر عندئذ أن يتملّقوا رجلاً من ذوي المراتب العالية بل يفضّلون أن يشجِّعوا واحدة من تلك المواهب المتواضعة التي تتألف من تسع وأربعين في المائة من الموهبة وواحد وخمسين في المائة من عدم الموهبة ويكونون بفضل هذا المزيج بارعين في كلّ ما يحتاج فيه المرء الى الطاقة ولكنَّ الرجل القوي يمكن أن يلحق الأذى بحيث يتبوأ كلّ منهم عاجلاً أو آجلاً مركزاً له نفوذه في الأدب. ولكنَّ ألم يتجاوز هذا الوصف بذلك ما هو خاص بالكاتب الكبير وحده؟ وثمة

مثل جيّد يقول: يطير الحمّام إلى حيث يوجد الحمام. ومن الصعب على المرء أن يكوّن تصوّراً عن احتدام الجو الانفعالي في هذه الأيام حتى حول الكاتب العادي قبل أن يغدو كاتباً كبيراً بوقت طويل وحتى وهو بعدُ معلَّق على الكتب أو محرر لصفحة الأدب والفن أو موظَّف في الإذاعة أو عامل في دمج الأفلام أو محرِّر في صحيفة أدبية صغيرة. على أن بعضهم يشبه صغار الحمير والخنازير المتخذة من المطاط والتي لها ثقب في مؤخرتها تنفخ منه وعندما يرى المرء الكتّاب الكبار يفكِّرون بعناية في أمثال هذه الظروف أو يجتهدون في أن يكوّنوا من ذلك صورة شعب بارع يقدّر عظماءه أفلا يجب عليه أن يشكر لهم هذا؟ إنهم يضفون النبل على الحياة كما هي عن طريق اهتمامهم. ولنجرّب المرء أن يتصوّر النقيض وهو رجل يكتب فلا يفعل هذا كلّه إذاً لكان عليه أن يرفض الدعوات الحارة وأن يصدّ الناس وأن يقيّم المديح لا تقييمَ الممدوح بل تقييمَ القاضي وأن يمزّق أوصال المعطيات الطبيعية وأن يتناول إمكانات العمل على أنّها مشبوهة لمجرّد أنّها كبيرة ولن يكون لديه ما يقدّم في صورة عطاء مقابل سوى أحداث في ذهنه يصعب التعبير عنها ويصعب تقييمها وإنجاز كاتب لا يحتاج العصر الذي يتوفّر لديه الكاتب الكبير إلى أن يعلّق عليها الكثير من الأهميّة بالفعل! ألن يكون مثل هذا الرجل واقفاً خارج نطاق المجتمع ويضطر إلى الانسحاب من الواقع مع كلّ ما ينطوي عليه هذا من النتائج؟!

لقد كان هذا هو رأي آرنهايم على كلّ حال.

twitter @baghdad_library

[٩٦]

الكاتب الكبير نظرة من الأمام

على أن الصعوبة الحقيقيّة في حياة الكاتب الكبير لا تنشأ إلا حين يتصرّف المرء في الحياة الثقافية تصرّفاً تجارياً ولكنّه يتكلّم بكلام مثالي صادرٍ عن تقليد قديم. وقد كان هذا الإرتباط بين التجارة والمثالية هو ما كان أيضاً يتبوّأ مركزاً حاسماً في جهود آرنهايم الحيويّة.

ومثل هذه الإرتباطات غير الموافقة للعصر توجد اليوم في كلّ مكان. ففي الوقت الذي بات فيه الموتى يُنقلون بسرعة خَبَب البنزين إلى المقبرة لا يتخلى الناس مع ذلك عن وضع خوذة وسيفين متصالبين من سيوف الفرسان في الجنازة المنقولة بالسيارة فوق غطاء السيارة. والأمر كذلك في كلّ المجالات. فالتطوّر البشري مسيرة ممدودة مدّاً متطاولاً. ومثلما كان الناس قبل جيلين من البشر مايزالون يزينون رسائلهم التجارية باللفتات الهزلية غير المقصودة ذات السمة الرومانسية ربّما كان في وسع المرء منذ اليوم أن يعبّر عن كلّ العلاقات من الحبّ إلى المنطق المحض بلغة العرض والطلب والتغطية والخصم وهي على أيّة حال لغة مماثلة لتعبير المرء عنها بأسلوب علم النفس أو الأسلوب الديني. ولكنَّ المرء لا يفعل هذا مع ذلك. ويعود السبب إلى أن اللغة الجديدة ماتزال بعيدة عن الثقة بعداً مفرطاً. وفي هذه الأيام يعاني رجل المال الطموح من وضع صعب. فإذا أراد أن يكون ندّاً لقوى الحياة القديمة لم يكن له بدّ أن يربط نشاطه بالأفكار الكبرى غير أن الأفكار الكبرى التي يتمّ الإيمان بها بدون معارضة ما عاد لها وجود اليوم. ذلك لأنّ هذا

الحاضر المتشكك لا يؤمن بالله ولا بالإنسانية ولا بالتيجان ولا بالأخلاق ـ أو أنّه يؤمن بكلّ شيء معاً الأمر الذي يفضي إلى الشيء ذاته. وإذاً فقد كان على التاجر الذي لا يريد أن يستغني عمّا هو عظيم مثلما لا يريد الاستغناء عن بوصلة أن يستعمل المفهوم الفني الديمقراطي لكي يستعيض عن أثر العظمة الذي لا يمكن تقديره بعظمة الأثر القابلة للقياس. فالعظيم الآن هو ما يعدّ عظيماً غير أن هذا يعني أن العظيم أيضاً في نهاية الأمر هو ما يُنادى بعظمته بفعل الإعلان البارع على أنّه لا يتهيّأ لكلّ امرئ أن يهضم نواة العصر هذهِ المتناهية في العمق بدون صعوبة وقد قاوم آرنهايم بكثير من المحاولات في هذا السبيل على النحو الذي يجب عمله به.

فالرجل المثقَّف يستطيع هنا مثلاً أن يفكِّر في العلاقة بين البحث والكنيسة في العصر الوسيط إذ لم يكن للفيلسوف بدٌّ أن يتفاهم مع الكنيسة إذا أراد أن يحظى بالنجاح وأن يؤثِّر في تفكير معاصريه ومن أجل ذلك كان يمكن للهرطقة الرخيصة أن تعني أنَّ هذه الأغلال كانت خليقة أن تعوق ارتقاءه إلى العظمة. ولكنَّ الحالة كانت نقيض ذلك. إذ يرى المطَّلعون أنّه لم ينشأ عن ذلك إلا جمال في التفكير قوطي لا مثيل له. وإذا كان الناس يستطيعون أن يراعوا الكنيسة مثل هذه المراعاة بدون إلحاق الأذى بالفكر فلماذا لم يكن يفترض جواز مراعاة الإعلان أيضاً؟ أوَلا يستطيع من يريد إحداث الأثر أن يحدثه بهذا الشرط أيضاً؟ لقد كان آرنهايم على يقين أنَّ من علائم العَظَمَةِ ألّا يمارس المرء كثيراً من النقد بحق عصره الخاص! وذلك أن أفضل الفرسان مع أفضل الخيل إذ كان على غير وفاق معه كان تجاوزه للعقبة أسوأ من فارس ينسجم مع حركات حصانه العجوز.

وثمة مثال آخر: غوته! ـ لقد كان عبقرياً ليس من اليسير أن تنجب الأرض له ثانياً غير أنّه كان أيضاً الإبن الذي أُنعِم عليه بالنبالة لعائلة من التجار

twitter @baghdad_library

الألمان وكان كما كان يحسّ به آرنهايم الأوّل قاطبةً بين كبار الكتاب الذين أبدعتهم هذه الأمة وكان آرنهايم يتّخذ منه مثالاً في كثير من الأمور غير أن قصته المفضّلة كانت القضيّة المعروفة وهي كيف أن غوته تخلّى عن يوهان جو تليب فيشته وقت الشدة حين عوقب عقوبة تأديبية وهو أستاذ للفلسفة في ڤيينا على الرغم من أنّه كان يتعاطف معه في الخفاء لأنّه أعرب عن رأيه «على نحو عظيم ولكنّ ربّما كان ذلك بصورة غير لائقة تماماً» في الرب وفي الأشياء الربانية و«كانت طريقته في الدفاع عاطفية» بدلاً من أن يستدرك نفسه «بأكثر الأساليب لطفاً» كما يعلّق على ذلك أستاذ الشعراء المتمرّس بالدنيا في مذكّراته. أما آرنهايم فما كان ليتصرّف الآن مثلما تصرف غوته على وجه الخصوص فحسب بل كان خليقاً أن يحاول بالاعتماد عليه أن يقنع العالم بأن هذا هو وحده سلوك الغوتويّ[٢٧] والمنطوي على الدلالة. وما كان ليكتفي بالحقيقة القائلة إنَّ من الغريب أنَّ المرء يحسّ بالفعل بالتعاطف حين يقترف رجل عظيم أمراً سيئاً أكثر مِمّا يحسّ به حين يتصرّف التصرّف السليم رجل أقلّ منه عظمة بل كان خليقاً فوق ذلك أن ينتقل إلى القول إنَّ الكفاح غير المشروط من أجل إيمانه يعدّ عقيماً مثلما يعدّ أيضاً سلوكاً مفتقراً إلى العمق ويمثل سخرية تاريخية. وأما ما يتّصل بهذه الأخيرة فقد كان خليقاً أن يسمّيها كذلك بالغوتويّة أيضاً وهذا يعني: سخرية الإرتياح والاطمئنان إلى الظروف مع المرح السلوكيّ الذي يضفي عليه المشروعيةَ بعدُ الزمن. وعندما يدخل المرء في حسبانه أن الظلم الذي أصاب فيشته الطيّب المستقيم والمبالغ إلى حدٍّ ما قد بات اليوم بعد ما لا يكاد يبلغ جيلين مسألة خصوصيّة منذ عهد بعيد لا تضيف شيئاً إلى أهمّيته على حين أنَّ أهمّية غوته لم تفقد شيئاً جوهرياً على

(٢٧) نسبة إلى غوته.

المدى البعيد على الرغم من أنّه أساء التصرّف فلابدّ للمرء أن يسلّم بأن حكمة العصر تتطابق في الواقع مع حكمة آرنهايم.

وثمة مثال ثالث يكشف في الوقت ذاته عن المعنى العميق لكلا المثالين الأوليّين ـ وكان آرنهايم محاطاً على الدوام بالأمثلة الجيّدة: وهو نابليون. ويصفه هاينْه في «صور من الرحلات» بطريقة تتطابق إلى حدٍّ بعيد مع مفاهيم آرنهايم بحيث يكون التعبير الأفضل عنها أن تنقل بكلماته الخاصّة التي كان هذا يحفظها عن ظهر قلب فهو يقول متحدّثاً عن نابليون وقد كان في وسعه أن يطبّق ذلك بالقدر نفسه على غوته الذي كان يدافع عن طبيعته الدبلوماسية دائماً بحدة إحساس العاشق الذي يعرف أنّه غير متوافق في قرارة نفسه مع موضوع إعجابه: «مثل هذا الفكر هو الذي يشير إليه كانط حين يقول إننا نستطيع أن نطوّر عقلاً ليس كعقلنا بل هو عقل حدسيّ. فما ندركه عن طريق التأمّل التحليلي البطيء والاستنتاج الطويل كان ذلك العقل قد نظر فيه في اللحظة ذاتها وأدركها إدراكاً عميقاً. ومن هنا جاءت موهبته في فهم العصر العصر الحاضر وتملُّق روحه وعدم إهانته أبداً واستخدامه على الدوام ـ ولكنَّ لمّا كان روح العصر هذا ليس مجرّد روح ثورية بل هو مكوَّن عن طريق التقاء تيّارَيْ كلتا النظريتين الثورية والمضادة للثورية فإنَّ نابليون لم يكن يتصرّف أبداً تصرّفاً ثورياً تماماً ولم يكن يتصرّف أبداً تصرّفاً مضاداً للثورة تماماً بل كان يتصرّف دائماً وفقاً لروح كلتا النظريتين وكلا المبدأين وكلا المَطمَحيْن اللذين كانا يجدان فيه اتحادهما وكان يتصرّف أبداً تبعاً لذلك تصرّفاً موافقاً للطبيعة بسيطاً عظيماً لا يتَّسم أبداً بالفظاظة التشنّجية بل كان يتَّسم أبداً بالدماثة الهادئة. من أجل ذلك لم يكن يمكن أبداً في المجال الفردي. وكانت ضرباته تتمّ دائماً من خلال فنه في فهم الجماهير وتوجيهها ـ أما المكر المعقّد البطيء فلا يميل إليه إلا الرجال التحليليون الصغار على حين يعرف الرجال التركيبيون الحدسيون

twitter @baghdad_library

بطريقة عبقرية رائعة الوسائل التي يتيحها لهم الوقت الحاضر من أجل الربط بطريقة يستطيعون بها استخدام هذه استخداماً سريعاً من أجل هدفهم».

وربما كان من الجائز أن يكون هاينه قد قصد من ذلك شيئاً مختلفاً بعض الشيء عمّا كان يفهمه آرنهايم المعجب به غير أن هذا كان يشعر بنفسه متضمنّةً في كلماته على وجه الخصوص.

[٩٧]

طاقات كلاريسا الخفيّة ومهمّاتها

كلاريسا في الحجرة. كان فالتر قد ضاع منها. وكان معها تفاحة وعليها ثوب نومها. وهذان التفاحة وثوب النوم هما المصدران اللذان كان يتسرّب منهما شعاع دقيق لا تلاحظه العين من الواقع إلى وعيها. لماذا كان موز بروجر يبدو لها موسيقياً؟ لم تكن تعرف ذلك. ربّما كان كلّ القتلة موسيقيِّين. وهي تعرف أنّها كتبت رسالة إلى الشريف لاينزدورف من أجل هذه المسألة وهي تتذكّر المضمون أيضاً على وجه التقريب. ومع ذلك فهي لا تجد المدخل إليه. ولكنَّ ألم يكن الرجل بلا صفات موسيقياً؟

وحين لم يخطر ببالها جواب سليم تركت هذه الفكرة حيث هي.

وتابعت

وبعد هنيهة خطر ببالها أنَّ أولريش هو الرجل بلا صفات. وبالطبع فإن الرجل بلا صفات يمكن أن يكون غير موسيقيّ أيضاً ولكنَّ يمكنه ألّا يكون غير موسيقي.

واستطردت

لقد سبق أن قال عنها: أنت فتاة وأنت تتَّسمين بالبطولة. وكررت قائلة: «فتاة ـ وبطولة!». وتصاعدت الحرارة إلى وجنتيها ونشأ عن ذلك واجب لم يتّضح لها.

twitter @baghdad_library

وكانت أفكارها تندفع في اتجاهين مثلما يكون الأمر في حالة اشتباك بالأيدي. كانت تشعر بالانجذاب وبالارتداد غير أنّها لم تكن تعرف إلى أين وعن أين وأخيراً أغرتها رقّة خافتة تبقّت من ذلك على نحو لم تكن تعرفه لكي تخرج فتبحث عن فالتر فنهضت وطرحت التفاحة جانباً.

وكان يؤلمها أنّها كانت تعذّب فالتر دائماً. وكانت لا تكاد تبلغ الخامسة عشرة من العمر حين لاحظت أنّها قادرة على تعذيبه. ولم تكن تحتاج إلا أن تصيح قائلة إنّ شيئاً ما ليس في الحقيقة على النحو الذي يدّعيه. هنالك كان يختلج وإن كان ما قاله بالغ الصحة! كانت تعلّم أنّه يخافها. كان يخشى أن ينتابها الجنون. وكان قد أفلت ذلك ذات مرّة من لسانه ثم عاد فعكسه بسرعة. ولكنّها عرفت منذ ذلك الوقت أنّه كان يفكّر في ذلك. ووجدت هذا جميلاً جداً. يقول نيتشه: «أوَيوجد تشاؤم خاص بالقوّة ميلٌ ذهني إلى القاسي المرعب الشرير؟ هوّةٌ من هُوى الإنحدار اللاأخلاقي؟» - كانت أمثال هذه الكلمات تسبّب لها حين تفكّر استثارة حسّية في فمها كانت في مثل طلاوة اللبن وقوته وكانت لا تكاد تقدر على الابتلاع.

كانت تفكّر في الطفل الذي كان فالتر يريده منها وكان يخاف هذا أيضاً وهو أمر مفهوم حين كان يعتقد أن من الجائز أن تغدو مجنونة ذات مرّة وكان هذا يضفي عليها رقةً تجاهه حتى عندما كانت ترفض رفضاً عنيفاً. غير أنّها كانت قد نسيت أنّها كانت تريد أن تبحث عن فالتر. وكان ثمة شيء يحدث في جسدها الآن. كان الثديان يمتلئان وخلال الشرايين في الذراعين والساقين كان يجري تيار من الدم الكثيف وكانت تشعر باندفاع غير محدّد باتجاه المثانة والأمعاء. وكان جسدها الضامر يغدو باتجاه الداخل عميقاً حساساً مفعماً بالحيّوية وغريباً كلاً عقب الآخر. وكان طفل يرقد على ذراعها مشرقاً مبتسماً

وكان يشعّ ثوب السيِّدة العذراء الذهبي من كتفيها حتى الأرض وكانت المجموعة تنشد. وكان قد ولد خارجاً منها سيدُ العالم!

ولكن لم يكد يحدث هذا حتى انتفض جسدها من جديد فوق الصورة المبسوطة منكمشاً مثلما يقذف الخشب بأسفين خارجٍ منه وعادت ضامرة وثابت إلى نفسها وشعرت بالتقزّز وأحسّت بمرح قاسٍ. لم تكن تريد أن تجعل فالتر هكذا ببساطة. وقالت كالمتنبئة لنفسها: «أريد أن يتوق نصرك وحريتك إلى طفل! وسوف تنشئ نُصُباً حية من فوق نفسك. ولكنَّ قبل كلّ شيء يجب أن تكون مبنياً لي أنا جسداً وروحاً!» وتبسّمت كلاريسا. وكانت ابتسامتها التي تتراقص بلهب ضيِّق كالنار التي يغشاها حجر كبير.

ثم خطر ببالها أن أباها كان يخاف من فالتر. وعادت بنفسها أعواماً إلى الوراء. وكانت تألف هذا. وكان يسر فالتر وإياها أن يسأل أحدهما الآخر: أتذكُرُ؟ ثم كان ينسكب نور منقضٍ انسكاباً سحرياً عائداً أدراجه من المدى البعيد إلى الحاضر. وكان هذا جميلاً وكان يسرُّهما. وربّما كان هذا كما لو أن امرءاً خرج على مضض ساعاتٍ طوالاً وهو يعود أدراجه وإذا الفراغ الذي جابه بأسره ماثل بين يديه مرّة واحدة متبدّلاً في النظر البعيد في صورة إشباع جميل غير إنهما لم يكونا يدركانه على هذا النحو بل كانا ينظران إلى ذكرياتهما على أنّها بالغة الأهميّة. من أجل ذلك كان يبدو لها أيضاً من قبيل الأمر غير العادي والمثير والمقَّعد أن أباها المصوّر الطاعن في السن والذي كان بالنسبة إليها شخصيّة متَّسمة بالجبروت كان يخاف فالتر الذي كان قد أدخل العصر الجديد إلى بيته بينما كان فالتر يخشاها. وكان هذا يشبه حالها حين كانت تضع ذراعها حول صديقتها لوسي باخهوفن وكانت تضطر إلى أن تقول «بابا» وهي تعلَّم أن أباها عشيق لوسي إذ كان هذا يحدث في الوقت ذاته.

twitter @baghdad_library

وعادت الحرارة الآن إلى الانبعاث في وجنتي كلارسيا. وكان يشغلها أكثر ما يشغلها أن تتمثّل لنفسها البكاء المستعطف الفريد هذا البكاء المستعطف الغريب الذي كانت تحدّثت عنه إلى صديقها. وتناولت مرآة وحاولت أن تعثر من جديد على الوجه ذي الشفتين المنطبقتين في خوف ذلك الوجه الذي لا بدّ أنّها اتخذته في تلك الليلة التي جاء فيها أبوها إلى سريرها ولم تُوفَّق إلى إخراج الصوت الذي كان قد انبعث من صدرها بتأثير التجربة. وكانت تفكّر في أنَّ هذا الصوت لا بدّ أن يكون حتى اليوم في صدرها مماثلاً على وجه الدقة لما كان في تلك الأيام. كان صوتاً لا مراعاة فيه ولا رفْق ولكنَّه لم يكن قد ارتفع من قبل عائداً إلى السطح أبداً. وطرحت المرآة جانباً ونظرت حواليها في حذر وهي تدعم وعيها بأنّها وحدها بعينيها المتلمّستين. ثم جعلت تبحث عن الخال الأسود المخمليّ الذي كان لها معه شأن غريب برؤوس أصابعها المتلمّسة عبر ثوبها. وكان يقع في منطق ثنية الفخذ وعند حافة الشعر الذي كان يلتوي هناك بعض الالتواء على نحو غير نظامي. وتركت يدها تستقرّ عليه وطردت كلّ فكرة وأخذت تتربّص في انتظار التغيير الذي كان يفترض أن يحدث. وأحسّت بهذا على الفور. لم يكن هذا التدفّق الرخيّ للمتعة بل بات ذراعها متصلّباً صلداً مثل ذراع رجل وكانت تشعر إذا انتابها هذا ذات مرّة على الوجه الصحيح أنَّ في وسعها أن تسحق به كلّ شيء! وكانت تسمي هذا الموضع في جسدها عين الشيطان. فعند هذا الموضع كان أبوها قد عاد من حيث أتى. كان لعين الشيطان نظرة تخترق الثياب وكانت هذه النظرة «تمسك» بالرجال «من عيونهم» وتجتذبهم كالمشدوهين غير أنّها لم تكن تسمح لهم أن يحرّكوا ساكناً على قدر ما كانت تريد كلاريسا. وتصوَّرت كلاريسا بعض الكلمات موضوعة ضمن علامات تنصيص على سبيل التوكيد مثلما كانت ترسم خطين غليظين بالحبر تحت بعض الكلمات أثناء الكتابة. وكان لأمثال هذه الكلمات المتميِّزة عندئذ معنى متوتّر في مثل توتر ذراعها.

ومن كان يحسب في أيّ وقت من الأوقات أن المرء يستطيع أن يمسك بشيء ما بعينيه حقاً؟ غير أنّها كانت أوّل إنسان يمسك بهذه الكلمات في يده مثل حجر يستطيع المرء أن يقذف به نحو هدف. كان ذلك جزءاً من القوّة الساحقة لذراعها. وكانت قد نسيت فوق كلّ هذا البكاء الاستعطافي الذي كانت تريد أن تفكِّر فيه ملياً. وجعلت تفكِّر في أختها الصغرى ماريون. كانوا قد اضطروا إلى أن يقيّدوا يدي ماريون ليلاً وهي في الرابعة لأنَّها كانتا تدخلان في العادة دونما شعور تحت الغطاء بدافع محض السرور بما هو ممتع مثلما يدخلُ دُبّانِ صغيران شجرة للعسل. وكان عليها فيما بعد أن تنتزع فالتر من ماريون. وكانت النزعة الحسية تنتقل متداولة في أسرتها مثلما يتداول الخمر سكارى الفلاحين. كان هذا قدراً وكانت تنوء بعبء ثقيل. ولكنَّ أفكارها انطلقت على الرغم من ذلك في جولة من الماضي واسترخى التوتر في ذراعها متحوّلاً إلى حالة طبيعية و ظلَّت يدها منسيّة في حضنها. كانت في تلك الأيام ماتزال تخاطب فالتر بصيغة التوقير وكانت تدين له بالكثير جداً في الحقيقة. وكان قد جاء بالرسالة التي تفيد أن هناك أناساً جدداً لا يحتملون إلا أثاثاً بارداً صافياً ويعلِّقون في حجراتهم صوراً صُوِّرت عليها الحقيقة: كان يتلو عليها قائلاً: بيتر ألتنبرج أقاصيص قصيرة عن فتيات صغيرات يتقاذفن إطارات المطاط بين أحواض التوليب المتيّم بالحبّ ولهن عيون بريئة فيها من الحلاوة الصافية ما في الكستناء المجمّدة. وعرفت كلاريسا منذ هذه اللحظة أن ساقيها النحيلين اللذين كانا يبدوان لها طفوليَّيْن كانا يعنيان بالنسبة إليها ما تعنيه قطعة موسيقيّة هزلية بعنوان: كانوا يعيشون لتوّهم في مَرْبع صيفي محيط كبير. وكان عدد من الأسر من معارفْهم قد استأجروا منازل ريفية عند بحيرة وكانت كلّ حجرات النوم مشغولة بضعف ما تستوعب من الأصدقاء والصديقات الذين دُعوا. وكانت كلاريسا تنام مع ماريون. وفي الساعة الحادية عشرة كان يأتي في بعض الأحيان الدكتور ماينْجاست في جولة سريّة في ضوء القمر إليهم في

twitter @baghdad_library

الحجرة ليثرثر وهو الذي بات الآن رجلاً مشهوراً في سويسرا وكان يعدّ في تلك الأيام أستاذ اللهو ومعبود كلّ الأمهات. كم كان عمرها في تلك الأيام؟ خمسة عشر عاماً أو ستة عشر أو بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة حين صحبه تلميذه جورج جروشل الذي لم يكن يكبر ماريون وكلاريسا إلا قليلاً. وكان الدكتور ماينجاست في تلك الأمسية شارد الذهن فاكتفى بكلمة موجزة في أشعَّة القمر وفي الآباء والأمهات النائمين دونما إحساس وفي البشر الجدد وتوارى فجأة وبدا كأنه جاء لمجرّد أن يخلّف جورج القصير الفحل الذي كان معجباً به لدى الفتيات. أما جورج فلم ينبس ببنت شفة وكان فيما يبدو ويشعر بالإنكماش والتهيّب. وأما كلتا الفتاتين اللتين كانتا تجيبان ماينجاست حتى ذلك الوقت فقد أخلدتا إلى الصمت أيضاً. ولكنَّ جورج ما لبث أن عضّ على أسنانه في الظلام وتقدم من سرير ماريون. وكانت الحجرة مضاءة من الخارج قليلاً. ولكنَّ في الزوايا التي كانت تقوم فيها الأسرة كانت تبرز كتل من الظلال لا يخترقها الضوء ولم يكن في وسع كلاريسا أن تميّز ما كان يحدث وإنما تبيّن لها فحسب أنَّ جورج كان يبدو كأنه واقف منتصب القامة إلى جانب السرير وهو يطلّ ببصره على ماريون ومع ذلك فقد كان يدير ظهره لكلاريسا ولم يكن يندّ صوت عن ماريون وكأنّها لم تكن في الحجرة وطال هذا كثيراً. ولكنَّ جورج انفصل آخر الأمر عن الظل مثل المجرم بينما كانت ماريون قلّما تبدي حراكاً كشأنها من قبل وبانت ملامحه شاحبة في وسط الحجرة الذي يضيئه القمر لحظة من الزمان عند الكتف والجانب وأقبل إلى كلاريسا التي عادت إلى الاضطجاع على عجل وسحبت الغطاء حتى ذقنها. وقد عرفت أنّه سيتكرر الآن الشيء الخفي الذي كان قد حدث لماريون وقد انتابها التصلّب من الإنتظار بينما كان جورج يقف صامتاً إلى جانب سريرها وهو يضغط شفتيه إحداهما على الأخرى بإحكام مخيف كما بدا لها. وأخيراً جاءت يده مثل أفعى وأخذت تعالج كلاريسا. أما كان يفعله فيما عدا ذلك فقد ظلّ غير

واضح بالنسبة إليها. ولم يكن لديها تصوّر عنه ولم تكن تستطيع أن تؤلّف بين القليل الذي أحسّت به من حركاته على الرغم من انفعالها. على أنّها لم تشعر هي نفسها بمتعة هنالك على الإطلاق إذ لم تأت هذه إلا فيما بعد. أما في اللحظة الراهنة فلم يكن هناك إلا انفعال شديد قائم على الخوف ولا اسم له وكانت تتصرف بهدوء كحجر يهتزّ في جسر تجري عليه مركبة ثقيلة ببطء لا نهاية له ولم تكن تقدر على أن تقول شيئاً وتركت كلّ شيء يحدث لها. وبعد أن أطلقها جورج توارى بغير وداع. ولم تعرف واحدةٌ من الأختين على وجهِ اليقين هل جرى للأخريات مثل ما جرى لها هي ولم تنادِ إحداهن الأخرى مستغيثة ولا دعتها إلى المشاركة. وانقضت أعوام قبل أن يتمّ بينهما تبادل الكلمة الأولى حول الحدث.

وكانت كلاريسا قد عثرت على تفاحتها من جديد وبدأت تنهشها وتلوك قطعاً صغيرة. ولم يبح جورج بسرّه أبداً واعترف بما حدث سوى أنّه ربّما كان يومئ بعينيه في الفترة الأولى تماماً من حين إلى آخر إيماءات لها دلالتها. وكان في هذه الأيام حقوقياً من العاملين لدى الدولة أنيقاً يبشّر بمستقبل حسن وكانت ماريون قد تزوَّجت. أما الدكتور ماينجاست فقد حدث له ما هو أكثر من ذلك وكان قد طرح عن نفسه رداء الساخر حين سافر إلى الخارج وأصبح ما يسمِّيه المرء خارج الجامعات بالفيلسوف وكان يحتفظ على الدوام حواليه بطائفة من التلاميذ والتلميذات وكان قد كتب منذ عهد قريب رسالة إلى فالتر وكلاريسا يعلن فيها أنّه يريد زيارة الوطن في أجل قريب لكي يستطيع العمل هناك حيناً من الزمن بدون تكدير صفوٍ من قبل أتباعه وكان قد سأل أيضاً هل يستطيعان أن يستقبلاه لديهما إذ سمع إنهما يعيشان «عند الحدود بين الطبيعة والمدينة الكبرى» وربّما كان هذا على وجه الإطلاق الأصلَ لكلّ الطرق التي سلكتها أفكار كلاريسا في هذا اليوم. وقالت في نفسها: «يا إلهي لكم كان

twitter @baghdad_library

ذلك الوقت غريباً!» وقد عرفت الآن هذا أيضاً: لقد كان ذلك هو الصيف السابق على الصيف مع لوسي وكانماينجاست يقبّلها في تلك الأيام كلّما طاب له ذلك وكان يقول بأدب قبل أن يفعل ذلك: «هل تسمحين أن أقبّلك الآن!» وكذلك كان يقبّل كلّ صديقاتها بل كانت كلاريسا تعرف واحدة لم تكن تستطيع منذ ذلك الوقت أن تنظر إلى ثوبها بدون أن تضطر إلى التفكير في عينين قد أُسبل جفناهما في قدسية ظاهرة وكان ماينجاست قد روى لها ذلك بنفسه. وكانت كلاريسا التي كانت في تلك الأيام لا تكاد تبلغ الخامسة عشر ربيعاً! ـ تقول للدكتور ماينجاست البالغ كلّ البلوغ حين كان يحدّثها عن مغامراته مع صديقاتها: «أنت خنزيرا» وكان يسبّب لها السرور الذي كان كالجزمة والمهماز أن تستعمل هذه الكلمة المبتذلة وأن تشتمه غير أنّها كانت على الرغم من ذلك تخاف ألّا تستطيع المقاومة في النهاية وحين كان يلتمس منها قبلة لم تكن تجرؤ على معارضته إذ كانت تخشى أن تحدّث انطباعاً يوحي بالسخف.

ولكن حين قبّلها فالتر أوّل مرّة قالت بجدّ بالغ: «لقد وعدت أمي ألّا أفعل شيئاً كهذا أبداً». وكان هذا هو الفرق. وكان فالتر يتحدّث حديثاً جميلاً كالإنجيل وكان كلامه كثيراً جداً وكان الفن والفلسفة يحيطان به كما تحيط مجموعة من السحب البعيدة بالقمر. وكان يقرأ لها. ولكنّ كان في المقام الأوّل يظلّ يرمقها بعينيه هي من بين كلّ صديقاتها. وفي هذا كانت تكمن كلّ علاقتهما في البداية. وكان هذا كما لو أن القمر كان يطلّ ببصره فيشبُك المرء يديه. وتابعت علاقةُ أحدهما بصاحبه من بعدُ أيضاً مسارَها بالفعل من خلال المصافحات الهادئة وكانت الآن بغير كلام وكانت تكمن فيها طاقةُ ربطٍ فريدة في نوعها. وكانت كلاريسا تشعر بكلّ جسدها يتطهّر بيده فإذا أعطاها هذه اليد ذات مرّة وهو شارد الذهن باردٌ تولّتها التعاسة وكانت ترجوه قائلة: «أنت لا

تعرف ما أجد في ذلك!» وكانا قد باتا يتخاطبان في تلك الأيام بصيغة رفع الكلّفة في السرّ بلا ريب. وقد نمّى لديها المعرّفة بالجبال والجنادب وكانت لا ترى في الطبيعة حتى الآن إلا منظراً طبيعياً كان يرسمه ويبيعه الوالد أو أحد زملائه. وكان نقدها لأسرتها قد استيقظ على نحو مباغت كلّ المباغتة وشعرت أنّها جديدة ومختلفة. وتذكّرت كلاريسا الآن أيضاً على وجه الدقة كيف سارت المسألة فيما يتّصل بالقطعة الموسيقيّة الهزلية وكان فالتر يقول: «إن لساقَيكِ أيتها الآنسة كلاريسا من الصلة بالفن الحقيقي أكثر مِمّا لكلّ الصور التي يرسمها والدك!». وكان هناك بيانو في هواء الصيف الطلق وكانا يعزفان بأيديهما الأربع. وتعلّمت كلاريسا منه وكانت تريد أن تتخطى صديقاتها وأسرتها. ولم يكن أحد يدرك كيف يستطيع المرء في أيام الصيف الجميلة أن يعزف بدلاً من أن يجدّف أو يذهب إلى الاستحمام. أما هي فكانت قد علّقت أملها على فالتر وكانت قد اعتزمت على الفور ومنذ تلك الأيام أن تصبح «امرأته» وأن تتزوجه. وحين كان يصرخ في وجهها بسبب خطأ في العزف كان كلّ شيء فيها يغلي ولكنَّ المتعة كانت هي الراجحة. وكان فالتر يصرخ في وجهها بالفعل في بعض الأحيان لأنّ الفكر لا يعرف التنازلات ولكنَّ على البيانو فحسب. أما خارج الموسيقى فكان يحدث أيضاً أن يقبّلهاماينجاست. وفي رحلةٍ في ضوء القمر كان فالتر يجدّف فيها وكانت قد ضعت بمحض إرادتها رأسها على صدر ماينجاست الذي كان يجلس في مقعد القيادة إلى جانبه. وكان ماينجاست بارعاً إلى حدّ رهيب في مثل هذه الأشياء ولم تكن تعرف ما يمكن أن ينشأ عن هذا. أما فالتر فحين قام في المرة الثانية بعدْ ساعة البيانو في اللحظة الأخيرة حين باتا واقفين لدى الباب بملامستها من الخلف وقبّلها فلم يخالجها إلا الإحساس غير المستحبّ على الإطلاق بانحباس الهواء عنها وتملّصت منه بسرعة ومع ذلك فقد كان من الثابت عندها أنّه لا يجوز أن تدع هذا يفلت من يدها مهما يحدث مع الآخر!

twitter @baghdad_library

ففي أمثال هذه الأشياء تجري الأمور على نحو غريب. لقد كانت أنفاس الدكتور ماينجاست تنطوي على شيء تذوب فيه المقاومة شيء كالهواء النقيّ الخفيف الذي يشعر فيه المرء بالسعادة بدون أن يلاحظه على حين كان فالتر الذي كان يعاني أبداً من عسر الهضم مثلما كانت قراراته تعاني من التردد كما كانت كلاريسا تعرف ذلك منذ عهد طويل يعاني أيضاً من شيء من إعاقةٍ في التنفّس فكانت أنفاسه مفرطة في الحرارة حيناً وكان كالحريق وكالباعث على الشلل حيناً آخر. وكان مثل هذا الفكريّ ـ الجسديّ قد أسهم بدوره منذ البداية إسهاماً غريباً. ولم تكن كلاريسا تعجب من ذلك على الإطلاق إذ لم يكن شيءٌ يبدو لها هي على وجه الخصوص أكثر طبيعية من هذا الذي يقوله نيتشه من أن جسد الإنسان يمثّل روحه. فلم تكن ساقاها تنطويان على قدر من العبقرية أكثر مِمّا في رأسها بل كان فيهما القدر ذاته على وجه الدقة كانتا تتطابقان معه تماماً. وكانت يدُها إذا مسّها فالتر أطلقت على الفور تياراً من العزائم والتوكيدات يجري من الجمجمة إلى أخمص القدم غير أنّه لم يكن يسوق معه كلاماً. وكان شبابها إذا سيق مرّة واحدة فحسب إلى وعي ذاته سرعان ما يتمرّد على قناعات والديها وحماقاتها الأخرى ببساطة بنضارة جسد صلب يزدري كلّ المشاعر التي هي أبعد ما تكون عن أن تذكّر بأسرّة الزواج الوثيرة والسجاد التركي الفخم كما كان يهواهما الجيل السابق ذو التقاليد الصارمة. ومن أجل ذلك كان الجسديّ يستأنف لعب دوره الذي كانت هي تنظر إليه نظرة مختلفة عمّا كان من المحتمل أن يفعل الآخرون. ولكنَّ هنا استوقّفت كلاريسا ذكرياتها أو أن الأمر لم يكن في الحقيقة على هذا النحو تماماً بل الأحرى أن ذكرياتها عادت بها من دون صدمة هبوط إلى الحاضر من جديد. ذلك لأنّها كانت تريد الإفضاء بهذا كلّه وبما تلاه بعدُ إلى صديقها الذي بلا صفات. وربّما احتل ماينجاست في اللحظة الراهنة حيّزاً من ذلك مفرطاً في الاتساع ذلك لأنّه سرعان ما توارى بعد صيف حافل بالأحداث

هارباً إلى الخارج وكان قد بدأ لديه ذلك التبدّل الهائل الذي جعل من رجل الملذات الطائش مفكراً مشهوراً ولم تره كلاريسا منذ ذلك الوقت إلا رؤية عابرة بدون أن يفكّرا في الماضي في هذا السياق. غير أنّها حين تأملت ذلك في قرارة نفسها تجلّى لها القسط الذي أسهمت به في تحوّله. وكان قد حدث الكثير بعدُ بينها وبينه في الأسابيع التي سبقت اختفاءه بدون فالتر ومع مشاركة فالتر ومع إزاحة فالتر ومع استحثاث فالتر وحمله على العَدْو الشديد وعواصف فكريّة وساعات أكثر جنوناً بعدُ كتلك التي تخرج الرجل والمرأة عن صوابهما قبل العاصفة وساعات الخمود التي فارقتها كلّ العواطف فهي ترقد كخضرة المروج بعد المطر في الهواء النقيّ هواء الصداقة. ولم يكن لكلاريسا بدٌّ أن تحتمل بعض الأمور ولم تكن تحتملها على مضض غير أن الطفل الفضوليّ كان يقاوم على طريقته بعد ذلك إذ كان يقول للصديق المطلق العنان بعد ذلك رأيه ولما كان ماينجاست قد بات في الفترة الأخيرة قبل أن يرحل أكثر جديّة من حيث الصداقة وكان يتّسم بالنبل والكآبة على وجه التقريب في تنافسه مع فالتر فقد كانت اليوم على يقين راسخ أنّها حملت عنه كلّ ما كان يكدّر مزاجه قبل أن يذهب إلى سويسرا ومكّنته بذلك من أن يتبدّل على هذا النحو غير المتوقَّع. وكان يدعم هذا الفهم لديها لما حدث بعد ذلك بينها وبين فالتر.
وما عاد في وسع كلاريسا أن تميّز تمييزاً دقيقاً بين هذه السنين والشهور الطويلة المنصرمة. ولكنَّ ما عاد يهمّها آخر الأمر أيضاً متى حدث هذا الأمر أو ذاك. فعلى وجه الإجمال كان قد حلّ بعد التقارب ولم يكن يتولّاها الخجل بل كانت تغدو أحرى بالبكاء حين كانت تقارن بين تلك الأيام وبين الآن. ولكنَّ كلاريسا لم تكن تستطيع البكاء قطّ أيضاً بل كانت تضغط شفتيها إحداهما على الأخرى وكان ينشأ عن ذلك شيء كان يبدو مشابهاً لابتسامتها. كان ذراعها الذي غطته القبلات حتى الإبط وساقها التي تحرسه عين الشيطان وجسدها اللدن الذي عُرك آلاف المرات من جرّاء ظمأ الحبيب الصادي فهو

twitter @baghdad_library

ينفتِل عائداً إلى وضعه كالحَبْل كانت هذه تحافظ على الشعور المرافق العجيب بالحب: الشعور بالأهميّة الخفيّة في كلّ الإيماءات التي يقوم بها المرء. كانت كلاريسا تجلس هناك وكانت تبدو في نظر نفسها كممثلة في فترة الاستراحة. وما من شكّ في أنّها لم تكن تعرف ما كان يفترض أن يأتي غير أنّها كانت على يقين أن المهمة التي لا نهاية لها لكلّ المحبّين أن يحتفظوا لأنفسهم بما كان كلٌّ منهم للآخر في أعلى اللحظات. وكان ذراعها حاضراً وكانت ساقاها حاضرتين وكان رأسها مستقراً على الجسد وهو على استعداد غريب ليكون أوّل من يحسّ بالإشارة التي لم يكن من الممكن أن تتخلّف. وربّما كان من الصعب إدراك ما كانت كلاريسا تعنيه غير أن هذا لم يكن يكلّفها جهداً. وكانت قد كتبت رسالة إلى الكونت لاينزدورف تطالب فيها بعام لنيتشه وفي الوقت ذاته بتحرير قاتل النساء وربّما باستعراضه على الملأ تذكيراً بطرق الآلام عند أولئك الذين يضطرون إلى أن يجمعوا الخطايا المتناثرة للناس جميعاً على ظهورهم وهي تعلَّم الآن أيضاً لماذا فعلت ذلك. يجب على المرء أن يقول الكلمة الأولى. ويبدو أنّها لم تحسن التعبير عمّا في نفسها ولكنَّ هذا لا يضير في شيء فالمسألة الرئيسيّة هي أن يبدأ المرء وينتهي من الصبر وترك الشيء على ما هو عليه. لقد ثبت تاريخياً أنَّ العالم يحتاج من عصر إلى آخر - وكان يتردّد وراء ذلك كلمة: من دهر إلى دهر مثل جرسين لا يراهما المرء على الرغم من إنهما قريبان - إلى أمثال هؤلاء البشر الذين لا يستطيعون المشاركة في العمل والمشاركة في الكذب ويثيرون بذلك سمعة غير مستحبّة. والى هذا الحد كانت المسألة واضحة.

ومن الواضح أيضاً أن أولئك الذين يثيرون سمعة غير مستحبة يحسّون بوطأة العالم. وكلاريسا تعرف أنَّ كبار العباقرة الذين أبدعتهم البشريّة كان عليهم أن يعانوا على الدوام تقريباً وهي لا تعجب من أنَّ بعض الأيام

والأسابيع في حياتهم تقع تحت ضغط ثقيل وكأن لوحاً ثقيلاً سُحب عليها ولكنَّ هذا كان يمرّ مرور الكرام في كلّ مرّة والناس جميعاً على هذه الشاكلة بل لقد أدخلت الكنيسة بحكمتها مناسبات للحداد من أجل تقليص الحداد وللحيلولة دون أن يطغى فقدان الجرأة وتبلّد الحسّ على أنصاف القرون الأمر الذي حدث أيضاً. على أن ثمة لحظات أخرى معيَّنة تعدّ أصعب علاجاً في حياة كلاريسا وهي لحظات مفرطة في التحرر وخالية من الضغط المقابل حيث تكون الكلمة الواحدة في بعض الأحيان كافية لتخرج بها عن المسار الطبيعي إنَّ صحّ التعبير فهي تخرج عندئذ عن طورها وهي لا تستطيع أن تبيّن أين يكون ذلك غير أنّها لا تكون بحال من الأحوال غائبة بل يستطيع المرء على النقيض من ذلك أن يقول إنّها حاضرة في الباطن في حيّز أكثر عمقاً يكمن بطريقة يتعذر إدراكها حسب التصوّرات المألوفة في المجال الذي يشغله جسمها من العالم ولكنَّ فيمَ التماس الكلمات من أجل شيء لا يقع في طريق الكلمات. وعلى كلّ حال فهي تلقي مراسيها بعد هنيهة من جديد عند الأخريات ولمّا تتعرّض إلا للقليل من الانجلاء في الدماغ مثلما يكون الحال بعد نزيف الأنف وتفهم كلاريسا أنَّ هذا يعني لحظات خطيرة تعيشها في بعض الأحيان وهي على ما يبدو ضروب من التمهيد والاختبار. وكانت تتمتَّع على أيَّة حال بعادة التفكير في العديد من الأمور في وقت معاً مثلما يروح جناح المروحة ويجيء ويكون الواحد إلى جانب الآخر في شطر منه وتحت الآخر في شطره الآخر وعندما يغدو هذا مفرطاً في الاختلاط يمكن فهم الحاجة التي تحمل المرء على الخروج بدفعة واحدة إلى الخارج. وهذا أمر يمكن أن يكون لكثير من الناس إلا أنّهم لا يقْدمون عليه.

وإذاً فكلاريسا تشهد ألواناً من التمهيد والإرهاصات مثلما يفخر الآخرون من الناس بشيء في ذاكرتهم أو في هضمهم الحديدي فهم يقولون إنَّ في

twitter @baghdad_library

وسعهم أن يأكلوا شظايا الزجاج. غير أن كلاريسا أثبتت بضع مرات أنّها تستطيع بالفعل أن تجشّم نفسها شيئاً ما وكانت طاقتها قد تجلّت من خلال التعامل مع أبيها ومعماينجاست وجورج روشل. أما مع فالتر فكان هناك حاجة إلى بعض الجهود إذ كانت الأشياء ماتزال في حالة من الجريان وإن كانت على شيء من التعثّر ولكنَّ كلاريسا كانت تنوي منذ بعض الوقت أن تبرهن عن طاقتها على محكّ الرجل بلا صفات وما كان في وسعها أن تبيّن منذ متى. فقد كان للأمر صلة بهذا الإسم الذي استحدثه فالتر وأقره أولريش. فقبل ذلك كما كان عليها أن تقول في السنين الخوالي لم تكن قد اهتمت به اهتماماً جدياً أبداً وإن كانا أيضاً صديقين جيّدين تماماً ولكنَّ «الرجل» بلا صفات أمرٌ كان يذكّرها على سبيل المثال بالعزف على البيانو أيّ بكلّ تلك الألوان من الكآبة ووثبات السرور وفورات الغضب التي تستبد بالمرء في هذا الصدد بدون أن تكون عواطف حقيقية تماماً. وكانت تشعر بأن لها صلة بذلك ومن هنا انتقلت المسألة بدون لف ودوران على الإطلاق إلى الإدعاء القائل إنَّ على المرء أنَّ يرفض عمل كلّ ما لا يحدث صادراً عن صميم نفسه وبذلك وصلت إلى وسط الواقع العميق المستتار الخاص بزواجها فالرجل بلا صفات لا يقول لا للحياة بل يقول: لمّا يئن الأوان أو يؤخر نفسه وهذا ما فهمته بكلّ جسدها وربّما كان معنى كلّ اللحظات التي كانت تخرج فيها عن نفسها هو أنّه كان مقسوماً لها أن تكون السيِّدة العذراء. وكانت تتذكَّر الوجه الذي كانت تعاني منه منذ ما لا يبلغ ربع الساعة. وقالت في نفسها: «ربما كان في وسع كلّ أم أن تكون السيِّدة العذراء حين لا تدع الأمور وشأنها ولا تكذب ولا تعمل بل تُخرج منها هذا الذي يكمن في أعمق أعماقها طفلاً!» وأضافت قائلة في حزن: «على ألّا تبلغ شيئاً من أجل نفسها!» ذلك لأنّ الفكرة لم تكن تتيح لها نعمة خالصة بحال من الأحوال بل كانت تفعمها بالإحساس المقسّم بين العذاب والسعادة وهو الإحساس بأنّها يُضحّى بها من أجل شيء ما ومع ذلك

فإذا كانت رؤياها كما لو أن صورة برزت بين غصون شجرة بين الأوراق التي تتراقص دفعة واحدة كالشموع بينما عاد الخشب بُعَيد ذلك إلى الانطباق على الفور فقد ظلّ مزاجها الآن متغيّراً على نحو مستمرّ. على أن مصادفة وهبت لها في اللحظة التالية الإكتشاف الذي لا معنى له بالنسبة إلى كلّ إنسان آخر وهو أن كلمة أم Mutter متضمّنة في كلمة الوَحْمَة Mutter mal. أما هي فكان هذا يعني بالنسبة إليها كما لو أن مصيراً مَثَل مكتوباً على النجوم فجأة. ثم إنَّ الفكرة الرائعة وهي أن المرأة تضطر إلى أن تستوعب الرجل سواء أمّاً أم حبيبة أوهَنتها وأثارت حفيظتها ولم تعرف كيف جاءت إلى هنا غير أنّها أذابت مقاوماتها وأعطتها مع ذلك القوّة.

غير أنّها كانت ماتزال لا تثق بالرجل بلا صفات بحال من الأحوال ذلك أنّه لم يكن يعني ما يقوله في كثير من الأمور. وحين كان يزعم أنَّ المرء لا يستطيع أن يحقّق أفكاره أو أنّه لا يأخذ شيئاً مأخذ الجدّ تماماً فإنّما كان هذا مجرّد ستار. وكانت تفهم هذا بوضوح وكان كلّ منهما قد أحسّ بما ينطوي عليه صاحبه وعرفه من خلال علامات بينما كان فالتر يرى أن كلاريسا ينتابها الجنون في بعض الأحيان! ومع ذلك فقد كان فالتر ينطوي على شيء من نزعة الشر المريرة شيء يتعلّق تعلّقاً شيطانياً بالنهج غير المتبصّر في هذه الدنيا وكان لابدّ للمرء أن يحرّره. وكان عليها أن تخرج في طلبه.

وكانت قد قالت لفالتر: اقتله ولم يكن هذا يعني الكثير فإنّها لم تكن تعرف حقّ المعرّفة ما كانت تعنيه بذلك غير أنّه كان يعني ما يعادل قولها إنّه لا بدّ من عمل شيء لانتزاعه من براثن نفسه وإنه لا يجوز للمرء أن يتوقّف أمام شيء.

كان عليها أن تصارعه.

twitter @baghdad_library

وضحكت وحكَّتْ أنفها وجعلت تروح وتغدو في الظلام. لم يكن هناك بدّ من أن يحدث شيء للعمل الموازي. أما ما هو فذلك ما لم تكن تعرفه.

[٩٨]

حول دولة انهارت من جرّاء خطأ لغوي

وقطار الزمن قطار يدفع خطوطه فيبسطها أمامه حيثما سار ونهر الزمن نهر يسوق معه ضفّتيه أما رفيق السفر فيتحرَّك بين جدران ثابتة على أرض ثابتة ولكنَّ الأرض والجدران غير أن الأرض والجدران تشاركان في الحركة بأشدّ الأشكال عنفواناً دونما لفت للنظر من جرّاء حركات المسافرين وقد كان من دواعي السعادة التي لا تقدَّر بالنسبة إلى طمأنينة نفس كلاريسا أن هذه الفكرة لم يسبق أن وردت بعدُ بين أفكارها.

ولكن الكونت لاينزدورف كان في مأمن منها أيضاً وكان يقيه منها اقتناعه بأنّه يمارس السياسة الواقعية.

وكانت الأيام تتأرجح فتشكّل أسابيع. ولم تكن الأسابيع تظل واقفة بل كانت تتكتل كالأكاليل. وكان لايفتأ يحدث شيء ما بغير انقطاع وعندما يحدث شيء ما بغير انقطاع يسهل أن يخرج المرء بانطباع مؤدّاه أن المرء ينجز شيئاً واقعياً. وهكذا كان من المفترض أن تفتح الحجرات الفخمة في قصر لاينزدورف للجمهور في احتفال كبير لصالح الأطفال الذين يعانون من المرض في رئاتهم وقد سبق هذا الحدث محادثات مستفيضة بين حضرة الشريف وقيّم بيته حُدِّدت فيها أيام معيَّنة كان من الواجب أن تنجز فيها أعمال معيّنة. وأقامت الشرطة في الوقت ذاته معرضاً لليوبيل ظهر المجتمع كلّه بمناسبة افتتاحه وكان رئيس الشرطة قد تحدّث بصورة مسبقة شخصيّاً إلى الشريف لإبلاغه بالدعوة وحين وصل الكونت لاينزدورف واستُقبل عرف

twitter @baghdad_library

رئيس الشرطة «المساعد المتطوّع وأمين سره الفخري» إلى جانبه وقد تمَّ تعريفه عليه مرّة أخرى فائضة عن الحاجة الأمر الذي أتاح الفرصة للرئيس لكي يكشف عن ذاكرته المباركة في صدد الشخصيّات إذ كان قد اشتهر بمعرفته الشخصيّة لكلّ واحد من عشرة بين مواطني الدولة أو على الأقل بحيازته لمعلومات عنه. وكذلك أقبلت ديوتيما في صحبة زوجها وكان كلّ أولئك الذين ظهروا ينتظرون عضواً من أعضاء البيت الإمبراطوري كان قسم منهم قد قُدّم إليه ولم يكن هناك إلا صوت واحد يقول إنَّ المعرض ناجح وجذّاب جداً. وكان يتألّف من الخليط المتجانس من الصور التي كانت معلَّقة على الجدران والأشياء ذات الصلة بذكرى جرائم كبرى التي كانت تعرض في خزائن زجاجية وعلى منصات من الزجاج. وكان من هذه جهاز السطو ووُرش المزوّرين والأزرار المفقودة التي أدّت إلى الدلالة على آثار والأداة المأساوية لمشاهير المجرمين مع الحكايات المتَّصلة بها بينما كانت الصور على الجدران تصوِّر على النقيض من ترسانة الرعب هذه موضوعات تهذيبيّة من حياة الشرطة. وهناك كان يرى الحارس الطيّب الذي يقود الأم الضئيلة العجوز عبر الشارع والحارس المهمّوم أمام الجثمان الذي حمله النهر والحارس الشجاع الذي يلقي بنفسه على أعنّة الخيل المجفلة و«شعار رمزي لسلطة الأمن يمثلها حرس للمدينة» والطفل التائه بين أيدي الحُماة المتَّسمين بسمة الأمومة في حجرة الحراسة والحارس المحترق الذي يحمل على ذراعيه فتاة خارجة من حمأة النار ثم كثير من الصور الأخرى من أمثالها مثل «الإسعاف الأوّلي» و«في المخفر المنعزل» إلى جانب الصور الضوئية لرجال الشرطة الطيّبين العائدة حتى إلى عام الخدمة ١٨٦٩ وسير حياتهم وقصائد موضوعة في أُطُر تمجّد عمل رجال الشرطة أو أفراداً من موظَّفيها وقد أشار رئيسها الأعلى رئيس تلك الوزارة التي كانت تحمل في كاكانيا اللقب السيكولوجي «للشؤون الداخلية» في كلمته الإفتتاحية إلى هذه الضروب من

التمثيل التي تكشف عن روح الشرطة في صورتها الشعبيّة الحقّة وعدَّ الإعجاب بمثل هذه الروح روح المروءة والحزم ينبوعاً فتياً من ينابيع الأخلاق في عصر لا يجنح فيه الفن والحياة إلا إلى العبادة الجبانة لراحة البال الشهوانيّة. أما ديوتيما التي كانت تقف إلى جانب الكونت لاينزدورف فقد شعرت بالإضطراب حيال مطامحها الخاصّة بتشجيع الفن الحديث وبذلك جهدها على أثر ذلك لكي تنظر في الهواء بوجه رقيق ولكنَّه غير متساهل لتحمل هذا العنصر المتزلف على الشعور بأن في كاكانيا رؤوساً أخرى أيضاً سوى رأس هذا الوزير وأما إبن عمها الذي كان يرقبها عن بعد في أثناء الكلمة وفي ذهنه الفكرة المحترمة الخاصّة بأمين السر الفخريّ للعمل الموازي فقد شعر بيد خفيفة حذرة تستقر على ذراعه وفاجأه أن عرف إلى جانبه بوناديا التي جاءت مع زوجها الموظَّف القضائي الكبير وإذاً فلم يكن في وسع المرء أن يقول على وجه الخصوص إنَّ قليلاً من الأمور كان يحدث في تقلّبات الأيام والأسابيع ولقد كان معرض الشرطة مع كلّ ما كان يتّصل به أقلَّ هذه الأشياء في الحقيقة. ففي إنجلترا على سبيل المثال كان للقوم شيء أكثر عظمة إلى حدٍّ بعيد شيء كان الناس يكثرون من الحديث عنه في المجتمع هنا مسرح للعرائس أُهْدِيَ إلى الملكة وأنشأ مهندس مشهور فيه قاعة للطعام طولها متر كانت تُعلَّق فيها صور من المُنمنَمات لمشاهير المصوِّرين العصريين وحجرات كان الماء الساخن والبارد يسيل فيها من الصنابير ومكتبة فيها كتاب صغير كان كلّه من الذهب ألصقت فيه الملكة الصور الضوئية للأسرة المالكة وكتاب للخطوط الحديدية وخطوط الملاحة مطبوع طباعة مجهرية ومجلّدات صغيرة ضئيلة تبلغ المائتين كتبَ فيها مشاهير الكتاب بخط يدهم قصائد وأقاصيص للملكة. وكانت ديوتيما تملك فوق ذلك الأثر الإنجليزي الفخم ذا المجلدين الذي ظهر لتوّه والذي كان يقدِّم كلّ ما هو جدير بالرؤية في صور نفيسة وكانت تدين بهذه الطبعة للإسهام الفعال في صالونها من جانب أرقى الأوساط الإجتماعية.

twitter @baghdad_library

ولكنَّ كان يحدث فيما عدا ذلك أيضاً بغير انقطاع أمور شتى لم يكن المرء يعرف الكلمات المناسبة لها على وجه السرعة بحيث كان يستبق حدس المرء شيءٌ كدوّامة الطبل لم يكن بعدُ مرئياً وراء الناصية. فقد أضرب هنا موظَّفو البرق الإمبراطوريون الملكيون للمرة الأولى وبطريقة مقلقة إلى حدٍّ فائق حملت اسم المقاومة السلبية ولم تكن تنطوي على شيء آخر سوى أنّهم كانوا جميعاً يراقبون اللوائح الخاصّة بالخدمة بضمير متناه في دقته. وتبيّن أن المراعاة الدقيقة للقانون ينتهي بكلّ عمل إلى التوقّف على نحو أسرع مِمّا يمكن أن يقدِّر عليه أشدّ أنواع الفوضى انفلاتاً من العنان. وبالاشتراك مع النقيب فون كوبينيك في بروسيا الذي جعل من نفسه ضابطاً كما يذكر الناس في هذه الأيام بعدُ عن طريق حلّة رسميّة اشتراها من بائع أمتعة مستعملة واستوقف دورية مسلّحة في الشارع وداهم بها وبمعونة الانضباط البروسي الملكي خزينة البلديّة كانت المقاومة السلبية شيئاً يثير الضحك غير أنّها هزّت في الوقت نفسه بطريقة سريّة الأفكار التي كان يستند إليها الاستنكار الذي كانوا يريدون الإعراب عنه. وكانوا في الوقت نفسه يقرأون بين الأمور الجديدة أن حكومة صاحب الجلالة عقدت مع حكومة صاحب جلالة آخر اتفاقية تتضمن تأمين السلام والتنمية الإقتصادية والتعاون الأخوي واحترام حقوق الجميع غير أنّها تتضمن أيضاً إجراءات في حالة تهديد هذه أو إمكانية تهديدها. وكان الوزير الذي يرأس رئيس القسم توتسي قد ألقى بعد ذلك بأيام قلائل كلمة أثبت فيها الضرورة الملحّة للتضامن الوثيق بين الإمبراطوريات القارية الثلاث التي لا يجوز لها أن تغضّ النظر عن التطوّر في وجه البُنى الإجتماعية الجديدة. وكانت إيطاليا قد تورَّطت في عملية مسلحة في ليبيا وكان بين ألمانيا وإنجلترا مسألة بغداد واتخذت كاكانيا في الجنوب استعدادات عسكرية معيَّنة لتظهر للعالم أنّها لن تسمح بتوسّع صربيا على البحر بل لن تسمح إلا بربط للخط الحديدي. وعلى قدم المساواة مع كلّ الأحداث

من هذا النوع اعترفت الممّثلة السويدية ذات الشهرة العالمية الآنسة فوجِلْزانج أنّها لم يسبق لها قط أن نامت نوماً جيّداً كنومها هذه الليلة الأولى بعد وصولها إلى كاكانيا وأنّها قد سرّها الشرطي الذي أنقذها من حماسة الجمهور ولكنّها التمست بعد ذلك السماح لها بالإعراب عن امتنانها بالضغط على يدها بكلّتا يديه. وبذلك تكون الأفكار قد عادت إلى معرض الشرطة. لقد كان يحدث الكثير وكان ذلك يلاحظ أيضاً وكان الناس يستحسنونه ومن المفهوم أن السفارة الأجنبية تواجه في مثل هذه الظروف مهمة صعبة حين تريد أن تستخلص ما يحدث في الحقيقة. وقد كان الممثلون الدبلوماسيون يودّون لو يمتحون معلوماتهم من مَعين الكونت لاينزدورف غير أن الشريف كان يثير في وجههم المصاعب. وكان في كلّ يوم يجدّ من جديد في عمله ذلك الإشباع الذي تقدر الاستقامة الراسخة على إضفائه وكان وجهه يظهر للمراقبين الأجانب الإرتياح المشرق ضمن نسق الأحداث المتلاحقة. فكان المكتب الأوّل يكتب وكان المكتب الثاني يجيب وحين يكون المكتب الثاني قد أجاب كان يترتّب على المرء أن يبلغ بذلك المكتب الأوّل وكان الأفضل أن يُسْتحَث المرءُ إلى حوار شفهي. وحين يكون المكتبان الأوّل والثاني قد اتفقا كان يُتّخذ قرار بأنّه ليس من الممكن الحث على شيء وهكذا كان يظلّ هناك شيء يترتّب عمله بغير انقطاع. وكان يوجد فضلاً عن ذلك اعتبارات جانبية كثيرة لا تحصى يجب مراعاتها. وكان القوم يعملون مع كلّ الوزارات المختلفة يداً بيد وكانوا لا يريدون المساسَ بالكنيسة ولم يكن لهم بدٌّ أن يحسبوا حساباً لشخصيات معيَّنة وعلاقات إجتماعية معيَّنة وبكلمة موجزة: لم يكن يجوز للمرء عمل الكثير من الأشياء حتى في الأيام التي لم يكن المرء فيها يقوم بشيء على وجه الخصوص بحيث كان المرء يخرج بانطباع يوحي بنشاط كبير. وكان حضرة الشريف يعرف كيف يقدِّر هذا التقدير الصحيح. وقد اعتاد أن يقول: «كلما رفع القدر من شأن الرجل ازدادت معرفته وضوحاً فالمسألة لا

twitter @baghdad_library

تتوقّف إلا على مبادئ قليلة بسيطة ولكنّها تتوقّف مع ذلك على إرادة حازمة وعمل تخطيطي». وذات مرّة استرسل في حديث مفصّل أمام «صديقه الشاب» أيضاً حول هذه التجربة وعلّق على المطامح الوحدوية الألمانية وسلّم بأنّه قد تدخل فيما بين العامين ١٨٤٨ و١٨٦٦ قدر كبير من أكثر الناس براعة في الحديث عن السياسة في هذا الصدد ومضى قائلاً: «ثم جاء بسمارك هذا وكان يتميّز بهذه الفضيلة الواحدة على أيّة حال وهي أنّه بيّن كيف يجب على المرء أن يمارس السياسة: لا بالخطب والبراعة! وعلى الرغم من جوانب ضعفه فقد كان مِمّا حققه أن اللسان الألماني بلغ منذ عصره هذا المدى البعيد وكل إنسان يعرف أنّه لا سبيل إلى تعليق الآمال في شيء من السياسة على البراعة والخطب بل على مجرّد التفكير الصامت والفعل!». وكان الكونت لاينزدورف قد أدلى بتصريحات مشابهة في المجتمع أيضاً وكان ممثّلو الدول الأجنبية التي كان لها هناك مراقبوها في بعض الأحيان يجدون أن من الصعب تكوين صورة صائبة عن نواياه وكانوا يعلّقون أهمّية على إسهام آرنهايم وكذلك على مركز رئيس القسم توتسي. وكانوا يستخلصون بوجه عام من مسألة وجود تفاهم خفيّ بين كلا هذين الرجلين وبين الكونت لاينزدورف يجري إخفاء هدفه السياسي بصورة مؤقّتة وراء ألوان التصرّف الشديد للانتباه التي تقدّمها زوجة رئيس القسم توتسي من خلال مطامحها الثقافية الشمولية. وإذا أدخل المرء في حسبانه هذا النجاح الذي خدع به الكونت لاينزدورف بدون أن يجشّم نفسه أدنى مشقة حتى المراقبين الماكرين على فضولهم لم يكن من الممكن بحال من الأحوال أن يجحد المرء له تلك الموهبة الخاصّة بالسياسة الواقعية التي كان يعتقد أنّه يتمتّع بها.

ولكن حتى أولئك السادة الذين كانوا يحملون في المناسبات الاحتفالية أشغالاً من الزخرفة بورق النبات مطرزة بالذهب وما شابه ذلك من الزخارف

على حلّل سهراتهم الرسميّة كانوا يتمسكون بأحكام مهنتهم المسبقة فيما يتّصل بالسياسة الواقعية. ولما لم يعثروا لدى بحثهم في خلفيات العمل الموازي على ظواهر ملموسة فإنهم سرعان ما وجهوا انتباههم نحو ما كان يمثّل في كاكانيا علّة معظم الظوهر التي يلفّها الغموض والتي كانت تسمّى «الأمم غير المتحرِّرة». واليوم ينظر الناس إلى القوميّة وكأنّها مجرّد اختراع من قبل مورّدي الجيش غير أن المرء خليق أن يحاول ذلك ذات مرّة أيضاً بتفسير موسّع. وقد أسهمت كاكانيا في مثل هذا التفسير إسهاماً هاماً. وكان سكان هذه المملكة المزدوجة الإمبراطورية والملكية الإمبراطورية ـ الملكية يجدون أنفسهم أمام مهمة صعبة. كان عليهم أن يشعروا أنّهم مواطنون نمساويون ـ هنغاريون امبراطوريون وملكيون وأن يشعروا في الوقت نفسه أيضاً أنّهم هنغاريون ملكيون أو نمساويون امبراطوريون ملكيون وكان شعارهم المفهوم تجاه مثل هذه المصاعب قولهم «بطاقاتٍ موحدة!» وكان هذا يعني باللاتينية viribus unitis. غير أن النمساويِّين كانوا يحتاجون من أجل ذلك إلى طاقات أكبر كثيراً من طاقات الهنغاريين ذلك لأنّ الهنغاريين كانوا أوّلاً وآخراً مجرّد هنغاريين وكان ينظر إليهم بصورة عرضيّة فحسب من قبل الآخرين الذين لم يكونوا يفهمون لغتهم على أنّهم هنغاريو النمسا. أما النمساويون فكان عليهم في مقابل ذلك أن يشعروا قبل كلّ شيء وبصورة أصيلة فيما يرى رؤساؤهم أنّهم هنغاريو النمسا أو هنغاريون نمساويون على حد سواء ـ بل لم تكن توجد حتى كلمة صحيحة للتعبير عن ذلك. وكذلك لم يكن ثمة وجود للنمسا. كان كلا الشطرين هنغاريا والنمسا يتلاءمان أحدهما مع الآخر مثلما تتلاءم السترة الخضراء ـ البيضاء ـ الحمراء مع السروال الأصفر ـ الأسود. وكانت السترة قطعة قائمة بذاتها على حين كان السروال بقية من حلّة صفراء ـ سوداء ما عاد لها وجود تقطّعت أوصالها في العام ١٨٦٧ وكان السروال الممثّل للنمسا يُسمّى منذ ذلك الوقت باللغة الرسميّة «الممالك والبلدان الممثّلة في مجلس

twitter @baghdad_library

الدولة» الأمر الذي لم يكن بالطبع يعني شيئاً على الإطلاق وكان اسماً متَّخذاً من أسماء لأنّ هذه الممالك أيضاً ومنها على سبيل المثال الممالك الشكسبيرية تماماً مثل مملكة لودوميريا وإيلليريا ما عاد لها وجود منذ عهد بعيد حين كان مايزال هناك حلّة كاملة صفراء ـ سوداء. ومن أجل ذلك كان المرء إذا سأل نمساوياً ما عساه يكون لم يكن في وسعه بالطبع أن يجيب قائلاً: «أنا واحد من الممالك والبلدان العائدة إلى مجلس الدولة والتي ما عاد لها وجود وكان يُؤْثر من أجل هذا السبب أن يقول: أنا بولوني أو تشيكي أو إيطالي أو فريياولي أو لادينويّ أو سلوفيني أو كرواتي أو صربي أو سلوفاكي أو روثينيّ أو فلاشي وكانت هذه هي القوميّة المزعومة. وليتصوّر المرء سنجاباً لا يعرف أهو سنَّوْر أم هو بومة مخلوقاً ليس لديه تصوّر عن نفسه وعندئذ سوف يفهم المرء أنّه يمكن له في ظروف معيَّنة أن يتولّاه خوف من ذيله الخاص لا سبيل إلى الشفاء منه. غير أن الكاكانيين كانوا يواجهون مثل هذه العلاقة بعضهم تجاه بعض وكانوا ينظرون إلى أنفسهم نظرة الفزع الشامل فزع الأعضاء من أن يكونوا شيئاً ما بالقوى الموحَّدة. ولم يحدث بعدُ منذ وجود الأرض أن مات مخلوق بخطأ لغوي ولكنَّ يجب على المرء أن يضيف بلا ريب أنَّ الملكية المزدوجة النمساوية ـ الهنغارية قد حدث لها أن انهارت من جراء عدم إمكان التعب وليس من الأمور غير ذات القيمة بالنسبة إلى الأجنبي أن يعرف بأية طريقة كان يصبر على هذه الصعوبات كاكانيّ داهية رفيع المستوى مثل الكونت لاينزدورف. كان أوّل الأمر يفصل في ذهنه الواعي هنغاريا بعناية إذ كان لا يتحدَّث عنها أبداً بحكم كونه دبلوماسياً حكيماً مثلما لا يتحدَّث المرء عن ولد استقلّ بإرادته عن والديه وإن كان يأمل أن تسير الأمور معه سيراً سيّئاً مرّة أخرى أما ما تبقّى فكان يشير إليه باسم القوميات أو باسم القبائل النمساوية. وكان هذا ابتكاراً يتّسم بمغزى بالغ الدقة وكان الشريف قد درس القانون العام ورأى هناك في صورة التعريف المنتشر انتشاراً كبيراً في أرجاء العالم كلّه أن

الشعب لا يكون له الحقّ في أن يدخل في عداد الأمم إلا حين يكون متمتعاً بشكل خاص من أشكال الدولة وكان ينشأ عن ذلك بالنسبة إليه أن الأمم الكاكانية تعدّ على هذا قوميات على أقصى الحدود وكان الكونت لاينزدورف يعرف من ناحية أخرى أن الإنسان لا يستطيع أن يجد مصيره الحقيقي والكامل إلا ضمن حياة إجتماعية يتطابق معها ويكون تابعاً لها ولما كان يأبى أن يضنّ على أحد بهذا فقد خلص من ذلك إلى ضرورة إلحاق القوميّات والقبائل في دولة وكان يؤمن فوق هذا بنظام إلهي وإن لم يكن هذا متَّسِماً بالشفافية للعين البشريّة في كلّ وقت بل كان في الساعات العصرية الثورية التي كانت تلم به أحياناً مستعداً لفكرة مآلها أن فكرة الدولة التي لقيت في العصر الحديث الدعم الشديد ربّما لا يمكنها أن تكون شيئاً آخر سوى فكرة الجلالة الموضوعة من قبل الرب وقد ظهرت في صورة مستحدثة بادئة لتوّها. ومهما يكن من أمر هذا فقد كان يرفض التفكير المفرط في الشطط ـ بحكم كونه سياسياً واقعياً وقد كان خليقاً أن يتقبّل أيضاً نظرة ديوتيما وهي أن فكرة الدولة الكاكانية هي ذاتها فكرة السلام العالمي ـ وكانت المسألة الرئيسيّة هي أنّه كان يوجد دولة كاكانية قائمة وإن لم يكن لها اسم صحيح وأنّه لا بدّ من أن يُختَرع من أجلها شعب للدولة الكاكانية. وقد دأب على توضيح هذا من خلال مثال يقول إنّه لا يكون أحد تلميذاً ما لم يذهب إلى المدرسة غير أن المدرسة تظل مدرسة حتى عندما تظلّ خاوية وكانت الشعوب كلّما ازدادت مقاومتها للمدرسة الكاكانية التي كان يفترض أن تشكِّل منها شعباً بدت له المدرسة أكثر ضرورة في مناسبات معيّنة. وكانوا يؤكّدون بقوّة أنّهم أمم ويطالبون باستعادة الحقوق التاريخية الضائعة ويتبادلون الغزل مع الأشقاء والأقرباء من الأصل ذاته وراء الحدود ويعدّون الدولة في العلانية التامة سجناً يريدون أن يتحرّروا منه. وكان الكونت لاينزدورف يسمِّيهم بالقبائل وهي تسمية أدعى إلى التهدئة. وكان يؤكّد تأكيداً شديداً بالقدر ذاته مثلما يفعلون هم أنفسهم الجانب غير الناجز في حالتهم إلا

twitter @baghdad_library

أنّه كان يريد استدراكه بأن يخرج من القبائل شعب الدولة النمساوية. أما ما كان لا يتلاءم مع مخطّطه أو كان مفرطاً في الاستثارة فقد كان يفسّره لنفسه بالطريقة المعروفة لديه على أنّه من نتائج عدم نضج لم يجر التغلّب عليه بعد وكان من أجل ذلك أنَّ أفضل ما يمكن استعماله في وجه هذا مزيج يتَّسم بالحكمة من المسايرة الذكيّة والرفق المصحوب بالعقوبة.

وحين بعث الكونت لاينزدورف الحياة في العمل الموازي اكتسب هذا العمل على الفور لدى القوميات صفة الهجمة الخفيّة الجرمانية الشمولية. أما الإهتمام الذي أظهره الشريف تجاه معرض الشرطة فقد تمَّ الربط بينه وبين الشرطة السياسية وفُسّر في صورة تقويّة للعلاقة بين الأمرين من حيث المغزى. وكل هذا كان يعرفه المراقبون الأجانب وكانوا يسمعون من الأشياء عن العمل الموازي قدر ما كانوا يريدون بغير حساب. وكانوا يحملونه في أذهانهم بينما كان الناس يتحدَّثون إليهم عن استقبال الممَّثلة فوجلزانج وعن مسرح عرائس الملكة وعن الموظَّفين المضربين أو يسألونهم عن نظرتهم إلى الإتفاقيات الدولية المنشورة حديثاً. وعلى الرغم من أن كلمة روح الحزم التي كان الوزير قد استعملها في خطابه كان من الممكن أن تفهم على أنّها بيان تحذيري وكانوا إذا شاؤوا خرجوا من ذلك بلا ريب بانطباع مؤدّاه أنّه لا يمكن في صدد افتتاح معرض الشرطة الذي كثر الحديث عنه مع الفحص غير المتحيِّز ملاحظة أدنى شيء يستحق التعليق عليه بشيء ما غير أنّهم خرجوا مع ذلك بانطباع مؤدّاه أنّه يحدث شيء عام وغير مؤكّد مازال يستعصي على الاختبار في اللحظة الراهنة.

[٩٩]

حول نصف الذكاء وشطره الآخر المثمر وحول تشابه عصرين وحول الطبيعة اللطيفة للعمّة جين وعن العبث الذي يسمّونه العصر الحديث

ومع ذلك فقد كان من غير الممكن أيضاً أن يخرج المرء بفهم منسّق للأحداث الجارية في جلسات المجمع. وقد كانت الوجهة العامة بين الناس المتّسمين بالتقدّم في تلك الآيام تميل إلى الفكر النشيط الفعال. كان الناس قد عرفوا واجب أهل الأدمغة في انتزاع زمام قيادة أهل البطون. وفضلاً عن ذلك فقد كان هناك شيء يسمّونه التعبيريّة ولم يكن في وسع المرء أن يبيّن على وجه الدقة ما تعنيه هذه غير أنّها كانت كما تفيد الكلمة إخراجاً لشيء من خلال التعبير عنه وربّما كانت تتّسم بالرؤى البناءة ومع ذلك فقد كانت هذه هدامة أيضاً إذا ما قورنت بالتقليد الفني ومن أجل ذلك كان في وسع المرء أيضاً أن يسمّيها بنائية (struktur) وهي لا تلزم بشيء على أن النظرة البنائية إلى العالم تبدو جديرة بالاحترام تماماً ومع ذلك فهي ليست كلّ شيء. لقد كان الناس في تلك الأيام منصرفين إلى يومهم والى دنياهم ظاهراً وباطناً ولكنّهم كانوا يتجهون أيضاً من الخارج نحو الداخل وكان الجانب الذهني والفردية يعدّان أمرين ولّى عهدهما كما يعدان من الأمور المتّسمة بمركزية الأنا وكان الحبّ قد عاد إلى الهبوط وكان الناس على وشك اكتشاف التأثير الجماعي السليم للفن الرخيص من جديد وذلك حين يمسّ نفوس أهل الأفعال المطهّرين

twitter @baghdad_library

وتتبدل العبارة الدالة على ماهية المرء على ما يبدو مثل السرعة التي تتبدل بها العبارة الدالة على ملبسه ويشترك هذان المرآن في أنّه ما من أحد يعرف السرّ الحقيقي لهذا «المرء» حتى ولا رجال الأعمال المسمون في الزيّ السائد. أما مَنْ يتمرّد على ذلك فهو خليق مع ذلك أن يحدث على نحو لا مندوحة عنه الإنطباع المضحك إلى حدٍّ ما والخاص برجل دخل بين قطبي آلة استخدام التيار المستحث في المعالجة الكهربائية وهو يختلج ويرتجف على نحو عنيف بدون أن يتمكَّن المرء من الإحساس بخصمه. ذلك لأنّ الخصم لا يتمثَّل في الناس الذين يستغلّون الوضع التجاري القائم بنكتة سريعة بل يشكّله عدم الثبات الهوائي المائع في الوضع العام ذاته وانصبابه من مناطق لا تحصى وقدرته اللامحدودة على الربط والتبدّل الأمر الذي يضاف إليه من جانب المتلقّي بعدُ ذلك النقص أو العجز في المبادئ السارية المفعول والثابتة والمنظّمة.

على أنَّ إرادة العثور على الثبات في هذا التبدّل للظواهر أمر عسير مثل إرادة دقّ مسمار في بؤرة الينبوع ومع ذلك ففي هذا شيء يبدو أنّه يظلّ على حاله فماذا يحدث مثلاً حين يصف هذا النوع المتحرّك أيّ الإنسان بالعبقرية لاعب تنس؟ إنّه يغفل شيئاً ما وعندما يسمَّى حصان السباق عبقرياً فهو يغفل شيئاً أكبر بعدُ إنّه يغفل شيئاً ما حين سُمّي لاعب كرة القدم علمياً والمبارز بالرمح حاضر بديهة أو حين يتحدَّث عن الهزيمة المأساوية لملاكم إنّه يظلّ يغفل شيئاً على وجه الإطلاق وهو يبالغ ولكن عدم الدقة الذي يسبّب المبالغة مثل عدم دقَّة التصوّرات في مدينة صغيرة السبب في أن يعدّ إبن صاحب المتجر رجلاً اجتماعياً. فهناك شيء ما سيكون صحيحاً في هذا. ولماذا لا يفترض أيضاً في مفاجآت البطل الرياضي أن تذكّر مفاجآت عبقري ولا يفترض في خواطره أن تذكّر بخواطر باحث خبير؟ وبالطبع فهناك شيء ما مختلف

وأكثر منه إلى حدٍّ بعيد لا يصحّ غير أن هذه البقية لا يجري الإحساس بها على الإطلاق لدى الإستعمال أو يتمّ الإحساس بها مع التأفف فحسب. إنّها بقية تعدّ غير يقينية ويتمّ تجاوزها وإغفالها ويبدو أنّها أقلّ تمثيلاً لمفهوم العبقريّة الذي يحمله هذا العصر حين يعدّ حصان السباق أو لاعب التنس عبقرياً منه لسوء ظنه بالمحيط العلوي بمجمله.

وقد يكون هذا هو المكان الملائم للحديث عن العمّة جين التي يذكرها أولريش من خلال تصفّحه المجموعات القديمة لصور العائلة التي كانت ديوتيما قد أعارته إياها وكان يقارن الوجوه فيها بالوجوه التي كان يراها في منزلها. ذلك لأنّ أولريش كان كثيراً ما يقضي الوقت الطويل وهو صبيّ عند عمّته لأبيه وكانت العمّة جين قد أصبحت صديقتها منذ عهود لا سبيل إلى تذكّرها. ولم تكن في الأصل عمة أيضاً. وكانت قد دخلت المنزل معلمةَ بيانو للأطفال ولم يبلغ في ذلك كثيراً من المجد غير أنّها حظيت بالكثير من المحبّة إذ كان مبدأُها أنّه لا معنى لممارسة وظائف التمرّين على البيانو إذا لم يكن المرء مجبولاً على حبّ الموسيقى كما كانت تقول. فكان سرورها يغدو أكبر حين يتسلّق الأطفال الأشجار وبهذه الطريقة أصبحت معلمة جيلين مثلما أصبحت بفعل طاقة السنين ذات المفعول الرجعي صديقة صِبا مُعيلتها الخائبة.

وكان في وسع العمّة جين أن تقول مثلاً عن العم القصير النيبوموكي[٢٨] الذي كان قد بلغ في تلك الأيام الأربعين من العمر «آه هذا الموكيّ» وكانت تقول ذلك وهي مفعمة بالشعور بثبات الزمن وبأناة وإعجاب يجعلان صوتها مايزال حياً إلى اليوم بالنسبة إلى مَنْ سمعها ذات مرة. وكان صوت العمّة جين هذا كأنّما اغبرّ من الدقيق وكان على وجه الخصوص كما لو أن المرء غمس الذراع العاري في دقيق بالغ النعومة كان صوتاً واهناً طليّاً في عذوبة وكان يأتي

(٢٨) نسبة إلى نيبوموك مكان في بوهيميا.

twitter @baghdad_library

من أنّها كانت تسرف كثيراً في تناول القهوة السوداء وتدخّن فوق ذلك سيجار فيرجينيا الطويل الدقيق الأسود الذي أسهم مع سنّها في جعل أسنانها سوداً صغيرة. وكان المرء إذا نظر في وجهها أمكنه آخر الأمر أن يعتقد أيضاً أنّه لا بدّ أن يكون هناك علاقة بين إيقاع صوتها وبين الخطوط الصغيرة الدقيقة التي لا تحصى والتي كانت تغشى بشرتها كلوحة منقوشة بالحفر. وكان وجهها متطاولاً وديعاً ولم يكن قد تغيّر قطّ بالنسبة إلى الأجيال اللاحقة شأنه في ذلك شأن أيّ شيء آخر يتّصل بالعمة جين. وكانت لا ترتدي إلا ثوباً وحيداً خلال حياتها وإن كان له وجود متعدد الجوانب كما كان هذا يبدو محتملاً على أيّة حال. كان إهاباً ضيّقاً من الحرير الأسود المحزّز يصل إلى الأرض فلا تتيح مجالاً لشيء من غوايات الجسد وكان ينغلق بالكثير من الأزرار السود الصغيرة كطيلسان الكاهن. وكان ينبغث منه في الأعلى ياقة منتصبة على انخفاض في صلابة ذات زوايا معقوفة كان الحلقوم يشكّل بينها في بشرة العنق الخالية من اللحم ميازيب متحرّكة مع كلّ نفَس من السيجار. وكانت الأكمام الضيّقة مختومة بثنيات بيض صلبة وكان السقف يتألّف من شعر مستعار رجالي أشقر محمرّ جَعْدٍ قليلاً مفروق الوسط وعلى مدى السنين باتت أرضية الشاشة ترى من وراء هذا المفرق قليلاً أما ما كان أبلغ تأثيراً بعدُ فكان كلا الموضعين اللذين كان المرء يرى فيهما الصدغين العجوزين إلى جانب الشعر الملون آيةً وحيدة على أنَّ العمّة جين لم تكن خلال حياتها على الحالة ذاتها من الشيخوخة دائماً.

وكان من الممكن أن يعتقد المرء أنّها استبقت أسلوب النساء الرجولي بكثير من عشرات السنين ذلك الأسلوب الذي شاع زيّه منذ ذلك الوقت غير أن هذا لم يكن واقع الحال إذ كان يستكن في صدرها الرجولي قلب بالغ الأنوثة وكان في وسع المرء أيضاً أن يصدّق أنّها كانت ذات مرّة عازفة للبيانو مشهورة

جداً قد فقدت صلتها بعصرها فيما بعد إذ كانت تبدو على هذا النحو. ولكنَّ هذا أيضاً لم يكن واقع الحال إذ لم تكن قط أكثر من معلمة للبيانو. أما الرأس الرجولي والطيلسان فلم يأتيا إلا من أن العمّة جين قد تحمست وهي فتاة لفرانتس ليسْت الذي لقيته بضع مرات في المجتمع خلال وقت قصير. وهناك اتّخذ اسمها صيغته الإنجليزيّة. ذلك أنّها كانت تخلص لذكرى هذا اللقاء مثلما يلبس فارس متيّم ألوان سيّدته حتى سن الشيخوخة إذ لا تعود مرغوبة بعد وكان هذا في العمّة جين أبلغ تأثيراً مِمّا لو كانت تواصل ارتداء الحلة الرسميّة لأيام مجدها في سن التقاعد. وحتى سرّ حياتها الذي لم يكن ينقل في العائلة إلى من شبّ عن الطوق إلا بعد تذكير جدي بوجوب الإنتباه مثلما يكون الحال لدى تكريس فتى من الفتيان حتى هذا كان يتَّسم بشيء من هذا القبيل ولم تكن جين بعدُ فتاة صغيرة (فالنفس التي يصعب إرضاؤها يطول بها الاختيار) حين وجدت الرجل الذي أحبَّته وتزوَّجته خلافاً لرغبة ذويها. وكان هذا الرجل فنّاناً بالطبع وإن كان مجرّد مصوِّر شمسي من جراء مصير تعيس مزرٍ متصل بأحوال مدن الريف غير أنَّ الديون تراكمت عليه بعد زواج قصير كالعبقري وكان يندفع إلى الشراب اندفاعاً وكانت العمّة جين تكابد الحرمان من أجله وقد عادت به من الحانة إلى آلهته وكانت تبكي في سرها وأمامه وعلى ركبتيه وكان يبدو كالعبقري قوي الفم متوفّز الشعر ولو أن العمّة جين كانت تتمتَّع بالمقدرة على أن تنقل اندفاع اليأس عندها إليه لكان بتعاسة آثامه في مثل عظمة اللورد بايرون غير أن المصوِّر كان يثير الصعوبات في وجه انتقال المشاعر وترك جين بعد عام مع خادمتها الفلاحة التي كان قد أحبلها ومات بعيد ذلك منبوذاً إلى حدٍّ بعيد واقتطعت جين خصلة من رأسه الجبار واحتفظت بها وتبنّت الطفل غير الشرعي الذي خلّفه وربّتْهُ حتى كبر مضحيّة من أجله وكانت قلّما تتحدَّث عن هذه الحقبة المنصرمة. ذلك لأنّ المرء لا يستطيع أن يطالب الحياة حين تكون شامخة أن تكون طيّبة أيضاً.

twitter @baghdad_library

وإذاً فقد كان في حياة العمّة حين قدر ليس بالقليل من الشذوذ الرومانسي ولكنَّ فيما بعد حين ما عاد المصوِّر الشمسي في نقيصته الأرضّية يمارس سحره عليها منذ عهد بعيد كانت مادة حبها له تلك المادة المتَّسمة بالنقص قد تطرق إليها الفساد أيضاً و ظلّت صورة الحبّ الخالدة والحماسة باقيْين وما عاد يؤثر في المسافة التالية من هذه التجربة شيء آخر سوى ما كانت التجربة العملاقة حقاً خليقة أن تعمله. وهكذا كانت العمّة على وجه الإجمال. وربّما لم يكن مضمونها الفكري كبيراً غير أن قالبها الروحي كان بالغ الجمال. كانت لفتاتها بطوليّة وكانت أمثال هذه اللفتات تغدو غير مستحبة مادامت تنطوي على مضامين زائفة وكانت إذا خلت تماماً تغدو من جديد كرقص اللهيب والإيمان وكانت العمّة جين تعيش على مجرّد الشاي والقهوة السوداء وفنجانين من حساء اللحم يومياً غير أن الناس في شوارع المدينة الصغيرة كانوا لا يظلون واقفين وكانوا يرسلون أبصارهم وراءها حين تخطر أمامهم في طيلسانها الأسود إذ كانوا يعرفون أنّها إنسانة ممتازة بل أكثر من هذا فقد كانوا ينطوون على توقير معيَّن لها إذ كانت إنسانة ممتازة وكانت قد احتفظت على الرغم من ذلك بالمقدرة على أن تبدو على النحو الذي كان يرتاح إليه قلبها على ما يبدو على الرغم من أن المرء لم يكن يعرف من ذلك شيئاً أكثر تفصيلاً.

كانت هذه هي قصّة العمّة جين التي كان قد طواها الموت منذ عهد بعيد وهي في شيخوخة متقدِّمة وكانت العمّة الكبرى قد ماتت والعم النيبوموكي قد مات ولماذا عاشوا جميعاً في الحقيقة؟ كذلك كان يتساءل أولريش غير أنّه كان خليقاً في هذا الوقت أن يبذل شيئاً من أجل ذلك لو أتيح له أن يحادث العمّة جين مرّة أخرى وكان يقلّب أوراق مجموعات الصور السميكة القديمة التي تضمّ صوراً شمسيّة لعائلته كانت قد وصلت بطريقة ما إلى ديوتيما وكان كلّما اقترب من بدايات فن التصوير هذا الجديد كان الناس فيما كان يبدو له يقدِّمون

أنفسهم بمزيد من الزهو. كانوا كما كان يبدو للمرء يضعون قدمهم على قصاصات من الورق المقوّى تمثّل كتلاً من الصخر حيكت من اللبلاب المتَّخذ من الورق وعندما يكونون ضباطاً كانوا يباعدون بين ساقيهم والرمح بينهما وعندما يكونون بنات كن يضعن أيديهن في أحضانهن ويفتحن عيونهن على مداها وحين يكونون رجالاً أحراراً كانت سراً ويلاتهم تنتصب في رومانسية جريئة بدون ثنية من المكواة منطلقة من الأرض كالدخان الذي يتصاعد متلوّياً. وكان لأثوابهم اندفاع مستدير شيء عاصف كان قد أزاح المهابة المتّصلّبة لأثواب الخروج البورجوازية ومن الممكن أن يكون هذا كان بين عامي ١٨٦٠ و١٨٧٠ بعد أن تمَّ تجاوز بدايات الطريقة. وكانت ثورة الأربعينات قد تخلّفت منذ عهد بعيد حقبة مندثرة وكان هناك مضامين جديدة للحياة وما عاد المرء يعرف اليوم ماهيتها غير أنّه ما عاد هناك وجود للدموع والمعانقات والأعترافات التي كانت الطبقة المتوسِّطة الجديدة في بداية عهدها تبحث عن نفسها فيها. ولكنَّ هذا النبل كان قد وصل إلى الثياب مثلما تنداح موجة على الرمل وكانت له طاقة اندفاع خاصة معيَّنة كان يمكن أن توجد لها كلمة أفضل بلا ريب غير أنّه لا يوجد منها بصورة مؤقَّتة إلا الصور الشمسية وكان هذا هو العصر الذي كان فيه المصوِّرون الشمسيّون يرتدون صُدَيْريات الدمقس ويتَّخذون الشوارب المفتولة وكانوا يبدون كالرسامين وكان الرسامون يصمِّمون رسوماً تمهيدية كبيرة يتمرّنون فيها بشخصيات ذات أهمِّية بصورة مشتركة وكان يبدو لغير الرسميِّين في هذا الوقت أنّه قد آن الأوان تماماً لكي يبتكر من أجلهم طريقة للتخليد ولم يبق إلا أن يضاف بعدُ أنّه لم يكن من اليسير على أناس عصر آخر أن يشعروا بالعبقرية والعظمة مثل أناس هذا العصر على وجه الخصوص أولئك الذين كان يوجد بينهم من البشر غير العاديين قلّة لم يسبق لها مثيل قطّ أو كانوا قلّما يتاح لهم أن يبرزوا بين صفوف الآخرين.

twitter @baghdad_library

وكان أولريش كثيراً ما يسائل نفسه في هذا الصدد ألّا يوجد علاقة بين هذا العصر الذي كان في وسع المصور الشمسي فيه أن يعدّ نفسه عبقرياً لأنّه كان يشرب ويرتدي ياقة عنق مفتوحة ويثبت نبالة نفسه التي كان يتمتّع بها بالطريقة العصرية أيضاً من خلال كلّ المعاصرين الذين كانوا يواجهون عدسته وعصر آخر معيَّن ما عاد المرء فيه ينسب العبقرية نسبة صادقةً بعدُ إلا إلى خيول السباق بسبب قدرتها المتفوّقة على كلّ شيء على الانبساط والتقلص وهما يبدوان مختلفين. فالحاضر ينظر إلى الماضي نظرة الإزدراء وهو مزهوّ ولو أن الماضي وصل متأخّراً بطريق المصادفة لنظر إلى الحاضر مزهواً نظرة الإزدراء غير إنهما ينتهيان كلاهما في المقام الأوّل إلى شيء جد متماثل إذ يلعب الدور الأكبر هنا كما يلعبه هناك عدم الدقة وإغفال الفروق الحاسمة إذ يؤخذ شطر من العظيم من أجل المجموع ويؤخذ شَبَهٌ بعيد من أجل تحقيق الحقيقة ويحنَّط إهاب الكلمة الكبيرة الذي بات خاوياً تبعاً للزيّ السائد اليوم. وهذا يتمّ على نحو رائع وإن كان لا يدوم طويلاً. فأولئك الذين كانوا يتحدَّثون في صالون ديوتيما لم يكونوا في شيء ما مخطئين كلّ الخطأ لأنّ مفاهيمهم كانت بعيدة عن الدقة والإرهاف مثل الأشكال القائمة في مطبخ للغسيل. وقال أولريش في نفسه: «هذه المفاهيم التي تتعلّق فيها الحياة كالنسر في اصطفاق جناحيه هذه المفاهيم الأخلاقية والفنِّية التي لا تحصى في الحياة والتي تتميَّز طبيعتها برقّة كرقة الجبال الصلدة على البعد الذي يلفّه الغموض!». وكانت تزداد على ألسنتهم عن طريق القلب والتحويل ولم يكن المرء يستطيع أن يتحدَّث عن أيَّة فكرة من أفكارهم هنيهة بدون أن يكون قد دخل في الفكرة التالية فجأة.

وهذا النوع من البشر كان يعدّ نفسه ممثلاً للعصر الحديث في كلّ العصور إنّها كلمة مثل كيس يودّ المرء أن يحتبس فيه رياح عوليس وهذه الكلمة هي التبرير الدائم لعدم إدخال النظام على الأشياء وهذا يعني عدم إدخال نظامها

الخاص الموضوعي بل ضمن السياق المتصوّر لمستحيل من المستحيلات. ولا ريب أن اعترافاً يكمن في ذلك. فالإيمان بأنّهم يتولّون مهمة إدخال النظام على العالم كان يعيش في هؤلاء البشر بأغرب الطرق وإذا أراد المرء أن يسمّي ما كانوا يقومون به من أجل هذا الغرض ذكاء نصفياً كان من الأمور التي تستحق الملاحظة أن النصف الآخر غير المذكور أو لنسمّه النصف الغبيّ الذي لا يكون أبداً دقيقاً وصحيحاً من هذا الذكاء النصفي كان يتمتّع بقدرة على التجديد والإخصاب لا ينضب معينها لقد كان فيها الحياة والتبدّل وعدم السكون وتبدل المواقف. غير أنّهم كانوا يحسّون هم أنفسهم بلا ريب بالكيفية التي كان هذا عليها. كان ثمة شيء يهزّهم وكان ينفخ في رؤوسهم وكانوا ينتمون إلى عصر عصبيّ وكان ثمة شيء ليس على مايرام وكان كلّ امرئ يرى نفسه ذكياً غير أنّهم كانوا يشعرون كلّهم معاً بالعقم فإذا كانوا يتمتّعون فوق ذلك بعدُ بالموهبة ـ ولم يكن عدم دقتهم يستبعد هذا بحال من الأحوال ـ فقد كان حال رأسهم كما لو كان المرء يرى الطقس والسحب والخطوط الحديدية وأسلاك البرق والأشجار والحيوانات وكل الصور المفعمة بالحركة لعالمنا العزيز من خلال نافذة ضيّقة متقشّرة وما من أحد كان يلاحظ هذا بسهولة على نافذته الخاصّة ولكنَّ كلّ واحد كان يلاحظه من نافذة الآخر.

وقد قام أولريش ذات مرّة بممازحتهم إذ طلب منهم معلومات دقيقة حول ما يقصدونه فنظروا إليه على أثر ذلك مستنكرين وعدّوا مطمحه بمثابة نظرة آلية إلى الحياة وريبيّة وطرحوا ادعاءً مفاده أنّه لا يجوز أن تحلّ أعقد الأمور إلا بأبسط الطرق بحيث يبدو العصر الجديد بمجرّد أن ينبثق من الحاضر بسيطاً كلّ البساطة ولم يكُن أولريش يحدث لديهم أثراً على الإطلاق على النقيض من آرنهايم. أما العمّة جين فكانت خليقة أن تمسح على وجهه وأن تقول له: «أنا أفهمك فهماً جيّداً جداً فأنت تكدّر صفوهم بجدّك».

twitter @baghdad_library

[١٠٠]

الجنرال شتوم يقتحم المكتبة الوطنية ويجمع خبرات حول أمناء المكتبة والعاملين فيها والنظام الثقافي

وكان الجنرال شتوم قد لاحظ إخفاق «زميله» وهمّ بتعزيته ووجّه اللوم إلى أهل المجمع قائلاً باستياء: «ما هذا الحديث المختلط الذي لا جدوى منه!» وبعد هنيهة شرع بالإعراب عمّا في نفسه على الرغم من أنّه لم يجد تشجيعاً وكان منفعلاً وكان مع ذلك يتّسم بارتياح معيَّن وقال: «أنت تذكَّر أنني وضعت نصب عينيّ أن أضع الفكرة المنقذة التي تبحث عنها ديوتيما عند قدميها فهناك كما يتبيّن كثير جداً من الأفكار الهامّة ولكنَّ لا بدّ أن تكون واحدة منها هي الأهم آخر الأمر وهذا هو المنطق الكامل بلا ريب. وإذاً فالمسألة تتوقَّف على مجرّد إدخال النظام عليها. لقد قلت أنت نفسك إنَّ هذا قراراً كان خليقاً بواحد كنابليون. ثم إنك عرضت عليّ بعدُ سلسلة من المقترحات الممتازة ما كان يُتوقّع منك سواها ولكنَّ الأمر لم ينته إلى استعمالها من قبلي وعلى هذا فأنا أقول باختصار إنني تولَّيت المسألة بيدي!».

وكان يحمل نظارة من العاج كان يخرجها الآن بدلاً من النظارة الأفقية من جيبه ووضعها على أنفه.

ومن أهمّ شروط فن القيادة الميدانية استجلاء قوّة الخصم. وقال الجنرال: «لقد طلبت تأمين بطاقة دخول إلى مكتبتنا التابعة للقصر ذات الشهرة العالمية وتغلغلت بقيادة أمين للمكتبة وضع نفسه تحت تصرفي على نحو لطيف

حين قلت له من أنا في خطوط الأعداء وتخطّينا تراث الكتب الهائل وأستطيع أن أقول إنَّ الأمر ما عاد يهزّني فهذه الأنساق من الكتب ليست بأسوأ من استعراض لحامية إلا أنّه لم يكن لي بدٌ أن أبدأ بعد هنيهة في الحساب الذهني وكان لهذا نتيجة غير متوقَّعة. ألّا ترى لقد كنت من قبلُ أحسب لو أنني قرأت كلّ يوم كتاباً لكان لا بدّ لهذا أن يكون مرهقاً جداً في الحقيقة ولكنَّ لا بدّ أن أفرغ من ذلك في وقت ما وسيكون من حقي عندئذ أن أدَّعي الحقّ في مكانة معيَّنة في الحياة الثقافية حتى حين أغفِل هذا الشيء أو ذاك. ولكنَّ لم تصل جولتنا إلى نهاية وأسأل أمين المكتبة كم من المجلَّدات تضمّ هذه المكتبة المجنونة في الحقيقة يجيبني قائلاً: ما ظنّك؟ ثلاثة ملايين ونصف المليون من المجلدات!! وكنا هنا بينما كان هو يقول هذا عند الكتاب ذي الرقم سبعمائة ألّف ولكنني كنت أحسُب اعتباراً من هذه اللحظة بغير انقطاع ـ وأريد أن أوفّر عليك هذا فقد تابعت حسابه في الوزارة مرّة أخرى بقلم الرصاص والورق: لقد كنت خليقاً أن أحتاج إلى عشرة آلاف من السنين على هذه الطريقة لكي أنجح في مسعاي!

وفي هذه اللحظة تسمّرت ساقاي فجأة وبدت الدنيا لي كدوّامة واحدة وأوكد لك الآن بعدُ وقد اطمأنيت الآن أن شيئاً ما هنا ينمّ عن خلل أساسي تماماً!

وفي وسعك أنَّ تقول إنَّ المرء لا يحتاج إلى أن يقرأ كلّ الكتب وسأردّ على ذلك بالقول: إنَّ المرء لا يحتاج في الحرب أيضاً إلى أن يقتل كلّ جندي على حدة ومع ذلك فكلٌ منهم ضروري! وسوف تقول لي: وكذلك فإن كلّ كتاب ضروري ولكنَّ ألّا ترى فههنا شيء لا يصحّ لأنّ هذا ليس بالحقّ وقد سألت أمين المكتبة!

twitter @baghdad_library

لقد قلت في نفسي يا صديقي العزيز إنَّ هذا الإنسان يعيش بلا ريب بين هذه الملايين من الكتب ويعرف كلاً منها ويعرف عن كلٍ منها مكانه ولا بدّ أن يكون في وسع هذا أن يساعدني وقد كنت بالطبع لا أريد أن أسأله ببساطة: كيف أعثر على أجمل فكرة في العالم؟ فإنَّ هذا خليق أن يبدو مثل بداية حكاية على وجه الخصوص وقد كنت من الفطنة بحيث ألاحظ هذا وقد كنت فوق هذا لا أستطيع وأنا بعدُ طفل أن أحتمل سرد الحكايات ولكنَّ ما عساك تعمل إذ لم يكن لي بدٌ أن أسأله عن شيء ما آخر الأمر! وكان حسن اللياقة عندي قد منعني من ناحية أخرى أيضاً أن أفضي له بالحقيقة فأبسط له مثلاً مطلبي الخاص بالمعلومات حول عملنا وأرجو من الرجل أن يضعني في الطريق إلى أنبل الأهداف من أجله ولم أر نفسي مؤهَّلاً لذلك. واستعملت آخر الأمر حيلة صغيرة وبدأت بالقول ببراءة تامة: «ويحي لقد نسيت الاستفسار عن الكيفيَّة التي بدأت بها في الحقيقة بالعثور على الكتاب الصحيح دائماً في وسط هذا التراث اللانهائي من الكتب!؟» ـ أتعرف أنني قلت هذا على نحو مماثل بالضبط للكيفية التي كنت أحسب أن ديوتيما كانت خليقة أن تقوله بها وجعلت في لهجتي قدراً من الإعجاب به أيضاً لكي تجوز عليه حيلتي.

وقد سألني بالفعل وقد نال منه الإطراء كثيراً وبات مستعداً للخدمة عمّا يرغب السيِّد الجنرال في معرفته. على أن وضعني في موضع حرج قليلاً ـ وأقول على مهل رُويداً: إنّها أشياء كثيرة جداً. وقال: «أنا أقصد ما هي المسألة التي تشتغل بها أو المؤلّف؟ أهي في تاريخ الحرب؟»

«كلا بلا ريب بل هي أقرب إلى تاريخ السلام»

«من التاريخ؟ أم من كتب الساعة حول السلام؟»

وأقول: كلا فهذا أمر لا يمكن الإفصاح عنه بهذه البساطة أبداً وأسأله بمكر قائلاً: على سبيل المثال جمعٌ لكلّ أفكار البشريّة الكبرى إذا كان هذا موجوداً فأنت تذكَّر ما أوعزت بالعمل فيه في هذا المضمار.

ويخلد إلى الصمت. وأقول: «أو كتاب حول تحقيق أهمّ هذه الأمور؟».

ويقول: إذاً فهي الأخلاق اللاهوتية؟

وأقول مطالباً: «إنَّ من الممكن أن يكون هذا أيضاً أخلاقاً لاهوتية ولكنَّ يجب أن يكون وارداً فيه أيضاً شيء حول الحضارة النمساوية القديمة وحول جريلْبارتْسَر». هل تعرف لا بدّ أنّه كان يبدو أنَّ ثمة ظمأً إلى المعرِّفة كان يتوقّد في عينيّ إلى حدٍّ جعل الرجل ينتابه الخوف فجأة وكان من الممكن شُربُه حتى الثمالة ومازلت أقول شيئاً عن شيء مثلما يقال الشيء عن جداول سفر الخطوط الحديدية التي لا بدّ لها أن تتيح إمكانية إنشاء أيَّة رابطة وأية صلة لا على التعيين بين الأفكار. عند ذلك يغدو مهذّباً إلى حدٍّ يبعث على الوحشة تماماً ويعرض عليّ أن يذهب بي إلى حجرة الفهارس وأن يدعني هناك وحدي على الرغم من أن هذا محظور في الحقيقة إذ لا يجوز استعمالها إلا من قبل أمناء المكتبة. هنالك غدوت بالفعل في قدس أقداس المكتبة وأستطيع أن أقول لك إنني أحسست أنني دخلت في جوف جمجمة ولم يكن حواليّ شيءٌ سوى هذه الرفوف بما فيها من خلايا الكتب وفي كلّ مكان سلالم للصعود حوالَيها وليس على المنصّات والطاولات إلا الفهارس وكتب الببليوغرافيا. وهكذا كان يوجد هناك كلّ عصارة المعرِّفة ولم يكن يوجد في أيّ مكان كتاب معقول للقراءة بل مجرّد كتب عن الكتب: وكان المكان يعبق عبقاً شديداً برائحة فوسفور الدماغ ولا أجنح إلى الخيال حين أقول إنني كنت أحمل انطباعاً مفاده أنني وصلت إلى شيء ما! ولكنَّ كان يساورني بالطبع حين أراد الرجل أن يتركني وحدي شعور غريب كلّ الغرابة وأود أن أقول إنّه شعور

twitter @baghdad_library

بالخشوع والوحشة. ويرتقي كالقرد سلّماً منطلقاً إلى مجلّد كان قد صوّب اهتمامه إليه على نحو سديد من الأسفل بالغاً إلى هذا الكتاب على وجه الخصوص وينزل به إليّ ويقول: «سيِّدي الجنرال لقد جئتك هنا ببليوغرافيا البيليوغرافيات». أتعرف ما هذا؟ ـ إنّه الفهرست الهجائي للفهارس الأبجديّة لعناوين تلك الكتب والأعمال التي تناولت في السنوات الخمس الأخيرة أوجه التقدّم في المسائل الأخلاقية مع استبعاد اللاهوت الأخلاقي والآداب ـ أو شيئاً من هذا القبيل كما يشرح لي ويهمّ بالاختفاء غير أني أمسك به في الوقت المناسب من سترته وأتعلّق به وأصيح قائلاً: «سيِّدي المكتبيّ! لا يجوز لك أن تغادرني بدون أن تفضي إليّ بسرّ عثورك على طريقك في ـ وقلت غير محاذر في مستشفى مجانين الكتب هذا»إذ كان هذا ما خيِّل إليّ فجأة. ولا بدّ أنّه أساء فهمي. ثم خطر ببالي بعد ذلك أن الناس يزعمون أن المجانين يميلون إلى أن يرموا الآخرين من البشر بالجنون فيما يقال. وعلى كلّ حال فقد كان على الدوام ينظر إلى سيفي ولم يكن من الممكن وقفه ثم إنّه بعث في نفسي فزعاً شديداً وذلك أنّه حين لم أطلقه على الفور ينهض فجأة وقد بات أكبر من سرواليه المتأرجحين ويقول بصوت يمدّ كلّ كلمة على نحو له دلالته وكأنّما كان لا بدّ له أن يفصح عن سرّ هذه الجدران الآن. ويقول: «سيِّدي الجنرال أتريد أن تعرف كيف أعرف كلّ كتاب؟ لا ريب أنني أستطيع أن أقول هذا لك الآن: لأنّني لا أقرأ واحداً منها!».

أتدري هنالك عيل صبري حقاً غير أنّه فصّل لي ذلك حين رأى ذهولي. إنَّ سرّ كلّ المكتبيّين يتمثَّل في أنّهم لا يقرأون قطّ من الكتب التي يُعهَد بها إليهم أكثر من عناوينها وفهرست مضمونها وعلَّمني قائلاً: «إن من يسترسل في الإطّلاع على المضمون يعدّ ضائعاً من حيث كونه مكتبياً! وذلك أنّه لن يحظى

أبداً بالنظرة الشمولية!». وأسأله مبهور الأنفاس: «فأنت إذاً لا تقرأ أبداً كتاباً من الكتب؟».

«أبداً إلا الفهارس»

ولكنك دكتور حقاً. وقال: بلا ريب بل أنا أستاذ جامعي مدرِّس في الجامعة لعلم المكتبات. فعلم المكتبات علم قائم بذاته أيضاً.

وسأل قائلاً:

كم تعتقد يا سيِّدي الجنرال أنّه يوجد من الأنظمة التي يرصف المرءُ الكتب بموجبها ويحفظها وينظِّم عناوينها ويصحِّح الأخطاء المطبعية والمعلومات الخاطئة على صفحات عناوينها وهكذا دواليك؟

ويجب عليّ أن أعترف لك أنّه حين تركني بعد ذلك وحدي لم يعطني إلا شيئين كان يسرني عملهما! فإما أن تنفجر دموعي وإما أن أشعل لفافة غير أن كلا منهما لم يكن مباحاً لي في هذا المكان.

ومضى الجنرال يقول مسروراً: «ما الذي حدث فيما تعتقد؟ بينما كنت أقف هناك مذهولاً إلى حدٍّ بعيد يقترب مني عامل شيخ بدا أنّه كان يلاحظنا ويجرّ ساقيه متثاقلاً ثم يظلّ واقفاً أيضاً وينظر إليّ ويأخذ في الحديث بصوت كان قد بات بالغ الرقة إما من جراء غبار الكتب وإما من جراء مذاق الأعطية النقدية ويسألني قائلاً: ماذا تحتاجون يا سيِّدي الجنرال وأصدّه ولكنَّ الشيخ يمضي قائلاً: كثيراً ما يأتي سادة من المدرسة الحربية إلينا وأنتم لا تحتاجون يا سيِّدي الجنرال إلا أن تقول بأي موضوع يهتمّ السيِّد الجنرال في اللحظة الراهنة يوليوس قيصر؟ الأمير أوجين الكونت داون أم يجب أن يكون شيئاً حديثاً؟ في قانون الدفاع أو في مباحثات الميزانية؟ وأؤكِّد لك أن الرجل قد تحدّث بمعقولية كبيرة وكانت معرفته بما يوجد في الكتب كبيرة إلى حدٍّ جعلني

twitter @baghdad_library

أمنحه أعطيه وسألته كيف ينجز هذا؟ فماذا تحسبه قال؟ ويعود فيروي لي أن تلاميذ المدرسة الحربية إذا كان لديهم واجب خطي يأتون إليه أحياناً ويطلبون كتباً ويمضي قائلاً: ثم يلجأون إلى الشتائم وفي كثير من الأحيان حين آتيهم بالكتب في هذا العبث الذي يضطرون إلى تعلّمه وينتاب الواحد منا في هذا السياق أمور فظيعة أو يأتي السيِّد النائب الذي يترتّب عليه أن يصوغ التقرير حول الموازنة المدرسية ويسألني عن المستندات التي استعملها السيِّد النائب الذي وضع التقرير في العام الماضي أو يأتي السيِّد الحَبْر الذي يكتب منذ خمسة عشر عاماً عن مواضيع معيَّنة أو يشكو واحد من السادة الأساتذة الجامعيِّن من أنّه ظلّ طوال ثلاثة أسابيع يطلب كتاباً معيَّناً فلا يحصل عليه وهنا يترتّب فحص كلّ الرفوف المجاورة لعله يكون موضوعاً في مكان خاطئ إلى أن يتبيّن أنّه موجود عنده في البيت منذ عامين ولم يُعده وهذا الأمر ماضٍ الآن منذ نحو أربعين عاماً على هذا النحو وهنا يلاحظ المرء من تلقاء نفسه تماماً ما يريده الإنسان وما يقرأه من أجل ذلك».

وأقول له: كلا يا عزيزي فأنا لا أستطيع أن أفضّل لك ببساطة كاملة على هذا النحو ما أحاول قراءته على الرغم من ذلك!

ما تُراك تحسبه أجابني؟ فهو ينظر إليّ متواضعاً ويومئ برأسه ويقول: أرجوك أنا خادمك المطيع يا سيِّدي الجنرال فهذا أمر وارد بالطبع. فمنذ وقت غير بعيد تحدّثَتْ إليّ سيِّدة قالت الشيء ذاته على وجه الدقة وربّما كان السيِّد الجنرال يعرفها إنّها السيِّدة عقيلة السيِّد رئيس القسم توتسي من وزارة الخارجية؟

فما قولك إذاً؟ أما أنا فأحسب أنني أُصِبْتُ بداء النقطة! وحين يلاحظ الشيخ هذا يأتيني حقاً بكلّ الكتب التي طلبت ديوتيما أن تحجز لها هناك. وحين أدخل المكتبة الآن يكون هذا على وجه الخصوص مثل عرس ثقافي

هادئ وأنا أقوم من حين إلى آخر بوضع علامة أو كلمة بحذر بقلم الرصاص على هامش صفحة وأعرف أنّها ستجدها في اليوم التالي بدون أن تدري من كان حاضراً في ذهنها حين تفكّر فيما عسى أن يعنيه هذا!

وأمسك الجنرال هنيهةً قريرَ العين غير أنّه استجمع قوته بعد ذلك وكان وجهه يفيض بالجدّ المرّ ومضى قائلاً من جديد: «تماسك الآن على قدر ما تستطيع لحظةً من الزمان فأنا أريد أن أسألك فنحن جميعاً مقتنعون بلا ريب بأن عصرنا أكثر ما وجد من العصور انتظاماً إلى حدٍّ بعيد وقد أشرت إلى هذا في الحقيقة ذات مرّة أمام ديوتيما على أنّه حكم مسبق غير أنني أنطوي بالطبع على هذا الحكم المسبق وقد كان عليّ الآن أن أرى أنَّ الوحيدين من البشر الذين يتمتَّعون بنظام فكري يعتمد عليه حقاً هم المكتبيون وأسألك ـ كلا بل لا أسألك فقد سبق أن تحدثنا في ذلك في حينه وقد فكَّرت في ذلك بالطبع من جديد منذ تجاربي الأخيرة وأقول لك: تصوَّر أنّك تشرب الخمر هل تصوَّرت؟ شيء حسن في أحوال معيَّنة ولكنَّك تشرب الخمر المرة بعد المرة ثم مرّة أخرى أتستطيع أن تتابعني؟ إذاً فأنت تسكر أوّل الأمر وبعد ذلك ينتابك الهذيان الرُعاشيّ وأخيراً مشهد التشييع الفخري والخوري يتكلّم شيئاً ما عن الأداء الصلب للواجب عند ضريحك. هل تصوَّرت هذا؟ فإذا تصوَّرت هذا فلن يكون قد تبقّى بعدُ شيء في هذا الصدد. فتصوَّر الآن ماءً وتصوَّر أن عليك أن تزداد شرباً منه على نحو مطّرد وأخيراً تصاب بالاختناق. وتصوَّر أكلاً إلى حدٍّ انسداد الأمعاء ثم الأدوية من الكينين أو الزرنيخ أو الأفيون. وسوف تسأل لماذا ولكنَّ يا رفيقي العزيز الآن أتقدم إليك بأروع الاقتراحات تصوَّر نظاماً وخيرٌ لك أن تتصوَّر أوّلاً فكرة كبرى ثم فكرة أكبر منها ثم فكرة أكبر من تلك بعدُ ثم فكرة أكبر فأكبر على نحو مطّرد وعلى هذا المنوال تصوَّر أيضاً مزيداً من النظام في ذهنك على نحو مطرّد. ففي أوّل الأمر يكون هذا بالغ

twitter @baghdad_library

الظُرف مثل حجرة آنسة عجوز ونظيفة مثل حظيرة خيل حكومية ثم عظيماً مثل لواء في خط متقدِّم ثم مجنوناً مثلما يخرج المرء ليلاً من الملهى ويأمر النجوم وهو يتطلّع إليها قائلاً: أيّها الكون كله! انتباه! إلى اليمين دُرْ! أو لنقل إنَّ النظام يكون في البداية مثلما يتعثر المجنَّد بساقيه وأنت تعلّمه المشي ثم مثلما يكون الحال عندما ترتقي إلى وزارة الحربية في المنام خارج الدور. ولكنَّ تصوَّر الآن مجرّد نظام للبشرية كامل شامل وبكلمة موجزة نظاماً مدنياً: فأنا أزعم عندئذ أن هذا بمثابة الموت من البرد وتجمّد الجثث في أرض من أراضي القمر ووباء هندسي!

لقد تحدثت في ذلك إلى صاحبي العامل في المكتبة واقترح عليّ أن أقرأ كانط أو شيئاً مماثلاً حول حدود المفاهيم والقدرة على المعرِّفة. غير أني ما عدت أريد مزيداً من القراءة في الحقيقة فإن شعوري ينطوي على شيء مضحك: على فهم للسبب الذي يجعلنا نحن أهل الجيش الذين نتمتَّع بأعظم نظام مضطرين في الوقت ذاته أن نكون مستعدين للتضحية بحياتنا في كلّ لحظة ولا أستطيع أن أعبر عن السبب. فعلى أيّ نحو من الأنحاء ينتقل النظام إلى الحاجة إلى القتل. وأنا الآن في قلق صادق من احتمال أن تحقّق ابنة عمك بطموحاتها في النهاية شيئاً ما يمكن أن يلحق بها الأذى بينما أكون أنا أقلّ قدرة على مساعدتها مِمّا كنت فيما مضى! هل تستطيع أن تتابعني؟ أما ما ينجزه العلم والفن بصورة عرضيّة من أفكار كبرى تستحق الإعجاب فأنا لا أريد أن أتعرَّض لذلك بشيء احتراماً لهما بالطبع!».

[١٠١]

الأقرباء الأعداء

وتحدَّثت ديوتيما أيضاً في هذه الفترة مرّة أخرى إلى إبن عمها. وكان قد نشأت ذات مساء وراء الزوابع التي كانت تدور بعنف ودونما توقُّف في حجراتها بحيرة شاطئية من السكون على الجدار حيث كان يجلس على مقعد متطاول صغير وأقبلت ديوتيما كراقصة مرهقة وجلست إلى جانبه. وكان هذا لم يحدث منذ وقت طويل. فمنذ تلك النزهات وكان هذا نتيجة لها كانت تتجنب التعامل معه «خارج نطاق العمل».

وكان وجه ديوتيما مخضباً قليلاً من الحرارة أو التعب.

واعتمدت بيديها على المقعد الطويل وقالت: «كيف حالك؟» ولم تقل شيئاً فيما عدا ذلك على الرغم من أنّه كان عليها أن تقول شيئاً آخر بصورة مطلقة حقاً وكانت ترسل بصرها إلى الأمام منكّسة الرأس قليلاً وكان هذا يحدث انطباعاً مؤدّاه أنّها «مضروبة» ضربة شديدة إذا جاز أن يعبَّر عن هذا بلغة الملاكمة بل إنّها لم تحرص على أن يتَّخذ ثوبها شكلاً حسناً حين قعدت القرفصاء هناك.

وكان إبن عمها يفكِّر في شعر أشعث وصديريّ فلاحي وساقين بيضاوَيْن. وكان يتبقّى منها حين يسلخ المرء عنها زينتها الزائفة قطعة بشرية قويّة جميلة وكان عليه أن يتحفّظ لكي لا يتناول ببساطة يدها في قبضته مثلما يفعل الفلاحون.

وقال مقرّراً بهدوء: «إذاً فآرنهايم لا يسعدك».

twitter @baghdad_library

وربما كان عليها أن ترد هذا التكهّن غير أنّها كانت تشعر بالإضطراب على نحو غريب حقاً وأخلدت إلى الصمت وردت بعد هنيهة فحسب قائلة: «بل تسعدني صداقته جداً».

«لقد كنت أتصوَّر أنَّ صداقته تعذبك إلى حدٍّ ما».

ونهضت قائلة: «ويحك ماذا تقول!» وعادت سيدةً من جديد وسألت قائلة: «هل تعرف مَنْ يعذبني». وكانت تجتهد في العثور على اللهجة الخاصّة بمحادثة خفيفة إذ قالت: «إنه صديقك الجنرال! ماذا يريد هذا الإنسان ولماذا يأتينا؟ ولماذا يظلّ ينظر إليّ؟».

وردّ إبن العم قائلاً: «إنه يحبّك!».

وضحكت ديوتيما في عصبية ومضت قائلة: «هل تعلَّم أنني أرتعد من رأسي إلى أخمص قدميّ عندما أنظر إليه؟ فهو يذكّرني بالموت!».

«إنه موتٌ يبدو محباً للحياة على نحو غير عادي عندما ينظر المرء إليه ببساطة!».

«أنا بسيطة كما هو ظاهر ولا أستطيع أن أفسّر هذا لنفسي ولكنَّ رعباً يستحوذ عليّ حين يخاطبني ويبيّن لي أنني أجعل الأفكار «المتفوّقة» تتفوق في المناسبة المتفوّقة ويتسرّب إليَّ خوف من مخاوف الأحلام لا يوصف ولا سبيل إلى فهمه!».

«منه؟»

«ومِمَّنْ عساه يكون سواه! فهو ضبع!».

ولم يكن لابن العم بدٌ أن يضحك وواصلت شتائمها بغير رادع كالطفل قائلة: «فهل يتسلّل هنا وهناك متربّصاً بنا إلى أن تنهار جهودنا الطيّبة وتموت!».

«من الجائز أن يكون هذا هو ما تخشينه. هل تذكَّرين يا ابنة العم العظيمة أنني تنبّأت لك بهذا الإنهيار منذ البداية فهو أمر لا مندوحة عنه ويجب عليك أن تكوني مستعدة له».

وكانت ديوتيما تنظر إلى أولريش نظرة متعالية وكانت تذكُّر ذلك جيّداً بالفعل بل كانت تذكُّر فوق هذا في هذه اللحظة الكلمات التي قالتها له حين قام بزيارته الأولى وكانت هذه ملائمة تماماً لكي تسبب لها الألم الآن. وكانت قد عاتبته قائلة إنَّ من المزايا العظيمة أن يتاح للمرء أن يهيب بأمة بل بالعالم في الحقيقة أن يستعيد ثقته بالروح في غمرة المادة ولم تكن تقصد إلى شيء مستهلك من الفكر القديم ومع ذلك فقد كانت النظرة التي نظرتها إلى إبن عمها اليوم أقرب إلى أن تعدّ نظرة متسامية منها إلى أن تكون متغطرسة. وكانت قد فكّرت في عام عالمي وسعت إلى نهضة والى مضمون حضاري تتويجي وكانت تقترب من ذلك حيناً ثم تعود فتبتعد عنه كثيراً حيناً آخر وكانت كثيراً ما ترددت وعانت الكثير وكانت الشهور الأخيرة تبدو لها مثل رحلة سحرية طويلة ترتفع فيها الأمواج بالمرء ارتفاعاً هائلاً وتسقط به وتتكرّر بالطريقة ذاتها حتى أنّها ما عادت تستطيع أن تميز ما حدث أيّ من الأحداث من قبلُ أو حدث من بعدُ وكانت تجلس الآن هنا مثل إنسان يجلس بعد جهود هائلة على مقعد طويل لا يتحرَّك بحمد الله وهي لا تريد في اللحظة الحاضرة أن تفعل شيئاً سوى أن ترسل البصر وراء دخان غليونه. أجل لقد كان هذا عند ديوتيما شيئاً كالمزاج يسيطر عليها سيطرة بلغ من عنفوانها أنّها اختارت بنفسها هذا التشبيه الذي كان يذكِّر برجل شيخ في أشعَّة شمس الأصيل وكانت تبدو لنفسها مثل إنسان خلّف وراءه معارك كبيرة حماسية. وقالت بصوت متعب لابن عمها: «لقد شاركت في عمل الكثير جداً ولقد تغيّرت كثيراً».

وسأل هذا قائلاً: «وهل يعود عليّ هذا بالخير؟».

twitter @baghdad_library

وهزت ديوتيما برأسها وابتسمت بدون أن تنظر إليه.

وقال أولريش فجأة: «إذاً فأنا أريد أن أبوح لك بأن آرنهايم يكمن وراء الجنرال لا أنا وقد كنتِ تردّين الذنب في وجوده كلّ هذا الوقت إليّ فحسب! ولكنَّ تذكّري ما أجبتك به حين استجوبْتِني من أجل ذلك؟».

وتذكَّرت ديوتيما. كان إبن العم قد قال لها أبعديه. ولكنَّ آرنهايم كان قد قال لها إنَّ عليها أن تستقبل الجنرال بكلّ المودّة! وشعرت في هذه اللحظة بشيء لم يكن من الممكن وصفه وكأنّها تجلس في سحابة ارتفعت على عجل أغضَتْ عينيها ولكنَّ المقعد الصغير كان في الوقت نفسه يعود تحتها صلباً ثابتاً وقالت: «لست أدري كيف جاءنا هذا الجنرال فأنا لم أدعه بنفسي. أما الدكتور آرنهايم الذي سألته فلا يعرف شيئاً عن ذلك أيضاً بصورة بديهيّة ولا بدّ ولا بدّ أن يكون حدث خطأ ما من أخطاء النظر».

وخفّف إبن العم حدة كلامه قليلاً فحسب وقال: «أنا أعرف الجنرال من قبل غير أننا لم يرَ أحدنا الآخر أوّل مرّة من جديد إلا عندك». ومن المحتمل جداً بالطبع أنّه يقوم بشيء من التجسّس هنا بتكليف من وزارة الحربية غير أنّه يود أن يساعدك صادقاً وقد بلغني من فمه أن آرنهايم يبذل معه جهداً كبيراً إلى حدٍّ يلفت النظر!».

وردت ديوتيما قائلة: «لأن آرنهايم يشارك في كلّ شيء وقد نصح لي ألّا أصدّ الجنرال إذ أنّه يعتقد بحسن نيته ويرى في مركزه ذي النفوذ فرصة لتحقيق الفائدة لمطامحنا».

وهزّ أولريش برأسه وقال فجأة على نحو يمكن معه للواقفين من حوله أن يسمعوه وانتاب ربّة المنزل حرج منه: «ألا فاستمعي إلى الجلبة القائمة حواليه!» وهو يطيب نفساً بذلك لأنّه غني فهو يملك المال ويعطي الحقّ للجميع ويعلم أنّهم يقومون بالدعاية له عن طيّب خاطر!».

وردت ديوتيما رافضة: «ولماذا يفترض فيه أن يفعل هذا إذاً؟!».

ومضى أولريش قائلاً: «لأنه مغرور مغرور بلا حدود ولست أعرف كيف ينبغي لي أن أفهمك المضمون الكامل لهذا الإدعاء. فهناك غرور بالمعنى الوارد في الكتاب المقدَّس: إذ يصنعون من الفراغ جلجلة! والمغرور هو الإنسان الذي يبدو في نظر نفسه جديراً بالحسد إذ يبزغ القمر عن يساره فوق آسيا بينما يغشى الغسق عن يمينه في أوروبا عند مغيب الشمس وهكذا وصف لي ذات مرّة رحلة عبر بحر مرمرة! ومن الجائز أن يكون بزوغ القمر وراء أصيص للأزهار لفتاة متيّمة صغيرة أجمل من بزوغه فوق آسيا!».

وجعلت ديوتيما تبحث عن مكان لا يسمعهما فيه أولئك الذين كانوا يمرون حواليهما وقالت بصوت خافت: «لقد استثارك نجاحه» وسارت به عبر الحجرة ثم رتّبت الأمر بحركة ذكيّة بحيث عبرا الباب بدون أن يلفتا النظر ودخلا حجرة الانتظار. وكانت كلّ الحجرات الأخرى يشغلها الضيوف. وبدأت هناك قائلة: «لماذا تكنّ له العداء؟ فأنت تسبّب لي بذلك صعوبات».

وسأل أولريش متعجِّباً: «أنا أسبب لك الصعوبات؟».

«ربما يقتضي مني الأمر حقاً أن أتحادث معك ولكنَّ مادمت تتصرف على هذا النحو فإنه لا يجوز لي أن أفضي إليك بشيء!».

وكانت قد ظلَّت واقفة في وسط الحجرة وقال أولريش راجياً: «هلّا أفضيت إليّ بهدوء بما لديك من كلام. لقد هام كلٌ منكما بالآخر هذا أمر معروف لديّ فهل سيتزوجك؟».

وردت ديوتيما قائلة: «لقد عرض عليّ ذلك» ولم تلق بالاً إلى المكان غير الآمن الذي كانا فيه وكانت قد غلبت عليها مشاعرها الخاصّة ولم تكن تشعر بالصدمة من لهجة إبن عمها المباشرة المطلقة العنان.

twitter @baghdad_library

وسأل هذا قائلاً: «وأنتِ؟».

واحمرّت خجلاً كطفلة في المدرسة حين تستجوب وردّت قائلة بتردد: «آه هذا سؤال مفعم بالمسؤولية الثقيلة! ولا يجوز للمرء أن ينجرف نحو عمل جائر. وفي صدد التجارب العظيمة حقاً لا يتوقّف الأمر إلى حدّ كبير أيضاً على ما يعمله المرء!».

وكانت هذه الكلمات غير مفهومة بالنسبة إلى أولريش إذ لم يكن يعرف الليالي التي كانت ديوتيما تغالب فيها صوت الهوى وكانت تصل فيها إلى عدالة النفوس التي لا روح فيها والتي كان الحبّ فيها يسبح في الهواء كعاتق ميزان موجّه نحو جهتين. من أجل ذلك خرج بانطباع مؤدّاه أن من الأفضل الآن أن يدع طريق المحادثة المباشرة تماماً وقال: «إنه ليسرّني أن أتحدَّث إليك عن علاقتي بآرنهايم إذ يؤلمني في هذه الظروف أن يكون لديك انطباع ينطوي على العداوة. وأعتقد أنني أفهم آرنهايم جيّداً ويجب عليك أن تتصوَّري هذا: إنَّ ما يجري في بيتك أمر أريد أن أعدّه بناء على رغبتك تأليفاً وتوفيقاً ولقد شارك في هذا مرات لا تحصى. أما الحركة الفكريّة حيث تظهر في صورة القناعات فهي تظهر أيضاً في صورة قناعات متعارضة وحيثما تتجسّد في شخصيّة تسمّى بالشخصيّة الفكريّة الكبرى فهي تشعر بعدم الأمان مثل علبة من الورق المقوّى أُلقِيَ بها في الماء حين لا تحظى هذه الشخصيّة بالإعجاب الطوعي من كلّ جهة. ونحن في ألمانيا على الأقل نتأثر بالحب الموجَّه للشخصية المعترف بها مثل السكارى الذين يتهافتون على الرجل الجديد ثم ينبذونه لأسباب تتَّسم بالقدر ذاته من الغموض بعد هنيهة. وإذاً فأنا أستطيع أن أتصوَّر بصورة مفعمة بالحياة ما يحسّ به آرنهايم: لا بدّ أن يكون ذلك مثل دوار البحر وعندما يتذكَّر في مثل هذا المحيط ما يستطيع عمله بالثروة وبالإستعمال البارع يعود بعد رحلة البحر الطويلة أوّل مرّة من جديد إلى

الأرض الصلبة تحت قدميه وسوف يلاحظ كيف يمارس الطموحَ الاقتراحُ والإشارةُ والرغبةُ والرضى والعمل إلى جانب الثروة وهذه على نحو مطلق صورةُ الفكر ذاته ذلك لأنّ الأفكار التي تهدف إلى الظفر بالسلطة تتعلّق هي أيضاً بأفكار تتمتَّع بالسلطان من قبل ولست أعرف كيف ينبغي لي أن أعبّر عن هذا. فالفرق بين الفكرة الطموحة والفكرة الوصولية فرق لا يكاد يُدرَك. ولكنَّ إذا حلّ هذا الإرتباط الخاطئ بالعظيم ذات مرّة محلّ الفقر الدنيوي ونقاء الفكر اندفع معه وبحق طبعاً ما يعدّ عظيماً أيضاً وأخيراً هذا الذي يعدّ عظيماً عن طريق الدعاية ومن جراء الكفاءة التجارية. عند ذلك يكون لديك آرنهايم بكلّ براءته وإثمه!».

وردّت ديوتيما قائلة بحدة: «أنت تفكِّر اليوم تفكيراً بالغ الطهر!».

«أنا أسلّم بأنّه قلّما يعنيني ولكنَّ الأسلوب الذي يتقبّل به الآثار المختلطة للعظمة الظاهرة والباطنة ويريد أن يصطنع من ذلك إنسانية نموذجية يمكن له بلا ريب أن يستفزني إلى القداسة الجامحة!».

وقاطعته ديوتيما الآن بعنف: «ويحك ما أكثر ما تخطئ! فأنت تتصوَّر رجلاً ثرياً متعاظماً غير أن الثروة عند آرنهايم مسؤوليّة متغلغلة في الأعماق فهو يعنى بتجارته مثلما يُعنى امرؤٌ آخر بإنسان آخر عُهد به إليه والعمل عنده ضرورة عميقة وهو يواجه العالم مواجهة ودّية لأنّ المرء لا بدّ له أن يتحرَّك ويستيقظ لكي تنبعث فيه اليقظة والحركة كما يقول! أم لعلّ غوته هو قائل هذا؟ ولقد فصّل لي القول في ذلك ذات مرّة تفصيلاً وهو يتَّخذ موقفاً يقوم على أن المرء لا يستطيع أن يبدأ في إحداث الأثر الطيّب إلا حين يكون قد بدأ في العمل على وجه الإطلاق. ذلك لأنّني أعترف بأنني أنطوي أنا أيضاً في بعض الأحيان على انطباع مؤدّاه أنّه يسترسل في الإفضاء بما لديه أكثر مِمّا ينبغي مع كلّ إنسان».

twitter @baghdad_library

وكانا في أثناء هذه الكلمات قد قطعا حجرة الإنتظار جيئة وذهاباً حيث لم يكن يوجد إلا المرآة والثياب المعلّقة. ولبثت ديوتيما الآن واقفة ووضعت يدها على ذراع إبن عمها وقالت: «هذا الإنسان الذي ميّزه القدر بكلّ طريقة يدين بالمبدأ المتواضع الذي يقول إنَّ الفرد ليس بأقوى من المريض المهجور! ألّا تستطيع أن توافقه؟ فحين يكون الإنسان وحيداً يتورّط في آلاف من المبالغات!» ونظرت إلى الأرض وكأنّها تبحث هناك عن شيء بينما كانت تحسّ بنظرة إبن عمها تستقر على جفنيها المُسبَلَين ومضت قائلة: «آه لقد كان في وسعي أن أقول عن نفسي إنني كنت في الحقبة الأخيرة وحيدة جداً غير أنني أرى ذلك عليك أيضاً فأنت مفعم بالمرارة كما أنّك غير سعيد وعلاقتك بمحيطك علاقة غير متوازنة. وهذا ما يمكن ملاحظته في كلّ نظراتك. وأنت تواجه كلّ شيء بطبيعة غيورة. وأريد أن أعترف لك بصراحة أن آرنهايم قد شكا إليّ من أنّك ترفض صداقته».

«أوَقد قال لك إنّه يرغب في صداقتي؟ إذاً فهو كاذب هنا!».

ورفعت ديوتيما بصرها وضحكت وقالت: «ها أنتذا قد عدت إلى المبالغة فوراً! فنحن نرغب في صداقتك جميعاً وربّما كان ذلك على وجه الخصوص لأنّك على ما أنت عليه ولكنَّ هنا يجب عليّ أن أستهلّ بمقدِّمة طويلة. لقد استعمل آرنهايم من أجل ذلك الأمثلة التالية: وتردَّدت لحظة ثم صحّحت قائلة: «كلا فهذا خليق أن يذهب بنا إلى مدى بعيد وعلى هذا فجملة القول إنَّ آرنهايم يقول إنَّ على المرء أن يستعمل الوسائل التي يضعها الزمن بين يديه بل ينبغي للمرء أن يتصرّف دائماً بروح نظرتين مختلفتين فلا يكون أبداً ثورياً كامل الثورية ولا يكون أبداً محباً كلّ الحبّ ولا كارهاً كلّ الكراهية ولا يتابع أبداً ميلاً معيَّناً بل يطوّر ما ينطوي عليه ولكنَّ هذا ليس بالذكاء كما تظن به بل هو

سمة الطبيعة الشمولية الممحّصة للفروق السطحية والمتّسمة بالبساطة والتركيب التوفيقي إنّها طبيعة الرجال!».

وسأل أولريش قائلاً: «وما علاقة هذا بي؟»

وكان من أثر هذا الاعتراض أنّه مزّق أوصال الذكرى المتّصلة بحديث عن الفلسفة المدرسية والكنيسة وغوته ونابليون وضباب الثقافة الذي كان قد تكاثف حول رأس ديوتيما ووجدت نفسها فجأة بوضوح شديد جالسة إلى جانب إبن عمها على صندوق الأحذية المتطاول الذي كانت قد أجلسته عليه في حماستها. وكان ظهره يتحاشى بعناد المعاطف الغريبة المعلّقة وراءه بينما كان شعرها يختلط بعضه ببعض داخل المعاطف وكان لها بدّ لها من تسوية وبينما كانت تقوم بذلك أجابت قائلة: «أنت على النقيض من ذلك بلا ريب! فأنت تريد أن تعيد صياغة العالم وفقاً لمثالك! وأنت تقاوم على نحو ما دائماً مقاومة سلبية كما يقولون هذه الكلمة الفظيعة!» وأسعدها جداً أنّها استطاعت أن تعرب له عن رأيها بهذه الطلاقة. ولكنَّ لم يكن يجوز لهما أن يظلا قاعدين هنا حيث كانا يقعدان وكانت تفكّر في ذلك في هذه الأثناء إذ كان من الممكن في كلّ لحظة أن يقتحم عليهما الضيوف أو يدخلوا الحجرة لأسباب أخرى ومضت قائلة: «أنت مفعم بالنقد وأنا لا أذكر أنّك استحسنت شيئاً في يوم من الأيام وأنت تثني من باب المعارضة على كلّ ما لا يطاق اليوم. وإذا أراد المرء في مواجهة صحراء عصرنا التجديفيّ الميتة أن يستنفذ قليلاً من الشعور والبصيرة كان في وسعه أن يستيقن أنّك تدافع دفاع المتحمّس عن التخصص والفوضى والجانب السلبي من الوجود!». وكانت في أثناء ذلك قد نهضت واقفة وأفهمته أن عليهما أن يلتمسا مكاناً آخر ولم يكن في وسعهما إلا أن يعودا أدراجهما إلى الحجرة أو أن يختبئا إذا أراد استئناف الحديث وكان من الممكن الوصول إلى حجرة نوم آل توتسي من باب سري من هذه الجهة أيضاً

twitter @baghdad_library

ولكنَّ بدا لديوتيما أن من قبيل الإفراط في العلاقة الحميمة أن تدخل إبن عمها إلى هناك وذلك على وجه الخصوص لأنّ قدراً لا سبيل إلى حسابه من الفوضى كان يتمّ تكديسه لدى إخلاء المسكن من أجل الإستقبال في هذا المكان وهكذا لم يتبقّ لهما من مهرب إلا حجرتي الخادمين. وحسمت المسألة فكرة مفادها أن تفقُّد حجرة راحيل التي كانت لا تدخلها في العادة أبداً على غير انتظار ذات مرّة يمثّل مزيجاً من المغامرة الفضولية وواجب الإشراف وكانت في أثناء سيرها وبينما كانت تعتذر عن الاقتراح وبعد ذلك في الحجرة تتابع معارضتها لأولريش قائلة: «إن المرء يخرج بانطباع مؤدّاه أنّك تريد أن تحبط أعماله في كلّ مناسبة. فمعارضتك تؤلمه وهو يمثّل حالة عظيمة من حالات الإنسان المعاصر وهو يتمتَّع بالاتصال بالواقع ويحتاج إليه من أجل ذلك. أما أنت فتظل دائماً في قفزٍ إلى المستحيل. وهو يمثّل الإيجابية ويتمتَّع بالتوازن الكامل. أما أنت فغير اجتماعي في الحقيقة وهو ينزع إلى الوحدة ويسعى إلى الحسم بكلّ كيانه. وأنت تضع في مقابل ذلك فكرة لا صورة لها. وعقله منفتح تجاه ما هو قائم أما أنت؟ فماذا تعمل؟ إنك تتصرَّف كما لو أن الدنيا ستبدأ غداً فحسب. فهلا تكلّمت؟ لقد كنت تتصرَّف على هذا النحو منذ اليوم الأوّل حين قلت لك إنَّ الفرصة سانحة لنا لإنجاز عظيم. وعندما ينظر المرء إلى هذه الفرصة على أنّها قدر ويكون محتشداً في اللحظة الحاسمة وهو ينتظر الجواب بعين المتسائل الصامت كما يقال تتصرَّف أنت حقاً تصرّف الفتى الأرعن الذي يريد تعكير الصفو!» وكانت تشعر بالحاجة إلى مداراة الوضع الحرج في هذه الحجرة عن طريق الكلمات البارعة وفي الوقت الذي كانت فيه تقرّع إبن عمها بشيء من المبالغة اكتسبت جرأة من أجل هذا الموقف.

وسأل أولريش قائلاً: «ومادمت كذلك فلأي شيء تستطيعون أن تتخذوني؟» وكان يقعد على السرير الحديدي لراحيل الوصيفة الصغيرة وكانت ديوتيما تقعد على كرسي القش الصغير على بعد ذراع منه. غير أنّه تلقّى عندئذ من ديوتيما جواباً جديراً بالإعجاب. وقالت على نحو مباشر: «لو أنني استطعت أن أتصرف أمامك ذات مرّة تصرّفاً بالغ الابتذال والسوء لكنت بلا ريب رائعاً مثل كبير الملائكة!». وتولّاها هي نفسها الخوف من ذلك. فقد كانت تريد مجرّد الإشارة إلى ولعه بالمعارضة وأن تمازحه بقولها إنّه سيكون طيّباً ظريفاً حين لا يستحق المرء ذلك منه. ولكنّ ينبوعاً كان قد انبثق في هذا السياق بصورة لاشعورية وكشف عن كلمات بدت لها بعد أن نطقت بها على الفور عبثية إلى حدٍّ ما ومع ذلك فقد كانت تبدو على نحو مفاجئ ذات صلة بها وبعلاقتها بأن العم هذا.

وشعر هذا بذلك فنظر إليها صامتاً وبعد فترة توقّف الردّ بالسؤال: «هل أنت متيّمة به جداً وبلا حدود؟» ونظرت ديوتيما إلى الأرض وقالت: «ما هذا الكلام غير اللائق الذي تستعمله! فما أنا بالمراهقة التي يذهب الحبّ بعقلها!».

غير أن إبن عمها أصرّ وقال: «أنا أسأل لسبب أستطيع أن أبيّنه على وجه التقريب فأنا أريد أن أعرف هل تعرّفت على الرغبة التي تجعل الناس جميعاً - وأنا أقصد فيما أقصد أيضاً أشنع المخلوقات الشائهة التي توجد في حجرتك بالقرب منا - يتعرّون ويلفّ أحدهم ذراعيه حول الآخر ويفضّلون الغناء على الحديث. أما أنت فسيكون عليك عندئذ أن تسيري من واحد إلى آخر وتقبليه على شفتيه قبلة الأخوة. فإذا كنت ترين في هذا شيئاً باعثاً على الصدمة إلى حدٍّ مفرط فربما كان في وسعي أن أقرّ لك بقمصان للنوم».

وأجابت ديوتيما على كلّ حال: «أنت تشتغل بتصوّرات ظريفة!».

twitter @baghdad_library

«ولكن انظري أنا أنا أعرف هذه الرغبة وإن كان ذلك منذ عهد بعيد! فلقد وجد بلا ريب أناس ذوو سمعة حسنة جداً زعموا أنّ الحياة ينبغي أن تكون في الدنيا على هذا النحو!».

وقاطعته ديوتيما قائلة: «إذاً فاللائمة تقع عليك أنت مادمت لا تفعل هذا! على أنَّ المرء لا يحتاج فضلاً عن ذلك إلى أن يصوّر ذلك بهذه الصورة المضحكة» وكانت قد تذكَّرت أن مغامرتها مع آرنهايم تمتنع على الوصف وأنّها أيقظت الرغبة في حياة تختفي فيها الفروق الإجتماعية ويغدو فيها النشاط والروح والفكر والحلم شيئاً واحداً.

ولم يردّ أولريش بشيء وقدّم إلى ابنة عمه لفافة فتناولتها. وبينما كانت سحب الدخان تملأ «الحجرة الصغيرة الضيّقة» كانت ديوتيما تفكّر فيما يمكن أن يخطر ببال راحيل حين تعثر على الآثار المنبثّة في الهواء من هذه الزيارة. أكان ينبغي تهوية المكان؟ أم ينبغي إيضاح الأمر لصغيرة في الصباح التالي؟ ومن الغريب أن هذه الفكرة بالذات تجاه راشيل حملتها على البقاء وكانت على وشك أن تنهي الإجتماع الذي بات غريباً إلى حدٍّ مفرط. ولكنَّ امتيازات التفوّق الثقافي ودخان اللفائف الذي يتعذر فهمه على وصيفتها والناجم عن زيارة خفيّة تحوّلا على نحو ما إلى الشيء ذاته وسبّبا لها سروراً.

وكان إبن عمها يتأملها وأثار عجبه أنّه تحدّث إليها على هذا النحو غير أنّه مضى في ذلك وكان في شوق إلى الأنس وبادر إلى الكلام من جديد قائلاً: «سأقول لك ما هي الشروط التي يمكن أن أكون معها ملائكياً إلى هذا الحد ذلك لأنّ الملائكية ليست بلا ريب تعبيراً مفرطاً في الضخامة عن احتمال المرء لمن يليه في الإنسانية احتمالاً ليس بالجسدي فحسب بل يكون قادراً على أن يتلمّسه حتى فيما تحت الإزار السيكولوجي أيضاً إنَّ صح التعبير بدون أن يحسّ برعدة».

وتدخّلت ديوتيما مدفوعة بذكرى السمعة السيئة التي كانت لأبيها في العائلة قائلة: «إلا في حالة كونه امرأة!».

«بل هذا أيضاً غير مستثنى!».

«أنت على حق! فما أسميه حبّ الإنسان المتمثّل في المرأة لا يردّ إلا في أحوال نادرة ندرة هائلة!» وكان أولريش حسب نظرة ديوتيما يتمتّع منذ بعض الوقت بصفة التقارب بين آرائه وآرائها ولكنَّ ما كان يقوله كان يظلّ مقصّراً أبداً وغير كاف تماماً.

وقال هذه المرة بعناد: «أريد أن أصف لك هذا وصفاً جاداً». وكان يقعد منحنياً إلى الأمام وقد وضع مرفقيه على فخذيه المفتولَي العضلات وهو ينظر إلى الأرض متجهماً «مازلنا نقول حتى اليوم: أنا أحب هذه المرأة وأكره هذا الإنسان بدلاً من قولنا: هذه المرأة تجتذبني وهذا الإنسان يُنفّرني ومن أجل خطوة أخرى نحو مزيد من الدقة يجب على المرء أن يضيف قائلاً إنني أنا الذي بعث فيهما المقدرة على اجتذابي أو على تنفيري ومن أجل خطوة أخرى بعدُ نحو مزيد من الدقة يجب على المرء أن يضيف قائلاً إنهما يبثان لديّ الخصائص اللازمة لذلك وهكذا دواليك. فالمرء لا يستطيع أن يقول أين تتمّ الخطوة الأولى لأنّ هذه تبعية وظيفية متبادلة كتلك التي تكون بين كرتين مرنتين أو دارتين مشحونتين بالتيار. ونحن نعرف بالطبع منذ عهد بعيد أننا يجب أن نشعر بهذا أيضاً غير أننا مازلنا نفضل على ذلك بمدى بعيد أن نكون السبب والسبب الأوّل في مجالات القوّة الخاصّة بالشعور التي تحيط بنا وحتى إذا كان الواحد منا يقرّ بأنّه يقلد امرءاً آخر فإنه يعبّر عن ذلك كما لو كان هذا عملاً إيجابياً فاعلاً! ومن أجل ذلك سألتك وأسألك مرّة أخرى هل أحببتِ ذات مرّة أو غضبتِ أو يئستِ بغير حدود. ذلك لأنّ المرء يدرك عندئذ مع شيء من موهبة الملاحظة بالدقة الكاملة أن ما يجري له في غمرة الانفعال الأقصى في

twitter @baghdad_library

نفسه لا يسير على نحو مختلف عمّا يجري لنحلة على نافذة أو لقنعيّةٍ في الماء المتّسمم فالمرء يعاني من عاصفةٍ من الحركات ويجري كالأعمى في كلّ اتجاه ويخبط مئات المرات في مواجهة ما لا يمكن اختراقه ويخبط ذات مرّة حين يحالفه الحظ بضربة عبر باب يفضي إلى الخارج حين يفسر المرء هذا لنفسه بعد ذلك بالطبع في حالة الوعي المتجمّد على أنّه سلوك جارٍ وفقاً لمخطط».

وعلّقت ديوتيما قائلة: «يجب عليّ أن أعترض عليك بأن هذه نظرة إلى المشاعر لا عزاء فيها وغير لائقة وهي نظرة يمكن أن تقرّر مصير حياة الإنسان بأكملها».

ورد أولريش وهو يرفع بصره إلى الأعلى على عجل قائلاً: «ربما كانت تلوح في ذهنك المسألة الجدلية القديمة التي باتت مملّة وهي هل يعدّ الإنسان سيّد نفسه أم لا. فإذا كان لكلّ شيء علة فإن المرء لا يملك لشيء حيلة وأمثال ذلك. لا بدّ لي أن أعترف لك أن هذا لم يشغل اهتمامي في حياتي كلّها طوال ربع ساعة. إنّه طرح الأسئلة العائد إلى عصر طواه الزمن على نحو لا يمكن ملاحظته وهو يرجع إلى اللاهوت. وباستثناء الحقوقيين الذين مازالوا يحملون في أذهانهم قدراً كبيراً جداً من اللاهوت وحرق الهراطقة ما عاد يسأل عن العلل اليوم إلا أفراد الأسر الذين يقولون: أنت علة لياليّ المؤرّقة أو: كان هبوط أسعار القمح علة تعاستي. ولكنَّ هلّا سألتِ مجرماً بعد أن تهزي ضميره كيف وصل به الأمر إلى ذلك! إنّه لا يعرف ذلك حتى وإن لم يكن ضميره غائباً لحظة واحدة من لحظات الفعل!».

ورفعت ديوتيما جلستها قليلاً وقالت: «لماذا تكثر من الحديث عن المجرمين؟ أنت تحبّ الجريمة حباً خصوصياً. ولا بدّ أن يكون لهذا دلالته».

وردّ إبن العم قائلاً: «كلا فهو لا يعني شيئاً وأقصى ما يعنيه تحفّز معيَّن. فالحياة العادية حالة متوسِّطة تأتلف من كلّ الجرائم التي هي ممكنة بالنسبة إلينا ولكنَّ لما كنّا استعملنا كلمة اللاهوت فأنا أودّ أن أسألك عن شيء».

«لا ريب أنّه سؤال عمّا إذا كنت ذات مرّة متيّمة أو غَيْرى بغير حدود!».

«كلا بل فكّري ذات مرة: مادام الله قدّر كلّ شيء وهو يعرفه سلفاً فكيف يمكن للإنسان أن يخطئ؟ هكذا كانوا يتساءلون فيما مضى. ألّا ترين أنّه مازال طرحاً حديثاً كلّ الحداثة. لقد اتّخذ الناس هنا لأنفسهم عن الرب تصوّراً يتّسم بالمكر بصورة فائقة فهم يشتمونه بافتراض إقراره زاعمين أنّه يجبر الإنسان على سوءٍ سوف يؤاخذه به وهو لا يعرف ذلك من قبل فحسب ـ ومن الممكن أن تتوفَّر لدينا الأمثلة دائماً على مثل هذا الحبّ اليائس ـ بل يحمله عليه فيما يزعمون! ونحن اليوم نعاني جميعاً بعضنا تجاه بعض من وضع مماثل. فالأنا تفقد الأهميّة التي كانت لها حتى الآن بحكم كونها الحاكم المستقل الذي يصدر مراسيم الحكم. ونحن نتعلّم فهم نشوئها القانوني وتأثير محيطها وأنماط بنائها وتواريها في لحظات النشاط الأقصى وبكلمة مختصرة: القوانين التي تحكم تكوينها وسلوكها. ففكري يا ابنة العم في قوانين الشخصيّة! إنّه التكتل المشابه للتكتل النقابي للأفاعي السامة أو غرفة تجارة اللصوص! ذلك لأنّ القوانين لما كانت هي أكثر ما يوجد في العالم بعداً عن الجانب الشخصي فإن الشخصيّة لن تعود في أجَلٍ قريب سوى نقطة التقاء خيالية لما هو غير شخصي وسيكون من الصعب أن يعثر المرء من أجلها على ذلك الموقف المشرّف الذي لا تطيقين الحرمان منه...».

هكذا كان أولريش يتكلّم وكانت ديوتيما تعترض من حين إلى آخر قائلة: «ولكن يا صديقي العزيز ينبغي للمرء بلا ريب أن يفعل كلّ شيء من زاوية شخصيّة قدر الإمكان فحسب!» ـ وأخيراً قالت: «إنك اليوم لاهوتي جداً

twitter @baghdad_library

بالفعل ولم أكن أعرفك من هذا الجانب أبداً!». كانت تقعد هنا من جديد كراقصة متعبة امرأةً ذات قوّة وجمال. وكانت تشعر بهذا هي نفسها في أعضائها على نحو ما وكانت قد لبثت تتجنب إبن عمها طوال أسابيع بل ربّما شهوراً غير أنّها كانت تحبّ نظيرها في السن وكان يبدو مرحاً في حلّة السهرة في الحجرة ذات الضوء الواهن أسودَ وأبيضَ كفارس من فرسان الرهبانيّات. وكان هذا السواد والبياض يتّسمان بشيء من العاطفة الماثلة في صليب. وجعلت تنظر حواليها في الحجرة المتواضعة وكان العمل الموازي بعيداً وقد خلفت وراءها صراعات كبرى حامية الوطيس. كانت هذه الحجرة بسيطة كالواجب وقد أضفى عليها العذوبة القطط الصغيرة والبطاقات المصوَّرة ذات المناظر الطبيعية غير المستعملة في زوايا المرآة وبين هذه التي كانت تكلّلها أبّهة المدينة الكبرى كان يتجلّى وجه راحيل حين كانت الصغيرة تتأمل نفسها في المرآة. أين تراها كانت تغتسل في الحقيقة؟ كان لا بدّ أن يوجد في ذلك الصندوق الصغير الضيّق حين يفتحه المرء طست من الصفيح ـ كما كانت ديوتيما تتذكّر ثم قالت في نفسها هذا الرجل يريد ولا يريد.

كانت تنظر إليه بهدوء مستمعةً صديقة وكانت تسائل نفسها: «أوَيريد آرنهايم أن يتزوجني حقاً؟ لقد قال ذلك على أنّه لم يكن يلحّ في هذا بعد ذلك وفي جعبته الكثير جداً مِمّا يقوله سوى ذلك. ولكنَّ إبن عمها أيضاً كان عليه بدلاً من الحديث عن الأشياء البعيدة أن يسأل: كيف حال أمورك؟ لماذا لم يسأل؟ وبدا لها أنّه خليق أن يفهمها لو أنّها تحدثت إليه حديثاً مفصّلاً عن صراعاتها الداخلية وقد سألها: «هل يجدي عليّ هذا شيئاً؟» حين روت له أنّها تغيرت. إنّه وقح!

وابتسمت ديوتيما.

وكان هذان الرجلان كلاهما غريبين حقاً في الأساس معاً. لماذا دأب إبن عمها على الحديث عن آرنهايم بهذا السوء؟ كانت تعرف أن آرنهايم كان يلتمس صداقته ولكنَّ أولريش أيضاً كان مشغولاً بآرنهايم بناءً على تعليقاته الخاصّة الحادة. وقالت في نفسها: «وما أكثر ما يسيء فهمه فليس في وسع المرء أن يكون ندّاً له!». ولم تكن روحها الآن هي وحدها التي تتمرّد على جسدها المتزوج من رئيس القسم توتسي آخر الأمر بل كان جسدها أيضاً يتمرّد في بعض الأحيان على الروح التي كانت تعاني من الظمأ من جراء حبّ آرنهايم المتردد والمغالي على حافة صحراء ربّما لم يكن يعترض عليها إلا انعكاس خادع من الحنين ولقد ودّت لو تشاطر آلامها وضعفها إبن عمها. وكانت أحادية الجانب الحاسمة التي كان يظهرها في العادة تعجبها وكان من الواجب بلا ريب أن يوضع تعدد الجوانب المتوازن عند آرنهايم في مكانة أعلى. غير أن أولريش ما كان ليتردّد في لحظة حسم مثلَ هذا التردد على الرغم من نظرياته التي كان آثَرُ الأشياء عندها أن تحلّ كلّ شيء فيما هو غير محدَّد على الإطلاق فكانت تشعر بهذا ولا تدري من أيّ سبيل ومن الجائز أن هذا كان يعود إلى ما شعرت به منذ بداية تعرّفها عليه. فحين كان آرنهايم يبدو لها في هذه اللحظة إجهاداً هائلاً عبئاً ملكياً على روحها عبئاً يفوق روحها في كلّ الإتجاهات كان يبدو لها أن الأثر الوحيد لكلّ ما كان يقوله أولريش كان يتمثَّل في تضحية المرء بعلاقة المسؤولية من بين مئات العلاقات والدخول في حالة مشبوهة من حالات الحرية. وكانت قد شعرت فجأة بالحاجة إلى أن تكون أكثر ثقلاً مِمّا كانت عليه وبدون أن تدري بأية طريقة ذكّرها هذا في الوقت ذاته كيف أخرجت وهي فتاة ذات مرّة غلاماً صغيراً على ذراعيها من خطر وكان لا يفتأ يضربها بعناد بركبتيه في بطنها ليقاوم ذلك. وأخرجتها قوّة هذه الذكرى التي خطرت ببالها على نحو بعيد عن التوقع تماماً وكأنّما سرَت إليها من خلال المدخنة إلى الحجرة المنعزلة الصغيرة عن توازنها تماماً وقالت

twitter @baghdad_library

في نفسها: «بلا حدود؟» لماذا كان يسألها عن ذلك دائماً؟ كأنْ لم يكن من الممكن أن تكون بلا حدود! وكانت قد نسيت أن تصغي إليه ولم تكن تعرف أكان هذا في محله أم لا وقاطعته ببساطة وأزاحت جانباً كلّ ما كان يقوله وأعطته الجواب عن كلّ شيء مرّة واحدة وبصورة نهائية وهي تضحك (إلا أن ما ظهر لها من ضحكها لم يكن شيئاً يعتمد عليه تماماً في غمرة الانفعال المفاجئ غير المترويّ): «لكني متيمة حقاً بغير حدود!».

وضحك أولريش في وجهها وقال: «هذا شيء لا تستطيعينه أبداً».

وكانت قد نهضت ويداها على شعرها وهي تنظر إليه مندهشة بعينين جامدتين.

وشرح قائلاً بهدوء: «لكي يكون المرء بلا حدود يجب أن يكون دقيقاً وموضوعياً تماماً فهناك إثنتان من الأنا تعرفان مقدار ما تنطويان عليه من التصدّع تلتزم إحداهما بالأخرى وأنا أتصوَّر هذا على هذه الصورة إذا لم يكن له بدٌّ على الإطلاق من أن يكون حباً وليس مجرّد شأن عادي وهما مقيدان أحدهما إلى الآخر بحيث يكون الواحد علة الآخر إذ يشعران إنهما يتغيران فيتحوّلان إلى ما هو عظيم ويسبحان في الهواء مثل النقاب. عندئذ يكون من الصعب إلى حدٍّ فائق ألّا يقوم المرء بحركات خاطئة وإن ظلّ يقوم بالحركات الصائبة زمناً طويلاً. فمن الصعب أن يحسّ المرء في الدنيا بما هو صحيح! ففي صدد المواجهة التامة لحكم عام مسبق لا يكاد يكون هناك بدٌّ من التحذلق. وهذا هو على وجه الخصوص ما أردت أن أقوله لك آخر الأمر. لقد تملّقتني كثيراً يا ديوتيما حين وعدتني بإمكانية أن أكون واحداً من كبار الملائكة مع كلّ التواضع كما سوف ترين في الحال. ذلك لأنّ البشر لا يكونون مفعمين بالحب كلّ الحبّ إلا حين يكونون موضوعيين كلّ الموضوعية ـ وهذا أمر يكاد يماثل كونهم لاشخصيِّين إذ لا يكوّنون أيضاً إحساساً وشعوراً

وفكراً بصورة كاملة إلا في هذه الحالة. وكل العناصر التي تُكوّن الإنسان عناصر لطيفة إذ ينزع بعضها إلى بعض والإنسان وحده هو الذي لا يكون كذلك وإذاً فالوقوع في الحبّ بلا حدود شيء ربّما لا تريدينه أبداً. . . !».

وكان قد حاول أن يقول هذا بأسلوب بعيد عن الاحتفالية قدر الإمكان بل أشعل لفافة جديدة من أجل التحكّم في تعبير الوجه وكذلك تناولت ديوتيما لفافة قدَّمها إليها بدافع الحرج واتخذت مظهراً تعبيرياً متحدياً على سبيل المزاح ونفثت الدخان في الهواء إظهاراً لاستقلاليتها إذ لم تكن قد فهمته كلّ الفهم. غير أن هذا أحدث أثره فيها بمجموعه من حيث كونه حدثاً بصورة حية حقاً حتى أن إبن عمها قال لها كلّ هذا دفعة واحدة في هذه الحجرة على وجه الخصوص حيث كانا وحدهما ولم يكلّف نفسه في هذا الصدد أدنى جهد عادي لكي يتناول يدها أو يلامس شعرها على الرغم من إنهما كانا يشعران بالجاذبية التي كان الجسمان يمارسانها كلٌ على الآخر في هذا الحيّز الضيّق مثل تيار مغناطيسي ـ وقالت في نفسها: «والآن إذا كان؟ ـ ولكنَّ ماذا كان في وسع المرء أن يفعل على وجه الإطلاق في هذه الحجرة؟ ونظرت حواليها أتتصرف كالعاهرة؟ ولكنَّ كيف يفعل المرء هذا؟ فلو أنّها انتحبت؟ والنحيب كلمة من كلمات بنات المدارس خطرت ببالها فجأة. فلو أنّها فعلت فجأة ما يطالب به أن تخلع ثيابها وأن تضع ذراعيها حول كتفيه وأن تغنّي ماذا تغنّي؟ أتعزف على الجُنُك؟ ونظرت إليه وهي تبتسم وبدا لها مثل أخ غير مهذّب يستطيع المرء في صحبته أن يفعل ما يشاء وابتسم أولريش أيضاً غير أن ابتسامته كانت مثل نافذة مسدودة ذلك لأنّه بعد أن استكان لإغراء الخوض في هذا الحديث مع ديوتيما لم يشعر من جراء هذا إلا بالعار ومع ذلك فقد كان يلوح لها في هذا السياق شيء من إمكانية أن تحبّ هذا الرجل وبدا لها ذلك مثلما كانت الموسيقى الحديثة في نظرها فهي غير مُرضية على الإطلاق غير

twitter @baghdad_library

أنّها مفعمة باختلاف مثير في النوعية. وعلى الرغم من أنّها كانت تفترض أنّها تدرك مع ذلك بالطبع أكثر مِمّا يدركه هو نفسه فقد أخذت ساقاها وهي واقفة قبالته يلتهبان في الباطن حتى بلغ ذلك منها أنّها قالت لابن عمها فجأة مع إيماءة توحي بأن الحديث طال أكثر مِمّا ينبغي «صديقي العزيز نحن نمارس شيئاً غير ممكن على الإطلاق فلتبق هنا وحدك لحظة أخرى وسوف أخرج قبلك لأعود للظهور أمام ضيوفنا.

[١٠٢]

صراع وغرام في بيت فيشل

كانت جيردا تنتظر عبثاً زيارة أولريش وكان قد نسي في الحقيقة هذا الوعد أو تذكّره في لحظات كان يزمع فيها شيئاً آخر.

وقالت السيّدة كليمنتينا حين غمغم المدير فيشل متبرماً: «دعيه! فقد كنّا فيما مضى في منزلة حسنة عنده أما الآن فيبدو أنّه قد أخذه الغرور. وعندما تبحثين عنه تزيدين الأمور سوءاً فأنت مفرطة في قلّة البراعة في ذلك».

وكانت جيردا في شوق إلى الصديق القديم وكانت ترغب في قدومه وتعلّم أنّها خليقة أن تستمرّ في الرغبة فيه لو جاء ولم تكن قد جربت بعدُ شيئاً على الرغم من أعوامها الثلاثة والعشرين سوى السيّد جلانتس الذي خطبها على حذر وكان يؤازره في ذلك أبوها وأصدقاؤها الجرمانيون المسيحيون الذين لم يكونوا يبدون لها كالرجال بل كأولاد المدارس وكانت تسائل نفسها حين كانت تفكّر في أولريش: «لماذا لا يأتي أبداً؟» وكان يعدّ من المؤكّد في محيط أصدقائها أن العمل الموازي يعني انطلاق إبادة ثقافية للشعب الألماني وكانت تشعر بالخجل من إسهامه وكانت تود لو تسمع كيف ينظر إلى ذلك هو نفسه وتأمل أن يكون لديه أسباب تخفّف وطأة ذلك.

وقالت أمها لأبيها: «لقد فاتك الإرتباط بهذه القضيَّة وقد كانت خليقة أن تعود بالخير على جيردا وأن تقودها إلى أفكار أخرى فإن قدراً كبيراً من الناس يتردّدون على آل توتسي». وكان قد تبيّن أنّه فوّت فرصة تلبية دعوة الشريف وكان عليه أن يعاني.

twitter @baghdad_library

وكان الشباب الذين كانت جيردا تسميهم إخوة الفكرة قد استقروا في منزله استقراراً مثل خُطّاب بينيلوبي وكانوا يتشاورون فيما يجب على الإنسان الشاب والألماني أن يعمله في مواجهة العمل الموازي وكانت السيِّدة كليمنتينا تطالبه قائلة: «إن رجل المال يجب أن يظهر في ظروف معيَّنة روح الرجل الغني المشجع للفنون!» وذلك حين كان يؤكِّد توكيداً عنيفاً أنّه لن يقبل هانز زيبّ الزعيم الروحي لجيردا مقابل ماله معلماً خصوصياً لكي ينشأ هذا من جراء ذلك! ـ ذلك لأنّ الأمر كان على هذه الصورة. كان هزنز زيب الطالب الذي كان لا يبدو أمامه أدنى أمل في تمويل كان قد دخل البيت معلماً ونصب من نفسه طاغية عن طريق مجرّد التناقضات السائدة فيه وبات الآن يتشاور مع أصدقائه الذين باتوا أصدقاء جيردا عند آل فيشل في الكيفيَّة التي ينبغي للمرء أن ينقذ بها طبقة النبلاء الألمان التي سقطت عند ديوتيما (التي كان يقال عنها إنّها لا تفرّق بين الشخصيّات الداخلة في هذا العرق والغريبة عنه) في شبكة الفكر اليهودي. وإذا كان هذا أيضاً لا يناقش في حضور ليو فيشل في العادة إلا بموضوعية معيَّنة تنطوي على المراعاة فقد كان يسفر بعدُ عمّا يكفي من الكلمات والمبادئ التي كانت تحطّم أعصابه. وكان القوم يتولّاهم القلق من القيام بمثل هذه المحاولة التي لا بدّ أن تفضي إلى كارثة كاملة في قرن لم يقدّر له أن يخرج برموز كبرى. وكانت كلمات «ذو الأهميّة الفائقة» و«إعلاء شأن الجانب الإنساني» و«الإنسانية الحرّة» كانت هذه الكلمات وحدها تجعل النظارة الأنفية ترتعد على أنف فيشل كلّما سمعها وفي منزله كانت تترعرع مفاهيم مثل «فن التفكير الحيوي» و«صورة النمو الثقافي» و«تحليق الفعل» وانتهى إلى أنّه كان يعقد عنده كلّ أربعة عشر يوماً ساعة تصفية وألحّ على الاستفسار وتبيّن أنّه كان يُقرأ فيها ستيفان جورج بصورة مشتركة وبحث ليو فيشل عبثاً في موسوعته الكبرى القديمة عمَّن يكون هذا غير أن ما كان يبعث على استيائه وهو الليبرالي العتيق إلى أقصى حد هو أن هؤلاء الفتيان الأغرار

حين كانوا يتحدَّثون عن العمل الموازي كانوا يسمّون كلّ مستشاري الوزارات المساهمين فيه ورؤساء البنوك والعلماء «أقزاماً يتوكأون على العكازات» وأنّهم كانوا يزعمون في غطرسة أنّه ما عاد يوجد اليوم أفكار كبيرة أو أنّه ما عاد يوجد امرؤ يفهمها وأنّهم كانوا يرون في الإنسانية مجرّد كلمة طنانة ولم يكونوا يقدّرون بعدُ إلا الأمة أو «القوميّة» كما كانوا يسمّونها والتراث والتقاليد على أنّها شيء حقيقي.

وردت جيردا على أبيها حين عاتبها قائلة: «أنا لا أستطيع أن أتصوَّر شيئاً ضمن مفهوم الإنسانية يا أبي فما عاد لهذا اليوم مضمون. أما أمتي فهذه شيء متجسّد!».

عند ذلك بدأ ليو فيشل قائلاً: «أمتك؟» وهمّ أن يقول شيئاً عن الأنبياء الكبار وعن أبيه هو الذي كان محامياً في ترييستا وقاطعته جيردا قائلة: «أعرف ولكنَّ أمتي هي أمة الثقافة وعن هذه أتحدَّث».

عند ذلك قال الأب ليو: «سأظل أحبسك في حجرتك إلى أن تعودي إلى رشدك! وسوف أحظر البيت على أصدقائك فهؤلاء الناس غير مهذَّبين لا يفتأون يعالجون ضميرك بدلاً من أن يعملوا».

وردت جيردا قائلة: «أنا أعرف يا أبي كيف تفكِّر فأنتم معشر الشيوخ تعتقدون أنّه يحق لكم أن تجرّدونا من الكرامة لأنّكم تطعموننا فأنتم رأسماليو النظام الأبوي».

ولم يكن من النادر أن تحدّث أمثال هذه الأحاديث من جراء القلق الأبوي.

كان رب المنزل يسأل قائلاً: «ومن أين كنت تعتزمين أن تعيشي لو لم أكن رأسمالياً؟».

twitter @baghdad_library

وكانت جيردا تقطع الطريق في العادة على مثل هذا التوسيع للحديث بقولها: «لا أستطيع أن أعرف كلّ شيء غير أني أعرف أن العلماء والمربين والوعّاظ والسياسيين والآخرين من العاملين يوشكون أن يبتدعوا قيماً جديدة للإيمان!».

وربما بذل المدير فيشل مزيداً من الجهد ليسأل السؤال الساخر قائلاً: «وهؤلاء الوعاظ والسياسيون هم أنتم أنفسكم بلا ريب!». غير أنّه لم يكن يفعل ذلك إلا ليحتفظ بالكلمة الأخيرة وكان يسره في النهاية دائماً أن جيردا لم تكن تلاحظ كيف كان شيء ما غير عقلاني ينبهه بحكم العادة إلى التخوف من إمكان اضطراره إلى التراجع بل بلغ به الأمر أنّه أخذ في ختام أمثال هذه المباحثات يثني ثناء حذراً في بعض المرات على نظام العمل الموازي على سبيل المعارضة للجهود المعاكسة الجامحة في منزله ولكنَّ هذا كان لا يحدث إلا حين لا تكون كليمنتينا على مسمع منه.

أما ما كان يضفي على مقاومة جيردا لتحذيرات أبيها عناد الشهداء الهادئ وكان يتمّ الإحساس به من قبل ليو وكليمنتينا على نحو مختلط مشوّش فقد كان نفحة من المتعة البريئة تطيف في أرجاء هذا البيت. لقد كان يجري الحديث بين الشباب حول كثير من الأمور التي كان الآباء يسكتون عنها في مرارة بل إنَّ ما كانوا يسمّونه بالشعور الوطني هذا الانصهار لأَنَواتهم التي كانت لاتفتأ تتصارع في وحدة من صنع الأحلام كان يسمو بها مجتمع المواطنين الجرمان المسيحيين كان ينطوي في ذاته على النقيض من علاقات الحبّ الملتوّية عند الشيوخ على شيء من الشهوانيّة المجنّحة. وكانوا يزدرون في ذكاء الشيوخ «الرغبة» وهي الأكذوبة الملفّقة الخاصّة بمتعة الحياة الفظة كما كانوا يسمّونها غير أنّهم كانوا يكثرون من الحديث عن فرط الحساسية الشهوانيّة والسُعار إلى حدٍّ كان يؤدِّي في نفس المستمع ذي العلاقة على نحو عفوي ومن جراء التضادّ

إلى نشوء توجُّه مرهف نحو الشهوانيّة والسعار بل كان على ليو فيشل نفسه أن يسلّم بأن الحماسة الصريحة التي يتحدَّثون بها تجعل المستمعيِّن في بعض الأحيان يحسّون بجذور أفكارهم تبلغ حتى سيقانهم الأمر الذي كان يأخذه عليهم مع ذلك إذ كان يرى أنّه لا بدّ للمرء في مواجهة الأفكار الكبرى أن يحسّ بنظرة متسامية.

أما كليمنتينا فكانت تقول: «لا ينبغي لك أن تنبذ كلّ شيء ببساطة يا ليو!».

وبدأ يجادلها قائلاً: «كيف تستطيعين أن تقولي «المُلكية المجرّدة من الروح؟» أأنا مجرّد من الروح؟! ربّما كنتِ أنتِ كذلك في شطرٍ منك لأنّك تأخذين أحاديثهم مأخذ الجد!».

«أنت لا تفهم هذا يا ليو فهم يقصدونه بالمعنى المسيحي إنهم يريدون أن يتجاوزوا هذه الحياة ليصلوا إلى حياة أسمى على الأرض».

واحتج ليو قائلاً: «هذا ليس من المسيحية بل هو شيء مقلوب!».

وقالت كليمنتينا: «ربما كان الذين يرون الحقيقة الأصيلة ليسوا في النهاية هم الواقعيين بل أولئك الذين ينظرون باتجاه الداخل».

وقال فيشل: «هذا يضحكني!» غير أنّه كان على خطأ فقد كان يبكي في باطنه من العجز عن السيطرة على التغيّرات الفكريّة في محيطه.

وكان المدير فيشل يحسّ الآن أكثر مِمّا مضى بالحاجة إلى الهواء الطلق ولم يكن يشعر بعد الفراغ من العمل بالحاجة إلى الإسراع إلى البيت وحين كان يصل إلى بيته من مكتبه أثناء النهار كان يحبّ التجوال في إحدى حدائق المدينة قليلاً على الرغم من أن الوقت كان شتاءً وكان مايزال منذ أيام تدريبه يحبّ هذه الحدائق وكانت بلدية المدينة قد أمرت بطلاء المقاعد الحديدية

twitter @baghdad_library

القابلة للطيّ فيها من جديد في أواخر الخريف لسبب لم يستطع أن يتبيّنه وكانت تنتصب الآن في خضرة زاهية مستنداً بعضها إلى بعض على الطرقات المغطاة بالثلج وتثير الخيال بألوان الربيع. وكان ليو فيشل يستقر على مقعد من أمثال هذه المقاعد وحيداً تماماً متدثراً بملابسه على حافة ميدان لعب أو ممشى وينظر إلى راعيات الأطفال اللواتي كن يتملّين في صحبة ربائبهن من الأطفال من صحة الشتاء في الشمس. كانوا يلعبون «لعبة الشيطان» أو يقذفون بكرات صغيرة من الثلج وكانت البنات الصغيرات يفتحن عيونهن فتكبُر كعيون النساء وقال فيشل ـ واعجباً ـ إنّها هي بالذات تلك العيون التي تحدّث في طلعة المرأة الناضجة الجميلة الإنطباع الرائع الذي يوحي بأن لها عيوناً كعيون الأطفال. وكان مِمّا يبعث على ارتياحه أن يرمق اللاعبات من البنات الصغيرات اللواتي كان الحبّ في عيونهن مايزال سابحاً في بركة من الأساطير التي سوف يأتي بهن اللَقْلق منها فيما بعد وكان ينظر في بعض الأحيان إلى المربّيات أيضاً. وكان كثيراً ما تمتع في أيام شبابه بهذا المنظر حين كان مايزال يواجه واجهة معروضات الحياة وهو لا يملك مالاً فيدخل بل لم يكن يجوز له إلا أن يفكّر فيما سيقسِم له قدَرُه فيما بعد ولقد وجده هزيلاً كلّ الهزال ولبث لحظة من الزمان وهو مفعم بتوتر الشباب يحسب أنّه قد عاد يجلس بين الزعفران الأبيض والعشب الأخضر. وكان إذا عاد بعد ذلك وعيه بالواقع إلى إثبات الثلج وطلاء الحديد الأخضر فكّر في دخله وذلك ما كان غريباً غرابةً ليست بالقليلة. فالمال يهب الإستقلال. ولكنَّ في ذلك الوقت كان دخله يستنفد من أجل حاجات الأسرة والاحتياطيات التي يقتضيها العقل. وإذاً فلم يكن للمرء بدٌ ـ كما كان يرى ـ من أن يقوم بأي عمل آخر ليحصل على الإستقلال وربّما كان من قبيل ذلك استغلال ما يتمتَّع به المرء من المعرِّفة بسوق الأوراق المالية على نحو ما كان يفعل المدراء الرئيسيون. غير أن أمثال هذه الأفكار لم تكن تلمّ بليو إلا حين كان يرمق ببصره البنات وهن يلعبن وكان

يطرحها جانباً لأنّه لم يكن يشعر بحال من الأحوال أنّه يتمتَّع بالمزاج الذي تقتضيه المضاربة. كان وكيلاً في المصرف. وكان يحمل مجرّد لقب المدير ولم يكن له أمل في تجاوز ذلك. وكان يخوّف نفسه على الفور عن قصدٍ بفكرة مفادها أن ظهراً من ظهور العمّال المساكين كظهره هذا قد بات أكثر انحناءً من أن ينتصب محرراً نفسه ولم يكن يعلم أنّه كان يفكّر على هذا النحو لمجرّد ألّا يقيم عقبة لا يمكن تجاوزها بينه وبين الأطفال الجميلين وصغيرات الأوانس الجميلات اللواتي كنّ يمثلن بالنسبة إليه إغراء الحياة في هذه اللحظات في الحديقة. وذلك لأنّه كان حتى في مزاجه المنطوي على الاستياء الذي كان يحبسه عن الذهاب إلى البيت إنساناً متعلقاً بالعائلة لا سبيل إلى إصلاحه وكان خليقاً أن يبذل كلّ شيء لو كان في وسعه أن يحوّل المحيط الحميميّ في بيته إلى محيط من الملائكة يدور في فلك الأب الرب المدير باللقب.

وكذلك كان أولريش يحبّ الحدائق ويجوبها حين كان طريقه يسمح بذلك وهكذا اتفق أنّه التقى في هذا الوقت من جديد بفيشل وخطر ببال هذا على التوّ ما عاناه من جراء العمل الموازي في بيته وأظهر عدم رضاه لأنّ صديقه الشاب لا يقدّر دعوات أصدقائه القدامى على نحو أفضل الأمر الذي كان في وسعه أن يقتنع به اقتناعاً أكثر صدقاً إلى حدّ بعيد طالما أن الصداقات العابرة تتحوّل مع الزمن إلى صداقات قديمة شأنها في ذلك شأن أكثر الصداقات حرارة.

وزعم الصديق الشاب القديم أنّه يسره أعظم السرور حقاً أن يرى فيشل من جديد وشكا من عمله المضحك الذي حال بينه وبين ذلك حتى الآن.

وشكا فيشل من التطوّر الرديء للزمن ومن العمل الثقيل ومن انحلال الأخلاق بصورة مطلقة قائلاً إنّ كلّ شيء قد بات مفرطاً في المادية والتسرع.

twitter @baghdad_library

وردّ أولريش قائلاً: «على أنني كنت أحسب للتو أن في وسعي أن أحسدك! إذ لا بدّ لمهنة التاجر أن تكون مصحاً حقيقياً للنفس بلا ريب! فهي على الأقل المهنة الوحيدة ذات الأساس النظيف من الناحية النظرية!

وأكد فيشل قائلاً: «إنّها لكذلك!» وأضاف قائلاً باكتئاب: «فالتاجر يخدم التقدّم البشري ويكتفي بمنفعة مشروعة وهو يعاني في هذا السبيل معاناة مساوية لكلّ امرئ آخر على وجه الدقة!».

وكان أولريش قد أعرب عن استعداده لمرافقته إلى البيت. وحين وصلا إلى هناك وجدا جواً متوتراً إلى أقصى الحدود.

كان قد حضر كلّ الأصدقاء وكانت تدور رحى معركة كلامية كبرى. وكان هؤلاء الشباب مازالوا يتردّدون على المدرسة الثانوية أو كانوا في الدورات الأولى من المعاهد العليا وكان بعضهم يقوم بوظيفة التجار. أما كيف التأمت حلقتهم فذلك ما لم يكونوا يعرفونه بعدُ هم أنفسهم فكان منهم من تعرف على الآخر في روابط الطلاب القوميّة وآخرون في حركة الشباب الاشتراكية أو الكاثوليكية وفئة ثالثة ضمن طائفة من الجوالين.

ولا يخطئ المرء تماماً حين يفترض أن القاسم المشترك بينهم جميعاً كان ليو فيشل. وذلك أن الحركة الفكريّة تحتاج إذا كان يراد لها أن تدوم إلى جسم وكان هذا الجسم هو مسكن فيشل بالإضافة إلى حاجتها إلى العناية والى قدر معيَّن من ضبط حركة الاتصال عن طريق السيِّدة كليمنتينا وكان ينتمي إلى هذا المسكن جيردا والى جيردا كان ينتمي هانز زيب الطالب المتَّسم بلون البشرة غير النقي والروح الأكثر نقاءً وما كان القائدَ في الحقيقة لأنّ الشباب لا يعترفون بقائد غير أنّه كان يمثِّل العاطفة الجامحة الأقوى بينهم ولا ريب أنّهم كانوا يلتقون في أماكن أخرى أيضاً من حين إلى آخر وكانت نسوة أخريات

سوى جيردا يحللن ضيوفاً ولكنَّ بهذه الطريقة التي وصفت كان قد تمَّ إنشاء نواة الحركة.

وعلى الرغم من كلّ ذلك كان مِمّا يلفت النظر إلى حدٍّ بعيد المكان الذي جاء منه روح هؤلاء الشباب مثلما يكون ظهور مرض جديد أو مثلما يكون ظهور سلسلة طويلة من الإصابات في لعبة من ألعاب الحظ. فحين أخذت شمس المثالية الأوروبية القديمة تخبو وأخذ الفكر الأبيض يشيع الظلام أخذ كثير من المشاعر تتداوله يدٌ عن يدٍ أخرى ـ مشاعر من الفكر والله يعلم من أين سرقت أو أين اخترعت! ـ ويشكِّل هنا وهناك بحيرة النار المتراقصة علواً وانخفاضاً في مجتمع فكري صغير. وهكذا كان يدور الحديث في السنوات الأخيرة قبل أن تستخلص الحرب الكبرى النتيجة من ذلك في كثير من الأحيان عن الحبّ والمجتمع أيضاً وكان الشباب من المعادين للسامية في بيت مدير المصرف فيشل يحملون لواء الحبّ والمجتمع لشاملين لكلّ شيء فالمجتمع الحقّ يمثّل عمل شريعة داخلية وأعمق الشرائع وأبسطها وأكملها وأولها شريعة الحب. وكما سبقت ملاحظة ذلك فإن الحبّ لم يكن الحبّ بمعناه الوضيع الحسيّ لأنّ امتلاك الجسد اختراع يتّصل بحب المال وهو لا يحدث إلا مفعولاً تذكيرياً. وبالطبع فإن المرء لا يستطيع أن يحبّ كلّ إنسان ولكنّه يستطيع أن يكنّ الاحترام لشخصية كلّ امرئ مادام يتَّسم بالطموح على أنّه الإنسان الحقّ بالإضافة إلى المسؤولية الخاصّة البالغة الصرامة وهكذا كانوا يختصمون فيما بينهم على كلّ شيء باسم الحب.

ولكن جبهةٍ موحدة كانت قد تكوّنت في هذا اليوم ضد السيِّدة كليمنتينا التي كان يسرّها كثيراً أن تشعر بالشباب مرّة أخرى وكانت تسلّم في قرارة نفسها بأن الحبّ الزوجي له بالفعل كثير من الأمور المشتركة مع الفائدة الخاصّة برأس المال غير أنّها لم تكن تريد أن تسمح بحال من الأحوال بأن

twitter @baghdad_library

يحكم المرء على العمل الموازي لأنّ الآريين لا يكونون قادرين على إبداع. الرموز إلا حين يتّسمون بالنقاء فيما بينهم وكانت السيّدة كليمنتينا لا تقدر على أن تتماسك بعدُ إلا بشق النفس وكانت لجيردا بقع تحت وجنتيها حمرٌ مستديرة استدارة الدائرة من جراء غضبها على أمها التي لم يكن من الممكن حملها على مغادرة الحجرة. وحين كان ليو فيشل قد دخل المسكن مع أولريش أشارت إلى هانز زيب إشارات استعطاف خفيّة لكي يتوقّف وقال هانز على سبيل المصالحة: «إن البشر في عصرنا لا يُوفّقون على الإطلاق إلى إبداع شيء عظيم! ـ» إذ كان يعتقد بذلك أنّه ينتهي بالقضية إلى صيغة غير شخصيّة كان الناس قد ألفوها.

ولكن في هذه اللحظة تدخّلَ أولريش لسوء الحظ في الحوار وسأل هانز وهو ينطوي على شيء من القصد الخبيث ضد فيشل هل تراه لا يعتقد بالتقدّم بأية طريقة على الإطلاق؟

وردّ هانز قائلاً من موقف المتعالي: «التقدّم! هلّا قارنت فحسب نوعية البشر الذين كانوا هنا قبل مائة عام قبل أن يصل الأمر إلى التقدّم: بيتهوفن! غوته! نابليون! هيغل!».

وقال أولريش: «هُمّ! لقد كان الأخير قبل مائة عام رضيعاً على وجه التخصيص».

وقال المدير فيشل مسروراً: «هؤلاء السادة الفتيان يزدرون الدقة في الأرقام أما أولريش فلم يسترسل في ذلك وكان يعرف أن هانز زيب يزدريه ازدراءً قائماً على الغيرة غير أنّه كان قد تبقّى لديه هو نفسه بعض الأمور من أجل أصدقاء جيردا المدهشين ولذلك فقد وضع نفسه في محيطهم ومضى قائلاً: «لا سبيل إلى إنكار أننا نحقق في الفروع المتفرّقة من المقدرة البشريّة كثيراً من خطوات التقدّم إلى حدٍّ يجعلنا نحسّ إحساساً ممتازاً بأننا لا نستطيع

أن نواكبها. أوَليس من الممكن أن ينشأ عن ذلك أيضاً الشعور بأننا لم نشهد تقدماً؟ فالتقدّم آخر الأمر هو بلا ريب ما ينتجة عن كلّ الجهود بصورة مشتركة وفي وسع المرء في الحقيقة أن يقول بصورة مسبقة إنَّ التقدّم الحقيقي سيكون دائماً على وجه الخصوص هو ما لم يكن أحد يريده».

وتوجّهت ناصية هانز زيب الداكنة مثل قرن مرتعد نحوه وهو يقول: «ها أنتذا تقول هذا بنفسك حقاً: ما لم يكن أحد يريده! إنّه ذهاب وإياب كالنقنقة مئات من الطريق ولا طريق! وإذاً فهي الأفكار ولكنَّ ليس هناك من روح! ولا شخصية! فهذه الجملة تقفز جانباً وتلك الكلمة تقفز خارجة من الجملة والمجموع ما عاد كلّه ـ كما قال نيتشه هذا بصرف النظر تماماً عن أن حبّ الأنا عند نيتشه يعدّ أيضاً قيمة رديئة من قيم الحياة! فلتذكُر لي قيمة واحدة ثابتة أخيرة تتوجّه بموجبها أنت مثلاً في حياتك!».

واحتج المدير فيشل قائلاً: «على الفور مباشرة!» ولكنَّ أولريش سأل هانز: «أتراك لا تكون بالفعل أبداً على استعداد لأنّ تعيش بدون قيمة أخيرة؟».

وقال هانز: «كلا ولكنّي أسلّم لك بأنني لا بدّ أن أكون تعيساً من جراء ذلك».

وضحك أولريش قائلاً: «فليذهب بك الشيطان إنَّ كلّ ما نستطيعه يقوم على ألّا نكون مفرطين في الصرامة وننتظر المعرّفة القصوى. لقد فعلت العصور الوسطى هذا و ظلّت جاهلة».

وأجاب هانز زيب قائلاً: «هذه هي المسألة إلى حدٍّ بعيد فأنا أزعم أننا جاهليون!».

twitter @baghdad_library

«ولكن لا بدّ لك أن تسلّم بأن جهلنا يبدو متّسِماً بالسعادة وحافلاً بالتنويع إلى أقصى الحدود».

وانطلق من الحلفيّة صوت رزين يغمغم قائلاً: «حافل بالتنويع! معرّفة! تقدّم نسبي! هذه مفاهيم أسلوب التفكير الآلي في عصر أنهكته الرأسمالية! ولست في حاجة إلى أن أقول لك مزيداً على ذلك ـ».

وكذلك غمغم ليو فيشل وقد رأى على قدر ما كان يمكن فهمه أن أولريش يسترسل مع هؤلاء الفتيان غير المحترمين أكثر مِمّا ينبغي فتحصن وراء جريدة أخرجها من جيبه.

غير أن أولريش كان يسره ذلك الآن وسأل قائلاً: «أيعدّ البيت المدني الحديث ذو الحجرات الست الذي فيه حمام للخدم وآلة تنظيف بالتفريغ الهوائي الخ عندما يقارنه المرء بالبيوت القديمة والحجرات المرتفعة والجدران السميكة والقناطر الجميلة تقدماً أم لا؟».

وصرخ هانز زيب قائلاً: «كلا!».

وهل تعدّ الطائرة تقدماً في مقابل عربة البريد؟». وصرخ المدير فيشل قائلاً: «أجل!».

«والآلة ذات المحرك في مقابل العمل اليدوي؟»

وصرخ هانز: «العمل اليدوي!» وقال ليو: «الآن!»

وقال أولريش: «أنا أرى أن كلّ تقدّم يعدّ في الوقت نفسه تراجعاً فالتقدّم لا يوجد دائماً إلا بمعنى محدّد ولما كانت حياتنا بمجملها لا تنطوي على معنى فإنّها لا تنطوي على تقدّم في مجملها أيضاً».

وترك ليو فيشل الجريدة تنخفض وقال: «أترى أن من الأفضل أن تسافر عبر الأطلسي في ستة أيام أم أن تحتاج من أجل ذلك إلى ستة أسابيع!؟».

«أنا خليق أن أقول على ما يبدو إن التقدّم المطلق هو أن يستطيع المرء كلا الأمرين على أن شبابنا المسيحي يجادل في هذا أيضاً».

و ظلّت الندوة بغير حراك مثل قوس مشدود وكان أولريش قد شلّ الحوار غير أنه لم يَشلُلْ حبّ الهجوم ومضى قائلاً بهدوء: «ولكن المرء يستطيع أن يقول النقيض: إذا كانت حياتنا خطوات من التقدّم في التفاصيل كان لها معنى في التفاصيل ولكنَّ إذا وجد لها معنى ذات مرّة كالتضحية بالبشر للآلهة مثلاً أو حرق الساحرات أو ذر المساحيق على الشعر فإنَّ هذا يظلّ بلا ريب شعوراً بالحياة حافلاً بالمعنى وإن كانت التقاليد الأكثر سلامة والإنسانية يمثلن خطوات من التقدّم وإنما يتمثّل الخطأ في أن التقدّم يهدف دائماً إلى القضاء على الروح القديمة».

وسأل فيشل قائلاً: «أتراك تريد أن تقول إنّه ينبغي لنا أن نعود من جديد إلى القرابين البشريّة بعد أن تغلّبنا على ظلماتها الجديرة بالإشمئزاز؟».

وأجاب هانز زيب بدلاً من أولريش قائلاً: «ليس من الممكن على الإطلاق ادعاء الظلمة بهذا القدر من اليقين! فحين تلتهم أرنباً بريئاً يكون هذا من قبيل الظلمة ولكنَّ حين يأكل آكل لحوم البشر غريباً عن القبيلة بخشوع مع الطقوس الدينيّة فنحن لا نعرف ببساطة ما يحدث في داخله!».

وانضم إليه أولريش قائلاً: «لابد بالفعل أن يكون في العصور التي تمَّ التغلب عليها مستند ما وإلا لما كان قدر كبير من البشر المهذّبين متفقين معهم فيما مضى وربّما أمكن استغلال هذا من أجلنا بدون بذل تضحيات كبيرة وربّما كنّا مانزال نضحيّ اليوم من أجل ذلك على وجه الخصوص بكثير من البشر لأننا لم نطرح على أنفسنا أبداً مسألة التغلب الصحيح على خواطر البشريّة السابقة طرحاً واضحاً! إنَّ هذه علاقات يصعب التعبير عنها ولا تتّسم بالشفافية».

twitter @baghdad_library

وهنا انفجر الآن هانز زيب في وجه أولريش قائلاً: «ولكن بالنسبة إلى طريقتك في التفكير يظلّ الهدف المرغوب على الرغم من ذلك دائماً مجرّد مجموع إجمالي أو موازنة! أنت تؤمن إيماناً مماثلاً على وجه الخصوص لإيمان المدير فيشل بالتقدّم المدني إلا أنّك تعبّر عن هذا تعبيراً معقّداً أو شاذاً قدر الإمكان لكي لا يستطيع المرء أن يلحق بك إليه!» وكان هانز قد أعرب عن رأي أصدقائه وكان أولريش يبحث عن وجه جيردا وكان يريد أن يستجمع أفكاره على مهل مرّة أخرى بدون أن يلاحظ أن فيشل والشباب كانوا على استعداد مثله لكي ينقضّوا عليه مثلما ينقض بعضهم على بعض.

وقال من جديد: «ولكنك تطمح إلى هدف بلا ريب يا هانز؟».

ورد هانز زيب قائلاً بإيجاز: «هناك طموح في داخلي في قرارة نفسي».

«وهل سيبلغ هذا إلى ذلك؟» وكان ليو فيشل قد سمح لنفسه أن ينجرف إلى هذا السؤال التهكمي ودخل بذلك إلى جانب أولريش كما كان هؤلاء جميعاً قد فهموا ذلك حتى هو نفسه.

وأجاب هانز متجهماً: «هذا ما لا أعرفه!».

«لقد كان يجدر بك أن تؤدي امتحانك. إذاً لكان هذا تقدما!».

ولم يستطيع ليو فيشل أن يفوّت على نفسه هذا التعليق أيضاً إذ كانت الاستثارة قد بلغت منه مبلغاً عظيماً غير أن ما كان منها عن طريق صديقه لم يكن أقلّ مِمّا كان عن طريق الأشقياء غير الناضجين.

وفي هذه اللحظة طارت الحجرة في الهواء وألقت كليمنتينا إلى زوجها نظرة المتوسّل وحاولت جيردا أن تستبق هانز وكان هانز في صراع مع الكلمات التي استُفرِغَت شحنتُها آخر الأمر فوق أولريش وصاح به قائلاً: «ألا

فلتكن على يقين فأنت في الأساس لا تراودك فكرة واحدة لا يمكن أن تراود المدير فيشل!».

وانقض مع هذه الكلمات منطلقاً إلى الخارج واندفع أصدقاؤه بانحناءة غاضبة وراءه أما المدير فيشل الذي شعر بالصدمة من نظرات كليمنتينا فقد تظاهر بأنّه يفكّر متأخّراً في واجب رب المنزل وانسحب متذمراً إلى غرفة الإِنتظار لكي يدلي بكلمة طيّبة أخرى إلى الشباب. أما الحجرة فلم يتخلّف فيها إلا جيردا وأولريش والسيّدة كليمنتينا التي تنفست الصعداء بضع مرات إذ راق الجوّ الآن ثم نهضت وفوجىء أولريش إذ وجد نفسه وحيداً مع جيردا.

twitter @baghdad_library

[١٠٣]

الإغواء

كانت جيردا واضحة الانفعال حين خلا أحدهما إلى الآخر وأمسك بيدها وأخذ ذراعها يرتعش. وخلّصت نفسها وقالت: «أنت لا تعرف ماذا يعني هذا بالنسبة إلى هانز: إنّه هدف! وأنت تسخر من هذا وهذا رخيص بالطبع وأعتقد أن أفكارك قد باتت أكثر قذارة بعدُ!» وكانت قد بحثت عن كلمة قويّة قدر الإمكان وباتت تخاف ذلك الآن وكانت نفس أولريش تنازعه إلى الإمساك بيدها من جديد فشدّت ذراعها إليها وانطلق الكلام من فيها قائلة: «لا نريد مجرّد هذا على أيّة حال!» وأطلقت هذه الكلمات بازدراء شديد غير أن جسدها كان يترنّح.

وقال أولريش متهكماً: «أعرف إنَّ كلّ ما يحدث بينكما ينبغي أن يفي بأعلى المتطلّبات وهذا هو على وجه الخصوص ما يدفعني على نحو جارف إلى سلوك تميّزينه بالمودّة البالغة وأنت لا تصدّقين كم كنت أودّ لو تحدثت إليك من قبلُ حديثاً غير هذا الحديث!».

وردت جيردا على عجل قائلة: «لم تكن قط على غير هذه الصورة!».

وقال أولريش ببساطة متفحّصاً وجهها ببصره: «كنت دائم التقلب أيسرُّك أن أحدِّثك قليلاً عن الأحداث التي تدور في بيت ابنة عمي؟».

وكان يلاحظ في عينَيْ جيردا شيء واضح التميّز من الريبة التي وضعها فيها قربُ أولريش. ذلك لأنّها كانت تنتظر على أحرّ من الجمر هذا النبأ لكي تنقله إلى هانز وحاولت أن تخفي ذلك والتقط هذا صديقها بشيء من

الإرتياح. ومثلما يقوم الحيوان الذي يحسّ بالجوّ المتلبّد بتغيير طريقه بدأ بشيء آخر فسألها: «أمازلت تذكّرين قصّة القمر التي رويتها لك؟ فأنا أود أوّلاً أن أفضي إليك بشيء مشابه».

وردت جيردا بقولها: «سوف تكذب عليّ من جديد!».

«لن أكذب مادام ذلك ممكناً! لاريب أنّك تذكّرين المحاضرات التي سمعتِها كيف تسير الأمور في العالم حين يود المرء أن يعرف عن شيء أهو قانون أم لا؟ فإما أن يكون لدى المرء بصورة مسبقة أسبابه التي تقتضي أن يكون قانوناً كما يكون ذلك مثلاً في الفيزياء أو الكيمياء وإذا كانت الملاحظات لا تخرج قطّ بالقيمة المطلوبة فهي تقع مع ذلك حواليها وعلى مقربة منها بطريقة ما ويستخلصها المرء من ذلك بالتقدير وإما ألّا يكون لدى المرء هذه الأسباب كما يكثر ذلك جداً في الحياة ويكون في مواجهة ظاهرة لا يعرف حقّ المعرّفة أهي قانون أم مصادفة. هنالك تغدو القضيّة مشوّقة من الوجهة الإنسانية. ذلك لأنّ المرء يصنع أوّل الأمر في كومة ملاحظاته كومة من الأرقام ثم يقسمها إلى فقرات - أيُّ الأعداد تقع بين هذه القيمة وتلك وبين القيمة التالية والتي تليها؟ وهكذا دواليك ويشكّل من ذلك سلاسل التقسيم ويتبيّن أن تواتر الورود ينطوي على زيادة أو نقصان مطرّدين أو لا ينطوي عليهما ويحصل المرء على سلسلة ثابتة أو على دالّة تقسيمية ويقوم المرء بحساب مقدار التذبذب ومتوسّط الحيدان ومقداره لقيمة لا على التعيين والقيمة المركزية والقيمة القياسية والقيمة المتوسّطة والتشتت وهكذا دواليك. ويدرس بكلّ هذه المفاهيم الورود الحاصل».

وكان أولريش يسرد هذا بلهجة تفسيرية هادئة وكان من العسير أن يميّز المرء أكان هو نفسه يريد أن يفكّر في المرء أوّلاً أم كان يسرّه أن ينوّم جيردا بالعلم تنويماً مغناطيسياً وكانت جيردا قد نأت عنه وجلست في مقعد ذي

twitter @baghdad_library

مساند وهي مُكبّة إلى الأمام وكانت لها ثنية من الإجهاد بين حاجبيها وهي مطرقة إلى الأرض وعندما كان المرء يتحدَّث بمثل هذه الموضوعية مخاطباً طموح عقلها كان استياؤها ينكمش على وجل. كانت تشعر باليقين البسيط الذي كان وهب لها يضمحلّ مولّياً. كانت قد دخلت مدرسة ثانوية للعلوم والرياضيّات وترددت على الجامعة بضع دورات وكانت قد تطرقت إلى قدر كبير من المعرّفة الحديثة التي لم يكن من الممكن إيرادها بعدُ في الأطر القديمة للفكر الكلاسيكي والفكر ذي النزعة الإنسانية ومثل هذا المنهج التعليمي يخلف اليوم لدى الكثير من الشباب شعوراً بأنّه عاجز كلّ العجز بينما يواجههم العصر الحديث مواجهة العالم الجديد الذي لا يمكن معالجة أرضه بالوسائل القديمة ولم تكن تدري إلى أين يفضي هذا الذي قاله أولريش. كانت تصدّقه لأنَّها كانت تحبّه وكانت لا تصدّقه لأنّها كانت أصغر منه عشر سنين وكانت تنتمي إلى جيل آخر كان يبدو في نظر نفسه غير مستهلَك وكان كلا هذين يجري متداخلاً بعضه في بعض بطريقة بعيدة عن اليقين إلى أقصى حد بينما كان يتابع سرده عليها ومضى قائلاً: «وهناك الآن ملاحظات تبدو كالقانون الطبيعي على نحو دقيق دقّة الشعرة ولكنَّ بدون أن يكمن في أساسها شيء نستطيع أن ننظر إليه على أنّه متّسم بهذه السمة. وذلك أن انتظام سلاسل الأرقام الإحصائية يكون أحياناً في مثل ضخامة الأرقام الخاصّة بالقوانين. ولا ريب أنّك تعرفين هذه الأمثلة من أيّة محاضرة في علم الإجتماع ومثال ذلك إحصائيات الطلاق في أمريكا أو العلاقة بين ولادات الذكور والإناث التي تمثّل إحدى العلاقات العددية الأكثر ثباتاً. ثم إنك تعرفين أن هناك عدداً يظلّ في كل عام ثابتاً إلى حدٍّ بعيد من المكلّفين بخدمة العلم الذين يحاولون التخلّص من الخدمة بتشويه أنفسهم أو أنَّ الجزء ذاته تقريباً من البشر في أوروبا يقترفون الانتحار في كلّ عام وكذلك تحتفظ السرقة والاغتصاب والإفلاس على قدر ما أعلم بالتواتر ذاته تقريباً في كلّ عام...».

وهنا قامت مقاومة جيردا بمحاولة للاختراق فصاحت قائلة: «ترى هل تريد أن تشرح لي التقدّم؟!» واجتهدت أن تصبّ في هذا الحدس قدراً كبيراً حقاً من التهكم.

ورد أولريش بدون أن يسمح بمقاطعته قائلاً: «أجل بالطبع!» وهم يسمّون هذا تسمية غامضة إذ يسمّونه قانون العدد الكبير وهو يعني على وجه التقريب أن هذا يقتل نفسه لهذا السبب والآخر لذاك السبب ولكنَّ في حالة العدد الكبير جداً يبطل مفعول ما هو قائم على المصادفة وما هو شخصي من هذه الأسباب ويظل - أجل ولكنَّ ماذا يتبقّى؟ هذا هو ما أريد أن أسألك عنه. ذلك لأنّه يتبقّى كما ترين هذا الذي يسمّيه كلّ منا بحكم كونه غير مختص وببساطة تامة بالمعدل الوسطي وهو ما لا يعرف المرء عنه حقّ المعرّفة أبداً ماذا يكون. فدعيني أضيف إلى ذلك أن الناس قد حاولوا أن يفسروا هذا القانون الخاص بالأعداد الكبيرة تفسيراً منطقياً وصورياً أيّ أنّه أمر بديهيّ وزعموا على النقيض من ذلك أيضاً أنَّ هذا الاطّراد في الظواهر التي لا ترتبط فيما بينها ارتباطاً سببياً لا يمكن تفسيره مطلقاً بطريقة التفكير العادية وطرحوا بعدُ إلى جانب كثير من التحليلات الأخرى للظاهرة الإدعاء القائل إنَّ المسألة لا تتعلّق في هذا الصدد بمجرّد حوادث متفرقة بل تتعلّق أيضاً بقوانين مجهولة تعود إلى المجموع ولست أريد أن أربِكَكِ بالتفاصيل على أنني ما عدت أستحضرها في ذهني أيضاً ولكنَّ ما من شكّ في أن من المهمّ جداً عندي شخصيّاً أن أعرف هل يكمن وراء ذلك قوانين للمجتمع غير مفهومة أم أن الخصوصي ينشأ من خلال سخرية الطبيعة المتمثّلة في أنّه ما من شيء خصوصي يحدث وأن أسمى المعاني يثبت أنّهُ شيء يمكن الوصول إليه عن طريق المتوسّط الخاص بأعمق ألوان العبث ولا بدّ لهذه المعرّفة أو المعرّفة الأخرى أن يكون لهما بلا ريب تأثير حاسم على شعورنا بالحياة! ذلك لأنّه مهما يكن من أمر فإن كلّ الإمكانية

twitter @baghdad_library

الخاصّة بحياة منسّقة ترتكز على هذا القانون الخاص بالعدد الكبير على أيَّة حال ولو لم يوجد قانون التوازن هذا لما حدث شيء في عام واحد على حين لا يكون هناك شيء مؤكَّد في العام التالي وسوف تتعاقب المجاعات تعاقباً طاغياً ولسوف يفتقد الأطفال أو يكونون مفرطين في الكثرة ولسوف تتقلّب البشريّة بين إمكانيات الفردوسية والجحيمية من جانب آخر مرفرفةً كصغار الطير حين يدنو المرء من قفصها».

وسألت جيردا مترددة: «أهذا صحيح كله؟».

«هذا أمر يجب عليك أن تعرفيه بنفسك حقاً».

«بالطبع فأنا أعرف على وجه التفصيل بعضاً من ذلك أيضاً غير أني لا أعرف أكنت تقصد هذا من قبل حين كانوا يتنازعون. أما ما قلته عن التقدّم فكان يبدو كما لو كنت تريد مجرّد أن تغيظهم جميعاً».

«هذا ما ترينه دائماً. ولكنَّ ماذا نعرف عن ماهية تقدمنا لا شيء على الإطلاق! فهناك الكثير من الإمكانات المتَّصلة بالكيفية التي يمكن أن يكون عليها!».

«هذا ما تفكّر فيه دائماً! ولن تحاول أبداً أن تجيب عن سؤال كيف يجب أن يكون!».

«أنت شديدة التعجّل فلابد أن يكون هناك دائماً هدفٌ مثلٌ أعلى برنامج شيء مطلق. أما ما يخرج في النهاية فهو حل وسط بلا ريب متوسط! ألّا تقرّين أنّه سيكون من المتعب والمضحك على المدى البعيد أن يفعل المرء ويريد أقصى ما في وسعه لمجرّد أن يخرج من ذلك شيء متوسط؟».

وقد كان هذا في الأساس هو الحوار المماثل لذلك الذي كان مع ديوتيما ولم يكن يختلف إلا المظهر ولكنَّ كان في وسع المرء وراء ذلك أن يستطرد

من هذا الحديث إلى الحديث الآخر ولم يكن من المهمّ على ما يبدو أيضاً أيَّة امرأة كانت تجلس هنا. إنّه جسد كان يحرِّك أحداثاً معيَّنة بعد أن وضع في مجال مغناطيسي فكري متوفِّر! وكان أولريش يتأمّل جيردا التي لم تعطه جواباً عن السؤال الأخير. كانت تجلس ههنا ناحلةً وبين عينيها ثنية صغيرة تنمّ عن الاستياء وكذلك كان بروز الصدر الذي كان المرء يراه في تقويرة القميص النسائي يشكِّل ثنية مجوّفة عمودية وكان الذراعان والساقان طويلين رقيقين. ربيع فاتر يتخلله لهيب حدة الصيف السابقة لأوانها. هذا هو الإنطباع الذي كان يتلقاه ويتلقى معه في الوقت نفسه كلّ صدمة العناء الذي كان محتبساً في جسد فتيّ كهذا. واستحوذ عليه مزيج غريب من النفور والتجلّد إذ شعر فجأة أنّه يقترب من قرار حاسم اقتراباً أكثر مِمّا كان يحسب وأن هذه الفتاة الصبية مندوبة للإسهام في ذلك. وعلى غير إرادة منه شرع الآن بالفعل يتحدَّث عن الإنطباعات التي تلقّاها من خلال مَنْ يسمّون بالشباب في العمل الموازي وختم بالكلمات التي فاجأت جيردا قائلاً: «إنهم يتَّسمون هناك أيضاً بالتطرف الشديد ولا يحبّونني هناك أيضاً غير أنني أردّ على ذلك بالمثل ذلك لأنَّني متطرف أنا أيضاً على طريقتي وأنا أستطيع أن أحتمل كلّ نوع من الفوضى أكثر مِمّا أحتمل فوضى الفكر فأنا لا أود أن أرى الخواطر تتفتح فحسب بل أريد أن أراها مؤتلفة ولست أريد مجرّد دوران الفكرة بل أريد كثافة الفكرة أيضاً وهذا هو ما تلومين عليه أيتها الصديقة التي لا غنى عنها بقولك إنني لا أتحدَّث إلا عمّا يمكن أن يكون بدلاً من الحديث عمّا يجب أن يكون وأنا لا أخلط بين هذين الأمرين. ويبدو أن هذه هي السمة الأكثر مُجانبة للعصر الذي يمكن أن يتَّسم المرء بها: إذ ما من شيء يعدّ اليوم غريباً كالغرابة التي تقوم بين الصرامة والحياة الوجدانية ومن المؤسف أنَّ دقِتنا الآلية وصلت إلى مدى يبدو لنا عنده عدم الدقة الحيويّة بمثابة المكمّل الصحيح. فلماذا لا تريدين أن تفهميني؟ من الجائز أن تكوني غير مؤهلة لذلك البتة وإنه خطأ مني أن أبذل الجهد في تكدير

twitter @baghdad_library

صفو دماغك العصري. غير أني أسأل نفسي في الحقيقة يا جيردا في بعض الأحيان أوَلست على خطأ. فربما كان أولئك الذين لا أستطيع أن أحتملهم على وجه الخصوص هم الذين يفعلون ما كنت أريده ذات مرة. وربّما كانوا يفعلون هذا على نحو خاطئ إذ يفعلونه بطريقة حمقاً فهذا يجري إلى هناك والآخر إلى هناك وكلٌ منهم يحمل في دماغه فكرة يرى أنّها هي الوحيدة في العالم وكل منهم يبدو في نظر نفسه ذكياً إلى حدٍّ رهيب وهم يعتقدون جميعاً أن العصر محكوم عليه بالعقم ولكنَّ ربّما كان الأمر معكوساً وكان كلّ منهم غبياً ولكنَّهم يعدّون مثمرين جميعاً. ويبدو أن كلّ حقيقة في هذه الأيام تخرج إلى الدنيا وهي متحللة إلى حقيقتين تعارض إحداهما الأخرى ويمكن أن يكون هذا أيضاً أسلوباً في الوصول إلى نتيجة متعالية على الجانب الشخصي! أما التوازن وهو مجموع التجارب فلا يعود ينشأ عندئذ في الفرد الذي يغدو أحادي النظرة إلى حدٍّ لا يطاق ولكنَّ المجموع يكون مثل مجتمع تجريبي. وبكلمة مختصرة كوني متوافقة مع رجل شيخ تدفعه وحدته أحياناً إلى ألوان من تجاوز الحدود!».

وردت جيردا على ذلك متجهّمة: «وأي شيء لم تقصصه عليّ حتى الآن! لماذا لا تكتب كتاباً حول نظرياتك فربما استطعت أن تساعد نفسك وإيّانا به؟».

وقال أولريش: «ولكن من أيّ سبيل يترتّب عليّ أن أكتب كتاباً؟! فلا ريب أن التي ولدتني أمٌ لا دواة!».

وكانت جيردا تفكّر هل يمكن لكتاب بقلم أولريش أن ينفع المرء حقاً؟ وكانت تبالغ في تقدير قوّة الكتاب شأن كلّ الشباب من أصدقائها وكان قد ساد السكون الكامل في المسكن منذ أن أخلد كلاهما إلى الصمت وبدا أن الزوجين فيشل غادرا المنزل وراء الضيوف الساخطين وأحسَّت جيردا بدنوّ

جسد الرجل الأقوى وكانت تحسّ به دائماً في مواجهة كلّ قناعاتها حين يكونان وحدهما وكانت تتمرّد على ذلك وأخذت ترتعد ولاحظ أولريش هذا ونهض ووضع يده على كتف جيردا الواهن وقال لها: «سأقترح عليك اقتراحاً يا جيردا لنفترض أن الأمور تسير في المجال الأخلاقي على نحو مماثل بالضبط لما يحدث في نظرية الغاز الحركية: كلّ شيء يطير متداخلاً بعضه في بعض دونما ضابط وكل شيء يفعل ما يريد. ولكنَّ عندما يقدِّر المرء نشوء شيء ليس له سبب إنَّ صح التعبير يكون هذا على وجه الخصوص هو ما ينشأ بالفعل! وهناك ضروب من التطابق تبعث على الاستغراب! فلنفترض إذاً أيضاً أن كمية محدَّدة من الأفكار تتطاير في الوقت الحاضر متداخلاً بعضها في بعض وأنّها تنتج أيَّة قيمة متوسّطة من القيم الأكثر احتمالاً وهذه تتحوّل ببطء وآلية شديدتين. وهذا هو ما يسمّى بالتقدّم أو الظرف التاريخي. غير أن الأهم هو أن المسألة في هذا الصدد لا تتوقَّف أبداً على حركتنا الشخصيّة المنفردة فنحن نستطيع أن نفكّر ونتصرّف يميناً ويساراً وعلى المستوى الأعلى والعميق وبالطريقة الحديثة أو القديمة وبطريقة غير متروّية أو متروية فهذا أمر لا أهمّية له البتة بالنسبة إلى القيمة المتوسّطة وهي وحدها التي تتمتَّع بالأهميّة لا نحن في نظر الرب والعالم!».

وكان في هذه الأثناء يهمّ أنَّ يطوّقها بذراعيه على الرغم من أنّه كان يشعر أن المسألة تكلِّفه شيئاً من المغالبة.

وانتاب جيردا الغضب وصاحت قائلة: «أنت تبدأ أوّل الأمر متروياً على الدوام ثم يخرج من ذلك القرقرة المألوفة تماماً قرقرة الديك!» وكان وجهها ساخناً فيه بقع مستديرة كالدائرة وكانت شفتاها تبدوان كأنّما تنضحان بالعرق ولكنَّ كان ثمة شيء ما جميل في تذمّرها وقالت: «إن هذا الذي تصطنعه من

twitter @baghdad_library

ذلك هو على وجه الخصوص ما لا نريده نحن!» هنالك لم يستطع أولريش أن يقاوم إغراء سؤالها بصوت خافت: «أيعدُّ الامتلاك قاتلاً؟».

وردت جيردا بصوت خافت مثله: «لست أريد أن أخوض معك في هذا الحديث!».

ومضى أولريش قائلاً: «لا فرق بين أن يكون هذا امتلاك إنسان أو امتلاك شيء فأنا أعرف هذا أيضاً يا جيردا. أنا أفهمك وأفهم هانز فهماً أكثر مِمّا تعتقدين. فماذا تريدين أنت وهانز؟ أفيديني!».

وصاحت جيردا قائلة بانتصار: «إذاً فاسمع: لا شيء! لا يستطيع المرء أن يعرف هذا غير أن أبي يقول دائماً: «يجب أن تكوني على بينة مِمّا تريدين وسترين أنّه عبث». كلّ شيء يكون عبثاً حين يستجليه المرء! وعندما نكون متعلقين لا ننتهي أبداً إلى عبارات مبتذلة! والآن ستعود إلى الاعتراض بشيء ما بعقلانيتك!».

وهزّ أولريش برأسه وسأل برقة وكأن هذا له بعدُ علاقة بالمسألة قائلاً: «وماذا كان شأن المظاهرة ضد الكونت لاينزدورف في الحقيقة؟».

وصاحت جيردا: «ويحك! إنك تتجسّس!».

«فلنفترض أني أتجسّس ولكنَّ قولي لي ذلك يا جيردا ومن ناحيتي فأنت تستطيعين أن تفترضي ذلك على طيِّب خاطر مني».

وانتاب جيردا الحرج: «ليس هناك شيء خصوصي بل هي مجرّد مظاهرة من مظاهرات الشباب الألماني وربّما كان هناك موكب عارض وصيحات استنكار. فالعمل الموازي أمر شائن!».

«لماذا!»

وهزّت جيردا بكتفيها.

وقال أولريش راجياً: «اقعدي من جديد بربّك! فأنت تبالغين في تقدير هذا فلنتحدث ذات مرّة بهدوء».

وامتثلت جيردا ومضى أولريش قائلاً: «استمعي أتراني أفهم وضعك: فأنت تقولين إنَّ الامتلاك يقتل وأنت تفكرين في هذا الصدد بالمال وبوالديك أوّلاً وهما بالطبع نفسان مقتولتان».

وقالت جيردا بحركة متكبّرة.

«إذاً فلنتحدث بدلاً من المال عن أيّ نوع كان من الملكية. الإنسان الذيَ يملك نفسه والإنسان الذي يملك قناعاته والإنسان الذي يسمح بأن يمتلك من قبل آخر أو من قبل عواطفه أو من قبل مجرّد عاداته أو من قبل أوجه نجاحه الإنسان الذي يريد أن يقهر شيئاً والإنسان الذي يريد شيئاً ما على وجه الإطلاق: كلّ هذا ترفضينه؟ أتريدين أن تكوني متجولة متجولة هائمة على وجهها كما سمى هذا هانز ذات مرّة إذا لم أكن مخطئاً باحثة عن معنى آخر ووجود آخر؟ أصحيح هذا؟».

«كل ما تقوله صحيح صحة جيّدة إلى حدٌ مخيف فالذكاء يستطيع أن يزيف الروح!».

«والذكاء ينتمي إلى مجموعة المُلكية؟ فهو يقيس ويزن ويقسّم ويجمع مثل مصرفي هرم؟ ولكنَّ ألم أسرد عليك اليوم قدراً كبيراً من الحكايات التي يتعلّق بها قدْرٌ من نفوسنا تعلقاً شديداً إلى حدٌ يستحق الملاحظة».

«هذه نفس باردة!»

أنتِ على الحقّ كلّ الحقّ يا جيردا وعلى هذا فأنا لا أحتاج بعد إلا إلى أن أقول لك لماذا أقف إلى جانب النفوس الباردة أو حتى إلى جانب المصرفيّين».

twitter @baghdad_library

«لأنك جبان!». ولاحظ أولريش أنّها كانت في أثناء كلامها تكشّر عن أسنانها مثل حيوان صغير في رعب قاتل.

ورد قائلاً: «أجل باسم الله غير أنّك إذا لم تكوني تنطوين على الثقة تجاهي فأنت تثقين على كلّ حال بشيء واحد وهو أنني أملك من الرجولة ما يكفي لقطع مانعة صواعق حتى عند أصغر إفريز ناتئ على جدار حين لا أكون متأكداً أن كلّ محاولات الهرب ستردني من جديد إلى أبي!».

وكانت جيردا ترفض أن تخوض في هذا الحديث مع أولريش منذ أن دار بينهما حديث مماثل وكانت المشاعر التي كان يجري الحديث عنها فيه تعود إليها والى هانز فحسب وكانت تخشى من تهكّم أولريش أكثر مِمّا تخشى موافقته التي تدعها أمامه بغير دفاع قبل أن تكون قد عرفت هل يمارس الإيمان أم التجديف. ومنذ هذه اللحظة التي فوجئت فيها من قبل بكلماته الكئيبة التي كان عليها الآن أن تتحمل نتائجها كان في وسع المرء أن يلاحظ بوضوح مقدار عنف زلزالها الداخلي غير أنَّ الأمر كان له بذلك شأن مماثل بالنسبة إلى أولريش أيضاً وكان من المستبعد عنده تماماً أن يجد سرور الفاسدين بسلطانه على الفتيات. ولم يكن ينظر إلى جيردا نظرة الجد. ولما كان هذا ينطوي على نفور فكري فقد كان في العادة يقول لها أشياء غير مستحبَّة ولكنَّه كان منذ بعض الوقت كلّما تجلّى لها في صورة محامي العالم تجلياً أكثر حيوية ازداد إثارة للعجب في انجذابه إلى الرغبة في الإفضاء بما في نفسه إليها والكشف عن دخيلته لها بدون ضغينة وبدون جمال أو في تأمّل دخيلتها وكأنّها عارية كحلزون الطريق. من أجل ذلك جعل ينظر في وجهها وقال: «لقد كان في وسعي أن أدع عينيّ تستقران بين وجنتيك مثلما تستقر السحب في السماء ولست أعرف أيسرّ السحب أن تستقر في السماء غير أني أعرف في النهاية قدرَ ما يعرف كلّ الهانزات اللحظات التي يمسك بنا الرب فيها مثل قفاز ويسحبنا

ببطء شديد فوق أصابعه! وأنت تستسهلين هذا فوق ما ينبغي وتشعرين بجانب سلبي في العالم الإيجابي الذي نعيش فيه ونزعمين بإيجاز أن العالم الإيجابي يعود إلى الآباء والشيوخ وأن عالم السلبي غير الواضح يعود إلى الشباب الجديد. على أنني لا أود على وجه الخصوص أن أكون جاسوس والديك يا عزيزتي جيردا غير أنني أذكرك أنّه في صدد الاختيار بين المصرفيّ والملّاك يكون لطبيعة مهنة المصرفي الأكثر واقعية شيء تعنيه أيضاً!».

وقالت جيردا بحدة: «هل تريد شاياً؟ هل تأذن لي أن أعدّ منزلنا لراحتك؟ ينبغي أن يكون بين يديك ابنة والدي التي لا شائبة فيها». وكانت قد تماسكت من جديد.

«فلنفترض أنّك سوف تتزوجين هانز».

«ولكنّي لا أريد الزواج منه أبدا!».

«لابد للمرء أن يكون له هدف ما كائناً ما كان فأنت لا تستطيعين على المدى البعيد أن تعيشي على التناقض مع والديك».

«سأخرج ذات مرّة من البيت وسأكون مستقلّة وسنظل أصدقاء!».

«غير أني أرجوك يا عزيزتي جيردا لنفترض أنّك ستكونين متزوّجة من هانز أو شيئاً مماثلاً فهذا الأمر لا يمكن تجنبّه حقاً إذا ما سار كلّ شيء على هذا المنوال. وأنت الآن تضعين لنفسك خطة حيال الكيفيَّة التي ستنظفين بها أسنانك في الصباح في هذه الحالة من الإعراض عن الدنيا وإذ يتلقَّى هانز فرض ضريبة عليه».

«أوَليس لي بدّ من معرّفة هذا».

«أما أبوك فسيقول نعم لو كان لديه تصوّر عن الأحوال المتَّصلة بالإعراض عن الدنيا فمن المؤسف أن البشر العاديين يعرفون كيف يختزنون التجارب غير

twitter @baghdad_library

العادية في سفينة حياتهم على عمق بالغ في البطن منها بحيث لا يذكرونها أبداً. ولكنَّ لنتناول مسألة أبسط: هل تراك ستطالبين هانز أن يكون مخلصاً لك؟ فالإخلاص يعود إلى عقدة الامتلاك! ومن الواجب أن يكون مِمّا يوافقك أن يضع هانز نفسه في المزاد لدى امرأة أخرى: أجل بل سيكون من الواجب عليك أن تحسّي بهذا على أنّه إخصاب لظرفك الخاص تبعاً للقوانين التي تحدثينها!».

وأجابت جيردا قائلة: «لا تظنّن بربك أننا لم نتحدث في أمثال هذه المسائل بأنفسنا! ولا يستطيع المرء أن يكون إنساناً جديداً بخطوة واحدة. ولكنَّ من البورجوازية أن يتَّخذ المرء من ذلك حجة علينا!».

«إن والدك يطالبك في الحقيقة بشيء يختلف كلّ الاختلاف عمّا تعتقدين بل إنّه لا يزعم حتى أنّه أكثر براعة في هذه المسائل منك ومن هانز. إنّه يقول ببساطة إنّه لا يفهم ما تعملين ولكنَّه يعرف أن القوّة مسألة معقولة جداً وهو يعتقد أنّها تنطوي على العقل أكثر منك ومنه ومن هانز معاً. فلو أنّه عرض الآن على هانز المال لكي يكمّل دراساته أخيراً بدون أيّة هموم؟ ولو أنّه وعده بعد فترة اختبار بزوال السلبية المبدئية حقاً هذا إذا لم يعده بالزواج؟ ولا يربط بذلك إلا شرطاً مؤدّاه أن يتجنّب إلى ختام فترة الاختبار كلّ احتكاك بينكما كلّ احتكاك على الإطلاق أيّ أن يتجنّب أيضاً ذلك الاحتكاك الذي يقوم بينكما الآن؟!».

«وبهذا قبلت؟!»

«لقد أردت أن أشرح لك والدك فهو يمثّل ربوبية متجهّمة ذات تفوّق رهيب وهو يعتقد أن المال خليق أن يصل بهانز إلى حيث يريده أن يكون إلى عقل الواقع. فهو يرى أن هانز ذا الدخل الشهري المحدود لا يمكن أن يكون أحمق حماقة لا حدود لها أكثر من هذا. ولكنَّ ربّما كان أبوك خيالياً وأنا

معجب به قدر إعجابي بأنصاف الحلول والمتوسِّطات والجفاف والأعداد الميتة وأنا لا أؤمن بالعفريت غير أني لو فعلت لتصوَّرته المدرِّب الذي يستحث السماء على الأعمال ذات الأرقام القياسية. ولقد وعدته أن ألحّ عليك في ألّا يبقى شيء من أوهامك إلا أن يكون ـ الواقع ذاته».

ولم يكن أولريش ينطوي في هذا الصدد على ضمير سليم بحال من الأحوال. وكانت جيردا واقفة أمامه وهي تلتهب وفي عينيها كانت الدموع وكان الغضب في طبقات بعضها فوق بعض وكان قد تهيأ الطريق لها ولهانز دفعة واحدة. ولكنَّ أكان أولريش قد خانها أم أراد أن يساعدهما؟ لم تكن تعرف ذلك وكان يظهر أن كلا الأمرين مناسب لشقائهما على قدر ما هو مناسب لسعادتهما. وكانت تسيء الظن به فيما كانت عليه من الاختلاط والتشويش. وكانت تحسّ بحرارة أنّه إنسان قريب إليها في أقدس الأمور إلا أنّه يأبى أن يظهر ذلك فحسب.

وأضاف قائلاً: «إن أباك يرغب بالطبع في سره أن أطلب يدك في هذه الأثناء وأن أوجهك إلى أفكار أخرى».

وقالت جيردا وهي تنبس بالكلمات بشق النفس: «هذا مستبعد!».

وكرَّر أولريش قائلاً بلطف: «هذا مستبعد فيما بيننا حقاً غير أن الأمور لا يمكن أن تمضي أيضاً على نحو ما كانت تسير عليه حتى الآن فلقد ذهبت إلى مدى أبعد مِمّا ينبغي». وحاول أن يبتسم. وكان في هذا الصدد بغيضاً إلى نفسه إلى أقصى الحدود ولم يكن يريد هذا كلّه في الواقع وكان يشعر بالتردد في هذه النفس وازدرى نفسه لأنَّها أثارت فيه القسوة.

وفي الثانية نفسها نظرت إليه جيردا بعينين تنطويان على الفزع وباتت فجأة جميلة كالنار حين يدنو المرء منها أكثر مِمّا ينبغي كان بغير صورة تقريباً بل مجرّد حرارة تشلّ الإرادة.

twitter @baghdad_library

وقال مقترحاً: «ينبغي لك أن تأتي إليّ ذات مرة. فههنا لا يستطيع المرء أن يتحدَّث كما يشاء». وكان فراغ اللامبالاة الرجولية يتدفق من عينيه.

وقالت جيردا رافضة: «كلا». غير أنّها أعرضت ببصرها. وكان أولريش يرى وهو محزون شخص الفتاة الصبية الثقيل الأنفاس الذي لا جمال فيه ولا دمامة ماثلاً أمامه ـ وكأنّها ما كانت لترتفع أمامه من جديد إلا من خلال هذا الإعراض بالعينين: وتنهّد بعمق وإخلاص مطلق.

[١٠٤]

راشيل وسليمان على درب الحرب

وكان يمارس العمل في خضمّ المهمات العليا في بيت توتسي وفي غمار الأفكار التي كانت تتجمّع هناك إنسان ماكر رشيق متحمِّس غير ألمانيّ ومع ذلك فقد كانت راشيل هذه الوصيفة الصغيرة مثل موسيقى موزار مدونةً لوصيفة. كانت تفتح المدخل وتقف وذراعاها نصف مفتوحين على أهبة الإستعداد لتتلقى المعطف لدى الاستقبال. وكان أولريش يود في بعض الأحيان لو يعرف أكانت تحيط علماً بصلته بآل توتسي على وجه الإطلاق وكان يحاول أن ينظر في عينيها غير أن عيني راشيل كانتا إما أن تعرضا جانباً وإما أن تواجها عينيه مثل بقعتين عمياوين من المخمل. وكان يعتقد أنّه يتذكّر أن نظرتها حين لقيته أوّل مرّة كانت مختلفة ولاحظ في بعض المرات أن زوجاً من العيون كان يهاجر في مثل هذه المناسبة من ركن مظلم من أركان حجرة الإنتظار مثل محارتين بيضاوين كبيرتين إلى راشيل. وكانت هاتان عيني سليمان ولكنَّ مسألة هل كان من الجائز أن يكون هذا الغلام علة تحفّظ راشيل كان يجاب عنها إجابة غير حاسمة بأن راشيل كانت لا ترد على نظرته على النحو ذاته وكانت تنكفئ على نفسها في سكون بمجرّد أن يبلّغ الزائر عن مقدمه.

وكانت الحقيقة أكثر رومانسية مِمّا كان الفضول يستطيع أن يحدسه. ومنذ أن أتيح لشبهات سليمان العنيدة أن تورط ظاهرة آرنهايم المشرقة في تصرّفات مشبوهة وعانى إعجاب راشيل الطفولي بديوتيما من هذا التغيير أيضاً كان

twitter @baghdad_library

يتجمَّع في نفس أولريش كلّ ما كانت تنطوي عليه من الحاجة العاطفية إلى حسن التصرّف والحب الذي يقوم بالخدمة ولما كانت بعد أن استيقنت من سليمان أنّه لا بدّ للمرء أن يسهر على الأحداث في هذا البيت، تصغي بنشاط لدى الأبواب وفي أثناء الخدمة وقد استرقت السمع أيضاً إلى شيء من حوار رئيس القسم توتسي وزوجته فإنَّ الوضع المتَّسم بالعداوة في شطر منه وبالحب في شطر آخر والذي كان ينطوي عليه قلب أولريش بينما ديوتيما وآرنهايم لم يبق غريباً عليها وكان ينسجم كلّ الانسجام مع شعورها الخاص تجاه السيِّدة التي لم تكن تدري شيئاً وهو ذلك الشعور المتأرجح بين الثورة والندم. وكانت تذكُّر الآن أيضاً على نحو حسن جداً أنّها لاحظت منذ عهد بعيد أن أولريش كان يرغب منها في شيء ولم يكن يدور في خلدها أنّها يمكن أن تروق له وكانت ماتفتأ تعلّق الأمل حقاً ـ منذ أن طردت وكانت تريد أن تظهر لذويها في غاليسيا إلى أيّ مدى يمكن أن تصل على الرغم من ذلك ـ على هدف رئيسي على إرث غير متوقَّع على اكتشاف أن الطفل المُبعَد يعود إلى نبلاء وعلى فرصة إنقاذها حياة أمير. غير أنّها لم تصل أبداً إلى الإمكانية البسيطة وهي أن تحظى بإعجاب سيِّد يتردّد على سيّدتها وأن تُتخذ عشيقة من قبله أو حتى أن تتزوجه. من أجل ذلك كانت تتَّخذ أهبتها فحسب لكي تسدي إلى أولريش خدمة جُلّى.

وكانت هي وسليمان اللذين بعثا بالدعوة إلى الجنرال بعد أن عرفا أن أولريش على صداقة معه. ولا ريب أن هذا حدث أيضاً لأنّ هذين لم يكن لهما بدٌ أن يدفعا عجلة الأمور إلى الحركة وكان الجنرال يبدو لهما شخصيّة ملائمة لذلك إلى حدٍّ بالغ بعد القصّة التمهيدية كلّها. ولكنَّ لما كانت راشيل تتصرف على أساس تفاهم خفيّ موسوم بسمة خادمات المنازل مع أولريش لم يكن من الممكن تجنّب أن ينشأ بينها وبينه وهو من كانت تسهر على حركاته فترقبُها بفضول ذلك التطابق الطاغي إلى كانت كلّ حركات شفتيه وعينيه وأصابعه التي كانت تُلاحَظ في الخفاء يتحوّلن عن طريقه إلى ممثّلين كانت تتعلّق بهم بعاطفة

الإنسان الذي يرى وجوده المتواضع معروضاً على مسرح كبير. وكانت كلّما لاحظت على نحو أكثر توكيداً أن هذه العلاقة المتبادلة كانت تضغط على صدرها بعنف لم يكن يقلّ عمّا يفعله ثوب ضيّق حين يقعد المرء القرفصاء تلقاء ثقب المفتاح بدت في نظر نفسها أكثر فساداً لأنَّها لم تكن تقاوم مراودة سليمان في الوقت نفسه مقاومة أكثر حزماً. وكان هذا هو السبب المشهور جداً عند أولريش والذي كانت من أجله تقاوم فضوله بالعاطفة المتهيبة التي تجعلها تظهر في صورة الخادم النموذجية ذات التربية الحسنة.

وعبثاً كان أولريش يسائل نفسه لماذا يبلغ هذا المخلوق الذي هيّأته الطبيعة للعبث اللطيف من العفة ما يجعل المرء يكاد يضطر إلى الاعتقاد بالجموح المنطوي على البرود وهو ذلك الذي ليس من النادر كلّ الندرة أن يعثر عليه لدى النساء المتّسمات بالرقة. على أن تفكيره اتّخذ منحى آخر بلا ريب وربّما انتابه شيء من خيبة الأمل أيضاً حين لاحظ ذات يوم مشهداً مفاجئاً. كان آرنهايم قد أقبل لتوّه. وكان سليمان قد قعد القرفصاء في حجرة الانتظار. وكانت راشيل قد انسحبت بسرعة بالغة كشأنها دائماً. غير أن أولريش استغل لحظة الإضطراب الناجمة عن دخول آرنهايم لكي يعود أدراجه ويستخرج منديل جيب من معطفه وكان الضوء قد عاد إلى الانطفاء ولكنَّ سليمان كان مايزال حاضراً ولم يعرف أن أولريش الذي كان يغشّيه ظلُّ إطاره كان قد فتح الباب من أجل التضليل فحسب ثم رده وكأنّه قد غادر حجرة الانتظار. ونهض على حذر وأخرج بأسلوب احتفالي من تحت صديريّه زهرة كبيرة وكانت زهرة سوسن جميلة بيضاء تأملها سليمان ثم تحرّك على رؤوس أصابع قدميه ماراً بالمطبخ. على أن أولريش الذي كان يعلم أين تقع حجرة راشيل تعقّبه بهدوء ورأى ما حدث. وتوقف سليمان أمام الباب وضغط الزهرة

twitter @baghdad_library

هناك على شفتيه ثم غرسها على الإبزيم بينما كان يحني ساقها من أجل ذلك مرّتين على عجل ويحشر نهايتها في ثقب المفتاح.

وكان من العسير على المرء أن يسحب هذه السوسنة في الطريق بدون أن يلاحظه أحد ويخفيها من أجل راشيل. وكانت راشيل تعرف كيف تقدر أمثال هذه الألوان من الإهتمام. أما أن تضبط وتُسرَّح فكان هذا مماثلاً عندها لموت ويوم الحساب. من أجل ذلك كان يثقل عليها حقاً أن تضطر إلى أن تأخذ حذرها في كلّ مكان من سليمان حيثما وقفت وأنى ذهبت. وكان قلّما يسرّها أن يقرصها في ساقها إذ ينجم لها فجأة من مخبأٍ ما بدون أن يكون من حقها أن تصرخ غير أنّه لم يكن مِمّا يظلّ عديم الأثر عليها أن يكون ثمة مخلوق يزجي إليها ألوان الإهتمام تحت وطأة الخطر ويتجسس على كلّ خطوة من قبلها معانياً أشدّ التضحيات ويختبر شخصيتها في المواقف الصعبة. وكان هذا القرد الصغير يدخل شيئاً من السرعة في هذه القضيَّة التي كانت تبدو لها عبثية وخطيرة. كذلك كانت تشعر راشيل وكانت في بعض الأحيان تحسّ خلافاً لمبادئها تماماً وفي غمرة كلّ التوقعات المتضاربة التي كانت تملأ رأسها بالحاجة الآثمة إلى أن تسغل ذات مرّة أوّلاً وبإسراف حقيقي شفتي إبن ملك الزنج المكتنزتين اللتين تنتظرانها في كلّ مكان من أجل شفتيها المخلوقتين لعمل الخادم مهما يترتّب على ذلك من أمر خطير على المدى البعيد.

وذات يوم وجّه سليمان إليها السؤال قائلاً ألديها الشجاعة. وكان آرنهايم في صحبة ديوتيما وبعض أصدقائها مدة يومين في الجبال ولم يصطحبه. وكانت الطباخة تقضي إجازة مدتها أربع وعشرون ساعة. وكان رئيس القسم توتسي يتناول طعامه في المطعم. وكانت راشيل قد حدثت سليمان عن آثار اللفافات التي عثرت عليها في حجرتها. أما سؤال ديوتيما ماذا تظن الصغيرة

بذلك فقد أجيب عنه من قبل هذه ومن قبله بصورة متماسكة عن طريق التكهّن بأن شيئاً ما يجري في المجمع وهو يتطلب أيضاً نشاطاً متصاعداً من أيّ نوع كان وحين سأل سليمان ألديها الشجاعة كان قد أنبأ بأنّه يريد أن يخطب من سيِّده الوثائق التي تثبت نسبه الرفيع ولم تكن راشيل تعتقد بصحة هذه الوثائق غير أن كلّ التعقيدات المغرية من حولها كانت قد أثارت في نفسها الحاجة التي لا يمكن مدافعتها والمتمثِّلة في وجوب أن يحدث شيء ما. وتم الإتفاق بينهما على أن تظل محتفظة بغطاء رأسها النسائي الأبيض ومريلة الوصيفة حين يأخذها سليمان ويصحبها إلى الفندق لكي يبدو الأمر وكأنّها مكلَّفة بمهمة من قبل أسيادها وحين خرجا إلى الشارع الآن تصاعدت من وراء مريلة الصديري أوّل الأمر حرارة قائظة بلغ منها أن العينين لم تريا شيئاً من جرّاء الدخان غير أن سليمان استوقف عربة بجرأة وكان يملك في الأيام الأخيرة كثيراً من المال إذ كان آرنهايم كثيراً ما يغلب عليه الشرود الشديد. هنالك استجمعت راشيل شجاعتها أمام الناس جميعاً وصعدت إلى العربة وكأنّ مهمّتها ومهنتها أن تتنزّه في العربة مع زنجي صغير. وكانت الشوارع وقت الضحى تتطاير أمام ناظريهما مسوحةً بيضاً بمن فيها من المتسكعين أولي الأناقة الذين كانت هذه الشوارع تخصّهم بوجه مشروع بينما كانت راشيل تعود إلى الانفعال كما يكون الأمر في حالة السرقة. وكانت تحاول الاتكاء الصحيح في العربة مثلما كانت تلاحظ ذلك على ديوتيما ولكنَّ كانت حركةٌ مؤرجحة مختلطة تتغلغل فيها من الأعلى ومن الأسفل حيثما كانت تلامس الأرائك. وكانت العربة مغلقة وكان سليمان يستغلّ وضعها المتكئ إلى الوراء لكي يضغط وسادتي الختم العريضتين في فمّه على شفتيها. وقد كان في وسع المرء بلا ريب أن يلاحظ ذلك من خلال النوافذ ولكنَّ العربة كانت تطير وكان إحساس يذكّر بالغليان الخفيف لسائل فوّاح العبير ينسكب من الوسائد المنجّدة المتأرجحة في ظهر راشيل.

twitter @baghdad_library

ولم يفوّت الزنجي على نفسه فرصة التوقف أمام الفندق وابتسم خدم الفندق بأكمامهم الحريرية السود وصُديرياتهم الخضر ابتسامة الساخرين حين خرجت راشيل من العربة. ونظر البوّاب نظرة المستطلع من خلال الباب الزجاجي بينما كان سليمان يقوم بالدفع واعتقدت راشيل أن بلاط الشارع يلين تحت قدميها ومع ذلك فقد بدا لها بعد ذلك أنّه لا بدّ أن سليمان كان يتمتّع بنفوذ كبير في الفندق إذ لم يستوقفها أحد بينما كانا يخطوان عبر قاعة الأعمدة الهائلة وكان يجلس في القاعة بعض السادة وهم يتابعون راشيل بنظراتهم من مقاعد النادي وانتابها الحياء الشديد من جديد ولكنّها صعدت الدرج بعد ذلك وإذا هي تلاحظ الكثير من الخادمات اللواتي كن في ثياب سود مثلها ولهن أغطية رأس نسائية بيض إلا أنهن كن أقلّ زخرفاً في لباسهن. هنالك لم يكن يدور في خلدها إلا أنّها باحث يضل طريقه في جريدة مجهولة وربّما كان لها خطرها وهي تصطدم بالبشر أوّل مرة.

وبعد ذلك رأت راشيل أوّل مرّة في حياتها حجرات الإقامة في فندق من فنادق النبلاء وعمد سليمان أوّل الأمر إلى إغلاق كلّ الأبواب ثم شعر بضرورة أن يقبّل صديقته مراراً وكانت القبلات التي تبودلت في الفترة الأخيرة تنطوي على شيء من لهيب قبلات الأطفال كانت أقرب إلى أن تكون ألواناً من شد الأزر منها إلى أن تكون ألواناً من الإضعاف الخطير. والآن أيضاً لم يكن يبدو لسليمان لدى الخلوة الأولى في حجرة مقفلة شيء أكثر إلحاحاً من أن يغلق هذه الحجرة إغلاقاً أكثر رومانسية وترك الستائر ذات الشرائح الأفقية تسقط فينطبق بعضها على بعض وسدّ ثقوب المفاتيح المفضية إلى الخارج وانتاب الانفعال راشيل نفسها من جراء هذه التمهيدات إلى حدٍّ ما كان يتيح لها أن تفكّر في شيء آخر سوى جرأتها والعار الذي ينطوي عليه الإكتشاف المحتمل.

ثم اقتيدت من قبل سليمان إلى خزائن آرنهايم وحقائبه وكانت مفتوحة كلّها إلا واحدة. وإذاً فقد كان من الواضح أن السر لا يمكن أن يكون مخبوءاً

إلا في هذه وانتزع الزنجي مفاتيح الحقائف المفتوحة وجرّبها فلم تعمل وكان سليمان في هذه الأثناء يثرثر بغير انقطاع وكان فمه ينطلق بكلّ مخزونه من الجمال والأمراء ومراسلات آرنهايم وشبهاته الخفيّة واستعار من راشيل دبوس شعرها وحاول أن يشكّل به فتّاحة أقفال وحين لم يسفر هذا عن نتيجة انتزع كلّ المفاتيح من الخزائن وخزانة منصة النوم ونشرها أمام ركبتيه وقعد القرفصاء مطرقاً أمامها وأخذ لنفسه فترة من الراحة لينتهي إلى قرار جديد وقال لراشيل وهو يحك جبهته: «ها أنتِذي ترين كيف يختبئ مني! ولكنّي أستطيع أن أظهر لك كلّ شيء آخر أيضاً بالقدر ذاته من البراعة».

ولذلك كان يبسط الثروة المربكة من حقائب آرنهايم وخزائنه ببساطة بين يدي راشيل التي كانت تقعد القرفصاء على الأرض وتنظر جامدة العينين إلى هذه الصور نظرة الفضول ويداها معقودتان بين ركبتيها. كانت الملابس الحميمة لرجل أفسدته أكثر المتع إرهافاً شيئاً لم تره من قبل ولا ريب أن سيّدها المحترم لم يكن رديء الثياب غير أنّه لم يكن يملك المال من أجل أكثر مبتكرات صانعي الثياب والملابس الداخلية ومنتجي الترف وترف الرحلات إرهافاً ولا كان يجد حاجة إلى ذلك. وحتى السيِّدة الموقَّرة لم تكن تملك إلا ما يقلّ مدىً بعيداً عن أمثال هذه الأشياء المنطوية على الفساد وتدليل النفس ذات الرقة النسائية والصعبة الإستعمال مثل هذا الرجل الغني إلى حدٍّ لا يقدّر. وانبعث في نفس راشيل من جديد احترام ينطوي على الرعدة لهذا الغني وكان سليمان يتباهى بالإنطباع الهائل الذي أثاره بما يملك سيِّده. وكان ينتزع كلّ شيء فيخرجه ويدع الأجهزة تعمل ويشرح بحماسة كلّ الأسرار. وانتاب راشيل التعب شيئاً فشيئاً حين غمرها فجأة إحساس غريب. وتذكَّرت على وجه الدقة أن أشياء مماثلة كانت تظهر منذ بعض الوقت بلا ريب في ملابس ديوتيما الداخلية أيضاً ولم تكن بمثل هذه الكثرة ولا كانت نفيسة كهذه

twitter @baghdad_library

الموجودة هنا ولكنّها كانت إذا ما قورنت بالبساطة السابقة المماثلة لبساطة الدير أقرب بصورة حاسمة إلى المنظر الراهن منها إلى الماضي الصارم. وفي هذه اللحظة استحوذ على راشيل التكهن المعيب الموحي بأن العلاقة بين سيّدتها وآرنهايم يمكن أن تكون أقلّ اتساماً بالطابع الفكري مِمّا كانت تعتقد.

واحمرّت حتى جذور شعرها.

ولم تكن أفكارها قد لامست هذا المضمار منذ دخلت في خدمة ديوتيما. وكانت أبّهة جسد سيّدتها قد استحوذت على عقلها بدون أن تربط بذلك أفكاراً حول استعمال هذه الأبهة كالدواء في ظرفه وكان اغتباطها بالحياة في مجتمع الكبار من الناس عظيماً إلى حدٍّ يبلغ منه أنّه لم يكن يردّ في الحسبان خلال الوقت كلّه رجل على الإطلاق في صورة المخلوق الحقيقي من الجنس الآخر بالنسبة إلى راشيل التي يسهل إغواؤها إلى حدٍّ بعيد بل كان يردّ في مجرّد صورة أخرى من الوجهة الرومانسية والروائية. وكانت قد باتت في نبلها أكثر طفوليةً وعادت من جرائه كأنّما انتكست عائدة من جديد إلى فترة ما قبل النضج الجنسي حيث يتوقّد المرء تجاه العظمة الغريبة عنه في إيثار بعيد المدى. وبهذا وحده أيضاً كان من الممكن أن يفسّر أن ألاعيب سليمان التي كان يحق للطاهية أن تضحك منها بازدراء كانت تلقى منها تسامحاً وضعفاً مسحوراً. ولكنَّ حين كانت راشيل تقعد القرفصاء الآن على الأرض وهي تستعرض ببصرها فكرة العلاقة القائمة على الخيانة الزوجيّة بين آرنهايم وديوتيما جلية كأنّها في وضح النهار حدث في داخلها الانقلاب الذي كان قد تمَّ التمهيد له منذ عهد بعيد وهو انقلاب الانبعاث من حالة نفسية غير طبيعية إلى حالة العالم الجسديّة القائمة على سوء الظن.

وباتت بضربة واحدة بعيدة عن الرومانسية كلّ البعد ساخطة بعض السخط وباتت جسداً حاراً يرى أن الخادم أيضاً يمكن أن تصل ذات يوم إلى حقها

وكان سليمان يقعد القرفصاء إلى جانبها أمام مستودع سلعه وكان قد جمع كلّ ما استحوذ على إعجابها وحاول أن يدسّه هدية في جيب مريلة راشيل وهو ما لم يكن مفرطاً في الكثرة. ثم إنّه وثب الآن قائماً وعالج بمدية جيب الحقيبة المقفلة مرّة أخرى على عجل وأعرب وهو مهتاج أنّه يريد أن يدخر مبلغاً كبيراً من أجل السفر قبل أن يعود آرنهايم ـ إذ كان العفريت المجنون يعرف كيف يتصوّر في أمور المال معرّفة ليست بالطفولية أبداً ـ وأن يهرب مع راشيل غير أنّه لم يكن له بدّ أن يحصل على أوراقه قبل ذلك.

ونهضت راشيل الجاثية قائمة وأفرغت جيوبها بحزم من كلّ الهدايا المحشورة فيها وقالت: «كفى هذراً! فما عاد لديّ مزيد من الوقت في أيّ ساعة نحن الآن؟» وكان صوتها قد بات الآن أكثر عمقاً ومسحت على مريلتها تسوّيها وأصلحت وضع القبعة النسائية وشعر سليمان على الفور أنّها نبذت لعبته وباتت مرّة واحدة أكبر سناً مِمّا كان هو عليه ولكنَّ قبل أن يستطيع المقاومة أعطته راشيل قبلة الوداع وكانت شفتاها لا ترتجفان كشأنهما في العادة بل كانتا تضغطان بثقلهما على ثمرة وجهه الندية وهي تحني رأس سلميان الأقصر قامة إلى الوراء في هذه الأثناء وتشبثت به وقتاً بلغ من طوله أنّه كاد يختنق وكان سليمان يتخبّط وحين تحرر كان يشعر كأن غلاماً أشدّ منه قوّة غَطَسه تحت الماء ولم يكن يريد في اللحظة الأولى سوى الانتقام لهذا الظلم البغيض ولكنَّ راشيل كانت قد مرقت من خلال الباب وكانت النظرة التي ظلَّت تلحق بها وحدها غاضبة في البداية حقاً كسهم تشتعل مقدَّمته غير أنّه واصل الاشتعال متحوّلاً في النهاية إلى رماد ليّن ورفع سليمان مُلكَ سيِّده عن الأرض ليعيده إلى حيث كان وكان قد بات شاباً يرغب في كسب شيء لم يكن بعيد المتناول بحال من الأحوال.

twitter @baghdad_library

الفهرس

نوع من التمهيد ٥

ما يُلاحَظ أنّه لا يُفضي إلى شيء ٧

منزل الرجل بلا صفاتٍ ومسكنه ١١

وكذلك يمكن للرجل بلا صفات أن يكون له أب ذو صفات ١٤

إذا كان هناك روح خاصة بالواقع

فلا بدَّ أن يكون هناك روح خاصة بالممكن أيضاً ١٨

أولْريش ٢٢

ليونا أو تحويلٌ منظوريّ ٢٧

في حالة ضَعْفٍ يتَّخذ أولريش عشيقة جديدة ٣٣

كاكانيا ٤١

المحاولة الأولى من محاولاتٍ ثلاث للتحوُّلِ إلى رجلٍ له شأنه ٤٨

المحاولة الثانية. بوادر أخلاقٍ للرجل بلا صفات ٥٠

أهمُّ المحاولات ٥٣

السيِّدة التي ظفر أولريش بحبها بعد حديث في الرياضة والتصوّف ٥٨

حصان سباق عبقري ينضج معرِّفةً كونه رجلاً بلا صفات ٦٢

أصدقاء الصبا ٦٨

انقلاب فكري ٧٨
مرض خفيّ من أمراض العصر ٨١
تأثير رجل بلا صفات على رجل ذي صفات ٨٧
في هذا الوقت كانت قضيَّة موز بروجر تشغل الجمهور. ١٠٠
تنبيه خطيّ وفرصة للظفر بصفات وتنافس بين اعتلائين للعرش ١١٤
ملامسة الحقيقة على الرغم من افتقاد الصفات يتصرَّف
أولريش بحزم وعزم وحماسة متَّقدة ١٢١
الاختراع الحقيقي للعمل الموازي من قبل الكونت لا يْنزْدورف ١٢٧
العمل الموازي يتمثَّل في صورة سيِّدة ذات نفوذ
وظرفٍ فكري لا يوصف على استعداد لابتلاع أولريش ١٣٤
التدخل الأوّل لرجل كبير ١٤١
المُلكية والثقافة صداقة ديوتيما مع الكونت ووظيفة الجمع بين مشاهير
الضيوف في وحدة الروح ١٤٥
آلام نفس متزوِّجة ١٥٣
الجمع بين الروح والاقتصاد. الرجل الذي يستطيع هذا يريد أن يستمتع
بسحر عصر الباروك في الثقافة النمساوية القديمة وبذلك تولّد فكرة
للعمل الموازي ١٦٠
ماهية فكرة عظيمة ومضمونها ١٦٥
فصل يستطيع ان يتجاوزه كلّ من ليس له مزاج خاص بالاشتغال
بالأفكار ١٦٧
تفسير حالة من حالات الوعي العادي وأشكالٌ مِن مقاطعتها ١٧٢

twitter @baghdad_library

أولْريش يسمع أصواتاً ١٧٨
لمن تعطي الحق؟ ١٨١
قصّة زوجة العمدة المنسيّة الفائقة الأهمّية ١٨٤
هجر بوناديا ١٩٢
شعاع ساخن وجدران باردة ١٩٥
المدير ليو فيشِل ومبدأ السبب غير الكافي ٢٠١
بفضل المبدأ المذكور يصبح العمل الموازي ملموساً
قبل أن يُعْرَف ما هو ٢٠٥
كاتب سياسيّ يسبِّب للكونت لاينزدورف
باختراع «العام النمساوي» متاعب كبيرة ٢٠٩
كلاريسّا وشياطينها ٢١٥
الرجل بلا صفات يتألّف من صفات بلا رجل ٢٢٥
رجل له كلّ الصفات غير أنّه لا يحفل بها القبض على أمير من أمراء
الفكر والعمل الموازي يحظى بأمين سرّ فخريّ له ٢٢٩
راحيل وديوتيما ٢٤٦
الاجتماع الكبير ٢٥٣
اللقاء الأوّل لأولريش بالرجل العظيم في تاريخ العالم لا يحدث شيء
غير معقول ولكنَّ ديوتيما طرحت ادعاءً مفاده أنَّ النمسا الحقيقية
هي العالم كله ٢٦٣
استئناف الإجتماع الكبير واختتامه أولريش يلقى إعجاباً لدى راحيل
وراحيل تلقاه لدى سليمان العمل الموازي يحظى بمنظَّمة وطيدة

الأركان ٢٧٠
لقاء صامت بين قِمَّتَيْ جبلين ٢٧٨
المُثُل والأخلاق أفضل الوسائل لسدّ الثغرة الكبيرة
التي يسمّونها الروح ٢٨٣
ما يكونه الجميع منفصلين يكونه آرنهايم في شخص واحد ٢٨٧
الأسباب الثلاثة لشهرة آرنهايم وسرّ المسألة برمّتها ٢٩١
بدايات التناقض بين الدبلوماسية القديمة والجديدة ٢٩٧
التطوّر اللاحق. رئيس القسم يقرّر استجلاء أمر شخصيّة آرنهايم ٣٠٤
بيت فيشل ٣١٠
رئيس القسم توتسي يكشف عن ثغرة في إدارة وزارته ٣١٩
موز بروجر يساق إلى سجن جديد ٣٢٤
أولريش يكشف عن رجعيَّته في حوار مع فالتر وكلاريسا ٣٢٧
سليمان وآرنهايم ٣٣٧
عمل مفعم بالحيويَّة في لجان العمل الموازي.
كلاريسا تكتب إلى الشريف وتقترح عاماً لنيتشه ٣٤٢
تقدّم كبير. ديوتيما تمرّ بتجارب غريبة مع جوهر الأفكار الكبرى ٣٤٨
العمل الموازي يثير الهواجس ولكن لا يوجد في تاريخ البشريّة
تراجع طوعي ٣٥٥
تأمّلات موز بروجر ٣٦١
نزهة في دولة الأخلاق المنطقيَّة ٣٧٢

twitter @baghdad_library

مثال المقالات الثلاث أو حُلم الحياة الدقيقة ٣٧٦
والأرض أيضاً وأولريش على وجه التحديد يدينان بالولاء
لطوباوية مذهب المقالات ٣٨١
بونادیا ترى الرؤيا ٣٩٧
الجنرال شتوم فون بوردفير يزور ديوتيما ٤١٢
من محاورات آرنهايم وديوتيما ٤١٥
بين أولريش وآرنهايم أمور ليست على ما يُرام ٤١٩
ديوتيما وأولريش ٤٢٧
استطراد: هل يجب على البشر أن يكونوا متوافقين مع جسدهم؟ ٤٣٨
ديوتيما وأولريش ـ تتمة ٤٤٢
كلاريسا تزور أولريش لتروي له قصة ٤٥٠
لجنة اتخاذ القرار الرئيسي بصدد الذكرى السبعينية
لحكم صاحب الجلالة تبدأ اجتماعاتها ٤٥٨
ابتسامة العلم الماكرة أو اللقاء المفصَّل الأوّل مع الشر ٤٦٦
جيردا ابنة ليوفيشِل ٤٧٦
القرن الرابع قبل الميلاد في مقابل العام ١٧٩٧ أولريش يتلقّى رسالة
من والده مراراً ٤٩٠
الجنرال شتوم فون بوردفير ينظر إلى زياراته لديوتيما
على أنّها تنويع جميل في الواجبات الوظيفية ٤٩٦
الكونت لاينزدورف يبدي تحفّظه ٥٠٠

آرنهايم صديقاً للصحفيين ٥٠٥
تحوُّلات ديوتيما ٥١٠
سليمان يحبّ ٥٢١
التعرف على الجنرال شتوم الذي يظهر فجأة في المجمع ٥٢٨
الكونت لاينزدورف يعرب عن رأيه في السياسة الواقعية
أولريش يؤسّس جمعيات ٥٣٨
كلاريسا تطالب بعام لأولريش ٥٤٦
ما يحدث مثله أو لماذا لا يخترع المرء التاريخ ٥٥٦
القول بأنَّ الحياة العادية أيضاً ذات طبيعة طوباوية ٥٦٥
سعي الجنرال شتوم إلى إدخال النظام على العقل المدني ٥٧٦
تاجر الملك واختلاط المصالح بين الروح والتجارة وكذلك:
كلّ الطرق إلى الفكر تنطلق من الروح ولكن ما من أحدٍ منها
يعود به إليها ٥٩٢
موز بروجر يرقص ٦١٢
الإرتباط بالأشياء الكبيرة ٦٢٠
يجب على المرء أن يساير عصره ٦٢٤
الإطاحة بعرش الإيديوقراطية ٦٣٤
المضاربة في الفكر على الهبوط والارتفاع ٦٤٠
من قواعد حياة الأغنياء ٦٥٤
صعوبة معالجة العقل المدني حتى عن طريق التربية البدنيّة ٦٥٩

twitter @baghdad_library

ليالي ديوتيما ٦٦٢
الكاتب الكبير نظرة من الخلف ٦٧١
الكاتب الكبير نظرة من الأمام ٦٧٧
طاقات كلاريسا الخفيّة ومهمّاتها ٦٨٢
حول دولة انهارت من جرّاء خطأ لغوي ٦٩٨
حول نصف الذكاء وشطره الآخر المثمر وحول تشابه عصرين
وحول الطبيعة اللطيفة للعمّة جين وعن العبث الذي يسمّونه
العصر الحديث ٧٠٨
الجنرال شتوم يقتحم المكتبة الوطنية ويجمع خبرات
حول أمناء المكتبة والعاملين فيها والنظام الثقافي ٧١٧
الأقرباء الأعداء ٧٢٦
صراع وغرام في بيت فيشل ٧٤٦
الإغواء ٧٦١
راشيل وسليمان على درب الحرب ٧٧٦
الفهرس ٧٨٥

روبرت موزيل روائي ومسرحي وكاتب مقالات نمساوي بارز، كان له أثر كبير في حركة الحداثة الأوروبية، ولاسيما على صعيد تجديد الشكل الروائي.

تلقى تعليمه في «معهد التربية العسكرية» الشهير في ميريش فايسْكيرشِن ثم دخل كلية الهندسة الميكانيكية في بْرونّ Brünn وتخرج مهندساً عام ١٩٠١. وعندما ضمت النازية الألمانية النمسا إليها عام ١٩٣٨ هاجر موزيل عن طريق إيطاليا إلى سويسرا حيث عاش في ظروف بائسة مادياً ومعنوياً حتى وفاته بالسكتة الدماغية.

نشر موزيل في عام ١٩٠٦ روايته الأولى «اضطرابات التلميذ تورْلِس» التي اقتبسها المخرج الشهير شلوندورف للسينما في منتصف السبعينيات.

إلا أن أسلوب موزيل الخاص لم يتبلور إلا في عام ١٩٢٤، عندما نشر المجموعة القصصية «ثلاث نساء» Drei Frauen التي تبدَّت فيها محاولاته التجريبية بغرض بلوغ الإيجاز الواضح تعبيراً عن أدقّ الحالات والمِحن التي يحتمل أن يتعرض لها البشر مع الطموح إلى تحقيق جمالية لغوية عالية. وهو ما تَجلى من ثم في إنجازه الأكبر رواية «رجل بلا صفات» Der mann ohne Eigenschaften التي استهلكت قرابة نصف عمره لتحقيقها، وبقيت مع ذلك غير مكتملة.

ISBN 978-284306188-2

9 782843 061882

twitter @baghdad_library